

سارة العسكر وأصدقاء الخيال

ثلاثية

د. عبدالرحيم درويش

مؤسسة يسطرون للطباعة والنشر والتوزيع



رئيس مجلس الإدارة

عماد سالم

المدير العام

أحمد فؤاد الهادي

مدير الإنتاج

أحمد عبد الحليم

الطبعة الثالثة
الكتاب : سارة العسكر وأصداء الخيال
المؤلف : د. عبدالرحيم درويش
تصنيف الكتاب : رواية
تصميم الغلاف : الفنان أحمد الرازقي
إخراج : أحمد عبد الحليم
المقاس ١٤ × ٢٠
رقم الإيداع : ٢٠١٦ / ١٣٣٤٣

العنوان : المكتبة والمطبعة : ٣ ش صفوت - محطة المطبعة شارع الملك فيصل - الجيزة

التليفون : ٠١٢٢٩٣٠٠٠٢٩ - ٠١١٥٧٧٦٠٠٥٢

Email : yastoron@gmail.com

موقعنا على الفيس بوك : مؤسسة يسطرون لطباعة وتوزيع الكتب

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

سارة العسكر

الحلقة الأولى

البداية

لا أدري إن كنت قد أحسست بسقوطي علي الأرض أم لا. لا أدري إن كنت قد شعرت بنفسي وأنا أقع علي الأرض أم أنني كنت قد فقدت الوعي وقتها. كل ما شعرت به أنني برغم الإعياء والتعب هممت أن أبتعد عن هذه القنبلة المسيلة للدموع والتي كادت ترتطم بوجهي. لحسن الحظ أن آخر ما تذكرته أنني التقتها بيدي وألقيتها بعيدا عني وعن كل من حولي وأنا أصرخ. ليتني ما سرت بهذه المظاهرة المدججة بآلاف الغاضبين. لا أدري أين سقطت بعد ذلك، ولكنني والحمد لله نجوت منها. لم تصبني في وجهي ولم تشج رأسي. برقت في ذهني صورة أمي وهي تصلي وتدعو لي دوما ألا يصيبني سوء وألا تسمع عني أخبارا سيئة.

لم أشعر بنفسي ولم أكد أحس بأي شئ من حولي منذ ساعات فلقد بح صوتي وغاب عقلي من هول ما شاهدت من اصطدام رجال الشرطة والجيش بالمتظاهرين. سمعت شابا حولي يتساءل: «لماذا يتعاملون معنا بهذه القسوة؟ لماذا لا يتعاملون مع أعدائنا بمثل هذه الطريقة؟ نحن لسنا أعداء. نحن أخوة في وطن واحد ومن حقنا أن نعبر عن رأينا. إننا علي صواب كما أننا قوة كبيرة تتكتل في مواجهتهم. إننا قوة كبيرة ونحن نسير جنبا إلي جنب وأكتافنا تتلاصق لنعبر عن سخطنا وغضبنا». كنت أهتف بحجارة غاضبة وبأعلي صوت مثل كل من كان حولي: «يسقط يسقط حكم العسكر».

أفقت وأنا بالمستشفى والدماء تنزف من ذراعي بغزارة. أحسست بثقل شديد أعلي رأسي. تذكرت أمي وتخيلتها وهي تبكي لما أصابني. ليتها لا تهتم لحالي وليتهم لا يخبرونها. ما أنا إلا فاشل في خضم هذه الحياة. فاشل فيك يا مصر وفاشل معك يا أمي. رأيت وجه أمي في خيالي ينظر إليّ وبيتسم.

هي أمي ومصر أمي أيضا. لا أدري لماذا خرجت في هذه المظاهرة. ليتني ما خرجت

الحقيقة أنني لم أهتم بالسياسة قط منذ زمن بعيد منذ أيام الجامعة تقريبا، ولن أهتم بالسياسة أبدا وخصوصا بعد ما أصابني اليوم. لن أقترّب قط من هؤلاء الغاضبين الذين يهدرون بأصواتهم ويبطشون بكل شيء أمامهم. لا أدري لماذا يعرضون أنفسهم للإصابة والقتل. كنت أعمل في أحد المصانع، وكنت أكسب والحياة تسير بخير وفي هدوء. لم تكن لي دعوة بمظاهرات ميدان التحرير ولا بمظاهرات ميدان مصطفى محمود بالمهندسين. أنا مالي بهذه الأمور؟ أنا مالي إن ظل مبارك رئيسا أو رحل كما يريدون، علي الرغم من أنني أحبه. المهم أن أعيش وأن أكل وأشرب أنا وأمي. نريد أن نعيش فقط. تذكرت وأنا أشعر بالدوار أن هذه المظاهرات كانت منذ فترة طويلة. رأسي تؤلّني. أفيق قليلا ثم أغيب عن الوعي. يبدو أنها كانت غلطة عمري عندما سرت بهذه المظاهرة. أحد الضباط يقترب مني وينظر إليّ بغضب ويقول: - نعم. هذا المجرم قذف القنبلة المسيلة للدموع نحوي ولقد أصابت عين المجند عيد عبد الباقي

كدت أن أموت من الخوف. نظرت إليّ الضابط في توسل وقلت في رعب: - والله ما رميت شيئا.

لم يتركني أكمل. قاطعني متسائلا بغضب:

- ناشط سياسي حضرتك؟

قرأت في عينيّه السخرية كما قرأت أنه يريد أن يضربني أيضا. يريد أن يصفعني. رفع يده بالفعل ليصفعني، ولكن ضابطا أعليّ منه رتبة أمسك بيده وقال:

- اهداً. الصحفيون في كل مكان بالمستشفى. أتريدهم أن يلتقطوا لك صورة ليفضحونا ويكتبوا تحت الصورة يسقط يسقط حكم العسكر. اكظم غيظك. سيخرج من المستشفى وسنستقبله خير استقبال عندنا. سنلتقيه وحدنا ونعرف عنه كل شيء.

خشيت عليّ نفسي وصحت وأنا أتألم مرددا بغير وعي: «يسقط يسقط حكم العسكر». مقولة كنا نقولها وكانت تعني لي الكثير فمعناها عندي كما عرفت بعد ذلك كان غير المعني الذي كان يقصده كل من كان يهتف بها. اقتربت مني صحيفة جميلة وسألتني: - ما اسمك؟

كان معها أحد المصورين الذين اقتربوا مني والتقطوا لي عشرات الصور. كان ضوء الكاميرا يضايقني ، ولكنني كنت أبتسم. ستري أُمي صوري في الجرائد. اقتربت مني إحدي كاميرات المحطات الفضائية. قلت للصحفية وأنا أتألم:

— عبدالله المصري

— ماذا تعمل؟

— أنا عامل بأحد مصانع سارة العسكر

كنت أبتسم لتطلع صورتني حلوة. اقتربت مني كاميرا التلفزيون، فلوححت رغم إعيائي الشديد وقلت متصنعا الجهل:

— أنا بخير يا أُمي يا بهية. اطمئني. أنا بخير والرئيس مبارك بخير. ومصر كلها ستكون بخير. للأسف زوبعة وستمر. الرئيس

مبارك سيحل كل شيء. بالروح بالدم نفديك يا مبارك

توقف عمل الكاميرا وتوقفت فلاشات المصورين. اقتربت مني الصحفية وقالت في تعجب:

— الرئيس مبارك

لم تكمل فلقد قاطعتها قائلاً:

— ماله؟ إياك أن تقولي قتلوه

أخذت أصوت وألطم. صحت قائلاً بصدق:

— لا يمكن أن يكونوا قد اغتالوه. صاحب النصر العظيم والضربة

الجوية الأولى. اليهود دخلوا البلد واغتالوه. أقاموا الدنيا عليه

وألبوا الشعب عليه. الله يرحمك يا مبارك. ليتهم قتلوني. أعلق

صورته في كل مكان في بيتنا. صورته في كل مكان في المصنع. لا. لا..

حرام. ليتهم قتلوني..

قاطعتني الصحفية وكل من حولي يضحكون:

— الرئيس مبارك تنحي عن الحكم

صرخت وصوتت قائلاً في لهفة وفزع:

— يا مصيبتني!! يا مصيبتك يا مصر!!

ابتسم الضابط للكلامي. أخذ يدلك ذراعي بحب ويقول في ود ظاهر:

— أصيل يا عبدالله يا مصري

سبحان الله. كان يريد أن يضربني منذ لحظات. سألت الصحفية في براءة:

- لا مؤاخذه يعني الرئيس مبارك بخير؟
- نعم اطمئن
- طيب ما معني أنه تنحي عن الحكم؟
- يعني تخلي عنه. تنازل عنه للجيش
- طيب. الجيش بخير؟ وماله. خير. فيك الخير يا ريس:
- اقتربت مني الصحفية وسألتنني
- لماذا كنت في المظاهرة إذا؟
- سرت مع الناس
- فقط؟
- فقط.
- ليس لك انتماءات سياسية؟
- أبدا
- كنت تهتف ضد العسكر
- نعم كنت أهتف ضد سارة العسكر وآل العسكر
- ماذا تقصد؟
- يا ست هانم كنت أهتف ضد سارة العسكر.
- سارة العسكر؟
- آه. أهتف ضدها وضد أهلها
- من سارة العسكر؟
- سارة محمد علي السيد العسكر. صاحبة مصانع سارة العسكر. الله
- يخرب بيتها كما خربت بيتي
- يعني أنت لست ضد الجيش؟
- أبدا
- لماذا كنت تهتف ضد العسكر
- يا سيدتي أنا أحب مصر وأحب الجيش. أنا كنت أهتف ضد سارة
- العسكر وأفعالها الشنيعة بي وبزملائي وكل من يعملون في المصنع.
- أنت مجنون.
- تركتني ومشت. تركني المصورون. اقترب مني الضابط واحتضنني
- وقبّلني زميله ذو الرتبة الأعلى. قال في حنان:
- وطني والله يا عبدالله

- تحيا مصر يا باشا. تحيا جمهورية مصر العربية
اغرورقت عيناي بالدموع. تأثر الضابطان. كادا أن يبكيّا. اقترب
مني أحدهم وقال:
- هل ستحكي لنا قصتك يا عبدالله؟
- نعم يا باشا. سأحكيها بالتفصيل
- ابتسم لي. صرخت من جديد بما أغضبه إذ قلت في حماسة:
- يسقط يسقط حكم العسكر. تسقط تسقط سارة العسكر.

الحلقة الثانية

لقاء ما قبل المحاكمة

أشعر بآلام مفاجئة تباغتني بعد أن انتصف الليل. مرت بذهني كل أحداث اليوم، كما مرت بذهني كل أحداث ما يزيد عن خمسين عاما مضت من حياتي كشريط سينمائي تتابع لقطاته ومشاهده. كنت أراه مذهبولا وكأنني لا أصدق. تمر لقطات في ذهني تجمع ما بين الطفولة والشباب المنصرم. أجد أيام الجامعة ثم التنقل في أعمال مختلفة. أراني في لحظات الحزن الكثيرة ولحظات السعادة المحدودة في حياتي. أراني أغرق في بحر الذكريات وتنتابني أمواج الماضي الكثيبة فأعلوها تارة، وتارة أخرى أجدها فوقني لتعلوني فأستسلم لتيارها الذي يخترق ليلي ويؤرق وحدتي ويسلبني لذة النوم هربا من الإحساس بالألم والقهر بعد أن صرخ الضابط في وجهي قائلا كلماته بعنف أفزعني فكدت أن أبلل سريري خوفا من تعبيرات وجهه الغاضبة. أزعم أنني بللت السرير فلقد فقدت قدرتي علي السيطرة علي نفسي.

لقد قالها في حزم وبشكل جعل فرائصي ترتعد. قالها صراحة: إياك أن تقولها ثانية. احذفها من ذهنك. سنذبح كل من يقول يسقط يسقط حكم العسكر. مفهوم أيها الغبي. نحن كل شئ في هذه البلدة. من له قيمة بدوننا؟ كل شئ بيدنا. الحرب والسلام. القوة والبطش. أنتم بدوننا لاشئ. بيدنا حياتكم أو موتكم. أين كنتم ونحن نحرس حدود الوطن؟ أين كنتم أيها الرعاع ونحن نضحي بأرواحنا من أجلكم؟ أين كنتم ونحن نقاسي الحر والبرد وأنتم في بيوتكم؟ أين

كنتم وأين كان من ينادي بسقوطنا ونحن نقاتل الأعداء ويقتلوننا؟
انفعاله أصابني برعب حقيقي. كدت أقف علي فراشي لأقدم له التحية
العسكرية ويدي اليميني مفرودة بجوار الجانب الأيمن من جبهتي. قلت
وأنا أتكئ علي رجلي التي تؤلني وأضرب الأرض بقوة برجلي الأخرى
- تمام يا افندم. تمام يا حضرة الضابط

خرج بعد أن أقسمت له بأني لن أقولها ثانية. أنا أصلا أقف
بالكاد. خرج في غضب هائل أخرسني وتركني والرعب يقتلني. سيقطع
رقبتي. لا. أنا أريد رقبتي. كنت أخاف من كلمة أقطع رقبتك. كانت
تقولها أمي إذا غضبت مني. كان يقولها معلمي إذا غضب مني. لا.
رأسي غالية علي جدا.

لم أستطع أن أرد عليه. كنت أود أن أقول له ما قاله أحد المتظاهرين
في غضب لما دفعه ضابط بشدة ليبعده: «لقد أصبتونا بالنكسة في حرب
الستة أيام. لم تستطيعوا مواصلة حرب رد الكرامة واكتفيتم بالسلام
المزعوم». والله ليس هذا كلامي بل كلام من كانوا يهتفون. وأنا مالي.
لن أدعه يقطع رقبتي. يبدو أنني كنت أحلم كما يبدو أن هذا
الحوار لم يحدث قط. تحسست ملابسي فوجدت أنني لم أبلل نفسي.
يا للمصيبة!! لن أتكلم بالسياسة ولا حتي مع نفسي. أمي تقول
دوما: يا بني نحن مساكين نمشي بجوار الحائط. لا. الحيطان لها
آذان. لو نستطيع أن نمشي داخل الحيطان لكان أفضل. لا نريد لأحد
أن يسمعنا أو يرانا. نكون في حالنا وهذا أفضل.

خمسون عاما أو أكثر مضت من حياتي كغمضة عين ولا أحس
بنفسي إلا كطفل صغير يجري تحت زخات المطر وهو راجع من
المدرسة يحمل حقيبة المدرسة التي عملتها له أمه من القماش لأنها لا
تستطيع أن تشتري له حقيبة من الجلد كباقي زملائه يذهب بها إلي
المدرسة. كان يصيب بفمه بعض قطرات يبتلعها ثم يبصقها. كنت ألهو
في التراب الذي تعجنه مياة المطر فيصير طينا يلوث قدمي وحذائي.
رأيتني وأنا أضع في جوربي المتهالك أطراف بنطلوني حتي لا تلوثه
قاذورات الشارع المتلطح بأثار أقدام الناس التي تهرب من وطأة المطر.
كنت أفرح بريح المطر وخياراته ونسمات هوائه. أعلم أنني سأنال
علقة من أمي، ولكنها سرعان ما ستسامحني وتقبلني وتغسلني في

الطشت الكبير الذي تملؤه بالماء الدافئ الذي تضعه في صفيحة السمن
علي الباجور الذي يعمل بالجاز.
أيام حلوة جميلة.

أيام كنا ننعم فيها بالهدوء وراحة البال مع أم فقيرة أرملة
ترك لها أزواجها بضعة شياطين من الذكور والإناث. تذكرت سمر
وقمر؛ هما أختاي. إحدهما كانت ترضع وكنت أحملها بين يديّ
حتى تنام وأمي تعمل لنا الفول النابت غذاؤنا الدائم ليلا ونهارا.
لا أدري لماذا برقت بذهني صورة طائرات كانت تمر ببيتنا ونحن صغار.
يبدو لأنني سمعت صوت طائرة تمر من علي المستشفى التي أرقد فيها.
تذكرت صوت أزيز الطائرات وأنا في حضن أُمِّي وهي مصابة بالهلع.
صرخت أختي الصغيرة. أطفأت أُمِّي لمبة الجاز. كان قلبها يدق
والخوف يملؤها. عمنا الصمت جميعا إلا أختي الصغيرة التي ازداد صراخها.
حاولت أُمِّي أن تهدئ من روعنا. مرت طائرة وأخري وثالثة
ورابعة. سمعت صوت زجاج نوافذ الجيران يتحطم. تعالي صوت
الطائرات وأزيزها. قالت أُمِّي بصوت يغشاه الخوف:

— ضعوا أيديكم علي آذانكم
أصوات الأبواب والنوافذ التي ترتطم ببعضها يخيفني ويزعجني.
بكيت فبكت شياطين أُمِّي. نظرت إليّ بعتاب وقالت:
— أنت الكبير وتبكي؟

ابتلعت دموعي وخبأت خوفها ونهضت. ازداد عدد الطائرات.
يعلو صوت الزجاج المتحطم. الحمد لله كنا نضع الكارتون في نوافذنا
وأبوابنا. لا نتحمل سعر الزجاج. نحن الفقراء يرضينا القليل. الحمد
لله. لو كان لدينا زجاج بالنوافذ والأبواب لتحطم.
احتضنتنا أُمْنَا وسمعنا نبضات قلبها. سألت أُمِّي والخوف يبدو
من عيني:

— ماذا يحدث يا أُمِّي؟
قالت مالم أفهمه وقتها:

— قامت الحرب يا عبدالله. الله ينصرك يا ناصر. الله يخرب بيت اليهود
نزّلنا كلنا تحت السرير كأننا نحتمي من الحرب. سمعت صوت
الراديو ينطلق بأغاني وطنية. نمنا وغطّنا رعبنا في مخبئنا. لا أدري

لماذا برقت في ذهني الآن صورة سارة العسكر في أول مرة رأيتهـا فيها.
لقد كانت النكسة ! !

الحلقة الثالثة

اللقاء والنكسة

مر أسبوع كامل علي أمي لم تجف فيه دموعها. كانت كل ليلة تبكي وتنوح كأنها فقدت عزيزا لديها. لم أكن قد بلغت السابعة قط. لم أكن أفهم سببا لبكائها. كانت تبكي في كل وقت. لمحتها تبكي حتي وهي تصلي. بكيت معها وانتظرتها إلي أن انتهت من صلاتها. ارتيمت في حضنها وبكيت أيضا. أكون في حالة بكاء مستمرة بسبب موت أبي؟ لقد مات أبي منذ زمان غير قريب. أنا لم أر والدي قط. قالت لي إنه قد مات وأنا لازلت جنينا في بطنها.

لم أكن أعرف أنها تبكي بسبب ظروف المعيشة الصعبة. نمنا ليلتين متتاليتين بدون عشاءنا المعتاد من الفول النابت. أتت لنا بقطعة حلاوة طحينية وزعتها علينا ولم تأكل. شعرت بالجوع يقرص بطنها ويبكيها. كانت أمي تتحمل دوما ولا تشتكي. سمعتها تقول لنفسها والدموع تترقرق في عينيها: «نتحمل أن نموت من الجوع ولا نتحمل أن يهزمنـا اليهود. كل فلوس البلد للحرب. طيب نتحمل ولكن تغلبنا إسرائيل؟ لا. حرام».

عدت لآلامي وأفقت لنفسي وأنا في المستشفى. استكملت حلمي السابق مع الضابط والذي بللت خلاله ملابسي عندما صرخ في وقلت: - يسقط يسقط حكم العسكر. وأين كنت عندما كانت أمي تبكي كل ليلة بسبب نكستكم؟ أين كنتم عندما كانت كل أموال البلد في جيوبكم؟ ماذا فعلتم بها؟ ها؟ جلبتم لنا العار والنكسة؟ لن أسامحكم بسبب دموع أمي ودموع آلاف الأمهات التي عميت عيونهن بسبب بكائهن علي أولادهن الذين ماتوا في الحرب وبسبب جحيم العار الذي سقطنا فيه.

لما أفقت عدت بذكرياتـي لأمي الحبيبة. سألتها وأنا أخفي وجهي بحضنها الدافئ:

- لماذا تبكين باستمرار يا أمي؟
- أبكي علي حال الدنيا.
- أتبكين لأن أبي قد مات؟
- تنهدت طويلا ثم مسحت علي شعري وقالت :
- أبوك مات من زمان وشبع موتا
- طيب لماذا تبكين؟ لا أريدك أن تبكي أبدا. أتمني لو أستطيع أن أمسح كل دموعك.
- قبلتني بحنان غامر لم أذق مثله قط وقالت لي في حزن وغضب :
- اليهود غلبونا
- اليهود؟ من اليهود؟
- اليهود. قصة طويلة. لن تعرفها يا عبدالله
- غلبونا؟ نغلبهم المرة القادمة. نجمع أولاد حارتنا وأولاد الحارات المجاورة ونضربهم..
- اليهود يغلبوننا في كل مرة. يا رب هل يغلبوننا لأنهم أكثر منا أم لأننا أضعف منهم؟
- لا. هم أقوى منا يغلبوننا دائما؟
- ربنا أقوى من الكل يا عبدالله. اليهود غلبوا ناصر. غلبونا كلنا... نحن العرب
- غلبها البكاء ثانية. لم تمسح دموعها إلا عندما سمعت صوت طرقات مهذبة رقيقة علي بابنا الخشبي الضعيف.
- دخلت فتاة صغيرة في مثل سني وسألتنني :
- خالتو أم عبدالله موجودة؟
- أصابتني المفاجأة في مقتل. الفتاة الصغيرة جميلة جدا. أشعر أنها لا تتكلم. إنها تغرد. إنها تتمايل كأغصان الأشجار عندما يداعبها النسيم. إنها تصب كلماتها في قلبي. في مثل سني، ولكنها نظيفة نضرة حلوة تنسكب في بنيانها كل علامات الرقة والنضج. إنها كما شعرت بها أنثي مكتملة الأنوثة علي الرغم من أنها في مثل سني تقريبا. ممثلة البنيان. ترتدي جوربا أبيض إلي ما فوق ركبتها، ساقاها بيرزان من تحت فتحة جيبة زرقاء ترتفع إلي ما فوق الركبة. صدمة المفاجأة لم تذهب عني إلا عندما وجدتنني أحاول أن أفتح

فمي منبهرا بالفتاة. فتحت فمي لأتكلم ولكنني لم أستطع أن أنطق بكلمة واحدة. ظلت واقفة علي الباب وهي مترددة برهة. لمحت وجهها الأبيض الجميل المشرب بحمرة لم أر مثلها قط. حمرة عز ودلال وجمال. خصلة من شعرها الذي يميل نحو الاصفرار تطايرت فكشفت عن جبهة ناصعة البياض. لمحت عينيها واستسلمت تماما لدهشتي.

هل أري تمثالا أم فتاة حقيقية؟! لم أرد ولم أستطع أن أرد. نسيت كل شيء إلا موضع عينيها وموضع شفثيها. لما رأته الفتاة صامتا كلوح خشبي أو كالباب الخشبي الذي تقف بجواره، كررت نفس السؤال مرة ثانية وأنا أغوص في بحار التعجب والدهشة لجمالها وهيئتها التي لم أر مثلها قط:

— خالتو أم عبدالله موجودة؟

لم أرد.

خرجت أمني قائلة في لهفة:

— أهلا سارة. أهلا حبيبتي. تفضلي

— ماما تحت

— هل أنزل لها؟

— لا. هي ستطلع لحضرتك.

— معها السيارة؟

— لا. جننا في تاكسي.

زغدتني أمني وأمرتني أن أنزل مع سارة لأحمل الحقائب التي أتت بها والدة سارة. نزلت الفتاة وسرت خلفها كالمشدوه وأنا لا أكاد أصدق أن هناك فتيات بمثل هذا الجمال. كانت تسير أمامي وأنا أتأمل كل حركاتها وسكناتها. قلت في نفسي: أنا في المدرسة معي ذكية ونفيسة وأمينة. أقسم إنهن من الصبيان إذا ما قارنتهن بسارة. هذه هي الفتاة الوحيدة التي أعترف بها كأثني. آه منك يا سارة!! تظاهرت بالرجولة ورفضت أن تحمل هي أو أمها أي شيء. أنا رجل. حملت كل ما أتوا به. صعدت سلمنا الضيق وأنا ألهث. نزلت أمني لتستقبل أم سارة وهي تدعو لها بكل خير.

لم أكن أعلم أن كل ما أحمله ليس سوى صدقات أتت بها سارة وأُمها ليتصدقوا بها علينا.

زالت نظرات الإعجاب من عيني عندما تذكرت نظرات سارة إلي وأنا أحمل أشياءهم. لمحتها تقول لأُمها وهي تتحسر:

— مساكين يا ماما. يا عيني!!

وددت لو رميت كل ما أتوا به في الشارع. تمنيت لو لم أكن حيا وقتها. انقطع التيار الكهربائي، فانقطع سيل تيار ذكرياتي مع سارة الصغيرة. وما أن عاد التيار الكهربائي إلا وعاد تدفق الذكريات من جديد إلي ذهني، ولكنه عاد هذه المرة مع سارة الكبيرة؛ مع سارة العسكر. نفس نظرات سارة الصغيرة. قالت في قرف وغضب عندما نظرت لي بعد أن رأته لأول مرة. ثبتت عينا في عينيها. قالت بصوت مشمئز:

— من هذا العامل الجديد؟

أبلغها رئيس الوردية ندا عبدالعليم باسمي قائلاً:

— عبدالله المصري

أشاحت بوجهها غضبا وقالت:

— أعوذ بالله. ألا يكفي هذا الحمار القابع بالداخل؟ أعوذ بالله. ألا يكفيني عبدالله البندري؟ أيتيني أيضا عبدالله المصري؟ شكله حمار مثل حماري الموجود بالداخل.

وفي اليوم التالي دخلت مكتب عبدالله البندري فإذا بي أفاجا بأن هذا الرجل الذي تنعته بالحمار ما هو إلا زوجا لسيادتها. تعجبت وضحكت طويلا وودت أن أكرر شعار المتظاهرين كراهية لسارة العسكر. ظننت أن زوجها يردد أيضا هذا النداء، ولكنه يردده داخله خشية بطش زوجه سارة العسكر.

الحلقة الرابعة

ذكريات النكسة

صوت المؤذن لصلاة الفجر يخترق أجواء السكون ويمزق حالة من الصمت عشتها لساعات أغوص في بحار الذكريات التي عانقت أفق خيالي وخالطته بواقع كئيب مريع.

تغلبت علي ضعفي وانتصرت علي آلامي وقمت مستندا علي الحائط متوجها الي دورة المياه لأتوضأ وأستعد للصلاة.

شيطان الكسل يشدني للتراخي والعودة إلي فراشي مرة ثانية للنوم. تبرق صورة أُمي في ذهني وهي تبتسم لي في حب قائلة: صلاة الفجر خير من الدنيا وما فيها يا عبدالله. هذا بالنسبة لركعتي السنة فما بالك بركعتي الفريضة؟ قم ولا تكسل يا ولدي. لا تستجب للشيطان.

سألت أُمي قائلا بعدما صليت معها وبعدما شعرت أن لذة النوم قد ضاعت من عيني: لماذا نصلي يا أُمي؟

لم ترد علي مباشرة وإنما قالت لي:

— نصلي لأن الصلاة فرض علي المسلمين

— وهل يصلي اليهود؟

— وما الذي أدخل سيرة اليهود في كلامنا الآن؟

— أسألك لأعرف

— تعرف ماذا؟

— لأعرف لماذا غلبنا اليهود

— ماذا تقصد يا بني؟

— لماذا غلبنا اليهود ونحن نصلي؟ هل ربنا معنا أم معهم. لو كان

الله معنا فلماذا هزمونا؟

— نحن لم نكن مع الله يا عبدالله

— كيف يا أُمي؟

— قادة الجيش كانوا في أحضان الراقصات ليلة المعركة. الراقصات

كن يحكمن البلد.

— الرئيس عبدالناصر يا أُمي يحكم البلد. صورته معلقة في كل مكان

— كارثة ونكسه. ليتنا ما صدقناه. كان يقول سنضرب إسرائيل ومن

وراء إسرائيل. صدقناه عندما قال ارفع رأسك يا أخي فلقد مضي

عهد الاستعباد.

— لقد خرجت بالأمس وكنت معك ونزلنا وصرخنا مطالبين ناصر

بعدم التنحي يا أُمي. كان مهزوما وطالبناه بالبقاء. رأيتك تبكين

ورأيت الناس كلهم يبكون. الآن أشم رائحة غضبك عليه يا أُمي.

— اسكت. أنت صغير لا تفهم أي شيء. اسكت للحيطان آذان. قد

يسمعك أحد.

— هل أنت خائفة يا أمي؟

قامت وفتحت الباب واطمأنت أن أحدا لا يسمعنا وقالت لي في خوف:

— إياك أن تتكلم في السياسة أبدا. يا بني السجون والمعتقلات و...

تكلمت كثيرا ولم أفهم شيئا مما قالته وقتها. تكلمت وسكت

لساني. سألتها:

— هل تحبين عبدالناصر؟

وضعت يدها علي فمي. كانت تباشير الصباح تسطع وتملاً الدنيا

بنورها. أطفأت لمبة الجاز بفمها عندما عم ضياء نور الصباح. التقتت صورة

الرئيس المعلقة أعلي الحائط بجوار السرير وقالت وهي تنظر للصورة بأمل:

— يجب أن نلتف حوله في هذه النكسة

— أليس هو المسؤول عنها؟ مدرس اللغة العربية كان يبكي وقال إن سيئا

قد ضاعت منا. اقتطع العدو جزءا غاليا من الوطن يا أمي.

— إن شاء الله سنحارب وسننتصر. لقد أخذونا علي حين غرة.

ضربونا ضربة مفاجئة وسنستعد وسننتصر. ستعود سيئا يا عبدالله

بكت وبكيت معها. قلت لها وأنا أحس بدموعها:

— ليتهم اخذوا كبدي أو أخذوا قلبي وما أخذوا سيئا.

ابتسمت أمي واحتضنتني وقالت:

— الله معنا.

لبست ملابس المدرسة وخرجت وتركت أمي تعلق صورة

ناصر وتنظر إليه بكل تقدير وحب واحترام. وقعت عيناى قبل

أن أخرج علي صورة أبي. لم أعرفه ولم أره. أحبه. أليس هو سر

وجودي؟ شعرت أنني أحب عبدالناصر أكثر من أبي، ولكني كنت

أتساءل عن خوف أمي وحديثها عن السجون والمعتقلات. سوف

أكبر وأعرف. أحبك يا ناصر. أمي قالت سننتصر. إذا سننتصر.

عدت لحاضري والماء البارد ينهمر علي يدي وأنا أتوضأ. يبدو أن

السخان لا يعمل. توضأت رغم برودة المياه، وتذكرت أول مرة كنت

أتوضأ فيها بالمصنع بعد أن التحقت بالعمل فيه.

كان السخان لا يعمل أيضا. سألت أحد عمال المصنع فقال لي وهو

يضع يده علي فمه:

- إياك أن تتكلم في السياسة
- لا تصبني بالجنون. أنا لا أتكلم في السياسة. الماء بارد
- أنت هكذا تتكلم في السياسة. أنا أحذرك
- هل أنت مجنون؟
- لا. أنت جديد في هذا المصنع. سارة العسكر تزرع عيونها وأذانها في كل مكان بالمصنع. لا تتكلم حتي ولو مع نفسك. أنت مسكين. حافظ علي أكل عيشك يا عبدالله يا مصري. لا دخل لك بالسياسة. لا تنتقد. لا تتكلم. افهم أنك هنا فقط لتنفذ الأوامر ولتأخذ مرتبك آخر كل شهر. افهم جيدا أيها الرجل الجديد الطيب. أنت هنا كآلة تماما وقد تكون الآلة أعلي صوتا منك. أنت لا تسمع. أنت لا تري. أنت لا تتكلم. مفهوم؟ توضأت وأنا مكره علي الماء البارد. الله يسامحك يا سارة العسكر. سنرضي بالصمت، ولكن إلي متي؟ أنهيت وضوئي فوجدت شيخا كبيرا يتوضأ معي. أنهى وضوءه فسألته :
- هل نصلي الصبح معا في جماعة؟
- انتفض كالذعور وخرج من أمامي مهرولا يتحاشي النظر إليّ وهو يتساءل قائلا :
- هل هذا الجديد لا يفهم؟
- تعجبت ووقفت في منتصف العنبر الذي أعمل فيه ورفعت يديّ بمحاذاة أذني وقلبت في سري بعد أن نويت صلاة الصبح : الله أكبر صليت وأنا لا أشعر بمن حولي. كنت أشعر أنني بمعية الله. رأيت قدرته تحوطني. بصرت نظرات الرضا في عيني أمني. شعرت بالخشوع لله يملؤني، وما أن انتهيت من صلاتي إلا ووجدت أحد العمال في الوردية يصيح بي قائلا :
- أنت محال للتحقيق يا أستاذ
- أنا؟
- نعم
- هل ارتكبت جريمة؟
- نعم

- وما هي؟
- ستعرف في التحقيق. مبدئيا مخصوم منك نصف يوم خرجت وأنا أنظر إلي السماء وأقول في غضب:
- حسبي الله ونعم الوكيل.

الحلقة الخامسة

التحقيق

قادني أحد الموظفين إلي سرداب ضيق في أحد المباني المنعزلة عن ضجيج الآلات بالمصنع. كان يسير خلفي بخطوات شبه منتظمة. يسير وكأنه عسكري محنك يقود مجرما ضبطه متلبسا بجريمة مكتملة الأركان. كان الهدوء يلف المكان. سمعت نبضات قلبه التي تتناغم مع خطواته المتتابة والتي يريد بها أن يمثل دور القائد العسكري. نظرت إليّ بتعجب. في البداية حاول أن يكون لطيفا معي، ولما لم أظهر أي اهتمام به دفعني بقوة في ظهري إلي الأمام ثم قال لي في تحد:

- لماذا لا تحافظ علي لقمة عيشك أيها الغبي؟
- لم أرد عليه. سبقته خطوات. وقفت فجأة ثم أمسكت بخنقه بعد أن لكمته في وجهه بقبضة يدي قائلا في غضب:
- لقد حكمت عليّ قبل أن تستمع لدفاعي
- ثم قلدت طريقته في الكلام وقلت له مردفا:
- أيها الغبي كان عليك أن تستمع إليّ أولا
- أنت الغبي. كل شئ يصل إلي الإدارة. الإدارة هنا حكيمة ورشيدة. قيادتنا حكيمة. كل دبة نملة تسمع هنا في الإدارة. الإدارة العليا تعرف كل شئ وتقرر.
- لقد خصموا مني نصف يوم قبل التحقيق
- حقهم. المال مالهم والملك ملكهم والمصنع مصنعهم. هم يملكون المصنع بما فيه وبمن فيه. نحن عبيدهم. لقد صليت يا غبي. صليت في وقت العمل. هل تفهم؟!
- لكمته مرة ثانية في غضب، وقلت:
- تحدث عن نفسك أيها الغبي. أنت عبد من العبيد لديهم. أنا

لست عبداً إلا لله ولن أحنى رأسي ولن أنحنى إلا لله. أنا عبد الله ولن أقبل أن أكون عبداً لهم أو لغيرهم. لم أخطئ ولم أجرم. ليست الصلاة جريمة أو خطأ ارتكبته لأحاسب عليه. أنا مسلم ومن حقي أن أصلي.

سكت من يقودني برهة. دفعني بيده دفعة رقيقة وقال لي في رجاء:

— قل هذا الكلام أمام المحقق. أنا عبد المأمور.

— أيها الأحق. رضيت أن تكون عبداً ومأموراً

— أنت جديد ولا تعرفهم هنا في الإدارة

— يا أخي الله الغني. ملعون أبوهم. لن أموت من الجوع لو تركت

المصنع هنا. الله هو الرزاق الكريم. هل سيسلبون حياتي مني؟

ليس لديهم عندي إلا عمل أقوم به لديهم. هم يعطونني أجر

عملي. إنهم لا يتصدقون علي.

— أنت لا تفهم يا عبدالله .

— أنت الذي لا تفهم. الله الغني عنهم وعن شغلهم يا أخي. هل

سيسلبون روحي. لم أخطئ ولم أجرم. كنت أصلي. أعلم أن هناك

مكاناً للصلاة خاص بالرجال وآخر للنساء في نفس المبنى المقابل

للمبنى الإداري. هل هذه جريمة أحاسب عليها؟ كيف يخصمون

مني نصف يوم؟

لن يرد علي. يبدو أنه أدرك قوة حجتني. نظر إلي في هدوء وقال

لي متسائلاً:

— أنتظـاهـر أنـك لست خائفاً؟

— طبعاً لست خائفاً. الله معي. لم أخطئ.

— أتمني أن تقول هذا الكلام أمام المحقق

— ومن يكون هذا المحقق؟ عبد من عباد الله مثلي. لن يقبض روحي

— ألا تخاف أن يفصلوك فعلاً؟

— لا أخاف. العمر واحد والرب واحد والرزق واحد

— يبدو أنك لن تعمّر في هذا المصنع طويلاً يا عبدالله

— ولا أريد أن أعمّر. لا أريد أن أستمر. فرص العمل تملأ الدنيا.

أترك هذا المصنع والمصانع تملأ البلد وأنا صانع ماهر. لن يجدوا

مثلي، ولكنني سأجد عشرات المصانع وسأعمل ولن أموت جوعاً.

- أنت لا تفهم. البطالة مشكلة كبيرة. حافظ علي لقمة عيشك واحمد ربنا أنك تعمل في مثل هذا المكان. لو خرجت من هنا يمكنهم أن يأتوا بعشرات غيرك يقفون في طوابير ينتظرون الفرصة.
- قلت لك أيها الغبي الأرزاق بالله.
- سكت تماما. يبدو أنه قد أصابه اليأس من مجادلتني والتي أدرك أنها لن تجدي شيئا.
- سرنا إلي مكان تحت الأرض. وجدت كشافا ضخما ينير الطريق أمامنا. لم أعرف الخوف قط. غرست أمني في الإيمان بأن الأرزاق بالله. دخل الرجل وتركني لمدة دقائق.
- كان علي أن أحاسب أمني. قلت لها في غضب أن سارة التي في مثل سني تتأسف علي حالنا، وتري أننا مساكين وتعرف أننا نأخذ الصدقات منهم. أمني أنا كبير ويمكنني أن أعمل. لن أقبل إحسانا من أحد أبدا.
- لا أدري إن كنت قد قلت هذا لأمني لأنني كرهت الطريقة التي كانت تتكلم بها سارة. كنت أيضا أكره الطريقة التي تتكلم بها أمني مع أم سارة. صحت في أمها قائلا:
- لسنا شحاذين.
- ربت أم سارة علي ظهري وقالت:
- هذا حقكم. والدك كان يعمل عندنا ومات بطلقة وهو يدافع عن أرضنا. مات وهو يفدي الأرض بروحه
- يعني هذا أن أبي لم يمت. أبي قد قتل وهو يعمل لديكم
- أبوك كان خير الناس. كان أميناً وصادقاً. خدمنا بإخلاص
- أبي لم يكن خادما بل كان يعمل لديكم بأجر
- نظرت إلي أم سارة بكل إعجاب وربت علي ظهري. احتضنتني وقالت:
- من خلف لم يمت. رجل مثل أبيه.
- نظرت سارة إلي باحترام وتغيرت نظرتها لي. لم تعد نظرات الشفقة ونظرات التحسر تملأ عينيها الجميلتين.
- شعرت بالرضا عن نفسي. يحق لي الآن أن أعترف لنفسي ولأول مرة. نعم. أنا أحب سارة. أحبها بكل ما أوتيت من قلب. أحبها بكل ذرة في كياني. لست مجرد فقير أو شحاذ يعطوننا صدقة أو

إحسانا. هذا حقنا. ما يعطوه لنا حق أبي.
لأول مرة أتساءل في نفسي: «تري من الذي قتل أبي؟ أليس عليّ
أن أثار لأبي؟»

قامت سارة وأمها. احتضنت أمي أمها. وددت لو استطعت أنا
أيضا أن أحتضن سارة. إنها في نفس طولي تقريبا. لا. إنها أطول
قليلا. إنها أنثى مكتملة الأنوثة.
قالت أم سارة لأمي:

— من الغد لن تعيشوا هنا. إكراما لزوجك ستأتون معنا لتعيشوا في
بيتنا. ابنك علي صواب. نحن لا نعطيكم صدقة ولا نمن عليكم.
ستعيشون معنا.
يا رباه!!

يعني هذا أنني سأسكن معها. سأراها كل يوم. سأتمكن من رؤية
وجهها الصبوح. قد أذاكر معها أيضا. يبدو أن طاقة القدر قد فتحت لي.
خرج أحد الموظفين واستدعاني للدخول إلي المحقق، فدخلت رافع
الرأس وأنا أسير وكأن الأمر معتاد بالنسبة لي. وجدت لافتة علي
مكتبه تشير إلي اسمه «سيف غرس الدين».

جلست علي الكرسي. دخل عليّ شخص غريب أراه لأول مرة
منذ أن اشتغلت بهذا المصنع بالوردية المسائية. كان يرتدي زيا رسميا
ورابطة عنق أنيقة. ابتسم في وجهي. بدت عليه البشاشة وقال لي:

— أهلا وسهلا.

— أهلا بحضرتك

— أنت جلست بدون إذن

وقفت وقلت له بهدوء:

— وحضرتك استدعيتني بدون ذنب

— ذنبك عظيم وجرمك كبير

— لم أخطئ ولم أذنب

— سيف غرس الدين يعرف كل شيء في المصنع.

— لم أخطئ

خبط المكتب بقبضة يده وقال وبوادر الغضب تتضح في عينيه:

— أخطأت مرتين

— الصلاة ليست ذنبا

— ذنب كبير أن تصلي أثناء عملك. صل في وقت راحتك. صل بمفردك. ليس كل عمال المصنع من المسلمين. لا تجرح مشاعرهم. وقت العمل للمصنع ووقت الله لله. لو كان ما فعلته صحيحا لجاز للطبيب أن يترك المريض وهو يجري له عملية ويذهب للصلاة وسيموت المريض ويتحمل الطبيب وزره. العمل عبادة يا أستاذ. كنت أستمع له والدهشة تغشاني. أي منطق هذا؟ لم يدعني أفكر. قال بسرعة وبدون أن يعطيني فرصة لمجادلته :

— والخطأ الثاني بل خطيئتك يا أستاذ أنك تسيئ إلي سمعة المكان الذي تأكل منه لقمة عيشك. يا أستاذ أين الولاء للمكان الذي يؤيك ويطعمك ويسقيك؟ كيف تنتقد مكان عملك؟ ليس مطلوباً منا أن نسخن ماء الوضوء لكم. أنت هنا لتعمل فقط. يكفي أننا نوفر لكم دورات المياه بدلا من أن تبولون في أماكنكم كالكلاب. أعوذ بالله. خيرا نعمل شرا نلقي. أردت أن أرد عليه، ولكنه لم يمنحني الفرصة. صرخ بأعلي صوته قائلا:

— مخصوم منك ثلاثة أيام.

عقد الخوف لساني. كان صوته قويا. رأيت سارة العسكر تخرج من أحد المكاتب. نادى علي سيف غرس الدين. نظراتها له كانت تنم عن رضاها عن حديثه. يبدو أنها كانت تسمع كل شيء تماما. رتبت الدفاع في ذهني لحظة وقلت له في غيظ:

— أنت لم تسمع دفاعي بعد يا قلع الدين

— اسمي سيف غرس الدين

— بلا سيف بلا سكينه

كادت سارة العسكر أن تضحك، ولكنها نظرت إليّ بإعجاب، ولأول مرة أري أسنانها ناصعة البياض وهي تضحك وتزينها نظرات الإعجاب لسخريتي من هذا السيف الذي اكتشفت فيما بعد أنه ليس سوي أداة من أدواتها مثله مثل سائر الرجال في مصنعها.

الحلقة السادسة

بذور الثورة

كل شئ أمام عيني صار باهتا.

أخذت أسير علي غير هدي وبلا هدف. ما الذي بيدي وأنا أشعر بأنني أضمحل ويقتلني الإحساس بأن نيران القهر تشتعل بداخلي؟ أريد أن أصرخ آه عشرات المرات. آه. آه، وآه فقط قد تكفيني. هكذا شعرت بالبداية عندما خرجت من التحقيق الذي لم تتح لي الفرصة ولو للحظات لأدافع عن نفسي. أليس المتهم بريئا حتي تثبت إدانته. أعرض علي أسناني. أعرض علي شفتي. أريد أن أصرخ، ولكن الصرخات بداخلي مكتومة تفور بداخل صدري. لقد اعتبرني مذنبا منذ البداية وتم خصم نصف يوم من قبل أن يتم التحقيق ثم ألحق بي خصم ثلاثة أيام بعدها. ما فائدة التحقيق، وما فائدة الإدارة القانونية إذا؟

وماذا لو صرخت آلاف المرات؟ وهل يجدي الصراخ شيئا أمام شعوري بالانسحاق والتضاؤل داخل هذا المصنع؟ ومن سيسمع صراخي سواي؟ من سيشعر بمثل ما أعانيه؟ تري هل إذا صرخت سيسمعني أحد. بدأت الصراخ عاليا فلم يسمعني أحد. التروس تدور والآلات تعمل والعمال منهمكون في هذا المصنع المجنون. إنهم لا يجدون شيئا بهذا المكان غير العمل. إنهم بالفعل مطحونون. وردية الليل تتبعها وردية النهار. بعضهم لا يري الشمس قط، والبعض الآخر لا يري ظلام الليل. عمل متواصل ومعاناة مستمرة وعمر يضيع بين أروقة المصنع المختلفة. وهل الحياة تعني إلا العمل؟ نحن لسنا إلا مجرد أرقام في حساباتهم. نحن لسنا إلا كالمكينات التي تدر لهم المكاسب الطائلة، ومع هذا يلقون إلينا بالفتات. ليس هذا فحسب، بل ويخصمون منا أيضا. أصبحت أشعر بقلّة الحيلة وقصر ذات اليد. هل يمكن أن أبوح بكل ما يجول بصدري؟ لا. لو كتبت مجلدات كاملة ما صورت مدي إحساسي بالظلم والأسى. هل سأظل هكذا أشكو وأشكو ولا أحد يسمعني؟ منذ شهور وكنا نسمع عن الجور الذي حاق بأحد زملائنا، ولم يتحرك أحد منا. يبدو أننا كنا نحس أن الضرر لحق أحدا بعينه،

ولكننا كنا نعتقد أن ما أصابه لم يكن ليصيبنا.

كل هذا ونحن مقهورون هنا بين جدران المصنع فلا ابتسامة حانية تسعدنا، ولا نظرة احترام هادئة تعمننا. القهر والذل عنوانان واضحان تنحني تحتهما رؤوسنا وتختفي فيهما جميع ملامحنا وتبهت فيهما أعمارنا وتذوب فيهما ملامحنا جميعا.

أفيقوا أيها الأغبياء. أيها الأغبياء المغفلون أفيقوا. الدور سيصيب كل واحد منكم. الدور سيصيبنا جميعا. بالأمس كان يوم زميل لكم، واليوم يوم مصيبتني، ولا ندري سيكون الدور علي من في الغد؟ إنهم يرون أنكم كالآلات ويعاملونكم كالبهائم.

تذكرت أن زميلا لي كان يعمل في أحد المخابز، وكنت أعيّره بأنه يعمل في طابونة. كنت أسخر منه وأهذر معه وأقول: أنت تعمل في الفرن والدقيق يعلوك وتقف أمام النار صيفا وشتاء.

كان يتقبل سخريتي. إنه أفضل حالا مني. إنه يأخذ العيش له ولأسرته كل يوم بالإضافة إلي مرتبه. يأخذ حصته من الخبز له ولأولاده. ما الذي نأخذه نحن من المصنع. أين حقوقنا في أرباح هذا المصنع؟ ألسنا فيه شركاء بجهدنا وذرات عرقنا التي تأخذ من أعمارنا وتتساقط من شبابنا فتعطيهم؟ لماذا لا تكون لنا حصة من دخل المصنع وأرباحه؟ لماذا لا يكون لنا جزء من دخل المصنع؟ فلاسكت وليخرس تفكيري.

ذات يوم كان الشيخ في المسجد يصرخ وينادي بحسن معاملة الخدم والعمال. ماذا لو سمع أصحاب الأعمال والمصانع كلام الشيخ. يا شيخ إنهم يعاملوننا كالعبيد. إنهم يسرقون أعمارنا ولا نحصل علي شئ وهم يحصلون علي كل شئ.

في الأسبوع التالي لم أجد الشيخ في المسجد. لقد اشتكوه. يبدو أنه ابعث إلي أحد بلاد النفط الغنية. عاد بعد شهور قليلة. سلمت عليه فوجدته ساهما حزينا. سألته فقال لي في حزن عميق:

— يبدو أن أحدا لا يريد الدين ولا يحب شرع الله.

— ماذا حدث يا شيخنا؟

— لم يعجبهم كلامي. قلت إن البترول حق للمسلمين جميعا وليس حقا لهم فقط فطردوني

- لسانك طويل يا شيخ
- قصوا لساني. لن أتكلم ثانية. لن أقول الحق. الناس لا يعجبهم الدين لا في الخارج ولا في الداخل. بدأ الدين غريبا وسيعود غريبا فطوبى للغرباء
- أتقصد أن لنا حقا في البترول يا شيخنا في بلادنا الفقيرة؟
- نعم يا ولدي. الإمام ابن تيمية يقول وفي الركاز الخمس. ما يخرج من باطن الأرض من ثروات حق للمسلمين جميعا. من يقبل أن يموت الملايين من المسلمين فقرا ويموت أمراؤهم من التخمة؟ رأيتهم ينفقون المال بسفه في غير موضعه. لقد رأيت السفه بعيني في الإنفاق والمسلمون الفقراء يموتون جوعا. حرام. أليس منهم رجل رشيد؟ والله ليسألهم الله عن هذه الأموال.
- طيب ومعاملة العمال والخدم؟
- لهم كل الحقوق. يا بني للعمال والخدم الحق في أن يلبسوا مما يلبس أصحاب العمل ولهم الحق في أن يأكلوا مما يأكل منه أصحاب العمل...
- لم يكمل. كان يود أن يقول كلاما كثيرا. التفت حوله في هلع ظاهر وخوف بين وقال لي: لقد أمروني ألا أتكلم وإلا سيقطعوا لساني. أرجوك يا ولدي. دعني لحالي.
- أردت أن أسأله، ولكنني تراجعته خوفا عليه وعلي شيبته وسنه. معك حق يا شيخ. سيقطعون لسانك لو تكلمت وسيقطعون رقبتني لو هتفت برأيي. يبدو أنه لا حق لنا. لن أصرخ ولو حتي في خيالي. وماذا يفيد لو صرخت مئات المرات. ستفعل سارة العسكر بنا كل ما تريده. أدواتها موجودة تتحكم فينا وتعمل بنا كل ما تريده. ألسنا عبيد إحسانها. أين أنت يا عرابي؟ أحمد عرابي. أغمضت عيني، وددت لو أنني تقمصت دور الزعيم أحمد عرابي وركبت الحصان الأبيض ودخلت بحصاني مكتب سارة العسكر أو مكتب سيف غرس الدين وصحت فيه أو فيها :
- لسنا عبيد إحسانك، فوالله الذي لا إله إلا هو لن نستعبد بعد اليوم ما أسعدني وأنا في دور البطولة المطلقة وكل الكاميرات حولي وخلفي آلاف الكومبارس الذين يهتفون لي ويهتفون بشجاعتي وبحياتي. أخشي

أن تأتيني طلبة من الخلف أو طعنة من جانبي. نحن خونة ونكره أبطالنا. تخيلت نفسي في فيلم آخر وأنا بطله وأنا أصرخ:

أفيقوا. لقد قتلنا السادات. الوحيد الذي حقق نصرا علي إسرائيل. ألسنا نحن الذين قتلناه؟ قتلناه في ذكرى يوم نصره.

هل سأسمع صرخات الزملاء في المصنع؟ أتراني جنت؟ أين أنا من أحمد عرابي الذي ثار وأثار المصريين. يحكي التاريخ أن الكثير ناصبوه العداء وحكم عليه بأنه خائن. حكم الخليفة العثماني بأنه خائن وأمر بعدم طاعته وخانه البدو وخانه المصريون وسقطت مصر في يد الاحتلال الانجليزي. أين أنا من الحديث عن السادات؟ كنت في العشرينيات من العمر عندما شاهدت اغتيال الرئيس السادات علي الشاشة وشاهد الاغتيال كل العالم. الرجل يسقط مزرجا في دمايه، ولكنه سقط شامخا. قتله الكلاب في يوم من أزهى أيام تاريخنا. كان هذا رأيي علي الرغم من أنني لم أكن أحبه شخصيا لأنه السبب في فصلي من الجامعة. لم أكن أحبه، ولكنني كنت أحب مصر. أغلقت أُمي التلفزيون وصرخت وبكت قائلة:

— قتله المجرمون. لن وجود التاريخ بمثله أبدا. الله يرحمك يا سادات رباه. لم أر أُمي تبتسم أبدا. أراها في غم وخوف دائم من المستقبل المجهول. متي تبتسمين يا أُمي؟ متي تبتسمين يا مصر؟ بكت أُمي وكانت تبكي دائما. كنت أستيقظ من نومي علي بكائها وكنت أستيقظ علي دعواتها في صلاتها أن يحفظ مصر والعرب والمسلمين. لا أدري لماذا لا يستجيب الله لها؟ كانت تدعو لي ولأخوتي. كان حالنا يسوء يوما بعد يوم كما كانت حياتنا تسوء يوما تلو الآخر. متي سأرجع إلي أُمي وأنا سعيد أو علي الأقل وأنا مبتسم غير خائف من الغد؟ يبدو أن هذا لن يحدث أبدا. يبدو أن الحزن والغم قد كتب علينا دائما وللأبد.

آه يا أمة كل تاريخها خطابة!! آه يا أمة يدّعي كل من فيها أننا شرفاء ولا نقبل الضيم ونحن نقبل كل من يتحكم فينا!! لقد رضينا بالذل ورضعنا لبن المهانة وجبلنا علي الضعف والاستكانة ولعق حذاء كل متكبر جبار. لقد صرنا نأكل العيش بالجبين ونسينا معاني الكرامة والشرف والإباء. نحن لا نشور أبدا. نحن أمة كل تاريخها الخيانة والصراع والمؤامرات

والفتن. لقد خرجنا من التاريخ. أيها الأغبياء أفيقوا.
آه نحن أمة البلاغة والفصاحة واللسان فقط. يريدون أن يقصوا ألسنتنا.
كيف ضاعت فلسطين منا أيها العرب؟ ماذا فعلت ثرواتكم
وكروشكم التي انتفخت وامتلأت علي حساب شعوبكم الصاغرة
وبطونهم الخاوية؟ أيها الأغبياء أين ذهبت هيبتكم وكرامتكم؟ أين
الدين من تفكيركم، بل أين الكرامة منكم؟ لاشك أنها منكم براء.
يكفيكم أن تعلقوا أحدىة الغرب والأمريكان، تعلقونها وتدعونا نعلق
أحذيتكم. تبا لنا جميعا. أتوقع لكم ولنا نفس مصير الهنود الحمر.
سوف يبيدوننا. نستحق هذا.

كنت أسير والحزن يغشاني، كنت أنظر إلي العمال من زملائي
الذين انحنت ظهورهم في المصنع وضعفت أبصارهم وهم يكدحون صباح
مساء ولا أحد يشعر بهم. ماذا لو صرخت فيهم ووحدتهم جميعا؟
هل سيستمعون إلي؟

مررت بهم وأنا أعتصر ألما وذكريات خلطت الماضي بالحاضر
فأنبتت بداخلي أشجار الثورة التي صارت تورق سخطا وغضبا. يبدو
أنني سأصير البطل في أكثر من فيلم كما أتخيل دوما.
رأيت زميلي في المصنع همام الحفناوي يعمل علي آتله في صمت
ويلوك ببطء في فمه لقمة يمتصها ويذيبها بلعابه ويضحك ضحكته
القيئة، ورأيت إباد صابر وهو يصارع الوقت علي ماكينته الضخمة
العملاقة، ورأيته تكتب في دفترها وتضحك سعيدة مبتسمة كأنها زهرة
المكان وفرحته. نعم إنها أحلام المطيري كما عرفت اسمها فيما بعد
عندما عرفني بها رئيسي في الوردية الصباحية التي فضلت أن أنتقل
إلي العمل بها بعد أن تشاءمت من وردية المساء. هذه هي التي توزع
بسمتها الرائعة علينا جميعا فيذهب عنا الكثير مما نعانیه. كانت
هذه هي المرة الثانية التي أراها فيها. نظرت إليّ وابتسمت فشعرت
أن الغصة تزول من حلقي والحزن يهجرني قليلا فأجدني أقترب منها
في سعادة وأقول:

- رأيت يا أستاذة أحلام؟
- اصبر قليلا فلسنت أول المظلومين في مصنع سارة العسكر
- ولن أكون آخرهم

- لا تتحدث كثيرا فعيونها حولنا
- لحظات ووقف همام في مكانه ، ابتسم لي ثم مضي نحو المبني الإداري بعد أن صافحني وعانقني ببرود. انصرف بسرعة وهو يبتسم. لوحث له بيدي ، وقلت لها :
- طيب جدا همام
- آه
- ومسكين جدا
- طيب جدا. إنه حبيبي. أنت الذي لا تفهم أي شئ
- ايتسمت في غضاضة ، وغصت في أفكاري. كيف يمكن أن أطرح فيهم جميعا بذور الثورة؟
- استمر إياد صابر في عمله والعرق يتساقط من جبهته وهو يغمرني بنظرات حب لم أر لها مثيلا في هذا المصنع ، في حين كانت أحلام تكتب في دفترها. تذكرت نفس نظرات سارة حبيبتي عندما انتقلنا للمعيشة في بيتهم ، ولكن أين؟ في أحد الحجرات المنعزلة البعيدة خارج بيتهم. بالتحديد في حديقة بيتهم الواسعة. تري أين أنت يا سارتي الحبيبة؟ أين أنت؟

الحلقة السابعة

الجدور

نظرت الممرضة السمينة إلي في غضب في البداية وأنا أتناول طعام الغداء ، ولكنها تغيرت تماما عندما وجدتني لا أشتكي أبدا ولا أتكلم منذ أن تركني الضابط وزميله منذ أول يوم وصلت فيه في المستشفى. أسكت دوما ولا يزورني أحد. سألتني: لماذا لم يأت أحد لزيارتي منذ أن وصلت إلي المستشفى؟ لم أستطع أن أرد. وماذا يمكنني أن أقول لها؟ فلتعلم أنني وحيد ومقطوع من شجرة. لا أحد يهتم بي أو يسأل عني. أمي امرأة عجوز وأخوتي كلهم ابتعدوا لما كبروا. لم يبق لديها سواي. الحمد لله هذه حياتي وأنا راض بها. صارت تنظر إلي بشفقة وبرقة. يبدو أنها وحيدة مثلي. لا أعتقد أنها متزوجة أو حتي قد تقدم أحد لخطبتها. من ذا الذي يستطيع أن يتزوج في مثل هذه

الأيام العجاف؟ مسكينة أنت أيتها الممرضة، ومسكين جيل بأكمله لا يستطيع أن يلبي حاجته الأساسية وغريزته الفطرية.

نظرت لأصابعها فلم أجد فيها ما يشير إلي خطبة أو زواج، ولكني لمحت بريق الحب يندلع من عينيها الواسعتين الجميلتين. نعم. أشعر بنور الحب عندما يتدفق من العينين. أشعر به ينير جوانب الوجه ويسكب ملامحه التي تنطق بالسعادة علي الجبهة والوجنتين والشفقتين. صدق حدسي وتأكدت من هذا فيما بعد. رأيتني أنظر إليها وأحاول أن أستقرئ تفاصيل حياتها من ملامح وجهها وهيئتها. نظرت إلي مرة ومرة ثانية ثم غضت بصرها في الثالثة إما خجلا أو حياء من رجل كبير مثلي.

لا أدري لماذا تذكرت ما حدث لي وأنا في مقببل الشباب. يبدو أن نظرات الخجل منها دفعتني لتذكر أنني لم أكن أخجل إلا قليلا. ولماذا أخجل أو أخاف وأنا علي صواب؟ لم أكن أخاف أو يعوقني أي عائق عن التحدث بحرية وبدون خوف ولا خجل. تذكرت أول مشاجرة حقيقية مع صاحب عمل حمار لا يفهم كما أسميته. عملت بالجريدة أكثر من شهر ولم يدخل جيبي قرش واحد من عملي. أكنت متهورا؟ تذكرت هذا الحديث الذي أحفظه عن ظهر قلب. لكم هم كثيرون!! كثيرون هؤلاء الذين عملت معهم وهم يدعون المعرفة وهم أبعد عنها بعد المشرق عن المغرب. إنهم إما يذوبون في ظلمات الجهل، وإما أنهم يتناسون أنهم جهلاء بالفعل فيرون أنفسهم في مصاف العارفين وبين صفوف الفاهمين. لم تكن هذه بالطبع أول مرة أثور فيها بسبب دفاعي عن حريتي. دائما كنت أقبل أن يحدث أي شئ لي إلا أن تسلب حريتي. كنت أحافظ علي حريتي كحفاظي علي حياتي. كان رئيس التحرير رجلا غير متخصص في الصحافة. ليس فيه أي شئ من المهنة إلا أنه يمت لصاحب رأس مال الجريدة بصلة. أتذكر الحوار بتفاصيله كاملة. قلت له وكان في قمة غضبه لدرجة أن وجهه وصلعته اصطبعغا باللون الأحمر وكان يرد بعصبية لم أر لها مثيلا. قلت له: ألا يكون هذا هو السبب فيما نعيشه بحياتنا؟ لماذا يشتط خيالي هكذا؟ نحن أصلا في بلادنا لا نستطيع أن نشبع حاجتنا

الأساسية من طعام وشراب ، أفأشئت بتفكيري عندما أتحدث عن الجنس؟ لا يا أستاذ. عيب. لا تتحدث في مثل هذه الموضوعات. الجنس تابو محرم. لا يجب أن تتحدث فيه. فليخرس لسانك وليتوقف ذهنك. الجنس؟ أعوذ بالله. اخرس. إياك أن تفكر فيه مجرد التفكير. أليس غريزة أساسية ومطلبا أساسيا للحياة. لا. اسكت. تحدث عن الطعام والشراب. إياك أن تشطح بخيالك أيها المجنون. أليس تجنبنا الحديث عنه كارثة الكوارث ومشكلة المشكلات. إياك أن تخوض فيه وإياك أن تحطم ثوابتنا. يا سيدي ألا نفكر فيه علي الأقل يوميا عدة مرات؟ هذه سياسة جريدتنا. سأحطم كل هذه الثوابت. أنت منفتح زيادة عن اللزوم. أنا إنسان. هذه سياسة جريدتنا. أنت سيئ الأخلاق. أنا أفكر يا افندم. ياللمصيبة أنت تفكر. أنت هنا لتنفيذ سياسة الجريدة. أنا لست مجرد آلة. أنا إنسان حر. أنت تنفذ ما نأمرك به. أنا أناقش مشاكلنا بصراحة ولن أدفن رأسي في الرمال مثل النعامة ومثلكم. موضوعك مرفوض يا أستاذ. يا افندم موضوعي ليس فيه ما يشين. موضوعك مرفوض مثل موضوعاتك التافهة السابقة. موضوعاتي ليست تافهة. الحديث عن ضرورة توفير الزواج ومتطلباته للشباب ضرورة قومية ومسؤولية أمن قومي. حديثي عن ضرورة توفير وقت للمساجين لممارسة الجنس مع زوجاتهم أمر ضروري. أنت لا تعرف ما قد يحدث في السجون من لواط ومشاكل. اخرس أيها الوقح. لست وقحا. هذا حق من حقوق الإنسان. أنت ليبرالي علماني. أنا لست ليبراليا ولا علمانيا أنا إنسان ويهمني الإنسان وحرية. الحرية هذه عند أمك وفي بيتك وليست هنا. تقصد أن ولي نعمتك وصاحب المال جبان ولن يعجبه هذا. سنفصلك من العمل يا أستاذ عبد الله. لن أقبل. ستقبل. سنفصلك. يعني هل ستخرجوني من الجنة يا أخي؟ هذه آخر فرصة لك. لا. أنا الذي سأخرج من جريدتك التافهة الحقيرة. أنتم تلهثون لترضوا صاحبها وتحققوا أهدافه. تبا لسيطرة رأس المال علي حكمك وعلي قرارك. أنت مقتنع بداخلك بما عمله ولكنك جبان. أنت تود أن تكتب مثلما أكتب ولكنك تخاف علي لقمة عيشك. لقد كنت سعيدا بي منذ أن جئت إلي الجريدة وقلت إنني من أفضل الصحفيين الشباب. كنت أشجعك يا أستاذ. كنت

أريد أن أصنع منك شيئاً. أنا أفضل منك يا أستاذ وإياك ان تصدق أنك رئيس تحرير حقيقي. أنا رئيس تحريرك. أنت رئيس تحرير دمية يحركها رأس المال. أنت تسعي كالكلب لإرضاء صاحب الجريدة وتفعل كل ما يأمر بك به. هذا حقّه وهو صاحب رأس المال. وأنت يا أستاذ أين رسالتك وأين إيمانك بها؟ الثورة قامت لإلغاء سيطرة رأس المال. أنتم ملكيون أكثر من الملك. أنت مفصول من العمل يا أستاذ. سأخرج. اخرج ولا أريد ان أراك ثانية. سأخرج يا طرطور. بالفعل ما أنت إلا طرطور. أنت رئيس طرطور. سأخرج أيها الهلغوت. هل تظن نفسك رئيس تحرير محترم؟ أنت أداة في يد صاحب الجريدة وولي نعمتك. اخرج أيها التافه وهل تظن نفسك صحفياً. صحفي ودارس للغة الإنجليزية وآدابها يا خريج التجارة. اخرج. سأخرج وهل تظن أنك تخرجني من الجنة؟ ملعون أبوك علي أهل جريدتك.

لم تكن الممرضة تتجاوز الثلاثين بأي حال من الأحوال كما خمنت. رأيتها قصيرة، ولكنني أحسست فيها بلمسة جمال. لا أحب القصيرات. أعوذ بالله. لا أدري لماذا طرأت صورة سارة العسكر بذهني وأنا أتابع الممرضة وهي تعد لي الحقنة. لقد كانت قصيرة. كانت ترتدي حذاء بكعب عال. كانت قصيرة ورفيعة. كانت أقرب للنحافة. يبدو أن قصر الممرضة ذكرني بقصر سارة العسكر. الممرضة تعمل بهمة وب نشاط وبسرعة. علقت المحلول لي، ابتسمت في وجهي مرتين.

إنها تسير بنفس طريقة سارة العسكر. يبدو في وجهها حزن دفين. سأحاول أن أسبر أغوارها. أعلم أنني لن أخرج من المستشفى قبل أسبوع علي الأقل. هكذا أخبرني الطبيب. سبحان الله. سمينّة وتتحرك بخفة وبسرعة وتنتقل من عنبر إلي عنبر آخر. سارة العسكر كانت تنتقل وبسرعة من عنبر إلي آخر. كانت تمر علي جميع عنابر المصنع وكأنها تريد أن تمسك أي خطأ لأي عامل لتعاقبه، وكأنها كانت تتربص بنا، وكأنها تود أن تقول للجميع: «أنا هنا وعلي رؤوسكم جميعاً. أنا موجودة في كل مكان وفي كل زمان». عملت بالمصنع لمدة يومين وكنت أسمع اسمها يتردد في كل مكان. والأوراق كلها يجب أن توقع عليها بإمضائها الحي. لا تثق في أحد ولا تؤمن إلا بما تراه صحيحاً. تصدر الأوامر. تحكم وتتحكم. يرتفع

صوتها وتصيح. تأمر وتنهى. ترفع صوتها وتزجر. ترغي وتزبد. متجهمة كانت طول الوقت. هكذا كان يحكي عنها. لم أكن قد رأيتهما بعد. أحسست أنني سأواجه غولا قاسيا أو وحشا فتاكا عندما سأراها. خمنت أنها جظة غليظة الجثة، خمنت أنني سأجدها ممثلة الجسد طويلة القوام حادة العينين قاسية الملامح.

رسمت لها في ذهني صورة امرأة متصلبة ضخمة عنيفة لا يتحملها أحد. ظننت صوتها أجشاً غليظاً، وظننت أنها حادة الطباع ومخيفة الملامح كشريبات النساء في السينما، ولكن ذهببت كل هذه الصور التي رسمتها لها في ذهني عندما رأيتهما أول مرة. خمنت أنها تسير مشية عسكرية وكأنها تمشي علي نغمات مارش عسكري. تحرك يدها وجسدها وهي تسير يميناً وشمالاً وكأن ضابطاً يأمرها قائلاً بنبرات منتظمة: يمين شمال يمين شمال. لم تكن سارة العسكر كسارتي الحبيبة. سارتي طويلة جميلة. عودها ممشوق وجمالها مبهر. أزعم أنني وقعت في حب سارتي منذ أول مرة رأيتهما فيها وهي تسألني: «خالتو أم عبدالله موجودة؟» آه يا سارتي الحبيبة. ألجمتني مفاجأة جمالها ودلالها وأخرس سلطان حسنهما لساني. لم أرفثاة في حياتي في معشار جمال سارتي. نظرت إليّ الممرضة في محاولة لكسب ودي واهتمامي وقالت لي متسائلة :

- هل ستظل هكذا في غرفتك لا تخرج ولا تتحرك؟
- آه. أريد أن أعيد ترتيب أمور حياتي
- وعملك؟
- لم يعد لدي عمل
- هل فصولك؟
- لا. الحقيقة أنهم يفصلوني دائماً من العمل
- عليك أن تخرج من حجرتك. يجب أن تري الدنيا
- رأيتهما وأصابني القرف منها
- لازلت شاباً. الدنيا حلوة. الدنيا حلوة لمن يحبها
- لا أحبها ولا تحبني
- يبدو أنك يائس.

- ظلمتني الحياة
- اظلمها واضحك عليها واسخر منها. أعتقد أنك في الأربعين
- لا. أكبر بكثير
- يبدو عليك أنك في الأربعين
- لقد تعديت الخمسين
- بسم الله ما شاء الله. شكلك أصغر من سنك الحقيقي
- ألزلت ترين أنني شاب؟
- الشاب من يريد الحياة ومن يحبها
- انصرفت عني لحظات ثم عادت ثانية، وبعد أن أعطتني حقنة
- في الوريد وتركت لي بعض الحبوب التي علي أن أتناولها، اقتربت مني وقالت:
- يبدو أن وراءك سرا كبيرا
- يبدو أن ورائي سرا واحدا؟ بل مئات الأسرار يا .
- اسمي كريمة
- الله اسم جميل. لن أنسي اسمك أبدا
- آه. حبيبتيك اسمها كريمة؟
- لا حبيبتي اسمها سارة.
- تعجبت لصراحتي. قلت لها وبسرعة لأفاجئها:
- وما اسم حبيبك؟
- لا نتحدث معي هكذا
- إذا كيف أتحدث معك؟
- نحن لسنا صديقين
- ولماذا لا نكون صديقين؟
- لست مريضا عاديا
- ولست ممرضة عادية
- سأخبرك بكل شيء
- وسأخبرك بكل شيء يا صديقتي العزيزة

الحلقة الثامنة

أحلام المطيري

صدق من قال بأنه لا توجد محبة إلا من بعد عداوة. سبحان الله. ينطبق هذا المثل تماما علي زميلتي في المصنع أحلام المطيري، ولكنني أزعم أن هذا المثل ليس صادقا تماما ولا ينطبق مع عداوات تستمر طيلة العمر. عداوتي مع أحلام لم تدم طويلا. لقد استمرت هذه العداوة المؤقتة لساعات قليلة. لقد كانت هذه العداوة بسبب سارة. لم ألتق أحلام إلا بعد تسلمي العمل في المصنع بفترة حيث كنت أستكشف أجواء المصنع وأزور عنابره المختلفة وألتقي برؤساء الورديات وأحتفظ في ذاكرتي بكل شئ وأدونه في عقلي ليستقر في وجداني. رأيتها لأول مرة تقف بجوار رئيس وريدتي ندا عبدالعليم. كانت هادئة رقيقة كالنسمة الحانية. بسمتها رقيقة هادئة. كانت طويلة مثلي، وإن كنت أنا أطول منها ببضعة سنتيمترات.

لمحتها تستمع لتعليمات رئيس وريدتنا وتتابع كل حركة يعملها وكل أمر يصدره. كانت تحاول أن تبدو متابعة جيدة، فكانت تدون كل ما يقال، ولكنني أحسست أنها حقيقة لا تهتم بكل ما يقال. كانت أحيانا تهز رأسها وكأنها تقول: لا يهم. كل هذا لا يهم. كنت أشعر بها وكأنها تائهة، تفكر في أمور أعمق وتتأمل كل ما يدور حولها وتخترنه في ذاكرتها.

فتحت حقيبتي فوجدت فيها الكثير من الدفاتر والأقلام. لم أهتم بما رأيته في حقيبتي، ولكن جذب انتباهي وجود بطارية. بطارية كبيرة. تعجبت كثيرا. لماذا تحملها معها. عرفت فيما بعد أن علي أيضا أن أشتري بطارية مثلها.

أحسست أنها تهز رأسها وكأنها لا تهتم. يبدو أن هناك أمورا أكبر كانت تشغلها وتحيرها. لم أهتم بها كثيرا في البداية، فهكذا المرأة دوما. تشعر بالرهبة عندما تراها أول مرة، ولكن تتساوي النساء جميعا لديك فيما بعد. قد ينطبق هذا علي جميع النساء إلا علي أحلام المطيري. لقد كانت متميزة بالفعل في كل شئ، كانت متميزة أيضا في تأنيقها وهندامها. كانت الوحيدة التي لا

ترتدي الحجاب بهذا المصنع. كل النساء محجبات إلا هي. أردت ألا أتوقف طويلاً أمامها حتي لا يلحظ أحد من الزملاء اهتمامي بها. نظر إليّ رئيس الوردية ندا عبدالعليم وابتسم لي في هدوئه المعتاد والذي أدركت أنه سمته الأساسية التي ترتبط دائماً بابتسامة عريضة تملأ وجهه طولاً وعرضاً من أعالي جبهته وحتى شفثيه اللتين تنفرجان في ابتسامته البلهاء حتي أطراف أذنيه. ابتسامة مميزة لم أر مثلها قط. ابتسامة تحمل العديد من المعاني علي الرغم من اختلاف المواقف التي كنا نعيشها. كانت هذه الابتسامة الثابتة لا تفارق وجهه قط. قال لي:

— سلم علي زميلتك أحلام المطيري

— أهلاً وسهلاً يا أستاذة أحلام

قلتُها بهدوء وبتحفظ. ابتعدت قليلاً، ولكنها مدت يدها لتسلم عليّ. أحجمت في البداية، ولما شعرت بالحرص قلت لها:

— آسف. أنا متوضئ.

نظرت إليّ بتعجب وقالت:

— السلام علي المرأة لا ينقض الوضوء

— ينقض الوضوء عند جمهور الفقهاء

— أبو حنيفة يقول إن السلام علي المرأة لا ينقض الوضوء

— بسم الله ما شاء الله. تعرفين الفقه وأحكامه و.

— وما الغرابة في هذا يا أستاذة؟

— اسمي عبدالله المصري

— أهلاً وسهلاً، وما الغريب في هذا؟

— أنت غير محجبة و.

— أنت تحتاج إلي إعادة تفكير

— الحجاب فرض

— آه. طيب. لن أتناقش معك الآن

ظننت في البداية أنها غير مسلمة، فلم أرد أن أدخل معها في جدال عميق لن يجدي. كان ندا رئيس ورديتنا يتابع الموقف بهدوء، ولكنه صاح بأدبه الجم قائلًا:

— دعونا الآن نواصل ما كنا نتحدث فيه.

لم ألحظ عليها إلا هذا، ولكنني أحسست أنها إنسانة غير عادية. شعرت أنها تخفي أسراراً كثيرة خلف هدوئها. ظننت أن هناك براكين هادرة تغلي بداخلها. شعرت أن لديها الكثير مما تهتم به بعيداً عن خارج نطاق المصنع. أشعر بها مفكرة حاملة وكأنها مثلي تحاول استكشاف الدنيا من جديد. تذكرت عندما قالت لي إنني لست أول من يظلم في هذا المصنع فلقد سبقني الكثيرون. دخل علينا رجل اشتعل رأسه شيباً، أحسست بأنه في مثل سني تقريباً، ولكنني عرفت فيما بعد أنه يكبرني بخمس سنوات. آثار السن تبدو عليه بسبب شعره الأبيض وبسبب وقاره الذي يبدو واضحاً من خلف كلماته وقسمات وجهه. ابتسامته الساخرة بالحياة والهازئة بكل شئ كانت أهم ما يميز ملامح وجهه. كان أسمر اللون تلمح ملامح الشمس المصرية التي ألقى عليه بظلالها فأعطته سمرة هادئة جميلة. نجحت آثار اللون الأبيض في شعره في إضفاء رونقاً وجمالاً علي وجهه العامر بابتسامته والتي يزيد بها اللون الأبيض النابع من بياض أسنانه بهاءً وضياءً. شئ آخر جذبني في هذا الرجل. نظراته الحانية المريحة والتي تشعر وأنت تنظر في عينيه بأنك تنظر إلي نهر من الحنان ينساب منهما. شعرت وكأنها نظرات أب حانية إلي كل من حوله، وكأنه يطرنا جميعاً بنظراته المليئة بالحب والحنان. أحسست أنه يحمل في داخله مشاعر أبوة صادقة حنونة لو وزعت علي أهل الأرض كلهم لكفّتهم. سلم علي وقال لي :

— أهلاً وسهلاً بك. أنا ماجد بحيري

— أهلاً وسهلاً أستاذ ماجد

— أنت جديد هنا؟

— نعم

— ربنا يستر عليك

— ويستر عليك

— ويستر علينا جميعاً

ضغط ندا شفته السفلي بأطراف أسنانه. ربنا يستر عليّ وعلينا جميعاً؟ هل يقصد أن المصنع تملأ المشكلات جنباته ولذا يدعو لي ولنا جميعاً بالسلامة؟ أقلقته كلماته، وعلمت أنني مقدم علي

خطوة صعبة. أنا أصلاً أعتبر نفسي فاشلاً، ولا أستطيع التأقلم في أي مكان أعمل فيه علي الرغم من أنني وصلت إلي وظيفة رئيس عمال في أحد المصانع بمصر. تساءلت في ذهني عما تخبئه لي الأيام في هذا المصنع الجديد الذي وطأت قدمي أرضه منذ أيام قليلة. وكأن ندا أحس بما أفكر فيه فسحبني بعيداً عن ماجد بحيري والذي صار شخصية مهمة في حياتي داخل المصنع وخارجه: وبعد أن انتهت لقائنا مع رئيس الوردية، أمسك بي ماجد بحيري وفتح حقيبته وأخرج منها بطارية كبيرة تشبه التي رأيتها في حقيبة أحلام!! ما الأمر يا جماعة؟ ما سر هذه البطارية؟ أخذتها وشكرته وسألته عن سبب إعطائه لي هذه البطارية. ابتسم في حنان وقال لي: — هدية محبة. ستعرف أهميتها فيما بعد.

تركت البطارية في حقيبتي في دولابي وأغلقت علي كل حاجياتي ووضعت المفتاح في جيبتي وكنت أتهياً للانصراف بعد أن انتهت وردية النهار. كاد يوم العمل أن ينتهي. أوشك ضوء النهار أن يغيب في أحضان ظلام الليل. مررت بأحد المباني ورأيت شبحاً يقترب مني ولم أميز وجهه. مرق بسرعة داخل المبني، رأيت يسير بسرعة ملفتة للأنظار. لا أدري لماذا لم أتبين ملامحه. دخل الشبح في مكان ما. لم أكن أعرف كنه هذا المكان. سألت إحدى العاملات قائلاً:

- من دخل هنا؟
- قصدك من دخلت؟
- آه. من دخلت؟
- الأستاذة أحلام المطيري
- ولماذا دخلت هنا؟
- دخلت لتصلي المغرب
- أهي مسلمة؟
- طبعاً مسلمة يا أستاذ

لا أدري لماذا اعترتني رغبة في التحدث مع أحلام. أحس أنها مثلي أو أحسست أنني مثلها. أردت أن أعتذر لها عن عدم مصافحتي إياها. سألت العاملة التي أمامي وأنا أود أن أظهر تبرمي من عدم تشغيل الأنوار قائلاً:

- لم أكد أري من يسير أمامي هنا.
- أنا آسفة يا أستاذ
- ولماذا الأسف؟ من أطفأ الأنوار؟
- أنا التي أطفأتها يا أستاذ
- لماذا يا حاجة؟ كنت سأقع يا حاجة علي الأرض بسبب الظلام
- أوامر يا أستاذ؟
- أية أوامر؟ أوامر من؟
- أوامر الهانم. أوامر من فوق يا أستاذ. هنا الأوامر يجب أن تنفذ.
- هم يأمرن ونحن ننفذ ما يأمرن به.
- سككت المرأة وأحسست أنها لا تريد أن تتكلم أكثر من هذا.
- من ذا الذي يطالب بإطفاء الأنوار؟ كيف سيعمل الناس إذا في هذا المبني؟ صحيح أنه أقرب إلي المبني الإداري منه إلي عنابر الإنتاج، ولكن كيف سيعمل الناس هنا. أقنعت نفسي بأن العمل هنا بالنهار فقط. رأيت المرأة تمسك ببطارية تعمل بالحجر الجاف.
- ومن الهانم؟
- بالله عليك لا تسألني يا أستاذ. أخبروني أنهم طردوا أربع عاملات من قبلي لأنهن كن يتحدثن. أنا هنا يا أستاذ لا أري لا أسمع ولا أتكلم. أنا أربي ثلاثة من الأيتام
- لا تخافي يا حاجة. لن أؤذيك، ولكن أوامر من؟
- أضاءت البطارية في عيني. أغمضت عيني خوفا من إضاءة البطارية المباشرة علي عيني. أبعدت ضوء المصباح عني فلمحت نظرة الخوف والرعب تكاد أن تقتل المرأة. قلت لها في رجاء واضح:
- لا تخافي مني يا حاجة. أنا مثل ابنك
- أرجوك يا أستاذ. أرجوك يا بني. سأخبرك أنك مثل ابني ولكن بالله عليك لا تذكر هذا لأي أحد
- اطمئني يا حاجة
- أوامر الأستاذة سارة العسكر
- ولماذا؟
- توفيراً للنقود. أقصد توفيراً للكهرباء
- ربتت علي كتف المرأة وأخرجت عشرة جنيهات من جيبي.

أعطيتها النقود وكنت أتمني أن أجد في جيبى أكثر من هذا. كان لدي ورقتان من فئة العشرة جنيهات. أعطيتها ورقة واحتفظت لنفسى بالأخري. انتظرت إلي أن خرجت أحلام من المصلي وكانت تمسك بيدها بطارية أيضا. ما أحلك الظلام الآن!! نظرت إليها عبر خط الضوء الذي يسري من بطاريتها وقلت لها:

- أنا آسف يا أستاذة أحلام
- لماذا تتأسف؟
- ظننتك غير مسلمة
- دعنا لا نتكلم في هذا الأمر.
- أنا جديد في هذا المصنع. سامحيني.
- ولأنك جديد سوف أدعوك لتناول الشاي معي في الكافيتريا التي في آخر مبني في المصنع
- شكرا لكرمك
- لا شكر علي واجب

تناولت الشاي، ولكنني فجأة لمحتها تقوم مذعورة وتتحدث في الهاتف بعيدا عني بمسافة كبيرة. يبدو أن الأمر مهم جدا. عندما قامت وقعت منها بعض الورقات التي كانت تحتفظ بها في دفتر بحقيبتها. التقطت الدفتر ومن باب الفضول وقعت عيناى علي بعض مما تكتبه. لم تكن بيني وبينها عداوة برغم من خلافنا وبالرغم من أنني تركتها مادة يدها لتسلم علي ورفضت أن أصفحها. يبدو أنني أخطأت عندما وافقت علي دعوتها لأشرب الشاي معها. يبدو أن نار العداوة بداخلي لم تشتعل إلا عندما رأيت ما كتبه. إنها تسب حبيبتي. لقد قرأت وليتني ما قرأت. كتبت في دفترها هذه الأبيات الساخرة والتي تهجو فيها سارة، فغضبت بشدة وأصررت علي أن أترك ما تبقي من كوب الشاي وأصررت علي أن أترك المكان ودفعت ثمن كوبي الشاي وانصرفت في غضب شديد. لقد كتبت ما يلي:

يا سارة يا سارة.... يا بنت الحمارة... لا منك شيكارة.... وشكلك خيارا
وعليك حقارة.... يا أم الحيارى... كفاية غباوة.... يا كهف ومغارة
يا سارة يا غارة.... يا عقب السيجارة... وقلبك وشكلك.... يرد السكاري
بأي أماره.... ما تبقيش حمارة... وفيك يا عيني.... كل المرارة

كيف تجرؤ هذه الغيبة علي أن تسخر من سارتي الحبيبة. ما أن ابتعدت عن المصنع إلا وفكرت قائلاً لنفسي: يالي من غبي؟! إنها لا تعرف سارتي. لماذا أغضب منها. عليها تقصد سارة الأخرى. ابتسمت في نفسي وعزمت علي أن أصالح أحلام. عدت مسرعا إلي الكافيتريا، ولكنني لم أجدها. لقد غادرت المكان تري ماذا ستقول علي؟ ستتهمني بأنني قليل الذوق. غدا إن شاء الله سأصالحها. ولا يهم. سألتقيها في الغد في مصنعنا. أقصد مصنع سارة العسكر.

الحلقة التاسعة

الام الماضي

دخلت كريمة حجرتي وهي تحمل طعام الغداء لي وعلي وجهها ابتسامة ساحرة علي غير العادة مما أثار اهتمامي وسلب عقلي. خمنت أنها رأت حبيبها، وظننت أنه سر سعادتها وابتسامتها. وربما يكون هذا بسبب ملاطفتي لها بالأمس وطلبي منها أن نكون صديقين. ربما لا يتعلق الأمر برجل، ولكن ما الذي يمكن أن يثير سعادة المرأة أو شقاءها سوي رجل؟ أوليست المرأة أيضا سر شقائي وتعاستي الدائمة؟ لم أنجح قط في تكوين علاقة ناجحة مع امرأة. يبدو أن المرأة سر فشلي وتعاستي.

أردت أن أحكي لصديقتي الجديدة هذه الممرضة بعض تفاصيل حياتي لعلي أوطد أواصر الصداقة بيننا. كلها أيام وأخرج من المستشفى، فلماذا لا أستمع إليها، ولماذا لا تستمع إلي؟ كنت أراها تستمع إلي بكل اهتمام. توقفت فجأة فسألتني عن سبب توقفي. قلت لها مازحا وساخرا في نفس الوقت:

— يا لحظه الحلو!! يا لسعده يا لهناؤه!!

— من؟

— الذي استطاع أن يرسم هذه الابتسامة الساحرة علي وجهك

— قصدك من؟

— حبيبك. ها. من سعيد الحظ هذا؟

— لو سمحت...

- نحن أصدقاء يا كريمة ولقد قلت لك اسم حبيبتي. سارة. أتذكرين؟
- نحن في مجتمع شرقي
- وماذا تعنين بمجتمع شرقي؟
- مجتمع ظالم
- ظالم؟ ظالم مرة واحدة؟ لماذا يا كريمة؟
- يسمح للرجل بكل شيء ولا يسمح للمرأة بأي شيء. لقد قلت اسم حبيبتيك لي وأنت لا تعرفني. مجتمع ذكوري ظالم. الرجل فيه له كل شيء، أما المرأة فلا شيء مطلقا لها
- أنت تكرهين المجتمع كله؟
- لا أكرهه، ولكن أحزن لحاله ولحالي
- لماذا أيتها الفليسوفة؟
- أرجوك لا تسخر مني
- والله لا أسخر منك
- أتحدث بجد. مجتمع يظلم المرأة ويسلبها كل الحقوق. أي مجتمع هذا؟ منذ الطفولة وأمي تفضل أخوتي الذكور عليّ بالرغم من أنني البنت الوحيدة. الأولاد لهم الحق في كل شيء. يقفون في النافذة ويقفون في البلكونة ولا يسمحون لي بهذا. ولو وقفت يغضب أبي وقد يزعم أخي أن شابا يقف وقد يراني. يجب أن أختبئ لأنني أنثي. يخرجون متي يشاؤون ويعودون في أي وقت. أما أنا فحبيسة البيت وإذا خرجت فبحساب وبإذن مسبق وتمسك لي الساعة لتحسب لي الدقائق التي أتاخر فيها. القصة تبدأ من قبل هذا. أُمي كانت لا تريدني أنثي. كانت تريدني ذكرا. أعتقد أن أبي اشمأز وغضب عندما علم أن أُمي حاملا في أنثي. لقد عادت أيام الجاهلية. أزعم أنه كان يريد أن يئدني حية ليتخلص مني. أُمي التي هي أنثي تحب أخوتي الذكور أكثر مني. والله العظيم حرام. أين الإسلام ومعاملة الإسلام؟ دوما أنا التي أحصل علي مصروف أقل ودائما أنا المخطئة. دوما ما كانوا ينظرون إلي علي أنني مصدر عار أو مصدر خجل. تخيل أنني البنت الكبرى ودائما ما كانوا ينادون أُمي بأسماء أخوتي الذكور وكأنني نكرة وكأنني لست بكريتها. شيء يغيظ. الجيران ينادونها بأم كريم

وأم كامل وتكون سعيدة بهذا. أنا الوحيدة التي كنت أناديها بأم كريمة وكانت تغضب مني. تتفاخر أُمِّي بأن ابنها صار رجلاً ولا تفتخر بي. كأنها تخجل مني. كأنني ابنة غير شرعية وكأنني عار لها. أما أبي فيتظاهر بأنه يحبني ويدلني، ولكنه غالباً ما ينظر إلي علي أنني مصدر للفضيحة. إذا أتى ضيف أدخل وأستتر ويجلس معه أخوتي.

أوجعني كلام كريمة وظننت أنني مصدر لألم المرأة. لا. المرأة مصدر ألي ومصدر حبي وتعاستي أيضاً. يبدو أن كريمة تري الصورة من زاوية واحدة فقط. عليّ أن أناقشها. الرجل أيضاً نبع آلام المرأة ولكنه قد يكون مصدر فرحها. هكذا قلت لنفسِي. لقد ظننت أن في الأمر رجلاً سبب ابتسامتها، ولكن يبدو أنني فشلت في حدسي. فلأنتظر ولأستمع إلي كريمة أكثر. قلت لها مازحاً:

— هوني علي نفسك يا صديقتي.

— الأمر لا يحتمل يا أستاذ عبدالله

— ماذا حدث؟

— يريدون منعي من العمل. أبي أقسم بالطلاق وبأغلظ الأيمان ألا أخرج للعمل

— لماذا؟

— لأن حسام طلب يدي منه

— جميل. حسام. إذا في الأمر رجل. رجل سبب سعادتك. سبب بسمتك. لقد كنت علي صواب في تفكيرِي.

— الرجل دخل البيت من بابه وأبي يرفض.

— لماذا؟

— قصة طويلة

— أريد أن أسمعها

— المشكلة كلها يا أستاذ أننا في مجتمع ذكوري ظالم متخلف. والله لن ينصلح حالنا أبداً. مجتمع منافق كذاب. قال حقوق المرأة قال؟! إذا كان لا يسمح لها بالزواج ممن تريد.

— آه. ممن تريد. أمسكتك. إذا حسام هو سعيد الحظ. هو حبيب القلب. اعترفي يا صديقتي.

— ليس مسموحاً للمرأة أن تصرح باسم حبيبها. أما الرجل فيسمح له بكل شيء، ويسمح له أن يتحدث بكل تجاربه وغزواته الغرامية ومغامراته العاطفية، أما المرأة فحرام عليها كل شيء. حرام حتي أن تحب. حرام حتي أن تصرح بأنها تحب. المرأة قد تسقط من عين الرجل إن لمحت بالحب أو صرّحت به. قد ينصرف عنها لجرأتها. مجتمع عربي ذكوري متخلف يدّعي العدل والفضيلة وهو غارق في الآثام ومكبّل بقيود الخطايا. باح عنثرة بكل مشاعره تجاه عبلة وصرح قيس بكل حبه وأمطرونا قصائد غزل وحب، ولم نسمع بشاعرة واحدة تحدثت عن حبيبها. حرام. لو قالت شاعرة عن حبها لذبحوها. حرام أن أخرج من البيت بدون إذن. حرام أن أتحدث في التليفون. حرام أن أكلّم أحداً أو أضحك أحداً. حرام. إنها عورة. المرأة كلها عورة.

— هوني علي نفسك.
— كيف. محرومة أنا من كل شيء. محرومة من الحب. أي شاب له الحق في التقدم لأي فتاة وخطبتها، أما البنت فتتنتظر سيادته وتتوسل لمعالیه بعينيها وبنظراتها أو بتلميحاتها أن يخطبها. حرام. النبي محمد عليه الصلاة والسلام خطبته السيدة خديجة. الصحابة كانوا يخطبون لبناتهم. ماذا حدث لنا؟ لقد قاربت الثلاثين ولم أتزوج. حرام. وعندما يأتيني من يريد الزواج بي في الحلال يرفضه أبي، ليس هذا فحسب بل يريدني أن أقعد في البيت. يريد أن يحرمني من نعمة العمل خوفاً من أن يقابلني حسام في الطريق أو أن يأتي لزيارتي في العمل. لقد طرده أكثر من مرة والرجل متمسك بي.

كنت أستمع لكلام كريمة وقلبي يدمي من الحزن. أليست سارة العسكر سبباً لمشاكل لا تنتهي ومآس لا تعد لعشرات بل لمئات من الرجال؟ هل أخبرها بما فعلته بي سارتي التي أفنيت عمري في حبها؟ هل أخبرها بالظلم الواقع علينا جميعاً في مصنع سارة العسكر رجالاً ونساءً؟

أيمكن أن يكون الظلم الذي أحسست به المرأة قروناً طويلة ولمدة أزمنة متتالية السبب المباشر لكل تجبر أو تكبر أو ظلم قد تمارسه

المرأة ضد الرجل لتعوض دهورا طويلة من الظلم الذي عانت منه؟
أيمكن أن يكون إحساس المرأة بالظلم ومعاناتها من نيرانه دافعا لها
لظلم الرجل ولظلم المجتمع الذي تكون فيه.

أفهم أن تظلم المرأة الرجل لتقتص منه، ولكني لا أفهم أبدا أن
تصير شريكة في الظلم لامرأة مثلها. أليست المرأة هي التي تظلم
ابنتها الأنثى لصالح أولادها الذكور؟ أنتنقم من نفسها لكونها أنثى؟
ما الذي فعلناه نحن كعمال لسارة العسكر حتي تشعل نيران
كراهيتها وتحرقنا بها جميعا في مصنعها؟ ألا يمكن أن تكون تنتقم من
نفسها أيضا بإيقاع الظلم بالجميع؟ لاشك إنها إنسانة مريضة أو أنثى
مكلومة. علي أن أبحث في تاريخها وأتقصي لعلني أجد ما يبرر قسوتها
أو جورها الدائم المستمر. كنت أسمع أنها تصرخ دوما وتتحدث بصوت
عال. سمعت من بعض المقربين أنها تسب وتلعن. أقسم لي أحد الزملاء
أنها تشتم رؤساء الورديات جميعا وتلعنهم بالأب وبالأُم أحيانا!!
يبدو أن بتاريخها ما يشير إلي ظلم حاد وألم قاس تعرضت له،
بل إنني أشعر أنها تعرضت لقسوة الأيام ولظلم الليالي. يبدو أنها
نهلت من معين الجور وتشبعت بآلام القهر ورزخت تحت نير
المعاناة من مرارة الأيام وضغوط الشهور وقهر الاحتياج. هذا ما أحس
به وما يجب علي أن أعرفه بالتفصيل. أتمني من الله أن تتاح لي
الفرصة للتعرف علي أسرار كنز جديد في حياتي. علي أن أستكشف
كل هذا وعلي أن أجمع كل معلومة تقع تحت يدي لأعرف بالتحديد
ما الظروف التي صنعت آلة الظلم هذه، وما العوامل التي أدت بها
إلي أن تنحو إلي مثل هذه السلوكيات التي قد لا يطيقها إنسان. ما
الذي يدفع هذه الأنثى الرقيقة إلي أن تصير وحشا كاسرا وكائنا ظالما
يتلذذ بتعذيب الآخرين. يبدو ان هذه ستصير مهمتي المقدسة والتي
عليّ أن افرد لها فصلا جديدا من فصول حياتي.

كانت كريمة تتحدث والدموع تترقرق في عينيها. شعرت بأنها مجروحة
أيضا. أعطيتها منديلا لتمسح دمعاتها. قالت بعد أن انفجرت في البكاء:
— وبعد هذا إن تزوجت بعيدا عن أهلي يقولون خاطئة فاجرة.
جلبت العار لأهلها. يقولون كل الشرور امرأة. أصابت والدايها
بالشلل ووضعت رأسيهما في الطين. يا أستاذ عبدالله لم أشعر

أنني مصدر فخر لأهلي أبدا. دوما أخوتي الذكور لهم كل الشكر والذكر وأنا خاملة تافهة كخرقة بالية لا يهتم بها أحد. تخيل أنني الوحيدة التي تعلمت في بيتنا. أنهيت دراستي الثانوية بتفوق والتحقت بكلية التمريض. أخوتي منهم من حصل علي الدبلوم بالكاد وخرج الباقون من التعليم في سنواتهم الأولى. لم يشفع لي علمي ولم تشفع لي دراستي. قبل أبي علي مضض أن أعمل بالتمريض. قال لي أكثر من مرة إنه حزين لأن المهنة التي أعمل بها سيئة السمعة. قلت له كانت النساء علي عهد النبي صلي الله عليه وسلم تداوي الجرحي وتسقي الرجال بالجيش في المعارك. امتعض وجهه وقبل بعد أن سقت عليه كل أعمامي وبعض المشايخ في المساجد المجاورة. ماذا أحكي لك يا أستاذ عبدالله. والله العظيم أنا الذي أنفق علي بيتنا بالكامل من عملي. الحالة بعد الثورة أنت تعرفها. أبي يجلس علي المقاهي مع أخوتي وأنا التي أعمل وأنفق علي الكل وكأنه واجبي. أي مجتمع هذا؟

— أنت أروع من قابلت في حياتي

— لا تبالغ يا أستاذ عبدالله

— هذه هي الحقيقة. أنت بنت بألف رجل. لا بمئة ألف رجل.

— المشكلة أن أخي كريم. ..

— الذي حصل علي الدبلوم؟

— لا.. الذي خرج من المدرسة وهو في الصف السادس يتحرش

بحسام، وحسام حبيبي..

أخيرا قلتها؟

— بصراحة يستحق أن أسميه حبيبي. وحسام يتحاشاه ويتجنب

الاصطدام به

— لا تقلقي

— أقلق جدا. إنه الوحيد الذي تقدم لخطبتي. أخشي أن يضيع

مني. لقد تجرأ وحدثني أكثر من مرة ووجدته إنسانا محترما

وصادقا وأميناً. إنه رائع ويتسم بالرجولة الحقيقية التي أفنتقدها

فيمن يسمون أنفسهم رجالا في هذه الأيام.

— لا أري مشكلة في كل هذا

- لماذا إذا بعد كل الذي حكيته لك لا تري أنني في مشكلة حقيقية؟
- لأنك علي ما يبدو تحبينه ولأنه يحبك ويتمسك بك
- إنها مشكلة حقيقية
- لماذا؟
- أهلي لا يريدونني أن أتزوج.
- فهمت
- فهمت ماذا يا أستاذ عبدالله؟
- فهمت أنهم لا يريدون أن يذبحوا الدجاجة التي تبيض لهم ذهباً
- المشكلة أن أمي أصرت علي أن تزوج أخوتي الذكور قبل أن يبلغوا العشرين وقد ساهمت في زواجهم. لقد تركوني إلي أن وصلت إلي مثل هذا السن وبعد هذا كله تتهمني نظراتهم بأنني كدت أكون أول عانس في تاريخ أسرتنا. لكم أكره تلك النظرات!! أي ظلم هذا؟ إنها علي صواب. أي ظلم هذا؟ إنه ظلم أشد من الذي تمارسه سارة العسكر في مصنعنا. يبدو أن المجتمع عندما ينتشر به الظلم ويقبله الناس فإنه يعم ولا يفرق بين رجل وبين امرأة. فالجميع يقعون تحت مقصليته بدون تفرقة. الرجل يظلم المرأة والمرأة تظلم أولادها ذكورا كانوا أم إناثا والمرأة تقهر الرجل أحيانا بأفعالها فيقهر من هم تحته في العمل أو في الحياة.
- أي ظلم تتعرض له المرأة بمجتمعنا بشكل عام؟ كلنا مظلومون. الرجال والنساء علي حد السواء. إن مشكلة كريمة كبيرة، ويبدو أنها تتكرر في كثير من البيوت، ولكنني أردت أن أهون عليها. قلت لها وأنا أود أن أضاحكها وأنسيها همها:
- المشكلة أبسط بكثير مما تتخيلين
- لن أتزوجه من وراء أهلي. لن أتزوجه بدون رضاهم.
- أنت متحاملة علي الرجال. أنت متحاملة علينا. قد تكون مشكلتك فردية. الكثير من البنات ربين في كنف الحب وفي رعاية من الآباء والأمهات تفوق حب ورعاية الذكور. صديقي أنت تربي الجانب المظلم فقط. المرأة نصف المجتمع ونور عين الرجال ...
- دعك من هذا الكلام الإنشائي. المجتمع ذكوري. الأم تري ابنها علي خطأ وتفتخر به. ابني يمشي ببنات الناس ويضحك عليهن.

ابني تطارده الفتيات. ابني تطمع نصف النساء فيه. ابني محطم
قلوب العذاري. تفخر هذا وتنسى أن كل هذا علي حساب امرأة
أخري والتي هي ابنة امرأة مثلها. تعلم الأم أن ابنها علي خطأ
وتسامحه أو تمتدح سلوكه الخاطئ، ولا تسمح لابنتها بمجرد أن
تظهر إعجابها برجل آخر. مجتمع أحقق والازدواجية فيه واضحة.
— يبدو أنني لن أستطيع أن أقنعك يا كريمة. لديك فكرة مسبقة
وأتمنى أن أزيلها من عقلك. تقولين المرأة لا يحق لها أن تظهر
مشاعرها ولا أن تصرّح بالحب. اسمعي يا كريمة. أم كلثوم غنت
للرجل وقالت يا حبيبي. يا حبيبي الليل وسماه ونجومه وقمره
وقمره وسهره. أغنية ألف ليلة وليلة. أم كلثوم غنت في الأطلال
وشدت يا حبيبي كل شئ بقضاء
— أتريد أن تخدعني يا أستاذ عبدالله؟
— لماذا؟

— أم كلثوم غنت ألف ليلة وليلة والذي ألف الكلمات رجل. مرسي
جميل عزيز، ومن ألف الأطلال الدكتور إبراهيم ناجي. الذي
ألف والذي لحن رجال. أنتم الرجال تعملون كل شئ ونحن
مجرد أدوات أو دمي في أيديكم لنحقق أغراضكم.
صدمني ردها. لقد أفحمتني تماما فكان علي أن أرفع الرايات مستسلما
لها. أية ثقافة هذه وأي رد هذا. لقد ذكرتني بصديقتي في المصنع أحلام
المطيري التي بهرتني بعلمها وأدبها وثقافتها الواسعة. يجب أن أحكي
لكريمة عن كل شئ. سأحكي لها عن سارتي وعن أحلام وعن سارة
العسكر. يجب أن أخبرها بكل شئ. تري هل ستسمعين يا صديقتي؟

الحلقة العاشرة

عشاق الحرية

انتشرت الفرحة في كافة أنحاء المصنع وغمرت كل شبر فيه.
لمحت الفرحة تكاد أن تطل من أعين كل من في المصنع وتعم
كل العنابر، فظننت أن هناك علاوة جديدة سيتم منحها لكل من
يعملون في المصنع. رأيت الرجال يبتسمون، ورأيتهم يعملون بجد

واقبال أكثر علي العمل علي غير عاداتهم. من قبل كنت أراهم يعملون وكأنهم مجبورون علي العمل ، أما الآن فأراهم يعملون بحب ويسعادة بالغة. أحسست أن الماكينات تغني معهم وتشاركهم بهجتهم، وشعرت أن هدير الماكينات ليس إلا أغنيات تتردد في كل أنحاء المكان. رأيت بعض العاملات سعيدات يرددن بعض الأغاني مع الرجال ويعملن بمهارة كبيرة وهمة فائقة ويبتسمن فرحا. لم أكد أصدق مثل هذا التحول. سمعتهن يرددن وبعض العمال يرددون معهن: «ما أحلاها عيشة الحرية». لم أصدق أنني في المصنع الذي أعمل به. لقد سمعت أحلام المطيري تغني وتقول بصوت عذب جميل: أعطني حريتي أطلق يدي. إنني أعطيت ما استبقيت شيئا. آه من قيدك أدمي معصمي لم أبقه ولم يبقي عليّ مع احتفاظي بعهود لم تصنها وإلام الأسر والدنيا لديّ. لم تكن تكمل باقي الأغنية. كانت تكتفي فقط بهذه الكلمات. لا أدري ماذا حدث. لقد بدأت أشعر أن هناك روحا جديدة تدب في الحياة بهذا المصنع الذي لم أتم فيه إلا بضعة أيام. إنني لم أتم أسبوعي الأول فيه. الفرحة تضي كل الوجوه وتعلو كل الشفاه وتملأ قسماات الوجوه. لا شك أن هناك حدثا استثنائيا لا أعلمه. لا ضرورة لي أن أتعجل. سأعرف علي كل حال ما الحدث السعيد الذي وقع. غنت إحدي العاملات وهي ترفع صوتها وهي تعمل ومن حولها يرددون معها أثناء العمل: اديها كمان حرية. اهتف وقول حرية.... سمعني أنت وهيه. قولوا كمان حرية. كفانا بقي مدارية. احنا بتوع الحرية.... والفرحة والملاغية. صحينا من الفجربة. وهتفنا للحرية. مش هنرضي بالمطاطية.... كفاية بقي مدادية. للظالة المفترية. قول يا علي وقولي يا نجية. كفاية بقي عصبية.... وقسوة بلا حنية. يا ست يا شرانية. دا العيشة بلا حرية. كئيبة وكمان نكدية.... واديها كمان حرية. واهتف وقول حرية. لم أعتد مثل هذه الروح من البهجة والسرور من قبل في هذا المصنع ، بل كنت أري العمال يبتسمون لبعضهم البعض. الاستثناء الوحيد كان همام الحفناوي. كان عابس الوجه وتطل من عينيه نظرات الاكتئاب الممزجة بقليل من الحزن الذي لا يفارقه أبدا. كان يمضغ لقمة في فمه ويلوكها ببطنه المعتاد وكأنه يمتصها ويتلذذ بطعمها. كان يملأ فمه باللقمة ويفتح فمه أحيانا فيصيبني القرف ويبلغ مني منتهاه. إنه لا يشارك الجميع فرحتهم. رأيته صامتا. يعمل في حالة بطء وتهاون علي

عكس كل العمال الذين يعملون بهمة وبسعادة. رفع زجاجة الماء إلي فمه وكان يشرب ببطء أيضا وكأنه يمص الماء مصا. وبعد أن شرب تجشأ مرتين مما أصابني بمزيد من القرف. اقتربت منه وقلت له :
— هنيئا

قاطعني بنظراته ، ثم أسرع وخبأ الزجاجة وكأنه يعتقد أنني أريد أن أشرب منها. بادرته قائلاً :

— أنا صائم اليوم. الحمد لله. لا أريد ان أشرب من زجاجتك
نظر إليّ مستغربا. هدأ قلبه وارتاح باله فقال لي وهو ينظر للمياة التي في زجاجته وكأنه يحتضنها بعينيه ، بعد أن اطمأن أنني لن أذوقها ولن أشرب منها :

— تفضل. لا يهملك. اعتبرها زجاجتك

— شكرا لك. ماذا يحدث في المصنع ؟

— لاشئ

— الناس علي غير عاداتهم

— متخلفون

— لماذا ؟

— أغبياء

— هل سنحصل علي علاوة جديدة ؟

— في المشمش. لا تحلم كثيرا وعش في الواقع

— طيب لماذا تغير الحال هكذا ؟

— لا أعرف. كف عن السؤال واهتم بعملك. أعوذ بالله لا أدري ماذا

حدث للناس. يبدو أن المثل صحيح

— أي مثل يا همام ؟

— اسمي الأستاذ همام

— أي مثل يا أستاذ همام ؟

— إن غاب القط العب يا فار

— لا أفهم شيئا. أي قط وأي فار

— ولن تفهم ولن يفهمون

— أنت تتكلم بالألغاز

— اهتم بعملك يا أستاذ. أنت جديد في هذا المصنع. لا تتكلم كثيرا.

- لا يزال اسمك بالقلم الرصاص.
- وأنت اسمك مكتوب بالقلم الجاف؟ ها ها ها .
- قد يستغنون عنك في أقرب فرصة فلا تتكلم كثيرا
- أنا أحب الكلام ولن يمسك أحد بلساني
- مسكين
- أنا لست مسكينا. أنت المسكين. لماذا لا تشارك الناس فرحتهم
- وسعادتهم؟
- أنا هكذا. طبيعتي هكذا. ربنا خلقني هكذا. هل تعترض علي
- حكمة ربنا يا أخي؟ إذا لم أكن أعجبك فلا تتكلم معي. أعوذ
- بالله. أنت هنا منذ أقل من أسبوع كيف تجرؤ وتتحدث معي بهذه
- الطريقة؟ أنا عمود من أعمدة هذا المصنع. أنا أول من عملت بهذا
- المصنع. أنا الذي أسست هذا المصنع وبنيته علي أكتافي. أنا...
- أية سخافة هذه. ندمت علي أنني تحدثت معه. لا أدري لماذا
- شعرت فيه بنبرة من الغرور والتعالي. شعرت بالكثير من البرود
- في نبرة حديثه. لماذا يا همام؟ كلنا أولاد تسعة. واصلت عملي وأنا
- أتعجب. أردت أن أنصرف من أمامه. بدأت التحرك وابتعدت قليلا.
- رمقني بنظراته وقال لي:
- نصيحة لوجه الله. لا تتكلم هنا أبدا مع أي أحد. لو كان أخوك
- في المصنع هنا معك فلا تتكلم معه. أخوك لن ينفعك
- ربنا سبحانه وتعالى هو النافع الضار
- سبحان الله. حكمتك يا رب أن تخلق الناس مختلفين. لا أتكلم مع
- أحد؟؟ كيف؟؟ سأتكلم وأتكلم ولن يخرس أحد صوتي ولن يمسك أحد
- لساني. لماذا أنت المكتئب الوحيد أيها الرجل؟ شارك الناس وكن معهم.
- ابتعدت كثيرا عن وجهه العكر واتجهت نحو أحلام. كنت
- أنظر لأحلام المطيري وهي تعمل وتغني وكأنها كانت تراقب
- الموقف. أشارت إليّ برأسها ألا أغضب. وأشاحت بيدها وهمام لا
- يراها وكأنها تقول لي دعك منه ولا تتحدث معه. أهذا هو همام
- الذي كنت أتحدث عنه وأراه طيبا؟ لقد قالت لي أنت الطيب. آه.
- يبدو أن هناك أشياء كثيرة لا افهمها. سأفهمها يوما ما، فما أنا
- إلا جديد بهذا المصنع. لست سوي كضيف أو هكذا ينظرون إلي.

حانت ساعة الراحة والغداء. خرس صوت الماكينات وتوقفت الآلات
عن العمل. بعد أن صليت الظهر وأكلت أحد الساندويتشات التي
كانت معي، اقتربت من أحلام وقلت لها متأسفا وأنا أقصد همام:

— أي نوعية من البشر هذا؟

— لا أحد يتحدث معه. أنا أحذرك. إنه يلدغ كالحية ولدغته كالقبر

— لدغة وحية؟! ماذا تقصدين؟

— ستعرف كل شئ في وقته

— أرجو ألا تكوني قد غضبت مني بالأمس

— لا عليك.

— أرجوك أن تسامحيني

— علي أي شئ أسامحك

— لن أقول لك ما فعلت ولكن اسمعي مني هذه الأبيات

— لقد صرت شاعرا

— لست مثلك يا أستاذتنا.

قلت متعمدا أن أغيظها، وأنا أنظر في عينيها الواسعتين الجميلتين
اللتين أحسست أنني أكاد أن أغرق فيهما:

يا سارة يا سارة.... أحبك يا سارة... وكلك مهارة.... يا فن وإدارة
يا علم وشطارة.... يا أصل الحلاوة... وعندك غلاوة.... في قلبي يا سارة
يا روحي يا سارة.... يا أحلي العذاري... يا حب ونقاوة.... أحبك
يا سارة

ابتسمت أحلام. يبدو أنها فهمت أنني قرأت بالأمس ما كانت قد
كتبتة. قالت لي ساخرة:

— يبدو أنك تحب سارة جدا

— طبعا ومن منا لم يحب؟

— سارة الظالمة العنيفة القاسية

— نعم. أحبها وهي هكذا وأحبها وإن صارت أشد قسوة من هذا

— لماذا؟

— سارة حب العمر كله. سارة أحبها منذ كنت في السابعة. اسمها

— سارة ويكفيني هذا.

— عن أي سارة تتحدث؟

- أتحدث عن سارتي. عن حبيبتي.
- آه. فهمت. اعتقدت أنك تتحدث عن سارتنا
- من؟
- اقتربت من أذني وهمست قائلة وهي تتلفت من حولها لتطمئن أن أحدا لن يسمعها:
- سارة العسكر
- أعوذ بالله. سمعت ما يقوله الناس عنها
- حسبت أنك تقول هذا الشعر فيها
- لا. هل يحبها أحد؟ أحبها القبر.
- لمحت بطرف عيني همام الحفناوي يقترب منا، كان يحاول أن يسترق السمع إلي ما نقوله فقلت بصوت عال وأنا أود أن يسمعه همام لأصرفه عما كنا نتكلم فيه فعلا:
- هل كنت تعتقدين أنني أتحدث عن سارة العقاد؟
- العقاد. أتقصد أديبنا الكبير عباس محمود العقاد؟
- سارة. الرواية الوحيدة التي كتبها العقاد. امرأة أحبها فكتب عنها رواية. ألا تريدان أن أكتب لسارتي التي أحببتها عمرا مثل هذه الكلمات الحلوة؟
- أخذت تحدثني عن العقاد وعن أدبه وعن أسلوبه في الكتابة. كانت تحدثني وكأنها تعرفه شخصا كما حدثتني عن نشأته واعتزازه بنفسه. حدثتني عن أنه لم يكمل تعليمه إلا إلي الابتدائية ومع ذلك صار أشهر مثقف وأديب في عصره. قلت لها في هدوء وأنا أهز رأسي بعد أن بهرتني أكثر بثقافتها العالية:
- ومع هذا لم يتردد في أن يحب سارة وأن يعترف بحبها في كل مكان
- لم يكن اسم حبيبته سارة
- أعرف كان يعشق مي زيادة وقد أطلق اسم سارة علي بطة روايته لبيسر لنفسه التحدث عنها.
- إذا لماذا تكتب في سارة أنت؟
- إنها حبيبتي. قد تكون متشابهة مع سارة العقاد. أذكر أنه اتهمها اتهاماً بشعا. لقد وصفها بكلمات قليلة لازلت أحفظها. قال عنها إنها وثنية الأخلاق تعبد جسدها.

- وسارتك حبيبتك؟
- مثلها تماما. لطالما عانيت منها
- أعانيت منها؟
- نعم
- وما زلت تحبها؟
- نعم، ولن أحب غيرها.
- اطمأنت أحلام أن همام قد ابتعد. كان يحاول أن يقترب منا ويستمع إلي ما نقوله. كان يتظاهر بأنه يعبر من أمامنا وكرر هذا أكثر من مرة، ولكنني تأكدت من أنه كان يلقي بأذنيه من حولنا ليسترق السمع إلي كل حرف مما نقوله. أنتظرت واطمأنت إلي أن همام قد ابتعد تماما وإلي أن أحدا لا يسمعنا تماما فقالت:
- أما سارتنا فعدوتي. أنا أكرهها
- اعتدلت أحلام في جلستها وقالت في صوت منخفض:
- آه منك يا سارة.. يا أصل الغباوة.. يا جرح وزبالة.. وكلك نذالة..
- يا ظالمة يا سارة... يا أصل التفاهة... يا خسة وحقارة... يا ظالمة
- يا سارة...
- قلت لها في هدوء وأنا أكاد أن أبتسم:
- أكيد أنك تقصدين سارة أخرى غير التي كنت أحبها
- طبعاً. ولكنني صرت أكره كل من تسمي بسارة. لقد أصابني هذا الاسم بنوع من الحساسية والكراهية علي الرغم من أنني لا أكره أحدا ولم أكره أحدا في حياتي قط
- ألهذه الدرجة؟
- وأكثر من هذا. أنت لا تعرفها.
- قلت لها بعد أن أوشكت ساعة الغداء علي النهاية:
- الناس في المصنع سعيدة فلماذا؟ ما سر هذه السعادة؟
- لقد مشت. سافرت. لن تعود إلا بعد أسبوع
- سافرت قبل أن أراها؟ يا خسارة!! لم أرها إلا مرة واحدة منذ أن اشتغلت بهذا المصنع
- يعني هل ستري السفيرة عزيزة؟ ليتها لا تعود
- أتدري لماذا سافرت؟

- يبدو أنها ستتعاقد مع بعض الشركات الانجليزية لشراء ماكينات وآلات جديدة لمصنعها
- سفر عمل إذا؟
- طبعاً. الله لا يرجعها. يا رب تقع طائرتها. أعوذ بالله
- حرام عليك يا أحلام
- أنت لا تعرف كم سعادة العمال بسفرها. إن الفرحة لا تسعهم.
- معقول؟! سافرت فيسعد كل الناس هكذا؟ غريبة!! لا شك أنها ستعود
- فلننش أسبوعاً في حرية. أف. أعطني حريتي أطلق يدي
- أنت تعشقين الحرية.
- طبعاً. وهل هناك في الدنيا أجمل من الحرية
- سأسميك إذا أحلام عاشقة الحرية
- أنا مع حرية الإنسان لأبعد مدي. لو صح كلامك فكل من في المصنع يعشقون الحرية ويزدوبون في اشتياق لحصولهم علي حريتهم من سارة. ثق أنني لست وحدي عاشقة الحرية، فكل من يعملون في المصنع عشاق للحرية. المشكلة أنها تكبتنا جميعاً. لذا فالكل سعيد وفرحان بسفرها. إنها تشعرني وتشعر كل العمال في المصنع بنيران العبودية وقيود الرق. الله!! ما أجمل الحرية!! أكره جو الاستبداد والظلم الذي نعيش فيه بسببها. نحن في زمن الثورات العربية. لقد ثارت تونس وثار مصر واليمن وسوريا والبقية ستأتي. لكم أتوق إلي الحرية وأتمني أن أشم رائحتها في كل مكان في عالمنا. سنعود أحراراً يا عبدالله أخشي أن أقول لك رأيي فتغضبين مني.
- قل رأيك ولا تخف فلست مستبدة ولا ديكتاتورية
- رأيي يحتاج إلي جلسات طويلة. وحكاياتي تحتاج إلي أيام عديدة. أعدك أن نتناقش في هذا الموضوع يوماً ما. هيا صوت الماكينات يدعونا إلي العمل.

الحلقة الحادية عشرة

دموعي ودموع أُمي

يوم عصيب شاق قد مر بي منذ فجر هذا الصباح. صحت وأنا أشعر بالآلم غريبة تنتابني. أشعر أن عظامي ستتكسر كلما حاولت أن أتحرك. أشعر أن سلسلة ظهري تتكسر إذا ما حاولت أن أثقلب علي فراشي. أشعر أن زقزقة العصافير لها نحيب وكأنها تبكي وتتألم من أجلي في بداية يومها. أشعر أنني أتنفس بصعوبة وكأنني لا أجد هواء كافياً يملأ رئتي. رجلاي لا تكادان تحملاني. سأثقلب علي آلامي وسأقوم للصلاة مهما حدث؟ إن شاء الله سأحاول أن أقوم للصلاة. أقوم وأنا أتأرجح وأقول في نفسي مواسيا لها: الحمد لله علي أنني تعديت الخمسين. ما الذي أريده أكثر من هذا؟ أعمار أمتي بين الستين والسبعين. الحمد لله أن من علي ووصلت إلي هذا السن وأنا بصحة وعافية. أنا بخير وصحة وعافية، ولكن. المشكلة في أمراض الوطن التي يصاب بها ولا يعالج منها أبداً. أمراض الوطن وآلامه مستمرة ومتتالية لا تنتهي. ليتني كنت أنا المريض وكان الوطن سليماً وفي عافية تامة. مرضي يخصني كفرد واحد أما آلام الوطن فيتألم من أجلها الملايين من أهلي. مرض الوطن ينعكس وبشدة وبصورة ملحوظة علي من يعيشون فيه، فصرت أري الناس كأصنام تسير بلا روح وبلا بهجة. الناس متجهمون ويشعرون بالخطر دائماً يتربص بنا. لا أحد يضحك. حتي الابتسامة نسيناها، ولم تعد لدينا سوي ابتسامات السخرية والمرارة. لا أمل صار يعلونا ولا أحلام أمست تحدونا. لا فرحة حقيقية تجمعنا، ولا نصر كبير يوحداً.

كنت كلما تقدمت خطوة للأمام تراجع. كلما وقفت تراجع. وجلست علي سريري خشيت أن تضيع مني صلاة الصبح قبل شروق الشمس صرخت بأعلى صوتي طلباً للمساعدة فأنتني كريمة بطيبتها المعهودة. أعطتني حقنة مسكنة فهدأت وشعرت بمفعولها يسري في جسدي فيخدر الألم ويسكته. نظرت في عينيها وأنا بين النوم واليقظة. دعوت الله لها أن يصلح حالها. تمنيت من الله أن تنتهي كل مشاكلها وآلامها سيهدي الله أبوها وأخوتها ستجتمع بحسام في

بيت يملؤه الحب وتسوده الرحمة وسيكون لها الكثير من البنات والأولاد تحتضنهم وتربيهم كما كانت تود أن تربي. وأنت يا رب سامحني. ستضيع صلاة الصبح لا محالة. أشعر برأسي تدور بي. أحس أن الدنيا كلها تلف وتدور بي. استسلمت ورقدت علي سريري. بدأت صورة الممرضة في التلاشي من أمام عيني. رأيت ملامح وجهها الحزين. ليتني ما تحدثت معها ولا عرفت مشكلاتها. ستحل مشكلاتها. لقد خرجت كريمة وتركتني وحدي. أين أنت يا كريمة؟ طيب وماذا عنك أنت يا وطني؟ ماذا عنك أنت يا بلادي؟ هل أنت حزين يا وطني؟ هل أنت غاضبة يا بلادي؟ مشاكلك تزداد وآلامك تتفاقم. أنت في غم دائم مستمر يا وطني، ومواطنوك مهزومون دوما. أنت في حزن دائم يا بلادي. ألا يحق لك ولهم أن يفرحوا أو يسعدوا؟ متي سنفرح؟ متي سنشعر بثمار كان يعدنا بها الرؤساء الذين يحكموننا؟ كانوا يحدثوننا عن الثمار التي سنجنيتها والإنجازات التي سيحققونها. كانوا يرسمون لنا الصورة وردية متفتحة فإذا بنا نفيق علي كارثة الحقيقة وصراخ الواقع وبكاء المآل الذي وصلنا إليه.

أتذكر بكاءك يا كريمة الطيبة الرقيقة ويا وطني الغالي ويا بلادي الحبيبة، فتختلط صورة بكائك في ذاكرتي مع صورة بكاء أمي المستمر الذي لا ينقطع من أجلك يا مصر ومن أجلنا منذ أن كنا صغارا. لماذا كنت تبكين يا أمي بهية؟ كنت أبكي معك ولكني لن أبكي ثانية يا بهية. ماذا يفيد البكاء؟ هل غير البكاء من حالتنا ونحن أطفال؟ لا يا أمي. كنت أراك وأنت في الصباح تعدين لنا الإفطار ولا تبدئين في الأكل حتي نشبع وحتى ننتهي ونأخذ معنا السندوتشات لنأكلها في وقت الفسحة في المدرسة وتأكلين أنت الفات الذي يتبقي منا. لكم أنت عزيمة يا أمه!! البكاء لا يغير شيئا. لقد عشنا في فقر مدقع وتمرغنا في أحوال الحاجة وسلطة القهر. كنا أقرب للعبيد. لسنا وحدنا يا أمي، ولكن كل شعبنا كان يرزخ تحت وطأة الذل والقهر والاستعباد أمام حاكم يريد أن يكون ظلا لله علي الأرض. يريد أن يمجد كإله تماما وأن يعبد كرب. كل رئيس يأتي يظن أنه أتى لإنقاذنا فإذا به يغرقنا في بحار من الهم وأنهار من الغم. كل من يأتي يجرب فينا وكأننا حقل للتجارب!!

قلت لي يا أمي أكثر من مرة إن البكاء قد يفيد يا ولدي. اليهود يبكون ويتباكون ويغيرون العالم كله. معك حق يا أمي يبكون عند حائط المبكي ويرتفع بكاؤهم علي الذين قتلهم هتلر فيمتلكون العالم. يبكون علي من حرقوا في أفران الغاز ويزعمون أنهم بالملايين وعددهم لا يتجاوز الآلاف ولا يزالون يأخذون التعويضات عنهم حتي الآن. يتحكمون في العالم كله ويتهمون من يشاؤون بمعاداة السامية. ليتنا نحن العرب نبكي مثلهم. ليتنا نبكي طيلة الأيام والليالي. نحن نغني ونرقص وهم يملكون ويتحكمون ويفعلون ما يحلو لهم. نحن نطرب ونفرح ونسعد وحالنا مؤلم يصيب كل من يتأمله بالبكاء لو كان منصفا. ألنا حق يا أمي في الضحك وأرضنا سلبية منا وكرامتنا ممرغة تحت أقدام الطغاة؟

بكت أمي طويلا بعد النكسة وبكت طويلا حتي لا يتنحي عبدالناصر وبكيت معها. وبكت ثانية عندما مات عبدالناصر. لقد سقطت أسطورتها. مات وهو في الخمسينيات. لقد اقتربت نهايتي. تقول أمي وأنا أقرأ الرأفة في عينيها: الأعمار بيد الله يا ولدي. أنا تعديت السبعين والحمد لله وأنا في أحسن حال.

رأيتك وأنت لا تبكين من أجل مصائبنا وكوارثنا في مصر وحدها يا أمي، لقد كان بكاؤك يمتد حتي يشمل مصائبنا العربية والقومية. كنت تبكين وكنت أظهار بالقوة وأنا أهدئ من روعك بلا جدوي. بكيت طويلا عندما دخل صدام حسين الكويت واعتبرها محافظة ضمن محافظات العراق. صرخت ومألت الدنيا صواتا عندما طلبت دول الخليج المعونة من الولايات المتحدة الأمريكية. أتذكر مقولتك الشهيرة وقتها والتي مألت الدنيا وقتها: «والله يا ولدي لو دخلوا فلن يخرجوا أبدا. ياللمصيبة!! ياللكارثة!! ضعتم أيها العرب. سينهبونكم ولن يدعوا شيئا. سيأخذون كل شيء. سيتركونكم علي الحديدة».

آه يا أمي. لقد سبقت نظرتك البسيطة كل تحليلات الساسة المتعلمين. كنت أعتقد أن الأزمة ستم وتنتهي بسرعة وستحرر الكويت فإذا بأحد لا يتحرر، وإذا بأساور الذل وقيود العبودية توزع علي الجميع وإذا بنا جميعا نصب أساري للوهم وعبيدا لمشروع استعماري جديد. أنت أدركت بالغريزة وبالفطرة ما يحدث. أنت دائما علي

صواب وبعيدة النظر فيما يحدث.

تبكين دوما يا أمي عندما كنا نشاهد أرض العراق وهي تدمر. رأينا الحرب ورأينا الدعاية المجانية للآلة العسكرية الأمريكية وهي تقتل أخواننا في العراق. شاهدنا بأعيننا حضارة تغتال وشعبا يدمر. رأينا اطفالا وشيوخا يقتلون وأرضا تحرق وكرامة تباد.

ألن تجف دموعك بعد يا أماه؟ إلي متي ستبكين يا أماه؟ هل ستبكين طيلة العمر وهل سنواصل مسيرة البكاء بعدك؟

كنت أرد عليها قائلاً: أنتم جيل الخير والبركة يا أمي. أنتم الخير كله. أنتم طعمتم من خير مصر قبل أن يلوث بالأدوية والمسرطنات. أكلتم بالسمن البلدي، أما نحن فكل شئ كنا نتناوله كان ملوثا ومصنوعا بلا ذمة أو ضمير. حتي وإن كان مزروعا فبلا حب أو يقين. أتذكركم لحوم الكلاب والقطط التي أكلناها يا أمي في عهد السادات؟ صفقة كانت مشهورة ليثري الأغنياء فيه علي حساب الشعب الفقير الجاهل المسكين. أتذكركم وقوفنا بالطوابير علي الخبز وعلي المجمعات الاستهلاكية لنشتري اللحم المستورد والذي لا نعرف مصدره؟ أتذكركم التلوث والقرف الذي كنا نستنشقه كل يوم؟ أماه، نحن نعيش علي دعواتكم ونعيش بخيركم، ولولا ذلك لمتنا منذ زمان بعيد. نحن جيل نعيش علي البركة. أنتم الجيل الذي تأسس في أيام الخير، في أيام الطبيعة البكر، فلا شئ يلوثه. كنتم في أيام الإيمان والخير. أين نحن منكم يا أمي؟

كانت تحتضنني في ود، وكنت أخفي عيني وأنا أبكي. كنت أنتزع نفسي من حضنها وأبتعد قليلا وأدير وجهي بعيدا عنها لأمسح دموعي. إنها تعرف كل شئ وتفهم حقيقة ما يدار من حولنا وكأنها خبيرة استراتيجية ومفكرة لا يشق لها غبار.

كدت أن أغيب عن الوعي من تأثير الحقنة المسكنة، ولكنني أفقت علي صوت أقدام تسير بطريقة عسكرية خلف باب حجرتي. أنا أحفظ صوت هذه الخطوات منذ أن التحقت بالخدمة العسكرية بعد أن أنهيت دراستي بكلية الآداب. كانت أسوأ سنة قضيتها في حياتي. لقد كرهت الجيش وكرهت العسكرية والجندية وكرهت كل شئ. كرهت حتي العدس والفول. كنت أكذب علي أمي وأقول لها إني بخير. الأكل

كثير والمعاملة طيبة. كنت أتحدث معها وأنا أقسم وأنا أعلم أنني أكذب عليها. هل أقول لها إنني كنت أتضور جوعاً وأري مطعم الضباط يكتظ بكل الخيرات وبما لذ وطاب؟ آه يا أمي. ميز الضباط. ونحن العساكر ليس لنا أية أهمية. هم السادة الضباط ونحن العساكر العبيد. هل أقول لها أنني تعلمت أقذع ألفاظ الشتائم والإهانات واعتدت على الجبن والسكوت بل والرضوخ وتنفيذ الأوامر حتي وإن كنت غير مقتنع بها؟ قلت لها نكتة علي سبيل المزاح. قلت لها نحن بخير ونأكل السوس بالفول. قالت لي تقصد أنكم تأكلون الفول بالسوس. قلت لها ضاحكاً: تقولين نأكل الفول بالسوس هذا يعني أننا نأكل الفول وقد نجد سوسة أو سوستين بالفول. لا يا أمي. نحن نأكل السوس بالفول. أي الموجود سوس ونأكل إن وجدنا فولة واحدة أو فولتين. ضحكنا طويلاً وضحكنا حتي غلبني البكاء فدخلت حجرتي لأواصل بكائي بعيداً عن أمي وعن أخوتي. كانت تعلم جيداً ما أعانيه وتقول لي وهي تضحك: يا بني الميري ميري ولو علي سرير. يا بني ما أصعب حكم الفرد. لكم حكمنا أفراد. أرادوا أن يتظاهروا بالديموقراطية وبالحرية التي هم أوصياء عليها.

لم أكن أستطيع أن أقول لها كل المعاناة التي أنا فيها. لا أريدها أن تبكي، ولكن أختي أبلغتني أنها كانت تبكي دائماً. آه يا أماه. متي يأتي اليوم الذي تتوقفين فيه عن البكاء. أكنت تشعرين بما أعانيه فكنت تبكين؟ لحظات قليلة تمر وأنا أترجح بين الوعي واللاوعي وينتابني الألم. تطرق كريمة الباب. أعلم معني صوت طرقاتها. انقبض قلبي لأنني أدركت أن هناك شراً يتربص بي. أعلم دائماً أن هناك مصيبة تنتظرني. طرقاتها لا تنبئ بخير. كنت أسترق النظر إلي طرقاتها. سمعت صوت أقدام تسير بخطوات عسكرية توقفت معها. سمعت كريمة تقول:

— إنه متعب جداً ولقد أعطيته حقنة مسكنة منذ دقائق

سمعت نفس صوت الضابط الذي كان برفقة الضابط الأعلى منه رتبة. اسمه الضابط شديد. آه تذكرته جيداً. الضابط شديد. كان نقيباً. علي كتفه تلمع ثلاث نجمات. أما الضابط الأعلى رتبة منه فكان اسمه مصطفى. آه تذكرت جيداً. يلمع علي كتفه نسر. إنه رائد

في الجيش. لقد عرفت كل هذا من خلال تنصتي علي أصوات من يتكلمون بالخارج. قال لها الضابط شديد بشدة توازي اسمه وبعنف يوازي غضبه وكأنه يأمرها:

— يجب أن نحقق معه الآن.
— قلت لحضرتك إنه قد لا يستطيع أن يتكلم الآن. إنه تحت تأثير الحقنة المسكنة

— وأنا قلت وقولي أمر يحب أن ينفذ الآن. ألا ترين هذا المجند؟
ارتفع صوته قليلاً وهو يصرخ بها قائلاً:
— اطمئن يا عيد. ستعرف إن كان من بالداخل هو الذي ألقى عليك قنبلة الغاز أم لا.

— طبعاً يا باشا. يمكنني أن أتعرف عليه من بين ألف رجل
— عين عيد عبد الباقي لن تضيع هدراً

ضرب الضابط الباب بقدمه بشدة ودخل. أصابني الفزع وجعلني أفكر في الهرب. أين سأهرب؟ سأختفي. سألعب معهم لعبة العسكر واللصوص. كنت قد أعددت كل شيء في رأسي. نزلت تحت السرير لأختفي منهم جميعاً ولأختفي من حياتي. سأهرب من واقعي قليلاً كما كنت أفعل دوماً في كل موقف صعب يواجهني. الهروب خير وسيلة للدفاع. وجه شديد نظراته إلي كل شيء في الحجرة كأنه يوجه طلقات من الرصاص إلي أهدافه التي يعرفها جيداً. أصابني الفزع والخوف. نظر الضابطان إلي المجند عيد ضئيل الحجم وهو يمسك عينه التي راحت وأخذ يحدق بعينه الأخرى في كل مكان بالحجرة وكأنه يفحص كل شيء داخلها!!

الحلقة الثانية عشرة

دموعي تتزايد

أكتم أنفاسي تماماً. لم أتحرك ولن أتحرك. إن وجدوني سأمثل أنني ميت. سيقولون: لعله مات فجأة أو فقد الوعي. سيغلهم جسدي المتخشب وشكلي المتصلب. سيفاجئهم لساني الذي لا ينطق. سيفاجئهم تمثيلي الذي أتقنه جيداً. هكذا تعلمت أصول وقواعد لعبة الاختفاء في حياتي. كنا نسميها لعبة الاستغماية. كنت بارعاً

فيها. ما الحياة إلا كر وفر. هروب وتواجد. إقبال وإدبار. كنت أتساءل أين يذهب القمر عندما تظهر الشمس؟ لاشك أنه يختفي وتظل الشمس تبحث عنه ولا تجده. أين يكون برد الشتاء عندما تشتد حرارة الصيف؟ إنها لعبة الحياة. التخفي سنة الحياة وسنتي أيضا. حتي وإن قبضوا عليّ سأخبرهم أنني وقعت ولم أدر بنفسى وسيصدقوننى. أنا أخاف من الضباط وكنت دوما أعشق دور اللص. صرخ الضابط شديد من الغضب وصاح بكريمة:

— أين ذهب مريضك؟

— لا أعلم.

ضرب باب حمام الغرفة بقدمه بشدة وخرج والغضب يملأ كلماته. كتمت أنفاسى تماما. طلبت منه كريمة إذن النيابة بالقبض علي فصاح بها قائلا: نحن نفعل ما نريد. نريد عبدالله المصري. قال إنه يهتف لسقوط آل العسكر. كان يقصد سقوط سارة العسكر التي تعذبه وتعذب زملاءه في المصنع. لو صدق حدسى فسيكون له مكانة كبيرة عندنا. أشعر بولائه لنا. البلد تحتاج في هذه اللحظات الفارقة إلي وطنيين مخلصين أمثاله. رأيته وأدركت كم يتقطع قلبه علي الرئيس مبارك وعلي حال الوطن. قال لي والدموع في عينيه: تحيا جمهورية مصر العربية. تحيا مصر يا باشا. كلنا فداء لمصر ابتسمت كريمة وقالت:

— الحمد لله يعني عبدالله المصري ليس متهما

— أبدا

أمر الممرضة أن تنصرف فخرجت في الحال بعد أن طلب منها أن تصفني للمجند. أعطت وصفا مغائرا تماما. غضب الضابط وقال لها: ليس هذا عبدالله الذي رأيته. قالت له إذا صفه أنت له يا حضرة الضابط. لا أدري لماذا كنت أشعر بالأمان والممرضة معي، ولا أدري لماذا حرصت علي أن تضلل المجند. إنها تعرفني جيدا ولقد دققت في ملامح وجهي عندما تحدثنا. أه لك يا كريمة!! يبدو أنك أكثر حذرا مني. يا للمصيبة!! الضابط مصطفى يقترب مني. كنت أتففس ببطء شديد. علي أن أكتم أنفاسى. لو نظر أحدهم تحت السرير لكشف مكانى. ظللت متجمدا مكانى. تذكرت

موقف النبي عليه الصلاة والسلام ورفيقه بالهجرة إلي المدينة المنورة سيدنا أبا بكر عندما قال للنبي: لو نظر أحدهم تحت قدمه لرآنا. طمأنه الرسول قائلا: يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟ اللهم كن معي يا رب وألهمني الصواب. حاولت دائما أن أكون معك يا رب فكن معي. أنا عبدك عبدالله المصري الضعيف المسكين. كلامه للممرضة كريمة يطمئنني ولكني أخاف من الضباط. إنهم لا يضمنون لي شرا. يبدو أنني أسأت الظن بهم. يبدو أنهم يريدونني معهم. يبدو أن الحظ سيبتسم لي. أبدا لا أظن أن الحظ يبتسم لأمثالنا نحن الذين يحاصروهم النحاس. أمي كانت تقول لو عرف السعد أننا في مكان لزار مكانا آخر. كانت تبتسم وتقول هذا وتضيف لو علم الحظ أننا نسلك طريقا لسلك هو طريقا آخر. شعرت بالاطمئنان قليلا وفكرت للحظة أن أخرج من مكاني والحمد لله أنني لم أخرج. نظر الضابط مصطفى إلي شديد وقال:

- كيف تقول هذا للممرضة؟
- ستخبره بكل ما قلته وأنا أريده أن يطمئن لنا
- يا باشا ليس مفروضا أن نكشف أوراقنا
- نحن نكشف ما نريد ونخبي ما نريد
- ماذا سنفعل الآن؟
- سننصرف وسننتظر أن يأتيانا عبدالله المصري بنفسه أو نذهب إليه
- في مصنع سارة العسكر
- لا أعرف كيف تفكر
- ستعرف فيما بعد

أمارس هذه اللعبة وأتقنها جيدا. كنت بارعا في لعب دور اللص وأنا صبي. لم أكن لأسمح لأحد بالإيقاع بي أو بإلقاء القبض علي عندما كنا نلعب. الوحيدة التي كنت أسمح لها بأن تمسك بي وأن تجدني سارة. حبيبتي سارة. سارتي الحبيبة. نور العمر وساكنة الفؤاد. كانت تلعب معنا وتشاركنا لعبنا ولهونا البرئ. الوحيدة التي تعلق بها قلبي وسكنت نهاري وعلقت بكل ليالي حياتي. طفلة حياتي كنت أمارس هذه اللعبة. أتخفي وأهرب ولا أستطيع أن أواجه. ليتني واجهت ما حدث لي في مصنع سارة العسكر. لا

أعرف. كنت كلما قربت من المواجهة هربت. لعلي تشجعت مرة أو مرتين فسبب لي هذا المزيد من المشكلات والصدمات مع زملائي بالمصنع. تذكرت عندما واجهت نجدي البقري هذا الفظ السمين مدير الشؤون القانونية. إنه كالبقرة الحلوب علي الرغم من كونه ذكرا. كنت أعتقد أن سارة تحلبه وتحصل منه علي كل ما تريد. كان يرتدي بنطلونا بحمالات. اسم علي ما يسمي. البقري وهو أشد سمنة من البقر. لو أنصف أهله لأسموه نجدي الجاموسي. الجاموسي اسم يليق به أكثر. تذكرت أنني عندما رأيته لأول مرة سخرت من الاسم. نجدي. أعوذ بالله. أشيطان هو؟ عندما اجتمعت قريش في دار الندوة لإيذاء محمد، تمثل لهم الشيطان في صورة رجل وقال أنا شيخ من نجد. ضحكت كثيرا عندما عرفت أنه يسمي بنجدي.

كنت أغمض عيني وأحلم بهذا الشيطان النجدي، وبالفعل كان كما تخيلته. نجدي الجاموسي او نجدي البقري. لا أدري لماذا تذكرت وأنا تحت السرير مختفيا أيضا صاحبة أطول ضحكة صفراء في التاريخ. زميلتنا بالمصنع. رجاء شوكت. لم أواجهها قط. واجهت نجدي البقري ولم أواجه رجاء هذه. ليتني واجهتها. يبدو أن نجدي ورجاء برزا إلي سطح ذاكرتي لأنني خشيت جدا من الضابطتين شديد ومصطفي. المجند طيب وهادئ ومسكين ومصاب في عينه ويبدو أنه فقدها. لقد برز إلي سطح ذاكرتي الآن أيضا رئيس ورديتنا ندا عبدالعليم وهو يقول:

— عيوننا للأستاذة سارة العسكر ولمصنعها وحياتنا فداء لها

أي نفاق هذا؟! لا أريد أن أسرف في ذكرياتي بمصنع سارة العسكر وبمن فيه. أخشي أن تفضحني ذكرياتي فأغضب فأحدث صوتا وقد يسمعي من يتربصون بي ويبحثون عني. دع الذكريات لوقتها يا عبدالله.

تحكي لي أمي قائلة: كنت تغمض عينيك وأنت صغير عندما لا تريد أن تري أحدا. كنت تعتقد أنه لن يراك. ليتنا يا بني عندما نغمض عيوننا لا نجد ما يؤلنا، ليتنا عندما نغمض لا نري ما يؤذينا. عندما كبرت كنت سريعا في الجري وماهرا في التخفي وفي التمثيل. يبدو أنك تؤمن بأن الجري نصف المهارة وأن التخفي كل المهارة.

كنت أقلب عليك كل لأماكن ولا أجد لك مخبأ. يا بني المواجهة
أفضل حل. تشجع يا بني وواجه الحياة.
لا يا أمي. سأظل أهرب.

سأظل أغمض عيني وأتخفي وأهرب ما حييت. أنت لا تدركين
يا أمي أنني عندما أغلق عيني فإنني لا أهرب فقط، إنني أحلم
أيضا. أرجوك يا أماه وأرجوك أيتها الحياة لا تحرميني من نعمة
الحلم. أليس في الحلم الحياة؟ أليس في الحلم اللجوء إلي لذة الحياة
ومتعها التي لا أستطيع أن أحققها في واقع مؤذ مريع قاس؟ أليس
الهروب أفضل لأمثالي من الضعفاء والفاشلين والمحطمين والذين لا
يستطيعون أن يفعلوا أي شئ؟ ما الذي يستطيعه البؤساء والمهمشون
في هذه الحياة. إنهم لا يستطيعون فعل أي شئ فيرضوا بالبقاء علي
هامش الحياة. يرضون أن يكونوا في ذيل قطار الحياة. يرضون بالذلة
والمهانة. يرضون بالضيء وبالوضاعة ويقنعون بالذلة والاستكانة.
أستكثرون علي لذة الحلم؟ يبدو أنني أعجبت بشخصية أحلام
المطيري لهذا السبب؟ لقد جعلني أسمها أطيير في دنيا الخيال والأحلام
وجعلني أيضا أغوص في عالم من الذكريات والآمال.

كنت بعد أن أقع في يد سارتي الحبيبة برغبتني وطواعية أغمض
عيني. كنت أغمض عيني وأحلم أنها تقترب مني وتقول:

— أمسكتك

— نعم وأنا أيضا أمسكتك

— أنت الذي تهرب ولا يستطيع أحد أن يمسكك

— تركت لك نفسي لتمسكي بي يا سارة

— لا أصدق أنني أمسكتك

— ولا أصدق أنني أمسك بيديك الحبيبتين. لا أصدق أنني بجوارك

يا سارة. أنت لا تدركين مدي سعادتي وفرحتي وأنا بجوارك.

كل الصبية ليسوا معنا. سأظل بجوارك أيتها الغالية. أود أن نظل

هكذا بمفردنا فلا يرانا أحد ولا يعكر صفونا أحد.

— لقد تأخرنا يا عبدالله

— فلنتأخر

— سيظنون أنني لم أجدك

- دعينا وحدنا يا سارة. لا تتكلمي. دعيني قريباً منك. لكم أود أن أظل أنا وأنت فقط في هذه الحياة. أريد أن نكون بعيدين عن الحياة كلها. أود أن أكون بجوارك ما حييت.
- لماذا يا عبدالله
- لأنني. .. لأنني. ..
- لأنك ماذا؟
- لأنني. ..
- انطق وقل لأنك ماذا؟
- لأنني
- أفيق فجأة من أحلامي البعيدة جداً وأجدها تصرخ بصوت عال وتقول والفرحة تتملكها:
- أمسكتك بسهولة
- يأتي جميع الصبية وتتعجب البنات ولا يكادون يصدقون. تقول لهم في تعجب والهواء يطير شعرها الجميل الذي أتمني أن ألمسه يوماً:
- أنتم تقولون أن أحداً لا يمكن أن يمسكه
- أنظر إلي شعرها الأصفر الجميل الذي أود أن أقبله وأقول لها في تحد:
- فعلاً لا يستطيع أحد الإمساك بي.
- لقد أمسكتك بسهولة
- فلنلعب ثانية وسأريك يا سارة
- تفرق الصبية وتفرقت الفتيات وجريت بكل ما أستطيع من قوة واختفيت فوق شجرة تسلفتها بسهولة وصرت أري الجميع ولا يراني أحد. أغمضت عيني وحلمت بها. سارتي الحبيبة. تقترب مني وتتوسل إلي. نظرت إلي قائلة:
- دعني أمسك بك هذه المرة
- هل صدقت أن أحداً لا يستطيع الإمساك بي؟
- نعم
- سارة. أريد أن أقرب منك أكثر. دعيني أقرب من يديك حتي تمسكي بي. أريد أن أقرب منك أكثر. سارتي. ..
- اسمي سارة
- اسمك سارة عند كل الناس ولكنك سارتي أنا

- سارتك؟
- نعم سارتي وحياتي أنا
- سأقترب منك أكثر. أمسكتك
- أنا الذي تركتك تمسكين بي
- لا تقل هذا أمام الصبية حتي لا أغضب منك
- لا أستطيع أن أتحمل غضبك
- لماذا؟
- لأنني.. لأنني.. ..
- لأنك ماذا؟

يا لجبني وخوفي!! لماذا تشل أيها اللسان ولماذا لا تستطيع أن تجيب. لماذا تنشط في الخيال وفي الحلم وتعجز في الحقيقة؟ ألا تستطيع أن تخبرها؟ أستطيع ولكن كيف؟ أين أنا وأين هي؟ أين أنا من سارتي؟ مجرد حلم لا أستطيع أن أبرزه إلي واقع حقير. اعترف لها أيها الغبي. لا أستطيع. أنا مجرد فقير يؤيني بيتها. إنها تتكرم علي وأهلها يحسنون إلينا. أليست هذه هي الحقيقة؟

جعلتها تمسك بي للمرة الثانية. حلمت بها وأنا متيقظ كما حلمت بها وأنا أغط في منامي. وعدتني أن تخبرهم أنني تركتها تمسك بي، ولكن عندما جاء الصبية والفتيات قالت في تكبر وغرور والكل ينظر إليها بإعجاب :

— أنا الوحيدة التي أستطيع أن أمسك به.

فعلا. أنت الوحيدة التي أحلم بك وأتمناك. أنا الذي جعلت منك نجمة وبطلة في أعين كل هؤلاء، ولقد كنت أنت النجمة الوحيدة في حياتي وبطلة قصتي المؤلمة يا سارتي. ما حلمت بأحد غيرك يا سارتي. غصت في حبك وتمنيت أن ألثم التراب الذي تسيرين عليه. وها أنا ذا ثانية أغوص في أحلامي وأتيه في هروبي وأتساءل: لماذا كتب علي عشقها؟ لماذا يكتب علي أن أحلم بما ليس لي؟ أفق. أفق. لقد صرخت أُمي عندما قلت لها:

- أريد أن أتزوج سارة عندما أكبر
- يا نهار أسود.

— نهار أبيض ورائع يا أُمي. لماذا تسودين النهار؟
لطمتني علي وجهي بشدة وضربت كفا بكف وقالت :

- إياك أن تقول هذا ثانية
- سأقول هذا ثانية وثالثة
- أيها الغبي
- لست غبياً يا أمي
- غبي وابن غبي
- إنها معي في المدرسة وأحصل علي درجات أفضل منها
- سيطردوننا من بيتهم
- الرئيس عبدالناصر قال ارفع رأسك. سمعته في الخطاب يقول
- إنه ابن رجل بسيط كان مرتبه ثمانية جنيهاً وصار رئيس
- الجمهورية. العدالة والمساواة
- يا عبدالله لا تجنني.
- كلنا سواسية بعد الثورة يا أمي. لا أحد أفضل من أحد
- يا بني إنهم أسيادنا. أبوك كان يشتغل عندهم ونحن نعيش هنا
- بكرمهم
- لقد خدمهم أبي ويردون لنا الجميل. لقد قالت أم سارة هذا
- الكلام وسمعته بأذني
- مجرد كلام يطيبون به خاطرنا
- عندما أكبر سأزوج سارة
- أحلام وأوهام
- إذا سأعيش في هذه الأحلام حتي تتحقق
- أخشي أن تعيش فيها دوما يا عبدالله
- معيشتي في الأحلام خير لي من أن أقبر في مدافن اليأس يا أمي. لقد
- درسنا مقولة مصطفى كامل لا يأس مع الحياة ولا حياة مع اليأس
- أخذتني أمي في أحضانها وربت علي ظهري وأخذت تبكي. نزلت
- بعض دموعها علي رأسي. شعرت بها وكأنها تحرقني. سألتها عن
- بكائها فقالت:
- تتحدث بنفس طريقة أبيك يا عبدالله. كان يحلم أن يشتري
- قيراطين من والد سارة ولكنه مات بعد أن ظل يجمع النقود علي
- أمل أن يصبح ملاكاً لقيراطين من كدنا وعرقنا.
- أبي لم يمت يا أمي

- نعم. لم يمت. من خُلف لم يمت.
- أبي قتل يا أمي كما فهمت من والدة سارة
- من قتله يا أمي؟
- لا نعلم. لم تعرف الشرطة من قتله
- غلت الدماء في عروقي وقلت لأمي ملوحاً بقبضة الغضب ودموعي تتساقط علي خدي:
- من قتل أبي يا أمي؟
- لا أعرف
- دمه في رقبتي وثأره عليّ أنا. أنا ابنه الكبير. لن يضيع دم أبي هدرًا.

يبدو أنني سأظل أبكي وأنتظر.

دموعي ظلت تتساقط طيلة حياتي ولم أستطع أن أوقفها. هدأت قليلاً عندما خرج الضابطان ومعهما المجند من الحجرة. هدأت ومسحت دموعي. اقتربت مني كريمة فأمسكت بيديها وقلبي يضرب خوفاً. اضطررت للعودة إلي مكاني المفضل للاختفاء تحت السرير، ولكن كريمة أدخلتني الحمام وأغلقت الباب بجسدها السمين. أخبرتني كريمة أن شديد أصر علي أن يرفع ملءة السرير ويبحث عني في الحجرة كلها ولكنه لم يجدني لأنني كنت في الحمام الذي فتشه من قبل فلم يجدني. خرجوا ومسحت كريمة دموعي، لقد كانت ثاني امرأة تمسح دمعاتي بعد أمي.

الحلقة الثالثة عشرة

أم سفيان

أردت أن أوقع بعض الأوراق حتي أقدمها لأحد الجهات الحكومية لأثبت أنني أعمل بهذا المصنع. تعمدت أن أذهب إلي العمل مبكراً قبل وريثة عملي بساعتين. تيقظت مبكراً كعادتي وصليت الصبح ودعوت الله أن أنجز هذه المهمة. خشيت أن أتأخر في الطريق المزدهم الذي يوصلني للمصنع، فالشارع مزدهم دوماً. أزمة المرور تخنقني وتصيبني بالقلق والتوتر والإحباط.

ذهبت في طريقي إلي المبني الإداري وظننت أنني أول من يصل إلي المصنع ، ولكنني كنت واهما. العمال في المصنع ، والماكينات تدور. يا لغبائي!! لماذا أتيت مبكرا؟ لا أعتقد أن رئيس وريدتنا الأستاذ ندا عبد العليم سيحضر مبكرا.

لقد كنت واهما أيضا. أول وجه قابلته كان وجهه المبتسم والذي تملأ ابتسامته وجهه دائما حتي أذنيه. لا أعرف سر ابتسامته الدائمة هذه. أشعر أنه سيظل يبتسم حتى وإن ضايقه أحد أو سبه. وددت أن أسأله ذات مرة عن سر ابتسامته هذه. أعتقد أنه ولد من بطن أمه بهذه الابتسامة التي لا تفارقه أبدا. ليتني أعرف لماذا لا تتغير ملامح وجهه. يوما ما سأتعهد إغاضته أو مضايقته لأري إن كانت ستختفي هذه الابتسامة أم لا. يبدو أنه يعيش في سعادة. هكذا ظننت. حتي وإن كانت الحياة سعيدة فلابد من بعض الأمور التي تكدر صفو الأيام وتشغل البال. عرفت بعد هذا أنه لا يكاد يفارق المصنع سوي ساعات معدودة. لقد كرث حياته كلها للمصنع.

اقتربت منه وطلبت منه أن يوقع لي أوراقي. نظر إليّ في ابتسامته المعهودة وقال:

- لست أنا الذي أوقع هذه الأوراق
- لماذا يا أستاذنا؟ أنت رئيس وريدتنا
- ليس هذا من سلطاتي
- طيب ماذا أفعل؟

تركني في حيرتي وذهب فلقد رن هاتفه الذي لا يكف عن الرنين. كان الله في عونهِ. سبحان الله وهو رئيس الوردية ليس من حقه التوقيع علي هذه الأوراق. شعرت أنه تعمد أن يهرب من توقيع هذه الأوراق. يبدو أنه لا يمتلك سلطة حقيقية.

قررت أن أذهب إلي المبني الإداري وأسأل عن الشخص الذي يمكنه أن يوقع هذه الأوراق.

نظرت إلي المبني الإداري من علي بعد وأخذت أتأمل فيه. إنه أشبه ما يكون بالمبني الأثري. إنه عتيق فعلا. وجدت صور سارة العسكر معلقة في كل مكان. صورها معلقة في كل حجرة وعلي جدران كل المكاتب.

إنها صورة سارة العسكر بابتسامتها المريحة وأسنانها البيضاء اللامعة. تذكرت أنني غسلت أسناني في الصباح وحلقت شعر ذقني علي غير عادتي، فصارت لامعة ناعمة كالحرير. سكبت بعضاً من الروائح علي ذقني فلسعتني الرائحة بعد أن جزت شفرة الحلاقة كل الشعيرات النابتة، فلقد أبلغوني أن الأناقة شرط أساسي للعمل في هذا المصنع. رأيت أيضاً علي الجدران صور الرؤساء السابقين. صورة الرئيس جمال عبدالناصر وصورة الرئيس السادات وصورة الرئيس مبارك. تساءلت عن سبب عدم وضع صورة الملك وصورة سعد زغلول. يبدو أن هذا المصنع يمتد بجذوره ليضرب في أعماق التاريخ. سمعت من قبل أن آل العسكر يمتد نفوذهم إلي ما قبل أسرة محمد علي. كان بعض الناس يشتطون فيقولون أن جذور الأسرة تمتد إلي ما قبل ذلك وبالتحديد إلي الأسرة الخامسة عشرة من أيام الفراعنة. هذا يعني أنها أسرة تمتد إلي ما يزيد عن سبعة آلاف سنة. لا أصدق كل ما يقال. يكفيني أن أعرف أنها أسرة عتيقة وأن سارة العسكر تنتمي إلي هذه الأسرة. وسارتي الحبيبة سارة العمر ومهد الحب وحلم الأيام وأمل الليالي أيضاً تنتمي إلي أسرة عريقة من قدامي الإقطاعيين. لقد كنت أري فيها ملامح كليوباترا وشموخ شجرة الدر وروعة جيهان السادات. حبيبتي سارة كانت قد اختزلت كل التاريخ في شخصيتها التي نعمت بحبها دهوراً طويلة. آه يا سارتي. كنت كل مرة أراك فيها أشعر وكأنني أراك لأول مرة في حياتي. أي حب هذا الذي يقلب حياة العاشق رأساً علي عقب؟ أي حب هذا الذي يشغل الذهن ويدمي القلب فلا يري سوي الحبيب يماً الدنيا؟ آه يا سارتي الحبيبة التي رأيت نور الشمس وضياء القمر في عينيك. آه يا سارتي الرائعة يا من كانت منابع النيل تخرج من ثنايا ضحكاتك. عليّ أن أخرج من ذكرياتي وأحلامي الآن لأوقع أوراقتي. أنا الآن في النهار يكفيني أن أستحضرها في ليالي العمر الباقية وإن كنت أزعم صادقاً أنها ستملاً كل لحظة في حياتي إلي أن أموت.

دخلت المبني الإداري وتذكرت أين رأيت سارة العسكر أول مرة كطيف مربّي سريعاً. لم أستطع أن أتحقق جيداً من ملامح وجهها. لقد كانت تبتسم عندما حكم علي سيف غرس الدين بخصم ثلاثة

أيام من راتبي الهزيل الذي لا يتحمل أن يخصم منه جنيه واحد. كانت تبتسم وتسمع كل شئ. كنت أتمني أن تتألم لخصم الثلاثة أيام من راتبي الهزيل. لم يهتز لها ساكن ولم يتحرك لها جفن. رأيتها تخرج من أحد المكاتب وفي يدها بعض الأوراق، وكأنها تنسل ببطء. لا أدري لماذا طرأ ببالي صورة لحية كبيرة الحجم تتلوي رأيتها في أحد البرامج التلفزيونية. جمعت في ذهني بين صورة الحية الرقطاء ناعمة الملمس وهي تتلوي في حركتها وبين سارة العسكر وحركاتها وهي تسير محرقة بديها وناظرة في خيلاء إلي جسدها. كانت تسير في عجلة وكأنها تطير أو تقفز من علي الأرض. تحاول أن تبدو وكأنها مهمة. تسير وتحاول أن تظهر أنها صاحبة عمل جادة وأنها صارمة وحازمة. ملامحها صارمة صادمة، ومع هذا رأيتها جميلة أو هكذا خيل لي. نفس طريقة الحية في الحركة. سريعة وكأنها تتعمد أن تفاجئ من يعمل أو تتعمد أن تبهره. لا أدري لماذا نظرت إليّ وابتسمت. أنياب الحية أفرغتني في اللقطة التلفزيونية، ولكن أسنان سارة كانت بيضاء لؤلؤية لامعة تسر العين حقاً. ليس هذا فحسب، بل وعيناها ملونتان. صحيح أنني رأيتها قصيرة، ولكنها كانت بيضاء ممشوقة القوام. هكذا رأيتها. لم تزد المدة التي رأيتها فيها عن بضع ثوان، ولكن صورتها انطبعت في ذهني طويلاً.

لا يزال جو السعادة يخيم علي العمال والموظفين في المصنع. الكل يبتسم. عندما دخلت المبني الإداري لم أر نفس الوجوه العابسة والعيون المترقبة. أخشي أن يكون العبوس والحزن من متطلبات العمل في هذا المصنع. يبدو أنها لم ترجع من السفر بعد.

كنت أسير في أمل أن أنتهي من توقيع الأوراق. رفعت صوتي وقلت: الله يخرب بيتك يا سيف يا قلع الدين. كنت أقصد هذا الرجل الظالم الذي عاقبني بخصم ثلاثة أيام من راتبي بدون وجه حق. وجدت رجلاً أمامي يضع يده علي فمه وكأنه يشير إليّ أن أسكت. خمنت أنه أحد الموظفين في المكتب. كان يرتدي رابطة عنق أنيقة. حليق الذقن. كان عابس الوجه وكأنه لا يبتسم أيضاً. قال لي عندما اقتربت منه إن اسمه أمجد. لم أفهم لماذا يضع يده علي فمه وقلت له في تحد واضح وإصرار علي أن أكمل كلامي وأوصل إليه رسالتي كاملة:

— يا أستاذ أمجد، آه. الله يخرب بيته وبيت أهله. الله يخرب بيتك يا قلع الدين. قال غرس الدين قال. لو صدقوا لأسموه نتف الدين أو خلع الدين. أعوذ بالله. يا ساتر يا رب. يا ستير. كل أسماؤنا خطأ. رئيس تونس كان اسمه زين العابدين وكان أكبر عدو للدين. ورئيس ليبيا كان اسمه معمر وخرب ليبيا وأدخلها دوامة التخلف والفقر. رئيس اليمن كان اسمه علي عبدالله صالح وكان أكبر الفاسدين المفسدين. الأسماء كلها بالعكس يا رب؟ أعوذ بالله. ابتعد أمجد عني في وجل ظاهر لم أفهم سببه، وأشاح بوجهه. أمسكت أوراقى وذهبت إليه قائلاً في رجاء أن يستمع إليّ بعد أن ابتعد مرة واحدة في هلع:

— يا أستاذ أمجد، لو سمحت، أريد أن أوقع هذه الأوراق أتاني صوت من خلفي. أزعم أنني أعرف صاحب هذا الصوت حتي وإن اختلفت النبرة. لقد سمعت نبرات هذا الصوت من قبل، ولكنني لم أتذكر لمن هذا الصوت. يبدو أن صاحب هذا الصوت قد اختفي خلف أحد الجدران فسألني صاحب الصوت:

— طيب والرئيس مبارك؟

التفتت وبحثت عن مصدر الصوت، ولكنني لم أجد أحداً فقلت:

— الرئيس مبارك؟ حبيبي. أبو علاء رائد نهضة مصر الحديثة. مبارك وهو حقاً مبارك. أنا أحب الرئيس مبارك. أحب صاحب الضربة الجوية. صاحب البنية التحتية. عاش الرئيس مبارك وعاش جيش مصر. عاش المجلس العسكري. بلادي بلادي بلادي. لك حبي وفؤادي. والله لسوف نندم علي هذا الرجل وعلي أيامه. شعب لا يعرف مصلحة نفسه. رجل عظيم. كان أمجد قد أخذ مني الأوراق ونظر فيها. كان يضع يده علي فمه وكأنه يشير إليّ ألا أتكلم، ولكنني لم أكن لأفهم ما يقصده. نظرت إليه وقلت:

— لماذا تضع يدك علي فمك يا أستاذ أمجد؟ هل الكلام ممنوع هنا؟ لم يرد الرجل. سمعت مصدر الصوت الذي لم أر صاحبه يقول:

— يبدو أن سيف غرس الدين هذا قد ظلمك

— ظلمني فقط؟ الله يخرب بيته وبيت أهله ويخرب سبعة بيوت بجوار بيته وبيت أهله

- لماذا؟ يبدو أنه رجل مؤذ؟
- خصم مني ثلاثة أيام من راتبي لأنني كنت أصلي. قال واسمه غرس الدين. لو أحسن أهله لأسموه حلق الدين. الراتب لا يسمن ولا يغني من جوع. الحياة غالية. ألا يحس هذا الرجل بنا؟ أنا جديد في هذا المصنع. كان يكفي أن يحذرني
- يبدو أنك تحبه جدا
- أحبه؟ أنا أحبه؟ أبدا. لو رأيته وتمكنت من رقبتة لخنقته حتي يصير جثة هامدة.
- ساد الصمت قليلا. يبدو أنني أخطأت في الكلام. لسانك يجلب لك المشاكل دائما يا عبدالله. هكذا كانت تقول أمي دوما وتحذرني. تذكرت زميلتي في العمل نهاد. كنت أراها صامتة تماما. لم تتحدث معي إلا بكلمتين: «لا تتكلم». سأتكلم وليكن ما يكون. لن أخرس أبدا. لن أطيعك يا أمي ولن أطيعك يا نهاد. سأتكلم وسأقول ما أشتهي. ملعون أبو الخوف. محروق أبو الجبن.
- نظر لي الأستاذ أمجد وقال لي وكأنه في مهمة رسمية وكأنه يريدني أن أنصرف من أمامه متظاهرا بالعبوس والجدية :
- هذه الأوراق يجب أن توقعها أم سفيان
- ابتسمت في البداية، ولكني لم أتمالك نفسي من الضحك. قلت له في سخرية واضحة متسائلا وأنا أقهقه بل وأكاد أن أموت ضحكا:
- أنت تتكلم بجد؟
- ليس مسموحا لنا بالمزاح في العمل
- أم سفيان بنفسها؟
- طبعا
- يعني ألا يجوز أن توقع أم جهل بدلا عنها؟
- لا يا أستاذ عبدالله
- طيب وأم لهب تلك الشهيرة بأم جميل حمالة الحطب؟
- أنا لا أهدر في العمل يا أستاذ
- تقصد أن أم سفيان بنفسها هي التي يجب أن توقع علي هذه الأوراق؟
- نعم يا أستاذ. كلامي واضح
- يا أستاذ أمجد، هل أنت في كامل قواك العقلية؟

- نعم
- أم سفيان بنت حرب؟ يبدو أنك تقصد أن تمزح؟
- لا والله. أم سفيان هي التي يجب أن توقع علي هذه الأوراق
- كلمني بالعقل يا أستاذ أمجد.
- والله أتحدث معك حقاً
- أبو سفيان هو الذي سيوقع علي هذه الأوراق؟ مضبوط؟
- لا. أم سفيان
- أتريد أن تصيبني بالجنون يا أستاذ أمجد؟
- لا
- ومن أين لي بأم سفيان؟
- عندما تأتي ستوقع هذه الأوراق
- هل أنتظرها إلي أن تأتي من مكة؟ أتزعم أنها في بيت الندوة؟
- بالله عليك كلمني بالعقل
- بدأ أمجد يبتسم رغماً عنه. أخرج ضحكات مكتومة حاول أن يمنعها ولكنه فشل.

ظننت أنه يسخر مني فصرخت وجمعت الموظفين وخرج الرجل الذي كان مختبأ خلف الجدار والذي كان يحدثني ولا أراه. لم أهتم في البداية لأنني رأيته من ظهره. لقد رأيته. يا للمصيبة!! إنه سيف غرس الدين!! تأكدت أنه سيف قلبي لا محالة. إنه صاحب الصوت الذي كان يحدثني من خلف الجدار. فهمت لماذا كان أمجد يضع يده علي فمه. كان يريد أن يمنعني من الكلام ولكنني غبي لم أفهم. لقد سببت الرجل ودعوت عليه بالخراب. كنت أعرف أنني سمعت هذا الصوت من قبل. يا الغبائي!! طالما أنه سيف قلبي فسأواصل سخريتي وسأضحك علي الجميع. قلت لأمجد وأنا أتحدث باللغة العربية الفصحى:

— أيها الرجل، أتزعم أن أم سفيان هي التي يجب أن توقع هذه الأوراق؟ ويحك يا رجل!! أتتهزأ بي؟ أتسخر مني؟ تبا لك. سأستل سيفي وأدك عنقك. ليس سيف غرس الدين. بل سيفي أنا. مصنع ممتلئ بالحمقى والمغفلين. مصنع من أعماق أعماق التاريخ. أم سفيان وهذا سيف غرس الدين. أعوذ بالله. وأين صفيّة بنت حيي بن أخطب؟ أعرف أنكم ستفصلوني من العمل.

أم سفيان وسيف الآن وبعد قليل يطل علينا قيس بن الملوح وعنترة. سأقدم استقالتي. سيف هذا خصم ثلاثة أيام من راتبي لأنني صليت. تري ماذا ستفعل بي أم سفيان لو رأته أسبح الله أو أستغفره أو أصلي علي رسول الله؟ ما بالكم لو طلبت الذهاب إلي العمرة أو طلبت إجازة للذهاب إلي الحج؟ سيطالبون بتوقيع عقوبة الإعدام عليّ لاتهامي بتهمة الخيانة العظمي للمصنع. بلا قرف. سرت موجة من الضحك عمت الجميع ووقع بعضهم علي الأرض من كثرة الضحك. رأيت ندا عبد العليم بابتسامته المعهودة. لم يضحك ولم يقهقه. هو هو بابتسامته لم تتغير. لم يخرج صوتا ولم تزد ابتسامته. ضرب بعضهم كفا بكف من شدة الضحك. لمحت الضحكات البريئة تنساب علي وجه سيف غرس الدين لأول مرة فشعرت بطيبة فيه لم أعهد لها من قبل. كان يضحك ويشير إلي ليطمئنني أنه لن يفصلني. شجعتني ضحكاته ونظراته. أمسكت بخناق أمجد الذي كاد يموت ضحكا وقلت له بنفس اللغة العربية الفصيحة:

— هل أنتظر أم سفيان إلي أن تأتي من البادية؟ أنتظر عفراء حتي تجهز لها الهودج الذي ستأتي به إلي هنا؟ بالله عليك حدثني بالعقل. يبدو أنك تقصد هند. هند هي التي ستوقع؟

سرت عدوي الضحك بين الجميع. أتي بعض العمال. ابتسمت النساء. همام الحفناوي الوحيد الذي لم يبتسم وبانت عليه ملامح الغضب في حين أن نهاد كانت تود أن تضحك ولكنها منعت نفسها وأخفت ابتسامتها أيضا. لم أستطع أن أقاوم رغبتي المحمومة في الضحك والتمثيل فقلت لأمجد الذي يبدو أنه مات بالفعل من كثرة الضحك:

— أتكذب علي أيها الخرجي؟ لست من الأوس. أتريدني أن أنتظر إلي أن تأتي أم سفيان من البادية؟ أظن أنني أركب الناقة أيها الأمجد؟ ويحك!! أم سفيان وسيف. عبق التاريخ يحاصرني؟ متي الغزوة إذا يا أمجد؟ أنت إذا من قبيلة زرارة ومجاشع وأبي الفوارس نهشل. يبدو أنك تقصد أم سفيان بعد أن أسلمت وأسلم زوجها. من دخل دار أبي سفيان فهو آمن. الله أكبر لقد فتحت مكة. لم يستطع أحد أن يقاوم الضحكات التي كانت تخرج رغما عنا جميعا. واصلت إحكامي لتمثيل الدور فقلت للجميع:

— لا يمكن أن أصدق ما يقوله هذا الأبله. يريدني أن أنتظر إلي أن تخرج إلي أم سفيان من صفحات التاريخ لتأتي إلي هنا لتوقع هذه الأوراق؟ هل ستوقع أوراقى أنا عبدالله المصري؟ هل أنتظرها حتي تأتي من القرن الثامن إلي القرن الحادي والعشرين؟ كم سننتظرها إذا؟ خمسة قرون مثلاً؟ لن أنتظر ناقتها. أتزعم أنها ستأتيني بسيارة فارهة مكتوب عليها ملاكي قريش؟ لا. لا أصدق. كيف سيسمح لها أبوسفيان بأن تأتي بدون علمه؟ هل تريد أن تجنني وتجنن هؤلاء القوم؟ وماذا سيقول سفيان؟ أتزعم أنه سيأتي معهما؟ سيأتي بسيارته الفيات أم سيأتي راكبا عذزته الصغيرة؟ قل كلاماً معقولاً يا أستاذ أمجد. لم أضحك في حياتي مثلما ضحكت في هذا اليوم. لقد كان يوماً حافلاً في تاريخ عملي وكان يوماً مشهوداً يحلف به الجميع بهذا المصنع. ليتني ما ضحكت، وليتني ما أضحكت من بالمصنع يومها. حتي من لم يحضر هذه الواقعة فقد ضحك وشبع ضحكا. مساكين أنتم يا من تعملون بهذا المصنع. ينقصكم الضحك وتنقصكم لحظات البسمة والفرح. الحمد لله أنني أضحكتكم.

أخذ سيف غرس الدين بيدي وأنا في قمة الذهول وأمسك ندا عبد العليم بيدي الأخرى وأدخلاني مكتب سيف. ساد الصمت لحظات ولا زالت ابتسامة ندا علي وجهه كما هي دون تغيير. اقتربت من سيف وقلت له :

— أعلم أنك ستفصلني

— لا لن أفصلك

— أنا أعرف أنك رجل طيب ومحترم

— لم يكن هذا كلامك منذ لحظات. كنت تسبني وتدعو عليّ بخراب بيتي

— لم أكن أعلم أن حضرتك تسمعي. لقد كنت تختفي خلف الجدار. علي كل هذه استقالتني جاهزة

— لن أقبل استقالتك. ستواصل العمل معنا

— الله يكرمك يا باشا

— ولكني سأخضع من راتبك ثلاثة أيام أخري

- عرفت. هذه المرة بتهمة الضحك. الحمد لله. خصم ثلاثة أيام أحسن من الفصل
- وعليك ألا تكرر ما حدث مرة أخرى. إني أحذرك
- شكرا يا أستاذنا. خصم ستة أيام من الراتب. الحمد لله علي كل حال. تحت أمرك يا باشا.
- أردت أن أخرج. شعرت بالسعادة لأنني نجوت من الفصل. الحمد لله. اقتربت من سيف وقلت له في تصنع للأدب:
- أريد أن أوقع هذه الأوراق طالما أن حضرتك لم تفصلني من العمل. ذهبت للأستاذ ندا وقال إنه ليس من سلطته أن يوقعها
- وليس من سلطتي أيضا أن أوقع أية ورقة في هذا المصنع
- من سلطة من إذا يا باشا؟
- قال سيف وندا في نفس الوقت وبصوت واحد: «من سلطة أم سفيان». حاولت أن أهدأ قليلا. فتحت فمي لأتكلم ولكن سيف غرس الدين فاجأني قائلا: «أم سفيان هي سارة العسكر يا عبدالله يا مصري»
- كتمت أنفاسي تماما ونظرت إلي صورة سارة العسكر وغشيني الصمت تماما. قلت بصوت لا يكاد يسمع لسيف باشا:
- كيف هذا؟
- تزوجت وأنجبت كبقية النساء وأسمت ابنها الصغير بهذا الاسم فصار لقبها أم سفيان
- يا للمصيبة!! إذا لم تفصلني أنت فستفصلني هي. أنا أعرف حظي السيئ. لقد أضحكت الجميع. يبدو أنني الذي سأبكي
- إن شاء الله خيرا. سأناقش هذا الأمر مع أبي سفيان
- خرس لساني عن الكلام. لقد ادركت هذه المرة من هو أبو سفيان. خرجت من المكتب وأنا أردد في نفسي قائلا: «ويحك يا عبدالله المصري من أبي سفيان وزوجه. ويحك يا ابن المصري».

الحلقة الرابعة عشرة

أبو سفيان وسارتي

قادني سيف وندا إلي مكتب عبدالله البندري الملقب بأبي سفيان. سأتمالك نفسي ولن أضحك أبدا في هذا المصنع العتيق. ما أحببت في حياتي سوي الشجن والبكاء والحزن. ضحكت وأضحكت الناس فتم خصم ثلاثة أيام أخري من راتبي. إن الضحك واحتني وواحة الملايين من المطحونين في هذا البلد. يبدو أننا تعودنا علي الحزن والهم والبكاء. لم يعد من حقنا أن نضحك. الضحك في حياتي قليل. مرات قليلة نادرة وندمت علي كل مرة ضحكت فيها. ما ندمت علي الحزن والبكاء أبدا. لماذا نضحك؟ أنضحك علي حالنا السيئ الذي يزداد سوءا يوما بعد يوم. ألا يقولون إن الضحك يطيل العمر وينشط عضلات القلب؟ يبدو أنهم يريدون أن يقصفوا أعمارنا ويخرسوا قلوبنا فلا تنبض. طيب حاضر. سنسكت ولن نضحك. لقد نسي الناس الضحك ولكنه تسليتي الوحيدة ومتعتي المجانية. سأضحك لنفسي وبنفسي في البيت وسأعبس وتملاً تكشيرتي وجهي أمام الناس. سأخرس وأخيط شفتي فلن أضحك أمامهم ثانية. كانت أمي تزجرنا وتنهرنا ونحن صغار وتقول في حزم: الضحك من غير سبب قلة أدب. بعدما نضحك ونقهقه نحن أطفالها، تظل هي واجمة مكفهرة ترتدي قناع الحزن والخوف علي وجهها ويبدو عليها القلق والترقب وتقول: خيرا. اللهم اجعله خيرا. لماذا نترقب الشر كل الشر بعد الضحك؟

آه يا أمي وألف آه. طيب والحزن والبكاء دوما كما كان حالك باستمرار أيعد من الأدب؟ لم تكن أمي لتضحك أبدا. ما تلوثت شففتها بابتسامة ولا ملأت فمها بابتسامة عريضة قط. كانت مهمومة دائما. يا أماه. كنت أقول لها طيب تبسمي. كنت أغني لها وأرقص عجيزتي وأهز جسدي وأغمز لها بعيني اليميني وأرفع حاجبي الأيسر وأقول لها ما سمعته من إحدى الأغنيات ذات يوم في الراديو: تبسم والنبى. النبى تبسم. عليه الصلاة والسلام. صلي الله وسلم عليك يا سيدي يا رسول الله.

ذات يوم رجعت من المدرسة إلي البيت فوجدتها تنقي الأرز من الحصى والطوب في مصفاة متهالكة. قلت لها مازحا لأضحكها وأزبل آثار الهم من علي وجهها الذي ينطق حزنا:

— مرة واحد صعيدي وقع علي قصبة رجله.. مصها

— طيب وبعد هذا ماذا حدث؟

— مرة واحد صعيدي فهم.. مات

— الله يرحمه ويرحمنا

أمسكت أُمي بأذني برفق وقالت في حنو وبصوت يملؤه الأسى:

— اسمع يا عبدالله. سأقول لك أنا: مرة أسرة مات عائلها فكادت

أن تموت من الجوع. مرة أبوك مات ولم نعرف من قتله ولم تعرف

الشرطة أيضا. مرة جمعت أمك هذا الأرز من القمامة لتأكله ومرات

عديدة كنت أجمع لقيمات الخبز من القمامة لتأكلوا. يا عبدالله

مرة أسرة لم تجد ما تأكله فكان كل من فيها ينامون جوعي.

مرة أسرة فقيرة يدخل الشتاء عليها ولا تجد ما تتدفأ به. مرة

أسرة أرادت أن تأكل اللحم فلم تجد سوي لحم القطط والكلاب.

مرة اضطرت أمك إلي الزواج حتي تطعمك. صدقني والله العظيم

لم أتزوج إلا أبوك من أجل الزواج. كل مرة تزوجت فيها كانت

من أجلك ومن أجل أخوتك. لم أحب سوي والدك. خرج الزوج

الأول بعد أبيك فلم يعد. عرفت أنه مات. مرة أمك تزوجت مرة

ثانية لتطعمكم فإذا بزوجها الثاني يذهب إلي الخدمة العسكرية

ويموت في الحرب. مرة أمك كانت تصطاد العصافير لتطعمكم بها

بعد أن تذبحها وتسلقها لكم. مرة أمك كانت تبني بيت بلا عشاء

لتوفر عشاءها وتطعمكم. مرة كنا نبيت جوعي بالليالي. قال ثورة

قال؟ ماذا فعلت الثورة لنا؟ مرة ثالثة أمك تزوجت وكان زوجها

يبيع كل شئ لدينا ومرة باع أثاث المنزل ليسدد ما علينا من

ديون وطردنا في الشارع وصرنا أضحوكة العالم. مرة بلد اسمها

مصر كانت تبكي لما ضاعت منها أرضها. مرة اليهود أخذوا منا

أرضنا. مرة شعب تم الضحك عليه واستغفاله بل واستحماره. مرة

رئيسنا قال مصر ستبقي دولة عظمي. مرة رئيسنا قال سنضرب

إسرائيل ومن وراء إسرائيل وسنرمي إسرائيل في البحر وضربتنا

إسرائيل وأهانت كرامتنا. وقال ثورة قال؟ ماذا فعلت لنا يا جمال؟ زاد الفقر وزاد الجوع. نري المصانع والمشروعات ويزداد جوعنا. أين ثمار الثورة التي وعدتنا بها؟ كله كلام في كلام. من للفقراء ومن للجوع يا جمال؟ ما نتيجة الثورة إذا لم تتحسن أحوالنا؟ مرة شعب تم الضحك عليه وقالوا لنا في ثورة وستتحسن الأحوال. متي يا ناس ومتي يا عالم يا هوه؟ متي؟ مرة أسرة كانت تنام في حجرة علي السطوح والمطر يخر عليهم وأطفالها يصرخون من البرد. مرة ومرة ومرة ومرات يا عبدالله. .

أخذت أمي تبكي كعادتها. أخذتني في حضنها وبكت وتواصل تحببها. بكيت معها من جديد وتلاشي مفهوم كلمة الضحك من حياتي لفترات طويلة واختفي من قاموس كلماتي وسلوكياتي طويلا. أغرقتني دموعها كما أغرقتني دموعي أيضا. فهمت ما كانت تريد أن تقول. مرة كنت أبيت جائعا أنا وأخوتي وكانت أمي تضحك علينا وتصبرنا وتغلي الماء لتفهمنا أنها تعد لنا الطعام حتي ننام. كنت أنا الوحيد الذي أفهم لأنني الكبير ولأنها خدعتنا بهذه الخدعة أكثر من مرة. نعم يا أمي. أنت علي صواب. حتي الشيخ في الجامع كان يقول أكثر من مرة: كثرة الضحك تميت القلب. حتي الدين يأمرنا بالبكاء علي خطيئتنا. وفي القرآن الكريم يقول الله سبحانه وتعالى: فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا. حاضر يا أماه. فهمت مقصدك. لكني لن أدعك تبكين طويلا. سأحاول يا أمي جاهدا أن أكون مجرد شئ يسعدك. لدي ما أخبرك به يا أمي. لدي ما يكفك دموعك ولو قليلا.

أخرجت كراستي من حقيبتي القماشية وقلت لها:

— مرة ابنك طلع الأول علي الفصل. أخذت عشر درجات ونجمة وصفق لي كل التلاميذ. أنا الوحيد الذي حصلت علي الدرجة النهائية وأنا جوعان. مرة كنت أود أن أفرح لأنني الأول علي الفصل وبكيت وبكيت أنت يا أمي معي. سارة لم تحصل سوي علي ست درجات من عشر درجات. مرة سيكون لي مستقبل يا أمي وسأتعلم. مرة سنخرج من فقرنا. مرة سنستعيد أرض سيناء وسنهزم اليهود.

— أحلام وأوهام يا عبدالله

- أنت متشائمة
- الواقع صعب
- كفرت بالرئيس عبدالناصر؟
- أرضنا ضاعت وفقرنا يزداد
- ليس ذنبه يا أمي.
- ذنب من إذا؟
- ظروف بلد
- احلم كما شئت ولكن لا تضحك إلا بعد أن تحقق حلمك
- شجعيني يا أمي وابذري في بذرة الأمل
- لا أمل
- لن أضحك يا أمي

مسحت أمي دمعاتي واحتضنتني ثانية. سأطرق كل أبواب الأمل يا أمي. أشعر ببذور الأمل وهي تنثر علي. خطوات حبيبة إلي قلبي أستمتع إليها. أراها تنزل وتتهادي من علي الدرج. ستأتي إليّ حالا. رأيت نظراتها الفخورة بي في المدرسة. أول مرة أقرأ ابتسامة رضاها عني في الفصل. أعرف أنها ستأتي وتطرق بابنا الخشبي المتهاك. طرقات سارة حبيبة العمر أحس بها تقترب. يدها الحلوة البيضاء الناعمة ستطرق الباب بعد دقائق. أراها تسير وتتهادي ونسمات الهواء تطير شعرها الأصفر الناعم الجميل. الهواء يطير طرف جيبتها الواسعة فأأمل ملامح ساقها الرائعتين. لكم أحبك يا سارتي !! لكم أتمني أن أقول لك فقط إنني أحبك !! لا أدري لماذا تنحبس كلماتي داخلي فلا أستطيع ان أنطق بهاتين الكلمتين أمامك وفي حضرتك. أنا أحبك. إنني أقول لك مئات الكلمات فلماذا أعجز عن قول هاتين الكلمتين لك؟ أراها وهي بعيدة عني تزبح بعض خصلات شعرها التي نزلت علي جبهتها. تبتسم في هدوء ووداعة وكأن الكون كله يبتسم معها وكأن قلبي أيضا يتراقص علي أنغام ضحكاتها. أحس بصوت خطواتها. أستطيع أن أستمتع إليها من علي بعد.

خلعت الجلباب القذر الذي أنام فيه ولبست مريلة المدرسة ومشطت شعري في المرآة المكسورة وغسلت وجهي من آثار الدموع. سألتني أمي:

- لماذا كل هذا؟
- سارة ستطرق الباب حالا
- لاشك أنك تحلم
- أنا متأكد يا أمي
- أنت تحلم

أنتظرت ثوان كعمر طويل وأنا أري نظرات الريب والشك في عيني أمي وكأنها تشفق عليّ من آثار حلمي وهذياني. فتحت أمي فمها وقالت وكأنها تريد أن تؤكد لي أنني مخطئ:

— لا تحلم كثيرا يا عبدالله

لم تكذ تنتهي من كلماتها حتي اتجهت نحو الباب. لم نسمع صوت أية طرقات. فتحت الباب فوجدتها تمد يدها لتطرق الباب. إنها هي. إنها هي. حبيبتي سارة. نظرت إليّ في فخر. أزاحتني بيدها في دلال ودخلت في جراحة لتسلم علي خالتها أم عبدالله كما تدعوها. نظرت إليّ أمي بحب وحنان واقتربت مني وقبّلتني. قرأت في عينيّ أمي أنها صدقتني وأمنت بكلامي وأمنت بصدق حدسي. أنا لا أحلم يا أمي. اتجهت سارتي نحو أمي وقالت:

— ماما تدعوكم لتناول الغداء معنا

ثم اتجهت سارة إليّ قائلة:

— طلبت من ماما أن تسمح لي بأن تأتي لتذاكر معي يا أول الفصل كنت أنظر لعينيها والسعادة تغمرني. أول الفصل. أتمني أن أكون الأول في قلبك وفي حياتك يا سارتي. ألا أستحقك؟ ألسنت رجلك؟ أتمني أن أكون لك ومعك دوما. آه يا لسعادتي!! سأدخل حجرتها لأول مرة. سأري المرأة التي تنظر إليها. سألمس مقبض الباب الذي تلمسه. سأري الكرسي الذي تجلس عليه وقد أجلس عليه أنا. سألمس الألعاب التي تلعب بها. سأري سريرها الذي تستلقي عليه. لكم أتمني أن أتمدّد عليه وهي بجواري. لكم أتمني أن تكون بجواري وأحدثها وتحدثني. آه يا سارتي الحبيبة.

فجأة وجدت نفسي وجها لوجه أمام صورة سارة العسكر التي تحتل جزء كبيرا من مكتب أبي سفيان. كان يجلس زائغ العينين مضطربا. آه. إنه عبدالله البندري. تذكرت اسمه جيدا. متي يا

عبدالله المصري؟ آه. تذكرت. أذكر أننا سعدنا عشرات الدرجات حتي وصلنا إليه في الطابق الأعلى. كان سيف وكأنه يشدني من يدي ليخرجني من أحلامي بسارتي فإذا بصورة سارة العسكر تفاجئني. تذكرت لقد قدمني رئيس ورديتي لسارة العسكر عندما رأيتهام لمدة لا تزيد عن بضع ثوان. آه. تذكرت لقد اشمأزت عندما أخبرها باسمي وقالت ألا يكفيناهذا الحمار القابع بالداخل عبدالله البندري؟ آه. فعلا لقد كانت تقصد زوجها.

نظرت إليه وللمرة الثانية أشعر بالشفقة عليه. لقد نعتته زوجه بالحمار عندما ذكر اسمه أمامي أول مرة والآن أراه خائفا مضطربا فزعا زائغ العينين غائب الذهن تقريبا. كان عبدالله البندري ينظر بكل حب وود إلي صورة سارة العسكر. لما رأي سيف أنظر إلي صورتها لكزني بكتفه واقترب من أذني وقال لي في همس لم يسمعه أحد سواي: «لا تنظر للصورة طويلا. عبدالله البندري يغار علي سارة العسكر. إنها زوجه يا غبي».

كدت أضحك في نفسي. إن صورها معلقة في كل مكان بالمصنع. لماذا سيغار يا سيف أيها الغبي عندما أنظر إليها؟ أي منطق غبي هذا. تعجبت وأتعجب. نحن في عالم غريب حيث يسود فيه اللامعقول ويتحكم فيه اللامنطق. أيغار عندما أنظر إلي الصورة وكل من في المصنع ينظرون للصورة؟ يبدو أن تفكيره هداه إلي هذا المنطق المعكوس. يبدو أنني أعمل في مصنع يمتلئ بالحمقي والمغفلين وضعاف العقول. هي الحياة وعلي أن أعيشها.

كان ندا يتحدث إلي أبي سفيان بكل احترام وتقدير وينظر إليه نظرات خاشعة، تماما مثل نظرات سيف غرس الدين تجاهه. أنا الوحيد الذي كنت أشعر بالشفقة عليه. وماذا يفيد أن يكون الرئيس الأعلى لمجلس إدارة المصنع ويكون حمارا في نظر زوجه أم سفيان أقصد سارة العسكر. إنه قلق ومضطرب دائما.

قام سيف غرس الدين وقال لي وهو يتحدث بفخر ويشير إلي عبدالله البندري ذلك الحمار كما وصفته زوجه:

— يا عبدالله المصري. هذا أفضل رئيس أعلي لمجلس إدارة مصنعنا في التاريخ. إنه صاحب رأس المال ولقد حقق فائضا وسيحقق التنمية

والرخاء والتقدم لأسرة مصنعنا العريق والذي نفتخر بأنه من أقدم المصانع في التاريخ. بفضل قيادته الحكيمة وإدارته الرشيدة نتطلع إلي دخول القرن الجديد. إن الأستاذ عبدالله البندري رمز للإدارة الحكيمة والقيادة الرشيدة و. ...

أخذ سيف غرس الدين يتكلم بكلمات كبيرة وجوفاء وكأنه يخطب خطبة عصماء لمده الرئيس الأعلى لمجلس إدارة المصنع. وما انتهى سيف من حديثه وكلماته المزعجة التي ذكرتني بما كانت تقوله ناظرة مدرستي عندما يأتي أحد الموجهين أو المفتشين لزيارة مدرستنا تماما. نفس الكلمات ونفس النبوة. حتي في المصنع السابق والذي وصلت فيه إلي درجة رئيس ودية كنت أسمع نفس الكلمات ولكني لم أرددها قط. بعد أن سكت لحظات قام ندا ونفس ابتسامته البلهاء العريضة التي تملأ وجهه حتي أذنيه وأخرج ورقة طويلة من جيبه ونظر إليّ وقال موجهها كلماته لعبدالله البندري وكأنه يخطب:

— معالي الرئيس الأعلى لمجلس إدارة المصنع.. سيدي الرئيس.. إنه لمن دواعي سروري وسعادتي ونحن في العيد الحادي عشر بعد الألف السابع من تاريخ مصنعنا الموقر.. قاطعه سيف غرس الدين وهمس في أذنه ولكني سمعت ما قاله له. قال له وهو يضرب كتفه:

— ستضيعنا أيها الغبي. هذه الورقة ورقة العام الماضي. أيها الغبي قل ونحن في العيد الثاني عشر بعد الألف السابع ننحن ندا وتأسف وقال مواصلا وهو يقرأ من نفس الورقة:

— معذرة معالي الرئيس الأعلى. كل أيامك تتشابه ونحن نسير بخطانا المتئدة تجاه المستقبل وتشرب أعناقنا لإنجازات غير مسبوقه ونتطلع إلي أن نصل إلي السحاب ولا نقبل إلا المركز الأول كما عودتنا دائما بقيادتك الحكيمة وإدارتك الرشيدة للعبور إلي المستقبل والخروج من عنق الزجاجة و. ..

كان عبدالله البندري يستمع ويهز رأسه ولا أدري لماذا طرأت بذهني صورة حمار يهز ذيله وهو يأكل التبن من الحوض الذي أمامه، لعل هذا لأن زوجته وصفته بالحمار أمامي، ولعل السبب أن يده كانت ترتعش. يبدو وكأنه يرتعش. لا أدري

لماذا امتلأت بالشفقة عليه. أشعر انك مسكين يا أبا سفيان. ابتعدت قليلا ومددت يدي لآخذ قطعة شيكولاتة من الطبق الذي أمامي لعلني أخرج من جو النفاق الذي لا أحبه. ضرب سيف غرس الدين يدي بقوة فتركت قطعة الشيكولاتة، وأنا أشعر بالغضب. وبعد لحظات من خطاب ندا الممتلئ بالنفاق قمت وأخذت شيكولاتة رغما عنه وأكلتها ثم قدمت قطعة لندا لعله يتوقف عن حديثه الملل. بدا علي ندا أنه لم يهتم بما أفعل فغافلته وفتحت قطعة شيكولاته ووضعتها في فمه غصبا عنه فلم يسكت ولكنه ظل يتكلم ويأكل أيضا مع ابتسامته العريضة التي لم تفارق وجهه قط. أزحت ندا قليلا وتقدمت إلي أبي سفيان وقلت له في هدوء وأنا أقدم له أوراقتي:

— بما أن سيادتك الرئيس الأعلى وصاحب القيادة الرشيدة والإدارة الحكيمة والعبور للمستقبل أتمني من حضرتك أن توقع هذه الأوراق اغتاز مني سيف وندا ونظرا إلى بقسوة وبعنف وكأنهما في حالة تهديد لي. أمسك عبدالله البندري أوراقتي ونظر فيها وكانت يده ترتعش. نظرت إليه في خشوع وقلت له في رجاء:

— أتمني أن توقع هذه الأوراق لأنني أحتاج لإثبات يبين أنني أعمل بمصنعك الموقر حتي أعيش في هذا البلد مرفوع الرأس
نظر إلي عبدالله البندري وكأنه يتأسف وقال:

— ليس هذا من سلطتي
— ليس هذا من سلطتك وأنت الرئيس الأعلى وصاحب رأس المال؟
— نعم ليس هذا من سلطتي
— إذا من سلطة من أيها الرئيس الأعلى
— من سلطة أم سفيان

تراجعت في غيظ وارتميت علي احد المقاعد قائلا في نفسي والغيظ يملؤني: «أم سفيان أم سفيان. أعوذ بالله. ملعون أبوك يا أم سفيان. كل السلطات في يدك. والله صدقت عندما قلت عليه إنه حمارك القابع بالداخل». خرجت والغيظ يملؤني وتركت حمارها القابع بالداخل وهو يرتعش ويبدو أنه هو أيضا ينتظر أم سفيان. حسرة عليك يا أبا سفيان وعلي كل الرجال في هذا المصنع العتيق. أتقودكم امرأة وتتحكم فيكم؟ لعنة

الله عليكم. لعن الله قوما ولوا أمرهم امرأة. يبدو أنني سأضطر إلي أنتظارك يا أم سفيان. سأنتظر ومعى الآلاف من المنتظرين. متى ستأتين يا أم سفيان. نحن في انتظارك يا سارة العسكر. ماذا بوسعنا سوي انتظارك يا من تجمعين كل السلطات في يدك حتي وأنت غائبة؟

الحلقة الخامسة عشرة

أحلام وذكريات

صوت حركات مريبة خلف جدران حجرتي أستمع لها وتصل إلي أذني وأنا نائم علي سريري المعدني في المستشفى. لا أدري إن كنت نائما وقتها بالفعل أم أنني كنت أتخيل هذه الأصوات وأحلم بها. أريد أن أستكمل نومي. تزداد الحركات ويزداد عدد أقدام من بخارج الحجرة. صوت أقدام ذاهبة وأخري راجعة. أسمع همسا وهمهمة ولا أهتم. أريد أن أنام. تختلط في ذهني الأحلام والذكريات. سأنام. ما أمتع النوم!! مع كل هذه الأصوات التي تصل إلي أذني وترتطم بها، لازلت أود أن أتمسك بأهداب النوم وأستزيد من لذاته التي تسعدني بعد أن تغرقني في دنيا جميلة من الأحلام الفياضة التي لا تنتهي وبركان ثائر من المشاعر الجميلة والمواقف المتدفقة التي لا تنتهي والتي أبنيتها بخيوط أمنياتي وأنسجها بأحبال رغباتي ولا أستطيع أن أحيها أبدا عندما أكون متيقظا. يا لسحرك أيها النوم ويا لسلطانك الكبير علي وعلي أمثالي من الحالمين!!

لكم أود أن أعيش في أحلامي ولا أستيقظ منها أبدا. نحن البسطاء نستطيع أن نكرع من النوم ما نشاء ونستطيع أن نركب فرسان الخيال وجيادها ونشط بها كيفما نشاء، فلا خيال يحدثنا ولا قيود تمنعنا. ليت الحياة كلها تكون نوما وفراغا خالصا لننعم بلذة الحلم الدائم ومتعة المغيب عن هذا الواقع البغيض المؤلم.

لدينا ما نحلم به. نحن علي العكس من الأغنياء تماما، ليس لدينا ما نرغب فيه. أما الأغنياء فلديهم كل شئ. لا أعتقد أنهم يحلمون مثلنا. لديهم كل شئ وليس لدينا أي شئ. الحمد لله أن جعل الأحلام لنا في نومنا لنحقق ما نريده. يا لرحمة الله بنا!! الأغنياء أيضا لديهم

فرصة النوم والحلم. لا أعتقد أنهم يحلمون مثلنا. نومهم متقلب أما نومنا فنوم عميق. يخافون علي ما يمتلكونه ، أما نحن فلا نمتلك أي شئ. لماذا لا ننام نوما عميقا ونستمتع بأحضان النوم؟ لاشئ عندنا ولا ثروات لدينا نخشي عليها. أعتقد أننا نستمتع بالنوم أكثر منهم. قال لي شيخ المسجد ذات يوم وأنا أحدثه عن الأغنياء إذ كنت أرتجف من البرد وملابسي خفيفة بعد أن أيقظتني أمي لأصلي الفجر في المسجد جماعة:

— حرام عليك. لا تقل الأغنياء

— ماذا أقول إذا يا شيخ؟

— قل الأثرياء

— لماذا؟

— لأن الله فقط هو الغني الحميد. الله يقول في القرآن الكريم في سورة فاطر: يا أيها الناس أنتم الفقراء إلي الله والله هو الغني الحميد.

— أهم أفضل منا يا شيخ؟

— إن أكرمكم عند الله أتقاكم

— أخذوا كل شئ يا شيخنا ولم يتركوا لنا أي شئ

— الآخرة خير وأبقي

— هل أنتظر إلي الآخرة؟

— أنت مؤمن يا ولدي. أنت تحفظ معنا القرآن بعد العصر كل يوم

في حلقتي. يا عبدالله يا مصري أنت ولد طيب ولك مستقبل باهر

— أنا يا شيخ؟! أنا لي مستقبل باهر؟! أنا أكاد أن أتجمد من

البرد يا شيخنا. لا أحد يحس بنا ولا أحد يتألم لنا.

— الله معك يا بني. أمك سيدة طيبة.

— أين تذهب نقود معونة الشتاء يا سيدنا الشيخ؟

أشاح الشيخ بوجهه عني ثم تلفت حوله عدة مرات وقال لي في خوف:

— أرجوك يا بني ألا تتحدث في السياسة. عندنا تعليمات ألا نتحدث

في السياسة. لا تخرب بيتي وبيت عيالي الله يكرمك. أنا رجل

كبير ولا أريد أية مشاكل. أنا أحب سيادة الرئيس عبد الناصر

وأحب مصر ولا أعرف أي شئ في السياسة.

هذا قليلا بعد أن لاحظ أنني أرتجف فعلا من البرد. ألقى بعباءته

علي جسدي النحيل واحتضنني وقال لي في حنو:

- الصبر
- الصبر يا شيخنا؟
- نعم الصبر. الفقراء أحسن حالا من الأغنياء
- يا سلام!!
- طبعاً الفقراء يدخلون الجنة قبل الأغنياء
- ننتظر الجنة يا شيخنا

لم أكن أحب أن أستيقظ أبداً لولا دعوات أمي وهي تقف بجواري بكل رقة وحب لتوقظني دوماً لأصلي الفجر ولأذكر دروسي قبل أن أذهب إلى المدرسة. تدعو لي بالهداية وتمسح شعري بيديها الحانتين. أقوم متثائباً. أشعر بلفحات البرد تسفح خدي وتضرب وجهي. تدفئني قليلاً بيديها المتقدتين بالحب والحنان ثم تعطيني ماء بارداً لأشرب منه اعتقاداً منها بأن هذا لا يجعلني أشعر ببرودة الجو ولا أصاب بنزلة برد عندما أخرج. أكثر من مرة حاولت أمي أن تعطيني طرحتها السوداء لأتشح بها لتقيني من البرد، ولكنني كنت أرفض قائلاً لها: «أنا رجل ولا أخاف من البرد». كنت أخرج وأسنانني تصطك ببعضها وأشعر بالعرشة والقشعريرة. لا لن ألبس طرحة النساء. أنا رجل وسأتحمل. قالت أمي ما أكدته الشيخ من أن خطواتي إلى المسجد وأنا ذاهب للمسجد وأنا راجع منه إن إحداها تحط خطيئة والأخري ترفع درجة.

وأنا في أحلامي أستطيع أن أشعر بالدفء وأقهر لفحات البرد. أستطيع أن أحقق كل أحلامي وأحلام أمي وأخوتي. سأحضر لهم الطعام والشراب. سأحضر لهم البرتقال اللذيذ الذي قد لا نراه طيلة الشتاء إلا عند بائعي الخضار والفاكهة فقط. أكثر من شتاء مر علينا ولم نطعمه ولو مرة واحدة. سأحضر لهم الفول السوداني لنأكله لنتقوي به علي بردنا القارس. البرتقال والفول السوداني كان بالنسبة لنا ترفاً زائداً ونعيمًا لا نحلم به ولا نتحمل ميزانيتنا الضئيلة أن تتكبد نفقات هذه الكماليات. سأقبل أمي أكثر وأمكث بجوارها وأطعمها بيدي فصوص البرتقال. سأقشر لها الفول السوداني وأضعه في فمها. لن أجعلها تبكي. سأساعدها في كل شيء. لن أتركها تتن وتعمل وحدها. سأري ابتسامتها في ضياء أحلامي التي لا أراها أبداً في الواقع. أحلم بنقود كثيرة أجدها في كل

خطوة أخطوها. سأجمع كل هذه النقود وأضعها في حجرها. ستسعدين يا أمي. لن أتركك تشقين أبدا في أحلامي وفي ضلالات خيالاتي. أستطيع في أحلامي أن أدك عروش الظالمين وأنتصر للمظلومين والفقراء المستضعفين. تكلم معي يا سيدنا الشيخ وقل كل ما تريد أن تقوله بدون خوف. لا تتلفت وراءك ولا تعتقد أن أحدا سيمنعك أو يعاقبك علي كلامك. قل رأيك بصراحة. تحدث كما تشاء. تحدثي يا أمي وقولي ما تريدين قوله. أعلم جيدا أنك تحبين عبد الناصر ولكنك تريين أنه لا يهتم بنا. اصرخي كيفما شئت لضياح سيئاء منا. تعالي نحلم هنا أننا نسترد أرضنا ونهزم اليهود. هنا مهد الأحلام وجنة تحقيق ما نأمل فيه. هنا الحرية في الأحلام. هنا الحرية في الكلام. تعالوا معي في عرش أحلامي وجنات خيالي. احلم معي يا شيخنا كما شئت. احلم أن تزيد مرتبات المشايخ وتشبع بطونهم فلا يبيعون دينهم ولا يركعون للسلطة. احلم أن تمتلئ المساجد بالمصلين في صلاة الفجر. احلم بأن تخفت أصوات الباطل. احلم بأن يسمع صوت رجال الدين والعلماء كما تسمع أصوات المغنين والممثلين. احلم بأن ينتصر الحق والخير. احلم بأن تملأ القيم كل بيوتنا وشوارعنا. احلم بالأهمش الدين في حياتنا يا شيخ. قل وانتقد ولا تخف. قل إن الأغنياء لا يشعرون بجحيم الفقراء وإنهم يرتعون في جنات شهواتهم ويدعوننا نتضور جوعا. قل إن هناك أخطاء تمتلئ بها مصر الآن. قل إن عبد الناصر أصاب الناس بالرعب وجعلهم يخشون بعضهم البعض. قل إن الناس صاروا يكتبون التقارير ولو عن أقرب الناس إليهم وقل إن المروءوس صار يكتب التقارير عن رئيسه ليضره. قل إن هذه التقارير تؤخذ بعين الاعتبار حتي وإن كانت كيدية. قل إن الثورة قد انحرفت عن مسارها. قل إن السجون والمعتقلات قد امتلأت عن آخرها بالشرفاء والبرءاء. قل إن زوار الفجر ينقضون علي الناس في البيوت ليأخذوا الآباء من أحضان أبنائهم وزوجاتهم. تحدث يا شيخ وتحدثي يا أماه. أنتما هنا في أمان أحلامي فلا خوف مطلقا. وأنا سوف ألعن الأغنياء وسوف أبصق عليهم في أحلامي دونما خوف. إنهم يسرقون أحلامنا وآمالنا. تري لو أتيحت لهم الفرصة ليمنعونا من النوم هل سيستغلونها؟ طبعاً سيبقون أعيننا مفتوحة حتي

لا نحلم. سيمنعونا من النوم. سيستصدرون أحكاما من القضاء الذي سيظلمنا من أجلهم ويحكمون بالسجن والجلد والإعدام إن لزم الأمر ليحرمونا من متعة النوم والحلم. يريدون أن يحرموننا حتي من هذه المتعة التي من الله بها علينا.

أستطيع أن أمسح كل دمة وأستطيع أن أسمع كل همسة. أستطيع أن أحب وأن العب وأن أفرح وأفعل كل ما يحلو لي ويروق لخيالي. أستطيع أن أواجه الكاذبين والمنافقين. أستطيع أن أسب من أخطأ في حقِّي وأستطيع أن أرد الضربة عشرات الضربات لمن ضربني ولا أستطيع أن أرد ضرباته في الواقع.

كنت أحلم ولازلت. حلمت بمواقف لم تحدث مع سارتي الحبيبة. حلمت أن أقرب منها واعترف لها بحبي.

حلمت أن أواجه سارة العسكر وأتساجر معها. حلمت كثيرا بأنني أقف في وجه ندا عبد العليم وسيف غرس الدين. حلمت أنني أتساجر معهما وأتهمهما بالنفاق. كنت أقول لهما دوما أيها الأغبياء. تنافقان من لا يملك سلطة ولا نفعا ولا ضرا لنفسه. ماذا تفعلان إذا مع سارة العسكر؟ حلمت بأن أكون الرئيس الأعلى لمجلس إدارة المصنع.

سأعين أحلام المطيري رئيسا للوردية. سأجعل رجاء شوكت تكف عن ضحكتها الصفراء القاحلة. سأعين إياد صبري مستشارا لي وكذا ماجد بحيري. سأرفع مرتبات عمال المصنع. سأحسن الظروف المعيشية لكل من يعمل بالمصنع. سأهتم بالتدريب وتكوين كوادر جديدة. سأزرع الصحراء القاحلة بالمصنع. سأجذب الكثير من المستثمرين. سأجعل المصنع جنة الله في أرضه. سأغير اسمي وأصير عبدالله أبو النيل. ما المانع في أن أمد فرعا من النيل إلي المصنع؟ سأجتذب المزيد من العلماء والخبراء لمصنعي حتي يصبح أكبر مصنع في الشرق الأوسط. سأظل أحلم وأحب الأحلام ما حييت. آه ولكنها مجرد أحلام تتبخر بمجرد أن أفيق. تتبخر بمجرد أن يوقظني أحد.

كنت أتقلب في فراشي. تنتابني رغبة قوية في النوم كما تنتابني رغبة أخرى في الانتباه لما حولي رغما عني. صوت الهمسات وصوت الحركات والأقدام يجذبني من نومي وأحلامي شيئا فشيئا إلي عالم الحياة الحقيقية وبعيدا عن عالم أحلامي وخيالاتي وذكرياتي.

هزات خفيفة من يد حانية رقيقة تحاول أن توقظني. تعجبت أن صاحبة هذه الهزات لم تقم بإضاءة مصباح حجرتي. ليست هذه هزات يد أمي التي أعرفها جيداً. صوتها الحازم أيقظني. لم أفتح عيني بعد. لقد قالت في حسم: — أرجوك قم.

بدأت أفيق قليلاً وأعود لواقعي وأحس بآلام جسدي. لقد عرفتُها. إنها كريمة ممرضتي الطيبة قالت في حسم وفي حنان معا: — قم. ليس لدينا وقت

— كم الساعة؟

— لا تسأل عن الساعة. أنت في خطر

— أنا في خطر؟

— نعم

وضعت أمامي بعض الملابس. فركت عيني وتثاءبت. طلبت منها أن تضيء المصباح. قالت مرة أخرى وبنفس الحسم: — قم والبس هذه الملابس. ادخل الحمام بسرعة والبسها

— ماذا حدث يا أستاذة كريمة؟

— نفذ ما قلته فوراً. ليس لدينا وقت

— أين سنذهب؟

— في أي مكان غير هذا المستشفى

— أنا مريض

— لقد تحسنت حالتك. أي مكان غير هنا أفضل لك

— هل تعرفين مالا أعرف؟

— لا تضيع الوقت في تساؤلاتك يا عبد الله يا مصري

دخلت الحمام ونفضت النوم عن عيني تماماً. إنها ملابس ممرض. لبست الملابس وقلبي ينبض بالخوف. وضعت الكمامة علي فمي وأنفي. لالزت أشعر بالبرد. نفس البرد الذي كنت أشعر به عندما كانت أمي توقظني. في هذه المرة يقتلني الخوف مع البرد. أنا في خطر؟ حياتي دوماً في خطر. منذ أن وعيت علي هذه الدنيا وأنا في خطر. أتذكر عندما قالت الطيببة لأمي وهي حزينة ترثي لحالنا بعد أن قرأت نتيجة التحاليل التي بين يديها:

- ابنك يا حاجة مصاب بالأنيميا الحادة.
 - أنيميا حادة؟ ماذا تعني الأنيميا الحادة يا دكتورة؟
 - حرام عليك ليس هذا منظر طفل في السنة الرابعة ابتدائي. ابنك ضعيف جدا
 - ماذا أفعل؟
 - عليك أن تطعميه جيدا
 - العين بصيرة واليد قصيرة يا دكتورة. أنا امرأة فقيرة ولا نجد العيش الحاف.
- كادت الطبيبة أن تبكي. قرأت في عينيها كل معاني الشفقة والرفق. كنا في المستشفى الحكومية الوحيدة في منطقتنا. ذهبنا إليها سيرا فوصلنا بعد أكثر من ساعة. أوجعتني رجلي كثيرا. أتذكر عندما وقف صاحب سيارة فارهة لأمي وقال لها: «اركب يا جميل». أشاحت أمي بيدها، ونظرت للرجل في غيظ وواصلت سيرها وجذبت يدي وابتعدنا تماما عن سيارته. حاول الرجل أن يتبعنا بسيارته. وقف أمام أمي ثانية وقال لها: «اركبي معي أفضل من المشي». جذبت أمي يدي وسارت بسرعة. وفي المرة الثالثة بصقت أمي علي وجه الرجل عندما فتح زجاج نافذته ودعاها للركوب بوقاحة شديدة. قالت له بغضب بعدها: «ابعد عني يا كلب يا ابن الكلاب أتظن أنني من الساقطات من أمثالك يا وقح يا حقير». كانت هذه أول مرة أسمع فيها هذه الكلمات. شعرت بالغيظ. جذبت يدي من يد أمي والتقطت حجرا من علي الأرض وقذفت به سيارته فانكسر زجاجها وولي الرجل هاربا عازما عدم العودة إلينا ثانية. ابتسمت أمي لي وكأنها تثني علي ما فعلت.
- أخرجت الطبيبة من جيبها جنيها وأعطته لأمي. امتنعت أمي عن أخذ الجنيه. صرخت الطبيبة في وجه أمي قائلة:
- حرام عليك. الولد سيموت منك. لا بد أن يشرب لبنا ويأكل لحما.
 - نظرت للطبيبة وقلت لها والدموع تنزل من عيني:
 - يعني هل أكل وأشرب وينظر أخوتي لي؟ لدي أخوة أسوا حالا مني يا دكتورة

بكت الطيبية واغرورقت عيناها بالدموع. أخرجت الطيبية ورقة مالية كبيرة فئة الخمسة جنيهات وقالت لأمي:

— خذي واطعمي أولادك يا حاجة

بكت أُمِّي وقالت:

— شكرا لك يا دكتورة. أنا لا أقبل الصدقة.

— يمكنك أن تعلمي معي في عيادتي

— أنا لا أعرف القراءة ولا الكتابة

— يمكنك أن تكنسي العيادة وتقومي بمسحها ثلاث مرات في الأسبوع

وسأعطيك هذا المبلغ كل شهر. عيادتي قريبة من المستشفى

انحنت أُمِّي علي يد الطيبية تقبلها. فعلت مثل أُمِّي. وددت أن أكون

طبيبا في يوم من الأيام. سأساعد الناس. سأعالج الفقراء والمحتاجين.

أعطت الطيبية أُمِّي أيضا بعض الأدوية لي وقالت:

— إنها عينات مجانية من شركات الأدوية. ليست صدقة ولا إحسانا.

ثم توجهت لي وقالت:

— هل أنت متفوق في مدرستك؟

أجبت عليها وبكل فخر قائلا:

— الأول علي الفصل يا دكتورة

أخذتني بحنان في حضنها. شعرت برائحة حلوة لأول مرة في

حياتي. سأكون طبيبا. سأذاكر وأبذل قصاري جهدي. مسحت الطيبية

علي شعري وقالت:

— ماذا تريد ان تعمل عندما تكبر؟

— أريد أن أكون طبيبا مثلك

— إن شاء الله

شكرا لك يا دكتورة فاطمة. لكم أحببتك !!

أخرجني صوت كريمة من دوامة ذكرياتي ومدن تفكيري. قالت

وهي تنادي:

— هيا يا عبدالله. ليس لدينا وقت

خرجنا من المستشفى وكريمة بجواري بعد أن أحكمت وضع الكمامة

علي فمي وأنفِي. شممت رائحة الدكتورة فاطمة في كريمة. ما أن خرجنا

من حجرتي إلا وكان صوت آذان الفجر يتردد في أذني كما كان يتردد

في قلبي دائماً. تبدد خوفي وأنا أردد الآذان بلساني وكأنني أحفره
بصدري وداخل فؤادي.
نظرت إلي كريمة فوجدتها تردد الآذان أيضاً وكلها أمل أن تمر
هذه الساعات علي خير.

الحلقة السادسة عشرة قمر وسمر وفرج الله

خرجت من مكتب عبدالله البندري وأوراق في يدي كما هي لم توقع
بعد. يبدو أنني سأنتظر طويلاً إلي أن تأتي أم سفيان. ماذا سأفعل
إذا لم تأت ثانية؟ ما هذه المركزية العجيبة في هذا المصنع؟ أكل الأمور
تتركز في يد أم سفيان وحدها؟ ماذا لو تأخرت؟ ماذا لو سقطت بها
الطائرة وهي في طريق عودتها؟ ألا تثق في أحد فيكون نائباً عنها؟ أمر
غريب!! ما رأيت مثل هذا في أي مكان عملت فيه من قبل. لماذا لا
تعين نائباً لها حتي ولو كان حمارها القابع في مكتبه علي حد قولها؟
أحتاج إلي أن أوقع هذه الأوراق حتي تستقر أموري في الشقة
التي أجزتها. قال لي صاحب السكن إنه يجب أن توثق
أوراقك ويجب أن يكون لي دخل ثابت يضمن لي استمرارية
الإيجار لمدة ثلاثة شهور علي الأقل، وهذا يعني أنه يجب
أن يكون لي عمل مستقر يدر علي دخلاً شهرياً منتظماً.
لقد تركت السكن القديم لأنني تركت عملي القديم في المصنع الذي
كنت أعمل به. نقلت حاجياتي القليلة وحاجيات أمي العجوز. لعلني
أعيش ببركتها ولعل الله يرزقني بسببها. كانت تبكي وتتورم عيناها
كل يوم وهي تبكي حالي بعد أن تركت المصنع القديم. لعل دعواتها
لي هي التي وهبتني فرصة العمل بهذا المصنع. إن مرتبي بهذا
المصنع تقريباً ضعف مرتبي في المصنع السابق. هي أرزاقك يا رب
تسوقها لنا كما تشاء. منتظر كرمك يا رب ومنتظر أثار دعواتك التي
تخرج من قلبك لي يا أمي.

الحمد لله بضعة أيام ونبدأ الشهر الجديد. سيعني هذا أن
أحصل علي راتبي. أي راتب. أنا لم أتم بالعمل سوي أيام، وقد

تم خصم ستة أيام من راتبي. ليس مهما أن آخذ الراتب. سيمكنني بلاشك أن آخذ سلفة أسير بها أموري إلي أن أحصل علي راتب. أخذت الدنيا تدور بي وأحسست أنني سأكاد أقع من التفكير. ماذا سيفعل معي صاحب السكن؟ قد يطردني. لقد قال لي بلهجة لا تعرف الرحمة وتنطق بعين التهديد بالطرد من المسكن:

— عليك أن تدفع الإيجار بداية من أول الشهر، وعليك أيضا أن تدفع أجرة شهرين مقدما.

ليست هذه هي المرة الأولى التي تواجهني فيها مشكلات مالية. حياتي كلها هكذا. مشكلات ومشكلات لا تنتهي. لا أذكر أنني كنت أنعم باستقرار مالي قط طيلة الخمسين سنة الماضية أو يزيد من عمري. الله عنده الفرج. الله كريم. فرج الله قادم بلاريب لا أريد أن تتعب أمي في التنقل من مسكن إلي آخر.

كنت أسير ولا أكاد أري. هذه حياتي المليئة بدوامات لا تنتهي. آه من حياتي المنصرمة هذه والتي تصرخ من خلفي وتطاردني كما تطاردني حياة أيام قادمة لا أدري مصيرا لها ولا أعرف لها مستقرا. الحمد لله يا رب علي كل حال. الكلاب تأكل وتشرب وكذلك القطط وأنا واثق أنك لن تتركني أبدا. لنا رب يدبر هذه الأمور وليس لنا أي شئ. صدقت ربنا إذ تقول في كتابك العزيز: ليس لك من الأمر شئ. فعلا ليس بأيدينا أي شئ. كل الأمور بيدك يا الله. لايزال الوقت مبكرا. لمن ألجأ يا الله إلا لسواك؟ سأدخل إلي المسجد المقابل للمصنع لأصلي ركعتي الضحي. لازلت علي وضوئي منذ الفجر. كنت وحدي بالمسجد. ليس هذا وقت صلاة ومن ذا الذي سيأتي لبيتك يا رب سوي مسكين أعيته الحاجة أو فقير ظلمته الحياة ولم ولن يجد بديلا سوي رحابك. ارحم ضعيفا يحتمي بجنابك وضعيفا يتقوي بقدرتك ورحمتك.

رفعت عيني إلي السماء وزفرت قائلا: «يارب».

نويت صلاة الضحي ولا أدري كيف انهمرت الدموع من عيني. ماذا سأفعل يا إلهي وليس لي في الحياة كلها إلا أنت. ليس لدي سوي بابك. يا رب إذا أغلقت جميع الأبواب فلا باب لي سوي بابك ولن أطرق أي باب سوي بابك.

يا رب لا تهمني نفسي ولا تهمني حياتي. أمي هي الوحيدة التي أهتم بها وأكثر ث بها. كانت أمي وكان أخوتي محور حياتي كلها ومركز دائرة حياتي وعمري. كنت أحب أخوتي وأكثر ث بهم من أجل ألا تحزن أمي. لم أكن مجرد أخ لهم فقط، بل كنت أبا أيضا وبالغت في أداء دور الأب معهم.. كان يمكنني أن أفقد حياتي كلها من أجلهم. لا أريد لها أن تتأذي أو أن تحزن من أجلي أو من أجل أخوتي. أمي دوما ما كانت تفخر بي وتقول إنني رجل هذه الأسرة وعائلها، وهذا علي الرغم من أنها كانت تعمل وتكسب مع الدكتورة فاطمة. أنا أيضا كنت أعمل وأدرس في نفس الوقت. كنت أرمي كل ما أحصل عليه في حجر أمي. كنت أضع بيدها كل ما يصل إلي من مال. لم أرقط أن هذا المال مالي. هذا المال ليس سوي رزق أمي ورزق أخوتي. لم أكن أرضي أن اشتري لنفسي أي شئ إلا بعد أن أشتري لأخوتي أولا. لم أكن سوي الابن الوحيد لأمي من أبي الذي قتل. سمر وقمر ابنتاها من زوجها الثاني. ومحمد وسيد ابناها من زوجها الثالث. كنت أشعر وكأنهم جميعا أشقائي علي الرغم من صدمتي عندما اكتشفت لأول مرة اختلاف اسمي عن أسماء أخوتي في شهادة الميلاد وعندما كنت أقرأ أسماءهم علي كتبهم وكراساتهم الدراسية.

أنا لست مهما ولا أري لي أية أهمية بهذا الكون الرحب الفسيح. أمي كل شئ لي في هذ الحياة. أنا لا أكثر ث بحياتي ولا بنفسي ولم أكثر ث قط بنفسي. أمي أهم. أشهدك يا ربي أنني لا أريد شيئا لنفسني قط. أخوتي منذ أن كنت صغيرا وأنا أحاول أن أكون العائل الوحيد ومصدر الأمان لهم. الحمد لله تزوجت أختي قمر كما تزوجت أختي سمر من بعدها. تزوجت قمر عندما انتهيت من الثانوية العامة ببضع سنوات. كنت أحبها جدا وأشعر أنها أقرب أخوتي لقلبي. كانت تحتضنني دوما وتدعو لي. لم أكن أشعر أنها أختي وفقط بل كنت أشعر أنها ابنتي وحببتي أيضا. كنت أحبها جدا وأغار عليها. كانت جميلة حقا. كنت أحب أن أري ما تكتبه وما ترسمه. كنت أفتش في كراساتها وأتتبع كتبها فلا أجد فيها ما يشير إلي نوازع حب أو بوادر عاطفة. اعتقدت أنها قد تحب كما أحببت أنا سارتي. كنت أرسم حرف

الإس باللغة الانجليزية دوما في كل مكان. أحببت هذا الحرف من أجلها. عشقت حرف السين في لغتنا العربية من أجلك يا سارتي. ماذا سأفعل لو كانت تحب أحدا؟

لا يجوز لها أن تحب. ليس من حقها أن تحب. طيب وأنا؟! لماذا أعطي هذا الحق لنفسي ولا أعطيها مثله؟ أليست فتاة قد كبرت ومن حقها أن تحب؟ لا. ليس هذا من حقها. تنتظر إلي أن يأتي من يتزوجها. الفتاة ليس مسموحا لها بأن تحب. لا أدري لماذا أغضب لمجرد فكرة أن تحب أختي شخصا بعينه. لماذا أحب أنا سارتي وأفكر فيها وأذوب فيها عشقا. لأنني أعلم أنه حب يأس محكوم عليه بالموت؟ لأنه حب محكوم عليه بالفشل منذ بدايته؟ ليس لها أن تحب. إنها فقيرة والحب ترف لا نقدر عليه. طيب لماذا أحب أنا سارة وأنا فقير؟ إنني أعمل بجانب دراستي. أنفق عليها حتي لا تحب. لا ينبغي أن تحب أحدا إلا بإذني. ما هذا الظلم الذي لا أرضاه. أخشي إن هي أحبت أن تترك يدها لمن يحبها. أنا لن ألس يد سارتي، ولكنني أرغب في هذا. أشعر بالراحة عندما أقترب منها. أنا لا أريد أن أقبل سارتي ولكنني أطيل النظر إلي شفتيها وأشتهي أن أقترب منهما. لا. أختي لن تحب أحدا ولن تسمح لأحد بهذا. شعرت بنار الغيرة علي أختي تخترق قلبي وتحرق فؤادي. ذات مرة دخلت علي قمر وقلت لها:

- ما أخبار الحب؟
- أي حب؟
- ألا تحبين أحدا؟
- عبدالله ماذا تقصد؟
- عندما تحبين أحدا هل يمكن أن تخبريني؟
- أنا لا أحب إلا دراستي. لن أحب إلا زوجي. هكذا علمتنا أمي
- أتعديني أن تخبريني بكل شيء؟
- لا شيء يمكن أن أخفيه عنك
- تركت كتابها وقامت واحتضنتني وقالت لي في حب:
- لا تقلق. أختك بمائة رجل
- حقك أن تحبي

- لا. ليس حقي. لن أحب إلا من سأ تزوجه
- ربنا يكملك بعقلك يا قمر. اطمئن سأ أخبرك بكل شئ.
- كنت أتبعها أحيانا إلي المدرسة وأري منها خير خلق. كانت أمي تكلفني أحيانا بمراقبتها، ولكنها كانت بالفعل خير نموذج لأخت عفيفة فاضلة نقية. كانت تحب أن تدير جهاز الراديو علي إذاعة القرآن الكريم دائما علي العكس من أختي سمر. أختي سمر تعشق أن تستمع إلي الأخبار والأغاني. كنت أغار علي قمر جدا. لم أقلق علي سمر لأنها ليست في مثل جمال قمر، ولكن نيران الغيرة كانت تشتعل بداخلي أحيانا. أنا المسئول مع أمي عن هذه الأسرة. كررت نفس حوارتي مع سمر عن الحب وسألتها فقالت في غضب:
- هذه شؤوني وأرجوك ألا تتدخل في أموري
- هل تحبين أحدا؟
- هذه حياتي الخاصة وليس من حقك أن تسألني
- أنا أخوك الكبير ولقد تخرجت ويمكنني أن أساعدك وأفهمك أمور الحياة والحب
- أخي الكبير غارق في حب سارة
- كيف تكلميني بهذه اللهجة؟
- وكيف تكلميني بهذه اللهجة؟ من فضلك لا تنتهك خصوصيتي
- تعجبت جدا من ردود سمر. وددت لو لطمتها علي وجهها. تبتعتها أكثر من مرة إلي المدرسة. كنت أقول في نفسي: «الحمد لله إنها ليست جميلة مثل قمر. آه يا رب ماذا كانت ستفعل لو كانت جميلة مثل قمر؟ الحمد لله. حكمتك يا رب».
- ذات مرة بحثت في حقيبتها وهي نائمة.
- استيقظت غاضبة. صرخت في وجهها قائلا:
- ما حرف العين هذا؟
- أي حرف؟
- رأيت قلبا في كتاب اللغة العربية ويخرقه سهم بأحد أطرافه
- حرف العين وبطرفه الآخر حرف السين
- لا تتدخل في أموري. أنا لا أسمح لك أن تفتش في حقيبتني ولا في كتبتي من ورائي

- من حقي
- ليس من حقك
- من حقي يا سمر
- لم أدر بنفسي إلا وأنا أصفعها بقوة. جاءت أمي علي صوت اللطمة.
- هدأت من روعي. حكيت لها عن قصة القلب والسهمين فطلبت مني أن أسكت وقالت:
- أتضربها لأن أباه غير موجود؟ أتضربها لأنك تنفق عليها؟
- بكت أمي وظننت أنني ارتكبت خطأ فادحا. بكت سمر أيضا.
- قلت لأمي غاضبا:
- أريد أن أعرف قصة هذا القلب وهذين الحرفين
- خرجت قمر من الحمام وقالت في هدوء:
- أنا أخبرك يا عبدالله. حرف السين حرف سارة التي تحبها
- وحرف العين أول حرف في اسمك.
- بكت قمر وطلبت مني أن أصدقها. لقد رسمت سمر هذا القلب
- وغرست فيه السهم بأول حرفين من اسمك واسم سارة.
- نظرت إلي الأرض واتجهت إلي سمر أقبل رأسها والخجل يملؤني.
- طلبت منها أن تسامحني ولكنها هزت رأسها وابتعدت. فجأتني بعد
- أقل من دقيقة وارتمت في حضني تبكي.
- وذاث يوم لاحظت شابا وسيما ينزل من سيارته ويقترّب من البيت
- الذي نطقن فيه بعدما تركنا بيت سارتي الحبيبة. لمحته أكثر من
- مرة وهو يحوم حول البيت. كان في مثل سني تقريبا أو لعله يكبرني
- بسنة أو بسنتين علي الأكثر. اقترب مني وقال في أدب:
- لو سمحت
- نعم يا أخ. ..
- اسمي صبحي
- ماذا تريد يا أخ صبحي؟
- هل تعرف فتاة تسكن بهذا البيت اسمها قمر؟
- ترددت ولم أرد أن أجيب عليه في البداية. شعرت بالغيرة علي
- أختي. أتكون مثل الفتيات السيئات اللاتي أسمع أنهن يخرجن مع
- الشبان؟ لا. لا يمكن. أختي تصلي وتعرف ربنا جيدا. لا يمكنها أن

تكون من هذا الصنف. كانت أمي تحذرهما دوماً وتقول لهما ولسمر:
ليس لدينا سوي شرفنا وسمعتنا.

ذهب تفكيري بعيداً فقلت له :

— هل تعرفها يا أخ صبحي؟

— بصراحة. ..

— تحدث معي بصراحة. هل خرجت معها؟

— أبداً لا سمح الله

— هل تعرف أحداً يخرج معها؟

— لا أبداً. أبداً لا سمح الله. إنها بنت في غاية الأدب والجمال ولذا

أسأل عنها

— تسأل عنها لأنها في غاية الأدب والجمال.

— بصراحة أنا أريد أن أتزوجها

— تتزوجها؟

— آه. لقد سمعت عنها كل خير. لا تحدث أي شاب. تمشي في

طريقها ولا تكلم أحداً. حاول أحد أصدقائي أن يعاكسها في الشارع

فنظرت إليه في احتقار وتركته ومشت. وقف لها أمام باب

المدرسة وأراد أن يكلمها فردعته. أراد أن يلمس حقيبتها فصفعته

علي وجهه وتدخل المارة وأوسعوه ضرباً. أريد أن أخطب قمر.

سافرت قمر مع زوجها ميسور الحال. كان قد رآها ذات مرة وهي

تسير مع إحدى زميلاتهما في المدرسة وأعجبته. كانت جميلة فعلاً

وشعرت بالغيرة عليها منذ أن دخلت سن المراهقة. كانت محط أنظار

الفتيان ومصدر طمع غرائزهم وشهواتهم. كانت أمي تذهب إلي المدرسة

معهما وترجع معها في معظم الأيام التي لا تعمل فيها بعيادة الدكتورة

فاطمة. الآن لا نكاد نعلم عنها أي شيء. سافرت إلي دولة من دول

الخليج. نادراً ما تتصل بنا أو تتلمس أخبارنا. تزوجت وأنجبت ولا

تكاد تزورنا إلا قليلاً بعد أن تشتد بها نار الأشواق لرؤية أمي ولرؤيتي.

تزوجت وهي في سن صغيرة أعتقد أنها لم تكن قد أكملت السادسة عشرة

من عمرها. أول طارق أتى وتزوجها وأحمد الله أنها تعيش في هناء معه.

لقد كنت أعمل أثناء دراستي ولا أدخر أي شيء لنفسي.

مرت كل هذه الذكريات في ذهني بعد أن انتهيت من الصلاة.

متي يكون فرجك يا الله؟

خرجت من المسجد ووجدت الفرج لقد قابلت أعز صديقين في حياتي والفضل لهذا المصنع. ماجد بحيري وإياد ناصر. اقتربا مني وأخرج كل واحد منهما ظرفا مليئا بالنقود وقالا لي:

— أسمح أن تأخذ هذا المبلغ؟

— الحمد لله. الأمور متيسرة

— هذه ليست هبة. هذا دين تسده بعد أن تقبض راتبك

— لا أحتاج إلي مال

— المال مال الله.

— شكرا لكما

— لا تشكرنا بل اشكر الله

خرجت من المسجد ورأيتهما يدخلان لأداء صلاة الضحي قبل أن يبدأ شقاء عمل جديد في مصنع سارة العسكر. رمقتهما بكل شكر وحب، ورفعتهما رأسي إلي السماء لأشكر الله العظيم الذي يمد يده بالعطاء دوما لعباده. قبّلت الظرفين ووضعتهما علي رأسي قبل أن أدسهما في جيبي. لك الحمد يا الله. الحمد لله رب العالمين.

لمحت همام الحفناوي ينظر إليّ في غيظ وشعرت بعينيّه وكأنه يريد اختطاف النقود من جيبي أو يريد أن يتشاجر معي. ابتعدت قليلا وتظاهرت بأنني لم أره. وواصلت كلماتي التي تخرج من قلبي شكرا لله وحمدا لفضله.

الحلقة السابعة عشرة

الهروب

قبل أن نخرج أسدلت كريمة الستائر وأطفأت أنوار حجرتي وأغلقت الباب بالمفتاح. أشارت إليّ أن أتتبع إشاراتنا لي. رمت بالمفتاح في فناء المستشفى من أقرب نافذة لها وتلفتت حولها يمنة ويسرة. لمحت بعض الأشخاص الذين يوحى وجههم بالخوف. وجوه أصحابها أقرب ما تكون إلي المجرمين وأصحاب السوابق ومعتادي الإجرام. بعضهم يحمل أسلحة داخل طيات ملابسهم وعلي وجوههم آثار إصابات وكدمات مشاجرات وطعنات سكاكين. أصابني الفزع

قليلا. رأيتهم يقتحمون بعض الحجرات خفية بعد ترقب. لا توحى
 ملامحهم بأنهم أطباء أو يعملون في المستشفى. شعرت بفرائصي ترتعد.
 يبدو أنه كان عليّ أن أتبع كريمة وأهرب بحياتي من هذه المستشفى.
 بدأت أشعر بالخوف وشعرت أن هذا اليوم سيكون صعبا من بداياته.
 لما تأكدت من خلو طريقة العنبر من المارة أشارت إليّ أن أتبعها. كنت
 أشعر أنني في مغامرة حقيقية ولأول مرة في حياتي. لكم كنت جبانا!! لقد
 أضعت حياتي في كنف الرعب والخوف. كنت أسير بجوار الحائط كما
 كانت تطلب مني أمي. أول مرة أشعر بنسائم المغامرة من حولي. كأنني
 أمثل دورا سينمائيا في فيلم وليّ فيه دور البطولة. أشعر بالخوف والقلق
 وأحس بنيران الترقب تصفعني، ولكنني أشعر مع كل هذا بالسعادة.
 نفس الإحساس بالسعادة كنت أحس به وأنا أجابه سارة العسكر
 عندما رجعت من سفرها. كنت أواجهها بنظراتي بلا خوف وبلا
 حساب قبل أن أدخل معها في إطار التحدي والمشاجرة ورفع الصوت.
 إحساس بأنني مختلف عن كل من حولي. لم أكن أنافقتها أو أتحدث
 معها قط. أعاملها كأنها زميلة في المصنع أو أقل من هذا. كانت تنظر
 إليّ طويلا وتنتظر أن أكلّمها. كنت أتجاهلها تماما وأرمقها بنظرات
 الشفقة. كانت نظراتي تتحداها كما كان تجاهلي إياها يقتلها.
 كانت تنظر إليّ طويلا وكأن نظراتها تريد أن تقول لي: «أنت
 تهرب مني. أنت لا تستطيع أن تواجهني. أنا صاحبة فضل عليك.
 لحم أكتافك من خيري. يمكنني أن أقصلك وأرميك في الشارع».
 كنت أواصل نظرات الشفقة إليها وكأن نظراتي تقول لها: «الأرزاق بالله
 يا سارة يا عسكر. لا أحد يموت جوعا. الله يرزق من يشاء بغير حساب».
 كانت تود أن تزيلني من علي وجه الأرض. كنت أنظر إليها
 أحيانا بشفقة وبرثاء. كانت نظراتي لها تقول: «أنت غبية يا سارة
 يا عسكر. الكل ينافكك. لن أنافكك. أنت مسكينة. إنهم يخافونك ولا
 يحبونك. ماذا يمكنك أن تفعلي بي؟ لكل إنسان قدره ورزقه وأجله».
 تبعث كريمة بعد أن خرجت قليلا من قيد ذكرياتي وقلبي يدق
 بسرعة من الخوف. حبست أنفاسي وأنا أمضي معها إلي الباب
 الخلفي للمستشفى. رياح الصباح تضرب وجهي، ورياح الخوف
 تعصف بي. نظر إليّ أحد أفراد الأمن علي البوابة فأشارت كريمة

له أن يتركني أخرج خلفها وكأنها تقول له : «دعه. إنه معي» .
طالما أنها قررت لي أن أهرب فلاشك أنها قد أحست بخطر
محدد يوشك أن يصيبني.

كان الفجر يلوح في الأفق، وكان علينا أن نسلك عدة طرق جانبية
لنهرب. كان نور الصباح يلوح شاحبا أمامنا في سماء مليئة بسحب
ملبدة وجو مكفهر موشك أن يمطر. السحب الداكنة معبأة والماء بها
ظاهر للعين. السحب أقرب ما تكون من المرأة الحامل التي توشك
أن تضع حملها. سقطت بعض قطرات الماء علي رأسي. وأنا أتبع
خطوات كريمة رأيت بطرف عيني شابا يتبعنا. كان يرمق كريمة
بنظراته. يبدو أنه فهم أنني أتبعها. كان يخفي وجهه بشال أبيض.
كان سميننا وفي نفس سمنة كريمة تقريبا.

لا أدري لماذا تخاف عليّ وأنا أرتمي هذا الزي الذي أتخفي فيه.
إنني أخفي وجهي وفمي وأنفي. لا يبرز سوي عيناوي. لو نظرت في المرأة
لنفسني لما عرفت من أنا. كدت أسمع نبضات قلبها. كان عليّ أن أبتعد
عنها بعض الخطوات. ماذا لو قابلها أحد تعرفه؟ ماذا لو رآها حبيبها
وهي تسير معي. عليّ أن أكون أكثر حذرا. ليس الوقت الذي عرفتها
فيه بالكفاية. لا أدري لماذا سلمت لها زمام نفسي ورضيت أن تقودني.
كنت أشعر وأنا أتبعها بأنني سأستمر في دوامة الهروب التي أحطت
بها حياتي منذ زمن بعيد. كنت ألمح هذا الشاب الذي يتبعني أو يتبع
كريمة. عليّ أن أكون أكثر حذرا. ألا يمكن أن تكون كريمة تجهز لي
فخا؟ إنها ممرضة وتعرف الكثير. قد تكون هي مصدر الخوف بالنسبة
لي. عليّ أن أكون أكثر ذكاء وفطنة من هذا. ما الذي أعرفه عنها؟ لا
أعرف عنها سوي ما حكته لي. يجب أن أكون سيئ الظن بالناس إلي
أن ثبتت العكس. أبدا. كنت دوما حسن الظن بالناس لدرجة كنت أتهم
نفسني فيها بالعبط أو الغباء. يقولون إن سوء الظن بالناس من الفطنة.
وماذا يفيد الهرب؟ وماذا يجدي الهروب؟ سيصل إليّ من يريدني
بسوء. تذكرت قول الله سبحانه وتعالى: أينما تكونوا يدرككم الموت
ولو كنتم في بروج مشيدة.

ماذا أفعل؟ لقد تركت لها نفسي بدون أن أناقشها. إنني أثق فيها
وأثق في رجاحة عقلها. أخذت تسير في عجل وأخذت أتبعها بهدوء

وأتظاهر بالثبات. إن ما سيحدث سيحدث ولا يمكن لي أن أمنعه. الله فقط هو الذي يحكم ولا معقب لحكمه.

ابتعدنا كثيرا عن المستشفى. أفزعني أنني لم أجد سوي الدبابات في الشوارع والجنود يعتلون أعلاها. ظننت أننا في ساحة حرب حقيقية. لم نر عسكري مرور واحد ولم نر رجال شرطة مطلقا. أين ذهبوا؟ اليوم بدأت أشعر بالرعب فقط وتساءلت في نفسي: «إذا كان عساكر الجيش هم الذين أمامي بداخل القاهرة فترى من الذي يحمي حدودنا في خارج القاهرة؟ من يحمي سيناء ومن يحمي حدودنا في كل اتجاه؟» التفت حولي فلا أجد الشاب الذي كان يتبعني. يبدو أنني أنا الذي كنت أخاف بلا داع. يبدو أنه لم يكن يتبعنا. لا أثر له الآن. الحمد لله. يبدو أنني أخطأت وبالغت في خوفي.

دخلت كريمة أحد المقاهي وتبعته في صمت. جلست علي أحد الكراسي وأشارت لي أن أجلس في مقعد قريب منها. نظرت إلي وكأنها لا تعرفني. طلبت كوب حليب دافئ لها. طلبت أنا فنجانا من القهوة. لمحت الشاب السمين الذي كان يتبعني يجلس في مواجهتي. إنني لا أعرفه لا يزال يغطي وجهه بشاله الأبيض. تساءلت في نفسي إن كان الضابط شديد هو الذي يتبعنا. إنه ليس سمينا مثل الشاب. ألا يمكن أن يكون أحد المخبرين التابعين له؟ لماذا أغرق في دوامة من الشكوك والمخاوف. غالبا ما أهرب.

لقد هربت من حبي لسارتي. لقد هربت من أحلامي في أن أكون طبيبا وقررت أن أدخل القسم الأدبي. لا أستطيع ولا تستطيع أمي أن تتكلف ثمن كتب كلية الطب ولا مصاريفها. لن أستطيع أن آخذ دروسا إضافية في الكيمياء والأحياء والفيزياء. غضبت الدكتورة فاطمة من أمي غضبا شديدا عندما سألتني أمام أمي وعرفت أنني دخلت أدبي. قالت لها وكنت أسمع حوارهما والحزن يملؤني:

- حرام عليك يا بهية أن تضعي مستقبل عبدالله
- يا دكتورة لا نقوي علي دراسة الطب
- سأساعده يا أم عبدالله
- يكفي أنك تساعدني. كثر الله خيرك. علمي صعب ومصاريفه غالية
- الولد متفوق وسيكون طبيبا بارعا

- لن نستطيع أن نشرب كأس الذل أكثر من هذا
 - لا تقولي هذا. أنا أعتبره أحد أبنائي.
 - يكفيني ما تفعلينه من أجلنا
 - الولد متفوق وحرام عليك يا بهية
 - لقد اتخذ قراره يا دكتوراه
 - تقصدين أنه هرب من حلمه. لقد هرب حتي من المحاولة.
- ابتعدت قليلا عن مكان أمي والدكتورة ودخلت دورة المياه لأبكي وحيدا. لقد كشفتني الدكتورة فاطمة أمام نفسي. إنها الحقيقة التي نادرا ما أواجه بها نفسي. كنت أقرأ مقولة نابليون خير وسيلة للدفاع الهجوم. كنت أسخر من هذه المقولة وأقول: خير وسيلة للدفاع الهروب. أنت لا تستطيع أن تواجه مستقبلا غير مضمون. كيف يمكن لي أن أواجه سارتي بحبي؟ ماذا أقول لها وأنا أعرف أنها أفضل مني في كل شيء. إنها أفضل مني في كل شيء تقريبا. لست أفوقها إلا في الدرجات المدرسية التي أحصل عليها وفقط. هل هذه الدرجات وهل تفوقي هذا يشفع لي لأعترف لها بحب لم أشعر في حياتي كلها بمثله؟ لا يجب علي أن أعترف لها بحبي. أين هي مني وأين أنا منها؟ يجب أن أعترف بقدر نفسي قبل أن تهينني.
- لما رجعت ومسحت آثار دموعي اتجهت الدكتورة فاطمة إليّ وقالت في شفقة:

- أنت المسئول عن قرارك يا عبدالله
- الحمد لله يا دكتورة. لا أحد يأخذ أكثر من نصيبه
- أنت هربت ولم تحاول. أنت ضعيف وليس هذا نصيبك. درجاتك في الأحياء والكيمياء أعلي من درجاتك في التاريخ والجغرافيا.
- وماذا تجدي المحاولة يا دكتورة؟ أبناء الأطباء وأبناء الفقراء فقراء
- لا تحزنني يا ولدي
- يا دكتورة الفقراء يورثون فقرا والأغنياء يورثون الثراء والغني الفاحش
- الدنيا تتغير يا عبدالله يا ابني. الدنيا تغيرت يا عبدالله. كنا من الأغنياء وعبدالناصر الله يفحره أخذ أموالنا بدعوي التأميم وأعطاهم للفقراء. عبدالناصر الظالم قتل والدي. مات والدي بأزمة قلبية عندما كان لديه أكثر من مائتي فدان وقلصها عبدالناصر

- ظلما إلي خمسين فدانا فحسب. عبدالناصر لم يضيعنا نحن فحسب. عبدالناصر خرب مصر. خسرنا أكثر من أربعين مليوناً من الجنيهات في حرب اليمن ولم يكن لنا ناقة ولا جمل هناك — كان يشجع الثورات العربية. كان يدعم حركات التحرر من الملكية والاستعمار. دعم حركة التحرر في الجزائر في ثورة المليون شهيد. عبدالناصر كان زعيماً
- أنت تحب عبدالناصر إذا؟ عبدالناصر كان ديكتاتورا وانفرد بالسلطة — أعترف بسيئاته، ولكن صدقيني يا دكتورة حسنااته تكفيها — وما حسنااته؟ لقد خسرنا سينا ومات عشرات الألوف من جنودنا في حرب اليمن وأضاع ثرواتنا. عبدالناصر كانت ذاته متضخمة ولا يري إلا نفسه. كان يسعى ليكون زعيماً — حضرتك لا تطيقينه لأنه أعطي جزءاً من ثرواتكم للفقراء؟ عبدالناصر كان زعيماً
- وقتلوه يا ولدي — لقد مات — لا. لقد سموه يا ولدي
- زغدتني أمي وأشارت إليّ أن أسكت. كانت عيناها تريد أن تقول لي: لا تتحدث معها بهذه الطريقة. إنها تعطينا. إنها صاحبة فضل علينا. لم أسكت وقلت للدكتورة فاطمة: — عبدالناصر أنشأ السد العالي وبني المصانع وجعلنا نحلم أن نكون دولة عظمي
- عبدالناصر هدم الإنسان يا ولدي. ما فائدة أن تشيد المصانع وتجيئ الجيوش وتهدم الإنسان؟ يبدو أنك تحفظ التاريخ الذي كتبه عبدالناصر.
- التاريخ الحقيقي يا دكتورة — لا يا عبدالله يا مصري. التاريخ يكتبه الأقوياء والمنتصرون. ارجع للوثائق السرية والكتب المختلفة وستعرف سيئات عبدالناصر — له حسنااته التي تعجبني
- معك حق يا دكتورة فاطمة. يبدو أنني لم أقرأ التاريخ من وجهات نظر مختلفة. هربت من المواجهة. اكتفيت بأن أقول إن عبدالناصر

نصير الفقراء وفقط. هربت حتي إنني لم أستطع أن أواجه سارتي وأعترف لها بحبي. إن الهروب سمتي الدائمة. الفقراء لا يسعهم سوي الهروب، أما الأغنياء فيمكنهم اللف والدوران والكر والفر والمواجهة والهروب. أما نحن الفقراء فليس لنا سوي الهروب. هربت من أمام الدكتورة فاطمة بعد أن اعتذرت لها في أدب. أخذتني في أحضانها وقالت:

- سامحني يا عبدالله. لك حق في أن تحب عبدالناصر. أنا شخصيا لا أحبه ولكن الملايين يحبونه ليس في مصر وحدها وإنما في العالم العربي وفي العالم كله. نتمني أن يكون السادات أفضل
- سامحيني يا دكتورة إن كنت قد أسأت
- أبدا. أنا فخورة بك. أتنبأ لك بمستقبل عظيم. كنت أود أن تحقق حلمك وتصير طبيبا
- ليس كل ما يتمناه المرء يدركه.
- وفقك الله يا ولدي

انسحبت من أمامها وأنا أود أن أعود لأحضانها ثانية. جاهدت دمعاتي حتي لا تنزل أمامها، ولكنني انفجرت في البكاء عندما ابتعدت عنها وعن أمي وصرت وحيدا. عليّ أن أواصل هروبي من الدنيا كلها. قالت لي كريمة بعد أن صفعتني بتذكر الواقع وهي تعطيني ظهرها وأنا أرشف القهوة:

- يمكنك أن تتحدث معي وكأنك تخاطب نفسك. لا تنظر إليّ وأنا أكلمك.
- ليس لدي نقود.

لقد تركت كل النقود القليلة التي كانت معي في المستشفى. أنتبهت فجأة ولمحت بطرف عيني الشاب الذي كان يتبعنا. لقد وقف وبدو أنه قرر أن يتجه نحونا. لما قمت فجأة يبدو أنه تراجع وجلس مكانه. لم تكن كريمة في مكانها تستطيع أن تراه. حاولت أن أظاهر بالهدوء. تراجع الشاب. قالت في هدوء:

- لا تقلق. أهم شيء أن كل أوراقك معك؟
- الحمد لله، ولكن ما فائدة الهروب؟
- خشيت أن يقتلوك
- من؟

- البلطجية
- البلطجية يقتلونني أنا؟ لماذا؟ اعتقدت أنك تخافين علي من الضابط شديد
- لا
- ماذا تقصدين؟
- بعض البلطجية يخطفون المرضى من المستشفى ويطلبون فدية
- اطمئني ليس معي أو مع أمي ما ندفعه
- كانوا سيقتلونك أو يبيعون أعضاءك
- أل هذه الدرجة وصل الوضع الأمني في مصر؟
- وأسوأ من هذا. إنهم يهددون الأطباء ويضايقوننا
- وأين الجيش؟ أين الشرطة؟
- تبخروا. لنا الله
- أين أيامك يا مبارك؟ أين أنت يا أبا علاء؟ ملعون أبو الثورة ومن قاموا بها
- كدت أنتهي من شرب آخر رشفة من قهوتي. رأيت كريمة تنظر إلي ساعتها في قلق وترقب. كانت الساعة تقترب من السادسة والنصف صباحا. شعرت أنها تنتظر أحدا. تفرست ملامح وجهها في المرآة الني أمامي حيث يمكن لي أن أرها جيدا. بدا عليها القلق. أضاءت ملامح وجهها بالسعادة وأشرقت بالحب. ابتسمت ابتسامة رائعة أبرزت كل ملامح فتنة جمالها. ابتسامتها أسعدت قلبي. عرفت سر ابتسامتها. دخل شاب طويل رائع الحسن جميل الهيئة. اقترب منها. ما أن ألقى علينا السلام إلا وكانت قد وقفت لتصافحه قائلة:
- دوما مواعيدك مضبوطة يا حسام
- تركتها وحديث العيون بينهما دائم. حديث عيونهما يفضح حبهما. ارتعشت يدها في يده أولا ثم لمحت أن يدها قد نامت في يديه برهة. لقد قالت عيونهما كل شيء. أكملت يداهما ما بقي من قصة أرادت العيون أن تقولها. جلست في هدوء وأنا أنعم بمشاعرهما وأتذكر لقاءاتي مع سارتي الحبيبة. لم أنعم بالهدوء. لمحت الشاب الذي كان يتبعنا ويخفي وجهه بشاله الأبيض يقوم ويأخذ أحد الكراسي ويرفعه ويصوبه تجاه حسام. كان يجري تجاهه. وضعت رجلي بعد أن مددتها قليلا أمامه. وقع علي

الأرض ووقع الكرسي فوقه. نجا حسام من ضربة كان من الممكن أن تقتله. انكشف الشال من علي وجه الشاب عندما وقع. يبدو أنه فقد الوعي قليلا. أصيب بجرح أعلي حاجبه. مسحت كريمة الدم من علي وجهه وصرخت قائلة:

— كيمو حبيبي. ألف سلامة عليك

نظرت إلي حسام في تعجب وكأنني أسأله من هذا الشاب. أجاب والهم يملؤه:

— إنه كمال شقيق كريمة

ثم انحني يساعد كريمة في إسعاف أخيها.

لقد كانت هذه آثار المواجهة التي لم أكن أتحملها وأهرب منها دوما. يبدو أنني كنت علي صواب فالهروب خير وسيلة يمكن للفرد أن يتخذها سبيلا في حياته. الهروب ثم الهروب ثم الهروب. ولكنني في هذه المرة لم أستطع أن أهرب كما كنت أهرب من قبل. كان علي أن أنتظر حتي يفيق كمال وأعرف الخطة التي بذهن كريمة لي. لاشك انها كانت تريد خيرا لي. خجلت كثيرا من سوء ظنوني بكريمة الطيبة الرائعة. سامحيني يا كريمتي الطيبة. كنت أنظر إليها وأتعجب، في حين ينظر حسام إليها وكل علامات الحب تنطق من عينيه.

الحلقة الثامنة عشرة

عودة سارة العسكر

صباح يوم حزين كثيب ينتزعني من بين أحضان النوم التي أعشقها أنتزاعا.

ما أجمل لحظات النوم بعد صلاة الفجر!! وكأنني أكحل عيني بدقائق خدر لذيدة أخلد فيها إلي خيالاتي وأحلامي إذ أخطف نفسي من واقع الحياة لأدخل عالم السعادة الحقيقية في أحلامي وضلالاتي الحبيبة. باغتني صوت دقات الساعة الثامنة وكأنه يهز جسدي لأقوم وأتجه إلي مصنع سارة العسكر. صوت المنبه يصيح وينعق في أذني وكأنه ينعي لي ضياع أوقات الخلود إلي الراحة. علي أن أقوم لأواصل

حياتي المريرة بجهد لا ينتهي وكأنني ثور مغمض العينين أدور في ساقية الحياة التي لا تتوقف ولا تكف عن الدوران.

تثاءبت ووضعت يدي علي المنبه لأخرسه. جعلته يفقد النطق تماما. يمكنني أن أنام ولو عشر دقائق أخرى. سأغفل الزمن وأقتنص هذه الدقائق الغالية. سأنام قليلا. سأسرع في خطواتي إلي المصنع وأصل قبل التاسعة. يمكنني أن أعوض هذه الدقائق، ولكن لا يمكنني أن أعوض لذة لحظات الغفلة والنوم الآن. وضعت وسادتي فوق رأسي وخلدت للنوم اللذيذ وللدفع الرائع الذي أحس به في طيات فراشي. وجدت يد أمي تهزني برفق وحنان. مسحت علي رأسي ولمست وجهي فقممت مسرعا. جلست علي سريري فلا يجوز لي أنا أنام في حضرتها. أخذتني في حضنها وقدمت لي كوب اللبن الدافئ كما كانت تعمل دوما. قبلت يدها كعادتي عندما أصحو. قالت لي:

— لديك عندي خبر سار

— أرجوك يا أمي. قللي لديك خبر حلو. خبر جميل. خبر رائع.

لا أحب كلمة سار

— لماذا يا ولدي كفي الله الشر

— سار المذكر من كلمة سارة وأنا صرت أكره هذا الاسم

— لا أصدق ما تقول

— صدقيني يا أمي

— لقد كان اسم سارة أحب الأسماء إلي قلبك. أتذكر قمر وسممر عندما

أسموك عبدالله إس وفهمت فيما بعد. كانوا يقصدون عبدالله سارة

— سارة الآن من أثقل الأسماء علي قلبي. أنت لا تعرفين ماذا تعني

سارة العسكر

— سارة العسكر؟ أذكر أنني سمعتك تكرر اسمها في نومك مرات عديدة

— صاحبة المصنع الذي أعمل فيه

أيعقل أن أكون أنطق باسمها وأنا نائم؟! ألهمه الدرجة تشغل

خيالي وأنا لا أعلم؟!!

حاولت أن أنسي موضوع سارة. سترجع اليوم من سفرها. بالأمس

لاحظت استعدادات ضخمة لاستقبال سارة بعد عودتها. كان العمل

يجري علي قدم وساق لاستقبال هذا الحدث الجلل.

علقت لافتات ضخمة علي بوابة المصنع الرئيسية كما علقت لافتات علي كل عنبر من العنابر ترحب بعودة الهانم. كان رئيس ورديتنا ندا عبدالعليم يشرف بنفسه علي كل شئ يختص باستقبال عودتها الميمونة. قال إنه سيخصم خمسين جنيها من كل عامل في المصنع لتغطية احتياجات هذا الحدث ووضع هو أماننا في مظروف كبير مائة جنية كاملة ليرينا مدي سعادته وحبه للمشاركة في هذا الحدث الجلل. لقد صاح قائلاً بابتسامته العريضة التي تملأ وجهه والتي كدت أكرهها: — ست الكل وسيدة النساء ستصل غدا. علينا أن نكون جميعا في شرف استقبالها. سيادتها حفظها الله لا تحب أن يتوقف العمل. سنزين الطرقات والعنابر والمكاتب ونكتب لها لافتات ترحيب في كل مكان. نظرت إلي أحلام المطيري ورأيتهما وكأنها تحتقر ندا في نفسها. بصقت علي الأرض وكأنها تريد أن تبصق علي وجهه وعلي ابتسامته. فهمت ما تود قوله. أنت تستفيد من قربك من سارة العسكر كرئيس للوردية. ما الذي سوف نستفيد منه نحن العمال؟

أشرت إلي أحلام أن تهدأ وأن تكظم غيظها. قمت مقاطعا ندا في خطبته العصماء وقلت متسائلا في هدوء أشبه بهدوء ما يسبق العاصفة:

- حضرة رئيس الوردية، لو سمحت..
- لا تقاطعني يا عبدالله يا مصري
- أقاطعك. الأمر يخصني ويخص هؤلاء المساكين
- تفضل يا سيدي. لا تعطلنا. نحن في ساعة الغداء ولا نريدها أن تمر في مناقشات ومجادلات عقيمة
- اطمئن يا سيدي. ستلد وتنجب لنا
- من التي تلد وتنجب؟ وضح كلامك
- مجادلاتي ومناقشاتي ليست عقيمة وستلد يا أستاذ ندا. الأمر يخصنا جميعا

بدأ العمال يضحكون. رمقتني أحلام بنظرة أحبها، وكأنها تقول لي: «أجمل شئ فيك أنك لا تخاف». طبعاً لا أخاف. الأمر يخصني ويخص كل العمال. خمسين جنيها. كل واحد أولي بهذا المبلغ. قال ندا لي وقد بدأ يتأفف إلا أن ابتسامته لازالت تملأ وجهه:

- ماذا تريد أن تقول؟ أنجز وأوجز

- لن أدفع خمسين جنيها
- تقصد أنك ستدفع مائة جنيه مثلي
- لا. لن أدفع خمسين جنيها ولن أدفع جنيها واحدا
- لماذا؟
- لقد تم خصم ستة أيام من مرتبي وأنا جديد ولم أقبض قرشا واحدا من المصنع
- يا عبيط يجب أن تدفع. يجب أن تثبت ولاءك لست الكل أستاذتنا وولية نعمتنا الأستاذة العظيمة والرائدة المتفوقة. قد تزيل عنك الخصم إن أثبتت ولاءك لها. إن سارة العسكر ليست مجرد امرأة عادية. إنها امرأة حديدية. إنها صاحبة النهضة الكبيرة في تاريخ مصنعنا. صاحبة مدرسة الإدارة الحكيمة والقيادة الرشيدة والعبور للمستقبل. إنها صاحبة كل تقدم و... لو سمحت يا أستاذ ندا. لا أريد أن أسمع هذا الكلام لقد قلت هذا الكلام من قبل لعمارها. آسف.. أقصد لزوجها الأستاذ عبد الله البندري
- وماله يا أخي وسأقوله لها وأمامها. كلاهما واحد
- آه. هو أبو سفيان وهي أم سفيان
- انفجرت أحلام من الضحك. اشتط همام الحفناوي من الغضب. انتفخت وجنتاه أكثر من انتفاخهما الطبيعي فصارتا كبالونتين عظيمتين. قام في تأفف وترك المكان غاضبا. ضغط ندا بأسنانه العليا علي شفته السفلي ونظر إلي العمال وقال:
- لن نعتبر أنك قلت شيئا يا أستاذ عبدالله. أنت لا تعرف قواعد المصنع ولا لوائحه. أنت لازلت جديدا.
- رفع صوته أكثر ونادي همام قائلا:
- تعال يا أستاذ همام. إنه جديد.
- وقف إياد ناصر وأمسك يدي في ود وقال:
- سأدفع أنا الخمسين جنيها بدلا منه
- تركت يده في رفق وقلت:
- لن أسمح لأحد أن يدفع عني قرشا واحدا.
- أمسك ماجد بحيري بكتفي وطلب مني أن أجلس في هدوء وهمس

في أذني قائلاً: «سأدفع أنا الخمسين جنيهاً بدلاً منك». ربتت علي كتفه. تظاهرت أنني سأهدأ قليلاً، ولكنني اتجهت إلي منصة ندا وأخذت الميكروفون منه عنوة وقلت في إصرار وتحد:

— لن أدفع قرشاً واحداً ولن يدفع أحد قرشاً واحداً. إذا أردت حضرتك كرئيس الوردية أن تتحمل كافة تكاليف الاحتفال بالهانم فيمكنك هذا. لن أدفع. لن أدفع. لن ندفع. .

لوحث بيدي في الهواء وصرخت قائلاً بصوت عال: «لن ندفع. لن ندفع». خرجت عشرات الأصوات بعد صوتي متحدة معتمصة بهتاف واحد: «لن ندفع».

خرج همام من الاجتماع والغضب يملؤه. تبعته نهاد التي أظهرت تبرماً ملحوظاً مني ونظرت إلي وكأنها تأمرني أن أسكت. لم تتغير ابتسامة ندا. خرسيت ابتسامة رجاء شوكت الصفراء. فلم تعد أطول ابتسامة صفراء في التاريخ.

شعرت بنظرات الجميع تحيط بي. العمال البسطاء الفقراء بملابسهم الرثة ووجوههم الكالحة المستسلمة ينظرون إلي وكأنني أفرغت كل ما يريدون قوله. تماسك ندا وقال في هدوء:

— سأتحمل أنا كل تكاليف الاحتفال بعظيمتنا وقائدتنا ومعلمتنا ورئيستنا سارة العسكر

انصرف العمال من الاجتماع وهم سعداء. سمعت دعوات بعضهم لي بأن يحميني الله، وسمعت عاملة عجوز تقول لابنتها: «يبدو أنه لن يعمر في هذا المصنع طويلاً». ربت شيخ كبير علي ظهري بعد أن ابتسم لي فبانت أسنانه القليلة والتي خلع معظمها: «ربنا يحميك يا بني». رجعت إلي الاجتماع فوجدت رجاء تهمس في أذن ندا. كفت عن التهمس عندما رأتني وكأنها كانت تظن أنني لن أعود. ذهلت تماماً عندما رأتني. رجع إياد وماجد وأمسكا بي فذهبت معهما طواعية وتظاهرن وكأننا سنخرج من قاعة الاجتماع، ولكننا تلاكنا قليلاً وتباطأت أقدامنا.

تركت ندا بابتسامته العريضة ورجاء شوكت بابتسامتها الصفراء الطويلة التي لن أكف عن وصف صاحببتها بأنها صاحبة أطول ابتسامة صفراء في التاريخ. كنت أنظر إليهما وأنا أخرج فرأيت امرأة

قصيرة معهما لم أرها من قبل. لما سألت ماجد عنها فقال لي :
— إنها عاملة جديدة في المصنع.

قال لي إياد صابر وأنا أنظر إليها :

— احذر منها فإنها صديقة حميمة لرجاء وهي التي أتت بها في
هذا المصنع

— آه. الطيور علي أشكالها تقع. طيب رجاء صاحبة أطول ابتسامة
صفراء في التاريخ وماذا عن صديقتها القصيرة. سأجد اسما ملائما
لها. صاحبة أخبث ابتسامة؟ لا أدري. علي أن أعرفها أولا ثم
أجد الوصف الملائم لها. لن أتعجل. لدي المزيد في قاموسي أيتها
القصيرة.

امرأة قصيرة تضع كما كبيرا من الأصباغ علي وجهها. عرفت فيما
بعد اسمها. دائما ما أنسي اسمها. آه. تذكرته. اسمها سادة. قلت
لصديقي إياد وماجد وأنا أضحك :

— سادة؟ أعوذ بالله. تذكرني بالقهوة السادة. لو حذفنا الدال
وأبدلناها راء لصار اسمها سارة. يا ساتر يا رب. أيصل النفاق
إلي هذه الدرجة؟ سادة. أهلها بخلاء جدا لهذه الدرجة؟ ماذا
لو أسموها زيادة.

رد ماجد بحيري وهو يضحك قائلا :

— اسمها فعلا سادة. رأيت أوراق تعيينها في المصنع مع ندا
ابتسم إياد ثم قهقه قائلا :

— اسمها سادة الدوغري

قهقه ثلاثتنا. دوغري أم بطي. عاشت الأسماء يا سادة يا دوغري.
سبحان الله. سادة ودوغري في نفس الوقت!! سنري ما تخبئه الأيام
لنا. سادة وسارة ورجاء في عالم النساء، وهمام وإياد وماجد ونهاد في
عالم الرجال. لا. لا. نهاد في عالم النساء. لا أدري لماذا أخطئ دائما
وأعدها في عالم الرجال. لاشك أنني غبي. أخبرت ماجد وإياد بهذا
فضحكا ثانية، ولكن لم نكمل ضحكنا. تعجبت جدا عندما تذكرت أن
ندا عبدالعليم لم يطلب مني أوراق ليتم تعيينني في هذا المصنع.

لقد دقت أجراس العمل مؤذنة ببدء الشقاء ليوم جديد.

أحضرت لي أمي طبق الفول وبصلة ورغيفين. تناولت طعامي.

أثناء الطعام سألتها :

- ما الخبر السار أقصد الخبر الحلو الذي تريدين أن تخبريني به؟
- يبدو أنه سيتحقق حلمي.
- خيرا إن شاء الله.
- سأزوجك.
- تزوجيني؟
- طبعاً يا ضناني. أريد أن أفرح بك قبل أن أموت.
- بعد الشر عنك.
- يا بني أريد أن أفرح بك.
- ومن تعيسة الحظ يا أماه التي سترضي بي؟
- قل سعيدة الحظ. أنت ابني وأحسن الرجال وأفضلهم علي الإطلاق.
- من تلك التي سترضي برجل مثلي تخطي الخمسين
- ألف من تتمناك.
- وأنا لا أتمني أحداً يا أمي. أنا لا أريد شيئاً. أنا مع أمي حبيبتي ونور عيني. لم نتشاجر ولم نختلف. لماذا تريدين أن تحضري لي من تنكد عليّ وتتشاجر معك؟ لن أحضر في حياتي من تناطحني.
- لا يا بني. ستكون زوجة لك لا جاموسة.
- معظم الزوجات في هذه الأيام يناطحن أزواجهن.
- يا ابني الزواج مودة ورحمة.
- هذا كان من زمان. كان في الماضي. زمان ومضي. المرأة الآن تريد أن يكون زوجها خروفاً لتسحبه
- ماذا بك يا عبدالله؟ تتحدث عن الناس وكأنهم حيوانات. تتحدث عن البقر والخرفان
- وماله يا أمي. الإنسان حيوان مفكر. الإنسان حيوان ناطق. يومك سعيد وخير يا أمي. يا أحلي وأجمل أم في الدنيا
- كنت دائماً أسمع أمي وهي تدعو لي في صلاتها أن يرزقني ببنت الحلال. يبدو أن الله لم يستجب لها إلي الآن. لقد كانت تدعو لي ببنت الحلال منذ أن دخلت الجامعة. أيعقل أن تكون كل البنات اللاتي عرفتهن بنات حرام. لم أتزوج إلي الآن. السبب أن قلبي لم يتعلق إلا بسارتي الحبيبة. سارتي التي ما بحث لها بحبي إلا بنظراتي وبتصرفاتي.

- قالت لي أمي وهي تجهز لي ملابس: —
 شكرية بنت الحاج صبري جارنا ستأتي عندنا اليوم الساعة السادسة. سترها وتعجبك إن شاء الله. —
 شكرية!! أعوذ بالله. أكانت شكري ثم تحولت إلي شكرية؟ —
 بنت طيبة. —
 هل رأيته يا أمي؟ —
 لا، ولكن الكل يصف جمالها وطيبته. —
 أعتقد أنها تخطت الثلاثين يا أمي؟ —
 لا وأنت الصادق. تقترب من الأربعين. إنها مناسبة لك —
 لا. حرام عليك يا أمي؟ أنت تهذين. أتريدين أن تزوجيني بامرأة عانس؟ —
 لا يا ولدي. —
 ماذا تقصدين؟ —
 مطلقة لأنها لا تنجب. —
 أكيد أنك تهذين يا أمي. —
 لا والله. أقول لك حقا. —
 لن أتزوج يا أمي. —
 لبست ملابسني وأسعرت في الخروج.
- علي أن أستعد للقاء سارة العسكر. عندما أرجع أيضا سأري شكرية. أليس هذا عالمي الذي يجب أن أحياه؟
- لا أدري لماذا انقبض قلبي وشعرت بالخوف عندما وصلت إلي المصنع. لقد استمعت إلي أصوات الموسيقى والزغاريد. الأصوات تكاد أن تصم أذني. أعلم أنه صباح حزين كثيب. ربنا يستر. لقد كان هذا اليوم أول مواجهة حقيقية لي مع سارة العسكر. أعلم أن اليوم يتبين لي من أوله. رددت في صوت مرتفع لأطمئن قلبي قائلا: «أصبحنا وأصبح الملك لله. يا فتاح يا عليم يا رزاق يا كريم. اللهم إني أسألك خير هذا اليوم وخير ما فيه وخير ما بعده».
- لم أكد أنتهي من كلماتي هذه إلا وفوجئت بسارة العسكر أمامي مباشرة. إنها تكاد تقف خلف بوابة المصنع ويحيط بها جمع غفير

من الناس. اللهم إني أسألك السلامة. يا رب سلم. يا رب سلم.
إنها تقترب مني مباشرة. إنها تقف أمامي وتنظر إليّ.
أعرف أنه صباح يوم كئيب حزين.

الحلقة التاسعة عشرة

سارة تقترب

كدت أن أتخشب تماما. سارة العسكر تقترب مني. إنها تقترب مني فأخاف. لقد تصلبت بالفعل.
لا أدري ماذا أفعل. كنت أتمنى أن أهرب من أمامها. الهروب سلاحه المفضل. وددت لو أنني كنت فأرا أستطيع أن أهرب من أمامها. وددت لو أنني أستطيع أن أراوغها وأهد قوتها. شعرت بأنها قط ضخم كبير يقترب مني. أشعر أنه لا حول لي ولا قوة أمامها. أراها تقترب مني أكثر فأكثر. رأيتهما وكأنها تستعد لإخراج مخالبتها وفتح فمها. أسنانها البيضاء اللامعة ظهرت عندما فتحت فمها لتتحدث. أغلقت فمها ثانية، ولكنها ظلت متحفزة وكأنها تريد أن تنقض علي. تذكرت أنياب الأسد عندما فتحت فمها ثانية لتنقض علي.
ملأني الخوف وغشيني الفزع والرعب حقا. أدركت أنها لا محالة ستتنقض علي في أقرب وقت. سمعت نبضات قلبي تتزايد كلما كانت تقترب مني خطوة. ستلعب بي كما تلعب القطعة بفأرها عندما تنقض عليه. لن أكون فريسة سهلة لها. سأراوغها وأنهك قوتها. تعالي إلي يا قطتي المتحفزة. ستبدأ حلقة جديدة من حلقات توم وجيري. اقتربي مني. الفأر دوما ينتصر في توم وجيري. لماذا لا أكون الفأر الصعب الذي يتعبك ويقض مضجعك يا قطتي العزيزة. هلم إلي أيتها القطعة. لماذا أخاف؟ لم أرتكب ذنبا. إنها لن تتذكرني. لديها المئات من العمال في المصنع غيري. إنك لن تتذكريني يا قطتي العزيزة. لم أفعل خطأ لتعاقبيني عليه. ما أنا سوي عامل بهذا المصنع.
كانت كلما اقتربت خطوة أشعر أن قلبي يستل من صدري. أنا لا أستطيع حتي أن أصدر صوتا لأتحدث. انحبس صوتي داخلي وأدركت أنني لن أستطيع أن أتحدث.

بدا عليها أنها أحبت اللعبة. التصقت بباب المصنع تماما ولم أقدر علي أن أتحرك خطوة واحدة للأمام باتجاهها. أنا واثق من أن أظافرك ستخرج من مخالب يدك يا قطتي لتخدش وجهي وستترك أثرا يميز وجهي. ها هي ذي تتحفز الآن ثانية. إنها تقترب مني وهي متنمرة متوثبة لتنقض علي.

رأيتها تتقدم الجمع الغفير الذي يحيط بها. تلاشت صور هذا الجمع من أمام عيني تدريجيا ولكنني استطعت أن أميز ندا بابتسامته العريضة التي تملأ وجهه حتي أذنيه. وميزت سيف سب الدين أقصد سيف غرس الدين بمشيته التي تبدو جادة والجدية منه براء. أقسم بالله أنه رجل غير جاد علي الإطلاق. ميزت أيضا رجاء بضحكتها الصفراء الطويلة كما ميزت سادة بالأصباغ الكثيفة التي تملأ وجهها اليوم. إنها تبدو كالبهلوان تماما. أول مرة أري عينيها. لونهما يميل إلي الزرقة فأشعر أن جميع ألوان البهلوان قد ملأت وجهها. كانت قد وضعت لونا أخضر حول عينيها كما وضعت الكحل الأسود لتحدد به عينيها الواسعتين. بهلوان حقيقي والله. أقسم أنها كبهلوان حقيقي أو هكذا رأيتها. يتجمع الكل حولها. كلما خطت خطوة تجاهي رأيت حمارها عبدالله البندري يتبعها. رأيت أيضا همام يتتبع خطوات زوجها مبتسما والركب يتقدم نحوي. أكل هؤلاء يقتربون مني؟ رأيت نجدي البقري أيضا ذلك الشيطان يجاهد نفسه ليلحق بالركب الذي يود أن ينقض علي. أدركت أنني هالك لا محالة. لم أر عبدالله البندري يتقدم عليها قط خطوة. يبدو أن هذا الرجل أو شبه الرجل قد ترك زمام القيادة لها تماما. حسرة علي الرجال في هذا الزمان. لن أترك لك يا شكرية المجال لتتقدمي خطواتي. هذا إن تزوجتك في الأساس. أيعقل أن ينقض كل هؤلاء عليّ مرة واحدة. ماذا أفعل وأنا وحيد وسط هؤلاء جميعا؟ لن أستسلم ولن أرفع الراية البيضاء. قطيع من القطط السمان شعرت أنه يقترب مني.

اللحظات تمر عليّ متناقلة كئيبية. أنفاسي تنقطع خوفا. فتحت فمي لأتكلم فلم تسعفني كلماتي. حاولت أن أبتسم وأن أهش وأبش في وجهها ولكنني لم أستطع.

يبدو أنني أكبر الموضوع وأعطيه أكبر من حجمه. ما أنا إلا عامل بمصنعها. حاولت أن أظهر ابتسامة علي وجهي، ولكني يبدو أنني فشلت حتي في أن أرسم ملامح هذه الابتسامة ببساطة علي وجهي. ركبها يواصل تقدمه إليّ وأنا ضعيف واحد. يا رب أسألك العون. اللهم إن أهلك وسط هذه العصابة فلن يستطيع أحد في هذا المصنع أن يتحدث أو يعترض بعد اليوم.

رباه إنني أسألك بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات واصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن أتماسك وألا أترجع. إنها أول مواجهة حقيقية بهذه المرأة وبزبانيته. اللهم إنني أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني علي الناس. أنت رب المستضعفين وأنت ربي. اللهم لا تكلني إلي الخوف منهم ولا تجعلني لقمعة سائغة أمامي. أعطتني دعواتي وتوسلي إلي الله بعض الإحساس بالأمان. هزرت رأسي وفتحت فمي. لم أتذكر أنني رأيت معركة قط بين فأر وقط. سيهز الفأر الذي بداخلي رأسه ويحرك ذيله وقد ينقض ويبرز أسنانه التي لن تجدي نفعا أمام مخالب القط وأنيا به. لن تضيرني الهزيمة أمام قطتي المتوثبة وهي في كامل عدتها وعتاها. إنها تتحصن بقوتها وبرجالها. في غزوة بدر الكبرى تذكرت أن القوة كانت للمسلمين الضعفاء أمام جبروت جيش الكفار المغتربين بسلاحهم وعتادهم. يا رب كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله. يا رب. سأحاول. وما رميت إذ رميت ولكن الله رمي. سأستخدم معها أسلوب الكر والفر.

ابتعدت عن باب المصنع الذي التصقت به وحاولت أن أبتسم في وجه قطتي الضخمة وقلت لها وأنا أستحضر صورة سارتي الحبيبة في ذهني عندما كنت أحاول أن ألقى عليها تحية الصباح:

— صباح الخير يا أستاذة سارة

لم ترد ولكنها واصلت اقترابها مني في رهطها. يا ستير يا رب. أم سفيان تقترب مني ومعها زوجها عبدالله البندري الملقب بأبي سفيان ابن جحش أو ابن الجحش. لن أخاف. بدأ الهدوء يتسرب إليّ قليلا. لقد بدأت المواجهة. صحيح أنني كنت أهرب دوما من أية مواجهة، ولكن المواجهة قد فرضت علي. تذكرت قول الله تعالى: كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسي أن تكرهوا شيئا وهو خير

لكم. سأتشجع علي الرغم من أنني لا أمتلك أية أسلحة. لن أستسلم.
بدأت أستعيد توازني مرة أخرى وحاولت أن أتذرع بنفاق لا أحبه
فقلت لها:

— حمدا لله علي سلامتك يا أستاذة.

لم ترد. واصلت تقدمها. فتحت فمها فبرزت أسنانها اللامعة
البيضاء التي رأيته فتخيلتها أسنان قط متحفز علي وشك الهجوم.
مدت يدها كمخلب قط قوي وصاحت بسيف غرس الدين قائلة في
عنف وعصبية غير موجهة كلامها لي وإنما له:

— ما هذه القمامة في هذا المكان؟ مخصوم منك ثلاثة أيام.
تذرع سيف بالهدوء ولم يتحدث قط. اتجهت إليّ وتحولت في
ابتسامة أخافتني. قالت:

— الله يسلمك يا أستاذ عبدالله يا مصري

أصابني الفزع حقا. إنها تذكر اسمي. أيعقل أن تكون لها مثل
هذه الذاكرة؟! لقد صدق ندا رئيس ورديتنا إذا عندما قال إنها امرأة
حديدية. أيعقل أنها تذكر أسماء كل من يعملون معها في المصنع. لقد
أخبرها ندا باسمي عندما خرجت من التحقيق الذي أودي بي إلي
خضم ثلاثة أيام من مرتبي قبل أن تسافر. لقد لقيتني في ثوان معدودة.
أيعقل أنها تذكر الموقف بتفاصيله. يبدو أنني يجب أن أعترف أنني
أمام امرأة مختلفة حقا. غرس قبل الخصم ببساطة. سأحاول أن أجرب
كل أسلحتي. سأحاول أن أظاهر بالضعف واللين. سأستخدم أسلوب
في الفكاهة والتمثيل ولن تهزمني. لن أدع الساحة لك يا سارة.
يكفيني أنني لم أواجه سارتي أبدا وكنت دوما أهرب من المواجهة.
أخشي إن تكلمت وقلت لها: «بسم الله ما شاء الله. ذاكرة حضرتك
حديدية يا أستاذة سارة». أخشي أن تخضم مني ثلاثة أيام بدعوي
أنني أحسدها. آثرت السلامة.

اقتربت مني جدا. نظرت إليّ باحتقار وقالت:

— مخصوم منك ثلاثة أيام

لن أسكت هذه المرة. عليّ أن أتكلم. سأستخدم أسلوب السخرية.
لن أسكت مثل سب الدين هذا. أقصد غرس الدين. قلت لها في
استنكار والغضب ظاهر عليّ ويميز صوتي:

- ثلاثة أيام فقط يا أستاذة سارة؟
- معك حق. خصم ثلاثة أيام منك ليس عقابا كافيا.
- ما العقاب الكافي من وجهة نظر حضرتك؟
- خصم ستة أيام
- وما التهمة إذا يا أستاذة سارة؟
- أولا رائحة فمك كريهة. أياكل أحد البصل في الصباح عندما يأتي إلي عمله؟
- وهل هذا خطر علي الماكينات التي أعمل عليها يا أستاذة؟ هل ستتأذي هذه الماكينات من رائحة فمي؟ هل سأقيل الماكينات يا أستاذة؟
- كاد الحاضرون أن يضحكوا، ولكنها نظرت إليهم في حزم فخرست ضحكاتهم التي بدت آثارها علي وجوههم. لم يستطع أحد أن يضحك إلا زوجها. لم يستطع أن يكتم ضحكة خرجت منه رغما عنه. لم تتغير ابتسامة ندا في حين أن رجاء شوكت كانت قد قطعت ضحكتها الصفراء لثوان معدودة حتي لا تثير غضب قطتي المتحفزة لمواصلة الهجوم علي. قالت سارة في غضب:
- إياك أن ترد عليّ ثانية يا عبدالله يا مصري
- يا افندم أريد أن أستوضح فقط
- ما الذي تريد أن تستوضحه؟
- الستة أيام من أجل رائحة البصل فقط والتي قد تؤذي الماكينات؟
- لا
- هناك إذا أسباب أخرى؟
- نعم
- هل لي أن أعرفها؟
- ستعرفها في التحقيق يا عبدالله
- طيب هل يمكن أن أقبل رأس ماكينات المصنع ماكينة ماكينة واعتذر لها جميعا فيرفع عني هذا الخصم لأنني آذيت مشاعرها عندما أكلت البصل؟
- طبعا لا
- لماذا يا أستاذة سارة؟
- أنا التي أسأل هنا. أنت لا تسأل

— اعتبريني ماكينة يا أستاذة سارة. لقد خشيت علي الماكينات البريئة من أن تتاذي من رائحة فمي. امنحيني الفرصة لأتساءل
تفضل

— أعرف أن العقاب الشائع هنا خصم ثلاثة أيام وأنا راض بجريمتي النكراء في حق الماكينات الطيبة المسكية التي يجب أن نعاملها بكل آدمية واحترام، ولكن لماذا ستة أيام تخضم مني دفعة واحدة؟ نظرت في وجوه الجميع. تواري همام من أمامي كما توارت رجاء. ابتعدا ونظرا إلي الأرض. ابتعدت سارة عني قليلا ثم قالت لي:

— لقد سخرت من أم سفيان. كل شيء يصلني حتي وأنا في الخارج يبدو أنني فهمت. عيونها في المصنع في كل مكان. يجب ألا أظلم أحدا. لن أشك في أحد. لا يمكن لزملائي أبدا أن يبلغوها بكل شيء. المهم أنها علمت ما حدث. الآن سوف أجرب سلاحا جديدا. سأجرب سلاح براعتي في التمثيل وبراعتي في الإضحاك. حان وقتك أيها السلاح. أرجوك ألا تخذلني. سأحاول أيضا استخدام أسلحتي المتبقية إذا لم يجد هذا السلاح نفعاً. لم يعد أمامي أي مجال للتراجع. قلت لها وأنا أبتسم:

— لأنني سخرت من أم سفيان. والله لم أكن أقصد. أعني هذا أن عقابي كان من الممكن أن يزيد إلي أسبوع إن سخرت من أبي جهل؟ أكان من الممكن أن يمتد العقاب ليصل إلي شهر إن سخرت من أبي لهب؟ نظرت في عينيها. لأول مرة اكتشف أن عينيها جميلتان حقاً. ما أجمل هاتين العينين!! أن عينيها تقتربان في الشبه من عيني سارتي الحبيبة. عاودت النظر إلي عينيها بقوة وتحد إلي أن غضت بصرها عني. أنتظرت قليلا فرأيتها تنظر إلي من جديد. لما ضبطتها متلبسة بالنظر إلي نظرت إليها بقوة وجراحة وكأنني معجب وهائم بعينيها حقا فغضت بصرها وأمسكت بشفتها السفلي بأسنانها العليا وابتسمت. اقتربت منها في غفلة. كانت قصيرة فانقضت علي رأسها. قبلت رأسها بالفعل. شعرها كان رائعا. يبدو أكثر من نصف شعرها من خلال إشارب أسود ترتديه فيغطي نصف رأسها ويبرز فتنة نصفه الآخر. لمست شعرها الناعم الحريري بيدي وشفتي، وقلت لها بآداء تمثيلي أجيده ومن حولها يبعدني عنها بعد أن تعجبوا لجرأتي:

— أريد أن أقبل رأس أم سفيان إن كنت قد أخطأت في حقها

ابتعدت قليلا. ابتسمت ثم قالت لي :

— كيف تجرؤ علي هذا؟

— أحاول الاعتذار لمولاتي أم سفيان.

تغيرت نظراتها لي. انتظرت من أبي سفيان أن يغضب، ولكنه لم يتحرك له ساكن. رجل كبير في السن. لم يستطع الرجل أن يكتفم ضحكاته. لم تبد عليه آثار الغيرة. الحمار سيف غرس الدين كان يطالبني ألا أحملق في صورتها لأن أبا سفيان يغار. ها أنا ذا أقبل رأسها الآن وأمس شعرها ولا يغار هذا الحمار. نظرت إليه في احتقار حقا. قررت أن أجرب سلاحا آخر.

اقتربت من أبي سفيان وقلت له بحركتي التمثيلية التي أجيدها وهو لا يستطيع أن يمنع نفسه من الضحك وجسده السمين كله يهتز:

— مولاي. يا أبا سفيان. أتوسل إليك أن تجعل أم سفيان تزيل عني الخصم. أتوسل إليك بسفيان وبأم سفيان.

كاد أبو سفيان أن يموت ضحكا. صاحت سارة العسكر قائلة في حزم:

— لن نضيع وقتنا في هذا الكلام الفارغ مع عبدالله المصري. مخصوم منه ثلاثة أيام. الساعة الآن التاسعة وخمس دقائق. لقد تأخر عن عمله خمس دقائق. الإنتاج سيقل .

يبدو أن خطتي أثمرت جيدا. لقد نجحت. قل الخصم إلي ثلاثة أيام بدلا من ستة أيام. أليس هذا إنجازا؟ لاشك إنه إنجاز جيد. خشيت من محاولتها تصنع الجدية وقلت لها وأنا أتصنع الجدية مثلها تماما:

— يمكنني أن أستمّر في عملي عشرة دقائق بعد أن تنتهي ورديتي. لا داعي للخصم يا أستاذة سارة.

— لن أخضم منك هذه المرة.

شعرت أنها لن تستطيع أن تهزمني. الحمد لله. بدأت تسحب نفسها وتسحب قواتها. اتجهت لأحد عمال الأمن ورفعت صوتها قائلة في غضب وهي تنظر إلي وأنا أجر أقدامي لأدخل عنبري:

— مخصوم منك ثلاثة أيام. رابطة عنقك غير نظيفة. أنت أيضا لا تربطها جيدا. أنتم عنوان مصنعي.

رجعت إلي سارة وقلت لها في ثبات:

— راتبه لا يكفي يا أستاذة سارة.

- لماذا تتدخل في ما لا يعنيك؟
- سألته ذات مرة عن مرتبه يا أستاذة. إن أردت أن تطاع فعليك أن تأمر بما يستطاع
- يبدو أنني يجب أن أفصلك من مصنعي.
- لماذا يا أستاذة؟
- لا أحب أن يعارضني أحد
- يا أستاذة. عامل الأمن هذا متزوج ولديه أولاد. مرتبة يقل عن خمسمائة جنيه. هذا حرام. والله العظيم حرام.
- هل ستعلمني الحلال والحرام؟
- حاشا لله يا أستاذة.
- أنت مفصول من الآن.
- بدا عليها الغضب تماما. كيف أجرؤ علي الكلام هكذا معها. أنا مفصول؟ خسرت كل شيء. حتي عملي خسرت. يبدو أنك علي صواب يا نهاد يا رفيقتي في العمل. لقد تم قصلي بسبب لساني. كانت تقول لي دوما: «وأنت مالك؟ دع الملك للمالك».
- لن أراجع. لن أستسلم ولن أرفع الراية البيضاء. طالما أنني مفصول يجب أن أتكلم. طالما أنني فصلت فلن أسكت. خرجت من باب المصنع وأنا أشعر بالانكسار. لن أنكسر. التفت إليها وصحت:
- سأخرج من المصنع ولن أعود إليه أبدا يا سارة يا عسكر.
- اسمي الأستاذة سارة العسكر. لا أريدك أن تعود
- لن أنافقك، ولكن أفضل شيء أن أخرج من هذا المصنع وأدعك فيه وأنت لا تعلمين شيئا عنه
- ماذا تقصد يا عبدالله يا مصري
- سأدعك علي جهلك
- لست جاهلة
- جاهلة ولا تعلمي أي شيء
- اخرج من مصنعي
- سأخرج ولكن اعلمي أنني إذا خرجت فلن أعود أبدا
- لا أريدك أن تعود
- أنت لا تعلمين أي شيء. في أيام قليلة علمت بما لم تحيطي بعلمه

يا أستاذة سارة. أنت نائمة علي أذنك. لدي أسرار كثيرة. أصرت علي أن أوصل سيرى. أعتقد أنني أثرت فضولها. لدي أسرار فعلا عن زوجها وعن ندا وعن غرس الدين. سأخرج وستظلين جاهلة يا سارة. فعلا لكم أنت مسكينة!! فليحترق المصنع بما فيه وبمن فيه. وددت أن ألقى نظرة أخيرة علي هذا المكان الذي لم أعد أود أن أعود إليه أبدا. وجدت رجاء تبتسم وقرأت السعادة في عينيها وفي عيني سادة. لا أدري لماذا راودني إحساس بأنني سأعود إليه ذات يوم. ستنتفضي شعلة السعادة من عيني هاتين المرأتين. سأعود كما عاد النبي يوسف وكان أكثر عزا من أخوته الذين ألقوه في البئر وزعموا أن الذئب قد أكله. تذكرت قول الله تعالى لنبيه يوسف بعد أن ألقوه في البئر: وأوحينا إليه لتنبئهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون. أنا أيضا سأعود. سأعود وأنبئكما بأنكما كنتما سعيدتين فرحتين برحيلي. ستحاولان الاقتراب مني. أزعم أنكما ستحاولان أن تتقربا إلي وتسيراً إلي في موكب النفاق الذي يجيده الجميع هنا. الأيام بيننا. لمحت سارة تشير لندا بعينيها أن يستعيدني. كذبت عيني وواصلت سيرى. عينا سارة العسكر كانت آخر ما وقعت عينا عليه. شعرت أن عينيها تريدان أن أرجع. تريد أن تعرف الأسرار التي لدي. لن أعود يا سارة. لن أعود. الأرزاق بالله. لاشك أنني سأجد مكانا آخر أعمل فيه. الأرزاق بالله وعلي الله توكلت ومن يتوكل علي الله فهو حسبة. رزقي عليك يا رب. من كان رزقه علي الله فلا يحزن.

الحلقة العشرون

سر أبي سفيان

— ألف سلامة عليك يا كيمو

هكذا نطقت كريمة عندما بدأ كمال يفيق ويسترد وعيه.

اقتربت منها وتبعني حسام الذي نظر إلي كمال في قمة الغضب عندما نظر إلي كمال الملقى علي الأرض بعد أن اعترضت طريقة ومنعته من أن يضربه بالكرسي فأنقذته من ضرر محقق. لقد كان يوما عصيبا في أوله، ولكنه كان يوما من أسعد أيام حياتي. لقد نجوت

كما نجا حسام أيضا. ليس هذا فحسب، بل لقد نجت كريمة وأثمرحبها سعادة حقيقية ففرحنا جميعا. لقد بثت روح الأمل فيها من جديد بعدما كادت تياس.

رمقني بعين الود المتزجة بالعرفان بالجميل وكأنه يشكرني. لولا يقظتي وانتباهي لكان هذا الشاب الأخرق قد حطم رأسه تماما بالكرسي الذي كان سينقض به علي رأسه ليهشمها. حمدت الله لأنه قدرني لأنقذه. لم أكن أعلم أن هذا اليوم سيكون أسعد يوم في حياته، ولم يكن حسام ليعلم أن أمله في خطبة كريمة سيتحقق اليوم. سبحانه يا رب يا عظيم لقد تعلمت في حياتي أن مع العسر يسرا، كما تعلمت أنه من رحم الآلام تولد الأحلام، ومن قلب الأحلام تخرج الآمال. تعلمت أن المحنة منحة وأن الخير قد يوجد في داخل الشر. هكذا ثقّتي بك يا رب دائما. رمقت أيضا كريمة بكل شكر. إنها ليست كاذبة. لقد صدقتني فيما كانت تقول. لا أدري لماذا عبث الشك بي في البداية. لولاها لكانت عصابة من البلطجية الآن تحيط بي وتقطع أعضائي عضوا عضوا لتبيعها، كان من الممكن أن يبيعوني لإحدى المستشفيات التي سيتولي فيها الأطباء معدومي الضمير عملية بيع أعضائي بعد تخديري وغيابي عن الوعي. أنا مدين لك يا كريمة فعلا. لقد أنقذتني. أتمني أن تكوني قد سعدت بمحاولة ردي للجميل إذ أنقذت حبيبك. كانت عيناى تنطقان بكل عرفان بالجميل.

كانت تنظر إلي أخيها الذي طرحته أرضا منذ دقائق بكل نظرات الود والمحبة وهي تزيل بقية آثار الدماء من علي حاجبه. أحاط الخوف بكلماتها وغمر الفزع نبراتهما وهي تمسك بيد أخيها. كلماتها القليلة التي تتمني له السلامة كانت صادقة وتنطق بالحب، ونظراتها دافقة وتنير عينيها بلهيب الشفقة والخوف في هذا اليوم العاصف المطير. كأنها كانت تود أن تقول له: «لماذا كل هذا يا أخي؟ ألسنت ابن أمي وأبي؟ لماذا أردت أن تضربه؟ لو كانت ضربتك أصابته لكنت قتلتني قبل أن تقتله. لماذا كل هذا الشر المتأصل بداخلك؟ لماذا تتبعني يا أخي؟ لقد قلت لك أكثر من مرة إن المرأة لا يمكن أن يحرسها أحد. لو أغلقت عليها جميع الأبواب وأرادت أن تفعل شيئا لفعلته. المرأة لا تحرسها إلا نفسها.

المرأة لا يحرسها سوى دينها وخوفها من الله. لماذا تتمسحون في شرف المرأة وأنتم تعلمون أنني أشرف من أية امرأة في هذه الحياة؟ أنا أبيت في عملي كثيرا وأنتم نائمون علي أسرتكم وفي أحضان زوجاتكم وأولادكم. لماذا تتبعني؟ أنت لا تخاف علي. أنت تخاف من أن أتزوج بشخص أراد الزواج مني في الحلال فأبيتكم. لقد رفضتم طلبه وقد جرب الطريق المستقيم وحاول أن يدخل بيتكم من بابه». نظر كمال حوله عندما بدأ يعي تماما ما حوله. نظر باشمئزاز إلي أخته وأبعد يدها عنه واستعد حتي يقف، ولكنه أيقن أنه لم يسترد وعيه بالكامل فألقي برأسه علي الأرض وأغمض عينيه لبرهة. فتح عينيه ونظر إليها بغضب وكأنه يقول: «يا فاجرة. إنه يتبعك. إن حسام لن يتركك حتي يضاجعك ويفقدنا شرفنا ويفقدك أعز ما تملكين. أيتها الغبية. ستضعين رأسي ورأس أبيك في الوحل. كل هذا من أجل هذا الجربوع الحقير. هل تظنين نفسك أفضل منا لأنك واصلت دراستك؟ أنت لا تفهمين أي شيء. العلم في الراس وليس في الكراس. ليس التعليم يكتب المدارس يا كريمة. التعليم في طرقات الحياة وفي الشوارع. إن أفلت مني حسام في هذه المرة فلن يفلت مني ثانية. يا بنت أبي أنت مع رجلين في نفس الوقت». بمرور الوقت تزايد عدد رواد المقهي. كاد أن يكتظ المقهي برواده. حكي صبي القهوة قصتنا لكل رواد المقهي. كان صاحب المقهي متابعا جيدا لكل ما يحدث. كان ضخمة الجثة متين البنيان ينظر إلي كل شيء ويهتم بالتفاصيل. برم شاربه الطويل وأخذ يتابع الموقف. لمحته أكثر من مرة ينظر إلينا ويهتم بما يدور بيننا. نظر إلي كمال في غضب فابتعدت خوفا. إنه يدرك أنني أنا الذي أوقعته. بصق في وجه حسام الذي استشاط غضبا وأمسك بخناقه وكاد أن يلكمه لولا أن كريمة أمسكت بيده التي أراد أن يلكمه بها في وجهه. نظرت إليه كريمة في حزم وكأن نظراتها تأمره أن يكظم غيظه. نظر إليها حسام في غضب وقال:

— لو أصابني الكرسي لقتلني. ليست هذه أول مرة يتربص لي. كل مرة أتركه من أجلك. لن أتركه يقتلني. حاولت أن أهدئ من حال حسام فأخذته وابتعدنا قليلا.

غافل كمال أخته وقفز واقفا في سرعة هائلة بالرغم من أن الضعف الذي أصابه من فقدان الوعي كان واضحا عليه. أراد أن يلکم وجه حسام فأمسکت يده للمرة الثانية. قال وهو ينتفض:

— قلت لك أكثر من مرة ابتعد عن طريق أختي
ضغط حسام علي ضروسه ليکظم غيظه وقال بصوت مرتفع يشوبه التهديد:

— وأنا قلت لك أكثر من مرة ابتعد عن طريقي ولا تجبرني أن أؤذیک
بلغ الغضب بکامل مداه فانتفض ماذا يده ليضرب حسام وأنا أتوسطهما لأمنعهما عن التشابک والتشاجر بکل قوتي فأصابني الإعياء والتعب. لمحت صاحب المقهي ينظر إلينا ويتابعنا ولكنه يتشاغل بإصدار الأوامر لصبي المقهي. صاح کمال في وجه حسام بعد أن بصق عليه للمرة الثانية:

— لا أنت ولا مائة رجل مثلك. أنت لا تقدر علي أن تؤذي نملة
نظرت في عيني کمال الغائرتين وأبعدته عن حسام الذي كانت نظراته تشتعل بالغیظ وتطلق شرارا من شدة الغضب. کمال لا يبدو طبيعيا. يبدو أنه يتعاطي المخدرات. لقد لمحت لي کریمة بهذا. کمال يتحدث وجسده ينتفض.
أخذت کریمة بيد أخيها لتبعده وأخذت بيد حسام لأبعده عن ساحة القتال.

اقتربت من کمال وقلت له في غضب:

— هذا كثير. يمكن له أن يحرر لك محضرا ويأخذ عليك تعهدا بعدم التعرض له ثانية وسأشهد معه وستشهد معي کریمة
— لا يمكن أن تشهد أختي ضدي
— ستشهد ضدك.
— لا يمكن. هي أختي وأنا أعرفها
— أنا سأطلب منها أن تشهد ضدك
— ومن أنت حتي تطلب منها أن تشهد ضدي؟

كدت أن أفقد أعصابي. إنه سخيف حقاً!! هي أخته وهو يعرفها!! لماذا إذا لا يسمح لها بالزواج منه؟!!! يثق أن أخته لن تشهد في غير صالحه، فلماذا إذا يعمل في غير صالحها؟ يبدو أنه يريد أن تنفق عليه وعلي الأسرة إلي الأبد. نظر إلينا صاحب

المقهى ثم انصرف إلي الهاتف ليتحدث.
لم ينتظر كمال. وقف وأراد أن يمسك بخناقى. قلت له في غضب
وأنا أمسك بخناقى :

— من تظن نفسك؟ لو نفخت فيك نفخة واحدة لطرت بعيدا. أتظن
أن هذه هي الرجولة؟
— أنت لا تعرف من أنا؟
— أعلمني من أنت؟

— أنت لا تعرف مدي قوتي ولا مدي قوة أتباعى
— أتباعك؟ من أتباعك؟ ثلة من البلطجية والعاطلين.

نظرت كريمة إليّ في عتاب فتوقفت عن الكلام. كأنها تريد أن
تقول لي أنتبه. إنه مع كل هذا أخى ولا يجوز لك أن تجرح كرامته.
ابتسم كمال ونظر إليّ في سخرية واستخفاف وقال :

— أنا أريد أن تأخذني إلي قسم الشرطة
— ألا تخاف؟

— طبعا لا أخاف. لا توجد حكومة في البلد الآن. نحن الحكومة. لن
تجد أحدا في أقسام الشرطة. لقد فروا كالفئران. نحن القانون الآن.
البقاء الآن للأقوي.

— نحن لسنا في غابة يا أستاذ كمال
— لست أستاذًا. أتراني أفنديا أرثدي الجاكيت والطربوش والكرافتة؟
— آسف يا أسطى كمال؟
— لست أسطى. هل تراني أعمل بورشة ميكانيكى وبيدي المفتاح
الإنجليزى؟

— حيرتني يا عم كمال. بماذا أناديك؟
— اسمي المعلم كمال علي سن ورمح.
— طيب يا معلم كمال علي سن ورمح
— أتسخر بي يا جدع؟
— لا والله. حاشا لله يا معلم.

ماذا يمكن أن أفعله لأقنع هذا الغبى؟ إن كلامه صحيح. لا توجد
شرطة. البقاء للأقوي فعلا.

ألا تتحكم سارة العسكر في المصنع لأنها الأقوي؟ إنها تمسك بكل

شئ وتحتفظ بكل الصلاحيات لنفسها كاملة سواء أكان هذا في حضورها أم في غيابها. إن الجميع في المصنع ينافقونها. الأقوي هي كلمة السر في هذا الكون. لقد قال الحقيقة. البقاء للأقوي.

كثيرا ما قرأت عن أن الأقوياء يعملون كل شئ يروق لهم. الضعفاء لا يستطيعون فعل أي شئ. ليس بأيديهم أي شئ. كل شئ في يد الأقوياء. الضعفاء لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا. القوانين يتم تغييرها من أجل الأقوياء. لا أحد يحاسب الأقوياء. الضعفاء فقط هم الذين يحاسبون أما الأقوياء فلا أحد يحاسبهم. حتي وإن تمت محاسبتهم فلن يوجد لهم أي ذنب أو تهمة يمكن أن توجه إليهم. الضعفاء فقط هم الذين يلتزمون بالقانون أما الأقوياء فيخترقون كل القوانين. ليست القوانين إلا محاولات يحاول بها الضعفاء الحد من سلطة الأقوياء ولكنهم لا تحد سلطتهم. رجعنا ثانية في مصر إلي عهد البلطجية والفتوات والحرافيش. كل واحد يحمل عصاه أو نبوته ليحمي نفسه وأسرته. طيب واللجان الشعبية لحماية الشوارع والبيوت بعد الثورة في فترة الفراغ الأمني؟ يا رب وأين العدل وأين حقوق الضعفاء في هذه الغابة؟ ألا يمكن أن تكون رحمة الله وعدله فوق هذه القوة؟ القوة الغاشمة تحتاج كل شئ حولها، ولكن عدل الله يسود.

سننتظر عدل الله إلي أن يسود الحق وينتصر، ولكن يجب أن تكون للحق قوة تحميه وتدافع عنه وتؤازره. أين هذه القوة؟ أزعم أن هذه القوة هي عدل الله والذي أثق فيه دوما وألتجئ إليه.

يا سارة العسكر أبشرك بأن عدل الله قائم. أبشرك بأن الحقوق سريعا ستعود إلي أصحابها. يوما ما سيأخذ كل عمال المصنع حقوقهم. يوما ما ستتقلص سلطاتك الغاشمة. يوما ما ستدركين مدي فداحة الظلم الذي يزرع تحت نيره عمال المصنع. سيقتص الله من كل من أحرقتة نار ظلمك الغاشم وسيأخذ لكل عامل حقه. لا أدري متي سيكون هذا اليوم، ولكنني أعرف أنه سيكون قريبا وسينعم كل أهل الأرض لا عمال مصنعك فقط بالعدل والحرية والحق. وهم. لاشك أنني أيضا واهم. الوهم طيور تعشش في ذهني وتملاً عقلي. هكذا كان يقول كل من أحدثه عن أفكاره وأحلامي بأن يسود العدل وينتصر الحق. اليوم يفعل الشباب هذا بالمجان وغدا سيطالبون

بثمن الحماية. لا حكومة ولا شرطة. لا سلطة ولا رئيس. لا دولة ولا حاكم. تري إلي أي اتجاه تسيرين يا مصر؟ طيب ومصنع سارة العسكر؟ لماذا لا يخترقه للصوص؟ آه. المصنع يحميه العمال. إن المصنع مقر أرزاقهم ومستودع لقمة عيشهم. سيدافعون عنه بالروح وبالدم. ألا يصب كل هذا في قوة سارة العسكر التي تظلمهم وتأكل حقوقهم؟ آه. عودة مرة أخرى لقوانين القوة. الأقوياء بيدهم كل شيء. سحقاً للضعفاء.

طال بي التفكير وأنا أنظر إلي قصة الحب التي تربط كريمة بحسام وأتحسر علي غياب هذا الشاب الذي يريد أن يعصف بحبهما ويقتلع جذوره بغيائه الشديد. أكثر من مرة ألحظ صاحب المقهي يتابع كل ما يحدث. أكثر من مرة ألمحه يريد أن يتدخل، ولكنه ينتظر التوقيت المناسب.

قام كمال ومسك بيد أخته وكأنه يجرها. خشيت عليها من بطشه ومن بطش أخيه وأبيها. قلت له في رجاء واضح وأنا أجرب خطة جديدة وأتمني أن تغلب:

— لدي طلب واحد عندك يا معلم كمال يا سيد المعلمين
نظر إليّ في سخرية وبدا أنه يريد أن ينصرف. قلت له في رجاء وأنا أحكم أداء الدور الذي أريد أن أمثله تماما وأنا أنظر إلي صاحب المقهي:
— أنا في عرضك يا سيد المعلمين.

واصل كمال سيره وكأنه لا يكثرث لما أقوله. قمت ومددت يدي إليه في استعطاف وكأنني أستجديه وكذلك أشرت بعيني لحسام أن يفعل مثلاً أفعّل. وقلت لكمال بصوت ذليل وردد حسام كل ما أقوله بالحرف الواحد:
— أمد يدي لك يا سيد المعلمين. يا معلم كمال علي سن ورمح.
هل هذه أخلاق المعلمين؟

واصل كمال سيره وجذب يد أخته بكل قوة لدرجة أنها صرخت. ترك أيدينا ممدودة وكأنه لا يهتم. تدخل المعلم صاحب المقهي في التوقيت المناسب. الحمد لله. اقترب منه صاحب المقهي ضخم الجثة وقال له:
— أما إنك شاب مغفل. هذا الرجل وصاحبه لم يخطئاً ويتوسلان إليك. أنت عار علي المعلمين. ليست هذه هي الرجولة
أمسك صاحب المقهي كمال من خناقه ورفعته وكأنه سيعلقه وقال له:

- أنت رجل هزؤ. هذان الرجلان لم يدوسا لك علي طرف. بإمكانهما أن يتحدا ضدك ويضربانك ولن تقدر عليهما، ولكنهما يتحدثان معك بكل ذوق وأدب. ليست المعلمة ولا الرجولة هكذا. والله إذا لم تعتذر لهما سأضربك أنا. أنتم جميعا في حمايتي هنا. إذا لم تكن هناك شرطة ولا حكومة أنا الحكومة هنا. الرجلان مهذبان وأنت قليل الذوق اقتربت من صاحب المقهي وشكرته. وقلت له : هكذا تكون الرجولة والفتونة. ليت شباب هذه الأيام مثلك يا معلم. طلب صاحب المقهي من كمال أن يعتذر لنا. غمرت بعيني لصاحب المقهي وانحنيت راكعا وجثوت علي ركبتي. قلت لصاحب المقهي لأستميل قلبه :
 - في عرفكم يا معلم أيمكنك أن تهين من يدخل بيتكم؟
 - لا. لا أبدا. نحن نكرم من يدخل بيتنا ولو كان عدوا
 رفع معلم القهوة رأسه خيلاء وكبرا. يبدو أن خطتي ستعمل. قلت له :
 - وأنا واقع في عرضك يا معلم وأريد أن أشرب الشاي مع هذا الشاب كمال في بيته مع الأستاذ حسام
 - تشرف وتنور. تدخل بيته مع صاحبك في حمايتي. نحن أولاد أصول ونعرف الواجب. أنت لا تعرفنا. نحن رجال. المعلمة والرجولة لها قواعد وأسس
 ثم وجه صاحب المقهي كلامه لكمال وقال :
 - هذه هي قوعد الرجولة يا رجل يا هزؤ. سيدخل الرجلان بيتك مع أختك. ستنفذ أمري وإلا علقتك في هذا المقهي وأرسلت صبياني ليؤدبوك. مفهوم يا بقف؟
 اقتربت من كمال وقلت له في خشوع وأدب :
 - أنتم أسياد الرجال. وعقولكم تزن بلادا. أنا ألجأ إليك يا معلم كمال والمعلم صاحب القهوة أمرنا وأمره يجب أن ينفذ
 نظر كمال إليّ في غيظ ونظر إلي صاحب المقهي وقال في خضوع :
 - أمرك يا معلم. أمرك علي العين والراس
 رمقني صاحب المقهي باحترام وقال لي ولحسام بعد أن خص
 كريمة بنظرة حانية :

- أنتم جميعا في حمايتي وحماية رجالي وزمرتني. والله لو لعبت بذيلك يا كمال لعلقتك هنا علي باب المقهي. هم في حمايتي. أحسن استقبالهم وخصوصا هذه المرأة الطيبة
- ثم أمر صاحب المقهي أحد صبيانہ بأن يأتي له بثلاثة من رجال المعلم الأقوياء لحراستنا إلي أن نصل إلي بيت كمال. شكرت المعلم صاحب المقهي وقلت له :
- والله يا معلم حسام هذا رجل ونيته سليمة وغرضه شريف حاول كمال أن يقاطعه ، فقال بسرعة
- لا تصدقه يا معلم. إنه يحوم حول أختي ويريد أن.... قاطعت كمال حتي لا يكمل كلامه وقلت :
- لا تقل هذا يا رجل. يا معلم كمال. أنت زينة الرجال وأختك سيدة البنات. هو يريد الحلال ويريد أن يدخل البيت من بابه. يا سيد المعلمين يا بخت من وفق رأسين في الحلال. شكرا لك يا معلم
- وهكذا نجحت خطتي ودخلت مع حسام عقر دار والد كريمة في حراسة رجال المعلم صاحب المقهي. في البداية ساد العبوس وبدا أن والد كريمة سيرفض أن تتم الخطوبة. أقسم بأغلظ الأيمان وحلف بالطلاق أكثر من مرة أنه لن يوافق ولكن سرعان ما وافق تحت رهبة تأثير رجال المعلم صاحب المقهي.
- وسرعان ما عمت الفرحة وانتشرت الزغاريد وملاّت شارع كريمة التي ابتسمت لي ولخطيبها لأول مرة في أمان واحتضنت يده يديها أمام كمال ووالده. رضخ كمال وأخوه للامر الواقع. احتضن حسام والد كريمة وسلم علي كل الموجودين.
- سبحانك اللهم يا مقدر الأمور ويا ناصر الضعفاء والمساكين. قدرت لي أن أنقذ قلب عاشقين وأن أيسر لهما أمر القرب والأمان. لازلّت أذكر نظراتهما لي التي تؤكد لي عرفانهما بجميلي. لا يجدر بكريمة أن تشكرني. أنا الذي يجب أن أعترف لها بالجميل ، ولا يجدر بحسام أيضا أن يشكرني. لقد كان سببا في خير ساقه الله إلي. أنقذت عاشقين من لوعات الفراق ومخاطر البعاد الذي اصطليت بناره وخبرت نيران عذاب البعد والفراق.

كنت أتمني أن يبسر الله لي من ينقذ حبي البائس من الضياع، ولكن الله لم يبسر لي هذا إلي الآن. لقد ضاعت سارتي الحبيبة مني ولم أجد أحدا يقف بجواري. بكيت بدل الدموع دما، ولكن ماذا يفيد البكاء وماذا عساها أن تصنع الدموع.

أتذكر جيدا هذا اليوم الذي اكتشفت فيه سر أبي سفيان. علي الرغم من أنه كان يوما صعبا في بدايته. لقد كان يوما رائعا. إنه يوم الهروب الكبير الذي خرجت فيه مع كريمة من المستشفى. بارك الله فيك يا أستاذ حسام. أنت الذي قدتني إلي اكتشاف هذا السر أو إلي ما اعتقدت أنه سر يجدر بي أن أعلمه.

في هذا اليوم أهداني القدر سرا غاليا وأنا سأهديك إياه يا سارة العسكر. وماذا يفيدك ياسارة لو عرفت هذا السر؟ أيمن أن يكسر ك هذا السر قليلا؟ أنا أعلم أنه لن يؤثر عليك كثيرا. أعلم أنك قوية. أنت قوية مثل قوة سارتي الحبيبة. الأقوياء لا تؤثر فيهم كارثة أو مصيبة. إنهم أقوى من كل الكوارث أو المصائب. تري ماذا ستفعل لو عرفت؟ إن عبد الله البندري لا يهمها. إنه حمارها علي حد قولها، ولكن ألا يمكن للحمار أن يرفس صاحبه ويؤذيه؟ أيمن أن يسبب لها معرفة سر يخص هذا الرجل ألما حقيقيا. سأعرف ماذا ستفعلن يا سارة يا عسكر عندما تعرفين هذا السر الذي اكتشفته في يومي هذا وأنا بصحبة حسام إلي عمله بعد أن تمت خطبته.

الحلقة الحادية والعشرون

الهزائم والانتصار

أهكذا هزمت من أول مواجهة معك يا سارة العسكر؟ لم تهزمني سارتي الحبيبة في مواجهتي الأولى معها وما هزمتني قط. الساعة لم تعلن عن العاشرة صباحا بعد. ماذا أفعل وأنا أعود في طريق الخيبة أو في طريقي بعد طردي من المصنع؟ ماذا أقول لأمي. أقول لها إنني فشلت كالعادة؟ كل مرة أقول ليس الخطأ مني. كم من عمل تركت!! كل مرة أؤكد لنفسني أن الخطأ ليس مني وتقتنع أمي بهذا. كل مرة تبتسم لي وتقول: ليس لك أي يد فيما حدث.

يا أماءه. أين الخطأ إذا؟! خطأ من هذا وعيب من إذا لم يكن خطئي؟ ماذا أقول لها هذه المرة وما المير الذي يمكن أن أسوقه أو ألجأ إليه هذه المرة؟ أكثر من خمسين عاما قد مرت عليّ أو أكثر ولم أستقر في عمل. ليس الخطأ مني وليس العيب عيبي. لقد عودتها دوما أن تفخر بي تماما كما عودت سارتي الحبيبة أن تفخر بي. أين أيام المجد والفخار؟ أين أيام العزة والانتصار؟ لقد كانت أيام ومضت، وهـ أنا ذا الآن أجرع كؤوس الهزيمة والانكسار. حياتي كلها هزائم متتالية ونادرا ما أتذكر أي انتصار لي كنت قد حققته. يمكنني أن أطلق علي حياتي اسم الهزائم والانتصار. لن أعود إلي أُمي أبدا وأنا في هذه الحالة أبدا.

الجو بارد ولن أفعل أي شئ. سأتمشي في الطرقات وأسير في الشوارع. أشباح الغيوم أمامي تتراقص مثقلة في السماء وكأنها تنوء بحملها المائي الذي قد تسقطه قطرات من الماء فوق رأسي كما تسقط الحياة المصائب فوق رأسي المصيبة تلو الأخرى. الرياح تدفع السحب دفعا حثيثا إلي مصير لا تدرك منتهاه. السحب داكنة وملبدة بأثقالها كما أنا ملبد بخيباتي التي تدفعني إلي طريق لا أدرك نهايته في حياة صرت أراها سوداء كالحة اللون عابسة الوجه مقطبة الجبين.

أنا مثل هذه السماء الداكنة تماما. قد تكون السماء أسعد حالا مني. سرعان ما ستمطر سحبها وسرعان ما ستصفو بعد قليل وتغسل الكون. ستنتصر السماء وستصفو. أما أنا فلا أعلم ما سيكون مصيري بعد قليل. لا أدري لماذا يطاردني الفشل ولا أعرف لماذا تضطهدني الأيام وتلطمني السنوات فوق وجهي وبكل مكان بجسدي. أفضل شئ الآن أن أنسحب إلي ذكريات الماضي التليد. لقد كانت ذكريات الماضي بها بعض الانتصارات. صحيح أن الهزائم كانت دائمة متتالية ولكن كان لدي انتصارات أتذكرها. أفضل شئ أن أتذكر ابتسامات أُمي ووجها المتقد بالفرحة عندما كنت أعود إليها كل يوم سعيدا ظافرا منتصرا بعد يوم دراسي مشبع بنجاحاتي. كانت تبتمس إليّ وتأخذني في أحضانها فرحة بي.

كانت أُمية لا تعرف القراءة ولا الكتابة. كانت تخرج كتبي وكراساتي وتبحث فيها عن كل خط بالقلم الأحمر لمعلمي أو معلمتي وتقول لي في سعادة:

- عشرة من عشرة ونجمة. أنا سعيدة بك. ستصير شيئاً مهماً في المستقبل.
- أنا الأول دوماً يا أمي. لا أحد يحصل علي الدرجات النهائية إلا أنا
- أتمني أن تكون موظفاً كبيراً
- لا. أتمني أن أكون ضابطاً
- لماذا؟
- الكثير من الضباط يأتون لوالد سارة. لديهم سيارات فخمة. إنهم أغنياء يا أمي ووالد سارة يحترمهم وأشعر أحياناً أنه يخاف منهم
- لا أريدك أن تكون ضابطاً
- لماذا يا أمي؟
- الضباط يموتون دوماً في الحروب. أنا أخشى عليك. لا أريد أن أفقدك
- كانت أمي تسعد بي دوماً وتفخر بي أمام كل الناس. كانت تقول: اسم النبي حارسه الأول دائماً. رافع راسي. إن شاء الله سيكون موظفاً كبيراً ذا شأن في هذه البلدة. فلتحلمي يا أمي. لن يستطيعوا أن يسرقوا منا متعة الحلم.
- كانت كلمات ثنائها وتشجيعها ونظراتها الفرحة بي تدفعني دائماً لأحافظ علي مرتبتي الأولى. في كل امتحان كنت الأول. كنت أحفظ الكتاب من أوله لآخره. كنت أسمع لها ما أحفظه عن ظهر قلب. لم أتخاذل يوماً عن إجابة سؤال ولم أعجز قط عن الحصول علي أعلى درجة في الفصل. لقد صرت مضرب المثل في النبوغ والتفوق. لم أكن أعرف أن مستقبلتي سينتهي بي لأن أكون عاملاً في أحد المصانع لدي سارة العسكر.
- كانت سعادتي تتضاعف عندما كان المدرسون يفتخرون بي أمام أمي أيضاً. ذات مرة أتت أمي المدرسة لتطمئن عليّ ورآها الأستاذ عبدالوهاب مدرس اللغة العربية. كان شاباً قد تخرج لتوه. هذه أول مرة يدرّس لنا فيها. كنت أحبه جداً وأحترمه لتفانيه في عمله معنا. أنا أحب كل المدرسين وأحترمهم. هم أيضاً يبادلونني نفس الحب. لم أكن أعلم أن الأستاذ عبدالوهاب سيدخل بيتنا وسيقترب منا في أحد الأيام.
- رحب الأستاذ بها. شعرت أنه كان منبهراً بأمي. كان يطيل النظرات لها. شعرت أن نظراته تود أن تنتزع اعترافاً من بين شفثيه بأن أمي جميلة. قدم لها كوباً من الشاي وقال كلمته التي أسعدتني

وجعلتني أرفع رأسي وأنظر لسارتي الحبيبة في زهو وفخر. قال لأمي وهو ينظر إليها في إعجاب وهو يتحدث عني ومع ذلك ينظر إليها بثبات ونظراته تتجاهلني :

— عبدالله بسم الله ما شاء الله. إن مستواه في مستوي الأساتذة تقريبا. إن له ذاكرة حافظة قوية. يحفظ الدرس من أول مرة. إنه لا ينسي أي شيء يتعلمه. إنه متميز في كل شيء. متميز حتي في الإذاعة المدرسية. يقرأ القرآن. يقرأ الأخبار. حماه الله لك كادت أمي أن تبكي. قالت له في شكر:

— ربنا يعلم بحالنا يا أستاذ عبدالوهاب.
— حالكم بخير يا أم عبدالله.

— الفضل لله ثم للقرآن الذي يواظب علي حفظه مع أحد الشيوخ في المسجد القريب منا

— إن شاء الله الولد له مستقبل باهر
— نحن علي باب الله يا أستاذ. الولد يتيم.

خشيت أن ينظر لها الأستاذ نظرة شفقة. لا أحب مثل هذه النظرات. أكره نظرات الشفقة في كل العيون ولا أطيقها. يا أمي نحن لا ينقصنا شيء سوي المال. المستقبل لنا. العلم سيرفعنا. أنت بنفسك كنت تؤمنين بي. كنت تؤمنين بأن مستقبلي كفيل بأن يغير حياتنا وينقلنا نقلة أفضل في الأيام القادمة. لم ينظر إليها بشفقة قط. نظر إليها بنظرات مختلفة لم أستطع أن أتبينها في وقتها، ولكنني فهمتها فيما بعد. فهمتها عندما زارنا ذات يوم.

مسح الأستاذ علي رأسي وقال لي متسائلا وهو لا ينظر إليّ وإنما يكاد يثبت ناظريه علي وجه أمي وكأنه لا يستطيع أن يحول عينيه عنها:

— هل تسمع كلام ماما؟
— طبعا
— إياك أن تضايقها أو تغضبها

لمحت الأستاذ عبدالوهاب ينظر لأمي نظرات لم أفهمها في وقتها. نظرت إليّ أمي أتأملها وكأنني أراها لأول مرة. لا أدري لماذا دق قلبي وقتها من الخوف. لا أدري لماذا تمنيت لو أنني أستطيع أن أغلق عيني الأستاذ فلا ينظر لأمي.

إن أمي لاتزال شابة جميلة في ريعان شبابها وعنفوان أنوثتها. لكم أنت جميلة يا أماه لولا نظرة الحزن التي تعلو وجهك!! رأيت إعجابا بأمي في عيني الأستاذ عبدالوهاب. يكاد أن يأكلها بعينه وأمي تغض عينيها حياء وخجلا. شعرت بالغضب وأحسست كأن شيئا ينفزني ويؤلني وأدركت أنني أغار علي أمي. إنني أحبها وأغار عليها. بدأت أشعر أنني أود ألا ينظر إليها الأستاذ بنظرات الإعجاب هذه. كان الجو شتاء. كانت أمي ترتدي ملابس قديمة بالية. كان شالها أحمر جميلا يبرز وجهها الجميل الممتلئ بغدير الشباب وفتنة الأنوثة. خصلات من شعرها الأسود اللامع الناعم كانت قد أطارتها الرياح. مددت يدي علي رأس أمي وأدخلت خصلات شعرها تحت طرحتها. لا أحد يحق له أن ينظر إلي شعرك يا أمي. أخذت أنظر إلي وجه أمي الصبوح وأقارنه بوجه سارتي الحبيبة. سارة أيضا تنطق ملامحها بكل فتنة وجمال. كنت أنظر لسارتي والأستاذ عبدالوهاب ينظر لأمي بنفس النظرات.

دق جرس الفسحة وانصرف التلاميذ إلي حوش المدرسة. شعرت بابتسامة خبيثة في عيني الأستاذ عبدالوهاب. ظن أنني سأصرف مع التلاميذ إلي الحوش، ولكنني تسمرت في مكاني ولم أتحرك. قال لي متسائلا وكأنه يغريني: ألن تنزل مع سارة؟ لم أهتم ولكنني أخذت بيد أمي وكأنني أود أن أجراها وقلت لها وكأنني رجليها المكلف بها وبحمايتها: أمي سأوصلك إلي البيت.

نظر لي الأستاذ وقال وكأنه سعيد بي: بسم الله ما شاء الله. أنت رجل كبير. تحافظ علي أمك. ابتسمت أمي وقالت: إنه كبير ويحافظ عليّ وعلي أخوته جميعا. إنه رجلنا.

سارت أمي أمامي وتبعتها وكأنني أود أن أخفي جسدها عن الأستاذ حتي لا ينظر إلي ظهرها أو إلي مؤخرتها. لا أدري لماذا غضبت من نفسي وقتها. أنا أحب أن أري سارة وأن أنظر إليها دوما. حتي وأنا في الحصة أتابع النظرات إليها. أريد أن أري شعرها الجميل وعيونها السعيدة وأحب النظر إليها وهي تجري. أهفو دوما إلي النظر إليها ومحدثتها. أراها من ظهرها وهي تجري وأود أن أظل معها دائما. ليتنا نظل بالمدرسة طول الوقت فلا تغيب عني أبدا.

ضاعت الفسحة مني. لم أستطع أن أمكث مع سارتي. أوصلت أمي إلي البيت وعدت ووجدت جرس انتهاء الفسحة يضرب. ضربت الأرض بقدمي وقلت لنفسي في غيظ: هذا ظلم. لم أستطع أن أكون مع سارة في الفسحة. أحسست أن الأستاذ عبدالوهاب يقول في نفسه إن فعلتي هذه أكبر ظلم له. لقد كان يود أن يظل مع أمي كما كنت أود أن أظل مع سارتي. لم أكن أعلم أن هناك مفاجأة رائعة تنتظرني آخر اليوم. بعد انتهاء اليوم الدراسي كنت أسير في حزن تاركا زملائي. لم أنعم اليوم بقاء سارتي في الفسحة. رأيت الهم وكأنه يركبني. لم أجر مع أصحابي كالعادة. سرت بجوار سور المدرسة في غضب وحزن وغيظ. سيأتي والد سارة ليأخذها بالسيارة. لن أراها إلا في الغد. لا أتحمّل ألا أراها إلي الغد. ياللمصيبة والغد إجازة. الغد الجمعة. ماذا يمكنني أن أفعل؟ يمكنني أن أختلق أي عذر وأذهب لأطرق بابهم وأتظاهر بأنني نسيت واجب العلوم. سنتلقاني سارة وسأنظر إليها ولو نظرات قليلة تثبتني حتي ألتقيها يوم السبت.

في ذات مرة من المرات فعلت هذه الحيلة. فتح أبوها الباب لي وكان غاضبا لرؤيتي. نظر إليّ ولم يكن يعرفني. كانت هذه أول مرة يراني فيها. شعرت بالخوف الشديد الذي غشيني فجأة في أول مرة رأيته فيها. اضطربت ودق قلبي بعنف. شعرت أن نظراته طلقات رصاص مصوبة إليّ. كان ضخّم الجثة عريض المنكبين. لماذا فتحت لي؟ لماذا لم يفتح لي خادمك أو خادمتك؟

كانت آثار النوم تبدو في عينيه. غصت ببصري في البيت الواسع. حجرات عديدة. سجاجيد حمراء كبيرة وكثيرة. نجفة كبيرة في مدخل البيت. رأيت امرأة جميلة ملطخة وجهها بالأصباغ وظننت في البداية أنني لا أعرفها. كانت ترتدي فستانا مكشوف الصدر يبرز مساحة كبيرة من صدرها ونهديها. لما دققت النظر جيدا عرفت أنها والدة سارة. لمحت أثر حمرة علي فم الرجل وعلي خده. يبدو أنه كان يقبل المرأة. كان ثائرا وكأنني قطعتهما خلوتهما. نظر إليّ الرجل في ثورة وقال بصوت كهدير الرياح العاتية متسائلا:

— نعم. أفندم

— أنا. أنا. ..

لم أستطع أن أتحدث من الخوف. زعق بصوت مرتفع وهو ينظر إليّ باحتقار وبسخرية إلي ما ألبسه في قدمي. كان حذاء قديما متهترنا أسفل مربلة المدرسة. لا يمكن أن أسمح لسارة أن تراني بملابس البيت. كان الطين يملأ قدمي لأن الحذاء كان مقطوعا من أكثر من مكان. زعق الرجل وقال:

— ماذا تريد؟

— أنا. أنا. ..

يبدو أنني فقدت النطق. الشرار ينطلق من عينيه. نفس النظرات التي رأيته في عيني سارة العسكر. هم ليرفع يده ليضربني أو يدفعني خارج المنزل. أتت سارة في الوقت المناسب. قالت له في رجاء:

— إنه عبدالله يا بابا

— من عبدالله هذا؟

— عبدالله سيد جمعه المصري

— يعني من هذا العبدالله؟

— زميلي في المدرسة يا بابا

— ملعون أبو المدرسة وملعون أبو الثورة وملعون أبو عبدالناصر الذي

بلانا بهذه الخلقة وبوجوه الفقراء والجرايبع والحثالة. أخيرا وعلي

آخر الزمن صار هذا وأمثاله مع بنتي في نفس المدرسة. أعوذ بالله

تمنيت لو أن الأرض انشقت وابتلعتني. لا أدري سببا لغضبه

وصراخه. لا أدري لماذا يصب عليّ جام غضبه؟ أنا أريد أن أري سارة

فقط. صرخ في وجهي قائلا:

— وماذا تريد يا عبدالله؟

— أريد. أريد. .

ضاع صوتي من جديد. خرس لساني وكدت أن أبكي. نزلت سارة

الدرج واقتربت مني وكادت تبكي لما أصابني من تعنيف والدها لي.

مسح أبوها شعرها الجميل لتهدأ من فزعها. نزلت دمعاتي علي خدي

رغما عني. ليت دموعي ما نزلت. شعرت بكراهية شديدة لهذا الرجل

الفظ الجظ. غطت أم سارة جسدها بشال كبير وأخفت صدرها وقالت له:

— حرام عليك يا فؤش. أفزعنت عبدالله وجعلته يبكي

— من عبدالله هذا؟

— ابن سيد جمعة المصري

- الأجير الذي كان يعمل في أرضنا
- آه. الذي قتل منذ شهر.
- آه. استأذنتك أن يأتي مع أمه وأخوته ليعيشوا هنا في الغرفة التي بالحديقة ووافقت
- أهلا وسهلا يا ابن سيد جمعة المصري. ماذا تريد؟ هل أعطاك عبدالناصر فدانا لك من ثروة أبيك؟ لا أدري كيف قبلت أن تأتي يا ابن الأجير هنا لتسكن في بيتنا. ألا يكفيننا أن عبدالناصر أخذ ثرواتنا ليعطيها لكم؟ وتذهب مع بنتي إلي نفس المدرسة. هزلت. ضاعت مصر وضعنا. ماذا تريد؟
- انفجرت في البكاء تماما. علا النحيب صوتي. نهنهت وقلت : أنا آسف
- آسف. أزعجتنا يا أخي. هل تزور الناس في وقت القيلولة؟
- نسيت واجب الحساب
- لا يهم أن تعمل الواجب. ماذا ستفعلون بالتعليم؟ هل ستأخذون باقي ثرواتنا عندما تتعلمون؟
- أنا آسف يا عم فؤش
- فؤش يا كلب يا ابن الكلب؟
- هم برفع يده ليضربني ، ولكنني أشرت إلي والدة سارة قائلا :
— لقد نادتك بهذا الاسم. أنا أعرف أن اسمك فؤاد لأن سارة اسمها سارة فؤاد
- فؤاد باشا يا جربوع يا ابن الجربوع. صحيح انهم ألغوا الألقاب بعد الثورة، ولكننا عائلة كلها من الباشوات والبكوات
- آسف يا عم فؤاد باشا
- انصرف الرجل مع زوجه وهو يزمجر والخوف يقتلني. ربت سارة علي كتفي فانفجرت في البكاء. ما أن انصرف والدها إلا وانهمرت دموعي تماما كما تنهمر الأمطار علي جسدي الآن وأنا أسير في الشارع لا أحس بشئ بعد أن طردتني سارة العسكر من المصنع. لم أحتم من المطر ولم أهرب منه. يبدو أنني سأضطر إلي أن أترجع وأعود ذليلا منكسرا إلي سارة العسكر. سامحني يا رب. ليس لي من بد. سأكفر بكلماتي السابقة عن الحرية وعن عشاق الحرية.

تركنت المطر يهطل علي. عله يطهرني من حزني ومن آلام ذكرياتي.
إنني أبكي دوما، ولكنني بكيت أكثر عندما عدت لأمي. سألتني ما
بي فلم أحك لها أي شئ. ماذا أقول لها؟ أقول لها إننا يجب أن
نترك هذا المكان؟ وأين نذهب؟ أقول لها إن والد سارة قد أهانني
وسخر مني وسبني بأبي.

ومن يستمع لأناتنا وبكائنا؟ ما أبشع الإحساس بالقهر والفقر! !
ما الذي تغير بعد كل هذه السنوات؟ لا شئ. ماذا بعد ثورة يوليو؟
لاشئ. ازداد الأغنياء ثراء وازداد الفقراء فقرا. عاد الحال لما كان عليه.
عادت الخصخصة وعادت سيطرة رأس المال علي الحكم. الله يسامحك
يا مبارك. صحيح أنني أحبك ولا أرضي بما حدث من فوضى بعدك،
ولكن من للفقراء إلا أنت يا الله؟

جعلت رقابنا في يد الأغنياء ورجال الأعمال حتي امتصوا ثروات
البلد وأرادو أن يمتصوا دماءنا ويكسروا عظامنا لتتعاظم ثرواتهم.
ثورة أخري عشناها والكل يقتتل. قال ثورة الخامس والعشرين
من يناير قال؟ الكل يتقاتل في مصر علي السلطة والفقراء فيك يا
مصر يزدادون جوعا. الأغنياء ورجال الأعمال ينهبون الفقراء ويسرقون
خيرات البلد ونحن نموت جوعا.

الوضع لم يختلف. لقد قالت لي سارة العسكر وتقول دوما وتفعل
ما تريد. يمكنها أن تطرد أي أحد من مصنعها. قم يا عبدالناصر وانظر
ماذا فعلت بنا الأيام بعدك. لقد هدمنا ما فعلته. أممت وخصصوا.
أعطيتنا وأخذوا منا. أدخلتنا المدارس والجامعات والمستشفيات
وأخرجونا منها.

صارت للأغنياء مدارس خاصة وصارت لهم جامعات خاصة.
الفقراء لا يجب أن يكون بجوار الأغنياء حتي لا يصيبوهم بالجرب أو
الفقر. الفقر مرض وعار وعيب. لا يجب أن يرانا الأغنياء. يجب أن
يمحونا من علي أرض مصر. نحن لا نعالج معهم. لهم مستشفياتهم
ولنا مستشفياتنا. الفقراء يموتون بهذا البلد.

عندما أمرض أو يمرض الفقراء أمثالي فمن الأفضل لهم أن يموتوا.
الأغنياء فقط والأثرياء والفنانون يعالجون علي نفقة الدولة.
الفقراء يقفون في الطوابير والأغنياء تأتيهم كل مطالبهم صاغرة.

ما الذي تغير بعد كل هذا العمر؟ ماذا فعل التعليم لي وماذا جنيت من تفوقي ومن أنني كنت الأول دائماً؟ لازلت في زمرة الفقراء والمساكين. الحمد لله. صدقت يا رسول الله. اللهم أحييني مسكينا وأمتني مسكينا واحشرنني في زمرة المساكين. الأغنياء فقط يعملون ويزدادون ثراء حتي وإن كانوا أغبياء. الأغبياء والضعاف في فصلي صاروا من الأغنياء وأنا الوحيد الذي لا أجد عملاً مستقراً لي. أعمل أجيراً مثل أبي. أعمل بأعمال حقيرة. ليس لدي مال لأدفعه كرشوة ليتم تعييني. من حصلوا علي مقبول أو راسبوا حصلوا علي أفضل الوظائف بأموالهم، وأنا الذي حصلت علي تقدير ممتاز لا أجد عملاً ولن أجد عملاً. صرت عاملاً ورميت شهادتي ورضيت بالهم ولكن الهم لا يرضي بي. لا يجوز لنا أن ترتفع رؤوسنا. الأغنياء هم أسيادنا. هم تيجان رؤوسنا. الأغنياء يفعلون كل شئ بأموالهم ويمحون أخطاءهم بأموالهم التي امتصوها من دماننا.

فلتمطري أيتها السماء ولتدعني أيتها العيون. تابعت الأطفال وهم يرتعون في قطرات المطر. جريت معهم. سأغوص في الماء معهم وسأردد وأنا أسعد بالماء المتساقط عليّ والمتراكم تحت أقدامي: «يا مطرة رخي رخي علي قرعة بنت اختي».

اهطلي أيتها الأمطار. صارت البلد بلدهم من جديد. لقد رجعوا ثانية وصار الأغنياء باشوات وبكوات من جديد. دمعت عيوني مع أمطار السماء، ولكن دموعي مالحة لا أستطيع أن أبتلعها كما أحب أن أبتلع قطرات المطر الحلوة.

اقتربت مني فتاة بعد أن تزحلق وسخر منها رفاقها من الصبيان والبنات وقالت:

— إنهم يضحكون علي يا عم

حملت الفتاة ومسحت الماء من علي وجهها. أدخلتها تحت أحد المظلات وواصلت اللعب مع بقية الأطفال. طلبت مني الفتاة أن أحملها لتسير في ركاب زملائها. حملتها علي كتفي وسرت بها ووسط الأطفال. أنت علي صواب يا سارة العسكر. عليّ أن أذهب وأعتذر لها. عليّ أن أقبل قدميها ورجليها حتي تعيدني ثانية للعمل. ليس لدي أي بديل آخر. سأذهب وأتمرغ في تراب حذائك يا سارة وليتك

تقبليني. يبدو أنني نسيت نفسي ونسيت أنني من فقراء هذا البلد الذي لا ينبغي أن يتكلم فيه إلا الأغبياء آسف أقصد الأغبياء. لم يكن عليّ أن أغضب لما أصابني من والد سارة. هم هكذا الأغبياء علي صواب دوما.

توقفت الأمطار فجلست علي أقرب مقهي للمصنع بعد أن انصرف الأطفال. شاشات القنوات الفضائية تبث الرقص والغناء. فئات كثيرة من العاطلين يجلسون علي المقاهي. لست وحدي الذي سأكون من العاطلين. اقترب مني رجل وقور وابتسم لي ورحب بي وطلب لي شايًا علي حسابه. ابتسمت له وسألته عن اسمه فقال وهو يركز بنبرة عالية علي حروف اسمه :

— أنور حسان

— أهلا وسهلا تشرفنا. سمعت هذا الاسم. يبدو أنني سمعته في المصنع. أين سمعت هذا الاسم؟ أنور حسان أنور حسان. يبدو أنه كان رئيس وريثة. لا. يبدو أن ذاكرتي قد ضعفت. هذا طبيعي في سني هذه

— تذكر جيدا هذا الاسم. أنا من ضحايا سارة العسكر. ذاكرتك جيدة. أنا هو.

— من ضحايا سارة العسكر؟

— نعم ويبدو أنك مثلي. لقد كنت أتبعك بنظراتي وأنت تذهب إلي المصنع يعني كلانا من ضحاياها؟

— الله يخرب بيتك يا سارة يا عسكر

ابتسمنا طويلا وضحكنا. سلم علي يدي أكثر من مرة وهو يقهقه. لقد حكى لي قصته وظل يحكيها لي كلما تقابلنا. لقد حفظت قصته. لقد عادت البسمات إليّ من جديد وأنا أضحك مع أنور حسان. تذكرت الماضي وتذكرت مرة من المرات القلائل التي ابتسمت فيها. تماما كما ابتسمت عندما كنت راجعا من المدرسة حزينا لأنني أوصلت أمي إلي البيت ولم أمكث طوال الفسحة مع سارتي الحبيبة بنت فؤش. كنت أسير بجوار سور المدرسة. زمر السائق ولم أنتبه. تري من ذا الذي يهتم بي؟ لا أحد يهتم بي في هذه الحياة. سمعت صوتها الحبيب يقترب من أذني. قالت لي بصوتها الرقيق :

— اركب يا عبدالله

نظرت إليها وابتسمت. رأيت والدها يقود السيارة فاشمأزت نفسي ،
وعاودني الخوف من جديد. قال لي وهو يبتسم في وجهي وكأنه نسي
تماما ما فعله بي :

— اركب يا عبدالله

شعرت أن روحي ستخرج من صدري. ابتسم في وجهي وهو ينظر لي
من مرآة سيارته وأنا أجلس بجوار سارة ابنته. قال بود غير معهود :

— ستذاكر اليوم مع سارة

خرس لساني ولم أستطع أن أتفوه بكلمة. واصل فؤش كلامه وقال لي :
— عندكم امتحان علوم يوم السبت. ستذاكر معها كما طلبت مني
يا أول الفصل

ملأتني الفرحة وعمتني السعادة وابتسمت ، وتحسست بجسدي
جسد سارة الرائع وهي بجواري. كنت أمثل أن السيارة تهزني ،
فكنت أتمايل وأحاول الالتصاق بها. قلت دفعة واحدة وأنا أتحاشي
النظر لوالدها :

— وسأكون أول المدرسة يا عمو فؤاد باشا.

تابع قيادته وتابعت أحلامي في الالتقاء يومي الخميس والجمعة
بسارة. الحمد لله. يا ربنا لك الحمد. سأكون بجوارك يا سارتي وفي
داخل حجرتك رغما عن أنف أبيك.

الحلقة الثانية والعشرون

شكيرة تتبني

خطوات سريعة تتبني فتزداد نبضات قلبي سرعة وعنفًا. أسمع صداها
اضطرابا يرتجع في صدري ويهز بنياني. خطوات مريبة تخيفني وتثير قلقي
ورعبي وفزعني. أسمع وقع الخطوات المتجهة نحوي في ثبات وأنظام.
أخشي أن أنظر ورائي وأظلم أسمع في ترقب وهلع. أوصل سيرتي
في محاولة لتجاهل هذه الخطوات. أريد أن أنظر خلفي خلصة لأتلمس
ولو في عجالة مصدر صوت هذه الخطوات ولكنني لا أستطيع خشية
من اكتشاف صاحب صوت هذه الخطوات. لماذا أخاف هكذا؟ هل

سأظل أخشي من حياتي؟ متي أشعر بالأمان والاستقرار يا ربي؟
لا زالت السماء تمطر بعد أن توقفت قليلا. ظهرت أشعة الشمس
محاولة أن تتحدي قوة الشتاء الباردة المشبعة باللون الرمادي الكئيب.
ظهر قوس قزح للحظات أمامي يلوح في الأفق كلوحة فنية رقيقة حلوة
فغصت بخيالاتي في هذا القوس بألوانه الزاهية. ما هي إلا لحظات ثم
توارت الشمس علي خجل أمام قوة الرياح المتسارعة التي تدفع بالسحب
المحملة بقطرات الماء. شعرت أن هذه القطرات تنتظر مخاضها علي شكل
أمطار تدق بعنف هي الأخرى علي رأسي الحاسرة ونفسي الخاسرة.
ماتت الألوان أمام جبروت لون الشتاء الرمادي الداكن الذي يوشك
أن يتحول إلي سواد ليلٍ قاتم يغيب فيه النهار ويختفي في غلالات
الليل السوداء. أفتح عيني محمقا قبل الظلام عساي أنظر إلي عيني
النهار. يصاب النهار بالعمى وينتظر صبيحة يوم تال لا يدرك إن كان
سيستطيع أن يري الشمس ثانية أم أنها ستتأخر إلي الظهيرة أو لعلها
لا تأتي له في شتاء قاس وطقس متقلب.

غابت الألوان ولكن آثارها بقيت في ذهن ذاكرتي قليلا. حياتي
كلها تصطبغ باللون الأسود كما أوشك السواد أن يلف الكون حولي.
لا أذكر سوي أن السواد أيضا كان يلف حياتي. لم أر ملامح وجه
أبي. أرتني أمي صورة قديمة له وهو يبتسم. تقول أمي دوما إن
لي نفس ملامحه. أردت أن أسألها إن كانت تحبه ولكني تراجعته
أمام دموعها المنهمرة. حكمت لي وأقسمت أنها لم تتزوج رغبة في
الزواج، ولكنها كانت تتزوج من أجلنا لتطعمنا. كانت تتحسر
وتقول: ولكن هذه هي الدنيا وهذا حظها القليل في الدنيا. لم يعش
لها أي زوج. عادت ثانية لدوامه من المسؤولية وصارت أما وأبا في
نفس الوقت. أراها أيضا تتشح بالسواد منذ أن وعيت علي الدنيا.
سواد هي الحياة كلها. ما كان اللون الأحمر يزورنا قط. أذكر ألوان
فساتين حبيبتي سارة. كانت تزهو في فستان جديد كل يوم. أعشق
فستانها الأزرق. أحب هذا اللون كثيرا. كانت تصرخ أمي عندما نتشاجر
ونلهو وتقول في غضب: نهاركم أزرق. نسكت خوفا. تقول ليلتكم سوداء
إن سمعت لكم صوتا فنخرس وننام. أتذكر وجه فاتنتي سارة الأبيض
المشرب بالحمرة فأذكر رقتها وجمالها، ولكني ما ألبث أن أكره هذا

اللون عندما أراها تبتعد عني في غياهب سنوات المراهقة وتغيب في عالم الرشد. أتذكر رباط شعرها الأصفر الجميل الذي سرقة منها ذات يوم لآخذه في حضني وأضمه إلي صدري قبل أن أنام. لقد اكتشفت أنني سرقة عندما أتنا ذات ليلة ولمحته علي سريرتي. أعطيته لها وكرهت اللون الأصفر الذي كان سبب خصامها لي لثلاثة أيام متتالية. كنت أود أن أسترضيها وأفهمها أنني كنت أود أن أشم ريحها فيه دوماً، ولكني لم أستطع فلقد ظننت أنني سرقت هذا الرباط لأعطيته لأختي قمر. أخرج من دوامة ذكرياتي لأعود إلي خوفي من هذه الخطوات السريعة المتتالية التي تتجه نحوي والتي أسرع في المسير أمامها حتي لا تلحق بي علي الرغم من غوصي في يم ذكرياتي العامر. لاشك أنها خطوات عادية. لا يجب أن أخاف أو أصاب بالهلع. كيف والدنيا ستظل بعد قليل؟ سأعود لأمي. دقائق تفصلني عن أذان المغرب في هذا اليوم العاصف المطير.

أضعت اليوم كله علي المقهي مع أنور حسان. حكى لي أنه كان يعمل رئيس ودية في مصنع سارة العسكر. لم تشفع له السنوات الطويلة التي قضاها في الخدمة في مصنع سارة العسكر. طرده شر طردة. سألته وهل ستسكت علي ما حاق بك؟ رد وهو يرفع رأسه الحزين: أبداً. لن أتركها. سأدعو عليها.

سلاح الضعفاء وأمل المساكين وحيلة من لا حيلة له. سلاح النساء يا أنور يا حسان؟ أستخدم هذا السلاح؟ كان رجلاً يقترب من الخامسة والخمسين، ولكن منظره يوحي بأنه قد تخطى الستين بكثير. الفقراء يظهرون بسن أكبر بكثير من سنهم الحقيقية. غابت صورة وجه أنور في ذهني عندما اصطكت بأذني أصوات القدمين اللتين تتبعاني. لا أدري لماذا طراً في ذهني لمدة لحظات أن تكون هذه أصوات قدمي سارة العسكر. أصوات الخطوات صارمة ومتسارعة. لا يمكن أن تكون أنثي هي التي تتبعني وفي هذا الجو المطير. الخطوات يبدو أنها لرجل. النساء لا يسرن في الشوارع في مثل هذا الوقت. ومن أنا حتي تتبعني سارة العسكر؟ لاشك أنه موقف ومر بها وطردتني. يبدو أنها نسيت الموقف تماماً. ما أنا إلا أحد عمالها في المصنع.

يجب أن أفيق لنفسي. سارة العسكر بنفسها تتبعني؟! لا يمكن. طيب ألا يمكن أن يكون أحد من طرفها؟ أيمن أن تكون قد أشقت عليّ وبعثت أحدا لأرجع إليّ عملي؟ لاشك أنني حالم. منذ متي وامرأة تتبعني؟ لم تتبعني امرأة ولم تنظر إليّ أنثي في حياتي. وسارتي حبيبتي لم تهتم بي وسخرت مني. علي أن أتعامل مع الموقف بعقلانية أكبر. عليّ أن أذهب وأتذلل لسارة العسكر أمام كل من في المصنع. عليّ أن أعتذر لها والحس قديمها لأعود إليّ عملي. صوت الخطوات يقترب مني. أشعر أن يدي الرجل الذي يسير ورائي ستلمسني بعد ثوان. الخطوات تصير مني أقرب. فجأة يدخل إليّ أذني صوت خطوات أنثوية. الخطوات أبطأ ولكنها تسرع نحوي أيضا. تداخلت أصوات الخطوات في أذني. أيعقل أن تكون سارة هي بنفسها التي تتبعني وفي صحبة رجل؟! أيكون هو حمارها؟ لا. إنه مرتعش دوما. أتجبره علي أن يتبعني معها؟ لم أعد أحتمل ألا أنظر للخلف.

لقد رأيته !!

إنه الضابط شديد يتبعني بنفسه وخلفه امرأة تتبعني أيضا. لقد صدق حدسي. رجل وامرأة يسيران خلفي ويتبعاني.

قال لي الضابط شديد وهو يبتسم بسخرية:

— عبدالله المصري. أين ذهبت يا رجل؟ أعتقد أنني لن أصل إليك؟
— أهلا يا باشا. تحيا جمهورية مصر العربية. تمام يا افندم
خبطت الأرض بقدمي ومثلت دور من يعطي التحية لقائده. ربت علي كتفي وقال بهدوء:

— والله لو كنت في بطن أمك لوصلت إليك.

— يا باشا أنا أعرف هذا. أنتم الحكومة. أنتم تعرفون كل شيء حتي الأجنة في بطون أمهاتها؟

— لماذا هربت إذا يا عبدالله؟

لم أرد أنا وإنما تولت المرأة الرد عني. اقتربت المرأة مني وسلمت علي قائلة:

— أهلا عبدالله المصري

مدت يدها لتسلم علي ، ولكنني تراجعت للخلف قليلا. لم أمد يدي لأسلم عليها. قلت في اعتذار:

— معذرة. أنا متوضئ وسأدخل المسجد حالا لأصلي المغرب
سحبت المرأة يدها في خجل. شعرت أنها قد أحست بكرامتها وقد
جرحتها. ماذا أفعل؟ إنني أخاف من النساء. دوما أخاف من المرأة
ولا أثق فيها. لا توجد سوي امرأة واحدة يمكنني أن أثق فيها. أمي.
لا أدري لماذا لم يمسك الضابط بي. أقترب منه والشرر يتطاير من
عينيه. قال لي:

— لماذا هربت من المستشفى يا عبدالله؟
— لم أهرب يا باشا
— هربت ولا تعلم أننا نعرف كل شيء
— والله ما هربت يا باشا. هناك عصابات تخطف المرضى وتطلب فدية
— أنت لن يسأل عليك أحد ولا تمتلك أي شيء. العصابات ليست من
الغباء لتخطف رجلا مثلك. لا أنت ولا أمك يمكنكما دفع أي شيء
— معك حق يا افندم. ليس لدينا شيء
— لماذا هربت؟

— والله لم أهرب. أنا تحت أمرك يا باشا. أخشي من العصابات.
بدا أن الضابط لم يصدقني. نظر إليّ في غضب جعل المرأة تقترب
مني وتحاول أن تثبتني ولكنه صاح قائلاً:
— عصابات مرة ثانية. ليس لديك شيء أيها الغبي
— لدي يا حضرة الضابط
— ماذا لديك أيها الغبي؟

تعجبت من أن المرأة قد وقفت تتابع حوارنا ولم تنصرف. أيمكن أن
تكون هذه المرأة أداة سيستغلها للقبض علي؟ هل ستصرخ وتتهمني بأنني
حاولت الاعتداء عليها كأنثي؟ يا رب كن معي. ليس لي أحد سواك.
أنا لم أسلم عليها بيدي. اقتربت المرأة مني ووقفت بجواري فأيقنت
أنني هالك لا محالة. نظرت المرأة إلي الضابط في تعجب وهو يحدثني.
أرادت أن تتحدث ولكنه قاطعها وسألني ثانية بصوت أشد عنفاً:
— ماذا لديك أيها الغبي لتأخذ العصابات منك؟
— لدي. ..

- ماذا لديك أيها الغبي؟
- لدي كلية وقلب وكبد. هناك عصابات تخطف المرضى وتطلب فدية من أهله إن كانوا أغنياء. أما الفقراء مثلي فيسرقون أعضاءهم وقد يقتلونهم. البلد في حالة عدم استقرار
- مصر دوما مستقرة وفي أمان
- أعلم يا باشا. ادخلوا مصر إن شاء الله آمين
- لماذا هربت يا عبدالله؟
- نظرت المرأة إلي الضابط وتأهبت للكلام. سكنت برهة ثم نظرت إليّ. أعادت النظر للضابط مرة ثانية ثم نظرت إلي بود وشفقة. ستتهمني بأني اغتصبته مثلاً. فرصة جيدة ليلقي القبض عليّ. فاجأني المرأة وقالت للضابط:
- هل هناك تهمة موجهة لعبدالله؟
- ومن حضرتك لتسأليني؟
- أنا خطيبته
- قالتها بلهجة قاطعة. لقد أصابني الذهول تماما. أنا لا أعرف هذه المرأة. قد أكون رأيتها مرة أو اثنتين ولكن لا أتذكر أين. خطيبتي؟! يبدو أنهما يرتبان لي مصيبة أكبر. أذهلني ردها تماما. اقتربت مني وصارت تقف بجواري وتكاد أن تلتصق بي. هل أصرخ وأقول إنني لا أعرفها ولست خطيبها؟ ساد الصمت لحظات. بادرت المرأة وقالت:
- هل لديك أمر بالقبض عليه؟
- يا لمصيبتني!! أليست كارثة وحلت بي. ابتعدت عن المرأة واقتربت من الضابط وأنا أعتزم أن أسلم له نفسي. قلت له في شبه استسلام:
- حضرتك أرحم بي منها. يمكنك أن تقبض عليّ. الحكومة أرحم من النساء.
- كادت المرأة أن تبتسم. نظرت في عيني وقالت:
- ليس هذا وقتا للهذر يا عبدالله. أنت خطيبي
- المرأة تريد أن تقودني للهلاك. الضابط سيكون أرحم بي. مددت يدي للضابط فخطف المرأة يدي وأعادت سؤالها للضابط:
- هل لديك إذن للقبض علي خطيبي؟
- لا تتحدثي معي بهذه اللهجة

- لا. أنت ترتدي زيا مدنيا ومن حقي أن أرى إذن القبض عليه إن كان معك.
- خشيت عليها من رد فعل الضابط شديد. أردت أن أصرخ في وجهها قائلاً: «أيتها الغبية. أنت لا تعرفين أنه الضابط شديد». قلت للمرأة والذعر يملؤني:
- أنت لا تعرفين من أمامك. إنه الضابط شديد. أنا أعرفه لقد زارني في المستشفى. إنه ضابط كبير بالجيش.
- نظرت المرأة إلي الضابط في دهشة وقالت:
- ومنذ متي وضباط الجيش يلقون القبض علي المواطنين من المدنيين؟ تعجبت لجرأة المرأة. كيف ترد علي الضابط وتحدثه بهذه الطريقة. قلت لها بخوف:
- أنت لا تعرفين أن البلد الآن غير مستقرة.
- لم تنتظر كلاماً مني. نظرت للضابط في شجاعة وقالت:
- هل هناك أي شيء ضد خطيبي يا حضرة الضابط؟
- خطيبها مرة ثانية. هل أصرخ وأقول إنني لست خطيبها؟ تراجع الضابط شديد قليلاً وقال لها:
- ومن أنت حتي تتحدثي معي بهذه اللهجة؟
- ليس لك الحق في أن تسألني
- أرني بطاقتك يا أستاذة
- ليس لك الحق في أن تطلع علي بطاقتي الشخصية
- أصابني الخوف وأخرجت بطاقة الرقم القومي الموحد وأعطيتها للضابط. تعجبت من كلام المرأة إذ قالت لي في حزم بعد أن شددت البطاقة من الضابط:
- خذ بطاقتك يا عبدالله. ليس من حقه أن يري بطاقتك.
- توجهت للضابط وقالت له بنفس الحزم:
- هل تريد شيئاً من الأستاذ عبدالله المصري؟
- نظر الضابط إلي في غضب وقال ساخراً:
- لقد صرت مسنوداً ولديك ظهر في هذا البلد
- لا والله يا باشا. أنتم الحكومة وتعرفون كل شيء
- ابتعد الضابط قليلاً وقال لي:
- ماذا ستفعل بعد أن تم طردك من مصنع سارة العسكر؟

- والله لا أعلم. من أين عرفتكم بطردي من المصنع؟ آه. أنتم الحكومة وتعرفون كل شئ. يا باشا خذني حيثما تريد
- لماذا كنت تتحدث معنا بلهجة المجنون عندما رأيناك في المستشفى أول مرة وكأنك لا تعرف شيئاً؟ أنت خريج جامعي وتفهم وتعرف أن تزن كلامك.
- لا والله. لقد نسيت كل ما تعلمته يا باشا. أنا مجرد عامل بسيط في مصنع سارة العسكر وللأسف طردت منه
- كنت معيدا في كلية الآداب يا عبدالله. لقد عرفنا عنك كل شئ
- يا باشا أنتم تعرفون عني كل شئ. الملفات عندكم والأسرار لديكم غضبت المرأة غضبا شديدا وقالت:
- يا حضرة الضابط ليس من حقك أن تستجوبه
- لا أستجوبه
- تدخلت وقلت للمرأة:
- هو صديقي. الضابط شديد سأذهب معه
- قالت المرأة بلهجة حاسمة:
- لن تذهب معه وستذهب معي. لن تهرب مني. أنت خطيبي.
- أحسست أنني لا أفهم شيئاً. ضغطت المرأة علي يدي ونظرت للضابط وسألته قائلة:
- سنذهب يا حضرة الضابط. هل تريد منه شيئاً؟
- هز الضابط رأسه بالنفي. سبقنا في الطريق. تعجبت. لقد تركني بهذه السهولة. ما أن ابتعد خطوات قليلة إلا ورفعت صوتي وسألته:
- أنتم الحكومة وتعرفون كل شئ. أتعرف من هذه المرأة؟
- لم يرد الضابط وإنما اتسعت خطواته وسبقنا. جذبت المرأة يدي وقالت لي:
- ماذا ستفعل بعد أن طردتك سارة العسكر؟
- نظرت إليها في دهشة وقلت متسائلا:
- هل عرفت مصر كلها بخير طردي من مصنع سارة العسكر؟
- طبعاً. بلدنا صغيرة. كل شئ يعرف فيها بمجرد وقوعه
- بالله عليك كيف عرفت؟
- أخبرتني العصفورة

- من عصفورتك؟
- رجاء شوكت
- آه. إنها صاحبة أطول ضحكة صفراء في التاريخ. ما أن قلت لها هذا الوصف إلا وأصابها الضحك. لاشك أنها أخبرتها بطردي. أنا لا أعلم ماذا يدور في الدنيا من حولي. كان عليّ أن أسألها من هي. قلت لها مستفسرا:
- ومن حضرتك إذا؟ أنا لا أعرفك
- لكنني أعرفك جيدا
- من أنت؟
- خطيبتك
- ليس لي خطيبة
- سأكون خطيبتك الليلة.
- الليلة؟
- نعم. سنلتقي بعد أقل من ساعة
- أنت متأكدة؟
- نعم.
- هل تخططين لي حياتي؟
- من الليلة سأخطط لك
- تتحدثين بثقة. من أنت؟
- لم أعط بطاقتي للضابط ولكني سأعطيك إياها
- أخذت البطاقة منها. كان مكتوبا أمامي: شكرية صبري السيد.
- عاملة بمصنع الغاربة. كدت أضحك. نظرت إليها وقلت لها في دهشة:
- شكرية صبري. أنا لا أعرفك
- تعرفني جيدا
- والله لا أعرفك
- لا تحلف بالله. لدينا موعد لنتقي سويا بعد أقل من ساعة
- أنت خطيبتي؟
- إلي الآن لست خطيبتك ولكنني سأكون خطيبتك بعد أقل من ساعة
- تعملين بمصنع الشارقة؟

— لا الغاربة. مصنع الغاربة للمنسوجات. ألم تخبرك أمك بموعدنا في الساعة السادسة؟

لقد أخبرتني، ولكن يبدو أنني نسيت. الله يخرب بيتك يا سارة العسكر. لقد تذكرت. هي إذا شكرية صبري التي صارت خطيبتني بعد أقل من ساعة.

لكم أحببك يا شكرية!! لقد قبلت بي وبظروفي علي الرغم من صعوبتها. سمعت الزغاريد تملأ بيتنا لأول مرة. أحضر والدها أكثر من خمسة صناديق من المشروبات ووزعها بعض الصبية في الشارع. ما أن وصلت إلي شارعنا إلا وكانت الزينات والأضواء تملأ شارعنا وتخص بيتنا بعقود إضاءة مبهرة.

أخبرتني شكرية بأنها قد أعدت كل شئ. لقد كانت هذه هي المرة الأولى التي حدثت فيها خطيبتني الحبيبة المحامية التي تعمل بمصنع الشارقة. لا. أقصد الغاربة للمنسوجات.

شكرية حبيبتي. المرأة الأولى في حياتي بعد أمي. لقد أكدت لي أنها ستبحث لي عن عمل في أي مصنع آخر. لقد بثت فيّ الأمل وطلبت مني ألا أتذلل لسارة. أليس الله هو الرزاق ذو القوة المتين. وعدتني أن تجعلني أري الدنيا بمنظور جديد. يا رب لك الحمد ففي قلب المحن تعطينا بعض المنح. لقد جاءتني شكرية في وقت أحجاجة فيها. لكم أنت كريم يا رباه.

ابتسمت وأنا ألبس شكرية خاتما ثميناً أحضرته لي لألبسها إياه. ابتسمت لها في حب وإعجاب. يبدو أن صورة سارتي حب الماضي ستلاشي قليلاً من ذهني. أنا معجب جداً بك وبشخصيتك القوية يا شكرية، ولكني لا أستطيع أن أعدك بأن أنسي سارتي بهذه السهولة. صرت أتتبع نظراتها وحديثها مع أمي ومع أبيها. لقد كنت أتبعها وأنا منجذب تماماً لشخصيتها. كنت أتحدث مع أمي وألمحها بطرف عيني. لقد كانت شكرية تتبعني بنظراتها وترمقني بحب كما كنت أتبعها بنظراتي وأشعر بنبضات قلبي تتزايد وكلّي رجاء أن تهرب سارتي من شبح الماضي، ولكن هيهات.

الحلقة الثالثة والعشرون

البطالة وقضاؤنا الشامخ

أسبوع كامل مر عليّ وأنا في حالة نفسية سيئة لا أستطيع أن أخرج من البيت. إن استيقظت مبكرا كعادتي للصلاة أتوجه للمسجد لأصلي، ولكنني ما ألبث أن أعود لأنام لما قرب الظهيرة ثم أقوم ثم أعود لأنام ثانية. أشعر أن بداخلي آلاما عظيمة ونيرانا لا تخمد. أحس ببراكين الغضب تفور بداخلي وكأنني أراها تكاد تتميز من الغيظ. ولماذا أصحو؟ إنني عاطل عن العمل. لماذا أقوم إذا؟ هل أقوم لأتذكر هذه الحقيقة المرة؟ اليد التي لا تعمل نجسة. ليست هذه هي المرة الأولى التي أطرّد فيها من عملي. لا أتذكر أي عمل كنت أستمّر فيه أبدا. كم من شركة حكومية عملت بها، ولكنني كنت لا أستطيع أن أسكت علي كم الفساد الذي تراه عيناى.

ذات مرة قلت بعد صلاة الظهر لأول مدير لي في شركة حكومية بعد تعييني بشهور قليلة وأنا متأكد من أنه يقبل الرشاوى:

— تقبل الله يا أستاذنا

كانت عيناى تريدان توجيه عشرات التهم بالنفاق والفساد. كنت أشعر تجاهه بكرهية شديدة لا مثيل لها. أظن أن الله لا يعرف ماذا تفعل؟ نظر إليّ وكأنه يفهم ما تجيش به نفسي. لقد رأيته بالأمس عندما دخلت عليه المكتب بالأمس يكاد أن يقبل رأس أحد الضيوف. نظرت إلي مديري في احتقار ثم نظرت إلي صورة الرئيس مبارك المعلقة فوق رأسه. لقد أخذ الظرف الممتلئ بالنقود ووضعه في جيبه وقال له: «اطمئن. كل شئ سيتم كما نريد. ضع في بطنك بطيخة صيفي. أنا هنا المدير ولا راد لكلامي». دخلت في هذه اللحظة ولم ينتبه لوجودي. كانت السكرتيرة غير موجودة فدخلت وليتني لم أدخل في هذا التوقيت. رد عليه الضيف قائلا وهو يقدم له سيجارا فاخرا: «أخشي من المعارضة والكلام الفارغ وأخشي من الذين يزعمون أنهم من الأبطال ويكتبون في الجرائد». أشعل المدير السيجار الفاخر ونفخ في الهواء وقال بثقة: «ولا يهملك يا باشا. دعهم يقولون ما يريدون ودعنا نفعل ما نريد. هذه هي الديمقراطية. الديمقراطية أن تدع الآخرين

يقولون ما يريدون وأن تفعل أنت ما تريد».

تنحنحت فانتبه المدير إلي وجودي. صاح في وجهي قائلاً في غضب لم أعهده: «كيف تدخل الآن أيها الغبي؟» قلت له في هدوء: «لدي مشكلة في العمل...». صاح فيّ قائلاً: «تعال في أي وقت آخر». خرجت وما هي إلا ساعة واستدعاني قائلاً: «لا تغضب مني يا عبدالله. كنا نناقش في أمر هام». قلت له في محاولة لتنبهه أنني أفهم: «لقد رأيت الظرف الممتلئ بالنقود يا سيادة المدير». اتهمني بأنني أتجسس عليه. عرض عليّ أن يدخلني في دائرة فساد، وما هي إلا أيام وكان قد استصدر أمراً بنقلي إلي فرع الشركة في أسوان. رفضت تماماً. كيف سأترك أمي؟ شبكة فساد كبيرة عنكبوتية متصلة بخيوط ملتفة تكاد أن تخنقنا جميعاً. نظر إليّ في لا مبالاة وهو يرتدي حذاءه ليخرج خارج المصلي ثم أمسك بيدي قائلاً:

— تقبل الله يا عبدالله يا مصري

— وصلت الرسالة يا افندم

— هل ستعقل وتكون معي؟ بيدي كل شيء. سنلغي قرار النقل

— بيد الله كل شيء يا سيادة المدير

— يعني سيتم نقلك إلي أسوان؟

— لا

— يعني لن تكون معي ولن تنقل إلي أسوان؟

— نعم. سأكون مع الله

— يا عبدالله لا تكن عنيداً. كلنا مع الله. عندما كنا شباباً كنا مثلك

وبمثل حماسك

— وسأظل كما أنا وبمثل حماستي

— لن تستطيع يا بني. أنت شاب. تحتاج أن تتزوج وتكون نفسك.

كنا مثلك. هي ضغوط الحياة. صدقني. ستفهم عندما تكبر وتصل

إلي منصب المدير العام. الكل هكذا. إياك ان تفهم أنني أعمل

مألاً يفعلونه الآخرون. وكيل الوزارة والوزير ومن أعلي. هكذا بلدنا.

استهدئ بالله وكن معنا

— أتريدني أن أكون معك؟ أتريدني أن أتزوج وأكون نفسي من حرام؟

أعوذ بالله

- ما الذي جاء بسيرة الحرام؟ كل ما نعمله قانوني. عروض أسعار
- من ثلاث شركات وهذا العرض الذي قبلته هو الأفضل
- والظرف الكبير؟ الظرف الذي رأيته بعيني؟
- هدية. والنبي قبل الهدية
- عليه الصلاة والسلام لا يقبل الرشوة يا سيادة المدير. هذه رشوة.
- أذكر حديث النبي صلى الله عليه وسلم عندما قال فيما معناه ما
- بال من استعملناه يقول هذا لكم وهذا أهدي إليّ. هلا قعد في
- بيت أبيه فنظر ماذا يهدي إليه
- ربنا يهديك يا بني
- لو الهداية كما تظن فأفضل أن أكون عاصيا
- اخبط راسك في أقرب حائط
- سأفضحكم جميعا. سأكتب في كل الجرائد
- لا تنطح الصخر يا عبدالله
- لست خروفا ولا جاموسة يا حضرة المدير
- بل أنت لا تفهم مصلحتك ولا تعرف كيف تدير الدنيا من حولك
- سألجأ إلي القضاء
- لن ينصفك أحد. بيدنا كل شئ
- الله معي
- الله لا يساعد الأغبياء
- الله يساعد من علي الحق
- ونحن علي الحق. ستفصل قبل أن يخرج صوتك
- القضاء الشامخ سينقذني وسأخذ حقي وحق الآلاف بل الملايين
- ممن تسرقونهم
- القضاء الشامخ!! أنت غبي
- وأنت لص
- سعد جدا مديري بأن وصل الحديث إلي هذه الدرجة. أشهد
- الموظفين. ثم قال لي:
- وهذه جريمة لك. سأتهمك بسب الشرفاء. قضية سب وقذف
- اغتظت جدا وقلت له في استنكار متسائلا:

— الشرفاء؟

— طبعا الشرفاء يا جاهل

— لست جاهلا أيها المرتشي

— ربنا يهديك

— ربنا يتوب عليك من السرقة

— أنت متطرف وإرهابي وتنتمي لتنظيم سيضر بمستقبلك. نحن

نعرف عنك كل شيء

— تهكم جاهزة

— اخرس يا إرهابي. يا من تريدون تدمير البلد

— أنا؟

— طبعا أنت

أصابني الغضب وصرت أصرخ بشكل هستيري. ستضيعون

مستقبلي يا أولاد الكلب. اقتربت منه لأضربه. تعجبت أنه لم يبتعد.

صفعت وجهه السمين الأحمر المغذي بالحرام. ضحك وقال لي:

— وهذه جريمة ثانية التعدي علي موظف عام أثناء العمل

— ستكثر جرائمنا فأننا إرهابي متطرف

لم أدر بنفسني إلا وأنا فوقه وأكيل له الضربات وأركب فوق جسده

السمين الذي يترجرج من تحتي وأصيح:

— أضعتم البلد أيها الكلاب. أضعتم البلاد والعباد. الله معي.

سينقذني قضاؤنا الشامخ

خلص الموظفون المدير من قبضتي. كان يضحك ويقول:

— سلم لي علي قضائنا الشامخ. كل شيء بيدنا أيها الغبي

فصلت من العمل!! حكم القضاء الشامخ بتعويض مديري الشريف!!

صرت أنا المتهم وهو البرئ.

قابلته في المحكمة بعد الحكم. كان يضحك. وهكذا فصلت من أول

عمل حكومي لي.

حاولت أن أكون أكثر حذرا بعد هذا ولكن هيهات.

كل مدير كان يقول لي بهدوء تارة وبعصبية تارة أخرى:

«وأنت مالك يا أخي؟! هل ستصلح الكون؟ كل البلد تسير

بهذه الطريقة». سيخرب القطاع العام بهذه الطريقة. سوف نشحذ

أيها اللصوص. كنت أرى الحل. الطريقة واحدة. كل الشركات خاسرة. حريق في آخر السنة المالية ويا دار ما دخلك شر. الأمور مستقرة وكل شئ علي ما يرام. لاضير أن توجه التهم إلي صغار الموظفين ثم يهرب الحيتان بكل ما يستطيعون أخذه ونهبه. تنقلت من شركة إلي شركة ومن وظيفة حكومية إلي أخرى ولا فائدة. كم من شركة حكومية كنت قد عملت بها وأنا لا أعمل فعلا!! أنا أجلس علي المكتب وأوقع بكشوف الحضور والانصراف، ولكني بلا عمل حقيقي. لأشك أن مرتبي حرام. لا يمكن أن يكون هذا هو الحال في مصر كلها. لا يمكن أن أصدق أن لدينا الملايين من العاطلين بلا عمل حقيقي، ولدينا أيضا الملايين من العاطلين الذين يجلسون علي المكاتب ويتقاضون مرتبات بلا عمل فعلي ثم يشتكون من أن مرتباتهم ضئيلة. كانت أمي تشجعني في البداية، ولكنها سرعان ما تتراجع وتقول لي هذه ظروف بلدنا. كم من مرة كانت تقول لي لو صبرت لوصلت الآن إلي منصب مدير عام كما كانت تحلم لي. كانت تحلم أن أكون موظفا كبيرا ولكنني خيبت أمليها. كنت لا أستطيع أن أجاريها. لا أستطيع أن أكون حمارا. إن هذا لا يصح. أقف في طابور طويل من أجل التوقيع علي كشوف الحضور والانصراف بدون عمل حقيقي. لم أتعلم وأتفوق من أجل أن أكون موظفا بلا أي إنجاز حقيقي. أنا كنت الأول دائما وأحصل علي تقدير ممتاز. هل أ تساوي مع من كان يحصل علي مقبول أو جيد؟

كنت أشعر أن القطاع العام مقبرة التميز. قررت أن أترك القطاع العام تماما ولا أعمل فيه واتجهت إلي مصانع القطاع الخاص أجرب فيها حظي. كان إحساسي وأنا أعمل بأي عمل حكومي كأنني بعكوكة. هذا ما قررت أن أسمي نفسي به كلما عملت بشركة حكومية. أنا البعكوكة وهؤلاء هم البعاكيك من حولي. كلنا بعاكيك مبعككة. في القطاع الخاص وجدت بعض التسرية. صحيح أنني كنت أعمل ويدرك مني الشقاء منتهاه، ولكنني كنت أشعر أنني أعمل بعمل حقيقي. كل شئ بحقه. الدقيقة لها أهمية كبيرة. نري إنتاجا حقيقيا. حرام كل هذه الرواتب التي تصرف للموظفين الذين لا يعملون. تنقلت من مصنع إلي مصنع حتي رقيت بأحد المرات إلي رئيس

وردية. كان يعرف عني الجدية والالتزام بالعمل رغم معرفتي بنفسية أصحاب رؤوس الأموال.

تغير الحال منذ أن بدأت الحكومة في تطبيق سياسة الخصخصة وبيع القطاع العام. شملت رائحة الفساد والتربص بكل ما أنجزه الرئيس عبدالناصر. فقدت عملي أكثر من مرة. عانيت مذلة البطالة من جديد وشربت من كأس البحث عن عمل لفترات طويلة. رحمك الله يا عبدالناصر. أمنت وهم يخصصون. كانت الشركات والمصانع الحكومية تباع بسعر التراب وهي تساوي الملايين. هذه أصول الشعب أيها الأغبياء. هذه حقوق الأجيال القادمة. طيب. الصير طيب. العمال يسرحون ويجبرون علي ترك وظائفهم. يأخذون مكافآت نهاية الخدمة. يفرحون قليلا ببعض الأموال ثم يجدون أنفسهم بلا عمل من جديد. مر الأسبوع والمواقع تتقلب علي. لم يكن يسري عني في أيام الأسبوع السبعة هذه إلا زيارة شكرية. كانت تزورني كل يوم وتطمئن علي أمي. كانت جميلة حقا. عيانان واسعتان. حواجب دقيقة مزججة. فم واسع مبتسم. نظرات محبة ومشجعة. شعر أقرب إلي الصفرة ولكن السواد يغلب عليه. كانت في طول سارة العسكر تقريبا، ولكنني شعرت أنها جميلة وتناسبني. عندما نتزوج وأحتضنها ستصل إلي كتفي. لا ضير أن أحنني وأنا أقبلها. آه. نتزوج؟ متي؟ نحيفة إلي حد ما فلا يظهر أنها قصيرة. هل أكذب علي نفسي وأدعي أنني أحبها؟ لا. لا أحبها ولكنني مستريح لها. ما علي الحب تبني البيوت. بيت؟ ومتي يكون لي بيت؟ سأطلب منها أن نتزوج في شقتنا هذه مع أمي. ولم لا؟ هذا شرطي. سأشترط عليها أن نتزوج مع أمي. لا يمكن أن أترك أمي وحدها. لن أتركها كما فعل الآخرون. أنا ابنها البكري. ابنها الكبير. لا أطيق أن أتركها. شعرت أن في شكريتي هذه عوضا كثيرا عما أعانيه. قد تكون هدية الله التي بعث بها إلي من السماء. كنت لا أتيقظ إلا عندما تأتي. أري الحياة في بسماتها وهدوئها. كيف لي أن أقرنها بسارتي؟ أين هي من سارتي الحبيبة؟

سارتي حب العمر وواحة الأيام. مهد القلب وراحة الأحلام. آه يا سارتي الحبيبة. أكون قد آن لك الأوان لتتراجعي عن تفكيري وتدعي

القليل من الوقت لشكرية؟ أيمن أن أنام بدون أن أتذكرك يا سارتي؟
أيمن أن أستيقظ في يوم دون أن أتذكر ابتسامتك الرائعة وطعم قبلتك
الرائعة التي حصلت عليها يوما من فمك الذي يسكنه الحسن؟ أيمن
أن أحلم بدون أن أغوص في أحلامي بحضنك الرائع ولمسات يدي
لشعرك الحريري؟ أزعم أنني لن أنساك يا سارتي يا نور الحلم وجنة
الواقع وسراب العمر.

كنت ألبس وأتأنق وأحلق ذقني بعناية فائقة وأستعد للقائها علي
أحر من الجمر. إنها تأتي ومعها الأمل في أن أحدا لا يزال يرغب في
لقائي. لاشك أنها تحبني وإلا لماذا قررت أن تخطبني. يبدو أنني سأحزن
ثانية؟ إنها هي التي ستتزوجني. ستكون هي الفاعلة وأنا المفعول به.
أهذه آخرة حياتك يا عبدالله يا مصري. امرأة هي التي تتزوجك؟
كان دورك أنت أن تسعي إلي الزواج لا أن تسعي إلي الزواج بك.
زواج؟ وما سبيلي إلي الزواج والعين بصيرة واليد قصيرة؟ من
أين؟ أني لي أن أتزوج. أنا حقيقة لا أملك من حطام الدنيا شيئا.
ضاع كل شيء. حتي العمر قد ضاع. سنوات قليلة وأصل إلي الستين
ولن يقبل بي أي عمل. إنهم يفضلون الشباب. هون علي نفسك
يا عبدالله. لقد أدبت الواجب المقدس ووقفت بجوار أمك. اعتنيت
بالأسرة وجاهدت معها. ألم تكن الكبير؟ هذا واجبك وهذا قدرك. ألم
يعوضك الله بصحة جيدة وأم تحبك وتدعو لك في كل خطوة تخطوها؟
وهذه نتيجة دعواتها. لاشيء. لا تقنط هكذا. مالك يا رجل؟ ماذا
حل بك؟ أين قناعتك ورضاك عما كنت تصنع؟ الله لن يضيعك.
عوضك الله بامرأة تحبك وتسعي إليك. طيب وما النتيجة؟ ستطلبك
للزواج. ليس لدي أي شيء وستعرف ظروف وتتركني. لن تتركني. هي
التي سعت إلي. سيكون هذا في البداية فقط، ولكنها ستتخلي عني
بعد أن تعرف أنني لا أملك شيئا.

لا يجب أن تستبد بي الفرحة هكذا. أنا لا أعرف إن كانت شكرية
تحبني أم لا. وما الذي ستحبه في؟ لا عمل ولا أمل ولا شباب ولا مال.
ستتركني كما تركتني حنان.

عادت بي الذكريات إلي أيام الجامعة وتذكرتها. تذكرت حنان
السعيد عزت. كانت تقترب مني كثيرا علي غير العادة. كانت تشني

عليّ وتبتسم لي عندما تقابلني. لم أشعر بالارتياح لها أبداً. كانت تسير في ثلة من أصدقائها الأثرياء. أنا لا أطيعهم وهم لا يطيقوننا. الفقر يجمع الفقراء. لم أكن أحب طريقة ملابسها ولا يعجبني سلوكها. لم تكن جميلة. كانت ترتدي الميني جيب وتبرز فخذيها دوماً سواء كان هذا صيفاً أو شتاءً. تسكب كما كبيراً من الماكياج علي وجهها فتبدو وكأنها عروسة المولد. لم تكن تخجل من أن تصلح ماكياجها أو تضع الروج علي شفتيها في مدرج المحاضرات. كنت أشعر بالخجل وأترك المدرج وأخرج. ذات يوم جاءني واقتربت مني. كادت أن تلتصق بي وهي جالسة بجواري في المكتبة. اقتربت مني أكثر فكدت أن أري ثدييها النافرين يخرجان من فتحة صدرها. كدت أن أقف لأبتعد عنها. وددت لو صحت فيها قائلاً: «ما قلة الحياء هذه التي بك يا قليلة الأدب؟» لم تكن عادتها أن أراها في المكتبة. لماذا يذاكرون ولماذا يدرسون؟ إنهم لا يحتاجون الدراسة. نحن الفقراء الذين نحتاج إلي التعليم. أبوها صاحب شركات كبيرة ومتوغلة في البلد.

تشاغلني بأنني أقرأ. كانت المكتبة خالية تقريباً. الطلاب والأساتذة منشغلون بالمظاهرات ضد السادات. أنا مالي؟ أنا هنا لأدرس. تماماً كما كانت تقول لي أمي.

اقتربت مني والتصقت بي وقبّلني فجأة بدون أن يراها أحد. انتفضت وشعرت أن حية قد لدغتنني. مسحت أثر قبيلتها من علي خدي. شعرت بالغثيان. أحسست أنها قد انتهكت براءتي فعلاً. وقفت واستغفرت الله العظيم. الله يسامحك. كنت متوضاً وسأصلي الظهر بعد أن أنتهي من قراءة هذا الكتاب في المكتبة.

نظرت إليّ في غضب وقالت:

— لماذا أنت الوحيد؟

— ماذا تقصدين؟

— أنت الوحيد الذي لا تحاول أن تقترب مني

— ولماذا أقترب منك؟

— ألا تري أنني جميلة؟

— لا. أبداً

— أنت وقع

- وأنت قليلة الأدب. سأشتكيك للحرس الجامعي. سأكتب فيك شكوي لأنك قمت بتقبيلي علي غير رغبتني
- عليك أن تتهميني أيضا بمحاولة اغتصابك
- خشيت منها فعلا. خلعت الجاكت واقتربت مني. ياللمصيبة!!
- يبدو أنها قد جنت تماما. لقد فقدت صوابها. قمت بسرعة وراوغتها
- وهربت من المكتبة بأعجوبة. كدت أن أقع أكثر من مرة وأنا أفر منها.
- أخذت تضحك من خوفي وسذاجتي. أشارت إليّ بعد أن وصلت إلي بوابة الجامعة الرئيسية. دقت ساعة جامعة القاهرة معلنة تماما
- الثانية عشرة. وقفت بجوار حجرة الضابط. لمحت مظاهرة كبيرة ضد الرئيس السادات. اقتربت مني في هدوء وقالت:
- لا تخف
- أنا بصراحة أخاف منك
- أنت لا تري أنني جميلة؟
- بصراحة لا أراي أنك جميلة بالمرة. الجميلة تكتفي بجمالها
- ولا تضع كل هذه المساحيق والأصباغ علي وجهها. إن كل هذه المساحيق تضر ببشرتك
- أنت شخص غريب جدا
- لماذا؟
- الكل يتسابق علي القرب مني إلا أنت
- أنا مشغول بالدراسة
- ولذا تكون الأول دائما
- إن شاء الله سيتم تعيينني معيدا
- ما رأيك في أن تدرس لي وأعطيك مرتبك كمعيد من الآن؟
- عشرون جنيها كاملة
- لا. سأعطيك أربعين جنيها. أنا أحتاجك فعلا. أنت ستذاكر لي
- مرتين في الأسبوع
- أخاف منك.
- لا تخف. مالك كالعذراء هكذا؟ أنت تخجل بصورة انتهت منذ
- مئات السنوات
- لن أقبل أن أذاكر لك حتي أستأذن من أمي

— الله يا ابن أمك. لا تقلق. استاذن منها. خذ أربعين جنيها مقدما
يا عبدالله

أول مرة أمسك مثل هذا المبلغ بيدي. يا إلهي. أربعين جنيها.
مرتب المعيد في شهرين. أمسكت النقود بيدي وهممت بالانصراف.
طرقات علي الباب أعادتني لموعد شكرية. إنها قد وصلت. تهيأت
لأفتح الباب.

فتحت الباب ولم تكن شكرية. لقد كانت نهاد زميلتي في العمل.
ابتسمت لي ثم دخلت. إنها نهاد التي قرأت في عينيها نفس نظرات
شكرية عندما التقيتها مع الضابط في هذا اليوم الممطر.
اللهم اجعله خيرا.

فتحت لها الباب وناديت لأمي التي كانت تنتظر شكرية أيضا
مثلي. تري ما الذي أتى بك إلي بيتنا يا نهاد؟!!

الحلقة الرابعة والعشرون

حيرة وأسرار

— هيا بنا ننصرف يا حسام
كانت كلماتي حازمة لحسام الذي ينظر لخطيبته الحبيبة كريمة
بكل حب وبكل سعادة. كانت تبادل نفس النظرات وكأنها لا تصدق
أن الخطبة قد تمت بالفعل. كأنهما ينظران لبعضهما ليتذكرا تاريخا
من الحب الذي اكتنفته الأزمت وخطت عليه خطوطا عريضة أثرت في
قلبيهما إلي أن توج بالخطوبة في هذه اللحظة الفاصلة بتاريخ حياتهما.
لاشك أنهما قد تذكرتا متى كان أول لقاء بينهما. يتذكران أياما طويلة
من المعاناة وكثيرا من ليالي الهم والقلق بشأن علاقتهما.

هما ينظران إليّ وعيونهما تشكرني. قرأت الكثير في عينيهما.
غمرتتهما السعادة وفاضت عليّ وعلي من حولي. لاشك أنهما قد تذكرتا
كفاحهما الطويل من أجل هذه اللحظة وقد حكّت لي كريمة بعضا منه.
لعلهما يتذكران أيضا همس العيون ولغتهما. كنت أنظر لهما والسعادة
تملؤني. تذكرت أيضا ما الذي كانت تقول عينايا لسارتي الحبيبة.
كانت عيناها تهريان من مواجهة عيني المثلثتين بالحب. لا أذكر أن

عينها نطقت قط بإشارة الحب لي علي الرغم من أن لسانها أخطأ ذات مرة فاعترفت بأنها تحبني. كان حبها لي مختلفا عن حبي لها. كان يجب علي أن أفهم هذا جيدا، ولكني للأسف لم أفهم وقتها فلقد كنت شابا غريبا. كان يجب علي أن أدرك أنها لم ولن تكون لي أبدا. رأيت كمال شقيق كريمة ينفخ بغمه والغيط يشدد به وكأنه لا يطيق نفسه ولا يطيق أحدا. رأيت والده ينفخ في غضب مثله وب بنفس الطريقة. فعلا من شابه أباه فما ظلم. لقد تمت الخطبة رغما عنهما. بدأ رجال صاحب المقهي يستعدون للانصراف. كدت ألح عليهم في البقاء ولكنهم تحججوا بأنهم لا يستطيعون التأخر عن المعلم صاحب المقهي. لقد هموا بالانصراف بالفعل.

يجب أن نخرج في ركبهم. زادت الزغاريد عندما قمنا. سلم حسام علي والد خطيبته فشد يده بكل عنف وكأنه يطلب منه أن ينصرف فوراً. سلمت علي كمال ووالده وقبّلتهما. اقترب مني والد كريمة وقال لي في استعطاف: «أترضي لأختك أن تتزوج رجلا مثل هذا؟» وأشار إلي حسام في احتقار. لم أرد عليه. قال لي بعد أن نظر إلي بغضب: «كل ماله حرام. أنت لا تعرف ماذا يعمل؟ الله لن يبارك له أبدا». لم أرد ولم أحب أن أتجادل معه تجاهلا له ولشره المستطير الذي يتطاير من عينيه. كان كل ما يشغلني أن ينتهي الحفل بسلام.

ألح علي حسام في أن ينتظر ولو قليلا مع كريمة، ولكنني رفضت رفضا قاطعا. قلت له في غضب: «بل يجب أن ننصرف وحالا مع رجال المعلم صاحب المقهي. لدينا موعد هام معه ويجب أن نبلغه بكل ما تم». بدا عليه الغضب ولكنني همست في أذنه قائلا: «علينا أن ننصرف الآن. اسمع كلامي أحسن لك. ألا تري غضب والدها وأخيها». سرنا مع رجال المعلم صاحب المقهي إلي مقهاه. شكرناه وسعد جدا وبارك لحسام وأصر علي أن يدعونا للجلوس بصحبته. أخذت رقم هاتفه وبالغت في شكري له واستأذنته في أن أطمئن عليه من حين إلي آخر. أما حسام فأبلغه بأنه سوف يظل مدينا له بالشكر والامتنان والعرفان بالجميل طيلة حياته. بل وأصر علي أن يسمي مولوده الأول إن رزقه الله بطفل من كريمة باسم المعلم صاحب المقهي. جلست أشرب السحلب وأستمع لحوار حسام مع صاحب المقهي دون

- أن أنطق بكلمة. نظر إلينا صاحب المقهي في تعجب وقال مخاطبا
 حسام في سخرية أهل البلد وطبيبتهم:
 — لا مؤاخذه. يستحيل أن تسميه باسمي
 — لماذا يا معلم كفي الله الشر؟
 — لن يعجبك أن تسمي الولد باسمي
 — مقهاك اسمه مقهي الحمد. أظن أن اسمك أحمد أو محمد أو حمادة
 — لا. حمادة اسم تدليل.
 — لقد شوقتنا لمعرفة اسمك يا معلم. طيب هل اسمك عبد الحميد؟
 — لا. باعتباري مضيفكم فلسوف أعطيك درسا في اللغة العربية. لقد
 حصلت علي شهادة نحو الأمية مؤخرا
 — تقصد محو الأمية يا معلم
 — محو الأمية نحو الأمية. كل الأمور تتساوي. اسمي جملة. تخيل؟
 — سبحان الله. اسمك أحمد الله
 — لا يا أستاذ. أمي ماشاء الله. ..
 — اسم أمك ما شاء الله. اسم جميل
 — الله ينور عليك. أمي ما شاء الله أسمتني حمدته والناس يطلقون
 علي حمته. هذا اسم صعب ولا أنصحك ان تسمي ولدك به
 — سأسميه أحمد أو حمادة
 — ربنا يبارك لك فيه. لا مؤاخذه وما صنعتك يا أستاذ حسام؟
 — أنا أعمل في فندق الجزيرة
 تذكرت كلمات والد كريمة. آه. إنه يعمل في فندق. طالما أن والدها
 قال إن مال حسام من حرام فيبدو أنه يقدم الخمر أو يعمل في بار
 الفندق. دق قلبي بعنف. أستغفر الله. هل أكون قد شاركت في جرم أو
 مصيبة؟ فضلت أن أصمت وأن أنتظر نتيجة حوار حسام مع صاحب
 المقهي. قال المعلم وهو ينظر لحسام:
 — بسم الله ما شاء الله. يعني أعمل في تنظيف الغرف؟ دعك من
 الفندق وتعال اعمل معي وسأعطيك أكثر من مرتبك يا أستاذ. لقد
 تعرفنا بالصدفة ويبدو أن علاقتنا لن تنتهي ببساطة يا أستاذ حسام
 — أنا محاسب يا حاج حمته
 — آه. معك دبلون تجارة؟

— لا. ليس دبلوم تجارة يا حاج. أنا خريج كلية التجارة وحصلت علي الماجستير في المحاسبة

— ماستستير. بسم الله ماشاء الله. ويقولون لك البلد ليس فيها شغل. سبحانه الله

شعرت أن حسام قد استأنس بدعوة الحاج حمدته وأعجبته جلسته. يبدو أن صمتي وهذوئي قد أعجب المعلم. نظر إليّ في إعجاب وكأنه يبحث عن رجل ليعمل معه. علمت فيما بعد أن ظني خطأ. فعلا. إن بعض الظن إثم. اعتقدت أن لديه بنات لم يتزوجن. وظننت فيما يبدو أنه كان يخطط لي من أجل أن أتزوج واحدة منهن. كاد المعلم أن يقسم بالطلاق عليّ أن يدعونا للغداء في بيته، ولكنني رفضت متعللا بأننا يجب أن نذهب ووعدته إن سمحت الظروف في يوم ما فلسوف آتي وأتناول الغداء معه.

عرفت فيما بعد عندما زرته أن كل ذريته من الصبيان. فعلا. إن بعض الظن إثم. يبدو أن المعلم حمدتو قد أعجب بنا فعلا. أكثر من مرة قال لنا: «إن أظلمت الدنيا في أعينكما فتعاليا إليّ. رب أخ لك لم تلده أمك».. أصيل والله يا معلم. انصرفنا والمعلم يدعو لنا وندعو له بكل خير وطلب منا أن نلجأ إليه في أية مشكلة. أصر حسام عليّ أن يدعوني للغداء. ذهبت معه إلي فندق الجزيرة. قلت له وأنا أنصح: من الآن يجب أن تحافظ علي نقودك. ستصير مسؤولا عن بيت وأسرة رمقني بنظرات الشكر وقال لي: «لقد دخلت تاريخ حياتي. أنت السبب في سعادتي. لم أكن أحلم أن تتم خطبتي علي كريمة بهذه الصورة. أنا مدين لك ما حييت». أخبرته أن كريمة حكّت لي عن كل شيء. أخبرني أنه يحبها منذ خمس سنوات منذ أن كان يعالج ابنه في المستشفى الذي تعمل به. قال إنه أحبها من أول نظرة التقت فيها أعينهما. تنفصت مرة ثانية وزاد عدد دقات قلبي. يبدو أنني أخطأت عندما ساعدته في هذه الخطبة. كان علي أن أعلم بالتفاصيل كاملة ولا أكتفي أبدا بما قالته كريمة لي عندما كنت في المستشفى. قلت وكأن حية قد لدغتنني: — أنت متزوج؟

— كنت متزوجا وماتت زوجتي في ميلاد ابني الوحيد إلي الآن.

- فهمت لماذا كان يعترض أهلها علي زواجك بكريمة
- وهل من الحرام أن تتزوج كريمة رجلا مثلي قد تزوج من قبل وماتت زوجه؟
- لا.
- أتصدق أنني أحببتها من أول مرة رأيتها فيها؟
- وزوجتك؟
- كانت مريضة وكنت أعلم أنها ستموت إن حملت، ولكنها أصرت علي أن تحمل لتسعدني
- وحملت من أجلك وماتت؟
- وأوصتني بالزواج من كريمة
- قصتك درامية وتصلح أن تكون فيلما
- وأنت ما قصتك يا أستاذ عبدالله؟
- سأحكي لك ولكنني جائع
- تحكي لي عنما نتغدي سويا
- تقصد عندما نتعشي. لقد أصبحت الساعة السابعة يا أستاذ حسام
- ولا يهملك. نتعشي الآن وأظل مدينا لك بغداء.
- وصلنا الفندق في تمام الساعة والنصف مساءً تقريبا. لم أعتد علي دخول مثل هذه الفنادق. وصلنا إلي قاعة الطعام. طلب حسام الطعام وتشاغلنا بالنظر في بهو القاعة. نظرت عن يميني فوجدت مكانا فخما عليه لافتة كتب عليها: «محجوز».
- عزفت الموسيقى الهادئة وفي منتصف طعامنا لاحظت بعض الراقصات يدخلن المكان المحجوز ووجدت زجاجات الخمر تدخل وتصب في الكؤوس الموضوعة علي المائدة.
- هممت بالانصراف فجأة. تغير وجهي وانقلب فقلت وأنا أكاد أن أصرخ:
- لا يمكن أن أجلس هنا. لا يمكن أن أجلس في مكان فيه خمور.
- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. الخمر ملعونة وملعون فيها عشرة أصناف من الناس.
- لن نشرب يا عبدالله
- لن أجلس هنا أبدا

— طيب أتم طعامك

— لا. سأتقياً كل ما أكلته. أستغفر الله العظيم.

لم أكد أكمل كلماتي إلا وكان سيف غرس الدين قد دخل المكان المحجوز واطمأن علي كل الترتيبات. ابتسم في نفسه ثم أخرج هاتفه وقال بصوت تملؤه السعادة: «مرحي يا أبا سفيان. كل شئ معد كما تريد». خرجت من قاعة الطعام ولدي عزم أكيد علي أن أتقياً كل ما دخل في بطني. الطعام والشراب والجواري؟! أتعيش جاهلية جديدة يا أبا سفيان؟! خرج ورائي حسام. تلصقت لأنظر فوجدت عبدالله البندي بشحمه ولحمه وهو يجر نفسه ويدخل ويلتهم الطعام في شراهة. نادي إحدي الراقصات فأفرغت له كأساً فقبلها علي حين غرة ثم أمسك صدرها بيده متخابثاً ضاحكاً فضحكت وابتسمت قائلة: «في صحتك يا عبدالله بيه».

قلت لحسام وأنا أتعجب:

— أتعرف هذا الخنزير؟

وأشرت إلي سيف غرس الدين في كل احتقار قائلاً:

— لقد تسبب سب الدين هذا في خصم ستة أيام لي من العمل في مصنعي. إنه يتظاهر بالجدية وهو منها براء. كنت أعتقد منذ البداية أنه لا يستحق اسم سيف غرس الدين. أتعرف أنني ناديته بسكين وبسب الدين وقلع الدين. أما هذا الخريت الثاني فاسمه علي اسمي. والله خسارة فيه هذا الاسم. اسمه عبدالله البندي. إنه الرئيس الأعلى للمصنع الذي أعمل فيه.

هممت بالانصراف والغضب يتراقص أمام عيني. تأكلون وتشربون وتستمتعون كما تستمتع الأنعام والنار مثوي لكم. دخلت الحمام مرة أخرى وأفرغت كل ما كان في بطني تماماً. تضيقون علي العمال المساكين وتوسعون علي أنفسكم وعلي شهواتكم. خيبكم الله. تودون أن تمنعوا كل خير عن عمالكم لترتعوا وتنعموا في أحوال الحرام والشبهات. أمسك حسام بيدي وقال:

— هذا حال بلدنا. الفقراء يزدادون جوعاً والأغنياء يزدادون ثراءً

— تصور أن الرجلين ليس لهما سلطة في هذا المصنع؟!!

— أعلم. البلد كلها تعلم أن سارة العسكر بيدها كل شئ.

- كيف عرفت هذا؟
- هذه قصة طويلة ويعرفها كل من بهذا الفندق.
- هل سيأتي ندا عبدالعليم الآن ويشاركهما؟
- لا أعرف صاحب هذا الاسم
- يمكننا أن نعرف من قسم الحجز إن كان سيأتي رجل ثالث أم لا.
- أخرج هاتفه المحمول وأجري اتصالا تأكد من خلاله أن ندا نادرا ما يحضر مثل هذا اللقاءات. خمنت في نفسي أن ندا عبدالعليم رئيس وريدتنا يعمل فقط وكثور في ساقية المصنع لتدرك كل هذه الخيرات علي الرجل وزوجه. تساءلت عن دور سيف غرس الدين في هذا المصنع ولكنني تحيرت ولم أجد جوابا.
- قلت لحسام والغثيان يطل برأسه من داخلي فيبدو واضحا علي تعبيرات وجهي أمامه :
- أنت تعمل في مكان خطير
- هذا أكل عيشي
- والد كريمة يؤمن بأن كل مالك من حرام
- ليس هذا السبب في رفضه الخطوبة. السبب أنه يريد الاستيلاء علي كل مرتب كريمة
- وما رأيك؟
- هذا حقها. لها الحرية في كل ما تفعل براتبها.
- أريد أن أنصحك نصيحة لوجه الله. إنني أحبك وأراك شخصا طيبا
- تفضل يا سيدي
- اترك هذا العمل لوجه الله. لا تلوث أموالك بالحرام
- أنا محاسب وليس لي دعوة بالخمور ولا بمثل هذه الحفلات المجانية
- اسمع نصيحتي.
- وأصير عاطلا؟ لا يوجد عمل الآن بالسهولة التي تتخيلها.
- الحرام لا يفيد
- لقد حكمت علي راتبي بالحرمة؟
- قلت لحسام ونحن نخرج من الفندق ونشم رائحة الهواء النقي الذي لوثته آثار الخمور والراقصات وأنا أشعر أنني خرجت من سجن كاد يكتنم أنفاسي :

— سأدعوك أنا علي طبق كشري في مكان أحبه

— أنا الذي سأدعوك

كنت أشعر بلذة غريبة وأنا أدخل ملعقة الكشري في فمي. أخبرته بأنني أحب الفول والفلافل وأخبرته أنني أكره اللحم. سيقول عليّ إنني أعشق الفقر وأهواه. هكذا قالت لي سارتي أكثر من مرة. الفقر قد ولدت فيه وتربيت فيه. مالي وللاغنياء وطعامهم؟ دعوتها مرة علي طبق كشري فأعجبها طعمه. مرضت ثلاثة أيام بعدها وصارت تخاف أن تأكل ما آكله. قالت لي في حسد: «بسم الله ما شاء الله. لك معدة تطحن الحديد». أبحسدوننا نحن الفقراء علي بعض الصحة التي أفاء الله بها علينا؟ لقد أفاء الله عليهم بنعم المال والحسب والجاه ونحن لا نحسدهم. لم أذكر أنني مرة تمنيت أن تزول الثروات عن الأغنياء. إنني أتعجب لأنهم يضيعونها بسفه. حكمتك يا رب. قمنا وجلسنا علي أحد المقاهي. شربت الشاي بالنعناع وقلت له في تعجب:

— الدنيا غريبة جدا يا حسام

— هذا طبع الحياة

— تخيل أن أم سفيان سافرت إلي أوروبا وزوجها يتركها بمفردها

ويمارس قذاراته هنا

— من أم سفيان هذه؟

— سارة العسكر يا أستاذ حسام

حكيت له فاصلا من الضحك الذي أحدثته بالمصنع عندما كنت لا أعرف أن أم سفيان هي نفسها سارة العسكر. أطلقنا الضحكات بلا حساب.

كان التساؤل الذي يشغلني كيف يشعر أبو سفيان بالغيرة كما أخبرني سيف غرس الدين علي زوجه ويغار من أن يحملق العمال في صورتها ولا يغار من أن يتركها تسافر وحدها. كيف يترك لها كل شئ في يدها ويصير قانعا بأن يكون علي حد قولها حمارها القابع بمكتبه. أيقنت أن هناك أسراراً ستتكشف لي في حينها. قلت لحسام:

— تخيل أن أم سفيان هي التي تقود السيارة البورش لزوجها ولا يجد في ذلك غضاظة؟

- إنه مريض بالشلل الرعاش. لا تعجب
- آه. فهمت لماذا كان يرتعش كثيرا. سبحان الله علي الدنيا
- قل سبحان الله علي أحكام الله وشؤونه في خلقه.
- هممنا بالانصراف ولكنني شعرت ببعض الثقل. قال لي حسام في ود ظاهر:
- يمكننا أن نسهر قليلا لو تحب
- نحن العمال لا يجب أن نسهر. نحن نقوم في الفجر مبكرا لنعمل في مصانع الإقطاعيين وأراضيهم ولننمي أموالهم
- دعك من هذا الفكر الماركسي. الدنيا تغيرت يا عبدالله. لقد سقطت الشيوعية. ألا زلت تؤمن بمثل هذه الأفكار
- لا أستطيع مجادلتك الآن
- قمت بعد أن استندت علي يديه. جلست مرة ثانية عندما رأيته.
- إنها رجاء شوكت. لم تكن تضحك ضحكتها الصفراء هذه المرة. كانت عابسة الجبين مقطبة الوجه. كانت تسير بمفردها وتحمل الكثير من الملابس في حقيبة منتفخة. يبدو عليها الغضب. إنها تسرع الخطي.
- استأذنت حسام وقلت له:
- أنتظرني هنا لحظات
- نظر إليّ وغمز بعينه وقال لي:
- من حقك يا عبدالله يا مصري. إنها فاتنة الجمال
- لا تظن بي الشر
- لقد نظرت إليها ونسيت الدنيا كلها. معك حق. إنها جميلة للغاية
- أنت لا تفهم شيئا. إنها زميلتي في المصنع
- سرت وراء رجاء حتي حاذيتها تماما وقلت لها في جدية:
- هل هناك خدمة يا أستاذة رجاء لأقدمها لك؟
- لا. شكرا
- واصلت خطواتها وأسرعت في المسير. وقعت الحقيبة من يدها كما وقعت بعض الدموع من عينيها الجميلتين. عرضت عليها المساعدة مرة ثانية ولكنها رفضت بشدة واتجهت إلي أحد سيارات الأجرة وقالت والدموع تملأ عينيها:

- مصنع الغاربة لو سمحت.
- أود أن أساعدها ولا أعرف لماذا تبكي. ضعيفة هي المرأة بلاشك.
- لما انطلقت السيارة الأجرة بها تراجعت ورجعت إلي حسام الذي مصمص شفتيه وقال لي:
- طيب أنت يا ذا القلب الحنون.
- أنت لا تعرف شيئاً. لا أتحمل أن تبكي أمامي امرأة
- أصيل يا عبدالله يا مصري. بصراحة هي جميلة.
- يا أخي هي زميلتي في المصنع.
- وهل هذا يمنع؟
- يمنع من ماذا؟
- أن تحبها يا أخي. أن تعجب بها
- لا أعرف عنها أي شئ غير أنها زميلتي في المصنع. يبدو أنك تهذر. لم أتم شهراً في هذا المصنع
- الحب كالبرد يأتي في لحظة
- يبدو أنك تريد أن تسخر مني.
- تركني بعد أن أوصلني لبيتي ثم لوح لي. قفزت دمعات عيني دعاء فجأة أمام عيني. يبدو أنني أخطأت عندما أسميتها صاحبة أطول ضحكة صفراء في التاريخ. لا. سأغير هذا الاسم. لقد بكت ولم تستطع أن تتكلم معي ولم توافق علي أن أساعدها.
- نمت وأغمضت عيوني، ولكن كلمات حسام كانت لا تزال ترن في أذني: «أصيل يا عبدالله يا مصري. بصراحة هي جميلة». تداخلت كلماته هذه في عبارته التي قالها من قبل: «من حقك يا عبدالله يا مصري. إنها فاتنة الجمال».
- تداخلت كلماتي مع كلماته مع أحداث يوم كان ممثلاً بالأحداث. غصت في هذه الدوامة ونمت وأنا أحاول أن أنسي، ولكن صورة وجه رجاء وهي تبكي كانت تتلصص علي تفكيري وتظهر بوضوح في هلوثات ما قبل النوم. لا أدري لماذا كان الغضب يبدو عليها ولماذا تسير بمفردها في الليل، كما لا أدري لماذا ترفض مساعدتي؟ ألم أكن زميلاً لها في نفس مصنع الجزيرة طيلة الأيام الماضية التي سبقت فصلي؟

الحلقة الخامسة والعشرون

امراتان

صبت أمي لي كوب اللبن وقدمته لي بحب وحنان اعتدته منذ زمان. نظرت إليّ ومصمت شفتيها. كنت أنتظر صلاة العشاء وأقرأ الإعلانات عن الوظائف الخالية في جريدتي المفضلة. لقد مللت البطالة. لقد قرأت كل كلمة في الجريدة لدرجة أنني حفظت ما تحتويه كل صفحة من صفحاتها. لم أجد إعلانا واحدا عن وظيفة يناسبني. مسحت أمي علي شعري وربت علي ظهري وقالت:

— ولا يهملك. إن شاء الله ربنا يصلح لك كل أحوالك

— أسبوع وأنا عاطل يا أمي

— الأرزاق بالله يا عبدالله

— والنقود التي أقرضني إياها ماجد بحيري وإياد ناصر؟ كيف سآردها؟

— لقد مرت علينا أيام أصعب من هذه يا عبدالله. ألا تتذكر أيام الفول الدائمة؟ ألا تتذكر أيام الجوع الأولي؟ الحمد لله يا ولدي. حالنا الآن أفضل بكثير.

انحدرت دمة من عينيها. تركت مكاني وهرعت إليها وأمسكت بيديها المعروقتين وقبّلتها في حب ومسحت وجهي بيديها وارتميت في أحضانها باكيا. لماذا تبكين يا أمي؟ ليتني ما قلت لك أي شيء. فلتحترق الدنيا كلها ولا أري دمة واحدة من دمعاتك. قبّلت جبينها الذي خط الزمان عليه خطوطا متعرجة برزت في وجهها فزادتها جمالا في عيني. يا أماه إنني أراك كما كنت أراك وأنا طفل صغير لا يزال يحبو ويحاول المسير في ركابك. أنا أحبك وأفخر بك كأب بذلت قصاري جهدها لتربي أيتامها. أحبك كأب نجحت في تربيتهما جميعا. أحبك لأنك أمي وسبب وجودي. أحبك أُملي ووطني وعمري.

انتحبت ثم قالت:

— أعرف أنني السبب في كل ما تعانيه

— أبدا يا أمي

— تحملت معي كل أعباء الحياة ولم تعش لنفسك أبدا يا عبدالله. عشت لي ولأخوتك

— الحمد لله أنني صرت رجلاً يمكن الاعتماد عليه بفضلك يا أمي. يا أرق وأجمل أم في الدنيا. أنا الذي يجب أن أفخر بك. سأظل مديناً لك طيلة عمري. كان من الممكن أن تلحقيني بأية ورشة عند أي ميكانيكي أو تخرجيني من التعليم ولكنك كنت مصرة علي أن أتم تعليمي. الحمد لله أنك أمي. الحمد لله أن وهبني أما مثلك.

— وماذا فعل لك التعليم يا حسرة؟ ها أنت ذا لا تعمل بمؤهلك؟ أنت تعمل في المصانع مثل من لم يتعلم

— ولا يهتمك يا أمي. التعليم ينمي المدارك. ومن الآن الذي يعمل بمؤهله؟ لقد تغيرت الدنيا يا أمي.

نظرت أمي إليّ بحب غامر. قبلتني مرتين. جعلني كلامها أتساءل عن جدوي التعليم وأهميته. أنا أعمل كأني شخص لم يتعلم. ألسنت في مصر بلد العجائب؟ سبحان الله. المعادلة في كل دول العالم أنك كلما ازدادت تعليماً زاد دخلك. إلا هنا. إلا في مصر. كل المعادلات معكوسة وكل الأمور مقلوبة. لقد كنت الأول وهذه هي النتيجة. عامل في المصانع.

ليس هذا فحسب، بل وطردت أيضاً من هذا العمل. لساني السبب. أنا المخطئ. ما كان ينبغي لي أن أتكلم مع سارة العسكر بهذه الطريقة. قلت لشكرية إنني سأذهب وأرجوها وأنحني لأقبل قدميها لأعود إلي العمل من جديد، ولكنها رفضت بكل شموخ ووعدتني أنها ستجد لي عملاً. مت يا حمار. من ذا الذي يجد عملاً بهذه البساطة في مصر؟ كل شيء يسير إما بواسطة أو برشوة أو محسوبية. أنا لا أمتلك أياً من هذه الثلاثة. يا رب تمر هذه الأيام عليّ بسلام قبل أن أفقد عقلي.

نظرت أمي إليّ وأنا أتجول في أفكاري وتصوراتي. أخبرتني أنها تحبني أكثر من نفسها. أصدقها. كثيراً ما كنت أستيقظ من نومي وأجدها متبلة لله تدعوه أن يحفظني وأن يرزقني. قد تكون شكرية خطيبتني هذه ثمرة من ثمرات دعوات أمي. صحيح أن الله قد يؤخر الرزق وقد ينزل بنا البلاء والاختبارات لينظر كيف نفعل. الحمد لله أن أمي موجودة وعلي قيد الحياة والحمد لله أنها تدعو لي. كنت أسألها إن كانت تدعو لنفسها فكانت تقول لي إنها دائماً ما تدعو لي. كنت أطلب منها ألا تنسى نفسها في دعائها فكانت تجيبني قائلة: «وماذا أريد لنفسني؟ لا أريد شيئاً إلا أن يرضي الله عني»..

ليتنني أستطيع يا أمي أن أحقق كل رغباتك. أعلم أن الحج رغبتك الوحيدة، ولكن ماذا أفعل؟ أنت ترين الحج أملا بعيد المنال. لقد صار الحج للأثرياء فقط. أما نحن الفقراء فماذا نفعل يا الله؟

كنت أصبر أمي وأقول لها أن تجلس علي سجادة الصلاة بعد صلاة الفجر وتذكر الله حتي تطلع الشمس ثم تصلي ركعتين لتنال مثل أجر الحج والعمرة. يا رب لطفا بنا ورحمة بنا. هذا لا يسقط الفريضة يا ولدي. هكذا كانت تقول لي. كنت أرد عليها قائلا الحمد لله أن الله لم يكتب الحج إلا علي المستطيع. اقتربت مني وربتت علي ظهري ثانية وسألتني:

— أتعرف أكبر غلطة عملتها في حياتي؟

— لم تخطئي قط يا أمي

— لا. أخطأت وتزوجت بعد موت أبيك. كان يكفي أن أعيش لك وأربيك أنت فقط. زدت الطين بلة عندما تزوجت وأتيت لك بأخوة فزاد الحمل عليك.

— الحمد لله يا أمي. أخوتي أكبر نعمة من السماء. كان يجب أن تتزوجي وإلا فكيف كنا سنعيش يا أمي؟

— تزوجت مرتين وماتا وخلفا لي كوم لحم. لقد ربيتهم وابتعدوا. لم يفكر أحد في أن يأتي إلينا ويسأل عنا. أنت ولدي حقا. ماذا بعد أن أوقفتهم وساندتهم. لا أحد يرفع سماعة التليفون ويسأل عنك إلا إذا احتاج منك شيئا. ماذا حدث للناس في هذه الأيام. الحمد لله. هذا قدرتي. أنا الأخ الأكبر. أديت واجبي والحمد لله.

دعينا ننظر للمستقبل. كفانا تذكرا للماضي

علي أن أستعد لأن شكرية سوف تأتي خلال ساعة أو أقل. يجب أن تراني في أحسن صورة. فعلا يا أمي تغيرت الدنيا ولا ندري ماذا حدث للناس في هذه الأيام. يبدو أن الدنيا قد انقلبت رأسا علي عقب. لقد خطبتني شكرية بدلا من أن أخطبها أنا. علي أن أقوم وأن أزين لها حتي تراني في أحسن هيئة وإلا فسخت الخطبة وتركتني. سأحلق ذقني وأتهيا للقائها. سبحان الله قد تغيرت الدنيا فعلا.

ألا يمكن أن تكون شكرية هدية الله لي؟ لاشك أنها تحبني. لقد أتمت الخطبة وكأنها اختارتني من بين كل رجال الدنيا لأكون خطيبا لها. صحيح أنني رأيت السعادة في عيني أمي ليلة الخطبة، ولكني

لمحت فيهما المزيد من التساؤلات. لقد تكفلت شكرية بكل شئ. حتي خاتم الخطبة هي التي أحضرته. لا أظن أن الأمر طبيعي. لست عريسا لقطعة ولست شابا ويبدو أن الأمور ستتعدد. هذا الخاطر يداهمني دوما. لن أستطيع أن أرفع عيني في عينيها. لقد قامت هي بدور الرجل وتخلّيت أنا عن دوري. طيب وماذا سنفعل عندما تمر بعض الشهور علينا وخطبتنا قائمة. أنا لست مستعدا ولا أمتلك أي شئ من حطام الدنيا. إن شخصية شكرية تتسم بالجرأة ويجب عليّ أن أكون أكثر جرأة منها. لماذا لا أتجراً وأسألها لماذا أنا وكيف اختارتني. إنها لا تعرف عني الكثير. إنها تزورني كل يوم لتعرف عني ما أريد أن أقوله أنا. إنها لا تعرف عني أي شئ. يجب أن أسألها. لا يجب أن أكون مفعولا به دائما كما لا يجب أن أتركها لتكون هي الفاعلة الفاعل تماما. حتي اللغة العربية سأهدمها. لماذا تكون هي الفاعلة دائما. لن أظل في مركز ضعف ولن أتركها في مركز القوة الدائمة. إنني لم أفكر في الزواج قط. لماذا أتزوج؟ سؤال صعب جدا. لماذا نتزوج؟ لقد تعديت الخمسين. لعل الزواج كان مهما لي عندما كنت في مستقبل العمر وعندما كنت أموج برغبات الشباب. ليس الزواج ضرورة لي الآن. قد يكون الزواج مهما في فترة الشباب. أما الآن فلا أظن أنه سيكون ضرورة لي وخصوصا أنني لا أمتلك مقوماته ولا متطلباته. سيكون الفرق بيني وبين ابني إن قدر لي أن يكون لي ولد أكثر نصف قرن. لن يفهمني ولن أفهمه. قد أموت وأتركه يتيما تعصف به نوايب الدهر وتعضه أسنان الزمان.

المهم أن الفأس قد وقعت في الرأس. لقد صرت بالفعل خطيبا لشكرية. لن أدعها تتحكم فيّ وتقود سفينة أيامي. لن أدعها الفاعلة الرئيسية والقوي الفاعلة الوحيدة. سأطلق قنبلة وسأنتظر وأري كيف ستكون النتيجة. طرأت في ذهني فكرة فقلت لأمي علي الفور: — ما رأيك في أن أتزوج الخميس المقبل؟

ضربت أُمي صدرها بيدها وتساءلت إن كنت أتحدث جادا. طبعاً أتحدث جادا. لن أدع شكرية ترسم لي طريق حياتي. سأكون بهذا قد ضربت عصفوريين بحجر واحد. سأؤكد أولا إن كانت جادة في رغبتها بالارتباط بي وثانيا سأفرض عليها رغبتني في الزواج بها. لقد

حددت هي موعد الخطبة فلأحدد أنا موعد الزواج.
وقفت أُمي ونظرت إليّ وتساءلت :

- كيف وأنت لا تملك شيئاً؟
- لا يا أُمي. هذه الشقة بالإيجار. هل يزعجك أن أتزوج معك فيها؟
- أبداً يا ولدي. يوم المنى ويوم الهنا أن تتزوج فيها معي
- إذا لا توجد مشكلة

- وهل تعتقد أن شكرية ستوافق علي هذا
- ستوافق يا أُمي. يجب أن توافق. أنا الرجل.
- نظرت أُمي لي في حب واحتضنتني بقوة وقالت وهي تبكي :
- نفس طريقة والدك في الكلام. كان رجلاً بحق. الله يرحمه. صحيح أن من خلف لم يمت.

يجب أن أخبر شكرية ويجب أن توافق. أنا لست في مركز قوة يتيح لي أن أفرض شروطي ورغباتي ولكني أنا الرجل. سأخبرها وستوافق إن كانت تحبني.

كنت قد أكملت استعدادي للقاء شكرية. ستأتي كما تأتي كل يوم. سأفاتها في هذا الأمر. سأنظر في المرأة لنفسي. هناك بعض الشعيرات في ذقني لم أحلقها جيداً. تركت أُمي ودخلت الحمام.

طرقات علي الباب. لاشك أنها طرقات شكرية. استمعت جيداً إلي صوت الطرقات. ليست هذه طرقات شكرية. لا أدري لماذا أتت شكرية مبكرة اليوم. هكذا تساءلت في نفسي. طلبت مني أُمي أن أفتح الباب. تريدني أن أكون أول ما تقع عليه نظرات شكرية. حاضرياً أُمي. مسحت وجهي بيدي وخرجت لأجد المفاجأة!!

إنها ليست شكرية!!

إنها نهاد زميلتي في مصنع سارة العسكر!!

ألجمتني المفاجأة تماماً. لقد ذهلت فعلاً. نهاد زميلتي!! يبدو أن هناك كارثة قد حدثت في المصنع. وقفت متخشباً لبرهة. قالت لي نهاد متسائلة في دلال :

- هل ستوقني طويلاً هكذا؟ ألن تطلب مني أن أدخل؟
- نهاد. أذكر أول مرة قرأت اسمها في كشوف الحضور والانصراف.
- سألت ماجد بحيري وقتها قائلاً :

— من الأستاذ نهاد عبدالفتاح يا أستاذ ماجد؟
ضحك كثيرا ولم يجب. لم أخطئ في سؤالي ليضحك هكذا. كان
ورائي صديقي الحميم إياد ناصر فسألته نفس السؤال فقال لي وهو
يضحك:

— اخفض صوتك يا عبدالله. الأستاذة نهاد عبدالفتاح زميلتنا في المصنع.
ولسوء حظي كانت نهاد تقف قريبا مني. أشارت إليّ أحلام
المطيري أن أسكت ولكني لم أسكت وواصلت كلامي قائلاً:

— آسف يا جماعة. لم أخطئ في البخاري. من لا يعرف يجهل. اسم
نهاد يصلح للرجال وللنساء

اقتربت مني نهاد وقالت لي وكأنها تعاتبني:

— أنا نهاد عبدالفتاح يا أستاذ عبدالله يا مصري.

عقدت الدهشة لساني ولم أستطع أن أرد عليها قط. ليتني ما تساءلت.
وكما عقدت الدهشة لساني وقتها ولم أستطع أن أرد عليها عقدت
الدهشة لساني الآن. لم أستطع أن أرد عليها ولم أستطع دعوتها للدخول.
تولت أمني عني القيام بهذا الدور. دخلت نهاد شققتنا لأول وآخر مرة.
أصابتني الحيرة ولم أعد أشعر بالارتياح. سألتها بعد أن ابتلعت
ريقي عدة مرات إن كانت قد حدثت كارثة في المصنع أم لا وسألتها إن
كان أي ضرر قد حاق بالزملاء في المصنع فابتسمت قائلة:

— اطمئن. كل شيء مستقر. الحمد لله

إذا كان كل شيء مستقراً فلماذا هذه الزيارة يا أستاذة نهاد، ولماذا في
هذا التوقيت بالذات؟ إنني أنتظر خطيبتني. ماذا سأقول لها إذا جاءت
ووجدتك هنا؟ اللهم إني لا أريد أية مشكلات. تري ماذا وراءك وما
سر زيارتك هذه؟

ابتسمت نهاد. حقيقة لم أرها جميلة قط علي الرغم من طولها،
ولكنني كنت أراها تداوم النظرات إليّ من حين إليّ آخر ونحن في
العمل. أكثر من مرة نبهتني أحلام المطيري أن نهاد تطيل النظر إليّ.
تجاهلت الأمر ولكني لمحتها أكثر من مرة تنظر إليّ. كانت سمراء
داكنة اللون ولكنها كانت تضع علي وجهها الكثير من المستحضرات
التي تفتح البشرة. ذات مرة اقتربت منها وسألتها إن كنت أشبه أحدا
تعرفه فأجابت بالنفي.

عرفت أنها تخطت الأربعين ولم تتزوج. حكّت لي أنها مرت بأكثر من تجربة خطبة فاشلة. لم تعد تستريح للرجال. لم أرد أن أخبرها وقتها أنها أقرب لعالم الرجال من عالم النساء. حكّت لي أن أحداً قد تقدم لخطبتها، ولكنها تظن أنه يطمع في مالها وفي الشقة التي اشترتها من جراء عملها بمصنع سارة العسكر لمدة أربع سنوات متواصلة. لم تكن تتكلم قط. كانت تنصحنني أيضاً بعدم الكلام في المصنع مطلقاً. نصحتني أكثر من مرة قائلة: «اسكت تسلم. لو كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب. أرجوك ألا تتكلم أبداً في هذا المصنع». سألتني عن رأيي ولا أعرف لماذا، فقلت لها أن تقبل الخطبة. لا أحد يتزوج في هذه الأيام. الرجال يهربون من الزواج ومتطلباته. نصحتها أن تقبل أفضل من أن تظل بدون زواج إلي هذه السن وحتى لا تتهمها نظرات الناس بالعنوسة. قالت في غضب: «لأن أظن بلا زواج طيلة العمر خير لي من أن أتزوج رجلاً يطمع فيّ ولا أحبه». انصرفت غاضبة وأحلام المطيري تنظر إليّ. أتت بجواري وقالت لي في عتاب: «والله إنك لغبي!! لولم تكن غيباً لاتهمتك بأنك تتغابي أو تمثل دور الغبي».

ما أن جلست إلا ورأيت نهاد تنظر إليّ نظرات إعجاب كتلك التي كانت ترمقني بها عندما كنت منكفئاً عليّ ماكينتي في المصنع. تعجبت أُمّي من جرأتها ومن ثبات نظراتها في عيني. لقد صرت أنا الذي أخجل وأنزل عيني خجلاً منها. لا أدري من أين أتت النساء بهذه الجرأة في هذا الزمان؟ جيل غريب. سبحان الله. تنحنحت ثم اعتدلت في جلستي وأنا أحاول أن أداري خجلي من نظراتها المفزوعة. قدمتها لأُمّي عليّ أنها زميلتي في العمل وأنها تساوي ألف رجل. لم أعتد منها مثل هذه الأناقة ولا الاهتمام بمنظرها كأُنثى. لقد نمصت حاجبيها ورققتها إلي درجة كبيرة. صبغت شفتيها بلون أحمر قان دام. البودرة تملأ كل مكان في وجهها. رأيت أيضاً بعض الحبيبات التي تلمع في وجهها فبدت بأفضل شكل يمكن أن تبدو فيه. كان لابد أن أقطع حبال الصمت فسألتها:

— ما أخبار المصنع من بعدي؟

— خراب يا أستاذ عبدالله

- وأخبار الأستاذة رجاء شوكت؟
- بخير، ولكنها لازالت تشكو من زوجها ومن سوء معاملته.
- والله اشتقت إلي المصنع وإلي الماكينات وإلي الجدران
- وكل شئ بالمصنع اشتاق لك
- معقول؟
- آه. المصنع يحبك جدا. الجدران والماكينات تشتاق إليك
- قالت هذه العبارة وهي تحاول أن تبدو هائلة وهي تنظر في عيني.
- المصنع يحبني أنا؟ والجدران أيضا والماكينات؟ غير معقول. يبدو أنها انتبهت لنفسها. قالت في محاولة لأن تبدو جادة:
- المصنع اشتاق إليك جدا. يبدو أن الجدران والماكينات طلبتك
- وسألت عنك
- عني أنا؟
- طبعاً. ومن لها غيرك يا أستاذ عبدالله؟
- توجهت نحو أمي وقالت لها:
- عندي لك خبر سار يا ماما
- كيف تناديها بماما؟ وأي خبر سار يمكن أن يأتي من بوزك يا نهاد؟ اللهم طولك يا روح. نظرت إلي نهاد وكأنها عاشقة وقالت:
- يمكنك أن تأتي لتعمل في المصنع من الغد
- عقدت الدهشة لساني أكثر ولم أستطع أن أرد. لاشك أنها تمزح.
- لم أعهد لها تمزح قط. كانت صامتة ساكتة دوماً. أعمل في المصنع من الغد؟ لم أستطع أن أفعل أي شئ غير أنني حاولت أن أبلغ ربيقي أكثر.
- بانث الفرحة علي وجه أمي. يبدو أن دعوات أمي قد أثمرت.
- أعمل من الغد في المصنع؟ معقول أن تنفرج أزميتي بهذه السهولة.
- تعجبت نهاد من ذهولي وقالت:
- الحمد لله. ربنا قدرني ودخلت للأستاذة سارة العسكر
- بارك الله فيك يا أستاذة نهاد
- اسمي نهاد فقط يا عبدالله
- وماذا قالت لك؟
- قالت لي يمكنك أن ترجع للعمل من الغد
- معقول؟ أنا غير مصدق. أشكر يا أستاذة نهاد. أشكر

— قلت لك اسمي نهاد فقط. نحن زملاء. لاداعي لهذه الرسميات.
أنا أعزك جداً وأقدرك جداً وأحترمك جداً و..

لم أدعها تكمل. بلغت الفرحة بي مداها. نظرت أُمِّي إلي نهاد وشكرتها. لم تنزل نهاد عينيها من علي وجهي. بدا أن تعبيرات وجهها كانت تريد أن تخبرني بشئ لم أستطع قراءته إلي الآن. نسيت قرب حلول موعد شكرية خطيبتي. بادرني نهاد:

— لقد كان المصنع كئيباً بدونك يا عبدالله. كأن الجدران والماكينات كل يوم تريد أن تسألني عنك. لقد أحدثت فراغاً كبيراً
— ربنا يحفظك. أنا مدين لك

— ما بين الخيرين من حساب. نحن زملاء وأتمنى أن نكون أهلاً
لم أهتم بما قالت نهاد. نظرت لأُمِّي فوجدت أن فرحتها بدأ يشوبها الكثير من الحذر. يبدو أن أُمِّي غشيها القلق. لا وقت للقلق يا أُمِّي. سأعود إلي العمل من الغد. لقد تعلمت مما حدث. سأعمل ولن يكون لي دعوة بأي شئ. أهم شئ أن أقبض راتبي آخر كل شهر. لمحت نظرات نهاد لأُمِّي وكأنها تتعجب من وجودها بيننا. كأن عيني نهاد تطلبان من أُمِّي أن تدعنا بمفردنا. أمسكت نهاد بيدي في جراحة غير معهودة أمام أُمِّي وقالت لي وكأنها تمن علي: أنت لا تعرف يا عبدالله كيف تعبت لأعيدك إلي العمل. والله لو

كلفني الأمر حياتي لما أهتمني. المهم أن تعود إلي العمل وتزوج. أنت لا تعرف كم كنت حزينة لخروجك من المصنع بهذه الطريقة. سحبت يدي من يدها بهدوء، ولكنها سرعان ما قبضت علي معصمي بقوة بأصابعها ثم أمسكت بيدي كما كانت. نظرت في عيني فغضضت بصري خجلاً. قالت وهي توضح مقصدها أكثر:

— آه لو تعرف كيف كان المصنع مظلماً بدونك!! المصنع يحبك جداً
يا عبدالله

يبدو أن أُمِّي لم تعد تتحمل أكثر من هذا. قامت لتعد لنا شيئاً نشره في المطبخ. سألت أُمِّي ضيفتنا إن كانت تريد أن تشرب الشاي معنا فقالت نهاد في جراحة غير عادية وكأنها توضح لي ما فهمته بالفعل:

— شربات يا حاجة. يا رب تشربي شربات زواج عبدالله
جلسات أُمِّي وتعجبت. لمحت فرحة نهاد تنطفئ بداخلها لما

رجعت أمي وجلست بجواري. كانت تود أن تنفرد بي علي ما أظن. الحمد لله أن أمي قد جلست بجواري ولم تدعني لها لتفترسني بنظراتها المكشوفة وتعبيرات وجهها المفضوحة والتي بدأت أدركها جيدا وأفهم مغزاها. حاولت أن أكسر حدة الجو الذي نعيش فيه فسألت نهاد بعد أن ابتعدت كثيرا عنها حتي لا تمسك يدي ثانية وتواريت في أمي:

— وكيف حدث هذا؟

— دخلت للأستاذة سارة العسكر ورجوتها أكثر من مرة أن تعيدك

إلي المصنع

— لم أطلب منك أن تفعلي هذا

— أخاف عليك وعلي مستقبلك. أنت غال عندي جدا يا عبدالله

— ماذا قلت لها؟

— قلت لها إن عبدالله ابن حلال وطيب جدا ولطيف جدا وجميل

جدا و...

— وماذا بعد؟

— أخبرتها أنك تقدمت لخطبتي وأنني قبلت ورجوتها أن تعيدك

حتي نستطيع أن نتزوج والحمد لله أنها رضيت بعودتك. والحمد

لله أننا سننزوج يا عبدالله

وقع كلامها علي كالصاعقة تماما. لا صراحة أكثر من هذا. لقد

اتضححت الأمور بالنسبة لي. ياللمصيبة!! طلب آخر للزواج. ماذا

حدث في الدنيا؟. طيلة السنوات المنصرمة من عمري لم أتلق عرض

زواج واحد وفي أسبوع واحد أجد عرضين للزواج؟ هل أنسحب وأخبرها

بأنني أراها مثل أختي؟ لقد وضعتني في مأزق. كانت أمي مثلي تماما

صامتة لا تستطيع أن ترد. أنا أمام عرض زواج ثان. بركاتك يا دعوات

أمي. طيب ماذا أقول لشكرية!!

قمت والخجل يملؤني ودخلت المطبخ لأدع نهاد مع أمي. النساء

خير من يتصرفن في مثل هذه الأحوال.

وما أن قمت إلا وكانت هناك طرقات أخري علي بابنا. أنا أعرف هذه

الطرقات جيدا. إنها طرقات شكرية خطيبتي. دخلت المطبخ لأتواري

تماما. لا أعرف ما الذي يحدث لك في هذه الأيام يا عبدالله يا مصري.

الحلقة السادسة والعشرون

المواجهة

دخلت المطبخ مذعورا كفأر يهرب من مجموعة قطط تتربص به وتنتوي الفتك به ثم تطارده بكل ما لديها من قوة. شعرت أنني أجري إلي المطبخ وكأن طرقات شكرية علي الباب سيات تضرب ظهري وتقع علي أذني أحيانا. ماذا أفعل في مثل هذا الموقف. إنه موقف مواجهة حقيقي لم أعهد مثله قط. دائما ما أتهرب من المواجهة إلا إذا فرضت عليّ، وإذا فرضت عليّ فإنني دائما ما أخسر. ألم يكفني موقف مواجهتي الأخير مع سارة العسكر الذي خسرت فيه عملي؟ الحمد لله أنني رجل ولست امرأة. كان الله في عون النساء. من الممكن أن يتقدم أكثر من رجل لامرأة للزواج بها. ستفكر وتقارن وتختار. ما الذي أستطيع أنا أن أفعله؟ الهروب دوما أسهل طريقة يمكنني القيام بها. لا أشعر أنني أستطيع أن أفكر أو أقارن أو أختار. لقد خطبتني شكرية بالفعل وهما أنا ذا ألبس خاتمها. إنني معجب بشخصيتها تماما. أحب المرأة القوية. طيب وما ذنب نهاد؟ أليس من حقها أن تتقدم لخطبتي؟ إنها قوية أيضا. طيب نهاد أسدت لي معروفا وتجرات وأتت إليّ تعرض الزواج عليّ واستطاعت أن تنتزع من سارة العسكر وعدا لإعادتي للعمل من صباح الغد، وفي الوقت ذاته وعدتني شكرية أن تبحث لي عن عمل. دائرة مفرغة أشعر أنني أدور فيها. نهاد تمتلك شقة يمكن أن نتزوج فيها، وماذا عن شكرية؟ تعب عقلي من التفكير. منذ لحظات كنت أفكر أن أخبر شكرية بأنني أرغب في الزواج بها مع أمي في شقتنا. دوخيني يا ليمونة!! أشعر أن عقلي سيتوقف من كثرة التفكير.

دخلت المطبخ وكأنني أختبئ من موقف أعلم أنه سيكون صعبا. كنت أعتقد أنني سأجد فيه الملاذ والمهرب. الفتيات لا تواجه الموقف هكذا. إنهن أكثر ذكاء في مثل هذه الأحوال. قد تطلب الفتاة ممن يتقدم للزواج بها فرصة للتفكير ثم تقابل الشخص الآخر الذي يتقدم لها وتفاضل بينهما أو لعلها تنتظر ثالثا قد تكون ظروفه أفضل بكثير من هذين الشخصين. ما الذي يمكنني أن أفعله؟ لقد خطبتني بالفعل

شكرية. لا يجوز لامرئ أن يخطب علي خطبة أخيه. كذلك لا يجوز لنهاد أن تتعدي علي شكرية. شكرية خطبتني أولا. نهاد لا تعلم بأمر هذه الخطبة. أعتقد أن نهاد تعلم لأن شكرية صديقة لرجاء شوكت. مصنعنا تنتقل فيه الأخبار بسرعة فائقة. المهم أن أعرف إن كانت أحلام قد أبلغت نهاد أم لا. مهم أيضا أن أتأكد إن كانت نهاد تعلم بأنني قد خطبت بالفعل أم لا. موقف معقد.

هل أخرج وأجلس علي الكرسي كالملك ثم أطلب من كل واحدة منهما أن تعد لي فنجانا من القهوة بعد أن أضع ساقا علي ساق وأنظر أيهما تعمل فنجانا أفضل؟

ما هذه الطريقة التي أفكر بها؟ إنني أنا المطلوب لا الطالب. كنت أشعر أن نظرات نهاد لأمي تطالبها بأن تقوم لتترك لنا المجال لننتحدث ولكن أمي لم تقم إلا قليلا وكأنها تخشي علي من جرأة نهاد. لما بدأت أفهم مقصد نهاد وددت لو قمت أنا وعملت لها فنجانا من القهوة ودخلت به إليها والخجل يملؤني. سأغض بصري خجلا من العروس التي تتقدم لي. سأتساءل في نفسي إن كانت ستعجبها قهوتي أم لا. ما الذي يحدث لك يا عبدالله يا مصري؟ هل تغيرت الحياة في هذه الأيام؟ يبدو أننا نحن الرجال أصبحنا عملة نادرة في مثل هذه الأيام. العنوسة بين الفتيات في ازدياد. أكثر من ستة ملايين فتاة عانس. نسبة المطلقات تتزايد. يجب أن أكون أكثر حرصا في الاختيار. أهكذا صارت المعادلة في عقل وقلب كل رجل؟

لاشك أنني مخطئ. لا. لست مخطئاً. وما المانع في أن أتزوج الاثنين وأحصل علي الثالثة وعلي الرابعة هدية أو مجاناً كما توجع رؤوسنا إعلانات التلفزيون كل يوم؟

عد إلي رشدي يا عبدالله. لاشك أنك تهذي. لعل الجنون قد أصابك أيها المغفل. لا. لست مجنونا. هذا شرع الله. من حقي ان أتزوج اثنتين وثلاث وأربع. اتق الله يا رجل. ماذا أصابك. أستغفر الله العظيم. يبدو أن تفكيري قد شطح بعيدا. أنا شطاح الخيال. أنا عياش في عالم الخيال. عد إلي الواقع يا رجل. لا يمكن أن تفكر بمثل هذه الطريقة يا عبدالله. لم أعهدك مديا بهذه الطريقة. طيب وماذا إن غلبت جانب الحق واخترت شكرية فهي الأولى بي؟ ألا يمكن أن

أخسر عملي بمصنع سارة العسكر؟ ولا يهمني. الله سيخلف عليّ بعمل أفضل منه. إنني أميل إليّ شكرية. هل تكسر قلب نهاد؟ حرام عليك. اللهم اخزك أيها الشيطان.

وقع الفئجان من يدي وانكسر.

أتاني صوت أمي من بعيد فطمأنتها بأن شيئاً لم يحدث غير أن يدي قد ارتبكت وأسقطت الفئجان رغماً عني.

تري ماذا يحدث في الخارج الآن؟ لاشك أن المرأتين تنظران لبعضهما في تعجب وتساؤل وتحفز وتلهف. أعرف أن شكرية عاقلة وذكية وأعلم أن نهاد عاشقة الصمت كما أطلقت عليها أحلام المطيري عاشقة الحرية. توجهت أمي إليّ المطبخ وتركتها سواي. لاشك أن معركة حامية الوطيس قد تدور بينهما وقد لا تستطيع أية قوة في الأرض إطفاء نار الحرب بينهما إذا ما أضمرت. لاشك أن أية معركة بين امرأتين سيضيع في أوارها عشرات الرجال. اللهم سلم. يا رب سلم. أتمني ألا تعرف أحدهما سبب وجود الأخرى هنا في شقتنا. إليّ متي سينعما بالسلام والصمت؟ لا أدري ولكني متأكد أن جدار الصمت سيتحطم ولاشك أن حواجز السكوت سيتم تدميرها في وقت ما.

سمعت وقع أقدام خطوات أمي التي أحفظها تقترب من المطبخ. نظرت إليّ أمي وهي تبتسم لي وكأنها فخورة بي. قالت لي ضاحكة في همس:

— امرأتان في وقت واحد؟ يا مفتري !!

— والله يا أمي أنا في موقف لا أحسد عليّ. أشعر أنني فأر ضعيف أمام قطتين متمرتين

— من ستختار؟

— أنا قد خطبتني شكرية بالفعل. حرام أن أغدر بعهدا

— أنت ولدي حقاً. ربنا يكرمك ويحفظك. هذا عهدي بك دائماً.

كنت أعرف أنك ستكون في جانب الحق.

— الموقف صعب يا أمي. الحق أحق أن يتبع

— تشجع واخرج ولا تخش شيئاً

— أرجوك لا تتركيني بمفرد

— هذه حياتك. اخرج إليهما يا محطم قلوب العذاري. الحمد لله

عشت ورأيت مثل هذا اليوم

— ما رأيك يا أمي؟

— الرأي رأيك. أخرج إليهما وكن عاقلا. سأنتهي من عمل القهوة وأخرج إليكم.

حتي أنت يا أمي. إنها تحفزني للخروج إليهما. كنت أعلم أنني لا محالة خارج إليهما. تشجع وواجه قدرك وكن علي قدر المواجهة. أعلم أنها مواجهة صعبة وقد فرضت عليّ. حاولت أن أظهار بالشجاعة. تنحنحت ثم دخلت الصالة وألقيت عليهما السلام. جلست في مكان بعيد عن نهاد. أخشي أن تمسك يدي كما فعلت من قبل فأؤذي مشاعر شكرية. نظرت إليّ شكرية في ود وكأنها تود أن تسألني عن غريمتها. تود أن تسألني عن هذه المرأة الثانية. لم تدع نهاد الفرصة لي لأتكلم. قالت بصوت مرتفع وكأنها تكلم أمي:

— لا أحب السكر الزيادة يا ماما. لا أريد أن يزيد وزني. أحب أن أكون رشيقة دائما

نظرت إلي نفسيها في عجب وخيلاء ثم نظرت إلي شكرية وكأنها تتباهي بطولها ورشاققتها وتتهم شكرية بالقصر. اقتربت مني شكرية في هدوء وهمست في ذهني متسائلة:

— من هذه المسلة فارعة الطول؟

كدت أن أضحك. مسلة؟ أتسخر منها لطولها؟ خمنت أن نهاد لم تسمع ما قالته لي شكرية. ابتسمت نهاد لشكرية ابتسامة صفراء باهتة وردت شكرية لها تلك الابتسامة الصفراء بأحسن منها أو مثلها وكأنهما في سباق لأحسن ابتسامة صفراء. تذكرت في هذه اللحظة رجاء شوكت صاحبة أطول ابتسامة صفراء في التاريخ. أعتقد أنها لو كانت موجودة الآن لاكتسحت المسابقة.

اقتربت مني شكرية مرة ثانية ولكنها لم تلتصق بي وهمست في ذهني متسائلة:

— أهى قريبة لكم؟

لم أرد عليها أيضا هذه المرة. بدا أن نهاد أوشكت أن تنفجر من الغيظ لسببين: لأنها رأت أن شكرية تقترب مني وتكاد أن تنفرد بي، والثاني أنها لم تستطع أن تسترق السمع إلي ما قالته لي شكرية في المرتين. نظرت نهاد إلي شكرية في بادرة غضب وأوشكت أن تقول

لها في غيظ يشدد غليانا بها بعينيهما: «ابتعدي عن الرجل يا شيخة. مالك تقتربين منه هكذا. ستخنقين أنفاسه هكذا. أعطه فرصة وابتعدي عنه ليتنفس يا شيخة».

ابتعدت قليلا عن شكرية ولكن شكرية تتبععتني واقتربت مني. سألت نهاد قائلا:

- وما أخبار زميلتنا رجاء شوكت؟
- ردت عليّ نهاد بسخرية قائلة:
- صاحبة أطول ضحكة صفراء في التاريخ
- ثم ضحكت طويلا وأردفت قائلة:
- أنت الذي أطلقت عليها هذه الصفة ولقد صارت تعرف بهذا اللقب في المصنع كله

ثم واصلت ضحكها. يبدو أنه لا شيء يختفي في هذا المصنع. كل شيء يعرف. بدا الغضب علي وجه شكرية. ياللمصيبة!! ليتني ما سألت هذا السؤال. إن رجاء صديقتها. حاولت أن أتكلم بسرعة حتي تمر اللحظات الصعبة علي بسهولة فسألتها قائلا في جدية:

- أتمني أن تكون أمورها كلها بخير
- إنها دائما ما تشتكى من زوجها
- تشتكى من زوجها؟ لماذا؟
- كل النساء هكذا يشكين من أزواجهن
- سبحان الله. لو يعلم الرجال ما ستقوله عنهم الزوجات لما تزوج رجل

— إنها دائما ما تغضب وتترك له البيت

أرادت شكرية أن تتكلم، ولكنها سكنت عندما نظرت إليها وكأنني أوجه إليها أمرا ألا تتكلم. فتحت نهاد فمها وقالت موجهة كلامها لشكرية:

- طبعاً ليست كل الزوجات. ألسنت معي يا أستاذة؟
 - اسمي شكرية. الأستاذة شكرية صبري.
 - أهلاً وسهلاً. عاشت الأسماء. شكرية اسم جميل. أنا نهاد
- عبدالفتاح
- أهلاً وسهلاً. تشرفنا

الحمد لله قد تم التعارف بينهما بطريقة آمنة. لقد قامت نهاد واحتضنتها مرحبة بها. اللهم يا رب أسألك أن تمر الدقائق الباقية علي خير. خرجت أمي ويدها فناجين القهوة. جلست أمي في قلق وتلهف لمعرفة ما ستسفر عنه الدقائق التالية.

ساد الصمت لحظات. نظرت شكرية إلي نهاد وقالت لها:

— وماذا تفعل المرأة إن نعص زوجها عليها حياتها يا أستاذة نهاد؟

— كل الأمور بيد المرأة. يمكنها أن تجعل من رجلها خاتماً في أصبعها الصغيرة

— بعض الرجال ملعونون. أنت لا تعرفين الرجال وحيلهم وألاعيبهم للتكدير علي النساء

— الحمد لله أنا لا أعرف الرجال. أنا آنسة ولم أتزوج بعد يا مدام شكرية

— وأنا أيضاً آنسة ولم أتزوج بعد يا آنسة نهاد.

نظرت إليّ شكرية في تعجب وكأنني أستغرب ردها. أنا أعلم كما قالت أمي لي أنها مطلقة لأنها لا تنجب. لا أعرف لماذا كذبت علي نهاد. يبدو أنها رأت نهاد تنظر لي وتكلمني بطريقة توحى أنها تود أن تتقرب مني. يبدو أن المرأتين أدركتا أنهما في منافسة وينتظران أيهما تفوز بي. يبدو أن الأوراق كلها ستكشف علي الرغم من أن الأمور كلها لم تتكشف بعد حتي الآن. نظرت نهاد إليّ شكرية في تحد وقالت:

— علي كل رجاء شوكت كل يوم تشتكي من زوجها وتبكي وتغضب. قصتها تلوكها كل الألسن. لقد فضحت نفسها وزوجها

— قد تكون علي صواب فيما تفعل

— لا. أري أن المرأة يجب أن تكون سر زوجها. المرأة سكن الزوج. الزواج مودة ورحمة. أنا يا أستاذة شكرية سأسعد زوجي. سأوفر له كل أسباب الراحة والسعادة

ثم نظرت إليّ في حب ووله وتنهدت في عمق وكأنها تطمئنني إلي أنني بعد الزواج منها سأعيش في هناء وسعادة. بدا أن شكرية اغتاظت ونظرت إليّ. أمسكت بخدي وأدارته إلي وجهها حتي لا أنظر إلي نهاد. كأن لستها قد أيقظتني فانتفضت واقفا وقدمت القهوة إلي

نهاد. نظرت إليّ بغضب وكأن عينيها تسألان: «لماذا أمسكتك من خدك وأدارت وجهك عني؟ تري من هذه المرأة يا عبدالله يا مصري؟» ذاقت نهاد القهوة وقالت لأمي:

— تسلم يداك يا ماما. كنت أفضل أن أشرب الشربات
بدا أن شكرية ستغضب غضبا لا يمكنني أن أوقفه. نظرت إلي نهاد
وتساءلت في دهشة:

— الشربات؟ لماذا؟

— إن شاء الله سيرجع عبدالله حبيبي إلي عمله في مصنع سارة
العسكر من الغد
— حبيبك؟

نظرت إليّ شكرية في غضب بالغ. وقع الفئجان من يدها. هدأت
أمي من روعها وقالت إن سكب القهوة خير. عاتبتني شكرية بنظراتها
وكأنها لم تعد تحتمل أكثر من هذا. لقد أخطأت نهاد عندما قالت
عبدالله حبيبي. لقد استنكرت شكرية هذه الكلمة. هدأت شكرية قليلا.
بدأت نهاد الحديث من جديد لتوصل ما كان قد انقطع فقالت:

— عبدالله المصري سينير المصنع من الغد. لقد اخذت وعدا من
الأستاذة سارة العسكر بإعادته للمصنع
لم تطق شكرية صبرا فوقفت قائلة لنهاد وكأنها توجه لها اتهاما
صريحا:

— وما المقابل يا أستاذة نهاد؟

— بدون مقابل. الناس لبعضها يا أستاذة شكرية. هل كل شئ يجب
ان يتم بمقابل؟

— كيف أقنعت صاحبة المصنع بعودة عبدالله المصري

— اسمه الأستاذ عبدالله المصري يا أستاذة شكرية

— آسفة. كيف أقنعتها يا أستاذة نهاد؟

— أقنعتها بحجة أنه قد خطبني ووافقت. رجوتها بأن تعيده إلي
العمل من أجل أن نبدأ حياتنا

— ووافقت بهذه السهولة؟

— وافقت. يبدو أن طلبتي وافق الهوي في نفسها

— أعلم أنها لا تعيد أحدا قط قد طردته من العمل

— مضبوط. يبدو أنها أشفقت علينا بعد أن أبلغتها بخطبتنا نظرت إليّ شكرية في غضب شديد لم تستطع أن توقفه. ربت علي كتفها. اغتاضت نهاد واقتربت مني وعاتبته بنظراتها لأنني لمست شكرية. أمسكت يدي بشدة وسألته وهي تنظر إلي شكرية: — بأي حق تربت علي كتفها؟

شدت شكرية يدي من نهاد بعنف وقالت لي في غضب وهي تنظر إلي نهاد: — وبأي حق تمسك نهاد يدك؟

حاولت أن أبتعد عن المرأتين الغاضبتين بهدوء، ولكنني لم أستطع. أمسكت كل امرأة بيد فشعرت أنني مقيد من الجانبين. صرخت وانتزعت نفسي منهما بشدة. جلست ووضعت وجهي بين كفي. ظل السكون مسيطراً لمدة لحظات. نظرت إلي المرأتين. وجدت نهاد تنظر إليّ وترجوني أن أتكلم. كل نظراتها تتوسل إليّ أن أخبر شكرية أنني سأخطبها. إنني من حقها. ستعيدني مرة ثانية إلي العمل. ماذا ستقول لسارة العسكر؟

نظرت إلي شكرية فوجدت مثل هذه النظرات المتوسلة. لأول مرة أري الدموع تنبثق من عيني شكرية فتنزل كدرات من اللؤلؤ وتسيل علي وجنتيها. إن نظراتها تتوسل لي وترجوني أن أوقف نهاد عند حدها. ألسن خطيبها؟ نظراتها الآن صارت تأمرني أن أعلن أنها خطيبتي. لن أخذلك يا شكرية. إنني أميل لك وأراك علي الحق. تذكرت نظراتي لسارتي الحبيبة عندما بكيت في حضرتها لأخبرها أنني أحبها. لن أتركك تبكين يا شكرية. أنا ملك لك وهذا خاتمك في أصبعي يشهد بأنك خطيبتي.

مرت اللحظات صعبة علينا جميعاً. وقفت نهاد غاضبة وقالت موجهة كلامها لي في غضب وكأنها تهددني:

— أخبر الأستاذة شكرية أنك ستكون خطيبي وإلا خرجت الآن فوراً ولن أدخل هذا البيت مرة ثانية

يجب أن أتكلم. لن أصمت أكثر من هذا. وقفت شكرية وحملت حقيبتها ونظرت إليّ في غضب ولا زالت الدموع تبلل خديها. قلت بصوت مرتفع:

— أنا آسف لكما. هذه غلطتي منذ البداية. أنا لم أعرفكما ببعضكما. هذه نهاد عبدالفتاح زميلتي في العمل فقط وقد تطوعت لإعادتي إلي العمل بهذه الحيلة التي لا يد لي فيها. نهاد زميلة فاضلة وأخت عزيزة لي ولا يمكن أن تكون أكثر من هذا. وهذه شكرية صبري خطيبتني وستكون زوجتي قريباً إن شاء الله. هذا خاتم خطوبتنا في يدي. لقد تمت خطبتنا بالفعل وكان من الواجب أن أعلن الخطبة. إن شاء الله سنعلن الزواج قريباً.

هدأت شكرية. استراح قلبها. توقفت عن البكاء. مسحت آثار دموعها من علي وجنتيها. أمسكت بيدي بكل حب ورمقتني عيناها بنظرات حب وحنان غمرت نفسي وشملت فؤادي. شعرت بنظرات العرفان بالفضل والجميل لي. إن هذه أول مرة أري دموعها. لكم كنت أراها قوية الشكيمة متينة الشخصية. إنها تبكي لي لأعلن أنها خطيبتني!! بان الغضب علي نهاد التي أحست أنها قد خسرت المعركة تماماً. بدأت تسحب نفسها وتخرج من موقعة أيقنت تماماً بخسارتها الفادحة. نظرت إلي وكأنها تقول لي: «إنك بفعلتك هذه ستخسرني إلي الأبد».

شعرت أن نظرات نهاد لي كسكاكين تضرب في صدري. خرجت وأقفلت الباب وراءها وكأنها توصل أية محاولة للرجوع ثانية. خرجت وشدت الباب بعنف لدرجة أنني أحسست أن البيت كله يهتز من القوة التي سحبت بها الباب من خلفها لتغلقه.

عاد الهدوء إلي بيتنا مرة ثانية بعد خروج نهاد. لن تعود إليه مرة ثانية إلي الأبد. نظرت إلي عيني شكرية الجميلتين. هل أعترف بأنني أحبها؟ لا. لم أحب سوي سارتي ولن أحب سواها ما حييت. سأكون عادلاً معك يا شكرية ولكني لا أستطيع أن أعدك أنني سأحبك. سأكون زوجاً مثالياً لك.

طالت النظرات بيننا. رأيت السعادة في عينيها لأنها تغلبت علي امرأة أخرى كادت أن تخطفني منها. شعرت بلذة الانتصار في عينيها. لا أدري لماذا شعرت وقتها أنها تريد أن تقبلني. تريد أن ترد إليّ جزاء ما فعلته. لا أطلب منها جزاء ولا شكوراً. لقد فعلت ما كان يجب عليّ فعله. صحيح أنني تاخرت فيه. لكنني

فعلت ما يمليه علي واجبي وضميري. تري يا شكرية هل ستفعلين معي مثلما فعلت أم ستتكرين لي يوما ما؟ لكم أخشاك يا شكرية!! أليست هذه هي طبيعة الرجل الشرقي؟ يتمني المرأة القوية الجريئة ولكنه في نفس الوقت يرهبها ويخاف منها!! لكم أتمني أنا أيضا أن أري لذة الانتصار تنير في عيني وتملا وجهي سعادة. متي يكون هذا؟ عساه أن يكون قريبا.

طالت جلستنا في هذه الليلة الشتوية الباردة التي امتلأت بحدث ساخن في قمة الحرارة. حدث يؤرخ له في تاريخ علاقتي بشكرية. أسميت هذا الحدث بموقعة المواجهة. لم أكن أعلم أنني سأمر بمواجهة أشد مع سارة العسكر عندما تلتقيني غدا في مكتبها الفخم بمصنعها. لم أكن أعلم أنني سأحفز بعض الزملاء علي المواجهة أيضا. أحاطتني أُمي بجو من المحبة الدافئة والمودة الرائعة بعذب حديثها وحلو كلامها وعبق سحرها وجميل صوتها. ملأت ليلتنا بحكايات رائعة عني عندما كنت صغيرا وكنت الأول دائما في الدراسة. كانت شكرية تغمروني بنظرات حبهها وتملؤني بحرارة مشاعرها الصادقة. حكّت لي عن كفاحي معها في أيام العمر الأولي. كنت أتذكر بحسرة وبمرارة أحيانا، إلا أن نظرات شكرية لي كانت تنسيني أية مرارة أحسست بها من قبل. ما أجمل أن تنظر إلي امرأة تحبك وتخصك بنظرات شكر وتقدير وعرفان بالجميل ممتزجة بنظرات حب صادقة! طلبت مني أُمي أن أوصل شكرية إلي بيتها فلقد تأخر الوقت. اكتشفنا أن الوقت قد سرقنا عندما رن هاتف شكرية المحمول. إنه والدها يطلب أن يكلمني ويسلم عليّ. لم تكن الساعة قد بلغت التاسعة بعد. ما أجمل ليل الشتاء وما أطوله!!

ما أن خرجنا من باب الشقة وأغلقت أُمي الباب خلفنا إلا ووجدت شكرية تحتضنني بكل حنان وتربت علي ظهري بكل حب. كدت أغوص في حنانها. أول مرة تحتضنني أنثي بكل هذا الحنان. شعرت وكأنني في أحضان أُمي. لم أشعر بأية رغبة حسية في شكرية. أحسست بكل أمان في أحضانها. ماذا حدث لك يا عبدالله يا مصري؟ ألم تعد تخاف من المرأة؟ لا. لازلت أخشاها، ولكنني الآن أشعر بالحنان في أحضانها. أين شعاراتك بأن أحضان الحية أكثر حنانا بك من أحضان

المراة؟ لا تشغل بالك الآن وتمتع بحنان أحضان شكرية خطيبتك. سمعت صوت أقدام تصعد درج السلم. انتزعت نفسي من بين أحضان شكرية بسرعة بالغة. نزلت الدرج فتبعته. كأن نظراتها تقول لي: «وماذا لو رأنا أحد؟ لا يهمني. ألسنت خطيبتك يا عبدالله؟ أنا أحبك وسأظل أحبك طيلة العمر».

لا أكاد أصدق نظراتك يا شكرية. إنني أخشي المراة وأخافها وأتمني أن تخلصيني من هذه الكراهية، ولكني لا أظن هذا.

أوصلتها إلي بيتها. أنتظرت إلي أن تطلع إلي والدها. نظرت إلي ولوحت لي بحب ثم دخلت وكأنها لا تود أن تدخل أبدا. قالت لي إنها كانت تتمني أن أظل واقفا أسفل شرفتها لتظل واقفة تنظر لوجهي إلي الأبد. لا أدري لماذا تبالغن في بداية أية علاقة يا معشر النساء؟ قادتني أقدامي لصوت أغنية أحبها ينبعث بمصاحبة موسيقا رائعة إلي المقهي. شعرت أنني لن أستطيع أن أنام من السعادة. لازلت أفكر في شكرية وفي حلاوة حضنها. ياغبائي!! نسيت أن أخبرها بقراري بأن أتزوجها في شقة أمي. سرقت السعادة مني كل أفكاري. كان صوت أم كلثوم يتسرب إلي أذني من راديو القهوة. كأن صوتها شد خطواتي. تشدو الست وتقول ما أود أن أقوله فأريت نفسي أغني وصورة شكرية في أحضاني تملأ عيني: «يا حبيبي الحب حياتنا وقوتنا وبيتنا.. للناس دينتها واحنا لينا دينتنا». وان قالوا علي العشاق بيدوبوا في نار أشواقه.. أهى نارو دي جنتنا. نارو دي جنتنا». ما أن جلست علي المقهي إلا وكان أنور حسان قد طلب لي كوبا من الحليب علي حسابه. قمت من مكاني وجلست بجواره وشكرته. كان يلعب الطاولة مع شخص أظن أنني رأيته من قبل. لا أتذكر أين رأيته ولكني متأكد أنني رأيته من قبل. يرمي أنور حسان بالنرد في الطاولة بكل احتراف. صاح بفرحة غامرة وقال:

— دش يا محمد يا بسيوني. خسرت العشرة الثانية

أغلق محمد بسيوني غريمه الطاولة بكل حسرة ثم انحنى عليها وكأنه سينام عليها. خلع نظارته ومسح وجهه ثم لبس نظارته ثانية. يبدو أن شبح الخسارة يلوح بوجهه دائما. قال في غضب متبسما لغريمه:

- حظك في السما يا أنور يا حسان. الزهر أيضا يعاندني. لامؤاخذة
النرد في هذه المقهي ليس محايدا
- المرة القادمة تشتري أنت النرد الجديد وسيأتيك نردك بحظ
جديد وسأغلبك أيضا
- رددت مع الست وأنا أرتشف آخر قطرات الحليب: «أهي نارو
دي جنتنا». استمتع محمد بسيوني لكلامي فقال لي ساخرا: «لا يا
حبيبي. نارو دي يعني ضيق باللغة الإنجليزية وعكسها وايد وتعني
واسع يا أستاذ. ..»
- أخبره أنور حسان بأن اسمي عبدالله المصري. ضحكنا جميعا
وضحك كل من كان حولنا في المقهي علي قفشة محمد بسيوني الذي
صار من أقرب الأصدقاء إلي قلبي. لم أكن أعرف معني كلمة قفشة.
سألت أنور حسان فأخبرني أنها أقرب ما تكون إلي النكتة أو محاولة
اصطياد الضحكة من الكلمات.
- عندما تذكرت أن أنور حسان كان يدعو علي سارة العسكر فقط
واجهته بقولي:
- أألزلت تدعو علي سارة العسكر بأن ينتقم الله منها؟
كأنني أحفزه علي المواجهة كما واجهت أنا موقفي الصعب الليلة.
أمسك محمد بسيوني بيدي وقال لي في عزم وتأکید:
- من الغد لن يدعو عليها فقط. لقد قررنا أن نواجهها. سنرفع
عليها قضية.
- هو سيرفع عليها قضية لأنها طردته من المصنع. طيب وحضرتك
يا أستاذ محمد بسيوني لماذا سترفع عليها قضية؟
- ابتسم لي أنور حسان وقال لي وهو يبتسم:
- الأخ محمد بسيوني من ضحايا سارة العسكر أيضا
- لقد تذكرت الآن محمد بسيوني. تذكرت أين رأيته. لقد كان زميلا
لي في مصنع سارة العسكر، ولكنه كان يعمل كرئيس وردية في عنبر
آخر في مصنعها الممتلئ بالعنابر التي لا يكاد العمال يعرف بعضهم
بعضا فيها من شدة انهماكهم بالعمل من ناحية، ولانكفائهم علي
وجوههم أمام الماكينات طيلة الوقت من ناحية أخرى.

الحلقة السابعة والعشرون

المواجهة الكبرى

صباح يوم جديد يملؤه الحب والتفاؤل. صباح يوم رائع تغلفه مشاعر الحنين لذكري أحداث الأمس. صباح يوم جميل مفعم بالحياة التي أحسها في زقزقة العصافير التي تعشش في شجرة تتمايل أغصانها أمام بيتنا. صباح يوم تحلق فيه السعادة التي أراها في عيون ورودي المتفتحة. صباح تقبله زهراتي الحلوة التي أرويهها بيدي فأجدها تهتز سعادة وتتراقص فرحة بأنوار الصباح المنبثقة. أري ابتسام الورود والزهرات عندما تتلقي قطرات مائي التي أصبها عليها مختلطة بقطرات الندى.

صباح يوم تملؤه السعادة عندما أري آمال التلاميذ بادية علي وجوههم وهم يذهبون إلي مدارسهم يسوقونها أمامهم في نظرات تتحدى برودة الجو في غبشة الصبح وضوئه الخافت. صباح يوم تملؤه نظرات الفتيات الصغيرات الذهابيات إلي مدارسهن وهن يحتضن حقائبهن وكتبهن احتضان الآمال واحتضان المستقبل.

أن تشعر أنك مطلوب ومحبوب ويسعي إليك لاشك أمر رائع ، ولكن أن تجد من يحبك فعلا ويتمسك بك أمر أروع ، والأكثر روعة أن تقتتل من أجلك امرأتان وأنت تنظر إليهما وتنتظر ثم تتدخل في الوقت الحاسم لتعلن اختيارك. لايزال عقلي يتذكر نسمات حب الأمس وعبق أحضان شكرية التي استيقظت علي هدي أحلامها ونور روعتها. لاتزال تحيا بداخلي نزعات الإحساس أنني لازلت مرغوبا فيه برغم سنوات عمري الفائتة والتي تعدت الخمسين. هكذا رأيت هذا الصباح علي الرغم من حلم خلته كابوسا سبق صباحي هذا بساعات. صباح رائع جديد. هكذا اعتدت أن أحمد الله علي أن من عليّ بالحياة في صباح هذا اليوم في حين أنه سبحانه وتعالى قد حرم الكثيرين منه. أصبحنا وأصبح الملك لله. اللهم إني أسألك خير هذا اليوم وخير ما فيه وخير ما بعده.

اللهم إني أسألك خير هذا اليوم نوره ونصره وفتحته وبركته وهده. استمتعت بنور الصبح الذي يولد من رحم ظلمات الليل شيئا

فشيئا. يبرزغ النور رويدا رويدا فيقهر أجنحة الظلام ويكسرهما ومن ثم فلا يستطيع المساء أن يرفرف من جديد.

حاولت أن أتجاهل حلم الأمس عندما تداخلت بذهني العديد من الأحلام. رأيت سنوات عمري ك لحظات مرت كالسحاب من أمامي وأنا واقف أرقبها من علي شط بحر هائج تتلاطم أمواجه وتحملني ظلماته. مرت أطياف سارتي الحبيبة بذهني. كانت تبتسم إليّ في صفاء فألمح أنوار ابتسامتها تبرق فتنير الليل. رأيت سارتي تبكي وتحاول التشبث بأحزاني، ولكنها لا تستطيع. كانت تسقط بالفعل وتصرخ ولا أستطيع أن أساعدها. رأيتها تغوص في ظلمات الأمواج وتتواري ثم ترفع يدها فتسقط شيئا فشيئا حتي تختفي ولا أستطيع أن ألمح إلا يدها وهي تسقط ودموعي تتبعها. لمحتها تتواري في أطياف حنان عزت زميلة الكلية والتي كان لي معها صولات وجولات. رأيتني أحادث حنان في فيلا والدها وأتخاشي النظر إليها وهي تخرج من حمام السباحة بملبسها المثير ورغباتها الجامحة. اقتربت مني وابتعدت. قالت كثيرا وتجاهلت. أقبلت إليّ وعن حبها قد أدبرت. بكّت في أحزاني طويلا وما ضعفت. وأبدا عن موقفني منها ما تراجعته. رأيت شكرية تبعد حنان عني وتدينني منها. رأيتها تنظر إليّ بحب وعرفان. ما أن تأكدت من ذهاب حنان إلا وقطبت جبينها. نظرت إليّ في غضب وكأنها لا تثق في. احتضنتني بعنف ثم انتوت الذهاب فتألت. رجوتها أن تبقي في جواري ولكنها أصرت علي أن تتركني. اختفت نظرات الحب من عينيها تماما. لما جريت وراءها جمحت في سيرها وتباعدت خطواتها فما استطعت أن أجاريها. كنت أري الأموال التي تسقط أمامي فلا أهتم بها. لم أنحن لألتقط أي جنيه. كان همي أن ألحق بشكرية ولكن هيهات. نظرت إليها وصرخت ومددت لها يدي فنظرت خلفها في استكبار وتركت يدي ولم تأخذ بها. وقعت في ضوء القمر. رأيت النجوم ترقبني وتبكي علي حالي. رأيت شكرية جميلة شابة فهممت بالوقوف من جديد وأخذت ألاحقها إلي أن ابتعدت. كانت نهاد تطل عليّ وكأنما من وراء نافذة. دققت النظر أكثر فوجدتها قد تحركت واختفت خلف شجرة عارية. كانت تطل برأسها من أن لآخر. نظرت للقمر فوق الشجرة فوجدتها. سارة

العسكر تقف في جلال أعلي الشجرة وتنظر إليّ. لا أدري كيف علت الشجرة. رأيت سارة العسكر تشير إليّ وتغمز بعينيها. أشارت إليها وكأنها تريدني أن أذهب إليها. فجأة نظرت أمامي فوجدتها تحيطني بجلالها. تلعثت وتحيرت. كيف نزلت من شجرتها العالية وسارت تجاهي؟ وجدتني وسارة العسكر نسير في مكان تملؤه الرمال وتلال الحصى. كأن المكان صحراء خاوية. أخذت بيدي فإذا بنا أمام واحة خضراء يانعة ومياة نابعة. سبقتني أيضا. منعنتني من الماء وشربت. وضعت يدها علي عيني فما استطعت أن أري. لا أدري لماذا كانت تبكي وتحادثني بصوت عال ولكني لا أسمعه. كانت تشير إلي الورا دوما. اختفت شكرية ونهاد وحنان وصرت وحدي معها. ربت علي ظهري، ولكني لم ألح خنجرا بيدها الأخرى. أحسست فقط بنصله في ظهري. لا أدري من طعنني. أهي أم أن شخصا آخر قد أصابني به. أهو غرس الدين أم رئيس ورديتي أم أنه همام الحفناوي؟ لا أدري. لمحت يد نهاد السمراء وهي تضحك وكأنها تشمت فيّ. أمسكت بيد همام وذهبا. شهقت من إحساسي بالطعنة الغادرة. شعرت بآلام رهيبة تحيق بي. رأيت الثعابين تجري من خلفي. تفتح أفواهها. أري أنياب الثعابين. أجري وألهث وأخشي أن تلدغني. انتشلتني سارة من بين هذه الثعابين. لا أدري أي سارة هي التي أنتشلتني. أتراها سارتي الحبيبة أم أنها سارة العسكر. ذهبنا إلي مكان أكثر أمنا. بدأت ملامح الأنثى التي معي تتضح. إنها سارة العسكر. أخذتني بحضنها وبكت. لم أمت. كأن دمعاتها أحييتني. أخذت بيدي من جديد ثم لوحت بيدها. أتانا الضابط شديد. أخذنا بسيارة عسكرية. كانا يبتسمان. لم أستطع أن أستمع إلي كلماتهما. رماني الضابط من السيارة وهو يبتسم. تدرجت علي الرمال وأنا سعيد لأنني لم أمت. لمسات أمني ضمدت كل جراحي. لم أجد أثرا للطعنة. تحسست ظهري فلم أجد أثرا للدماء. أخذتني أمني في أحضانها فنمت ولكني كنت أبكي وكانت تربت علي ظهري. نمت في حجرها.

أفقت علي صوت آذان الفجر.

آية أضغاث أحلام هذه. الحمد لله أنني كنت في حلم. الصلاة خير من النوم.

صباح سعيد. أنا لا أثق في الأحلام ولا أؤمن بمن يفسرونها. نسيت أكثر من نصف الحلم. المفترض أن أكون سعيدا. سأذهب إلي عملي من جديد. شكرية تحبني فالمفترض أيضا أن تزيد سعادتي. لقد نظرت لي بحب وتمنت أن أقف تحت شباكها لتنظر إليّ طيلة الليل. هكذا قالت لي. لاشك أنها أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين. الحمد لله أنه لازالت لدي القدرة لأحلم. قد يكون الغيب حلوا إنما الحاضر أحلي.

لاشك أنه صباح جميل. لن أنام بعد الصلاة. أخشي أن تنتابني الأحلام السيئة من جديد. اتصلت بشكرية. ردت عليّ من أول محاولة. أخبرتني أنها صلت وأنها تستعد لبدء يومها الجديد في مصنعها الذي يبدأ من السابعة والنصف. أنها تحسدنا لأننا نبدأ العمل في التاسعة. قلت لها: البركة في البكور. قلت لها أتمني أن أعمل معها في مصنع الغاربه هربا من مصنع سارة. أخبرتني أنه لا يوجد مكان إلا وتكتنفه المشكلات. المهم أن تكون سعيدا في مكانك راضيا به. اعتذرت لي وتركتني وأغلقت الهاتف بعد أن أكدت لي أنها لاتزال تواصل البحث لي عن مكان أفضل لأعمل فيه. لم أخبرها ولن أخبر أحدا عن حلمي هذا أو كابوسي هذا. لن أخبر أُمي أيضا.

لم أكن أعلم أن هذا اليوم - الذي يتنفس صباحه ويستنشق عطرا جديدا للحياة فأسمع صدي لأنفاسه في قلبي - سيشمل مواجهة كبري ليست كمواجهة الأمس. أنفاس الصباح تنشر فيّ روحا جديدة أحلق في آفاقها. أجدني أطيّر في جنات الحب ونسمات الأمل. أُمي تعد لي الفطور كالعادة بالمطبخ وأنا أطلع الجريدة بعد أن أنهيت من قراءة وردي من القرآن الكريم. تضع فيه بركتها. تصب فيه من خيرها وحبها. صحت لأنبهها وصوتي يختلط بصوت الراديو:

- لا للبصل في الإفطار من اليوم يا أُمي.
- أنت تعشق البصل في الصباح وتقول إنه إفطار الملوك
- كان هذا من قبل. فعلا إنه إفطار الملوك ولكن قد يتسبب البصل لي في خصم ثلاثة أيام
- كما تحب. حلمت لك حلما حلوا بالأمس
- أكيد حلمت أنني ألبس الأبيض في الأبيض و .

- لا. حلمت أنك تؤذن يا عبدالله
- الله أكبر. معقول؟!!
- يبدو أنك لا تصدقني
- لا والله يا أمي. أصدقك.
- والله هذا الذي رأيته في الحلم
- أضغاث أحلام يا أمي
- خرجت أمي بطبق الفول والأرغفة الساخنة الشهية. أكلت طعامي
بلذة لم تتغير منذ سنوات. ما أشهى الإفطار بعد الصلاة وذكر الله.
أكلت وحمدت الله. قالت أمي لي متسائلة:
- ألسنت سعيدا بهذا الحلم؟
- يا أمي. أضغاث أحلام ولا أؤمن بالأحلام. وما نيل المطالب
بالتمني ولكن تؤخذ الدنيا غلابا
- يا عبدالله لو صدق هذا الحلم فستحج
- من قال لك هذا؟
- سمعت هذا في التلفزيون
- ومنذ متي والتلفزيون يصدقنا؟ التلفزيون كاذب. إعلامنا كاذب يا
أمي
- والله معك حق يا ولدي.
- أتذكر يا أمي أنني قرأت أن الراديو كان يذيع البلاغات عن
انتصارنا وعن أننا أسقطنا طائرات العدو. كانت النسوة تزغرد
وكنّا في فرحة حقيقية. آه. خدعنا أحمد سعيد وخدعنا عبدالناصر
وكلمنا الإعلام عن الصاروخ الظافر والقاهر الذي سنهزم به اليهود.
- وأفقنا علي مرارة الهزيمة يا عبدالله
- أتذكر أننا كنا صغارا يا أمي. أتذكر أنني كنت أسمع طنين
الطائرات وأزيزها وكأنها فوق رأسي.
- أيام لا أرجعها الله يا عبدالله
- وأتذكر أيام كامب ديفيد يا أمي وكيف كان التلفزيون يطبل ويزمر
للسلام المزعوم يا أمي وكأن كل مشكلاتنا ستنتهي بعد معاهدة
السلام مع اليهود. لطالما قرأت يا أمي وعرفت أنها كانت أكبر
كارثة لنا. لقد كانت نكسة لنا يا أمي

- لكن السادات انتصر يا عبدالله
- لا أحب السادات يا أمي
- أعرف. لقد فصلك من الجامعة وضيّع مستقبلك.
- تركت الطعام. لقد فصلني من الجامعة. لا أدري لماذا الكلام في السياسة في الصباح. اقتربت مني أمي. ربتت علي كتفي. قلت لها حتي لا أجعلها تقلق علي:
- منذ متي يا أمي والإعلام يصدقنا؟
- معك حق يا ولدي
- قبل الخامس والعشرين من يناير كان الرئيس مبارك الرجل العظيم الذي بني استقرار مصر وحافظ عليها بحكمته وبني نهضتها الحديثة وبعد الثورة خسفوا به الأرض
- أعلم أنك تحب الرئيس مبارك
- وسأظل أحبه. حكمنا ثلاثين عاما. أعرف أن التلفزيون مسح عقلك يا أمي. أعلم أنك تكرهين الرئيس مبارك
- أفسد البلاد وأفقر العباد
- لماذا لم يقل الإعلام هذا أيام حكمه؟ لا تصدقي الإعلام يا ماما.
- أنا لا أتكلم في السياسة
- أنا أحب الرئيس مبارك.
- كانت الساعة تقترب من التاسعة إلا الربع. يجب أن أنزل حالا. قبّلت يد أمي. احتضنتها وقبّلت جبينها ثم قمت تجاه الباب. قامت ورائي وربتت بحنان علي ظهري. دعت لي بالرزق الحلال والبركة كما كانت تفعل منذ أن وعيت علي الدنيا. معقول يا أمي. سأتزوج. هل ستفعل شكرية هذا؟ هل ستوجد امرأة في الحياة يمكن أن تفعل بي ما تفعلين. تكفيني دعواتك وابتساماتك. اللهم لا تحرمني من أمي وعطفها وحبها وحنانها.
- رجعت ثانية وقبّلت يد أمي. أعيش بدعواتك يا أمي. ظننت أنني نسيت شيئا. لكنني أردت أن أعود لأقبّل يديها. لاشك أنني أعود لعملتي بفضل دعواتها.
- وصلت المصنع قبل مواعيدي بخمس دقائق.
- أفزعني ما رأيت.

بعض العمال يحطمون صورة الرئيس مبارك الضخمة المصنوعة من الفسيفساء في مدخل المصنع وبعض العمال يمزقون صورا ورقية له بأيديهم في غضب شديد. كان همام الحفناوي يحطم الصورة ويخرب الفسيفساء بآلة ضخمة ويعاونه في هذا إياد صابر. كان الحقد علي الرئيس السابق يملؤهما. نظرت إلي إياد بحب وكأني أريده أن يتراجع. يبدو أنه لم ينظر إليّ. حاول ماجد بحيري أن يسحبه من يده ولكن إياد أخذته الحماسة. نهاد كانت تنظر إلي الموقف في رهبة وخوف ولكنها كانت صامتة تماما. ما أن رأته نهاد إلا وتغيرت ملامح وجهها. لقد نظرت إليّ نظرات لم أستطع أن أفسرها. أحسست أنها تريد أن تطعنني بنظراتها. كأن نظراتها لي تود أن تخبرني بأنني سأندم. لقد بصقت بالفعل علي الأرض وكأنها تود أن تقول لي لقد بصقت علي الأرض وكان عليّ أن أبصق عليك. أنا؟! ! أترفضني أيها المغفل. سأجعلك تندم. كرهت نظراتها.

أحلام المطيري الوحيدة التي لم أرها حتي الآن وكذا رجاء شوكت وسادة الدوغري. يبدو أنهن جميعا داخل العنبر.

ماذا أستطيع أن أفعل الآن؟ لاشئ. لن أستطيع أن أمنعهم ولن أستطيع أن أمنع نهاد من تصويب سهام نظراتها إلي قلبي وإلي عيني. لو تكلمت لقتلونني ولو تكلمت مع نهاد لصفعتني. الصمت أفضل. الأغلبية هكذا. الإعلام يغسل عقولهم. حتي لو حطموا صورهم فلن يستطيعوا أن يزيلوا ثلاثين سنة من التاريخ. أغبياء. هل يستطيعون تمزيق التاريخ؟

تجاهلت ما يحدث.

أتت سارة العسكر بسيارتها البورش. كانت تقود السيارة وبجوارها عبدالله البندري. تعجبت كثيرا. إنه يقبل أن تقود امرأته السيارة. أين الرجلولة في هذا؟ حتي وإن كان مريضا فيمكنه أن يأتي بسائق يقود لهما السيارة. كانت يداه ترتعشان كعادته. ما أن اقتربت سيارتها من بوابة المصنع إلا وأشارت في غضب قائلة قبل أن توقف السيارة:

— أوقفوا هذه المهزلة

نزلت من السيارة وصاحت بغضب قائلة في تهديد صريح:

— من يتحدث في السياسة أو يمارسها داخل المصنع سيتم فصله فورا.

هذا المصنع للعمل وللعمل فقط. لا دخل لنا بالسياسة. مفهوم؟
ألم الصمت بالمكان. جاء سيف غرس الدين. نظرت إليه سارة
العسكر في غضب وقالت :

— أمر إداري فورا يا غرس. لا سياسة في المصنع. يتم فصل من
يتحدث في السياسة أو يمارسها في مصنعي. مفهوم؟
أوما برأسه موافقا. قال وهو يكاد أن يرتعش :

— مفهوم يا افندم. أوامرك يا هانم. أوامرك يا ست الكل
انتظرت أن تسكت سارة العسكر، ولكنها صاحت في غضب موجهة
كلامها لسيف غرس الدين الذي كان يببدو عليه الخوف الشديد منها :

— مخصوم منك ثلاثة أيام يا غرس. كيف تسمح بمثل هذا الهرج
والمرج في مصنعي وأنت موجود؟ هل وجودك مثل عدمه؟
لم يرد سيف. أه سيف عليّ وعلي العمال وأمامها يكون كالخروف.
نظر إليها ثم غض بصره في صمت. نظراته تشي بأنه يتمني أن
تسكت ولكنها لم تسكت. صاحت في غضب قائلة للجميع بنبرة تساؤل
عالية الصوت :

— أعوذ بالله. أشغل في مصنعي مجموعة من الثيران؟ لا أعرف كيف
سيدور المصنع بدوني؟

واخيرا نزل عبدالله البندري من السيارة. وجه كلامه لسيف ويدها
ترتعثان :

— نفذ كلام الهانم. فعلا مجموعة من الثيران.

نظرت إليه سارة في استهزاء. كان رؤساء الورديات كلهم قد
حضرُوا وسمعُوا سبابها. نظرت سارة إليهم في غضب جميعا. كانت
ركبتا ندا عبدالعليم رئيس ورديتنا ترتعثان. صاحت سارة في غضب :

— رؤساء الورديات. مخصوم من كل واحد منكم ثلاثة أيام.

ساد الصمت ولم يستطع أحد أن يتكلم. كدت أن أموت غضبا
وغيظا. لم تتغير ابتسامة ندا عبدالعليم. ما هذا البرود الذي يتسم
به. ابتسامته تملأ وجهه وحتى أذنيه. كدت أغضب له. قال ندا
وابتسامته كما هي :

— أوامر حضرتك يا ست الكل

طأطأ باقي رؤساء الورديات رؤوسهم. أتمني أن أصرخ فيهم قائلا :

«ليس لكم كرامة. كلكم لا تساوون شيئاً. خيبكم الله. ألا تعترضون. إنها تهينكم أمام العمال. أيها العبيد. فعلاً لو أمطرت السماء حرية لرفع العبيد مظلاتهم. تبا لكم. طيب اطلبوا منها ألا تهينكم أمام العمال. كيف سنحترمكم بعد هذا. ما أنتم إلا أداة من أدواتها. كل من هذا المصنع ليسوا رجالاً. أنا أولكم».

يجب عليّ أن أسكت. إلي الآن لم تنظر إليّ سارة. لم تقع عينها علي عيني. يبدو أنها تتجاهلني ولكن من أنا حتي تتجاهلني؟ إنها تطيح في الكل سباباً وشتماً. متي سأظل هكذا أجرع مع العمال ورؤساء الورديات وسيف غرس الدين الإهانات؟ متي تهب علينا نسمات الحرية والتحرر من هذه العبودية الخائفة.

والله لن أتكلم. خطر ببالي للحظات أنني غبي لأنني قد صدقت ما قالته نهاد. أيعقل أن سارة قد وافقت علي عودتي للعمل هكذا بدون قيد أو شرط؟ لا أصدق.

لاشك أنني حسن النية. كيف ستقبل سارة العسكر عودتي بسهولة وقد رددت عليها؟ لقد دافعت عن عامل الأمن وأفهمتها ان راتبه ضئيل ولا يكفي في هذه الأيام. تحركت من مكاني حتي صرت أمامها مباشرة. لاشك أنها ستطردني عندما تراني. كان علي أن أتريث ولا أفرح هذه الفرحة الغامرة عندما أبلغتني نهاد أنها طلبت من سارة العسكر أن تعيدني للعمل. لا أدري لماذا أحسن الظن بالناس هكذا؟ ما هي إلا لحظات وتراني سارة العسكر وتطردني من المصنع شر طردة. لقد رمقتني. رأتني سارة العسكر.

أشعر أن قلبي سيتوقف. ستهينني وتطردني. لاشك أن نهاد كانت كاذبة.

صاحت سارة العسكر قائلة في غضب للجميع :

— أما زلتم واقفين؟ الساعة الآن التاسعة إلا دقيقتين. كل إلي عمله. فوراً.

تحرك الجميع ورؤوسهم تنظر إلي الأرض. بدأ الجميع في الانصراف إلا أنا. توقعت أن تشتمني أو أن تسبني. لم يحدث هذا. نظرت إليّ وابتسمت. فتحت فمها. رأيت أسنانها ناصعة البياض. لاشك أنها ستطردني. ستحكم علي بالخروج من المصنع فوراً.

أعاهد نفسي علي ألا أتكلم في حضرتها أو أعارضها أبدا. لن أتكلم أبدا إلا فيما يعنيني. لن أتكلم أبدا. اللهم قدرني علي هذا. يبدو أن كلمات نهاد لي ونصائحها كانت صادقة. لا يجب أن أفتح فمي هنا أبدا. أعمل فقط. ماذا يفيد؟ ستطردني كالكلب.

سارت وتبعها زوجها.

نظرت إليّ وابتسمت. الحمد لله. لم أقرأ في عينيها نظرات الغضب. نظرت إليّ قائلة:

— أألزمت واقفا يا عبدالله يا مصري؟

إنها تذكر اسمي. يخرب بيتك يا عبدالله يا مصري. ستطردك. قلت لها متسائلا وقلبي يرتجف خوفا وكلماتي تخرج بصعوبة:

— يعني أمشي يا أستاذة؟

قالت لي في رقة غير معتادة:

— آه. تفضل.

كنت أعلم أنها ستطردني. لاشك أنها تسخر مني بابتسامتها. لا أدري سببا لهذه الرقة. رفعت صوتها قليلا ثم قالت وهي تبتسم:

— قلت لك تفضل يا عبدالله

ثم سكنت قليلا وقالت برقة أكثر:

— يا عبدالله يا مصري

صوتها كان يلين ورقتها تتزايد كملمس الحية الرقطاء وهي تسعي. لاشك أنها سترفع صوتها وتصيح في غضب: «اخرج من مصنعي أيها الحمار. ألا تفهم؟ قلت لك تفضل». لن أنتظر حتي أستمع إلي سخريتها أو إهاناتها لي. اتجهت نحو باب المصنع للخروج. قالت لي برقة وعذوبة ما سمعتها تتكلم بها إلا نادرا:

— هل جننت يا عبدالله؟ تفضل من هنا. اذهب إلي عنبرك يا

عبدالله يا مصري. هل نسيت مكانك في العنبر؟ هل تحب أن

أوصلك يا عبدالله يا مصري؟

ملأتني السعادة واستبدت بي الفرحة. لقد كنت واهما. الحمد لله لم تطردني. يالذل البطالة!! إنها تدعوني للعودة إلي عملي. الحمد لله. لقد كانت نهاد صادقة. لا أدري ماذا حدث لي. لحظات كانت تمنعني من أن تطردني. اتجهت نحوها وأنا أشعر بالامتنان لها.

اقتربت منها. أمسكت يدها البيضاء الجميلة. وددت لو أستطيع أن أَلثمها. نظرت في عينيها الجميلتين.

أنا ممتن لها فعلا. عليّ أن أشكرها. شكرتها بلساني. لن أستطيع أن أقبل يدها. لن أقبل إلا يد أمي. أبعدني عبدالله البندري بيده عنها في غضب والغيرة تقتله. نظرت إليه مستنكرة. قالت له في حسم وكأنما تأمره ولا تنتظر منه جدالا:

— اذهب إلي مكتبك يا عبدالله يا بندري. اسبقني فورا

نفذ أمرها صاغرا. تحرك وتركنا وهو يرتعش.

كنت لا أزال ممسكا بيد سارة العسكر الناعمة البضة البيضاء الطرية. لن أقبل يدك يا سارتي. غمغمت في شكر قائلا:

— شكرا لك يا أستاذة سارة. أنا ممتن لك.

لم تسحب يدها من يدي. كانت تود أن أقبل يدها ولكني لم أفعل. رأيت فيها رقة وأنوثة غير معتادة. تركت يدها في يدي. قالت لي برقة بالغة:

— مبروك يا عبدالله المصري. نهاد أخبرتني بخطبتكما

تركت يدها فجأة فاستغربت الأمر. تغيرت ملامح وجهها وصاحت فيّ قائلة:

— الساعة الآن التاسعة ودقيقتان

— أرجوك لا تخصمي مني ثلاثة أيام

نظرت إليّ في ابتسامة ساحرة ولعت عيناها. قالت لي:

— تعال إلي مكتبي في الواحدة والنصف تماما. أريدك في أمر هام. لن أخصم منك.

— تحت أمرك يا أستاذة سارة

تركتني وواصلت سيرها إلي مكتب حمارها القابع بالداخل عبدالله البندري.

اتجهت مسرعا إلي عنبري وأنا أجري. لم يكن خوفي من التأخير علي ماكينتي. سأعوض هذا التأخير بعد العمل. لقد لمحت الضابط شديد يدخل المصنع ويسرع في مشيته العسكرية متباهيا بنفسه ومختالا بمشيته وبزيه أو هكذا تخيلت. لقد دخلت وراءه دبابة جيش ضخمة. جريت وأنا أتواري منه ولكني أزعم أنه لمحني. تساءلت في نفسي والخوف يملؤني: «تري ماذا تخبئ لك الأيام في طياتها يا عبدالله يا مصري؟!»

الحلقة الثامنة والعشرون

هدوء ما قبل العاصفة

دخلت العنبر فوجدت كل زملائي منكفئين كعادتهم علي ماكيناتهم وآلاتهم. العمل علي أشده ولم ينتبه أحد لدخولي متأخرا بضعة دقائق نظرا لانشغالهم الشديد. اقترب مني الأستاذ ندا عبدالعليم بابتسامته العريضة التي تملأ وجهه حتي أذنيه. تجاهلته. شعرت أنني أكرهه ولا أطيق رائحته بجواري. لماذا يقبل بهذا الذل وبهذه الإهانة؟ ما الذي يجبره علي هذا؟ لقد كنت رئيس وريدة في أحد المصانع من قبل ولكني أبدا ما كنت أقبل الذل أو الإهانة. أدت ماكينتي وبدأت عملي في صمت. نظر إليّ وقال في همس: «ستعمل لمدة عشر دقائق زيادة آخر اليوم». نظرت إليه وكأنني لا أهتم بما يقول. قال في نفس الهمس: «هذا حق ربنا. تأخرت فيجب أن تعوض تأخيرك». يا سلام عليك يا من تتحدث عن الحق. وأين حقوقنا نحن يا ندا؟ أنت لا تهتم إلا بنفسك فقط وبتحقيق مآربك. أين حقوق العمال هنا في بدل وجباتهم؟ أين حقوق من فصلتهم سارة العسكر بطريقة تعسفية من قبل. تذكرت أنور حسان وحسرتة ودعائه علي سارة. تذكرت أيضا محمد بسيوني الذي أسميته بالقفاش. لقد كان بليغا في اصطياد الضحكات من الكلام. لقد كان رئيس وريدة مثلك وفصلته. الدور عليك أيها الغبي. حتي أنا لقد فصلتني من العمل أمامك ولم تدافع عني. شعرت أنها تنظر إليك لتعيدني ولكنك كنت واقفا كالصنم تبتسم ابتسامتك الغبية. حق ربنا أيها الغبي؟ الظلم لن يدوم يا ندا. دولة الظلم ساعة ودولة الحق إلي قيام الساعة. يبدو أننا نحن الفقراء الأغبياء نمضي أنفسنا بهذا الكلام. الأغنياء والأقوياء يفعلون ما يريدون. هم الفاعلون دوما ونحن المفعول بنا. تذكرت سيف غرس الدين عندما قال ذات مرة في زهو: «نحن لا نضرب أحدا علي يديه. من لا يعجبه الحال في هذا المصنع فليتنفسل غير مطرود. هذا أسلوبنا وهذه طريقة عملنا».

وهل تري العمل متوفرا في هذه الأيام بعد الثورة أيها الأحق؟ من يستطيع أن يجد عملا بسهولة في هذه الأيام؟ أنتم تستغلون حاجة الناس وظروف البلد المتردية.

يعني لسارة العسكر جميع الحقوق وليس لنا نحن العمال أية حقوق؟ ما هذا الظلم؟ أين بدل السكن الذي يصرفه العمال في جميع المصانع هنا؟ أين العدل يا أستاذ نداء؟ أين الحق يا أستاذ سيف؟ نتحدث عن حقوقها ولا نتحدث عن حقوقنا؟ أشعر أنك تنظر لكل الأمور من منظورها لا من منظرننا نحن.

سيرفع أنور حسان ومحمد بسيوني القضايا ضد سارة العسكر. مت يا حمار. سننتظر قضاءنا الشامخ الذي لم ينصفني من قبل. ومن من الفقراء قد أنصفه القضاء؟ حتي العدالة مكلفة. وحتى لو تحقق العدل فسيستغرق هذا وقتا طويلا. إن العدل البطئ نوع من الظلم. إن شاء الله سأزورهم في المقهي الليلة.

تذكرت أنني قدمت استقالتني عندما لم يأخذ بعض العمال في ورديتي حقوقهم كاملة. أنا لا أقبل ولن أقبل الظلم لا لنفسني ولا لغيري. لا أدري لماذا أخذتني الحماسة في التفكير الآن. لست نفسي بشدة. أنا الذي كنت سأقبل يد سارة العسكر منذ دقائق لأنها أعادتني إلي العمل؟ الحمد له أنني لم أقبل يدها. لن أكون عبدا لها. ألسنت من عشاق الحرية؟ نظرت إلي أحلام المطيري في ود. وجدتها منكفئة علي آلتها ولكنها كانت تبتسم وكأنها تري طريق الحرية وتتنسم رائحته. تري متي ستهيبين يا نسائم الحرية علي مصنعنا؟ متي ستقتلعين جذور الظلم من هنا؟ متي ستحررين البشر الذين يرضخون تحت نير الذل ويتجرعون الإهانة ويرضون بها. لست من العبيد. لن أكون من العبيد. للحرية عشاق كثيرون ولكن للعبودية أيضا أنصارها.

تذكرت الأغنية التي كنا نغنيها عندما كانت سارة العسكر مسافرة في الخارج. قلت بعض كلماتها متمتما: «إديها كمان حرية.. اهتف وقول حرية.. دا العيشة بلا حرية كثيبة وكمان نكدية». كان صوتي منخفضا. سمعت بعض همهمات العمال تردد نفس كلماتي. إن شوقنا للحرية يتزايد ولكن تري من ذا الذي يشعل شرارتها الأولي؟ نظرت إلي أحلام المطيري وحركت شفتيها. كان صوت الماكينات مرتفعا. ستختلط أصواتنا بأصوات الماكينات وتموت فيها. نظرت إلي إباد ناصر وإلي ماجد بحيري فرأيت الشفافة تردد الكلمات. أكلنا من عشاق الحرية ولا ندري؟ لماذا إذا نصر علي العبودية ونرضي أن تكويننا بنيرانها؟

نظرات نهاد لي تقتلني. أخرست نظراتها صوت كلمات الحرية بداخلي. رجاء شوكت تعمل علي ماكينتها وتفكر بعمق. خمنت أنها تفكر في أمر زوجها ومشاجراتها معه. الوحيدة التي كانت تعمل ووجهها بلا تعبيرات كانت سادة الدوغري. كان همام الحفناوي ينظر إلينا فقط ويلوك لقمة بفمه وكأنه يسجل كل حركاتنا في ذهنه. آه لو أستطيع أن أعرف ما الذي يدور في ذهنه. إنه لا يتكلم إلا قليلا. تداعت الذكريات في مخيلتي وغطت علي صوت الماكينات. منذ أكثر من سنتين كنت أعمل في مصنع حجاج العيسوي. مرض أحد العمال عندي في ورديتي. غاب عن العمل أسبوعا. زرتة في المستشفى. تذكرت اسمه جيدا. اسمه سيد أبو ستة. كان أبا لستة أطفال. سيد أبو ستة. لكم أحب اسم سيد. سيد وليس عبدا. لا أحب العبيد ولن أكون منهم أبدا. أحسست بحب شديد لسيد أبو ستة. قد يكون هذا لأن والدي اسمه سيد. أحببته أيضا لتفانيه في العمل ولحسن أخلاقه. طلبوا مني كرئيس وريدية أن أبلغه أنه سيتم فصله إذا لم يعد للعمل من الغد. دخلت علي صاحب المصنع وقتها في غضب. عندما رأيته لأول مرة شعرت فيه بغلظة وفظاظة. لقد كان جظا ضخما. نفس سمة معظم الرجال من أصحاب رؤوس الأموال. وقفت أمامه غاضبا مستاء وقلت له بانفعال شديد:

- هذا ظلم ولا أقبله يا أستاذ حجاج
- ومن أنت حتي تكلمني بهذه اللهجة
- أنا عبدالله المصري رئيس الوردية رقم خمسة.
- أهلا وسهلا يا سيادة رئيس الوردية
- من فضلك لا تسخر مني
- لا أسخر منك. ماذا تريد؟
- لدي بعض المشكلات في ورديتي
- ما هذه المشكلات؟
- كيف تفصل عاملا مريضا في ورديتي بدون الرجوع إليّ؟ هذا أولا
- وثانيا: العمال في ورديتي لم يحصلوا هذا الأسبوع علي بدل وجباتهم
- يا عبدالله نحن لسنا هنا في وزارة الشؤون الاجتماعية. من لا يعمل ويمرض تتحمله الدولة. علينا أن نستعين بغيره. وأنت؟ هل

حصلت علي بدل وجباتك؟

- نعم حصلت عليها
- إذا لا تتكلم إلا عن نفسك
- أنا رئيسهم ومسؤول عنهم.
- أنت مسؤول عن نفسك فقط. تفضل اذهب إلي ورديتك. أنا هنا صاحب المصنع ومسؤول عنه.

خرجت والغضب يملؤني. طالما أنني لا أستطيع أن أدافع عن العمال الذين معي وفي ورديتي فعليّ أن أستقيل. النبي عليه الصلاة والسلام يقول كلکم راع وكلکم مسؤول عن رعيته. يبدو أنني سأصطدم مع صاحب المصنع كما اصطدمت مع غيره. سأترك عملي كما تركته من قبل عشرات المرات. لاشك أنني فاشل. فاشل فاشل ولكني لا أقبل الظلم ولن أقبله أبدا. ما ذنب هذا العامل المريض؟ كلنا معرضون لمثل هذا الموقف. كيف سيعيش وكيف ستعيش زوجته وأسرته؟ صحيح أنني أخذت بدل الوجبات ولكن ماذا عن زملائي. لن أسكت. هل يعطينا نحن رؤساء الورديات حقوقنا كاملة ويميزنا عن باقي العملاء لنتغاضي عن الظلم الذي يقع علي زملائنا؟ هذا حرام. المفترض أننا جميعا متساوون. من يظلم زميلي اليوم سيظلمني غدا ومن يقبل أن يظلم غيره اليوم سيقبل غيره أن يظلم غدا.

فعلا أذل الحرص علي الرزق أعناق الرجال. لن أذل نفسي ولن أهين نفسي. الحمد لله. أنا لست متزوجا ولا زوجة لي. طيب وكيف سأنفق علي أمي؟ من أين سأدبر مصروفات البيت ونفقة الإيجار؟ الله الغني. الله سيساعدني. لم تخيب رجائي فيك يا رب.

كنا كلنا رؤساء الورديات في اجتماع مع صاحب المصنع الحاج حجاج العيسوي. كان يحب دوما أن نناديه بلقب الحاج. كأنه ذهب إلي الأراضي المقدسة ليشتري لقب حاج. كان يتناقش معنا في بعض أمور العمل. رفعت يدي وطلبت الكلمة. تحدثت في حقوق عمال ورديتي. احتد عليّ صاحب المصنع وقال بانفعال زائد:

- تعال مكاني أحسن. هل أنت رئيس المصنع أيها الغبي
- لست غبيا. أنتم الأغبياء أصحاب المصانع.
- هل تشتمني؟

— حاشا لله. أنتظر قليلا

أخذت ورقة من أوراقى ووضعتها على الأرض ثم وقفت عليها
بحذائي. لا أدري لماذا تذكرت الحجاج ابن يوسف الثقفي. لقد كانت
ملامح حجاج العيسوي في نفس الفظاظة التي أخبرنا بها التاريخ
عن الحجاج ابن يوسف الثقفي. الكل ينظر إليّ بتعجب وينتظرون
ماذا سأفعل. أمسكت الورقة وكتبت عليها بعض الجمل. قدمتها
لصاحب المصنع فرماها على الأرض دون أن ينظر فيها. قال في غضب:

— ما هذه يا عبدالله يا مصري؟

— استقالتى يا حجاج.

— اسمي الحاج حجاج العيسوي

— لا مؤاخذه يا حاج حجاج يا حاج بيت الله الحرام. يا من تظلم
الناس بعد أن زرت بيت الله الحرام ونهلت من أضواء سيدنا
محمد وأنواره في المسجد النبوي

— لماذا وقفت على الورقة قبل أن تقدمها لي؟

— أردت أن أقدم لك استقالتى على ورقة وسخة. أنا لا يشرفني
العمل هنا في هذا المصنع. أنتم تأكلون حقوق الناس. الويل لكم
من رب الناس. لن يترككم الله. لن يسامحكم الله.

— اخرج من هنا أيها الوقح

— سأخرج. أنا الذي تقدمت باستقالتى. لن تطردني من الجنة

— مجنون

— وأنت غبي وأحمق وكل من حولك أغبياء وينافقونك

— اخرج من هنا. أخرجوه

— صحتك. ارحم نفسك حتي لا تنفجر عروقك. سأخرج وسأفضحكم
على صفحات الجرائد

— مجنون. مغفل

كنت أتبادل بعض النظرات مع الزملاء وأتذكر هذه القصة جيدا
بتفاصيلها وكأنها حدثت بالأمس فقط. يبدو أنني لن أعمر في هذا
المصنع طويلا. مر الوقت سريعا. دقات جرس وقت الراحة باغتتنا
جميعا. أماننا ساعة غداء. هكذا يسمونها. علي أن أصلي الظهر أولا.
لدي مقابلة مع سارة العسكر بعد نصف ساعة.

ترك العمال ماكيناتهم وآلاتهم. فرد ندا عبدالعليم سجادة الصلاة. كيف تقف أمام رب عادل جبار منتقم ولا تهتم بتنفيذ العدل. ألا يضايقك أكل حقوق الناس؟ الصلاة ليست مجرد حركات تعملها يا رئيس الوردية ثم تترك لنفسك العنان وتترك الظالم يأكل حقوق الناس. الركوع يعني ألا تحني رأسك إلا لله، والسجود يعني ألا تذلل رقبتك إلا لله. العزة في أن تكون أمام الله عادلاً. يا أخى الساكت عن الحق شيطان أخرس. إذا لم تقل الحق فلا يجعلك هذا تصفق للباطل. إذا لم تكن من جنود الحق فلا تكن في جيش الباطل. الله أكبر. سينتصر الحق مهما كان ضعيفاً، ومهما كانت جيوش الباطل جراحة فإنها لن تقوي علي الثبات في وجه الحق. يا رب يا حق انصر الحق. العدل يا رب. أين عدلك الذي وعدت به؟ عدلك حق وعلينا أن نحققه. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. تقبل الله منا ومنكم يا أستاذ ندا. اللهم اجعل العدل في ركابه. أين عدلك يا رب لأمثالي وأمثال سيد أبو ستة؟

بعد أن خرجت من عنبري كنت أتجه للمبنى الإداري. يا إلهي !! لقد نسيت أوراقى الهامة في البيت. لم أحضرها اليوم معي. يجب أن توقع سارة العسكر علي هذه الأوراق. لن ينتظرنى صاحب البيت أكثر من هذا. سأحضر الأوراق معي غدا. تري ما الذي تريده سارة العسكر ولماذا استدعيتني؟ لا يزال أمامي أكثر من ربع الساعة. يجب أن أكون في موعدى تماماً معها. إن الله لا يخلف الميعاد. اقتربت منى مجموعة من النسوة تتقدمهن أحلام المطيري في دلال وهي تحمل طبقاً من الحلوى في يدها. تعجبت فلقد كانت نهاد معهن. لازلت أخشى النساء ومكرهن وألاعيبهن. أزالبت ابتساماً أحلام مخاوفي. قدمت لي طبق الحلوى كهديّة ثم اقتربت منى مهنئة وقالت لي:

— ألف مبروك علي خطبتك يا عبدالله يا مصري

نظرات النسوة كادت تفتقرسني. نظرت إليّ رجاء شوكت والحزن يملأ عينيها. قالت لي مهنئة:

— ربنا يوفقك ويجعل حظك أحسن من حظي. خطبة سعيدة.

لقد اختفت ابتسامتها الصفراء الطويلة من علي وجهها. لم تعد صاحبة أطول ابتسامه صفراء في التاريخ. شعرت بالشفقة عليها. لم

تسمح لي بأن أوصلها. يبدو أن خلافاتها مع زوجها قد وصلت إلي طريق مسدود. قلت لها شاكرا:

— إن شاء الله سيكون حظك سعيدا. إن شاء الله سترجع المياة إلي مجاريها. سيصالحك زوجك ولن يجد مثلك أبدا.

تدخلت نهاد في الحوار ونظرت إليّ بغضب ثم قالت في سخرية واضحة:

— ألف مبروك عليك. مبروك خطبتك للمدام شكرية

قالتها بشماتة واضحة. كأنها تريد أن تقول لي: «أتركني وأنا البكر وتفضل عليّ شكرية التي طلقت من قبل لأنها لا تنجب. تالله إنك لغبي أحمر».

تري من أين عرفت نهاد أن شكرية خطيبتني مطلقا لأنها لا تنجب؟ في معركتهما بالأمس أخبرت شكرية نهاد بأنها لازالت بكرا. الكذب عمره قصير. كل شيء يتكشف بسرعة. الصدق أدعي للنجاة. إذا كان الكذب ينجي فإن الصدق منجاة وأحق أن يقال دوما. تذكرت أن شكرية قد أخبرتني من قبل أنها تعرف رجاء شوكت. إن زوج رجاء يعمل في مصنع الغاربية للمنسوجات معها.

أخاف من كيد النساء. أطلق عليه أحيانا كهن النساء. إن كيدكن عظيم. أما كيد الشيطان فوصفه الله بالضعف إذ يقول سبحانه وتعالى: إن كيد الشيطان كان ضعيفا. اقتربت مني رجاء شوكت وقالت وكأنها تود أن تؤكد شيئا لا أفهمه وقد اتفقت عليه مع زميلتها الغاضبة نهاد:

— سوف أعاتب شكرية لأنها لم تخبرني بأمر الخطبة. هي صديقة لي. لا أدري لماذا جعلت خطبتكما سرا ولم تعلنها؟

تري ما الذي يدعو شكرية إلي عدم إخبار الناس بخطبتها؟ لقد أعلنت أمام نهاد أنها خطيبتني. نظرت إليّ نهاد في ضيق وقالت:

— تحياتي لخطبتك المدام شكرية

اقتربت مني سادة الدوغري وزغررت قائلة لي:

— ألف مبروك يا عريس. يبدو أنك كنت تريد أن تأكل علينا الحلاوة. نحن النساء لا يخفي علينا شيء. علي كل ألف مبروك وهذه هديتنا نحن زميلاتك في المصنع لك.

شكرتهن. أحسست أن شكرية كان يجب عليها أن تعلن خطبتها ولو لزميلاتها. استبد بي الخوف من النساء من جديد. زاد خوفي

من شكرية بالتحديد. لقد رتبت لكل شئ وخططت ودبرت وحددت موعد الخطبة. يبدو أن هناك أمورا يجب أن أضعها في الحسبان. إن شكرية هي التي تقود قصتنا!! أين الرجولة إذا؟! لماذا أنتقد إذا عبدالله البندري لأنه يترك زمام القيادة في كل شئ لسارة العسكر؟ علي أن الوم نفسي. شكرية هي التي خطبتني. خططت ودبرت ونفذت. نفذت وبكل سرعة دون أن تدع لي مجالا للتفكير. لن أستسلم لمخاوفي ولا لشكوكي. ابتسمت وقلت مخاطبا لهن جميعا:

— إن شاء الله سنبغلكم بموعد زفاننا قريبا. الخطبة وقد مرت. إن شاء الله ستدعوكم شكرية خطيبتي بنفسها. شكرا لكن جميعا. علي أن أستعد الآن لسارة العسكر. سأطلب منها أن تحقق العدل بنفسها. لن أكون ترسا في آلة الظلم هنا. سأحدثها عن أنور حسان وعن محمد بسيوني. سأطلب منها ان تعيد كل من فصلته. سأطالب بحقوق العمال. سأطالب بناد لنا. سأطلبها بمزيد من الحقوق للعمال حتي يشعروا بالولاء لمصنعها ومن ثم يزيد العمل وتدور عجلة الإنتاج أكثر. لم أكد أنتهي من حديثي مع نفسي إلا ووجدت محمد بسيوني أمامي. سلمت عليه وقلت له في هذر: «أهي نارودي يعني ضيق وعكسها وايد وتعني واسع أو عريض. أهلا عمنا القفاش». تمنيت من أعماق قلبي أن يكون قد عاد إلي العمل كما أعادتني سارة. كان متلفتا ينظر خلفه. لم يرد علي. أحسست أنه يعتمد ألا يرد علي. تري لماذا يلتفت حوله هكذا؟

لاشك أن سارة العسكر طيبة. لقد رأيت رقتها عندما حدثتني صباح اليوم. يبدو أنني ظلمتها. إن شاء الله سأحدثها بكل صراحة. سأكون رسول العدل إليها.

أسرعت وأنا أدخل بهو المبنى الإداري. وقفت أمام مكتبها الفخم. خرج من عندها الضابط شديد وكان يتحدث في هاتفه وكأنه يتلقي بعض الأوامر من رئيسه في العمل لأنه كان يردد دائما: «حاضريا افندم. تحت أمرك. مضبوط. تمام يا افندم». ابتسم لي ابتسامة غريبة. نظرت إلي أمجد سكرتير سارة العسكر وقلت له بهدوء: — لدي موعد مع أم سفيان.

تبسم. كاد أن يضحك. يبدو أنه تذكر الموقف الذي جمعت فيه الموظفين وأضحكتهم. ضببت ياقتي لأستعد للقاء سارة العسكر. أشار إليّ أن أجلس في هدوء. جلست في هدوء وانتظرت. أحسست أنني أنتظر دهرًا. أود أن أقابلها. أود أن أحدثها. قمت ووقفت أمام أمجد وكأنني أرجوه أن أدخل. أشار إلي في صرامة ان أجلس في هدوء للمرة الثانية. أنتظرت وجلست بهدوء وأنا لدي إحساس يصل إلي درجة اليقين بأنه هدوء ما قبل العاصفة.

الحلقة التاسعة والعشرون الانتظار

حركة دائبة أيضا بجوار مكتب سارة العسكر. تماما كما كانت حركة الماكينات دائبة أراها في عنبري دوما. نفس الضجيج ونفس الحركة المستمرة التي لا تتوقف أبدا. كثيرون هم الآتون والراجعون. الداخلون والخارجون. البوابة الزجاجية تفتح وتغلق باستمرار. شعرت أن حولي خلية نحل تعمل والكل فيها يعمل بجد وصرامة. نادرا ما تجد ابتسامة هنا أو ضحكة هناك. جميعهم يتسمون بالعبوس والجمود كأن حركاتهم روتينية. لا مجال للسعادة أو للابتسامة أو حتي للمساة الإنسانية. تعبيرات الجمود تشمل الجميع فلا تكاد تفرق بين الرجل والمرأة. الكل هنا سواء. نفس الحركات ونفس تعبيرات الوجه وكأنهم صبوا جميعا في آلة واحدة فنتج عنها كل هؤلاء العاملين في المصنع. الكل يدور ويلف في مدار محدد له. لا مجال للإبداعية أو للاختلاف أو للشذوذ عن القاعدة.

هذا صادر وهذا وارد. هذه الأوراق تذهب إلي الأرشيف. هذه الأوراق تحفظ. هذه الأوراق يجب أن توقع عليها الأستاذة سارة العسكر. هذه الأوراق رجعت لأن أم سفيان لم تستكمل باقي توقيعاتها. هناك اجتماعات يجب ان تعقد قبل نهاية الشهر. اللجان الفنية واللجان الهندسية استكملت تقاريرها. أم سفيان أصدرت تعليمات جديدة ويجب أن تنفذها الإدارات التي لم تصلها نسخ من هذه التعليمات. كل الأمور يجب ان تتم كما أرادت لها.

لم أسمع أحدا قط يذكر اسم أبي سفيان وكأن سارة العسكر هي المحور الأساسي أو مركز الدائرة في هذا المصنع. نظرت من الحاجز الزجاجي علي يميني فوجدت مكتب أبي سفيان لا أحد يقترب منه. إنه حمارها القابع بالداخل كما وصفته أمامي.

نظرت في الساعة الذهبية المعلقة علي الجدار أمامي فوجدت أنها تقترب من الواحدة والنصف. لم يبق أمامي سوي دقائق قليلة وسأدخل لها. أربع دقائق. عقرب الثواني يتبختر وكأنه يغيظني. إنه يتهادي وكأنه لا يريد أن يتحرك. أشعر أنه يريد أن يخرج لسانه لي ليزيد قلقي وانتظاري.

الدقائق لا تريد أن تمر. قمت إلي أمجد. لم أتكلم. ما أن لح وقوفي إلا وقال لي في جمود وهدوء. «انتظر قليلا. لقد أخبرتها بوصولك». إذا هي تعلم انني قد وصلت مبكرا. إنها تعلم أنني حافظت علي مواعيدي. الوقت بطيء جدا لمن ينتظر وتمر الدقيقة فيه كالساعات. أنا لا أحب الانتظار ولا أطيقه.

أتي ندا عبدالعليم وجلس بجواري في صالة الانتظار. جلس بجواري بابتسامته المعهودة. أشار برأسه إلي الأستاذ أمجد. دخل ندا قبلي ولاشك أنه سيقابلها قبلي وقد يحدثها عني. قد تسأله عني وسيدور حوار بينهما بشأني. إنني لم أوقع العقد بعد. يمكنها أن تطردني في أي وقت. ومن أنا حتي لا تطردني. لقد طردت الكثيرين من قبلي. أكثر من مرة يجب أن أؤكد لنفسني أنني لست إلا مجرد عامل عندها في مصنعها. لقد طردت محمد بسيوني وقد كان رئيس ورديّة عندها كما طردت أنور حسان من قبل. لقد كثر ضحاياك يا سارة العسكر. التفكير سيقتلني. شغلت نفسي بالنظر في الصور التي علي الحائط!! إن مكان صورة الرئيس مبارك قد شغلته صورة أخري لسارة العسكر!! هو مصنعها فلتفعل به ما تشاء.

إنها الواحدة والنصف تماما. من حقي أن ألتقيها الآن. هي التي حددت الموعد. قبل أن أقف وقبل أن أفتح فمي أشار إلي الأستاذ أمجد قائلا: «ظل بمكانك. أم سفيان مشغولة جدا. انتظر إلي أن أتلقي تعليمات من معاليها. لديها خبر بوجودك. من فضلك انتظر». صحيح من أنا حتي تتفرغ للقائي!!؟

ارتحت في مقعدي وأخذت نفسا عميقا. طيب هل يمكنني أن أذهب وأكل شيئا؟ وماذا أفعل إن فرغت وأرادت لقائي؟ شعرت أنها تحبسني هكذا فلا أنا حر طليق أستطيع أن أذهب حيث شئت ولا هي التقتني حتي الآن.

أكره كل الانتظار إلا انتظار سارتي الحبيبة. أم من أنتظارك يا سارتي!! لو قضيت العمر كله أنتظرك ما مللت الانتظار. كنت أذهب إلي المدرسة مبكرا حتي أراها عندما تصل. كنت أود أن أكون دوما أول من يراها. لن أسمح لأحد غيري أن يراها قبلي. لا أستطيع أن أصف المشاعر التي كانت تنتابني عندما كنت أراها. كنت أشعر أنني أغوص في بحر من السعادة عندما أراها تبتسم لي وهي تراني أنتظرها لأكون أول من يستقبلها. كنت أنتظر أن تهل عليّ بالشموس التي تطلع لي من بين وجنتيها فتضي آمال قلبي وتنير طريق مشاعري. كنت أري الأقمار تحرسها من بين يديها ومن خلفها وعن يمينها وعن شمالها وهي قادمة إلي المدرسة فأنظر إليها لأقتبس بعضا من أنوارها. كنت أري الكواكب والنجوم تحيط بها وهي تنزل من سيارة والدها. كنت أود دوما أن أكون أول من يقترب منها. أحبيها بصوت يملؤه الحب وتكتنفه الرقة وتغلفه مشاعري البريئة كل يوم: «صباح الخير يا سارة». لكم كنت أود أن أقول لها: صباح الخير يا سارتي الحبيبة. صباح الخير يا مليكة قلبي وروح عمري. صباح الخير يا أملي وأميرة دنيائي. صباح الخير يا حبي وعشق صباي.

انتظارك يا سارتي الحبيبة كان حياتي. انتظارك كان المحطة الرئيسية في حياتي. كلما أجبرت علي الانتظار كنت أتذكرك لأشغل فراغ وقتي بك. الانتظار صعب جدا ولكن تذكر الحب يجعل الوقت يمر سريعا بلا ضيق ولا ألم ولا ملل. لاشئ يعدل لحظات انتظار الحب. كنت أحسب أيامي ستمر وأنا أنتظرك وكنت أسعد بانتظارك وأعدده أكبر نعمة يجب أن أحسد نفسي عليها. كنت أنتظر تلك اللحظات الحلوة التي ستجمعنا ونحن نذاكر سويا. كنت أعد أيامي وأنا أنظر إليك في فصلنا ونحن ندرس سويا. كنت أتوق إلي مجرد النظر في عينيك والتمتع بسحر ابتسامتك وعبق عطرك.

كنت أنتظر الفسحة لأكون معك وأتحدث معك. كنت أخلق الأسباب لأتحدث معك وأكون بقربك يا سارتي. كثيرا ما كانت حجبي واهية ضعيفة ولكنك كنت تقبلينها. لا أدري أكنت تقبلينها عن عمد أو بلا قصد. فبالأمس كنت أود أن أوضح لك أحد المعاني في دروس القراءة واليوم سأسمع لك دروس كل المحفوظات التي حفظتها وسأطلب منك أن تسمعيها لي، وغدا سأحل لك بعض المسائل الصعبة في الحساب. بعد غد سوف أشرح لك تفسير بعض الآيات في مادة التربية الدينية. صدقيني أنا أحب أن أكون معك وبقربك دائما.

كل يوم سأقول لك قبل كل التلاميذ ما سأقوله في الإذاعة المدرسية في الصباح. سأقرأ لك أنت أولا عناوين الأخبار التي سأقولها. سأريك الآيات التي سأرتلها في بداية الإذاعة فخير استهلال لإذاعتنا القرآن الكريم. أنا أقرأ لك أنت أولا الآيات مجودة وكأنني شيخ مقرر ماهر. سأقرأ لك الآيات والحديث النبوي الشريف. طلبت مني يا سارتي أن أتركك لتقدمي الحديث الشريف. عملت كل جهدي لأقنع الأستاذ عبدالوهاب. وافق بعد أن قايضني بالمجئ إلي بيتنا. وافقت علي طلبه لزيارتنا من أجلك ووافق علي طلبي بأن تقدمي الحديث النبوي الشريف بدلا مني. قرأت كل معاني السعادة والعرفان بالجميل في عينيك. إنه سيأتي ليقابل أُمي. أعلم أنه كان مغرما بها من أول نظرة رأيته في عينيه لأُمي. انتظرت آخر اليوم وأنت تغمرينني بكل نظرات الشكر. عندما دق الجرس معلنا نهاية اليوم أتيت إلي. كنت تعلمين أنني دوما أترقب نهاية اليوم لأودعك ولأعمل لك بيدي إشارة مع السلامة. كنت أبث يدي كل معاني حبي. كنت أضع أشواق عيني في أطراف أصابعي لتنبض لك بكلمات يلفظها لساني ويردها قلبي: «مع السلامة يا سارتي. مع السلامة. ستتوقف حياتي حتي أراك غدا. ستغرب شمس يومي من الآن. صحيح أنني سأراك في أحلامي وسأحتضن أشواقي في سريري ولكن أود لو كنت أستطيع أن أغمض عيني ولا أفتحها إلا في الغد حتي أراك لتصير حياتي كلها صورتك التي أراها بالفعل لا في مجرد الأحلام والخيالات.

لا أعلم لماذا كان إصرارك اليوم علي أن أذهب معك إلي البيت في السيارة. خشيت أن يأتي عمو فؤاد والدك. كان سيصيح ويسبني.

أخبرتني أنه لن يأتي اليوم. أتى السائق وأخذنا. وصلنا إلي البيت والسعادة تعمّني. لاشك أنني أحلم. دخلت وألقيت كتيبي في حجر أمي. خرجت دون أن أكلمها. تبعني. هدأت عندما علمت أنني سألعب معك في الحديقة. تركنا السائق وذهب بالسيارة إلي الجراج. كنت معي وجلست معي في الحديقة. قرب العصر وأنا أنظر في عينيك وأقرأ كل كلمات شكرك لي في عيني. اقتربت مني. طبعت قبلة لا أزال أحس بها علي خدي. شعرت كأن تيارا كهربيا صعقني. ابتعدت فجأة. بدا أن الأمر لا يهمك. قلت لي متسائلة: «ما حديث الغد الذي سأقوله في الإذاعة؟» رددت عليك قائلاً: «حب لأخيك ما تحب لنفسك». متي تحبون أيها الأغنياء لنا ما تحبونه لأنفسكم؟ متي تحبينني يا سارة؟ ألا تعلمين بأن نيران حبي تحرقني وتقتلني. لم أقل لك كلمة واحدة من هذه الكلمات. وددت لو أنني ظلت أتلصص موضع قلبك طيلة عمري. كل يوم سأنتظرك وقد وجدت لك حجة جديدة لأكون معك فيها وبجوارك. سأقرأ لك الحديث بشكل صحيح وسترددين ورائي. لن أجعلك تخطئين لا في فتح ولا ضم ولا كسر. إن لساني صار عربيا سليما فصيحاً بسبب حفظي للقرآن وتلاوتي له آناء الليل وأطراف النهار. سارتي اطمئني فأنا أدلك علي الصواب دائماً وسأكون بجوارك. سارتي أنت لا تعلمين أن جنتي أن أكون بجوارك دائماً. لكم أكره هذه الأيام التي تغيبين فيها عن المدرسة!! لكم أشعر أن اليوم طويل جداً وممل بدونك! عندما تعودين في اليوم التالي أشعر أنني كنت في حالة اختناق وكأنني سمكة أخرجت من المياه التي تعيش فيها. لن أحيأ إلا عندما ترجعين لي. لن أرجع إلي حياتي الطبيعية ولن أستطيع أن أتنفس ثانية إلا عندما تعودين فأراك تخطين خطواتك تجاهي وتعيدنيني للحياة فأستطيع التنفس من جديد عندما أري عينيك واستمتع بابتسامتك ثانية من جديد. كل يوم تطلبين مني فيه أن نذاكر سوياً سأنتظره. سأكون علي أهبة الاستعداد لأن أكون معك. كل امتحان سأنتظرك حتي تفرغي من الإجابة. أنا أحل الامتحان سريعاً قبل نصف الوقت ولكنني سأظل أنتظرك. لماذا لا تجلسين بجواري فأستطيع أن أعطيك الإجابات الصحيحة؟ حبيبتي سارة التي سلبتني كل شيء واحتلت كل تفكيري.

سأكون بجوارك دوما منتظرا. سأنتظر اللحظات التي سأتمكن فيها من رؤيتك والانفراد بك. لماذا لا أنتظر وأنت عمري وحياتي؟ لماذا لا أنتظر وأنت جنة آمالي ونبع ذكرياتي وحلم حياتي؟ لقد كان انتظاري لك حماية لي ونجاة مما كان يحيق بي. كنت أنتظر حتى وأنا بين يدي حنان السيد عزت. أخذت منها الأربعين جنيها وذهبت بها فرحا إلي أمي. أقنعتني بأن تدريسي لها ليس عيبا. يا أمي البنت صعبة جدا وأخاف منها خوفا دائما من النساء. لن أوافق. كيف أكون بين يديها وأنا أحب سارتي. كنت تعرفين أنني أحبها يا أماه. لقد قلت لي أكثر من مرة: «سارة ليست مثلنا وليست من ثوبنا. أعلم أنك تحبها...». تركتك تتكلمين ولم أرد أن أسمع. إن العاشق لا يسمع ولا يريد أن يسمع إلا صوت قلبه ونبض مشاعره. لقد دخلت الجامعة. لم تستطع سارتي أن تكمل تعليمها. ستدخل أحد المعاهد المتوسطة. أنا سأكون أفضل منها يا أمي. سأكون أستاذا في الجامعة. سأصير دكتورا في الجامعة. سأكون إنسانا ذا شأن. لن أكون مجرد موظف كما كنت تحلمين. عبدالله ابن سيد جمعة المصري سيكون شخصا ذا قدر ومكانة. لن يكون ضعيفا خائعا خادما لفؤاد والد سارة. صدقيني يا أمي لقد تغيرت طريقة حديث أبيها وأمهات معي. والدها عمو فؤاد صار يستقبلني بطريقة أفضل. يطلب مني كثيرا أن أذكر معها.

أمها تريد مني أن أجلس معها وأن أظل معها وقتا أطول. لقد طلبت مني سارتي أن أتعلم البيانو معها ووافقت أمها. أمها تريد أن أظل في جلساتي معها. كنت أستطيع أن أعزف بطريقة أفضل منها علي الرغم أنني بدأت دروس البيانو متأخرا عنها. كادت تغضب مني وقالت لي وكأنها تحسدني: «أنت متفوق في كل شيء؟! أنت متفوق حتي في العزف علي البيانو؟!» عزفت لها لحن عبدالحليم وغنته معي بشكل أطلق دموعي: «واهواك واتمني لو أنساك وانسي روعي وياك وان ضاعت يبقي فداك لو تنساني. واتاريني بانسي جفاك واشتاق لعذابني معاك. والقي دموعي فاكراك ارجع ثاني. في لقاءك الدنيا تجيني معاك ورضاها يبقي رضاك وساعتها يهون في هواك في هواك طول حرمانني. والاقبك مشغول وشاغلني بيك وعيني تيجي

في عينيك وكلامهم يبقي عليك وأنت تداري. وارايعك واصحا من الليل أناديك وابتعت روحي تصحيك قوم ياللي شاغلني بيك جرب ناري...»

اقتربت مني وربت علي كتفي. سألتني عن سبب بكائي. ماذا أقول لها؟ أقول لها لأنها لم تحس بي ولم تشعر أبدا بالنيران التي تندلع من قلبي كلما رأيته أو تذكرتها؟ هل أدعو عليها أن تحرقها نيران الحب كما حرقني؟ ألا تعرفين لماذا أبكي حقا يا سارتي؟ ألا تظهر علي كل علامات الحب عندما تنظرين في عيني؟ انصرفت لأمي أبكي وتركت سارتي متحيرة. يجب أن تعرف بمفردها لماذا أبكي. هدأت أمي من روحي وقالت لي:

— هل ستقبل عرض زميلتك حنان؟

— لا يا أمي

— يا بني هي تطلب منك أن تدرس لها

— لن أدرس لها

— لماذا؟

— لن أستطيع أن أخون سارة

— تخون سارة؟

— لن أخون سارة يا أمي. أفهم تماما ما الذي تريده حنان

— أنت تكبر الموضوع وتضع في ذهنك أشياء لا أساس لها من الصحة.

يا ولدي نحن لا نعني شيئا للناس الأغنياء. نحن كالنمل بالنسبة

لهم. يا بني. يا عبدالله صدقني. أنت لازلت مراهقا لا تفهم

الدنيا. كفاك هذه الرومانسية التي تغطي بها تفكيرك. لازلت

صغيرا يا ولدي. أنت لم تخبر الدنيا جيدا ولم تفهمها مثلما

فهمتها أنا. نحن لا شئ في فكر هؤلاء الناس. يرون أن الله خلقنا

وخلق أمثالنا لخدمهم ولنكون عبيدا لهم. نحن أدواتهم.

— لا يا أمي. لسنا عبيدا لأحد

— أرجوك أن تهدأ

— لن أقبل يا أمي

ورفضت عرض حنان بالتدريس لها مقابل أربعين جنيهها. غابت

يومين ولم تأت إلي الكلية. لم يهمني الأمر. لا يمكنني أبدا أن أخونك

يا سارتي. كيف أجلس مع فتاة مثل حنان بمفردنا ولقد هددتني أن تغتصبني بالفعل؟ ستنفرد بي في بيتها وستفعل بي ما تشاء. لا آمن علي نفسي وأنا معها. ليتني أستطيع أن آخذ سارة لتكون معي في حضرة حنان.

انتهيت من محاضراتي. المساء يزحف ببطء ليعمي النهار تماما ويخفي ضوءه. كنت في طريقي لأخرج من الجامعة. شعرت بالضيق وانقباض الصدر. أحسست أن هناك بعض صفارات الحزن تنطلق في أذني. عيني الشمال ترف. نبضات قلبي تتزايد. لا يا أمي. حديثك أدمي قلبي. أنا أفهم الحياة جيدا. الله عادل. الله لا يضيع أجر من أحسن عملا. عملت كل ما بوسعي. اجتهدت وسأواصل اجتهادي. سأكون شيئا تفخرين به في المستقبل. صديقي. أنت لا تؤمنين بالتغير الاجتماعي. التغير الاجتماعي يحدث وقت الثورات. أنا مؤمن بعبدالناصر الآن أكثر من أي وقت مضى يا أمي. ستتغير حياتنا. لن نظل في طبقتنا هذه. أنا لا أحب سارة لأنها تنتمي لطبقة أغني منا. لو كانت فقيرة كنت سأحبها. يا أمي. حبي لسارة ينبع من قلبي وليس من عقلي لأقترن ببنات من طبقة أعلي. حنان السيد عزت بنت أكثر ثراء من سارة ووالدها، ولكني لم أشعر بأي ميل تجاهها. أنا أحب سارة لأنها سارتي وعمري وحبي. لسنا عبيدا لأحد. لن أقبل العبودية إلا لله. الأغنياء ليسوا آلهة. يمكننا أن نكون مثلهم يا أمي. يمكننا أن نكون أفضل منهم. أنا الأول علي كل الطلاب يا أمي. سيكون مستقبلي أفضل منهم. أنا الأول علي أبناء الأغنياء. أبناء الأغنياء يتسابقون علي الوقوف معي. بنت أثري الأثرياء تطلب أن أذاكر لها. سمعت صوت سيارة تفرمل بشدة. كانت السيارة مسرعة لدرجة أنني خفت وابتعدت عن الطريق. لقد ارتميت علي الأرض خشية أن تدهسني السيارة. كادت السيارة أن تضربني فعلا لولا أن ابتعدت عن الطريق. وقفت واتجهت نحو السيارة وقلت في غضب:

— ففتح يا أعمي

اندهشت تماما. إنها حنان!! قالت لي وكأنها تعاتبني:

— لماذا لا تنتبه أنت وتبتعد عن وسط الطريق؟

— أنا آسف يا هانم

- اركب معي
- لن أركب يا حنان
- ستركب لأنني أريدك
- عرضك مرفوض. هذه نقودك لا أريدها. لن أدرّس لك
- سكنت تماما. أعطيتها النقود ووضعتها بيدها في السيارة. سكنت قليلا ثم استدارت إلي وقالت لي في غضب:
- كان بإمكانني أن أقتلك
- الله يسامحك.
- أوقفت سيارتها ونزلت وقالت لي في هدوء متسائلة:
- هل غضبت مني؟
- طبعاً. لقد أفزعني وكدت تقتليني
- أنت رأسك ناشفة
- ماذا أفعل لتصير لينة؟
- فكر معي يا عبدالله.
- ابتعدنا قليلا عن سيارتها. تعجبت أنها تسير معي. لقد تركت السيارة داخل الجامعة. سارت بجواري ولم أتكلم معها كلمة واحدة.
- قالت لي في جراءة:
- هل يمكن أن تصحبني إلي بيتك؟
- ما هذه الجراءة التي تتحدث بها؟ قلت لها بهدوء:
- بهذه البساطة؟
- الأمر بسيط
- الأمر بسيط؟ تريد أن تصحبي شابا إلي بيته بهذه السهولة؟
- وما الغريب في هذا؟
- نحن في مجتمع شرقي مسلم محافظ له عاداته وتقاليده
- كف عن الحديث بهذه الطريقة. نحن في عصر الانفتاح يا عبدالله يا مصري. كل شيء تغير. السادات فتحها علي البحري.
- الانفتاح الاقتصادي يا أستاذ. الإعلانات والرقص والتغني بالحرية والتطبيع والاتجاه نحو أمريكا. كفانا ما حدث لنا من التوجه ناحية الشرق.
- أنا لا أتكلم في السياسة. نحن في دولة العلم والإيمان كما يقول

السيد الرئيس السادات

- أحس كأنك تلميذ في الابتدائية تردد درس المحفوظات يا عبدالله.
- يا عبدالله الدنيا تغيرت وعليك أن تفهم وتواكب التغير. أبي يقول إن لديه العشرات من أساتذة الجامعات يعملون في شركاتهم لأنهم لا يجدون ما يكفيهم من مرتباتهم الهزيلة. اركب الموجة الجديدة يا عبدالله. الغلاء غير كل شئ والمرتبات لا تكفي. المجتمع يتجه إلي الرأسمالية يا أستاذ. انتبه من فضلك. كل شئ يتغير.
- القيم لا تتغير يا أستاذة حنان. لن أركب الموجة أبدا. موقعي ثابت
- ستفلق رأسي بحديثك عن القيم والمبادئ والأخلاقيات
- سكتت قليلا. أريد أن أذهب إلي أمي. وقفت أمام محطة الأتوبيس.
- الأتوبيسات مكتظة جدا. الناس يكادون يقعون من أبواب الأتوبيسات.

قالت لي :

- ما رأيك في أن أوصلك إلي البيت بسيارتي؟
- أنا سأركب الأتوبيس
- ستنظر لمدة ساعات
- سأنتظر
- وهل سأنتظر معك؟
- يمكنك أن تنصرفي
- ما رأيك في أن تدرس لي في الشهر بستين جنيها؟
- بستين جنيها؟
- مرتب ثلاثة أساتذة في الجامعة؟
- أرجوك أن توافق. سأنتظر ردك غدا
- جاء الأتوبيس مزدحما. حشرت نفسي داخله. نظرت إلي حنان في تعجب. تحرك الأتوبيس ونظرت إليها. أعتقد أنها كانت تتعجب لحالي كما كنت أنا أتعجب لحالها أيضا. عدت إلي تذكر سارتي الحبيبة ونظراتي المحبة لها.
- الساعة تقترب من الثانية. يبدو أن سارة العسكر لن تقابلني. دخل الضابط شديد عدة مرات وخرج من عند سارة العسكر وهو ينظر إلي.
- ماذا تريد أن تقول لي نظراته؟ قال لي الأستاذ أمجد :
- أم سفيان لن تقابلك اليوم. ستقابلك غدا في الواحدة والنصف

لم يعطني الفرصة لأتحدث. قال لي قبل أن أفتح فمي معترضا:
— اذهب إلي عنبرك. موعدك غدا.

خرج ندا من مكتبها مبتسما ولكنني شعرت أن وجهه قد احمر قليلا. يبدو أنها سبته أو خصمت له ثلاثة أيام. تظاهر بالهدوء وأمسك بيدي واتجهنا نحو عنبرنا. لمحت ماجد بحيري يقترب منا في غضب وهو يتجه نحو مكتب أمجد. رمي بورقة أمامه وصاح غاضبا:
— هذه استقالتي. لا يمكن أن أستمر في هذا المصنع ولو لدقيقة واحدة.

تركت يد ندا وحاولت أن أهدئ من روع ماجد بحيري. نظر أمجد إلي أفراد الأمن وأتوا في هدوء وأحاطوا بماغد وأخرجوه في هدوء. أحاط بي الذهول. تري ما الذي يحدث في هذا المصنع؟ ما الذي يحدث بمصنعك يا سارة العسكر؟

الحلقة الثلاثون

العاصفة

عدت إلي عملي والغضب يستبد بي. لقد أضاعت عليّ سارة العسكر فرصة التمتع بساعة الغداء وجعلتني أنتظر بلا فائدة. لعلها تكون قد تعمدت أن تجعلني أنتظر كل هذا الوقت. ولعلها كانت مشغولة. ماذا لو انقلب الأمر؟ ماذا لو لم أذهب إلي موعدهما؟ كانت ستقيم الدنيا ولا تقعدهما. كان من الممكن أن تفصلني أو تخصم مني عشرة أيام. لقد تحدثت لي برقة ووداعة جعلتني أشعر أنها طيبة. لقد بدأت أحس بأنها إنسانة طيبة بريئة مسالمة. ما الذي جعلك تخلفين موعدك؟ نظرت إليّ نهاد وسادة الدوغري في شماتة. كانت رجاء منهمكة في العمل عليّ آلتها، أما أحلام المطيري فنظرت لي وقالت: «ولا يهملك. إن غدا لناظره قريب. لا تقلق. ستقابلها غدا إن شاء الله.» غلبني اليأس فقلت مستنكرا: «أنت متفائلة. يمكن أقابلها بعد شهر أو شهرين.» يبدو أن ندا أخبرهم بأن ست الكل أم سفيان لم تستقبلني. ابتسمت نهاد وقالت شامطة: «أنت متفائل إذا يا عبدالله. هذا وجه خطيبتك شكرية. إنها وجه السعد عليك».. كل شيء في مصنعنا يعرف فور وقوعه. الأخبار يتم تناقلها سريعا.

الأحداث تنتقل فوراً وكأننا نعمل في وكالة أنباء رويترز لا في مصنع. ماذا لو ذهبنا إليها في الغد ولم تستقبلني؟ ماذا سأفعل؟ لاشئ. لم أفكر ولن أفكر. ماذا بعد التفكير؟ هي صاحبة المصنع. إنها من النبلاء والسادة. إنها تمتلك المصنع. تمتلك أرضه وما فيه ومن عليه. نحن إذا أقنان الأرض. نحن عبيدها. إنها تمتلكنا. لا حق لنا في أن نعترض. فلتكن الثورة ولنتمرد. لماذا لا نتمرد؟ لماذا لا نقوم بثورة عليها؟ خرجت مني كلمة الثورة البلشفية رغماً عني. نظرت إليّ أحلام المطيري وكأنها تلومني. كأنها تقرأ أفكارني. لماذا لا نتدمر؟ لا حل إلا بالمنجل والدم. تقطع رقاب النبلاء. توزع الأرض علينا نحن أقنان المصنع. أليست الثورة هي الحل؟ ناقشت أحلام طويلاً في هذا ولكنها قالت لي: «أنت واهم. التاريخ لا يتكرر. ما حدث في فترة ما من التاريخ لا يحدث ثانية». قلت لها لماذا نردد إذا عبارة أن التاريخ يعيد نفسه؟ ولماذا تكررت الثورة في مصر؟

لم تكن سارتي الحبيبة تجعلني أنتظر كل هذا الوقت. كانت تشفق علي من طول الانتظار. حنان هي التي كانت تجعلني أنتظر. كانت تتعلل بأنها تغير ما كياها. كانت تتعلل بأنها تصلح من شعرها. ضغطت عليّ أمي لأقبل أن أدرس لها. قابلتني بالكلية. ابتسمت لي قائلة:

— هل عقلت يا عبدالله؟

— أنا سيد العقالين

— متي نبدأ؟

أخرجت من حقيبتها ستين جنيهاً. شعرت أنها تعتمد أن تغريني. كانت نقودها جديدة. فردت ثلاث ورقات مالية فئة العشرين جنيهاً. لم تعطيني المبلغ كاملاً مرة واحدة ولكنها تعمدت أن تعطيني المبلغ علي ثلاث مرات بعد أن باعدت بين الثلاث ورقات. أعطتني أول ورقة من فئة العشرين جنيهاً في المرة الأولى وقالت:

— هكذا بدأت تفهم

وفي المرة الثانية أعطتني الورقة الثانية وقالت:

— بدأت تفهم أن الدنيا تتغير

ثم أسقطت الورقة الثالثة عمداً. كدت أغضب وأتركها. يبدو أنها ستصبر عليّ قليلاً. لم أنحن لألتقط الورقة. انتظرت حتي أنحنى

والتقط الورقة الثالثة فئة العشرين جنيها ولكني لم أنحن. انحنيت هي وأمسكت بالعشرين جنيها وقبّلتها ثم قالت لي:

— وستفهم يا عبدالله يا مصري أن كل شئ بثمانه. كل شئ بثمانه حتى أنت.

قلت لها وأنا أضع عيني في الأرض وأتحاشي النظر في عينيها:

— متي سنبدأ يا حنان؟

— الآن

— لدينا محاضرة

— بعد المحاضرة يا عبدالله

— هل يمكن أن أذاكر لك في الكافيتريا؟

— لا. أحب الهدوء. سنذاكر في الفيلا عندي. الهدوء أجمل شئ في الدنيا

أغمضت عينيها وتأوهت ثم ضمت شفتيها وكأنها تقبل شفتي

مجهول. لا أدري لماذا شعرت بالخوف منها. لم تكن جميلة ولم تثرني

قط بأنوثتها. هكذا رأيتهما. أمسكت بيدي قائلة بعد أن قلت لها بأنني

لن أفعل أي شئ غير أنني سأذاكر لها ما استعصي عليها فهمه:

— ستفعل كل ما أطلبه منك يا عبدالله.

— كل شئ؟

— نعم كل شئ.

أخرجت سيجارة مارلبورو من حقيبتها ودخنتها بلذّة ونشوة.

قدمت لي سيجارة فاعتذرت بأنني لا أدخن. قالت لي وكأنها تسخر

مني: «برافو عليك. شاطر. أنت تحافظ علي صحتك. نم مبكرا بعد

أن تشرب اللبن. اسمع كلام ماما نجوي». لم أرد علي سخريتها ولكني

قلت لها: «التدخين ضار جدا بالصحة». ربتت علي ظهري. قالت

لي: «طيب اذهب لمحاضرتك يا شاطر».

تركتها ودخلت المحاضرة ظنا مني أنها ستتبعني ولكنها لم

تتبعني. ولماذا تتبعني؟ سأشرح لها كل شئ. سأعيد ما سيقوله الدكتور

المحاضر. لماذا تتعب نفسها وتحضر معي؟ هممت بدخول المحاضرة

ولكني عدت لها وقلت لها في رجاء:

— أرجو أن يظل هذا الأمر سرا بيننا

— هل أنت عبيط؟

- لماذا؟
- سأخبر كل أصدقائي وصديقاتي
- لماذا يا بنت الناس؟
- ألا تريد أن يكون لك المزيد من الزبائن؟
- ماذا تقصدين؟
- أقصد أن تتوسع في إعطاء الدروس فيزيد مكسبك
- هل تقصدين...؟
- نعم أقصد. يمكنك أن تحصّل مئات الجنيهاً في الشهر. لا تنظر تحت قدميك. ستعطي للعشرات من زملائي وتأخذ عشرات ما يكسبه الأستاذ الدكتور في الشهر الواحد
- تفكيرك اقتصادي
- هذا تفكيرنا نحن
- ظننت أنك تريد أن أعطي الدروس لك أنت فقط
- لست أناانية
- فعلاً. أستاذك. سأدخل المحاضرة
- بالسلامة والقلب يدعو لك.
- تركتها وهي تغني أغنية أحمد عدوية الشهيرة: «حبة فوق حبة تحت.». كانت تبدو ذات مزاج عال هذا اليوم. سأدخل محاضرتي وأري ما تريدين يا حنان.
- أفقت علي ضجيج الآلات ورتابة العمل. عدت أتساءل: «تري ما الذي جعلك تخلفين موعدك يا أم سفيان؟ يبدو أنها تريد أن تذلني. تريد أن تجعلني أنتظرها. لا يهمني قد يكون هذا خيراً لي. سأحضر أوراقك في الغد لتوقعها. كل تأخير وفيها خير. العجلة من الشيطان. في العجلة الندامة».
- رن هاتفك المحمول. إنها شكرية خطيبتي. نظرت إلي تليفوني وأنا أشعر بالغیظ منها. لماذا لم تخبر رجاء بأمر خطبتنا؟ ألا تراني كفتاً لها؟ ألا يشرفها أن أكون خطيباً لها؟ لم أرد. كتمت صوت التليفون. رنت للمرة الثانية ولم أرد. يبدو أنني تسرعت في أمر الخطبة. يجب علي أن أواجهها. رنت للمرة الثالثة ولم أرد. عندما تسألني عن سبب عدم الرد سأبلغها بأنني كنت مشغولاً. لم تكذب تمر دقائق حتي

وجدت شكرية أمامي وأمام ماكينتي. تجاهلتها تماما ومثلت أنني لم أرها. رنت علي هاتفني المحمول فرددت فوراً: «أهلاً وسهلاً. كيف حالك يا شكرية». أمسكت هاتفني في وقاحة وسألتني عن سبب عدم الرد. لم أستطع أن أتلظ بكلمة.

قامت رجاء في عجلة وقبّلت شكرية. امتعض وجه نهاد وواصلت عملها بعنف علي ماكينتها. نظرت شكرية في غضب إلي نهاد وقالت بصوت تعمدت أن يصل إلي الجميع:

— مبروك عليك يا عبدالله يا مصري. اليوم آخر يوم لك في عملك بهذا المصنع. من الغد ستعمل معي

أطلقت سادة الدوغري زغرودة دوي صوتها في أرجاء العنبر كله. بلغ الغضب بنهاد مداه فوقفت واقتربت وباركت لي ثم عادت إلي ماكينتها وقالت بصوت مرتفع سمعه الجميع: «ألف مبروك يا مدام شكرية. ألف مبروك يا مدام».

بدا القلق علي وجه ندا ولكنه ظل محتفظاً بابتسامته. قال لشكرية: «ألف مبروك ولكن غير مسموح لك أن تعطلي العمل. أنت تعملين في مصنع وتعرفين قواعد العمل جيداً يا مدام شكرية» يبدو أن الجميع هنا يعرف المدام شكرية. وقفت وقلت لخطيبتني: «أشكرك ولكني مستريح هنا فعلاً ولن أترك المصنع». همست في أذني قائلة: «لست مستريحا وستترك المصنع». أردفت قائلة في همس: «ستترك المصنع ويجب أن تسمع كلامي. مفهوم؟»

ما هذه النبذة الجديدة؟ هل تحدد لي مستقبلي؟ لكم أنا غاضب منها!! ابتسمت رجاء في وجه شكرية وقالت: «يا عيني علي الحب. شكرية تريد أن يكون خطيبها معها في نفس العمل. أنا فقط التي لا يهتم بي زوجي في هذه الدنيا. عيني علي وعلي حظي الأسود». مصمست نهاد شفتيها معلنة عن غيظها وغضبها.

تشاغلتي بعلمي علي ماكينتي. شعرت شكرية أنني أتجاهلها. نظرت إلي في غضب وكأنها تتوعدني ثم ابتسمت إلي في حنان مصطنع وقالت: «مع السلامة يا عبدالله يا حبيبي. سنغذي سوياً بعد أن تنتهي من عملك. خذ هذه الفطيرة وكلها حتي نلتقي يا حبيبي». ضحكت نهاد بصوت مرتفع وقالت ساخرة مع سادة الدوغري في

صوت واحد: «آه يا حبيبي» ثم مطتا صوتهما بضحكة سخيفة. يا إلهي. اللهم ارحمني من كهن النسوان هذا. وددت لو صرخت في وجه شكرية طالبا منها ألا تجئ إليّ ثانية في هذا المصنع. كنت أعمل بجد مجبرا حتي لا أفقد أعصابي. أحسست بحالة عصبية تدعوني إلي العراك مع شكرية ولكنني كظمت غيظي. فجأة ودخل علينا سيف غرس الدين. رحب بشكرية وربت علي ظهري سعيدا بأنني أؤدي عملي ولا أتكلم. قال بصوت مرتفع: «انتبهوا لي جيدا يا جماعة. الحضور من الغد في الساعة الثامنة والانصراف في الساعة السادسة. نظرا لظروف المصنع ونظرا لأننا يجب أن نسلم بعض الطلبيات في موعدها ستزيد ساعات العمل بمعدل ساعتين. هذه أوامر الإدارة العليا».

نظرت إلي سيف وسألته وأنا متهلل الوجه: «سيعني هذا أننا سنحصل علي أجر إضافي عن هاتين الساعتين؟»
لم يرد إلي. نظر إلي شذرا وقال:

— لا تسأل عن شيء لا يخصك. نحن نحب المصنع وكلنا نشعر بالولاء والانتماء له. لن يحصل أحد علي أجر إضافي. نحن نثبت ولاءنا لهذا المصنع الذي نحصل منه علي رزقنا.

لا يخصني؟ كيف أن هذا الأمر لا يخصني أيها الأحق؟ أنا الذي سأعمل. نظرت إلي شكرية في فرحة وهمست في أذني: «قلت لك ستترك هذا العمل وستشتغل معي».. لقد صدقت أحلام عندما قالت لي من قبل إننا نعمل هنا كالألات. بيدهم أن يزيدوا ساعات العمل بلا مقابل. نظر إليّ إياد ناصر وأشار إليّ بيده حتي أهدأ ثم وضع يده علي فمه مشيرا إليّ ألا أتكلم.

لم أتكلم وتشاغلني بعقلي. بدا أن شكرية غضبت مني لتجاهلها. غضبت فلتغضب كما تشاء وأنا أيضا غضبان منها. تركت العنبر وخرجت. كانت تتساءل عن سبب صمتي. ألم تعرف أنني غير سعيد ها هنا؟ نظرت إليّ بغضب وهمست في أذني: «حسابنا ليس هنا. حسابنا عندما نكون بمفردنا. أنا غضبانة منك يا عبدالله».

خرجت شكرية وأنا أشعر بأنني تسرعت في خطبتها. كل النساء واحد. أنا أخاف من النساء. لا يجب أن أشغل نفسي بهن. تري لماذا استقلت

يا ماجد يا بحيري؟ لم أكد أسأل نفسي هذا السؤال إلا ورأيت إياد ناصر
يرد علي تليفونه المحمول ثم رأيت الغضب مرسوما علي ملامح وجهه.
أوقف ماكينته ورمي ما كان بيده واتجه إلي ندا عبدالعليم متسائلا:
— هل يعجبك هذا؟

— لماذا تترك الماكينة يا إياد؟

— زوجتي اتصلت بي وأخبرتني أنهم سيطردونها من الشقة

— استمر في عملك ولا تعرض نفسك لمشاكل لا طاقة لك بها

ثم واصل ابتهامته وقال في هدوء:

— أم سفيان ستتعرف وستحل المشكلة

— أقول لك سيطردون زوجتي وأولادي من الشقة لأننا لم ندفع

الإيجار لعدم تسلم المرتب

— لا تقلق. أم سفيان ستحل كل شيء

— أريد أن أذهب إلي البيت لأطمئن علي زوجتي

— ممنوع أن تخرج في وقت العمل

— سأخرج وليكن ما يكون. كل خطوة مليئة بالمشكلات.

— لقد حذرتك

— يا أخي بلا حذرتني بلا خيبة. ماجد بحيري قدم استقالته وهذه

استقالتي. لا تحلون مشاكلنا وتشغلوننا وقتا إضافيا بلا مقابل. هذا

مصنع يقصف العمر. أعوذ بالله

خرج إياد وهممت أن أقوم وراءه ولكن ندا قال لي بابتسامته المعهودة:

— استمر في عملك. ليس لك دعوة بما يجري.

لم أهتم بكلام ندا. تركت ماكينتي وقمت وراء إياد وسألته فقال

لي في غضب إنهم سيطردون زوجة وأولاده من الشقة. لم يتكلم معنا

ماجد. قدم استقالته وتركنا. أ يكون قد حدث لماجد بحيري مثل هذا

الأمر مما دفعه إلي الاستقالة؟ لا أدري شيئا مما يحدث في المصنع

الآن. نصحني إياد أن أستمري في عملي وأخبرني أنه سيهاتفني ويخبرني

بكل شيء. عدت ثانية إلي ماكينتي. نظر إلي ندا وقال بابتسامته

التي لا تكاد تفارق وجهه:

— لماذا خرجت بدون إذني؟ كان بإمكانني أن أخصم لك ثلاثة أيام

ولكنني لن أخصم لك هذه المرة.

قلت له وأنا منكب علي ماكينتي :

— ماذا يحدث يا أستاذ ندا؟

— لا تتدخل فيما لا يعينك. طالما أن الأمر لا يخصك فلا تسأل. اهتم بعملك فقط.

نظرت إلي همام الحفناوي فوجدته يعمل في أناة ورأيته يمزغ في فمه لقمة ويلوكها بتلذذ وكأن شيئاً لم يحدث. توقعت أن يقوم غاضباً ويتقدم باستقالته ولكن هذا لم يحدث. سألته عما يحدث فلم يرد عليّ. قال ببطء شديد :

— ليس لك دعوة يا عبدالله. الأمر لا يخصك ولا يخصني

— ماجد وإياد زملاؤنا في العمل

— لا تتحدث بهذه الطريقة. ماكينتك زميلتك. أحبها وستحفظ سرّك. أحب ماكينتك. لا تجلب الأذي لنفسك.

نظرت إلي أحلام لأفهم منها ما يحدث ولكنها لم تتكلم. سمعنا صوت أجراس متقطعة. سمعنا بعض الصيحات والصرخات خارج العنبر. بدا القلق علي وجه ندا. لطمت سادة خدها وقالت : «قلبي يحدثني ان شيئاً غير عادي سيحدث. أشم رائحة المصائب». قالت نهاد ورجاء لها في نفس واحد : «فال الله ولا فالك». بدأت رجاء في ابتسامتها الصفراء.

ما هي إلا لحظات ورن هاتف ندا عبدالعليم. وقف علي الفور وقال :

— حاضر يا ست الكل. فوراً

ألقي هاتفه في جيبه. تعالي صوت الأجراس. أول مرة يحدث مثل هذا بالنسبة لي. أعرف أن شيئاً سيئاً سيحدث. توقفت الماكينات كلها فجأة. انقطع التيار الكهربائي ثم عاد بعد لحظة. ساد الهرج والمرج دقائق. صاح ندا قائلاً :

— انصراف. كل العمال انصراف

سمعنا صوت صفارات الإنذار. اقتربت سيارات المطافئ منا بأصواتها المزعجة. هرع العمال في هلع ورعب خارج العنابر. سرت حالات الذعر بين العمال. تدافعوا في الخروج وسقط بعضهم علي الأرض وجرح منهم من جرح. انقطع التيار الكهربائي ثم عاد مرة ثانية ولكن كانت الإضاءة خافتة.

لم أستطع أن أتحمل. تركت مكاني وخرجت كما خرج كل العمال. ارتمني ندا علي الأرض منبطحا. قبل أن تطفأ الأنوار. لا أدري ما الذي يحدث. سمعت صرخات نهاد وميزت صوت سادة الدوغري وهي تصرخ وتبكي. كانت تلطم ورجاء تحاول أن تهدئ من روعها. لحظات مرت علينا كدهر. بكت النساء وعلا الصوات والصراخ. حاولت أن أهدأ ولكنني خشيت علي أمي. من سيكون معك يا أمي؟! اللهم صبرها علي موتي اللهم كن لي. أيقنت أنني هالك لا محالة. ستكون النهاية. صوت الأجراس يتعالي وكأنه يعزف ألبانا جنازية لموتنا جميعا. سد باب العنبر بعشرات العمال. صوت صفارات الإنذار يعوي في آذاننا. لأول مرة تختفي ابتسامة ندا وتتحول كل ملامح وجهه إلي القلق والخوف. اختفت ابتسامته من علي وجهه تماما كما اختفت ابتسامة رجاء الصفراء. ساد الصمت وخرست الألسنة وبلغت القلوب الحناجر من الخوف. ازدادت نبضات القلوب وعلا خفقانها. قلت بصوت من ينتظر النهاية: «لا إله إلا الله محمد رسول الله». طلبت من الجميع أن يردد الشهادتين. لا جرم أنها النهاية لنا جميعا. أطفئت الأنوار تماما.

سمعت الجميع يرددون الشهادتين. يبدو أنها ستكون النهاية. هكذا خمنت. شعرت بقلق شديد ثم غبت عن الوعي للحظات.

الحلقة الحادية والثلاثون

أوهام النهاية

لحظات عصيبة عشتها وظننت كما ظن كل من حولي أنها النهاية. كان كل شيء يضطرب ويهتز من حولي. لن أستسلم وسأحاول الخروج من هذا المكان. أشعر أنني أكاد أن أختنق. أين فتحات التهوية؟ أين تعليمات الأمن الصناعي. سنموت جميعا في هذا العنبر وستكون نهايتنا. لم أستطع أن أتحرك خطوتين. داس علي قدمي الكثيرون. زغدني يد وأزاحتني يد أخرى. رمانني أحد العمال بعيدا عن طريقه محاولا أن ينجو بنفسه وشعرت أنه تقدم للأمام، ولكنه تراجع من مدافعة الآخرين له. سقط فجأة وأوقعني علي الأرض.

نفسي وما ورائي الطوفان. فليفرو من يفر. حتما سيموت كل من لا يستطيع الخروج. سيفرو من يفر وينجو وسيموت من يبقي. الأجساد المتصارعة من أجل الخروج تتصادم. الكل يتزاحم للخروج من باب العنبر الضيق. وماذا بعد أن نخرج؟ ألا تكون النهاية تنتظرنا في الخارج؟ ألا يكون حال من هم بالخارج أسوأ من حالنا؟ إننا نسمع أصوات سيارات المطفئ وسيارات الإسعاف. الخطر يدهم كل من بالخارج ومن بالداخل أيضا. لا نعرف من أقربنا إلي النجاة أو إلي الموت. كنت أشعر بالرتاء والحزن علي حال ماجد بحيري. لقد تقدم باستقالته ونجا. نجا أيضا إياد ناصر. ليتني كنت قد خرجت معه وتركت هذا المكان الذي يبدو أنني سألقي حتفي فيه. آه لو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء. ها هما قد خرجا وأدركا الحياة. أنا الذي جريت وراءك يا إياد ربتت علي ظهري وقلت لي أن أرجع إلي عملي. يا ويلي. إنها النهاية. ليتك تركتني أخرج معك.

يجب علي أن أراجع. أستطيع أن أميز صراخ سادة الدوغري وصواتها وهي تولول وتبكي. كانت تقول بأعلي صوت: «سامحني يا رب». حاولت أن أصبح طالبا أن يهدأ الجميع وأن يظل كل واحد في مكانه. انحسر صوتي داخلي. أشعر أنني أختنق.

تذكرت آخر مرة أضاءت الأنوار فيها أرجاء عنبرنا الحزين المكتئب الذي تغطي بسحب الخوف وغشيته ظنون الموت قبل أن تنطفئ تماما. كان ندا منبطحا علي الأرض. غطي وجهه بيديه بعد أن ماتت ابتسامته في وجهه فصارت جثة حل محلها الخوف والرعب. كان يتنفس ببطء شديد. كان يبكي. لمحت آثار الدموع بعينييه. كان يحاول الكلام بصوت منخفض. استطعت أن أميز كلماته وهو يقول بشق الأنفس: «سامحوني. سامحوني. أستغفر الله. سامحوني». جحظت عيناه. غابت ابتسامته ندا تماما واختفت في أرجاء خوفه. تكوم همام الحفناوي بجواره. نام علي ظهره فبرزت بطنه الكبيرة العظيمة. لم أكن أعلم أنه ذو كرش عظيمة. توقف فمه عن المضغ تماما. أغمض عينييه مستسلما. نظر إلي ندا وقال له وهو يضربه ببطن يده ويتنفس بصعوبة قائلا: «الله يسامحك. أنت السبب. جعلت مني إنسانا قذرا».

رأيت الرعب في و جوه الجميع ورأيت الرهبة تملأ أعين الجميع . رأيت العمال وقد عمهم الخوف وغشيتهم مخاوف الموت . رأيت الذهول يملأ عيون الجميع . كأننا ننتظر مجهولا واحدا سنذهب إليه جميعا . نسيت رجاء شكواها التي كانت تبثنا إياها دوما . أين ذهبت كل عبارات كرها لزوجها؟ أين غابت تعبيرات غضبها من زوجها؟ كنا نشعر دائما أنها غائبة عن الوعي وتائهة في مشكلاتها التي لا تنتهي مع زوج تقول إنه يهملها ولا يحبها . قالت بصوت واهن والألم يملؤها: «سامحني يا شعيب . سامحني . أستغفرك يا رب . سامحني يا شعيب . يارب كن لأحمد وميرنا . اللهم كن لهما . لا إله إلا الله» . نسيت نهاد أيضا نظرات الكراهية التي كانت تبثني إياها . نظرت إلي لأول مرة في ود وكأنها تعتذر لي عن نظراتها المسيئة . أهى النهاية إذا لنا جميعا؟ رأيت أحلام المطيري تستبسل وتقول بصوت هامس: «هي الحرية يا ربي عندما نتحرر من هذه الحياة القذرة . رحمتك يا رب هي الحرية لنا . سنخرج من ضيق الدنيا إلي سعة الحرية . سنكون في متعة الحرية الدائمة عندك يا رب» .

أطفئت الأنوار تماما وعمت الظلمات . تعالي صوت من يكح من هنا . أتاني صوت من يتألم أو يصرخ من هناك . نسمع بعض الأصوات الزاعقة من الخارج . رجال المطافئ والإسعاف يتحدثون بصوت زاعق وكأنهم يتشاجرون . وأنا يا رب ماذا أقول في ظلماتي هذه وفي شدتي التي لا أشكو فيها إلا لسواك . لم أعتد أن أشكو إلا لك . لم أنحن يوما ولم أذل إلا لعظمتك . أحسن الظن بك يا رب العالمين . لم أكن سيئا قط . كنت أحاول أن أكون مختلفا . لكم كنت أقوم من ليلي وأنا أشتهي النوم وأدعوك وأخشاك؟ ماذا أقول لك وقد اجتمعت أمام عيني كل آيات رحمتك؟ سامحني يا رباه . لم أعش لنفسي قط . عشت دوما للآخرين . كنت أحاول أن أكون نسمة في مصاعب الحياة . كنت أود أن أكون بسملة لأمي ولأخوتي . عشت للآخرين .

تذكرت كيف كنت أصلي في جوف الليل وأتطلع إلي أنوار رحماتك وغفرانك . صحيح أنني لم أكن مداوما علي صلاة الليل ولكني كنت أخفك وأخشاك . كنت أراعي الله في زملائي في كل عمل أجد نفسي فيه . أكثر من مرة أستقيل رفضا للظلم . كنت أترك المكان كراهية في

الأغنياء الجائرين أصحاب رأس المال الظالم. حاولت أن آخذ الحق للفقراء والمساكين أمثالي. كنت أحب المساكين وأنا منهم. ليس لدي شئ في هذه الحياة سوي أمي. يا رب هون عليها أمر فراقني. ثبتها عند تلقي الصدمة بوفاتي. اجعلها كما كانت دوما قوية شجاعة. لا تجعلها تجزع أو تحزن. لا تجعل دمعاتها تنزل علي خديها من أجلي. كنت أتمني أن أكون بسمتها دوما. لم أطعمها حراما ولم أطعم أخوتي حراما. جوفي لم يلوث بالحرام وأنت تعلم يا إلهي.

يا رب لم تفتني فريضة برغبتي. سامحني يا رب. لم أستطع أن أؤدي فرض الحج فقط. عشت فقيرا وها أنا ذا أموت فقيرا ولا أستطيع الحج. قصرت في الزكاة لأنني لم أبلغ قط نصاب الزكاة ما حييت. كانت كل أموالني تصب في يديك. كانت كل نقودي تصب في يديك قبل أن تصل إلي. كنت أري أن النقود التي أضعها في يديك أقرب مني للنقود التي أضعها في جيبي. أنا لك يا ربا. كلي لك. ما أنا إلا عبد لك. أحبك وليس لي جاه سوي حبك والخوف منك. تزوج أولادي. أقصد أخوتي جميعا. أنا الذي لم أفكر في نفسي. أضعبت العمر ونسيت حلمي بأن يناديني طفل بلفظة أبي. كنت أتمني أن يكون لي طفل أحتضنه وأفرح به. تزوجوا وابتعدوا ولم أعد أعرف عنهم أي شئ. كنت أعدهم كأطفالي. كنت أسمع كلمة بابا منهم عندما كانوا صغارا. قمر دائما كانت تطلق علي لفظ بابا، أما سمر فأحيانا كانت تقبلني وتناديني بلفظة بابا وأحيانا أكثر كانت ترفض أن تقولها لي. لن أفرض عليها ولن أفرض علي أحد. الحقيقة أنني أبتر حتي وإن كنت قد تبينت كل أخوتي.

يا رب. كنت أضع نصب عيني قولك في سورة الحج: «يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شئ عظيم. يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد».

هذه علامة القيامة. إنها علامات موتي. إنها النهاية بلاشك. أليس الكل في ذهول الآن؟ الكل يترنح. الكل ينتظر نهاية واحدة ويرجوها. الموت. الموت هذه الحقيقة التي طالما كنا نتجاهلها ونهرب منها. ها هو ذا يأتينا بغير استئذان وبلا مقدمات. الحمد لله صليت

الظهر. يا رب رحمتك. ليس لي أمل إلا في رحمتك.
 لم أكن سيئا منذ أن كنت طفلا. كنت في كنف أمي وحولها
 ودائما معها ولها. كنت رجلها قبل أن أكون ابنها. كنت أخشي
 أن تغضب. قالت لي أكثر من مرة إنني نضجت قبل الأوان وصرت
 رجلا وأنا في طور الطفولة. لم أكن مجرد طفل عادي. لم أكن أخا
 لميراث أبي الذي تركه لي من أمي. كنت لهم أبا قبل أن أكون
 أخا. كنت أبا حتي لأمي وأنا في طور الطفولة والمراهقة. لم أشعر
 بنفسي طفلا أبدا، ولم أدر بنفسي إلا مسؤولا عن كل من حولي.
 تداعت في ذهني صور أيام الطفولة. كنت طفلا نابغة. قد يكون
 حبي لسارتي نقطة ضعفي الوحيدة. لم ألسها بشهوة قط. ما رغبت
 فيها إلا زوجة حبيبة وأما لأولادي. حتي لمساتي لها كانت بريئة
 منزهة عن آثام الشهوات ونيران الغرائز. حتي عندما احتضنتني أو
 قبلتني كنت أشعر أنها تذبح براءتي وتفرض عذرية قلبي.

لم أحقق أي مأرب لحنان عزت. أقسمت أنها لن تمس شعرة مني
 إلا بالحلال. نظرت إلي في غضب وأشارت إلي بسبابتها من أسفل
 إلي أعلي قائلة في استكبار:

— أنت تريدني أن أتزوجك أنت؟

لم أرد عليها. أقول لها: «حاشا لله. أنا لم أطمع في الزواج منك قط
 ولا أراك جميلة أبدا. أقول لك هذا فقط لتبتعدي عني أيتها المتكبرة».

واصلت شرح الدرس لها فالتهمت شفتي. وقفت منتفضا وقلت لها:

— لن أسمح لك بأن تمسي شعرة مني إلا بالحلال يا حنان

— هل أنت عبيط؟

— لا. لست عبيط

— أنت تعلم أنني أتسلي

— وأنا لا أتسلي. إنني أخاف الله رب العالمين

— لولا أنني أعلم أنك من القاهرة لقلت عليك إنك فلاح قروي ساذج

— لست فلاحا ولكن أبي كان فلاحا وأمي فلاحه كان يفلحان الأرض

بالأجرة

— الدنيا تغيرت وأنت لست مثلها

— أفر بأني مثلها

- أحبكِ أيها الغبي. ألا تفهم معني الحب
- يمكننا أن نتزوج يا حنان
- أنت غبي ولا تفهم. لا ينفع أن أتزوجك. أمثالك لا يصلحون لي
- أمثالي؟
- أنا آسفة. لكننا مختلفان. لن يقبل أبي. لن تقبل العائلة
- وأنا لن أقبل أن أكون لك بلا زواج
- وأنا أحبكِ وأريدك ولا يمكن أن أتزوجك. هل أنت غبي؟ زواجي منك مستحيل

انصرفت من الفيلا وأنا أبكي إليك ربي وأشكو إليك ضعفي وقلة حيلتي. لم أكن أحبها ولكني لا أستطيع أن أقع في الحرام مهما عرِدت الغريزة وطغت الشهوة. يا إلهي دوما كنت أخاف الحرام وأجأر إليك وألجأ إليك لتنقذني. كل معركة كنت أدخلها وأضع جلالك أمامي. حتي وإن خسرت فكنت دوما أنت يا إلهي تكون بجواري تعينني وتصبرني. أحسست أنني أتبع صوت خطوات أبي. لم أكن قد رأيته حقيقة ولكني رأيت صورته. برق في عيني ضوء وكأنه يأخذني إلي صورة أبي. اشتقت إليك يا أبي وها أنا ذا أمد يدي إليك وتسبقني خطواتي لألحق بك. كأن خطواتي تتبع خطواته. قلت له صارخا: «أبي. انتظر. خذني معك. نظر إليّ. وجدته حزينا مكتئبا ولكن جلابه كان نظيفا. شارب رائع مثل شاربي تماما. أمي كانت تقول لأبيك شارب يمكن للصقر أن يقف عليه. ناديت عليه وبكيت طالبا أن ينتظرني. طلبت منه أن يأخذ بيدي. غضب ونظر إليّ قائلا في حزم كالذي كان يبدو في صورته التي كانت أمي تزينني إياها: «لم يحن موعدك بعد. أعرف أنك قد أدبت الأمانة وحفظت أخوتك. أنا غاضب منك. أنت لم تأخذ ثأري». لم آخذ بثأرك؟ نظر إليّ وقال: أنت تعرف قاتلي جيدا. أنت لست ولدي حقا. لماذا تترك روحي معلقة لا تهدأ ولا تستقر يا ولدي؟ انظر حولك وستعرف من قتلني.

أحاول أن أفتح عيني لأري ما حولي فلا أستطيع. جاهدت نفسي وبرّقت في الظلام فلم أستطع أن أري شيئا. ليست حولي من أشياء يمكنني أن أثبتنها إلا حشرات أسمعها وعبارات يتلفظ بها المحتضرون وأنفاس تخرج وقد لا تعود. صيحات وصرخات. أنقذونا. أهات تخرج

من الصدور. أصوات تنن وأجساد تتلوي كما رأيتها في ظلمات تفكيري. ظلمات حياتي أذكرها. كان النهار فقط بالنسبة لنا يعني الحياة. إذا جن الليل وأسدت ستائره كانت أمي تهش الذباب والناموس والباعوض. تسكب بعض قطرات الجاز علي أرضية حجرتنا العارية ثم تضي لنا لمبة الجاز وتضع الزجاجاة عليها فتضي الحجرة قليلا. كانت تلمنا حولها ثم تهدهدنا وتظل تبكي إلي أن ننام في أحضان بكائها. تظل تحكي لنا وحكاياتها لا تنتهي. ينام كل أخوتي وتظل عيناى مفتحتين. تقبلني في حنان وتقول لي: «نام كل أخوتك. نم يا عبدالله». أقول لها: «وماذا فعلت العنزة الحظ والعنزة القظ والعنزة التي تضرب بالعكاز؟»

تقول لي في حنان:

- لقد حكيت لك الحكاية أكثر من مرة
- أحب أن أسمعها أكثر من مرة
- جاءها الذئب وأكل كل عنزاتها
- وهل ستسكت يا أمي؟
- ماذا تقصد؟
- يجب أن تأخذ بثأرها من الذئب
- الذئب قوي ولا تقدر علي مواجهته
- يمكنها أن تجمع العديد من العنزات ويمكنها أن تستدعي الكلاب ويواجهون الذئب
- حكيت لك القصة كما حكتها جدتي لي وكما حكتها جدة جدتي
- يا أمي العنزة قد أكل الذئب عنزاتها الثلاث. كان عليها أن تفكر وتنتقم من الذئب
- خيالك واسع يا عبدالله. أنت مثل أبيك. كان يحلم أن نكون من أصحاب الأراضي.
- يا أمي أريد أن أغير نهاية قصة العنزة.
- كيف يا ولدي؟
- حرام أن تسكت العنزة. ستستخدم الحيلة وتضحك علي الذئب. يمكنها أن تصاحب الكلاب وتطلب منهم أن يأتوها في دارها. يمكنها أن تستدرج الذئب وتخدعه وتقول له أن يأتي دارها لأنها قد ولدت

عنزة جديدة. سيأتي الذئب وتحدث معركة كبيرة بينه وبين الكلاب. يمكنها أن تعضه ويمكنها أن تأتي بصاحب الدار المجاورة فيقتل الذئب ويتخلص كل أهل البلدة من الذئب. سيشكرها كل من في القرية وتتزوج وتنجب عنزات ليعوضها الله عن عنزاتها الثلاث. صارت من ضمن متع الحياة لدي أن أكتب بعض القصص وأحتفظ بها لنفسى. منذ أن قالت لي أمي إنني ذو خيال واسع ، وأنا أحلم وأتخيل وأشطح في خيالاتي وأكتب وأكتب. ملأت أكثر من صندوق من صناديقي الخشبية بكتاباتي التي كنت أخبئها ولم تر النور قط. يبدو أن كتاباتي لن تري النور فعلا. ها أنا ذا أنتظر الموت بعد لحظات. الموت أقرب لأحدم من شراك نعله. من أنا حتي أستطيع أن أنشر كتاباتي؟ ما أنا إلا عامل في مصنع. لقد نسيت أنني كنت يوما أدرس في الجامعة. نسيت أنني كنت أول دفعتي. نسيت أنني عينت معيدا في الجامعة. كنت أكتب لنفسى وأحكي ما أكتبه لأمي. كانت تفخر بي جدا وتقبلني وتحتضنني وتقول إن كل قصة أكتبها تصلح أن تكون فيلما أو مسلسلا. كانت تقول دوما والله قصصك ورواياتك هذه أفضل بكثير من القصص التافهة التي نراها في الأفلام والمسلسلات.

هكذا مرت بي اللحظات وأنا أنتظر الموت مع كل من كان حولي في العنبر. ننتظر الموت. كنت أنتظر الموت وشريط حياتي يمر أمام عيني سريعا. لم يكن في حياتي ما يشينني أبدا. يا رب أنا أحسن الظن بك. أنا مستعد للقائك. برقت في عيني أيضا ذكرى لقائي مع سارة العسكر. انتحت صورة أنور حسان ومحمد بسيوني مكانا قصيا في ذاكرتي. تذكرتهما يضحكان. لقد تم فصلهما من المصنع. لقد كان هذا هو الخير لهما. ها نحن ننتظر الموت في حين ينعمان هما بالحياة وإنما لله وإنما إليه راجعون.

أهذه هي الحقيقة الوحيدة التي في الحياة. نحن لم نولد إلا لنموت. ما خلقنا في هذه الحياة إلا لنعمل ثم نحاسب بعد الموت. الحياة بلاء والموت بلاء. صدقت يا ربنا إذ قلت: «تبارك الذي بيده الملك وهو علي كل شئ قدير. الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور».. الحمد لله أنني حفظت كتابك وكنت له من التالين. كنت أراجع القرآن دوما وأتعهد. كان شفاء لجروحي ودواء لروحي.

اللهم ثبتني به. كنت كلما ألم بي حزن أو خوف أقرأ سورة يس. بدأت أقرأ وأرتل. أشعر أنني لا أستمع إلي صوتي. كانت أمي تقول لي ستحفظ القرآن ويحفظك. الحمد لله يا أمي. لقد حفظته وحفظني. اللهم احفظنا بحفظك وأظلنا برحمتك. وأنقذنا بفرجك وتوفنا وأنت راض عنا. ننظر الآن فرجا من الله. لم يكن فرج الله ببعيد. لقد كانت هناك آلات تعمل من أجل إحداث ثقب كبير في أحد حوائط العنبر. هكذا صرخ أحد رجال المطافئ. صرخته أعادتني إلي الوعي مرة أخرى. شهقت. أصابتني الكحة عدة مرات. عطست وحمدت الله رب العالمين كما تعودت دوماً. كنت أغيب عن الوعي وأعود أحياناً. كنت أنتظر اللحظات التي لا تمر وأحسبها أعواماً عديدة تمر وأنا أغيب عن الوعي أحياناً فيمر شريط حياتي أمام عيني. أعود إلي الوعي قليلاً في أحيان أخرى فيملؤني الأمل بأنه لا يزال في العمر بقية. علي كل كنت أقول دوماً: إنا لله وإنا إليه راجعون. أتنفس بصعوبة شهيقاً ولا أعرف إن كنت سأخرجه زفيراً أم أنه سينحبس بداخلي لتكون النهاية. كنت أكرر الشهادتين وأنا في وعيي وأزعم أنني كنت أكررها أيضاً عندما كنت أغيب في اللاوعي. رباه يا رباه. كن معي دوماً في كل حال. ليس لي سواك ولا ملاذ لي إلاك. اللهم لا حول ولا قوة إلا بك.

الحلقة الثانية والثلاثون

بداية جديدة

سمعنا صوت الآلات تنقب في أعالي الجدار. رأينا طاقة من النور ما تلبث أن تتسع في آخر العنبر. صاح صوت عبر مكبر الصوت: «برجاء الابتعاد عن الجدار. الجدار قديم ومتهالك ويمكن أن يسقط في أية لحظة. نرجو من العمال الابتعاد عن الجدار».

تنفسنا الصعداء وأحسبنا أن الفرج قريب. بدأت نسائم الهواء تهل علينا من جديد. خرجت أنفاسنا واقترب منا الأمل في العودة للحياة من جديد. دقائق من العمل وتم إزالة الجدار بالفعل. هلل العمال وكبروا وحمدوا الله. قمت ولكنني رقدت ثانية في مكاني. اكتفيت بأن أنظر فقط بعيني لأتفقد أحوال زملائي. هناك من كان قد فقد الوعي

بالفعل وغاب عن الحياة لدقائق. دخل رجال الإسعاف. الحمد لله ها أنا ذا حي أرزق من جديد. أنعمت علي يا رب بنعمة الحياة وأعدتني للدنيا سالماً. أفقت غير مصدق أنني سأعود إلي الحياة ثانية. كان هناك بعض العمال الذين أصيبوا بحالات اختناق شديدة.

قامت سادة الدوغري وهي تكح بصوت عال. أمسكت بيد ندا وحاولت أن تدلكها. يبدو أن النساء يتمسكن بالحياة أكثر من النساء. هكذا كانت تقول لي أمي. الرجال يستسلمون للموت سريعاً أما النساء فلا. عشرات الرجال من المتكومين علي أعتاب باب الخروج والذين داس بعضهم علي بعض من أجل التكالب علي الخروج من البوابة الضيقة كانوا في حالة صعبة. كل النساء في العنبر كن في حالة جيدة وإن تظاهرن بالإعياء. أصر رجال الإسعاف علي حمل الجميع في سيارات الإسعاف إلي المستشفى.

يبدو أنها الفرحة بالحياة هي تلك التي منحتني القوة لأعود إلي الوعي ثانية. حالة من فقدوا الوعي وحالة من أصيبوا بالاختناق أحزنتني. بدأ ندا يتنفس. سحب يده من يد سادة في زهول. ظلت واقفة بجواره. سمعتها تقول له: «ألف سلامة يا ريس». فتح همام الحفناوي عينيه وبدأ في التحرك ولكنه كان يتألم وكذا رجاء شوكت ولكنها كانت تشعر بضيق التنفس. تحسس همام رأسه فوجد بعض الدماء فبكي غير مصدق. ابتسمت أحلام لي في صعوبة وهي تسعل بشدة. نظرت إلي نهاد في غضب ولكنها حاولت أن تتحامل علي نفسها وعلي غضبها وغمغمت قائلة في سعادة وبمرارة: «الحمد لله لا زلنا أحياء».

خرجت محمولاً في زهول علي النقالة وأنا غير مصدق أنني قد نجوت. لاشك أنها دعواتك يا أمي. رائحة غازات تتسرب إلي أنفي فتصيب رأسي بالدوار. آثار حريق ونيران أستنشقتها فأشعر بدوار غريب وأشعر أن يدي تؤلني. قد تكون يدي قد كسرت عندما وقع علي أحد العمال ونحن نندافع للخروج. أسمع صوت طقطقات عمودي الفقري. أخشي أن أكون قد أصبت بكسر في الظهر. أشعر بآلام شديدة تتأبني الآن. يحملني رجال الإسعاف وأنا أقول لهم إنني بخير. هناك من هو حالته أصعب مني. رأيت رأس همام والدماء تتسرب منها. كدت أصرخ وأنا غير مصدق أنني قد نجوت. في هذه اللحظة تضاعفت

الأمي. كنت مستلقيا علي ظهري. رأيت سارة العسكر غاضبة تصيح في وجه جميع موظفيها وتتهمهم بالتقصير. كانت تصرخ وتقول: «كيف حدث هذا. أنا أشغل في مصنعي مجموعة من الثيران». اتجهت إلي سيف غرس الدين وصرخت في وجهه: «أنت غبي. ليتك كنت معهم بالداخل. ليتك مت يا أخي. عرفت أنك كنت معهم في هذا العنبر قبل لحظات مما حدث. مخصوم منك ثلاثة أيام. هل أنت غبي؟ لماذا لم تتأكد من سلامة وأمن العنبر». لم يستطع سيف أن يتحدث. جري إلي ندا الذي كان وجهه شاحبا وغابت عنه الابتسامة تماما. كان في زهول تام. صرخت سارة العسكر في وجه سيف وقالت له في هيسريا: «ألست أكلمك أيها الغبي؟ كيف تتركني وتذهب؟» رد عليها بأدب قائلا: «أطمئن علي ندا يا ست الكل». نظرت إليه في غضب وقالت بصوت زاعق: «ملعون أبوك علي أبي ندا علي كل العمال. أنا في كارثة حقيقية. أنا التي سأتحمل كل الخسائر. ملعون أبوكم كلكم. أنا لا يهمني العمال ولا تهمني أنت ولا يهمني أي أحد».

غالب ندا آلامه وقال لسارة وهو يشير بيده: «الحمد لله يا ست الكل. سليمة إن شاء الله. المهم الناس يا ست سارة». نظرت إليه سارة في ضيق وقالت: «هذا كلامكم أنتم. ملعون أبو العمال وملعون أبو الناس، أنا التي سأتحمل الخسارة. لا. لن أتحملها بمفردي. سيتحملها كل عمال المصنع». أشارت إلي نجدي البقري قائلة: «لن يأخذ أحد مرتبه كاملا هذا الشهر ولا في الشهور القادمة. سيتم توزيع الخسارة علي العمال». هز نجدي رأسه. سكنت تماما. صرخت فيه سارة قائلة في تساؤل لا تنتظر منه الرد: «مفهوم أيها الحمار؟» اقترب منها عبدالله البندري وحاول أن يربت علي كتفها ليهدئ من حالة الغضب الشديدة التي أنتابتها. أزاحت يده عن كتفها في غضب وقالت: «ابتعد عني الآن. أنتم كلكم أغبياء. كل هذه الخسائر سوف تصب علي رأسي». قال سيف موجهها كلامه لها في أدب جم: «يا ست الكل نحن لدينا بوليصة تأمين. كنا قد أمنا علي المصنع». صرخت في وجهه. يبدو أنها قد فقدت وعيها تماما. لقد صفعته بيدها علي خده فعلا. قالت وهي في قمة غضبها: «أنت غبي لا تفهم. العمل في المصنع قد يتوقف يومين أو أكثر. من

سيتحمل الخسائر أيها الغبي؟ حرام أن نخسر قرشا واحدا. أنتم تاكلون في قثاء محلولة. أنتم لا تحسون بالنار التي بداخلي. يجب أن أحاسبكم جميعا. أنتم تأكلون في فتة وأنا أتحمّل. كل شئ فوق رأسي. العمال سيذهبون إلي المستشفيات. ياللمصيبة!! ياللكارثة. سأدفع لهم يومياتهم وأنتم ستأخذون رواتبكم أيها الحمير. .. قاطعها عبدالله البندري وحاول أن يهدئها ولكنها ظلت تنتفض. تحسس سيف خده بيده. نظرت إليه غاضبا. وددت لو صحت فيه قائلا: متي ستثور علي هذه المرأة أيها الأحمق. لقد لطمتك وأهانتك أمام الجميع. لا أدري ماذا كنت سأفعل لو كنت مكانه. كنت قد وصلت إلي عتبة باب المصنع الرئيسي وصوت الصفعة التي هوت علي خد سيف غرس الدين ترن في أذني. أيتها الجبارة أيتها الظالمة المفترية. والله لو كنت مكانه لرددت لك الصفعة صفعتين. أي ذل هذا الذي تحياه يا رجل؟ بل أي ذل يعيشه كل من في هذا المصنع؟ يبدو أن عليّ أن أقبل عرض شكرية في العمل معها. لا لن أقبل. لن أقبل أن أكون تحت رحمة امرأة. ستظل تعيرني طول العمر بأنها كانت السبب في أن أعمل معها.

اختلطت الأفكار برأسي حتي ظننت أنني سأغيب عن الوعي ثانية. لقد غبت عن الوعي ولم أستطع التفكير في أي شئ ثانية. لم أعد أحس بشئ غير أن سيارة الإسعاف تتحرك بي وبمن معي من العمال. أحسست بوخزات الإبر في جسدي. هذه وخزة في العضل كنت أشعر أن وعيي ينسحب مني. آخر ما سمعت كان صوت آذان العصر وأنا في غياب تام عن الوعي. كنت أردد الآذان بقلبي وبلساني. الله أكبر الله أكبر. لا إله إلا الله.

كانت هناك أصوات عديدة حولي. ميزت صوت كريمة المريضة وهي ترحب بمن حولي. لم أستطع أن أفتح عيني. قالت كريمة وصوتها يعيدني إلي الوعي مرة أخرى:

— لست وحيدا هذه المرة يا عبدالله يا مصري.

فتحت عيني بصعوبة بالغة وأنا أشعر أن الإضاءة بالغرفة شديدة. لم تتضح الرؤية في البداية. وجدت خطيبها حسام ينظر إليّ بابتسامة رائعة ويحمد الله علي سلامتي. نظرت إليهما ونظرات الحب تملؤهما.

أخبرتني أنها أبلغت حسام بوجودي في المستشفى فأصر علي المجئ ليطمئن عليّ. قلت له في إعياء واضح مستنكرا:

— أجئت لتطمئن عليّ أم جئت تطمئن علي حبيبة القلب؟ قل إنني كنت حجة لتأتي وتري خطيبتك.

— آه. زيادة الخير خيرين. جئت لأضرب عصفورين بحجر واحد.

— أراك وأطمئن عليك يا وجه الخير وأري خطيبتي. هل لديك مانع؟ لا يا عمنا حسام. تشرف وتنور.

— قبّل جبيني ونظر إليّ في تهلل قائلاً:

— ولدي خبر قد يفرحك

— ألا تزال هناك أخبار سعيدة في هذه الدنيا

— طبعاً. الحمد لله. وفقني الله بعمل جديد

— يعني سترك الفندق؟

— الحمد لله سأعمل في السعودية. لدي عقد عمل لي ولك

— لي أنا؟

— طبعاً لك. يشرفني أن تكون معي. أنت وجه السعد عليّ

أخبرني أنه سيسافر مع كريمة إلي السعودية. سيستقلان

بحياتهما. كانت تنظر إليه بكل حب وكان يبادلها نفس النظرات.

أخبرتهما انني لا يمكن أن أسافر. اعتذرت لهما حقاً. أمي هي

الكنز الوحيد في حياتي. إنها جنتي في هذه الدنيا. إنها طريقي إلي

الجنة. إنني سأظل أجاهد فيها ومن أجلها. سأظل دوماً بجوارها

وتحت قدميها. الجنة تحت أقدام الأمهات. لا يمكن أن أترك

أمي. ما أن نطق بلفظة أمي إلا وكانت أمامي. اعتدلت وقبّلت

يدها. أخبرتها أنني بخير لأنها تدعو لي. سألتها كيف عرفت

بما حدث فوجدت إياد ناصر يبتسم لي ويحمد الله علي سلامتي.

استفسرت منه عن زوجته وعن أولاده. أتني ليزورني في البيت فلم

يجدني. عرف ما قد حدث بالمصنع. أصرت أمي علي أن تأتي معه.

لحظات وكثير زواري. وجدت ماجد بحيري يقترب مني ويقبلني

بنظراته التي تتسع لأبوة كل من في الكون.

لم يأت أحد من المصنع. كانت عيناى مشتتة تبحث في كل الوجوه

وتبحث عنها. كلما دخل أحد الغرفة كنت أتوقعها. كنت أنتظر أن

تأتي ولكنها لم تات.

حتي حمتو معلم المقهي جاء وزارني. أنور حسان ومحمد بسيوني الذي كان يبدو عليه التوتر والقلق أتيا لزيارتي وأصرا علي أن أكون معهما في المقهي عندما أعود للبيت. حلف المعلم حمتو صاحب المقهي بالطلاق أن تكون أول جلسة لي معهما علي المقهي عنده ريثما أتمائل للشفاء. عمتنا السعادة جميعا عندما أعلن حسام أن زواجه بكريمة سيكون أول خميس في الشهر المقبل. دعانا جميعا إلي حضور زفافه. كنت أستمع إلي كل ما يدور حولي وأنتظرها. أين أنت؟ لماذا لم تهتمي بالحضور إلي؟ ماذا حدث؟ يبدو أنه يجب أن يكون لدي شأن جديد معك. يبدو أنني يجب أن تكون لي بداية جديدة معك. أنا أتعجب كثيرا لعدم مجيئك.

تفرس ماجد بحيري قليلا في وجهي وقال بابتسامته الأبوية المحببة إلي قلبي:

— لماذا تنظر في وجوه الزائرين؟ هل تنتظر أحدا؟

لم أرد عليه. أصابني الخرس. ماذا أقول له. أقول له إنني أنتظرها ولا أدري لماذا لم تأت حتي الآن؟ قال لي ماجد ساخرا:

— هل تنتظر أن تزورك سارة العسكر؟

— لا

— لا أنصحك بانتظارها أن تأتي لزيارتك. إذا أردت أن تنتظر فستنتظر قرنا كاملا وصدقني لن تأتي

ضحك الجميع. طماننا ماجد بحيري وإياد علي جميع الزملاء. لما سألت عن همام الحفناوي علمت أن حالته صعبة وأنه في العناية المركزة. نظرت إلي ماجد وقلت له:

— ألن يأتي سيف للاطمئنان علينا؟

— يمكنك أن تنتظر قرنين ولن يجي. أنا رميت طوبة هؤلاء الناس. لن أعمل ثانية في هذا المصنع. الإنسان يجب أن يحافظ علي كرامته. لا كرامة لأحد في هذا المصنع.

نظر إليهم إياد وأكد أيضا أنه لن يعمل ثانية بالمصنع. اكتشفت أن سبب استقالة كل منهما واحد. كل شهر يتم خصم مبالغ كبيرة من المرتب. طيب أنا لم أحصل علي مرتب إلي الآن. خمنت أنهما قد

وجدا عملا بمصنع آخر. أكدا أنهما لم يجدا عملا.
وما هي إلا لحظات ووجدنا سيف غرس الدين أماننا يحمل بطاقة
من الورود ويهدي كل عامل وردة. كان يزور العمال ويطمئن عليهم.
تعجبنا جميعا لحضوره. لم يكن بمفرده. كان معه طاقم من المصورين
ومن مندوبي الصحف. كان يبتسم وهو يطمئن علي العمال. كان يطلب
من المصورين أن يضبطوا اللقطات حتي تظهر الصور في أحسن حال.
كان يبتسم بلا روح. كنت أشعر أنه كسير القلب. أردت أن أدير
وجهي بعيدا عنه. إنه رجل لا يحس. لو كنت مكانه لاختفيت عن
الناس أو مت خجلا. لقد صفعته سارة أمام الجميع. صفعته ولم يرد
عليها. قال لي سيف وهو يقدم لي الوردة وينظر للمصورين ويبتسم :
— أرجو أن تكون بخير. إن شاء الله ستكون بخير. إدارة المصنع
تتمني لك الشفاء

ثم توجه إلي ماجد وإياد وقال لهما بصوت ناعم هادئ :
— إدارة المصنع تتمني أن تسحبا الاستقالة. المصنع في حاجة إليكما.
لا يمكن أن تتركا المصنع في هذه الظروف الصعبة. أنا أعلم أنكم
تحبون المصنع. أعلم أن ولاءكم للمصنع سيمنعكم من تركه في مثل
هذه الظروف العصيبة.

كاد سيف أن يبكي. نظرت إلي دموعه والتي بدت لي كدموع
التماسيح وقلت له في تعجب :

— غريبة!! هل هذا كلامك أم كلام أم سفيان؟

— هذا كلامي. أنا مدير المصنع.

— طيب يا سيادة مدير المصنع هل توافق أم سفيان علي كلامك؟

— يجب أن توافق. أنا مدير المصنع .

لم أرد أن أستمع إليه. لقد أهانته أمام الجميع. توجه إلينا وقال
وهو يصلح من رابطة عنقه :

— إن شاء الله ستجدون بداية جديدة في المصنع. سيتغير كل شئ.

ثم توجه إلي ماجد وإياد ورجاهما بدموع صادقة أن يذهبا إلي
المصنع في الغد وأكد لهما أنه سيبذل كل جهوده لحل مشكلات المرتبات
والمسكن مع الإدارة كما أكد أن الظروف ستختلف تماما بعد هذا الحادث.
نظر إليه إياد في غضب وقال :

- كان سيتم طرد زوجتي وأولادي من السكن بالأمس لأن إدارة المصنع لم تدفع مرتبنا
- ابتسم سيف غرس الدين وقال في رجاء وكأنه يتوسل للجميع :
- سنحل كل المشكلات. مكتبي مفتوح للجميع. لن نأكل قرشا واحدا من حقوق العمال في المصنع. سنفتح صفحة جديدة. ستلمسون التغيير بأنفسكم. رب ضارة نافعة. صدقوني يا جماعة. سنحل كل المشكلات ونذل كل السبل لإرضاء العمال. نحن في ظروف صعبة وعلينا أن نتكاتف جميعا من أجل المصنع. سيتغير كل شيء.
- انصرف من أماننا ولا أحد يصدقه ، ولكن يبدو أن ماجد وإياد سيعودان إلي العمل من الغد. لقد قررا أن يكونا مع الكذاب حتي باب الدار.
- مرت ليلتي الأولى في المستشفى علي خير ولكنني لازلت أنتظر. لم تأت تلك التي كنت أنتظر أن تزورني. سعدت بزيارة كل من أتي ليطمئن إلي ، ولكنني كنت أنتظر أن تزورني هي. لا أعرف لماذا لم تأت. كنت أتعجب وأحاول أن أجد أي مبرر لها. لا أجد أي مبرر لها. لاشك أنها علمت بما حدث لنا في مصنعنا. لقد كتبت الجرائد والمجلات عن هذا الحادث الضخم الذي تعرض له مصنعنا. ماس كهربائي كبير وانفجار ضخم أصاب عذربنا وبعض العنابر المجاورة. لم تتحمل ماكينات الكهرباء الأحمال الضخمة. نفت سارة العسكر في تصريحات صحفية أن يكون الحادث مدبرا. أكدت أيضا أنها ستقوم بتغيير نظام الكهرباء. حمدت الله علي أن أحدا لم يمت في هذا الحادث. نشرت الصور لها وهي تبتسم. أكثر من لقاء صحفي أكدت فيه أنها ستهتم بالمصابين وستطمئن عليهم وعلي ذويهم.
- نظرت في الجريدة ثم رميتها. وددت لو قلت للعالم أجمع إنها كاذبة. إنها امرأة بلا قلب حقا. أية امرأة هذه؟! كان كل ما اهتمت به بعد أن خرجنا إحصاء الخسائر. البشر لا يهتمونها. المهم الخسائر التي ستحقيق بها. يالها من امرأة!! ليس لديها ذرة من إحساس أو شفقة.
- واصل محمد بسيوني قراءة الأخبار لي. كان معي بمفرده بعد أن انصرف الجميع. قلب الجريدة كلها. ابتسم عندما قرأ خبرا عن أن التحقيقات الأولية تشير إلي أن الحادث غير متعمد. قال في فرحة غامرة بعد أن ترك الجريدة جانبا :

- والله إنها حمارة غبية. سارة العسكر لاتفهم شيئاً. نهاية الظلم بشعة. قرأ محمد بسيوني خبراً آخر في صفحة أخرى لكاتب يزعم أن الحادث مدبر. امتعض وجهه قليلاً وقال:
- لماذا هذه الشكوك؟ لن يصلوا إلي الفاعل نظرت إليه وسألته والشك يملؤني:
- هل تعتقد أن الحادث مدبر؟ هل يمكن لأحد أن يقتل العمال الأبرياء لينتقم من ظلم سارة العسكر؟
- يمكن. المظلوم يمكنه أن يفعل أي شئ حتي يقتص لنفسه.
- وما ذنب الأبرياء؟
- سكنت قليلاً ثم نظر إليّ في غيظ شعرت أنه يحرقه من الداخل. شعرت أن عينيه تريدان قول الكثير من الأشياء ولكن يبدو أنه سيطر علي لسانه وقال في هدوء:
- يجب أن يذهب بعض الأبرياء ليتحقق العدل
- ولكن هذا حرام. الله هو العدل وهو الذي ينتقم للمظلوم لم يستطع أن يسيطر علي لسانه فقال في اندفاع:
- أنت لا تعرف. أنت لم تحس بالظلم مثلي. أحياناً يحرق الإحساس بالظلم قلوب المظلومين ويستأخرون العدل فيريدون أن يحققوا العدل بأيديهم
- ولكن الله هو المنتقم الجبار. هو الحكم العدل.
- انفجر بركان الغضب لديه فطفح علي لسانه وقال:
- لن أنتظر فقد أموت قبل أن أري عدل الله. سأحقق عدل الله بيدي لا أدري لماذا كان يتحدث بانفعال شديد. كان يشير بقبضة يده ويضمها ثم يضرب علي صدره وكأنه هو الذي سيحقق العدل. شعرت بالخوف منه. لماذا تحول بكلامه إلي صيغة أنا؟ كانت عيناه تنظران في غضب وهو يتحدث وكأنني أري الشرر ينطلق منهما. حاول أن يصلح خطأ لسانه فقال في تردد:
- أقصد أن المظلوم لن ينتظر حتي يري عدل الله. قد يحاول ان يحقق العدل بيديه
- نظرت إليه بهدوء وقلت بصوت منخفض متسائلاً وكأنني ألومه:
- حتي ولو علي حساب الأبرياء؟

دخلت كريمة علينا. تعبيرات وجهها تنم عن الحزن. أنا أعرفها جيداً. انقبض قلبي. كانت جريدة المساء بيدها. حاولت أن تخفيها ولكنني عذمت علي أن آخذها منها. شعر محمد بسيوني بالخوف والفرع عندما دخلت. خشي أن تكون قد استمعت إلي حوارنا، ولكنه تظاهر بعدم الاهتمام ثم وقف في فرع وسألها:

— ما الأخبار؟

لم ترد، ولكنها بكت قائلة عندما كرر سؤالها وضغط عليها:

— مات اثنان من عمال المصنع الآن.

خرجت في هدوء. كان من الممكن أن أموت أنا. ساد الصمت بيننا. بكى محمد بسيوني وتهاوى علي الباب. نظرت إليه وسألته عن سبب بكائه فلم يرد علي. خرج وأنا أشعر بحزنه يماً عينيه ويفيض علي تعبيرات وجهه. تري من الذي مات من زملائنا؟ أكون همام هو الذي مات؟ كان يلوم ندا ويطلب السماح. أيمكن أن يكون ندا؟ لقد كان يطلب السماح ويستغفر.

مصر كلها صارت تعرف ما حدث لنا. ألا تعلمين أنت ما حدث لي؟ سأخرج بعد يومين لأستطلع الأمر. التمس لأخيك العذر. لا أجد عذراً ألتمسه لك. ألا يمكن أن تكون مريضة؟ ألا يمكن أن يكون قد حدث لها أمر جلل لها منعها من أن تزورني؟

مرت الليلة الثالثة وسأخرج غداً من المستشفى. إنها حتي لم تتصل بي لتطمئن علي. ماذا يمكنني أن أفعل؟

غصت وحدي ثانية في الوحدة والظلام. عاد محمد بسيوني. ظنني نائماً. سمعت بكاءه ونحيبه. تظاهرت بالنوم حتي نمت فعلاً. رأيت أنني أتشاجر معها في حلمي. لماذا لم تأت. نظرت لخاتمها في يدي وأنا أحلم. أين أنت؟ ما الذي يمنعك من زيارتي؟

الحلقة الثالثة والثلاثون

يوم وفاة الزعيم

وكما ظهرت في حياتي فجأة اختفت فجأة. أليست هذه هي الحياة وأليس هذا ما اعتدته منها؟ إنها تمنع ولا تمنح، وتأخذ ولا تعطي. لا تجيب رجاء ولا تعطي سائلاً. هي الحياة كما خبرتها. تخيب رجاء من يطلب ولا تلبي حاجة لمن يرغب. لماذا اختفت؟ ولماذا تختفي في هذا التوقيت بالذات؟ لقد علمت بالتأكيد ما حدث لنا في مصنعنا. من المؤكد أنها قد علمت. رجاء شوكت صديقتها ومن المؤكد أنها أخبرتها. كل يوم يمر وعشرات التساؤلات لا تكف عن التلاعب والتطاحن في أرجاء عقلي وفي جنبات تفكيري. أشعر بنيران الشماتة تندلع في تعليقات نهاد ونظراتها. لا أستطيع أن أدرا عن نفسي الشبهات الماثرة في أحاديث زملاء من حولي. كنت أحرص علي أن ألبس خاتم الخطوبة في يدي ولا أخلعه أبداً إلا في البيت. ماذا يمكنني أن أقول وكيف يمكن أن أفسر غيابها. هاتفها مغلق دوماً ولا يرد. أكثر من مرة تسألني أمي عن شكرية ولا أستطيع أن أجيب.

ذات ليلة كنت أشاهد التلفزيون مع أمي. كنت أتجنب النظر إليها. إنها تعلم كيف تستخرج مني ما تريد. هي أمي وهي التي عجننتني وخبزتني كما كانت تقول دوماً. كنت أتحاشي النظر إليها وكانت ترمقني وتسكت. لا أخلع خاتم الخطبة إلا عندما أكون في حجرتي وأثناء النوم فقط. وددت لو أستطيع التخلص منه في أقرب فرصة وبأية طريقة. بأي وجه سألقي الناس؟ كيف ستنظر لي نهاد؟ هل أنا معدوم الحيلة حتي لا أعرف ما الذي يدور حولي؟ حاولت أن أحادثها مراراً وتكراراً ولكنها لا تجيب. ألا يمكن أن تكون قد ماتت؟ طيب وأين أبوها؟ لماذا لا ترد علي التليفون ولماذا يكون هاتفها دائماً مغلقاً أو غير متاح؟

هل تخشي من أن تعلن أنك غيبي أحمق. لقد فرضت عليك هذه الخطبة ولقد وافقت عليها بدون تردد أيها الأحمق. من هي حتي تطمئن لها؟ أنت حتي لا تعرفها. كيف نسقت الأمور مع أمك وأعدت كل شيء

وكننت أنت آخر من تعلم؟ لن ألقى اللوم عليك يا أمي. أنا المخطئ. كنت أنظر إلي أمي خلسة. سمعت المطربة تغني قائلة: «قولوا لعين الشمس ما تحماشي أحسن حبيب القلب قالي صابح ماشي». نظرت لي أمي قليلا ثم قدمت لي كوب اللبن الساخن ونظرت في عيني قليلا. سألتني عن أخبار المصنع وعن لقائي الذي لم يتم مع سارة العسكر. كانت ردودي مقتضبة. أخشي أن تسألني عن شكرية. ماذا أقول لها إن سألتني؟ يجب أن أتهرب من الحديث مع أمي. تظاهرت أنني أتشاءب. وضعت ظاهري يدي اليمنى علي فمي متظاهرا بالرغبة في النوم. سأعرف كيف أهرب من نظراتها. سأعرف يا أمي كيف أفر من أسئلتك التي تنوين توجيهها إلي لأنني لا أملك إجابة وليس لدي أي رد قد يشفيك أو يشفيني.

قلت لها إنني أحب هذه الأغنية يا أمي. ليتني ما قلت لها هذا. ستسألني عن شكرية. أليس من المفترض أن أحب خطيبتني أو أن تحبني خطيبتني. غيرت دفة الحديث قائلاً: أتذكرين يا أمي عندما كنا صغارا وكنا نسمع صوت الطائرات عندما قامت الحرب؟ إنني أتذكر يا أمي. أتذكر علي الرغم من أنني كنت طفلا صوت أزيز الطائرات وتذكرت كيف أنك كنت خائفة ولكنك تماسكت وطلبت من الله أن ينصرنا وينصر عبدالناصر. سألتني عن سبب هذا الكلام في هذا الوقت. قلت لها: سأقول لك كيف حرف المصريون هذه الأغنية. لما عرفنا بالنكسة وبما حدث لنا تغيرت هذه الأغنية فصارت: «قولوا لعين الشمس ما تحماشي أحسن جيش ناصر قالوا راجع ماشي»

خدعنا الرجل وخدع أمة. لم تنطلق طائرة واحدة من مطارنا وكان أحمد سعيد يصرخ في إذاعة صوت العرب ويقول لقد أسقطنا طائرة للعدو. أسقطنا طائرتين. الله أكبر. أسقطنا ثلاث طائرات. كل هذا وطائراتنا قد ضربت ولم تتحرك من مطارنا. الأغاني تتوالي الله أكبر فوق كيد المعتدي.

هذه أفضل طريقة أهرب بها. سأحدث في السياسة وأغرقها في ذكريات الماضي وأيامنا الصعبة الماضية. هذا هو مخرجي الوحيد. سأدغدغ مشاعرها الوطنية.

لن أقول لك لقد خدعتني شكرية كما خدعنا ناصر.

قلت لها خدعنا ناصر فهطلت دموعها. سأحكي لها ما عشته وما قرأته عن سيرة عبدالناصر فلقد كانت تحبه. أرجو من الله أن تنسي تماما حكاية شكرية.

هطلت دموعي وأنا أتذكر هذا اليوم العصيب. يوم وفاة الزعيم. مسحت دموع أمي ثم أخذت أحكي لها لأنسي ولأجعلها تنسي ما تود أن تسألني عنه. دخلت علي الأستاذ عبدالوهاب. كان حزينا. كانت معي سارتي الحبيبة. كان الهواء يطير خصلات شعرها الناعم الجميل. سبقتها في الجري كعادتي ولم تسبقني قط. كان كل صباح وأنا معها أنعم فيه بالسعادة. وجدت الأستاذ ساهما. كانت معه الصحيفة. وجدت العنوان الرئيسي فيها موت الزعيم. موت البطل. قرأت مقولة ناصر: إن مات عبدالناصر فكلكم جمال عبدالناصر. شعرت أن الحادث رهيب. كدت أصرخ: لا يمكن أن يقتلوه. كلنا عبدالناصر. عبدالناصر حبيب الشعب وحبيب الملايين. ربت الأستاذ علي ظهري وقال لا تخف. عبدالناصر سيلقي ربه شامخا عظيما. يسقط الخونة. يسقط القتلة. اعترض علي كلامه أحد المدرسين الملتحين قائلاً: الله يفحره ويجعل مثواه النار. لقد خدعكم حيا أيخدعكم ميتاً؟ والله أزعم أنه قد قتل. من قتل يقتل ولو بعد حين. كم قتل وكم اعتقل وكم عذب. لقد قتل أقرب الناس إليه. لقد قتل صديق عمره عبدالحكيم عامر وزعم الناس وقتها أنه قد انتحر من وقع الهزيمة. بلد استشري فيها الظلم. كان ناصر وعبدالحكيم عامر يتنافسان علي حب الراقصات والمغنيات. جهلة. شعب من الجهلة. دعوه يخدعكم حتي بعد وفاته. لقد صنعت منه تمثالا وعبدتموه. جعلتم منه أسطورة. في هذا اليوم أصدر ناظر المدرسة أمراً بمنع الإذاعة المدرسية لمدة أسبوع. أتذكر جيداً هذا اليوم يا أمي. الثامن والعشرون من سبتمبر في عام ألف وتسعمائة وسبعين. كان من أسود الأيام التي عشتها في حياتي. رأيتك تبكين عندما عدت من المدرسة. كنت تصرخين قائلة: من لنا بعدك يا ناصر. بكيت متأثراً ببكائك. قلت لك وقتها: لنا الله يا أمي. لن يتخلي الله عنا.

لماذا أتذكر هذه الأحداث يا أمي؟ أتذكرها في الحقيقة حتي لا تسأليني عن شكرية. لقد أقلقني اختفاؤها المفاجئ. تري أين أنت يا

شكرية؟ تذكرت أيضا أنه في ذلك اليوم الأليم يوم وفاة الزعيم أننا قد رجعنا من المدرسة مبكرا علي غير عادتنا. انصرفنا قبيل الفسحة. لا أدري إن كانت هكذا قد صدرت الأوامر أم أن الناظر خشي علي تلاميذ المدرسة من أية اضطرابات فأمر بصرف جميع التلاميذ. قالت لي سارتي ونحن في طريقنا إلي بيتها:

— أبي سعيد جدا بهذا الخبر

سعيد بموت عبدالناصر! ! سعيد بموت رمز الثورة والاستقلال. رمز الحرية وحركات التحرر. رمز الإلهام للثورات التي تطالب بالتحرر من الاستعمار.

وبالفعل ما أن وصلنا إلي البيت إلا ورأيت الزينات معلقة علي مدخل البيت. رأيت الفرحة علي وجه والدها فؤاد باشا. كان يضحك ويقهقه. أخذني في حضنه سعيدا وأعطاني قطعة كبيرة من الحلوي. أول مرة يحتضنني. شعرت بحضنه باردا. أعطاني قبة علي خدي فمسحتها. وددت لو أستطيع أن أزيل أثرها من علي خدي. أعطاني جنيها كاملا. سمح لي أيضا أن أدخل حجرته وأري أوراقه. زاره بعض الضيوف لتقديم التهنئة له بموت الطاغية الظالم علي حد قولهم. آخر الضيوف كان اسمه عبدالجواد باشا الخربوطلي. اسم غريب سمعته لأول مرة في حياتي وقتها. سليل عائلات الخربوطلي باشا. كان معه طفله الصغير أدهم. أدهم عبدالجواد باشا الخربوطلي. الدم يكاد يخرج من وجه عبدالجواد باشا. كان وجهه أحمر. كان ممتلئا ويعلو شففته العليا شارب جميل مهذب. كان يرتدي الملابس الفخمة التي تظهر عظمته وكذا ولده. شعرت بميل إلي الرجل ولكني لم أحب ابنه قط. كان أدهم سمينا مفرطا في السمنة ووجهه مشرب بحمرة مثل والده. كان الولد ذا بطن عظيمة. قارنت جسدي النحيل النحيف بجسده. أحبني عبدالجواد باشا وربت علي كتفي. قال له فؤاد باشا:

— عبدالله المصري

ضحك عبدالجواد باشا الخربوطلي ضحكة الباشوات وقهقهه قائلا:

— كلنا مصريون. من هذا الخلبوص يا فؤاد باشا؟

— ابن سيد جمعة المصري

— آه. الذي كان يعمل أجيرا عندك و...

لم يتم كلامه. أشار إليه فؤاد باشا أن يكف عن الكلام. نظر إليّ فؤاد باشا وكأنه يأمرني أن أنصرف. ليتني ما انصرفت. ليتني وقفت خلف الباب لأستمع إلي ما يقوله عن والدي. أبي الذي لم أره. أبي الذي عرفت أنه قتل. شعرت أنني اقتربت من الحقيقة. قد أعرف من قتله. تحفظ فؤاد باشا وعبدالجواد الخربوطلي باشا في كلامهما أمامي. تركا المكتب ونزلا في حديقة المنزل بعض الوقت. دق قلبي ووجدتني أذكر والدي. أبي. لقد مات وتركتني. أدهم معه والده وسارتي مع والدها وأنا وحيد بلا أب. أنا يتيم. الحمد لله. سيدنا محمد عليه الصلاة ولد يتيما. مات أبوه عبدالله وهو في بطن أمه السيدة آمنة بنت وهب. لقد أوصي النبي باليتيم. ربت عبدالجواد باشا الخربوطلي علي ظهري. أعطاني. فرحت بالجنينة وأردت أن أذهب لأعطيه لأمي. سأعطيه لأمي ولكن بعد أن أمكث مع سارتي قليلا.

لم أحب أدهم ولد الخربوطلي باشا. شعرت بكرهيته من أول وهلة. اغتظت منه. إنه يحاول التقرب من سارتي ويستغرب وجودي. ينظر إليّ شذرا وكأنني لا أعجبه. كأنه يقول لها كيف ترضين بأن يكون معك مثل هذا العبدالله الحقيير. همس إليها وقال: «سمعت من أبيك أن والده كان أجيرا عندكم». سمعت ما قاله وتجاهلته تماما. هزت سارتي رأسها بالإيجاب. لا يهمني. لن أترك سارتي لك. لقد انفرد أدهم بسارتي. كانت ملابسي رثة حقيرة لا تقارن بملابس ابن الباشا. كان دائما ما ينظر إلي ملابسي وملابسه. أحست سارة أنني قد انزويت جانبا. أدت وجهي لهما وتركتهما وجئت إليك يا أمي أحمل كل هموم الدنيا وآلامها. جئت إليك بعد أن وقعت الكارثة. ليتني تركتهما وما مكثت معهما. كانت سارتي تجري ويتبعها أدهم. كان يضاحكها وتضحك. كان يسابقها وتسبقه. قالت له: «أنا أسبقك ولكنني لم أسبق عبدالله أبدا».

نظر إليّ في تحد وقال في غرور:

— نتسابق من هذه الشجرة إلي آخر سور البيت

وافقت. قالت له سارة إن عبدالله سيكسب السباق. نظر إليّ واحتقرني بنظراته وربت علي كرشه وقال مشيرا إليّ في سخرية:

— أهذا يسبقني وأنا أدهم ابن عبدالجواد باشا الخربوطلي؟
رسمت لنا سارة خطا وقررت أن تشترك في السباق. صفرت
بصافرتها. كنت الأول كعادتي. قبل خط النهاية تظاهر أدهم بأنه
وقع. قال في غضب:

— لا يمكن أن تحتسب هذه المرة. لا يمكن أن تسبقني. لقد وقعت.
تأكدت أنه لا يمكن أن يسبقني. لقد أخذ يكح وينهج. قلت له متحديا:
— يمكنني أن أسبقك في المرة الثانية

عاودنا الكرة ثانية وثالثة وفي كل مرة كنت أصل السور أولا. كان
يصل بعدي متأخرا بوقت طويل. كنت أضحك وأبتسم. قلت له وأنا
فخور بنفسي:

— ولو أعدنا السباق ألف مرة سأكسب. أنا الأول دائما
رمقنني سارة بود وقالت لأدهم:

— فعلا. إنه الأول دائما. الأول في كل شيء.
اغتاظ أدهم. حاول أن يضربني ولكني بركت فوقه. لقد تمكنت
منه تماما وركبته. لكتمته عدة مرات حتي صرخ.

رمقنني سائق سيارة والد أدهم بحب. كان يتابع الموقف من علي
بعد ويفخر بي. حاول أن يخلص أدهم من قبضتي ولكني كنت أود
أن أثبت لسارتي أنني قوي ولا يمكن أن يغلبني أدهم. أصاب الجهد
من سائق والد أدهم. لم يستطع أن يخلص أدهم مني. غضب منه
أدهم لأنه لم يستطع أن يخلصه وقال وهو يبكي: «والله سأقول لبابا».

جاء والده غاضبا وشدني من فوقه وصاح موجهها كلامه لفؤاد باشا:
— أهكذا تترك أولاد الجرابيع في بيتك؟ لقد ضرب ابني وأدمي وجهه.
صرخ في فؤاد باشا وانطلق الشرر من عينيه وقال بغضب:
— هات الجنيه الذي أعطيته لك.

نظر عبدالجواد الخربوطلي إلي السائق في غضب وقال:

— أنتنظر وتتفرج علي أدهم وهذا الحيوان يضربه؟ لماذا تركته يضربه
يا صادق؟

أعطيته الجنيه. نظر إليّ في غضب. أخذ فؤاد باشا ضيفه وابنه
إلي حجرة مكتبه. تركوني. اقترب مني السائق عم صادق وأخرج من
جيبه ورقة مالية فئة الربع جنيه. ربت علي ظهري ومسح دموعي

وقبّلني قائلاً:

— ولا يهملك يا عبدالله يا ابني.

هدأت قليلاً. ابتسم في وجهي وقال لي:

— رجل مثل أبيك. من خلف لم يمت.

نظرت إليه في اهتمام وسألته:

— وهل تعرف أبي؟

— طبعاً. عز المعرفة. كان ابن حلال. شجاع جرئ لا يخاف لومة

لائم في الحق. الله يرحمه. قتله أولاد الحرام.

لم يكمل كلماته. خرج عبدالجواد الخربوطلي في غضب مع ولده

وفؤاد باشا. نظروا إليّ في غضب. خفت من نظراتهم التي شعرت أنها

تخترق قلبي. هرعت إليك يا أمي وكأني أسابق الريح. لم يلحق بي

أحد. انصرف الخربوطلي وولده غاضبين. دخل علينا فؤاد باشا غاضباً.

بكيت كثيراً فلم يكن لي سوي البكاء. بكيت أنت أيضاً يا أمه.

لم أدر بنفسني إلا والرعب يملكني. كان فؤاد باشا يسب ويلعن.

أنت سارة وقالت لأبيها:

— أدهم مخطئ يا أبي. لقد هم بضربه أولاً. لا ذنب لعبدالله. لقد

سابقنا فسبقنا.

نظر إلينا فؤاد باشا في غضب وقال بصوت زاعق غاضب لنا

ليهدئ من روع ضيفه:

— والله لأريكم. أنتم في بيتي وتفعلون هذا في ضيوفي. لن أسامحكم.

أخذ سارتي ومشيياً وتركنا في أحزاننا يا أمي. أذكرك هذه الأيام السوداء؟

أذكرك يا أمي؟ أيامنا تكثر فيها الأحزان دوماً ولا تقل.

قبل أن أترك المدرسة مع سارة يوم موت الزعيم كنت قد سمعت

المدرسين يتحدثون في همس. رأيت أحد الفراشين يتنصت ويستمع

لما يقولون. وبعد يومين أتى رجال الشرطة وألقوا القبض علي بعض

المدرسين الملتحين. اكتشفت أن الناظر يخشي من هذا الفراش. سمعت

المدرسين يقولون إنه يكتب التقارير عنهم.

ابتسمت أمي وقالت: يومها جئت وسألتني عن معني كتابة

التقارير. أذكر جيداً كيف قمت باحتضاني وطلبت مني ألا أتكلم قط

في السياسة. قلت إننا مساكين.

كتب عنا عبدالجواد الخربوطلي تقريراً واشتكاناً للشرطة. تم القبض عليك. هم الذين كانوا يحتفلون بموت عبدالناصر وأنت التي كنت تبكين. الحبس ملئ بالمظالم. مصر صارت سجناً كبيراً يملؤه المظلومون. الحمد لله أفرج عنك الضباط بعد يومين عشتهما في قمة المرارة. نحن فقراء ولا نعلم شيئاً عن السياسة. قُبِلَ أحد الضباط يدك عندما علم أنك ليس لك في أي شيء. الله يسامحك يا عبدالجواد يا خربوطلي. أنا كنت السبب. ما كان عليّ أن أضرب ابنه أو أسبقه. قلت لأمي: الظلم في كل مكان. استشري الظلم حتي بين طبقات الناس البسيطة. الظالم يظلم والمظلوم يظلم غيره أيضاً. حتي كتاب التاريخ يظلمون الشخصيات المعارضة لتفكيرهم. صار الظلم السمة الأساسية هنا يا مصر. قرأت في بعض الكتب لمن يظلمون عبدالناصر يقولون أن حادثة المنشية في السادس والعشرين من أكتوبر عام أربعة وخمسين كانت حيلة دبرها عبدالناصر للتخلص من الإخوان وكافة خصومه السياسيين. تاريخنا قذر يا أمي. تاريخنا ملوث بالدماء والمؤامرات والمكائد.

سألتني أمي: «وما الذي ذكرك بحادث المنشية الآن؟» قلت لها: بمناسبة ذكرى وفاة عبدالناصر وما حدث لي في هذا اليوم سأقول لك إنني قد قرأت عشرات الكتب يا أمي. كنت أتساءل عن الذين يكتبون التاريخ وكيف يكتبونه. قرأت في كتب أخرى أن الحادثة حقيقية وأنه بالفعل قد تم إطلاق النار من شاب يدعي محمود عبداللطيف علي الرئيس وهو يخطب ومؤخراً قرأت كتاباً يعترف فيه أحد كبار قيادات الإخوان المسلمين وقتها ويدعي عبدالقادر عودة بتكليف خليفة عطوة ومحمود عبداللطيف بعملية اغتيال الرئيس. طيب كيف يقتحم أحد مكان تواجد الرئيس ويطلق عليه النار ولا يخاف ثم يواصل خطبته بنفس الحماس وبعدم الخوف؟ يا أمي لقد صرت أشك في كل شيء. صرت لا أدري أين الحق وأين الباطل. لقد اختلطت في ذهني كل الأوراق. صرت لا أعرف من الظالم ومن المظلوم. صرت لا أعرف من علي صواب ومن علي الباطل. قالت أمي: الله يرحمك يا عبدالناصر. ترحمت أنا عليه أيضاً.

أنتظرت أن تنام أمي بعد كل هذه المحاولات والمراوغات ولكنني

فوجئت بها تسألني سؤال NSF كل ما كنت أخطط له وأدبر له
طيلة هذا الوقت. لقد نظرت إليّ وقالت لي متسائلة:

— هل تخاصمت مع شكرية؟

لم أستطع أن أرد عليها. تثاءبت وقمت لأدخل حجرتي ولكنها
قامت ورائي مبتسمة وقالت وهي شبه متاكدة من قدرتها علي
استخراج كل ما تريده مني:

— ستخبرني بكل شيء يا عبدالله يا مصري. أنا أمك التي عجنتك
وخبزتك. قل ما حدث لأمك حبيبتك

— حاضر يا أمي. سأخبرك بكل شيء.

أوهام النصر

الحلقة الرابعة والثلاثون

القنبلة

صباح جديد وقلق جديد ينتابني وأنا في طريقي إلي المصنع. غصت كعادتي في همومي وذكرياتي. اليوم يجب أن أوقع هذه الأوراق. غدا آخر يوم في الشهر ويجب علي أن أعطي الأوراق لصاحب البيت الذي نسكن فيه. شكرية أيضا لم أعد أعرف عنها أي شئ. لا أدري لماذا أحسست أنني مستثار جدا هذا الصباح. أكون هذا بسبب الضغوط والمشكلات المالية التي أمر بها؟ أكون هذه الإثارة التي تؤجج شهوتي وغريزتي تنفيسا عما أعانيه؟ لا أظن هذا. أكون هذه نتيجة أحلامي بالأنثي التي ضاجعتها في حلمي بالأمس ولا أعرف حتي من هي؟ لا. لم أضاجعها. في الحقيقة هي التي ضاجعتني. كانت هي الفاعلة وكنت أنا المفعول به. لقد افترشتني وأشبعحت حاجتها كما أشبعحت أنا أيضا حاجتي. أنا لا أذكر تفاصيل الحلم ولكنني كان يجب أن أغتسل في الصباح حتي أستطيع أن أصلي الصبح. يا رب لك الحمد أن خرجت هذه الطاقة مني في منامي.

لقد مر العمر سريعا بي ويبدو أنني ساجن وأنا في خريف العمر. لم أتزوج ولم ألس جسد امرأة في حياتي بشهوة قط. كنت أسير في الشارع ولا أدري ما سر هذه الفورة التي لم أعتدها في جسدي. حاولت أن أجري لأتعب نفسي وأحمد ثورتها حتي أفرغ هذه الطاقة الزائدة في جسدي. لمحت قطا يجري خلف قطته زائغ العينين ويريدها. شعرت وكأنه يعربها بنظراته الجائعة. تابعتهما بنظري. راوغته وابتعدت. ناوشها واقترب بعد أن ماء رغبة وماءت مواؤها الراغب فيه بعد أن تظاهرت بموائها في البداية بأنها لا تريده. أذعننت له وركبها تحت أحد السيارات أمامي. اقترب منهما قط آخر ليتطفل عليهما، ففتح القط الذي هو أعلي قطته فمه فبأنت أنيابه وصرخ بشدة ففر هذا القط المتطفل خوفا من غضبته. لكم هو محظوظ فعلا هذا القط!! لقد تزوج بدون عناء. لا مهر ولا شقة ولا شبكة ولا خصام ولا ابتعاد شكرية. كذلك الكلاب أيضا. يتزوجون بلا مشكلات. إن هذا القط خير مني. لقد سعي إلي قطته. خطوة لم أقدم عليها قط في حياتي.

لقد انتظرت إلي أن خطبتني شكرية.

أستغفر الله العظيم. هذا بالنسبة للحيوانات. نحن بشر. ولقد كرمتنا بني آدم. وجدت نفسي أتساءل قائلاً في نفسي: «ألا تحتاج إلي المرأة فعلاً يا بني آدم؟ ألا تحتاج إليها يا عبدالله؟ أحتاجها. لماذا تأخرت فعلاً إلي هذا العمر؟ واجبي المقدس. كنت مشغولاً بغيري. وأين أنا وأين حق نفسي علي؟ وافقت علي الخطبة ولكن أين شكرية؟ لقد تركتني وصرت لا أعرف عنها أي شيء. تري أين اختفت؟ هل تركتني وخطبت رجلاً آخر؟ إني أتذكر احتضانها لي علي عتبة شقتنا. لم أكن مثاراً وقتها. لقد احتضنتني تعبيراً عن شكرها لي لأنني حسمت الأمر وأبعدت غريمتها نهاد واعترفت بها كخطيبة رسمية لي وأكدت أنه لا حق لنهاد فيّ مطلقاً. أغمضت عيني وتمنيت لو أنها كانت بين أحضاني الآن. تذكرت نظرات شكرية لي عندما أوصلتها ونظرت إليّ من شباكها بكل حب وأخبرتني أنها ودت لو ظللت واقفا طوال الليل لتعانقني بعينيها. أين نظرات حبك هذه؟ لماذا خرجت من حياتي بغموض هكذا كما دخلتها يا شكرية؟

شعرت بنفسي وكأنني أعود إلي أيام المراهقة الأولى. أيام الحاجة الملحة إلي الجنس. أيام الزهد في هذه المتعة علي الرغم من احتياجها بزعم التعفف. أيام كنت تتمني وترغب وتريد وتنتظر يا عبدالله أنك لا تحب البنات وترغب عنهن. أيام الشهوة المتدفقة والرغبة العارمة التي لا تستطيع أن تظهرها. أيام الكبت المغلف بالتظاهر بالبراءة. لا أزعج أنني عشت هذه الأيام قط. كنت منشغلاً بأمر واحد فقط. أن أكون الأول دوماً. لقد غلفت كل رغباتي وكبتها في صورة حب برئ طاهر لسارتي الحبيبة.

قفزت إلي ذهني صورة حنان عزت زميلتي بالجامعة وهي خارجة من حمام السباحة أول مرة زرتها فيها بالفيلا التي كانت تقطنها. كانت ترتدي المايوه فيظهر تقريبا كل تفاصيل جسدها. تظاهرت بالتماسك ولم أنظر إليها قط. أنا هنا من أجل أن أشرح لها بعض الدروس وفقط. أنا هنا من أجل أن آخذ كل شهر منها سنتين جنيتها مقابل تدريسي. لقد كان مبلغاً فاحشاً وقتها. كنت أحتاجه بشدة. لقد كبر أخوتي. البيت يحتاج إلي كل قرش. أمي كبرت ويجب عليّ أن أريحها.

اقتربت مني ورشت بعض قطرات الماء علي وجهي وقالت في إغراء:

— هل تنزل معي البيسين قبل الدرس يا أستاذ عبدالله؟ أقصد يا دكتور عبدالله

— البيسين؟

— آه البيسين يعني حمام السباحة

— لا يا حنان لا بي سين ولا بي صاد. هيا حتي نبدأ شرح الدرس من فضلك

— أنت صعب جدا. أنت أستاذ شديد

— أنا لا أهذر يا حنان. هل سنبدأ الدرس أم أنصرف؟ الساعة الآن الرابعة تماما

— دائما مضبوط في موعديك

كانت تتحدث بدلال وتتعمد أن تثيرني ولكنني كنت يقطا. لن تنال مني أي شيء. لو نالت مني رغبتها لتركنتني. يمكنها أن تأتي بأساتذة ودكاترة ليشرحوا لها ما صعب عليها. علي أن أتغفف. أنا فعلا أحتاج إلي الستين جنيها. لم تكن حنان جميلة ولكن يبدو أنه من حسن حظي أنها رأتنني وسيما. هكذا رأتنني. أعلم أنها كانت تريد أن تفترسني. هذا ما اتضح لي من نظراتها. يجب أن يثق في والدها. عرفتني به وقالت: «إنه عبدالله المصري. أول دفعتنا. مؤدب جدا يا بابا. لا يوجد أي شيء يشغله عن دروسه. جاد كما تري. صارم هكذا هو دوما».

سبحان الله. أحسست ان الرجل ديوث. يري ابنته شبه عارية ولا يغار عليها. كنت أغض نظراتي عنها. لم أستطع أن أتكلم. كنت أتحنن والخلجل يملؤني. كان يقهقه ويقول وببده كأس لا أعرف ما به: «بسم الله ما شاء الله. قمة الذوق والأدب والأخلاق. الولد لم يرفع عينيه من علي الأرض. اهتمي به يا حنان. الولد شكله طيب جدا. بسم الله ما شاء الله. ذكرتني بأيام شبابي يا بني. عليك يا حنان أن تهتمي به. لا تجعله يهرب كما هرب عشرات المدرسين منك. الولد تلمع من عينيه علامات الذكاء». ثم قهقه الرجل وحكي لي كيف أنها كانت تغضب المدرسين والأساتذة التي يأتون للتدريس لها منذ

كانت صغيرة. أخبرني عن الأستاذ الدكتور عالم اللغة الذي لم يستطع أن يكمل معها مرتين ثم هرب منها في المرة الثالثة. كان يقهقه مرة ثم يشرب من كأسه مرة. قال لها في رجاء: «أتمني ألا يهرب هذا الولد منك يا حنان. هذا الولد أتوسم فيه الخير. ستنجحين علي يديه. الولد بسم الله ما شاء الله في غاية الظرف والهدوء». ثم اتجه لي قائلا: «ولا يهتمك منها. ستعمل الواجبات التي تكلفها بها. سأتركك علي راحتك. تصرف وكأنك في بيتك يا عبدالله يا بني. لن يضايقك أحد هنا. من أجل خاطري تحملها. هي بنتي الوحيدة المدللة وأنا أعرفها». عرفت فيما بعد أنه يملأ كأسه بالخمير دوما. ماذا أريد من ابنته؟ هل أريد أن تكون داعية إسلامية؟

نظر إليّ مبتسما وقال: «سأعطيك ورقة بمئة جنيه لو نجحت حنان. أريدها ان تنجح بمقبول فقط. عملها عندي في شركاتي. أرني همتك يا بطل. لك عندي مكافأة أخرى. سنصحبك إلي عزبتنا في المنيا أسبوعا في الصيف. ما رأيك يا بطل؟ أنا صعيدي. أنا رجل وكلمتي واحدة». كدت أن أضحك. صعيدي ولا تغار علي لحمك؟! أيها الغبي. أنا مالي. لن أتحكم في الناس. عليّ أن أهتم بعملتي فقط. آخر كل شهر آخذ مظروفي وفيه ثلاث ورقات الواحدة بعشرين جنيها.

نفضت غبار الماضي وواصلت سيري. صرت أتحاشي أن أسير في الشارع الذي يؤدي إلي بيت شكرية. ليلة الأمس جلست علي المقهي ولم يأت محمد بسيوني إلي جلستنا وكان أنور حسان في قمة غضبه. صاح بي قائلا:

— لا أعرف لماذا أحس أن محمد بسيوني قد تغير كثيرا. لا أعرف ماذا أصاب الرجل. كلنا أموات. لم يعد يأتي إلي المقهي كما كان. دائما أشعر بالحزن في عينيه. يبدو أنه لا يريد أن يتكلم. زرتة في البيت فتعجل إنهاء زيارتي. أجده ساهما مفكرا دائما. إنه أصبح واجما. حتي النكتة لم يعد يضحك عليها. خسارتك يا محمد بسيوني يا قفاش. يبدو أنها عين وأصابته كنت أستمع إليه في وجوم. قلت له في أسي:

— كلنا أصابتنا هذه العين. مصرنا أيضا أصابتها هذه العين.

قال لي بأسئالا:

- تري من ذا الذي سأغلبه في الطاولة؟
- يمكنك أن تعلمني
- سأعلمك وستغلبني. أنا أعرف حظ المبتدئين
- ومالك تكلمني بسخرية هكذا؟ أنا كنت الأول دوما
- الأول في الدراسة وليست الطاولة كالمدارس والجامعات
- سأريك كيف أروض الحظ
- ستريني؟ إنك تحلم. أنا أعب الطاولة منذ أربعين عاما
- سأغلبك
- تتكلم كثيرا كرجال السياسة ولا تفعل شيئا
- سأفعل وأغلبك
- تركته بالأمس بعد أن تعلمت أبجديات الطاولة. رميت النرد
- وجربت حظي ولكنه هزماني. كان سعيدا وقال مفتخرا بنفسه:
- أنا قاهر النرد ومروض المحترفين
- هون علي نفسك. ما أنا إلا مبتدئ. سأغلبك غدا
- أنت تحلم. أنت لا تعرف من هو أنور حسان. لقد ولدت في
- طاولة يا عبدالله يا مصري
- سأتدرب وأغلبك غدا
- لو حدث هذا سأعتزل الطاولة فورا. سأنسحب من الطيطا
- الطيطا؟
- آه الاتحاد العالمي للطاولة كالفيفا.
- ضحكنا سويا. قال في حسرة: أين أنت يا محمد بسيوني. أين
- أنت أيها القفاش؟ أتعلم أن هذه كانت قفشة لمحمد بسيوني. هو
- الذي قفشها. إنه يأتي بالنكتة من الهواء. ربنا يرجعك لنا بالسلامة.
- انصرفت وتركته يترحم علي سهرات محمد بسيوني الحلوة.
- ها أنا ذا في طريقي إلي المصنع. أشعر بالضيق. كيف سأدخل
- إلي أم سفيان لأوقع هذه الأوراق بدون موعد. كان لدي موعد معها
- ولم أستطع أن أقابلها. رجعت بذاكرتي لآخر مرة كانت لطيفة ودودة
- معي وهي تحدد لي موعد اللقاء في الواحدة والنصف ظهرا. اختلطت
- هذه الصورة في ذهني بصورتها وهي غاضبة تسب وتلعن وتصفع سيف
- بيدها علي وجهه. تذكرتها كيف كانت زاعقة غضبانة. كيف لي أن

أتعامل معها؟ يجب أن أوقع الأوراق.

طراً بذهني سؤال: لماذا لم نستلم رواتبنا حتي الآن؟ بعد غد يبدأ الشهر الجديد. سأحاول بأية طريقة أن أقابل سارة العسكر. الله يرحم أيامك يا حاج حاج العيسوي. كنا نستلم مرتباتنا في يوم العشرين من كل شهر. كان ظالماً وكان يأكل حقوق العمال. أه. أيام رائعة قضيتها في مصنعه عندما كنت رئيساً للوردية في مصنعه. كان ظالماً ولكن مرتباتنا كنا نستلمها في موعدها باستمرار. لولا جوره علي حقوق العمال لما تركت المصنع.

الله يرحم أيام الوظيفة الحكومية. فعلاً صدقت يا أمي. إن فاتك الميري تمرغ في ترابه. تذكرت عندما كنت أقبض راتبي وأنا في الجامعة. معيد الجامعة كان يتقاضى خمسة وعشرين جنيهًا في تلك الأيام السابقة. ما هذا المبلغ الهزيل؟ لا يتناسب أبداً مع غلاء الحياة. رحم الله أيضاً أيام الوظائف الحكومية التي كنت أتنقل فيها وأستلم راتبي بانتظام. أيام ومضت.

لا يزال أمامي متسع من الوقت. يمكنني أن أتلکأ في سيري. يمكنني أن أفكر في أمور حياتي المضطربة. لا. لماذا لا أسرع وألتقي أم سفيان قبل أن تحين ساعة عملي في التاسعة؟ قد أستطيع مقابلتها والدخول إليها. اقتربت من المصنع وجو الكآبة والحزن يخيم عليه. لقد مات اثنان من زملائنا في المصنع. بعض اللافئات القماشية عليها كلمات تنعي بكل الحزن هذين الرجلين. أنا لا أعرف أيا من هذين الرجلين. رحمهما الله. كان من الممكن أن أكون مكانهما.

لم أجد دبابة واحدة تقف علي باب المصنع كما تعودت، ولكنني وجدت دبابتين اثنتين. حاولت أن أدخل فمعهني أحد الجنود وطلب مني بطاقتي الشخصية. نظر فيها وقال بصوت خشن جاف:

— أنت لا تعمل هنا

— والله العظيم أعمل هنا

— يجب أن تغير البطاقة ويكتب فيها أن محل عملك أحد مصانع سارة العسكر

— حاضر. سأدخل لأوقع الأوراق المطلوبة وسأغير بطاقتي.

إجراءات أمنية غير مسبقة لم أعتد عليها. تحسس جسمي وفتشني

تفتيشا غير آدمي. طالت يده مواقع حساسة في جسدي. كدت أضحك عندما مست يده بطني. أغار من هذه المنطقة. صرخ في زاعقا: - تحشم يا رجل.

وجدت فتاة جميلة تقف بجواره لتفتش السيدات. تمنيت لو فتشتني هذه الفتاة. كانت صغيرة لا يتعدي عمرها العشرين سنة. ألقيت عليها تحية الصباح ولكنها كانت عابسة. أنهيت تفتيشه. هناك جهاز إلكتروني يجب أن أمر عليه ليكتشف إن كنت أحمل آلات معدنية أو قنابل. لماذا كل هذه الإجراءات؟ يبدو أن الحادث الأليم الذي وقع بمصنعا جعلهم يشددون هذه الإجراءات. أعطي الجهاز الإلكتروني صوت جرس مزعج. نظر إليّ الجندي في غضب. استدعي سيف غرس الدين الذي أتى علي الفور. أمر أن يدخلني. تنفست بعمق عندما دخلت المصنع. قلت لغرس الدين متسائلا:

- متي أستلم مرتبي يا سيادة المدير؟
لم يرد عليّ وإنما واصل سيره تجاه مكتبه. أعدت السؤال مرة ثانية فنظر إليّ بغضب وقال:

- عندما تتم شهرا في عملك
- أنا أحتاج إلي بعض النقود لأعيش
- هذا هو نظام عملنا
- كيف أعيش إلي أن أتم شهرا؟
- دبر أمورك بالمبلغ الذي أعطاه لك إياد وماجد
كيف عرف بهذا الموضوع؟ تذكرت نظرات همام عندما أخذت المبلغ من إياد وماجد. لاشك أنه هو الذي أبلغ سيف غرس الدين بهذا. كانت نظراته جائعة للنقود ومريبة في نفس الوقت. أردت أن أسكت ولكنني قلت مستفسرا:

- هل أخبرك همام الحفناوي بهذا الأمر؟
- نحن لا تخفي علينا أية خافية في هذا المصنع.
- كلامك مضبوط يا أستاذ سيف. يبدو أنني أعمل مع أقوي جهاز مخبرات في العالم. مصنع به أدوات استخباراتية وعسكرية
- تكلم بأدب. هذه إجراءات الأمن
- تقصد إجراءات التجسس ونقل الأخبار

أسرع ليدخل مكتبه. لحقت به وقلت له في استعطاف:

— أود أن أوقع هذه الأوراق.

أمسك بالأوراق لينظر فيها ولكنني باغتهته قائلاً:

— ليس من سلطة حضرتك التوقيع علي هذه الأوراق.

لم أكمل كلماتي. لمحت أم سفيان تسير في بهو المبني الإداري. قام واقفاً من فوره وكأنه يستعد لآداء التحية لها. جلس عندما لم تنظر إليه ولم تعره انتباهاً. خطفت الأوراق من يده وتبعته خطواتها. جلس عندما ابتعدت. أسرعت خلفها لألحق بها. ألقيت عليها تحية الصباح. نظرت وراءها مبتسمة وقالت:

— صباح الخير يا عبدالله يا مصري

ازدادت نبضات قلبي. إنها تذكر اسمي. كل ما أريده منها أن أوقع هذه الأوراق فقط. شممت رائحة عطرها المتميز. هل أعترف بأنها واحدة من أجمل النساء التي رأيتهن؟ لا. يجب أن أتخفظ في رأيي. أنا أعرف أمور عمليات التجميل. أسمع عن الفئات اللاتي يجريهن عمليات التجميل المختلفة فيغيرن خلقة الله وفطرته التي فطر الناس عليها. تصغير الأنف ونفخ الشفاة وشفط الدهون وما إلي ذلك. أنا لا أصدق أنني أسير معها وسأدخل مكتبها. مهما كانت فهي امرأة. علي أن أستثير فيها كل نوازع المرأة. أستغفر الله العظيم. هل هذا كلامي وقد كنت علي وشك الموت من أيام. أنا لا أريد منها شيئاً غير توقيع هذه الأوراق. قوامها رشيق متناسق غير أنها قصيرة فعلاً. كل هذا الكعب بالحذاء الذي ترتديه. هكذا حال نساءنا. هذه حياتنا. آه من الفاتنات الطويلات. قلما تجد فتاة أجنبية غير طويلة. ماذا لو خلعت حذاءها ذا الكعب العالي؟ ماذا لو احتضنتها من الخلف وأنا أسير وراءها؟ أوه. أستغفر الله العظيم. ماذا حدث لك يا عبدالله؟ رائحتها حلوة وجسدها لدن طري يثيرني. ماذا حدث لك أيها الغبي؟ إنها ليست امرأة عادية. إنها صاحبة العمل. أيها الغبي تأدب حتي في تخيلاتك.

فعلاً علي أن أتأدب. أنا لم تثرني امرأة قط. ما الذي يحدث لك؟ إنها المرأة صاحبة عملك كما أنها امرأة متزوجة، ولكنها تنعت زوجها بالحمار وتأمرة وتنهاه وتتحكم فيه وتسيطر عليه.

إنها تقود السيارة. هي التي تأمره وتنهاه وتفعل بالمصنع ما تريد. إنها تستأثر بالسلطة المطلقة في هذا المصنع. أيتها الظنون الغبية التي تتحكمين فيّ الآن ابتعدي عني. ماذا أصابك أيها الغبي؟ كانت تسير وكنت أتبعتها بنظراتي. ماذا لو استدارت وضبطتني أنظر إليها وأشتتها وأشتتها أن أحتضنها من الخلف. يا للمصيبة!! لقد استدارت بالفعل ورأتني!! ماذا يمكنني أن أفعل؟ لن أغض بصري. لقد نظرت إليّ بجرأة وكأنها فهمت طبيعة نظراتي. ثبتت عيني في عينيها طويلا. تنازلت هي وغضت بصرها بعد أن أمسكت شفتها السفلي بأسنانها العليا. نظرت لي ثانية ثم غضت بصرها خجلا وحياء. ابتسمت ونظرت إليّ بنظرات مرحبة ثم قالت:

— يومك سعيد.

خشيت منها أن تتبدل حالتها وتقول لي كعادتها: «مخصوم منك ثلاثة أيام». استريا رب حتي أنجز مهمتي وأوقع الأوراق». واصلت سيرها في خيلاء وهي تبتسم. كانت تمسك بطرف ثوبها وكأنها أميرة تسير في بهو قصرها. وددت لو أمسكت بطرف ملابسها وحملت عنها عناء أن تمسك بثوبها. اقتربت منها ولمست كتفها بكتفي فابتسمت قائلة:

— ماذا تريد يا عبدالله يا مصري؟

ماذا أقول لها؟ هل أبلغها أنني أريد أن أوقع هذه الأوراق بأية طريقة؟ وجدتني أبلع ريقى ولا أرد. رفعت طرف ثوبها فبان لي مؤخرة قدمها. مؤخرة قدمها حمراء. إنها رائعة. يبدو أنها سهرت وقتا طويلا تدعك قدميها بقطعة من قالب طوب. ابتسمت لغباء تصوراتي. لاشك أنها تذهب إلي أفخم صالونات التجميل. رجلاها مدملجتان. ليس لها عرقوب يسئ إلي صورة رجليها الفاتنتين. ليست معرقة. كأن رجليها مصبوتان صبا. أي ساقين مرميتين هاتين!! أستغفر الله العظيم. دقت النظر أكثر في ساقها. ساقان جميلتان كما رأيتها من الخلف. آه لو أسرع وصرت أمامها. سأري الساقين من الأمام. قد يسعفني الحظ وأري ركبتها إن كانت لا تزال ترفع طرف ثوبها. سأري ابتسامتها وأري أطراف شعرها تتدلي علي جبينها. إنها بيضاء جميلة كما التقطت صورتها وحفظتها في ذهني من قبل. أود لو أري أسنانها ناصعة البياض وهي تبتسم الآن. أود أن أري شفتيها. إنها

تصبغهما بحمرة قانية. إنها تختلف بشكل كبير عن المرات القلائل التي رأيتها فيها من قبل. إنها هادئة وديعة الآن. لم أكن أدرك أنها شديدة البياض هكذا. حملتُ في سمانة رجلها اليسري ثم لمحت سمانة رجلها اليمنى. تخيلت ماذا سيحدث لي عندما أحتضن هاتين السمانتين بعضدي وأقربهما إلي صدري ثم أقبلهما بشفتي. لن يحدث هذا إلا عندما تكون راقدة. إنها رائعة. ما هذه الخيالات التي تراودني؟ يا إلهي!! ما الذي يحدث لي هذا الصباح؟

إنني لم أنظر لخطيبتى مثل هذه النظرات. ماذا حدث لي؟ إنني لم أتمعن حتي في النظر إلي ملامح وجه شكرية وهي خطيبتى. ألم يكن من حقي أن أنظر إلي وجهها وكفيها؟ شكرية امرأة عادية ولكن هذه سارة العسكر التي تتطلع إليها كل العيون. وجه خطيبتى لم أتفحصه جيدا. علي كل حال لقد كانت في عيني أجمل بكثير من نهاد. والله لم ألمح حتي كفيها ولا نظرت إلي يديها. حتي عندما كانت في حضني لم أفكر فيها بشهوة. ما تلوث فكري برغبة فيها كما تقتلني الرغبة الآن في النظر إلي كل جزء من أجزاء جسدك يا سارة العسكر. كيف تواتيني مثل هذه الرغبة وأنا أسير خلفها. سأسير بجانبها. لماذا تسبقني؟ لن أدعها تسبقني. لقد كنت أسبق سارتي وسأسبقك. سأسير بجوارك وسأحاذيك وسأسبقك. تري ما الذي طرأ بذهنك يا عبدالله؟ دخلت مكتبها وأشارت إليّ في ابتسامة رائعة مشجعة أن أتبعها. نظرت إلي سكرتيرها أمجد في كبرياء وتبعتها. نظرت أنا إلي أمجد في شموخ. رفعت رأسي وأنا أدخل مكتبها. سأدخل مكتب أم سفيان بدون إذنك وبدون انتظار كلماتك السخيفة ونظراتك الهازئة بي عندما لم أدخل لها المرة الماضية.

يا إلهي!! ما هذه الأبهة والفخامة التي ترفل فيها سارة وهي تهرع إلي مكتبها. مكتب واسع ضخم تملؤه الزينات والتحف. صور كبيرة هائلة ونقوشات رائعة في كل مكان علي الحوائط وفي السقف. مائدة كبيرة للاجتماعات. ما هذه الكراسي الفخمة. ستائر في غاية الروعة والجمال. مكتب لم أر مثله قط في حياتي. ما هذا الكرسي المتحرك الذي تجلس عليه ويدور بها كما لو كانت ملكة تأسر القلوب والعقول وأميرة تخطف الأبصار والنفوس؟ أي مكتب هذا؟ لم

أدخل مكتب وزير قط ولكنني اعتقدت أن هذا المكتب أكثر فخامة من مكتب الوزير. لم أستطع أن أتكلم لعظمة ما أري.
اعتدلت في جلستها وابتسمت لي متسائلة وكأنها حدست ما يدور بخيالي :

— ماذا تريد يا عبدالله يا مصري

لم أستطع أن أرد. ركزت بنظراتي علي شفتيها اللتين صبغتهما بحمرة قاتلة. وددت لو انقضضت علي شفتيها أقبلهما حتي إن أدي بي هذا إلي قتلي. لكم أنت جميلة يا سارة العسكر. قال أم سفيان قال؟ أنت أم قشطة أم عسل أم الجمال وأم الدلال. أنت أحلي من كل الصور التي رأيتها لك في مصنعك. الصور تظلمك. أنت فعلا أحلي من كل الصور. نظرت إلي فوجدتني في حالة ذهول أتفحص كل ملامح وجهها. شهقت من تخيلاتني إن أنا قمت واحتضنتها ثم طرحتها علي الكنبه لأحتضن رجليها. قالت لي بصوت حان رقيق ينم عن الدلال والأنوثة الطاغية :

— ماذا تريد يا عبدالله يا مصري؟ لماذا تنظر إلي هكذا؟

ابتلعت ريقني وكأني أبتلع شهد قبلاتها التي أتمناها في خيالي. فتحت فمي ولم أستطع أن أتكلم. قلت وكأنني أفيق من حلمي :

— أنا. أنا. .

ايتسمت ثم تشاغلث بالنظر إلي بعض الأوراق. غضت بصرها عني. تركتني أرتع في النظر إلي وجهها الصبوح الذي لم تلوثه علامات الغضب في أول هذا اليوم. ماكياج هادئ ليس كماكياج سادة الدوغري الصارخ. فرق كبير بين تلك البهلوانة العقربة وبين نسمة الصباح سارتي العسكر هذه. لا. ليست سارتي. ليس لي إلا سارتي الحبيبة حب العمر وأمل الطفولة والصبأ وسنوات الرشد. رأيتها تنظر في الأوراق باسمه. كانت توقع بعض الأوراق.

سبحان الله!! من يراها الآن وهي في قمة الرقة والأنوثة لا يراها وهي في قمة السخط والغضب وهي تزق وتصيح وتصفع غرس وتخضم من العمال ثم تصرخ في وجوه الجميع. انتبهت إلي أنني واقف بحضرتها واقتربت من المكتب وقلت لها :

— أرجو من سيادتك. ...

قاطعتني قائلة في دلال وهي تبتسم ابتسامة أعرض فتبرز حبات اللؤلؤ

البيضاء المتناسقة في فمها الدقيق الذي بدا لي كحبة فراولة طازجة فمنيت نفسي بوضع شفتي عليه لأقبلها عشرات المرات قبل أن أحتضنها:

— ماذا تريد؟

— أريد أن.. ..

— تريد أن.. ..

— آه. أريد أن أوقع هذه الأوراق

— فقط

— لا.. بل.. أقصد نعم

أمسكت بالأوراق. لمحت يديها الفاتنتين. مالي أراها في قمة فتنتها اليوم هكذا؟ لقد قرأت الأوراق بنظرة فاحصة ثم ابتسمت ونظرت إلي في رضا. وقعت الأوراق ببساطة. قالت لي في ابتسامة ساحرة شجعتني كثيرا:

— هل تريد أي شيء آخر؟

انقضضت علي يديها أقبلهما. لمست شفتاي يديها. أحسست بجلد يديها ناعما رقيق الملمس. كانت يداها دافئتين. أذكر أنني لم أقبل ظاهري يديها. كانت قد فتحت يديها فقبلت باطن يديها بنشوة لم أشعر بمثلها قبل. سحبت يدها بسرعة وقالت لي مبتسمة في تساؤل جعلني أتراجع:

— الآن تقبل يدي كما كنت تقبل رأسي ولمست شعري بفمك من قبل عندما طردتك.

انتصبت واقفا بجوار مكتبها.

كأنني أفقت من جميع أحلامي وشفيت من أوهام تخيلاتي. وقع نظري علي خبر بأحد الجرائد أمامها. انقبض قلبي. أحسست بالخوف. كان الخبر له وقع القنبلة عليّ. أزعجني هذا الخبر وأعادني إلي عقلي وإلي صوابي الذي فقدته. معقول؟ كيف يحدث هذا؟ لم يكن وقع الخبر فقط كالقنبلة، بل لقد كنت في هدوء تام عندما رن جرس التليفون أمامها فأحدث دويًا كأنفجار القنبلة بداخلي. كل ثانية تمر وجرس الهاتف يرن أشعر أن القنبلة تنشط وتنفجر بداخلي عشرات المرات. نظرت إليها وهي تضع يدها علي الهاتف لترد. مدت يدها علي الهاتف ولم ترد. ازداد رنين التليفون فشعرت وكأنني أسمع دوي القنابل التي تنفجر بداخلي.. .

الحلقة الخامسة والثلاثون

القرار

كنت أتحاشي النظر في عينيّ أُمي. شعرت أنها تنظر إليّ وتستغرب فعلتي اليوم. ملأني الخوف ومنعني من أن أنظر إلي عينيها. ومن أدراها بفعلتي؟ لم أفعل شيئاً. ما هي إلا خيالات مرت ببالي وأطياف أوهام راودت عقلي. اطمئني يا أُمي. لم أفعل شيئاً يغضبك. كنا نتناول غداءنا كالمعتاد بعد أن عدت من المصنع. كنت أتحاشي النظر إلي وجهها الذي يمتلئ بتعبيرات الإيمان والصلاح والتقوي. أخبرتني أن التيار الكهربائي قد انقطع بعد أن خرجت مباشرة. يبدو أن حياتي ستمتلئ بالظلام بعد الذي فكرت فيه اليوم. أنا عبدالله المصري أفكر في سارة العسكر بهذه الطريقة؟ لن أسامح نفسي أبداً. هذه نتيجة التفكير بالمعصية. عليّ أن اتوب حتي عن مجرد تفكيري الدنيء هذا. قلقي وخوفي أنساني أن احكي لأُمي كل شيء كما تعودت عندما أرجع. ألجم إحساسي بالذنب لساني كما أطبق علي قلبي الخوف من أن تكشفني أُمي وتعرف ما دار في عقلي اليوم منذ الصباح. لقد نسيت كل شيء. نسيت حتي الخبر القنبلة الذي استوقفني عندما نظرت في الجريدة. نسيت كل شيء وصار هدي الوحيد ألا تكشفني أُمي. لن أستطيع أن أواجهها.

النظر في وجهك يا أُمي عبادة. وجهك الطاهر البرئ الذي تشع منه أنوار الهدى والطاعة كما أراه دوماً. قمت لأقبل يديها حتي أظهر شفتي من آثار تقبيل باطن يديّ سارة العسكر اليوم. تساءلت في نفسي عن كيفية تطهير عقلي وتفكيري من آثامه. أخشي أن تكوني قد عرفت يا أماه ما دار وما يدور برأسي. أنت تعرفين ما يجول في داخلي وكأنك تطلعين علي خبايا تفكيري ومتاهات فؤادي وعقلي. أراك كل ليلة تستيقظين قبل الفجر وتصلين وتبتهلين إلي الله بالدعاء أن يحفظني. قلت لي أكثر من مرة سيحفظك الله بدعواتي لك وسيحفظك القرآن الذي بقلبك والذي حفظته يا ولدي.

ما أن يؤذن لصلاة الصبح حتي أراك تسرعين إلي حجرتي فأسمع أنفاسك من بعيد وأهب واقفاً. تعلمين أنني متيقظ. أراك تبتسمين

لي. لا تحدثيني. أبادرك قائلاً: «أنا متيقظ يا أماه. سمعتك وأنت في صلاتك منذ أكثر من نصف ساعة. أنت مشغولة بالدعاء لي. لم لا تطلبين من الله ما تريدينه لنفسك ولم لا تقومين بالدعاء لنفسك؟» إنني أسمع خطواتك قبل أن تقترب بل أستمع إلي أدعيتك وأحس أنها ستجاب بإذن الله. مالي أخطب هكذا يا أمي؟ دعوت لي أن يرزقني الله بزوجة صالحة تعوضني. تمت الخطبة واقترب تحقيق حلمك ثم ضاع حلمك يا أمي كما ضاعت شكرية تماماً. اختفت يا أمي. أين تذهب دعواتك؟ قد يؤجل الله إجابة دعواتك. وضعت الطعام وجلست لنأكل سوياً. لم أستطع أن أضع لقمة واحدة في فمي. أشعر أن الطعام يلعنني. أشعر أن نظرات أمي تسخط علي. أستغفر الله العظيم. ما الذي حدث لي اليوم؟

أخشي أن تكون قد علمت بصفاء قلبها وطهارة حدسها ما دار بذهني اليوم. قمت واقفاً. قالت لي في هدوء وحكمة:
— ما الذي حدث اليوم؟

أخرسني سؤالها. كيف يمكن لي أن أرد عليها؟ ماذا يمكنني أن أقول لها. إنها تعري صمتي وتكشف تفكيري بسؤالها. أخبرتها أنه لا رغبة لي في الطعام. قالت لي وهي تجبر نفسها علي حشر اللقيمات في فمها حتي تستطيع أن تتناول دوائها:
— كل هذا لأنك تشاجرت مع شكرية؟

الحمد لله. لقد ابتعد فكرها عن ما دار بذهني وبخيالات عقلي الشقية اليوم. الحمد لله أنه فقط هو المطلع علي السرائر. يا رب سامحني فأنت وحدك تعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور. الحمد لك يا رب أنك لا تحاسبنا إلا علي أفعالنا ولا تحاسبنا بنوايانا. الحمد لله أنه لا يطلع علي ما بدواخلنا إلا أنت. قلت لها:
— لا أخبار عن شكرية يا أمي.

— النساء يحتجن إلي الصبر يا ولدي. عليك أن تصالحها حتي وإن كانت هي المخطئة. حكمة الله في خلقه. لما خلق الله حواء من ضلع آدم لتؤنسه، رآها أمامه ففرح بها ونظر إليها. فرح بها جداً. كان وحده بهذا الكون الفسيح. أشار إليها وطلب منها أن تأتيه. تمنعت وأشارت إليه أن يأتيها هو. ثم قام آدم وذهب

إليها. هذه حكمة الله وقدره. المرأة يذهب إليها الرجل لا تذهب هي إليه.

- ولكنها شكرية هي التي خطبتني يا أمي
- لقد أخطأت عندما لم ترد علي هاتفها وأنت في المصنع. أنا
- أصدق كل ما حكيته لي يا عبود. أنت لا تكذب علي أبدا. لم
- ترد عليها ثلاث مرات حتي جاءتك في المصنع. لها الحق في أن
- تغضب منك. لقد حكيت لي هذا بالأمس وأنا أصدقك
- يا أمي إنها تطلب مني أن أترك مصنع سارة العسكر وأعمل معها
- عندها حق يا ولدي. أحس أنها تغار عليك. لا تنس أنها رأت
- نهاد معك في نفس المصنع وفي نفس العنبر
- لقد اخترتها هي ولم اختر نهاد. ثم إننا كنا في العمل
- عقل النساء صغير.
- من أين عرفت كل هذا؟ من أين أتيت بهذه الحكمة يا أمي.
- حكيت لك من قبل عن أبيك. كان يعرف القراءة والكتابة. لم
- يكن مثلي. أنا لا أفك الخط ولا أعرف الفرق بين الألف وكوز
- الذرة. تزوجني وكان يقرأ ويحكي لي ما يقرؤه.
- كان يحبك يا أمي؟
- كان يحبني وكنت أعشقه. رحمه الله. لا تحدثني عن الماضي.
- سنتحدث في الحاضر. هيا سنذهب إليها وستصالحها.
- أحاول أن أكلمها ولا ترد.
- طبعاً. إنها غاضبة منك.
- لن أصالحها.
- ستصالحها. أنت ابني وسأفرح بكما. حلمت أنك قد تزوجتها
- والله يا أمي لقد حلمت لي من قبل أنني أؤذن ولم يحدث وقلت
- إن تفسير الحلم أنني سأحج ولم يحدث هذا ولن يحدث. نحن
- نعيش بالكاد يا أمي. وحلمت لي أنني أتزوج شكرية وقد هجرتني
- ولا أعرف كيف سأتزوجها؟
- لا تقل هذا. أحلام أمك لا تنزل الأرض أبدا. يمكنك أن تشك في كل شئ
- إلا في أحلام أمك. إنها رؤي وليست أحلاماً يا عبدالله. أنا متأكدة.
- يا أمي كيف سنتزوج؟

خطر ببالي أن أخبرها برغبتني في أن نتزوج في شقتنا هذه معها. طالما أن شكرية هي التي حددت موعد الخطبة فيجب أن أحدد أنا موعد الزواج. ابتسمت أمي وقالت والفرحة تنطلق من عينيها: «سيكون يوم الهنا ويوم المني. موافقة يا ابني يا حبيبي. يا رب شكرية توافق أيضا. نلم شملكما يا ولدي. تكمل نصف دينك وتتقي الله في النصف الآخر».

سأشرح لها كل ظروفي. زواجي من شكرية هو الحل الوحيد الذي يمكن أن يخرجني من دوامة الإحساس بالذنب والإثم ورغباتي الشيطانية في إشباع شهوتي وغريزتي. سأتحرق من الأحاسيس التي راودتني اليوم. لن أضعف ثانية أمام جنون غرائزي. لن يحدث مثل ما حدث اليوم أبدا. أنت علي صواب يا أمي. سأعاملها برقة. سأصالحها. ما المانع في أن أصالحها حتي وإن كانت هي المخطئة؟ كلامك مضبوط يا أمي وتفكيرك سليم. لا أستطيع أن أسامح نفسي علي هذا التفكير الشهواني في سارة العسكر. أستغفر الله. إنها امرأة متزوجة.

فعلا. أمي علي صواب. أتزوج وأكمل نصف ديني. أول مرة أحس بمعني هذه الكلمة. لن أفكر في شهوتي وغريزتي. سأشبع كل نزواتي ورغباتي مع زوجتي. ولكن إنها ليست جميلة مثل سارة العسكر. أستغفر الله العظيم. يا أيها الغبي يا عبدالله. إذا أطفئت الأنوار تساوت جميع النساء. أين أنا من سارة العسكر. أنا لم أستطع أن أفكر في الزواج من سارتي الحبيبة. إن حنان لم تقبل الزواج من فقير مثلي. علي أن أحمد الله أنه سبحانه وتعالى بعث لي شكرية. لم أكن أفكر في الزواج قط. حقيقة كنت أحتاج من تتزوجني لا من أتزوجها. أنا أشعر بالعجز وقلة الحيلة. لقد نجحت في تحريك تفكيري الساكن. لم أفكر قط في أن تكون لي زوجة. يكفي شكرية أنها هي التي حركت بذور هذه الفكرة. يجب أن أسامح شكرية وأن أغفر لها. ستكون زوجتي. شعرت بالحنين لها. أريد أن أراها. أتمني أن أنظر إلي وجهها ويديها. برقت في ذهني صورتها وهي تحتضنني. صحيح أنني لا أحب شكرية ولكن ما الذي يمنعني من أن أحبها. سأتزوجها وتصير شريكة حياتي. سأتغاضي عن هفواتها. سأحبها وستحميني من همزات

الشياطين وستحميني من حبائل إبليس. لن أفكر في امرأة إلا في زوجتي. النبي صلي الله عليه وسلم أخبرنا أن الرجل عندما يكون مع زوجته فله أجر بالنظفة يضعها فيها. قال للصحابة عندما تعجبوا وقالوا إنها شهوتنا يأجرنا الله عليها؟ رد عليهم قائلاً: أرايتم إن وضعها في حرام؟ رجع التيار الكهربى ثانية فسمعنا صوت الراديو ولكن سرعان ما انقطع التيار الكهربى ثانية. نحن في حالة ثورة. أردت أن أشغل أمي بالسياسة قليلاً. أعلم أنها لا تحب الرئيس مبارك. قلت لها في تحد: «ألم تكن أيام الرئيس مبارك أفضل مما نحن فيه الآن؟ كانت الأمور بخير والبلد في خير. والله سنندم علي أيام مبارك. هذه ثورة الغوغاء». لم ترد أمي أن تجادلني. سككت أمي وعمني الصمت من فوري. حالة من العاطفة الجياشة مرت بي وأنا أفكر في خطيبتى شكرية التي سأتزوجها وستصير حلالاً لي وأصير في أحضانها. ابتسمت لنفسى وتساءلت. متي الزواج؟ عساه أن يكون قريباً. أخرجت هاتفى المحمول وطلبتها ولكن تليفونها لا يرد. أصابني الغيظ وأخبرت أمي أنها لا ترد فنظرت لي وقالت وكأنها تعمل خطة لتضبطني متلبسا بتغيير موقفى :

— اهدأ قليلاً

— كيف أهدأ. تليفونها مغلق منذ أربعة أيام

— يبدو أنها مخطئة. لقد أغضبتها ولن تصالحك. من الأفضل أن نفرض هذه الخطبة

نظرت إليّ وابتسمت في محاولة بريئة منها لتبدو خبيثة أمامي. فهمت فكرتها. إنها تريدني أن أرتبك. طلبت مني أن أصالحها منذ دقائق. لاشك أنها تختبرني. قلت لأمي:

— نفرض الخطبة ونتركها ولا أتزوجها؟ وحلمك يا أمي؟ أحلامك لا تنزل الأرض أبداً

— بصراحة يا بني الشقة ضيقة. لن ترضي بها شكرية

— سترضي يا أمي. أنت قلت إنه سيكون يوم الهنا أن يتزوج ابنك وسأقنعها.

— يا بني النساء سيئات. لا تجلب لنفسك المشاكل. من الأفضل أن تظل عاقلاً. المجنون فقط هو الذي يتزوج

— من الأحسن أن أفقد عقلي أحياناً

ابتسمت أُمِّي. تراجعت عن تمثيلها وقالت وهي تحتضنني :
- علي بركة الله. لم أكن أعلم أنك تحبها هكذا. أردتك أن تثبت لي هذا. أكننت تنتظر من يرشدك لما تفعل يا ولدي؟ الزواج ميثاق غليظ. لا تجعل الشيطان يركبك كما كان يركبك وأنت في حالة غضبك. تذكر دوما قصة هذا الرجل الذي ذهب إلي رسول الله وطلب منه أن يوصيه فقال له ثلاثا لا تغضب. الغضب يا بني يفقدك رؤيتك ويسلبك عقلك. يمكنك أن تخسر نفسك ودينك وكل ما تملك في لحظة غضب.

تناولت أُمِّي دواءها ثم قامت ودخلت حجرتها. دخلت أنا أيضا حجرتي. عاد التيار الكهربائي من جديد واستقر تماما. كانت أم كلثوم تشدو بأغنية عودت عيني علي رؤياك. : «وان مر يوم من غير رؤياك. إن مر يوم من غير رؤياك ما ينحسبش من عمري. قربك نعيم الروح والعين ونظرتك سحر وإلهام. وبسمتك فرحة قلبين عايشين علي الأمل البسام. وان غبت يوم عني. أفضل أنا وظني. يقربك مني ويبعدك عني».

اعترفت لنفسي أنني بحاجة ماسة إلي شكرية. نمت علي سريري متيقظا. لي الحق في أن أغضب. كل من يعرفني زارني بعد أن وقع حادث المصنع إلا شكرية. سأسامحها. يمكنني أن أتحدث معها وأن أناقشها وأعرف سبب عدم زيارتها لي. التجاهل ليس حلا. علي أن أواجهها ولا أهرب من مواجهتها أبدا. ستكون زوجتي. إنني خطيبها ولي حقوق عليها. يبدو أنني سأخذ قرارا بأن أسكنها في قلبي. لكم أنا في حاجة ملحة إليك الآن يا شكرية.

طرقت أُمِّي باب حجرتي ودخلت وهي ترتدي ملابس الخروج. دخلت إلي مبتسمة وقالت لي في فرحة عندما وجدتني مندمجا مع الأغنية: «يبدو أن الأغنية ضربت علي الوتر الحساس». طلبت مني أن نذهب لزيارتها. أمرتني أن ألبس ملابس الخروج لنزور شكرية خطيبتي. لم أتردد. قمت علي الفور وارتديت ملابسني. لما رأتني متعجلا ابتسمت وقالت متسائلة :

- أكننت تنتظر مني أن آمرك بهذه الخطوة؟
- كنت غاضبا منها لأنها لم تزرني ولم تسأل عني

- من المؤكد ان معها عذرها يا ولدي
- لم أعد أمر من الشارع الذي فيه بيتها
- أنت مخطئ يا ولدي. ستكون زوجتك وشريكة عمرك. الخصام والهجر لا يحل مشكلة بين الزوجين. ستكونان جسدا واحدا وتعيشان معيشة واحدة. كن لها عبدا تكن لك أمة
- أحسدك يا أمي علي رؤيتك هذه للزواج
- وأنا أحسدك علي حب شكرية لك
- شكرية تحبني؟
- وأنت تحبها؟
- أتمني أن نكون كذلك

اقتربنا من بيت شكرية فحقق قلبي. أمسكت أمي بيدي وكأنها تسمع دقات قلبي المضطربة. نظرت إليّ وكأن عينيها تقولان لي: «أحبها كل هذا الحب وتغضب منها؟»

لم أستطع أن أرد عليها. شعرت بالقلق قليلا. أحسست برعشة تسري بأوصالي. سأسميها رعشة الحب. كنت أحس بمثل هذه الرعشات كثيرا عندما كنت أنتظر لقاء سارتي الحبيبة. عليّ أن أعترف بأن شكرية ستملأ فراغا كبيرا في عقلي ووجداني وحياتي. نظرت لي أمي وطلبت مني أن أشتري طبقا من الحلوي لشكرية وبعض الفاكهة. لا يمكن أن تدخل لخطيبتك خالي الوفاض. نحن أولاد أصول. نحن فقراء يا ولدي ولكننا نعرف الواجب. كنت قد نسيت تماما وغمرني إحساسي بأنني أريد أن أري شكرية أولا. أود أن أتشاجر معها وأسألها عن سبب عدم سؤالها عني طيلة الفترة الماضية. ماذا لو ردت سؤالي بسؤال مثله وطلبت مني أن أعطيها مبررا لعدم سؤالي عنها. سأخبرها وأنا أنظر بتلهف في عينيها بأنني حاولت الاتصال بها ولكن هاتفها مغلق. سأنظر إلي عينيها وإلي شففتيها. سأملي عيني من وجهها وكفيها. أليس هذا حلالا لي؟ إنها خطيبتي الآن. سأنظر إلي وجهها وكفيها.

طرقنا باب شقة شكرية فلم يرد أحد. أصابتني الرعشة مرة ثانية. هممت برفع يدي لأطرق الباب ثانية.

طرقت مرة ثانية وثالثة. لا أحد يرد. قلبي يحدثني بأن شكرية

لن ترد ولن يرد أحد مهما طرقنا الباب. هل سننتظر حتي الصباح؟ أنت لا تردين يا شكرية وأنا علي بابك. عليّ أن أعترف أنني اتخذت قرارا بأن أحبها وأن أزورها بينما كانت أُمي العامل الرئيسي الذي شجعني علي اتخاذ هذا القرار الذي لم نجد له نتيجة حتي الآن. واصلت طرقاتي علي الباب والأمل يحدوني في أن ترد عليّ أو تفتح لي الباب مع تزايد إحساسي بأنها لن ترد ولن تجيب ولن تفتح لي الباب.

الحلقة السادسة والثلاثون

القنبلة تنفجر

لم ترد سارة العسكر علي التليفون وإنما واصلت نظراتها لي وأنا أقف بجوارها في حالة ذهول تام. ابتعدت قليلا عن مكتبها وأنا أمسك وريقاتي التي وقعتها. يبدو أنها اندهشت لتغير ملامح وجهي عندما قرأت الخبر بالجريدة التي أمامها. تراجعت للوراء خطوات. أغضت عيني. حاولت أن أغطي وجهي بيدي. استرجعت أيامي في مصنع الحاج حجاج العيسوي. أيام كنت رئيسا للوردية هناك. لا أصدق أن هذا يحدث.

قامت سارة من مكتبها وأنا أحس أنني في حلم ولا أصدق ما يحدث حولي. أشعر كأن الزمن قد توقف بي أو عاد بي عدة شهور. خرس جرس التليفون ولم يعد ينطق كما خرست ويبدو أن الذهول قد أصابه كما أصابني. الساعة تقترب من التاسعة إلا عشر دقائق. أشعر أنني لا أستطيع أن أتنفس. كأن حملا ثقيلا يجثم علي صدري. أسدلت سارة العسكر الستائر واقتربت مني وأنا أشعر بتزايد ضربات قلبي. كان الخبر في الجريدة بعنوان انفجار ضخم يسفر عن مقتل حجاج العيسوي وعشرة عمال في مصنعه. تحت هذا العنوان الكبير وجدت صورة سيد أبو ستة. خشيت أن أقرأ تفاصيل الخبر. ابتعدت من أمام الجريدة وشعرت وكأن الكلمات المنشورة بالجريدة وبهذا الخبر بالذات سيارات مسرعة تجري خلفي لتتبعني وتريد أن تصدمني. لقد نسيت كل ما حولي. نسيت حتي وريقاتي ولا أعرف أين توجد ولا أين وضعتها بعد أن وقعتها. لم أجد أي شئ في يدي. لقد نسيت حتي أين

أنا. الشئ الوحيد الذي كنت أفكر فيه أنني قد نجوت من الموت. كانت استقالتي من هذا المصنع خيرا لي إذا. لم أوالى حجاج العيسوي. وقفت في صف العمال وكنت معهم في المطالبة بحقوقهم. تذكرت يوم أن قدمت استقالتي علي ورقة وسخة دستها بقدمي وسخر مني كل رؤساء الورديات يومها. تري لماذا يضعون صورتك يا سيد؟ لمحت كلمتين أسفل صورته. المتهم الرئيسي. كان من الممكن أن أكون من الموتى في هذا الانفجار. كان من الممكن أن أكون في عداد الموتى جراء هذا الانفجار. أنا لازلت حيا. لقد نجوت من الحادثين. أنا لا أصدق. هذه دعواتك يا أمي.

برقت عيناى ووجدتني أترجع إلي الخلف وكأنما لأهرب من فكرة أن الموت يقترب مني. لقد رأيت الموت بعيني وكدت أختنق في حادث مصنع سارة العسكر منذ أيام قليلة. شبح الموت يطاردني وقد تعديت الخمسين. ما فائدة الحياة وأنت تعلم أن نهايتك تقترب؟ لقد هربت من بين مخالب الموت ومن قبضته في هاتين المرتين. الموت أقرب إلي أحلكم من شرك نعله. أل هذه الدرجة يكون الموت قريبا منك وتنجو؟ طيب وحتى إن نجوت في المرتين السابقتين فمن ضمن لك أن تنجو في المرة القادمة؟

رأيتني أحس بدوار شديد وكدت أسقط لولا أنني شعرت بيد ناعمة رقيقة حانية تقترب مني وتسندني وتأخذ بي وتجلسني علي أحد المقاعد الوثيرة. إنها يد سارة العسكر. إنها تنظر إلي بنظرات مختلفة. لمست شعيرات يدي فانتفضت. وضعت يدها علي خدي. ذقني اليوم حلقة وناعمة. رأيتها تتحسس ذقني. يبدو أنني رجعت إلي الحياة مرة ثانية. إنني أري سارة العسكر أمامي. أليس من الأفضل أن أهرب من الحياة وأن أنسحب منها برغبتى وأن أخرج منها بإرادتي قبل أن يكون هذا رغما عني. طالما أن الموت يطاردني ويجري خلفي فلماذا لا أهرب أنا من الحياة برغبتى لا رغما عني؟ لم أعد أستطيع أن أنظر إليها. لقد انطفأت جذوة رغبتى نتيجة تفكيرى في الموت والغوص في آفاق هذا المجهول الذي نتناساه ونعلم أننا سنذهب في رحابه يوما ما. نفس نظرات حنان لي. كانت تنظر إلي بمثل هذه النظرات. شعرت بأنفاسها تقترب مني. نفس النعمة التي كنت أسمعها

في أنفاس حنان عزت السيد تماما عندما كانت تقترب مني وأنا أدرّس لها. رأيته تقترب مني فأحسست أن السماء تكاد أن تنطبق علي ولا أستطيع أن أتنفس. ضمت شفتيها واقتربت مني. ضغطت علي شفتيها السفلي بأسنانها العليا.

إنها تقترب مني وأنفاسها تتزايد وأحس برياح أنفاسها تتعالي أمام وجهي. يبدو أن الموت وحده ليس هو الذي يطاردني. إن هناك موتا آخر يقترب مني ويتربص بي منذ فترة طويلة. أنقذيني يا أمي. أنا بحاجة إلي معجزة لتنقذني.

مرة ثانية يتعالي رنين الهاتف في المكتب. اهتزت سارة العسكر. تراجعته وكأنما هذا الجرس قد أتى في وقته. نفخت في غضب ثم اتجهت إلي مكتبها ورفعت السماعة بعصبية. أخرجت أنا نفسا هادئا أفرغته من قفصي الصدري وكأنما لأعود إلي الواقع ثانية. إنني في مكتب سارة العسكر. تبعته عندما قامت. أين وريقاتي التي كانت بيدي؟ إنها علي مكتبها. أمسكت بوريقاتي من علي مكتبها. كانت علي الجريدة هذه الوريقات. ليتني ما التقطتها. رأيت أسماء القتلي في انفجار مصنع حجاج العيسوي. بعض رؤساء الورديات من زملائي. ردت سارة العسكر علي التليفون في غضب شديد. رجعت ربما إلي عاداتها القديمة. صاحت قائلة وهي تنفخ بغیظ:

— أيها الحمير. هل يجب أن أتابع كل شيء بنفسني. كلم الحمار سيف غرس الدين. كل شيء فوق رأس سارة العسكر. أعوذ بالله. غشيني الخوف من تعبيرات وجهها ومن صوتها الزاعق من جديد. أردت أن أخرج واتجهت نحو الباب في صمت وهدوء. ليس أمامي سوى خمس دقائق ويحين وقت عملي. صرخت في قائلة وهي تشير بيدها:

— مكانك يا حيوان.

أيعقل أنها تسبني؟ أتقصد أنني أنا الحيوان؟ لقد كانت قريبة مني منذ لحظات. يبدو أنني كنت أحلم. لا أدري إن كنت أحلم أم أن ما أحسست به كان حقيقة عندما لمست ذقني وتلمست بيدها شعيرات يدي. لقد أحسست بأنفاسها. يبدو أنني كنت أحلم أو أعيش في عالم الخيال كعادتي. وضعت سماعة الهاتف بعنف وأشارت إلي قائلة والشرر يتطاير من عينيها:

— كيف تجرؤ علي الخروج بدون إذني يا حيوان؟
لا أدري كيف يكون هذا التحول؟ لم تكن هذه سارة العسكر منذ
دقائق معدودة. لقد كانت لطيفة ودودة باسمه هائلة. أنا حيوان؟
أتشتمني وتقول لي يا حيوان؟ لن أرد عليها. لماذا تحولت هكذا
وبهذه السرعة؟ إنها غضبانة الآن والأفضل عدم الرد. كررت سؤالها
مرة ثانية فرن في أذني ورأيت كأن كرامتي تطل برأسها وتضغط
علي لساني لأتكلم. إنها تكرر نفس كلماتها: كيف تجرؤ علي
الخروج بدون إذني يا حيوان؟ لست حيوانا. لقد قضيت حياتي
كلها وأنا أدافع عن كرامة الناس وحقوقهم، أفلا أدافع عن كرامتي
في وقت تذبح فيه كرامتي بسببها؟ قلت لها بصوت لا يكاد يسمع:

— اسمي عبدالله المصري يا أستاذة سارة

— أعرف أن اسمك عبدالله الزفت

— شكر لذوقك يا افندم

— هل تعتقد أنك أخذت مني ما تريد وتريد أن تخرج هكذا بدون
إذن؟

— ماذا تقصدين يا افندم؟

— أظن أنك حصلت علي توقيعني وأن هذا يكفيك؟

— لا أستغني عن حضرتك أبدا يا أستاذة سارة

— لا. ستستغني عني وتترك هذا المصنع إن وجدت مكانا أفضل لك غير
هذا المصنع. لقد تنقلت في أماكن كثيرة واشتغلت في مصانع عديدة.

— إن شاء الله سأستقر بهذا المصنع ولن أغادره

— هذا إذا لم أفصلك أنا.

— إن شاء الله سأبذل قصاري جهدي لأنعم بالعمل في مصنع حضرتك.

— إنك تحتاج إلي هذا الختم يا غبي.

فتحت درج مكتبها بمفتاح تحتفظ به في سلسلة مفاتيح طويلة
بجيبها. أخرجت الختم البيضاوي وأشارت به في وجهي. هذا يعني
أنها يجب أن تخطم هذا الأوراق وأن توقيعها وحده لا يكفي. لست
غيبا. الدم يغلي في عروقي وأشعر بالغضب جمرة تحرق فؤادي وتعمي
عينني. قالت لي وهي تضحك ساخرة مني:

— ليس لتوقيعني أية قيمة بدون هذا الختم يا غبي.

اللهم طولك يا روح. مرة ثانية تسبني وتتهمني بالغباء. أشعر
بالرغبة في تحديها تتزايد داخلي وأود أن أرفض وأن أصيح في وجهها
قائلا: «إنني لست غبيا». كرامتي تضغط علي لساني مرة ثانية. أشعر
أنني سأنفجر وسأموت إذا لم أرد علي كلماتها. قلت لها بهدوء وأنا
أشعر أن الكلمات تخرج رغما عني:

- لست غبيا يا أستاذة سارة.
- أعرف كل تاريخك يا عبدالله.
- الحمد لله أن تاريخي مشرف
- كنت رئيسا لإحدى الورديات بمصنع حجاج العيسوي
- وكنت سأكون أستاذًا في الجامعة لو صفا زماني
- أعرف أنك كنت معيدا في كلية الآداب
- الحمد لله أنك تعرفني أنني لست عاملا عاديا في مصنع حضرتك
- أنت كنت الأول دوما يا عبدالله المصري
- هذا ما أفخر به دائما يا افندم
- ولكنك غبي يا عبدالله
- الله يكرم أصلك يا افندم. شكرا أستاذة سارة

كنت أنفخ بشدة واحمر وجهي غضبا. كيف عرفت كل هذا عني؟
ليس كل ما تعرفه موجودا في سيرتي الذاتية التي قدمتها للعمل بهذا
المصنع. يبدو أنها تعرف كيف تحصل علي المعلومات التي تريدها.
لقد أجرت بحثا مطولا عندي. إنها تحفظ اسمي وتعرفني جيدا. تري
من أين حصلت علي هذه المعلومات. لاشك إنها امرأة قوية تعرف ما
تريده. إنها تعرف جيدا أهدافها. تذكرت مقولة ندا عبدالعليم رئيس
وردتي عندما قال إنها امرأة ذات ذاكرة حديدية. يبدو أنها فعلا
امرأة حديدية. يجب أن أكون أكثر حذرا في التعامل معها. سأحترس
جيدا في انتقاء ألفاظي وسأنتقي كلماتي. وقفت سارة وضربت المكتب
بيدها بقوة وقالت:

- لا تستطيع أن ترد عليّ لأنك تحتاجني. أنت تحتاج إلي الراتب
الذي سأعطيه لك كل شهر. أعلم أنك بحاجة ملحة إلي المال.
- لقد خطبت مؤخرا
- مضبوط يا افندم

- لقد تمت خطبتك وخطيبتك هي التي سعت إليك
- حضرتك تقصدين زميلتي الأستاذة نهاد؟
- لا. أقصد شكرية
- حضرتك تعرفين كل شيء
- طبعاً أعرف كل شيء. أنت الوحيد الذي سأعطيك مرتبك قبل أن تتم شهراً
- الأرزاق بالله يا سارة هانم
- اسمي الأستاذة سارة العسكر
- الأرزاق بالله يا أستاذة سارة العسكر
- قبل يدي يا عبدالله يا مصري
- يشرفني أن أقبلها يا أفندم.

اقتربت من مكتبها. إنها تعرف كل شيء عني. تري من أين تحصل علي كل هذه المعلومات الدقيقة عني؟ شعرت بكبرياء غريب. لا أريد أن أقبل يديها. لن أنحني أمامها ولن أقبل يدها أبداً ثانية. يا رب أحتاج إلي معونتك. لن أنحني إلا لك. يبدو أنني قاصد قوسين أو أدني من أن أحقق مأربها. يا رب ساعدني حتي لا أذل إلا لك. ساعدني. طرأت بذهني فكرة أن أظهار أنني قد عثرت قدمي بالسجادة أو بأي شيء. بالفعل مثلت أنني أقع. أرتيمت علي الأرض. رن جرس التليفون مرة ثالثة. في هذه المرة كان هاتفها المحمول. جلست علي مكتبها. تحدثت بذوق واحترام. لفت نفسها يمينا ويسارا بكرسيها الفخم. يبدو أنها نسيت وجودي أو تناسته. قمت متباطئاً واتجهت نحو المكتب. كانت تقول: «تمام يا حضرة الضابط. شكراً لحراستكم لمصنعي وسأظل شاكرة لجميلكم. الأغبياء الذين ينادون بسقوط حكم العسكر لا يعرفون أنكم القوة الوحيدة بهذا البلد. أنتم تقومون بحمايتنا وتدافعون عنا خارجياً وداخلياً. شكراً يا حضرة الضابط شديد. سأحتاج بعض المعلومات. شكراً لتعاونك. سأكلّمك ليلاً. هل ستأتي اليوم؟ الساعة الرابعة. تشرف المصنع وتدير كل مكان به. أهلاً بك. ستأتي ومعك اللواء عبدالمجيد حسني. تشرفان. المصنع مصنعكم. شكراً».

نظرت إليّ بعد أن انتهت من مكالمتها. يبدو أنها نست طلبها بأن

أقبل يدها. أذكر أنني سمعت اسم عبدالمجيد حسني. متي سمعت هذا الاسم؟ آه سمعت باسمه عندما كنت طالبا بالفرقة الرابعة بكلية الآداب. تذكرت الاسم جيدا. كان ضابطا في قوات الحرس الجامعي. آه وتذكرته أيضا في أسود أيام حياتي. تذكرته في اليوم الأسود الذي أحسست أن مستقبلتي العلمي قد ضاع فيه. تذكرته بكرشه السمين وشاربه الغليظ أعلي شفته العليا. بدأت تنظر في بعض الأوراق أمامها وكأنها تتجاهل وجودي. قالت لي وهي تنظر إليّ بحقد وكأنها تستجوبني بعد أن رفعت عينيها عن الأوراق التي أمامها:

— أنت كنت الأول وكان تقديرك امتياز بالكلية أليس كذلك؟

لم أرد ولكني أمسكت بباقة قميصي فخرا. يجب عليك أن تعرفي من أنا أيتها المغرورة المتكبرة. أردفت قائلة في فخر أيضا:

— وأنا كنت بكلية الآداب أيضا جامعة القاهرة مثلك

— هذا شرف لي يا أستاذة سارة أنني كنت بالكلية التي درست حضرتك بها

— أنا حصلت علي تقدير مقبول

ابتسمت وكدت أن أضحك. أيتها الغبية. تنظرين إليّ بسخرية وتتهمينني بالغباء وأنت أغبي امرأة في الدنيا. كظمت غيظي وقلت لها في اعتزاز:

— في أي عام تخرجت يا أستاذة سارة؟

— في أواخر الثمانينيات

— لو صفا الزمان لي ولم يخني وسارت الأمور كما ينبغي لكنك درّست لحضرتك يا أستاذة سارة

— أنت تدرس لي؟

وقفت وأشارت إليّ بأصبعها من أسفل إليّ أعلي ثم ظلت فاردة أصبعها وأشارت إليّ مرة ثانية من أعلي إليّ أسفل. أخذت تبتسم قليلا. أشرت إلي الساعة وكانت قد تخطت التاسعة بدقيقتين. خشيت أن تصيح في قائلة: «مخصوم منك ثلاثة أيام». لم تفعل هذا. أخذت الأوراق من يدي ووضعتها علي المكتب أمامها. أخبرتني أنها لن تخطم أوراقها الآن. استأذنتها في أن أنصرف من مكتبها لألحق وريدتي. ابتسمت لي وأذنت لي. سرت خطوات وأنا أعطيها ظهري

وأسير في خيلاء. كنت سأدرس لك يا سارة العسكر يوما لا ، ولم لا؟ لقد كنت أدرس لحنان ولم أكن سوي طالب لم يحصل علي الليسانس بعد. كنت الاول وأنت لم تحصلي سوي علي مقبول. ما أشد تقلب الزمان وظلمه!! تبا لك أيها الزمان. تبا لك أيتها الأيام المائلة. تبا لك أيها الحظ التعس المير. هذه هي الأيام تفعل بنا ما تشاء ولا يسعنا سوي أن نرضخ لها ونرضي بحكمها. كنت أواصل خطواتي نحو باب المكتب لأخرج مع أنني كنت أود أن أطل عليها وهي تنظر لي. لاشك أنها تنظر لي بطريقة مختلفة. لقد كانت تقترب مني منذ لحظات قليلة. لا أستطيع أن أجزم أن هذا قد حدث بالفعل. يبدو أن هذا لم يحدث قط ويبدو أنه كان من غباء تخيلاتي أو من أوهام خيالاتي التي تراودني من هذا الصباح.

ما أن وضعت يدي علي مقبض الباب إلا وصاحت فيّ قائلة:
- مر علي الخزينة لتقبض مرتبك هذا الشهر ولديك موعد معي في الساعة الواحدة والنصف اليوم.

لم ألتفت خلفي. خرجت ولم أنظر ورائي. لن أنظر ورائي ثانية. لن أنظر إلا أمامي. نظر إليّ أجد سكرتير مكتبها في إعجاب. أخبرته أن لدي موعدا معها في الواحدة والنصف. نظر إليّ مشيرا برأسه وكأنه يعيرني بما حدث لي في الموعد السابق. كأنه يريد أن يقول لي: «أتيت وانتظرت في المرة السابقة ولم تدخل لها». نظرت إليه وكأنني أؤكد له أنني سأدخل اليوم في هذا الموعد. أشار إليّ برأسه وكأنه لا يصدقني ولا يصدق نظراتي.

عليّ أن أسرع. الساعة الآن التاسعة وسبع دقائق. ما أن دلفت إلي العنبر إلا ووجدت ندا ينظر إليّ بغضب. أشار إلي الساعة وكأنه ينبهني أنني قد تأخرت. أومأت له برأسي وأخبرته أنني كنت في مكتب الأستاذة سارة العسكر وأخبرته بأنني سأنتظر بعد أن تنتهي ساعات العمل وسأعمل عشر دقائق إضافية. شغلت الآلة. رمقت الزملاء الذين كانوا ينكفئون علي آلتهم وماكيناتهم في جد ونشاط كالمعتاد. رمقت نهاد ونظرت إليّ بغضب فابتسمت لها. لم ترد لي الابتسامة. نظرت إلي سادة الدوغري فوجدتها كعادتها تختفي خلف أصباغها الكثيفة التي تدهن بها وجهها فتبدو كالبهلوان أو البلياتشو. توجهت

بنظراتي إلي رجاء شوكت فوجدتها تعمل في صمت وكأنها تسترجع صوت خلافاتها مع زوجها وتنعي حظها العاثر الذي أوقعها في فخ زوج لا يهتم بها ولا يستحقها. إنها تري نفسها جميلة الجميلات وأجمل من في الكون. كانت دائما تقول إنها لا تدري كيف قبلت بهذا الزوج وهي صاحبة الحسب والنسب وسليلة أكبر رجال التجارة في منطقتها. تقول إن الخطاب كانوا يتبارون من أجل نظرة رضا منها، ولكنها رضت بهذا الزوج الذي لم تكن تدري أنه سيسوء معيشتها ويذيقها سوء العذاب. تقول إنها مضطرة إلي أن تتحمله من أجل الطفلين الذين بليت بهما من هذا الزوج.

نظرت إلي همام الحفناوي فوجدت وجهه مضيئا علي غير العادة. أول مرة أراه ينظر إليّ ويبتسم. إنه يوزع ابتساماته علي الجميع. فمه مغلق تماما. لا بمضغ علكة ولا يلوك لقمة في فمه أو يذيبها كعادته. يضع زجاجة الماء أمامه ولا يخفيها كما كان يفعل عادة. نظرت إليه وابتسمت. قال لي في صوت مهذب وهو يدعوني بصدق: «هل تريد أن تشرب؟» وأشار لي بزجاجته. دقت النظر في وجهه وشكرته بشدة. كان وجهه منيرا يتلأأ كالبدر. لا أدري سر هذا التغيير. كان ينظر للجميع بكل ود وحب ويبتسم للجميع إلا لندا. كان يوجه له نظرات عبوس صارمة. كان يصغر له بغيظ شديد وكأنه يلومه. لاحظت أنه لم يخلق ذقنه اليوم. نبتت شعيرات ذقنه فأضفت عليه مهابة وجمالا ووقارا لم أر مثله في وجهه من قبل. إيباد ناصر يعمل بمهارة وتركيز شديد. لقد اعتاد الجميع علي العمل بهذه الطريقة. نادرا ما نتحدث أو نتبادل النظرات. الكل منهمك أمام آلتهم. ماجد بحيري ينظر بحب شديد وأبوة رائعة إلي الجميع وكأنه يحتضننا بعينيه اللتين تشعان نورا وحنانا ورقة وهدوء وحكمة. يعمل بإحدي يديه ثم يمسح بيده الأخرى شعر رأسه الذي اشتعل شيبا ولكني استطعت أن ألمح فيه بريق الشباب والفرحة تملؤه. تفقدت أحلام المطيري فلم أرها. من تلك التي تجلس علي ماكينة أحلام. أنها تخفض رأسها. يبدو أن أحلام قد غابت اليوم أو لعلها لم تصل بعد. من هذه المنكفئة علي ماكينتها وترتدي إيشاربا أبيض. نظرت إلي إيباد وسألته عن هذه المرأة التي تعمل علي آلة أحلام

بإشارة وبدون أن أتكلم فابتسم وسألت ماجد قائلاً: «أين أحلام المطيري؟» ابتسم ضاحكاً ولم يرد إلا بقهقهة عالية رفعت إثرها المرأة ذات الإشارب الأبيض رأسها فكانت المفاجأة بالنسبة لي. إنها أحلام المطيري وقد تغيرت ملامحها بالنسبة لي تماماً. لقد ارتدت هذا الإشارب. ابتسمت لي قائلة:

— أنا أحلام يا عبدالله يا مصري

بدت لي في وجهه ملائكي. لم أنتبه إلي وجودها فلقد كانت تترك شعرها يتطاير علي وجهها. قلت لها وأنا أضحك ساخراً:

— أخيراً يا أختاه. لقد من الله عليك بنور الإيمان وشرح صدرك

لهداية الإسلام. نفضت عنك آثار الجاهلية يا أم خزاعة. آسف.

أنا لا أعرف ان أطلق عليك اسماً. لا أعرف اسم ولدك. يا أم. ..

ابتسم الجميع. ضحكوا لبراعتي في اللغة العربية والتمثيل. ابتسم إياد

وكذا ماجد. واصلنا عملنا جميعاً. يبدو أنني قد أخطأت. قالت أحلام لي:

— لست متزوجة يا عبدالله

ماذا يفيد أسفي في مثل هذه الحالة. إنها لم تتزوج. نظرت إلي

نهاد وابتسمت. لقد وقعت في حرج. حاولت أن أتدارك الخطأ فقلت

بطريقتي المتميزة:

— أهلاً بك في عالم الحجاب يا أختاه. أشهدكم أنه من اليوم فقد

صارت أحلام أختاً لي. يا أبا الوليد فلنعلق الزينات ولتضاء

الأنوار أربعين يوماً وليلة بهذه المناسبة السعيدة. مرحي مرحي

يا أختاه.

حاولت أن ألطف من وقع خطئي فقلت:

— هذه هي أحلام زميلتنا عاشقة الحرية. إنها لا ترضي ب قيد رجل.

إنها عاشقة الحرية مثلي.

ابتسمت نهاد في سخرية وقالت:

— أنت عاشق للحرية؟ وماذا عن خطيبتك المدام شكرية؟

ثم ضحكت وكأنها تشمت بي. ماذا أقول لها؟ هل أخبرها بأني لا

أعرف شيئاً عن خطيبتي وأنها لم تزرني. عدنا جميعاً إلي صمتنا الذي

قطعته نهاد قائلة في سخرية: «وما أخبار المدام شكرية يا عبدالله؟»

نظرت إليها بعد قليل فوجدتها تنظر إلي إياد ناصر مبتسمة. ما أن

وقعت عيناه عليها إلا ووضع عينيه في الأرض إلا أنها ظلت مثبتتة نظراتها عليه. أخرجت علبة شيكولاتة من حقيبتها وقدمتها له فاعتذر بأنه لا يأكل الشيكولاتة فأعطتها إلي همام الحفناوي الذي شكرها وبدأ يأكلها. ساد الصمت إلي أن حانت ساعة الغداء. أخيراً ستصمت هذه الآلات. ستتوقف هذه الماكينات. رأيت سيف غرس الدين يستدعي همام إلي مكتبه. سأصلي الظهر أولاً قبل أن أذهب إلي موعد سارة. رأيت نهاد تقترب من همام في دلال وتدعوه إلي كوب شاي. رفض متعللاً بأنه سيصلي الظهر. قالت له في رقة: «لا تخيب رجائي فيك. اقبل دعوتي. سأنتظرك بعد الصلاة». لم يجد إياد ناصر بدا من الموافقة. نظرت إلي نهاد وكأنها انتصرت.

أقترب من المبني الإداري. لمحت عبدالله البندري في مكتبه. نظرت إليه من خلال نافذة زجاجية تظهره جالساً في مكتبه. وجدته يشرب من زجاجة يغطيها بكيس بلاستيكي. كانت يدها ترتعشان كعادته. كان يبتسم وكأنه ليس في وعيه.

سمعت صوت همام يعلو صوت سيف غرس الدين. كان يقول في تصميم: «لا يا أستاذ سيف. لن أعمل ثانية في هذه المهمة الحقيرة. أستغفر الله. لقد تبت. كدت أن أموت. لن أقبل. أرجوك أن تعفيني من هذه المهمة. لقد رأيت الموت بعيني. كيف أقابل الله وأنا علي هذه الحالة؟» سمعت سيف غرس الدين يصيح ويصرخ قائلاً: «كلكم صرتم أقرب إلي الله؟ أنا فقط الكافر فيكم؟ حتي أحلام تحجبت. ما هذه المصائب التي تصب علي رأسك يا غرس الدين؟ ماذا سأقول للأستاذة سارة؟ حرام عليك. أحس بي يا همام». سمعت همام يقول له: «قل لها ماشئت. لن أعمل ما كنت أعمله من قبل. لن أراجع في قراري حتي وإن أدي بي الحال إلي الاستقالة. لقد تاب الله علي ولن أعود إلي الأعبك ولا إلي الأعبب ندا». نظرت إلي ساعتني. لازال أمامي عشر دقائق. اتجهت إلي مكتب الأستاذة حيث موعدني. أشار لي سكرتيرها أمجد قائلاً:

— الأستاذة تنتظرك. يمكنك أن تدخل الآن

— لن أدخل يا أستاذ أمجد

— لماذا لا تدخل؟ إنها تنتظرك؟

- لا يزال أمامي عشر دقائق. أنا دقيق في مواعيدي. لقد جعلتني أنتظر أكثر من عشرين دقيقة في المرة الماضية ويجب أن أعاقبها
- تأدب وأنت تتكلم عن الأستاذة سارة من فضلك
- لم أقل أي شيء بدون أدب. لا زال أمامي عشر دقائق. سأجلس وأنتظر إلي ان يحين موعدي
- لاشك أنك تهذر
- لا والله العظيم. أنا لا أهذر أنا أتكلم جادا
- إن الأستاذة تنتظرك
- لا يزال أمامي سبع دقائق
- رن الهاتف أمامه. قال في أدب شديد: «حاضر يا افندم. هو موجود أمامي. سيدخل لحضرتك حالا».
- نظر إليّ في هدوء وقال:
- تفضل ادخل للأستاذة
- قلت لك لا يزال أمامي ست دقائق
- هل تريد أن تصيبني بالجنون؟
- ألف سلامة عليك من الجنون
- تفضل ادخل للأستاذة
- حاضر سأدخل لأم سفيان عندما يحين موعدي.
- رن جرس هاتفه للمرة الثانية. بالتأكيد إنها أم سفيان. صدق حدسي. نظر إليّ أمجد في غضب وقال:
- إنها تستدعيك
- لن أدخل إلا في موعدي
- لا أدري لماذا ركبني شيطان العناد الآن. لقد تركتني أنتظرها في المرة الماضية وسأجعلها تنتظرني هذه المرة. واحدة بواحدة يا أم سفيان.
- أشعر أنني سأخذ بثأري. لن آخذ بثأري فقط وإنما سأخذ بثأر كل من قمت بظلمه من قبل. أحسست أنها ستخرج حالا من مكتبها. لا يزال أمامي خمس دقائق. لمحت مقبض الباب يتحرك. لاشك أنها تقف خلف الباب. أدت وجهي ونظرت لصورة الرئيس السادات علي الحائط. سألت أمجد بصوت زاعق عني فأشار إليها تجاهي وكأني كنت أري الموقف بظهري كما يدور بخيالي. نادى عليّ قائلة:

— تفضل يا عبدالله يا مصري

ما الذي يحدث؟ لقد تركت مكتبها وأتت بنفسها إليّ. ألا يرضيك هذا يا عبدالله؟ التفتت بهدوء وابتسمت قائلاً في ذهول من أمجد والذي غطته علامات الاندهاش:

— أهلاً أم سفيان. أهلاً أستاذة سارة. لا يزال أمامي أربع دقائق إلي أن يحين موعد حضرتك

نظرت إليّ بغضب. ضيقت عينيها. فاجأتني بحركة لم أكن أتوقعها. اقتربت مني وأمسكت يدي بقوة. أنا لا أكاد أصدق وكذا أمجد. فغر أمجد فاه غير مصدق مثلي. بدأت تشدني فشعرت بنفسني منقاداً لها. وفي هذه اللحظة طلع علينا أبو سفيان. كان يترنح وكأنه فاقد الوعي ولا زالت الزجاجة التي يغطيها بكيس بلاستيكي في يده. أخذ منها جرعة ثم دخل مكتب سكرتارية سارة. نظرت إليه في غضب وكأنها تطلب منه أن يعود إلي مكتبه. أشارت بيدها إليه قائلة في غضب: «لماذا أتيت يا عبدالله يا بندري الآن؟ عد إلي مكتبك». أشارت لأحد رجال الأمن أن يدخله مكتبه. شعرت بالخوف وهي تشدني من يدي إلي مكتبها. أطاع حمارها الذي تصفه دائماً بهذا الوصف أمرها وانصاع ليد رجل الأمن الذي سحبه إلي مكتبه كما انصعت أنا إلي قبضة سارة العسكر والتي أدخلتني مكتبها بقوة في ذهول مني ومن أمجد. نظرت إلي ساعتني. لا زال أمامي أكثر من دقيقتين إلي أن يحين موعدي. دخلت مكتبها والخوف يتملكني ولمحت أمجد يكاد يجن. كان يضرب كفا بكف كما كانت دقات قلبي تضرب بعنف شديد جوانب صدري فيزداد خوفاً.

الحلقة السابعة والثلاثون

البحث

نظرت إليّ أمي في تعجب بعد أن طرقت باب شكرية للمرة الرابعة. رنت في أذني كلمات أم كلثوم: «عودت عيني علي رؤياك». كنت أمني نفسي بأن أراها وأن أصالحها وأن أعطيها الأغنية كاملة للست بعد أن وجدتتها عندي علي شريط كاسيت. نظرت إلي الشريط في حسرة وغضب.

كنت أتمني أن تكون بداية مرحلة جديدة في علاقتي بك يا شكرية. يبدو أنه ليس كل ما يتمناه المرء يدركه. عدت بذكرياتي إلي أيام الجامعة. أهدتني حنان عزت السيد بضعة شرائط لأحمد عدوية. أغاني فترة الانفتاح الاقتصادي. ضحكت جدا عندما سألتني عن رأيي في أغنية «السح الدح امبوادي الواد لابوه. يا عيني الواد بيعيط» لم أرد عليها في البداية. حاولت أن أجد أي معنى للسح أو الدح. هل أتفلسف وأقول لها إن السح يعني سح الدموع أو المياة ونزولها؟ طيب وما علاقتها بالدح الذي هو البيض. وما علاقة هذا بامبو تلك الكلمة التي قد يقولها الأطفال إذا أرادوا أن يشربوا. سأسكت أفضل. سألتني مرة ثانية قائلة وهي تقترب مني في رغبة مشتعلة ولقد كانت تكاد تلصق شففتيها بخدي:

— طيب وأغنية عيلة تايهة يا ولاد الحلال

وقتها لم أرد عليها ولكني قررت أن أرد إن سألت ثانية. لقد سألتني ثانية بالفعل. قمت من جوارها وأنا أشعر أن رغبتني فيها تكاد أن تشتعل. كادت رجلها تلمس فخذي. قمت واقفا وكأن حية كادت أن تلدغني. قلت لها وأنا أجرب بعض الكلمات والتي زعمت أنها لن تفهمها:

— هذه الأغنية فيها شجن وترمز إلي مصر التي تاهت بعد الثورة. إنها ترمز إلي مرحلة ما بعد الحداثة وتنتمي إلي المدرسة ما بعد الكلاسيكية وتبدو فيها أيضا العبثية. إذا أردنا أن نصفها فيمكننا القول بأن الرمزية فيها واضحة وأن نبرة الرومانسية الجديدة غير موجودة لتمسكها بتيار اللاوعي وإغراقها في التفكيكية وبعدها عن منهج البنيوية والنظرة الماركسية.... قاطعتني قائلة:

— هل ستعطيني محاضرة يا عبدالله؟ من الآخر هل هي أغنية حلوة؟ هل تري إنها أغنية جيدة؟

— والله الصوت جيد. أحمد عدوية صوته كما يقول البعض تحس كأنه ذكر البط وهو يحشرج عندما يود أن يضاجع أنثاه. ولكن الكلمات ركيكة والمعاني قد تبدو مبتذلة والتعبيرات عفنة كالعفن الذي نحسه في فترة الانفتاح حيث سادت الماديات وضاعت القيم وانحسرت الأخلاقيات وغلبت العملة الرديئة التي تطرد

أصواتا رائعة مثل عبدالحليم وأم كلثوم ونجاة وفريد الأطرش. كنت أتكلم وأنا في غاية الانفعال. استرجعت الكثير من المراجع والكتب التي كنت أحرص علي قراءتها في المكتبة. كنت مغرماً أكثر بالكتب الأجنبية. تخصصي. آداب انجليزي. كنت منهمكاً مغمض العينين لأنني كنت مهتماً بتحليل ما أتخيله صحيحاً فباغتتني ووضعت فمها علي فمي فوجدت نفسي قد سكت فجأة. قالت لي: - آه. ذكر البط وهو يحشر ليضاجع أنثاه. تعبير جميل

تراجعت للخلف مذهولاً من جرأتها. اختبأت خلف الحائط. ليتني ما قلت هذه العبارة. ثقافتني ستقتلني وحذقتني ستضيعني. ستنفرد بي. اللهم نجني من هذا المأرق. ابتعدت وكدت أخرج من الحجرة مذعوراً خائفاً فإذا بها تدير الكاسيت علي أغنية سعاد حسني «الدنيا ربيع والجو ربيع» وتنهمك في رقص مثير بعد أن حزمت وسطها. تعجبت مما تفعل. قلت لها بصوت يرجوها: - حرام عليك. دعي هذه المواهب الفنية تنفجر بعد أن ننتهي من شرح الدرس لك يا حنان. أرجوك. من أجل خاطري.

- اللحظة الحلوة لا تعوض يا أستاذ
كانت ترقص كمحترفة. اتجهت نحو التسجيل وقللت أنا من درجة الصوت. خشيت أن يسمع أحد ما يحدث في حجرتنا. قامت برفع الصوت إلي أعلي درجة. وضعت يدي علي أذني وقللت بصوت لم تسمعه: - حرام عليك. أخشي أن يسمع أحد هذا الصوت.
- لا يهملك. فليسمع من يسمع. الدنيا ربيع والجو بديع. .

وحدث ما كنت أخشاه بالفعل. لقد دخل عليها والدها فجأة!! اسودت الدنيا في عيني. سيطرني الرجل بلاشك. ضاع الستون جنيهاً. بالمصيبتين!! ماذا سأقول لأمي؟ ستتهمني بأنني كنت السبب في إغواء البنت. سأخرج من الفيلا بفضيحة. البنت تواصل رقصها. يبدو أنها لم تر والدها. سيضرب الرجل ابنته. سيصفعها بلا شك. اتجهت نحوه والخوف يملأ نبرة صوتي. قلت له في رجاء: - عم عزت. أنا آسف. هي التي ..

أشاح عني بوجهه وأبعد يدي عن يده. سيصفعها الآن. لحظات عصيبة مرت بي. تعبيرات والدها محايدة. فجأة تغير كل شيء.

أخذ يصفق لها وهو يبتسم. اتجه نحو المائدة التي كنا نجلس عليها للمذاكرة وألقي بالكتب والأوراق علي الأرض وأخذ يطبل لها. كان يبتسم لها وهي ترقص. اقترب مني وطلب مني أن أصفق لها وقال لي أمرا في ابتسامة كبيرة:

— طبل معي يا عبدالله. بنتي فنانة. هيا صفق وطبل معنا. عليك أن تحيي فنانتنا وأن تتغزل في موهبتها. إن شاء الله لها مستقبل أحسن من سهير زكي

لم أصدق ما يحدث. لقد أكدت لنفسني من قبل إنه رجل ديوث ولكنني لم أكن متأكدا. لقد كانت مجرد شكوك ولقد تأكدت الآن. إنه رجل طرطور. أخذ يهزني حتي أصفق وأطبل لها ولكنه ألع علي قائلا: — هيا معنا يابني. لا تفسد فرحة البنت. حرام عليك

أحرام علي أنا؟ أيها الأغبياء. أيها الحمقي والمغفلون. قال لي ذات مرة إنه يعشق الحرية ويترك البنت تفعل ما علي هواها. شئ غريب. أهذا هو المجتمع الراقي؟ لو كان الأمر كذلك فإنني أول المتخلفين. إن فكرة أن ترقص أختي لا تخطر لي علي بال. تذكرت أن أمي أكثر من مرة كانت تطلب من سمر ألا تستمع إلي الأغاني في الراديو. إن فكرة أن تخرج أختي بدون إيشارب كانت غير متصورة في ذهني. ماذا لو كانت أختي في مثل هذا الموقف. كنت سأقتلها علي الفور. ابتعدت وخرجت بعيدا إلي أن انتهت حنان من وصلتها الراقصة وخرجت إلي. قبل الرجل ابنته ونظر إلي في ابتسامة غريبة وقال لي: — لا تحبك الأمور هكذا

نظرت إلي حنان في غضب وقالت:

— عبدالله مترمت جدا يا بابا. يا بني ساعة للجدة وساعة للهزل اقترب مني والدها وربت علي كتفي وقال مؤكدا المعني الذي كانت ترمي إليه:

— ساعة لقلبك وساعة لربك يا بني.

ثم طبع قبلة حانية علي جبين حنان واحتضنها. أخبرها أنه سيتأخر الليلة وقد يعود بعد منتصف الليل. سألته إن كان سيسهر في الكازينو المفضل له. أجابها بأنه لن يتأخر عن الواحدة. طلبت منه أن يهتم بنفسه وألا يسرف في الشراب. سألته قائلة:

— بابا. أخاف عليك من سوسو الراقصة.

— لا تخافي

— لقد أقسمت أن تتزوجك

— لا تخافي. هل أنا عبيط؟

— طيب أرني محفظتك

— ليس فيها سوي مثتي جنيه

— وأين مصروفي هذا الأسبوع؟

— سأطلع لمكتبي حالا

نزل ومعه مثتي جنيه. أعطاها لابنته ثم قبّلها. يا الله يا رب
يا إلهي. أهكذا تنفق الأموال؟ إن هناك من يموتون ولا يجدون لقمة
ليأكلوها. يا رب حكمتك. أعطيت هؤلاء الأغنياء لينفقوا ويبذروا بسفه
وحرمت الكثيرين. صدقت يا رب. إن من عبادك من لو أغنيتهم
لفسد حاله ومنهم من لو أفقرتهم لفسد حالهم. أتذكر أكثر من ليلة
كنا نبيت فيها ونحن جياع. يا رب كن للفقراء والضعفاء والمساكين.
الأفضل أن أسكت ولا أفكر في مثل هذه الأمور حتي لا أجن. اقتربت
منه حنان وقالت له بدلال:

— حرام عليك يا بابا. تصرف مثتي جنيه في ليلة واحدة وأصرف
أنا طيلة الأسبوع مثتي جنيه. هذا ظلم.

— إذا نجحت هذا العام سأضاعف مصروفك الأسبوعي. هذه هي
السنة الثانية لك يا حنان

— سأنجح يا بابا. اطمئن معي أحسن أستاذ في الدنيا

ثم اقتربت مني وربتت علي ظهري. خرج أبوها وتركنا. أخذت
بيدي ودخلنا الغرفة. أحرصت التسجيل تماما. شرعت في جمع الكتب
والأوراق. بدأت أشرح لها أدب شكسبير وبعض قصائده فبدت غاضبة.
تعللت بأنها في حالة ملل. أخذت يدي وذهبت إلي البيسين. قذفت
بي في حمام السباحة وأنا أصرخ وأقول لها:

— أنقذيني. سأغرق. أنا لا أعرف أن أعوم

ابتسمت وقفزت في الماء وهي تغني لي: «إنني أتنفس تحت الماء.
إنني أغرق. يا كل الحاضر والماضي يا عمر العمر. هل تسمع صوتي
القادم من أعماق البحر؟ إن كنت قويا أخرجني من هذا اليم. فأنا لا

أعرف فن العموم. لو أني أعرف أن الحب خطير جدا ما أحببت. لو أني أعرف أن البحر عميق جدا ما أبحرت. إن كنت أعز عليك فخذ بيدي فأنا مفتون في حبي حتي قدمي»

أمسكتني بيديها وحافظت علي توازني. صوت نغمات أغنية عبدالحليم ودندناتها تذيبني في جو رائع لا أخاف منه. كنت أتمني أن أنزل في هذا الحمام. لقد تحققت أمنيتي ونزلت فيه. الله عليك يا حليم. الله عليك يا حلم. حتي وهي تغني كانت ترقص في الماء. كانت تهدهدي. فجأة أتت صرخات الشيخ كشك في أذني في أحد الأشرطة وهو يسخر من عبدالحليم. أية معركة فكرية هذه؟ كان يصيح بصوته الجهوري: «كل نبي أتى بمعجزة إلا عبدالحليم ابن حافظ أتى بمعجزتين. إنه يمسك الهواء بيديه وإنه يتنفس تحت الماء. أهو سمكة بخياشيم؟» أستغفر الله العظيم. أنا أحب عبدالحليم وفي الوقت ذاته أحب الشيخ كشك. أي تمزق هذا الذي أشعر به. إنني أبحث عن نفسي ولا أجدها. أين أنت يا نفسي؟ أفقت بعد هذا الصراع داخلي ورجوتها أن تخرجني من حمام السباحة هذا. احتضنتني. خرجت وظللت أسبوعا كاملا أعاني من البرد. حرارة مرتفعة وكحة وعطاس وسعال. دارت هذه الأحداث في ذهني وأنا واقف علي باب شكرية.

يالروعة الأيام الماضية ويالفتنتها!!

أنا وأمي وأخوتي نعيش بجنيه في اليوم أو أقل وهذا السفیه والد حنان ينفق في الليلة مئتي جنيه ويعطي لابنته مصروفا أسبوعيا مئتي جنيه. يا رب كن للفقراء والمساكين. حكيت لأمي وقتها هذا الكلام ولم تصدق. أي سفه هذا؟ صدقت يا ماركس. غزارة في الإنتاج وسوء في توزيع الثروات. كنت مع أُمِّي نقف في الطابور الطويل بالجمعيات الاستهلاكية لنحصل علي كيلو اللحم بسبعة وستين قرشا ونصف القرش. كنا نقف بالساعات في الطابور لنوفر بضعة قروش. الطعام في الجمعيات الاستهلاكية أرخص. كنت أتمني وأنا طفل أن أعمل بهذه المجمعات الاستهلاكية لأرحم أُمِّي من عناء الوقوف بالساعات في الطابور. لم أكن أعلم أن هذه الأمنية ستتحقق في يوم من الأيام. أتذكر أنني دعوت أثناء وقت الآذان. يبدو أن الله قد استجاب دعوتي. نظرات أُمِّي لي وطلبها مني أن أطرق الباب مرة رابعة أعادني

إلي الحاضر. بدأت أطرق الباب ثانية وما من أحد يجيب. ها أنا ذا لا أجدها يا ست أم كلثوم. عملت ما عليّ وأتيت لأراها ولأصالحها ولما أجدها. يبدو أن الأغنية المناسبة الآن لمثل هذه الحالة التي أنا فيها: «هجرتك يمكن انسي هواك». أيقنا أن أحدا لن يرد علينا حتي وإن ظللنا أمام الباب لمدة ساعات.

خرج إلينا أحد جيرانها وكان يرتدي ملابس النوم. كان رجلا غريب الأطوار. نظر إليّ بطريقة غريبة وكأنه يتفحصني من أعلي إلي أسفل. يبدو أن طرقتي أيقظته وأزعجته. لبس نظارته ونظر إلينا وأخبرنا أن الشقة مغلقة منذ فترة ولا أحد يوجد بها. سألت الجار إن كان يعرف أين ذهب سكان هذه الشقة فأخبرنا أن المرأة ووالدها قد سكنوا هذه الشقة منذ أقل من شهر تقريبا ولا أحد يعرف عنهما أي شيء. لم يختلطا بأحد ولم يختلط أحد بهما. كما جاء في هدوء رحلا في هدوء. أحسست بالخيبة ولكن الجار غريب الأطوار أمسك بذراعي وكأنه يقبض علي. حاولت أن أسحب ذراعي منه ولكنه رفض متعللا بأن دخول الحمام ليس كالخروج منه. أدخلني إلي شقته وأقسم بالله أن يسقينا الشاي من يد زوجته الجميلة الرائعة. الرجل غير طبيعي بالمرة وقد شعرت بالخوف نتيجة نظراته لي ولأمي. كان ينظر إلينا ويتفحصنا وكأنه مخبر سري. كأننا أثرنا فضوله واهتمامه. أصر علي أن ندخل شقته. نظرت إليّ أمي وكأنها توافق علي طلبه.

دخلنا شقته وجلسنا في الصالة. دخل الرجل وغاب لحظات. بدأت أشعر بالقلق والخوف. الرجل غير طبيعي بالمرة. أخذت أتنحس وأصدر صوتا ليشعر الرجل أنه قد تأخر علينا بالداخل ولكن الرجل لم يطلع لنا. نظرت إليّ أمي وكأنني أعاتبها علي قبولها لدعوة هذا الجار الغريب. أخبرتني أن الغريق يتعلق بقشة. علينا أن نبحث عنها يا ولدي. قد يخبرنا بمعلومة تساعدنا في البحث عن شكرية. لم أعد في حالة تسمح لي بجدالها. يعني شكرية ووالدها لم يكونا من سكان هذه المنطقة. كما دخلت حياتي بسهولة خرجت منها بسهولة وبنفس الطريقة التي أجرت بها هذه الشقة وتركتها. ألسنت غبيا لأوافق علي طلبها وأخطبها وأنا لا أعرف عنها أي شيء. أردت أن أصرخ وأنا أذكر المثل القائل: «حاسب قبل أن تناسب».

كان الرجل غريب الأطوار يدندن بداخل حجرته. غاب عنا كثيرا. طرأت علي ذهني أغنية عدوية فذكرتني بحالتنا التي نحن فيها ونحن نبحث عن شكرية. كانت كلمات أغنية «عيلة تايهة يا ولاد الحلال» تتردد في ذهني وكنت أتذكر حنان. يا لها من أيام خلت. لا أعرف إن كان عدوية قد وجد من يبحث عنها أم لا. أتمني من كل قلبي أن نجد شكرية.

خرج إلينا الجار وكانت مفاجأة غريبة. لم تكن مفاجأة واحدة بل كانت هناك أكثر من مفاجأة.

الحلقة الثامنة والثلاثون

الجار الغريب

كنت أنظر إلي أمي وكأنني أتهمها بأنها السبب بما في نحن فيه الآن. إننا قد دخلنا محبسنا بأنفسنا ووقعنا في قبضة جار شكرية. لقد وقعنا في أسر هذا الرجل غريب الأطوار برغبتنا وبارادتنا ولم يجبرنا أحد. لقد كانت نيتنا أن نعرف أي شئ عن شكرية. لعله يعرف ولعله يخبرنا بأية معلومات قد تودي بنا إلي طريقها أو تيسر لنا الوصول إليها. استضافنا الرجل ودخل وحده حجرته وتركنا. لقد وعدنا أن نشرب الشاي من يد زوجته الجميلة ولكن لا حس ولا خبر من أيهما إلي الآن. لم نعد نسمع أي شئ. نظرت إلي أمي وكأن نظراتي تخبرها بأنني أشعر بأننا سنقع بالفعل في بعض المشكلات بسبب حسن نيتنا وتعاملنا الذي يتسم بالبراءة مع الناس في وقت ماتت فيه البراءة وشيعت فيه حسن النية إلي مثواها الأخير. لقد توصلت إلي هذه الحقيقة بعد خبرة أكثر من خمسة عقود قضيتها وسط ذئاب الناس وحملانهم. كم بكيت وحيدا وسط دفعات الناس وصفعات الأيام!! كم كنت أسهر يائسا وسط غدر الأحلام وتراجع الآمال. لقد امتلأ قلبي بالسواد ولم يبق فيه سوي موضع صغير للثقة في الناس والأيام. كنت دائما أحس بأنياب الأيام والليالي وعضاتها. لم أجد سنة من سنوات عمري إلا وفيها أثر لخيانة أو مكان لجرح من الناس، ومع ذلك كنت أعاملهم وأضحك في وجوههم وأواصل التعامل معهم ببراءة وسذاجة وكأنني لازلت أري فيهم خيرا.

كل مرة كان ظني يخيب وكل مرة كنت لا أتعلم أبدا وأظل كما أنا. أخذت أوجه اللوم إلي نفسي فما كان لي لأنظر لأمي بهذه النظرات. قبلت يدها ونظرات عيوني تنطق بالاعتذار. لم أكن أعرف أن هناك العديد من المفاجآت في انتظارنا كما لم أكن أعلم أن هذه المفاجآت ستكشف لي الكثير مما لم أكن أعرفه. سبحان الله كل شيء عنده بمقدار. تأسفت لأمي فلکم تذکرت أنني سببت لها العديد من المشكلات عندما كنت صغيرا. لماذا لا أستغل الوقت الذي سيغيب فيه مضيفنا غريب الأطوار؟ أخذت أتذكر الأيام الخوالي وذكرت أمي بسوء فعلتي عندما أصررت مرة ثانية علي ضرب أدهم عبدالجواد الخربوطلي. ولد غريب لم أحب صحبتہ قط، ولكنه صار يتردد كثيرا مع والده علي بيت فؤاد باشا. يبدو أنه لم ينس قط تلك المعركة الأولى التي برکت فيها عليه ووسعته ضربا. لقد صار يتحاشي غضبي ويخشي نظراتي. كان دائما ما يشعر بالخوف مني ويتحلي بالحذر والبعد عني. أكثر من مرة كانت سارتي تهدده بأنها ستتركني أضربه فكان ينسحب من أمامها وجسده يقشعر خوفا ورعبا. كان الرجلان يتحدثان في السياسة ويأملان أن تكون فترة حكم الرئيس السادات بداية خير لهما ولأمثالهما من الباشاوات والبيكوات وأصحاب الثروات التي حرموا منها أيام عبدالناصر. كنت أستمع إليهما عندما كنت ألعب مع سارتي ومع أدهم ذلك السخيف السمين محمر الوجنتين والخدين عظيم الكرش والأرداف. كان عبدالجواد باشا يضحك ويقهقه ذاكرة بأنه لا يوجد في التاريخ أسوأ من عبدالناصر الذي استباح أموالهم وأمم مكتسباتهم وأخذ أرضهم. رشف فؤاد باشا آخر قطرات من قهوته وقال إنه غير متفائل بالرئيس الجديد وإنه يتوقع الأسوأ من رجل غير محنك مثل السادات. وقع فنجان القهوة من يده وقال إن السادات كان نائبا لعبدالناصر في أيامه الأخيرة والخوف كل الخوف أن يسير علي نهجه. أوما عبدالجواد الخربوطلي برأسه وقال مشاركا له قلقه إنه ابن عامة الشعب. لقد ولد في أسرة فقيرة وسينحاز للفقراء وسنضيع نحن الأغنياء. ضحك فؤاد باشا وأكد علي كلامه قائلا إنه ولد في أسرة كبيرة الحجم. له ثلاث عشرة من الأخوة والأخوات. لقد جرب الفقر وسيكون قلبا وقالبا مع الفقراء. ضحك

عبدالجواد وقال له ساخرا إن المنصب يغير من شخصية الإنسان.
الكرسي يغير نفوس الناس يا فؤاد باشا.

تذكرت كيف أزيلت صور الرئيس عبدالناصر من علي جدران
الفصل وحلت محل صورته صور الرئيس الجديد. لا أدري لماذا غشيتني
الرهبة في هذا اليوم ولا أدري لماذا أصبت بالقشعريرة. لقد شعرت في
هذا اليوم وكأن أبي قد مات. لقد كنت أشعر بدفع الأب وحنانه
عندما كنت أنظر في صورة عبدالناصر. كنت أحب ابتسامته ونظرته
الأبوية. الآن فقط أدركت لماذا أحببت شخصية ماجد بحيري زميلي
في المصنع. إن فيه شبها كبيرا من الرئيس عبدالناصر. سأخبره غدا في
المصنع. إنني أحبه حقاً. أحب نفس نظرات الحنان في عينيه والتي
أحسست فيهما بنفس نظرات الحنان عندما كنت أصدق في صورة
الرئيس عبدالناصر. إن ماجد بحيري بشعره الأشيب وباعتزازه بنفسه
وبعدم خوفه وعدم رضوخه لأوامر سارة العسكر في المصنع كان أشبه
ما يكون بعناد عبدالناصر وشموخه. لم يكن قط في موكبها ولم يكن من
المطبلين لها أو المزمزين لقراراتها بل كان يؤدي عمله في صمت. ما أن
ينتهي العمل إلا وكان يغادر المصنع في هدوء. لم يكن يتملقها قط ولم
يكن يسعى إلي لقائها أبداً بل كان يتجنب أن تقع عينيه في عينيها.
كان يتجنب أن يلتقيها. لم يدخل قط إلي مكتبها ولم يقف علي بابها.
أحسست أن عبدالناصر كان خير أب للفقراء والمساكين. لم تؤثر في
معظم القراءات التي قرأتها فيما بعد علي حبي لعبدالناصر. كنت
أحب نظرته لأعلي وحلو حديثه وبساطته واعتزازه بنفسه. أحببت
فيه رأسه المرفوعة المتكبرة وافتخاره بأنه واحد من أفراد الشعب
العادي. أحببت فيه حديثه عن أبيه الموظف البسيط الذي صار
ابنه رئيساً للجمهورية. أبي كان مزارعاً. لا كان أجيراً يعمل بالأجرة
لدي والد سارتي. فكرت أكثر من مرة أنني قد أكون مثله رئيساً
للجمهورية. ولم لا وأنا أول فصلي وأفضل طلاب مدرستي؟ لم لا والأمل
يحدوني في أن أكون عظيماً في المستقبل. لي الحق في الحلم ولدي
الحافز لتحقيق رغبتني من أجل أمي وأخوتي. لقد كان عبدالناصر
زعيماً حير العالم وكتبت عنه مئات الكتب. كنت أتحير لتضارب
مواقف أمي منه. أشعر أحياناً أنها كانت تحبه وأشعر في أحيان

أخري أنها كانت تخافه وتكرهه.

وقفت في جلال أمام الفراش الذي كان يزيل صورعبدالناصر من علي الحائط وأصررت علي أن آخذ جميع الصور معي وأنا ذاهب إلي البيت. لاحظ أنني أبكي وبحرقه. أخبرني أن هذا حال الدنيا. يموت أناس ليحيا أناس آخرون. لاشئ دائم إلا وجه الله. بكى الفراش أيضا. هل أعود للبكاء ثانية وأتذكر نكستنا في حرب الأيام الستة؟ أغرقتني دموعي. أخذت الصور كلها ووضعتها بجوار الدكة التي أجلس عليها إلي أن حان وقت الانصراف من المدرسة. طلبت من سارتي أن تحمل معي بعض الصور. حملت معي. كان قلبي ينبض بالحرب عندما أراها وتكون معي كما كان ينبض بحبها عندما تكون بعيدة عني. وقفنا أمام سور المدرسة. أتى والدها في سيارته ليأخذها من المدرسة. رmqني باحتقار شديد ولا أدري ما السبب في هذه النظرة يا عم فؤش؟ ألقي الصور من يد ابنته والتي كانت تحتضنها في براءة بكل ما أوتي من قوة. أمسكت صورة بيدها فمزقتها بعد أن شدها من يدها ورمي الصورة بكل قسوة علي الأرض. دخلت السيارة وأدار محرك السيارة. اعتقدت أنه سينتظرنني لأركب معه ومع ابنته. كنت أجمع بقايا الصور الممزقة وأستعد للحاق بالسيارة ولكن الرجل أسرع بسيارته وتركني ودموعي لذكري عبدالناصر. لقد فعل بكم ما يليق بكم أيها الأغنياء. لم تكن سوي أصداء الثورة هي التي تصلح للتعامل معكم. لقد نهبتم أموال الفقراء. لقد تعاليتم علي الناس بأموالكم وممتلكاتكم. أتمني أن يكون الرئيس الجديد أشد عليكم من عبدالناصر. سمعت سارتي تطلب من أبيها أن ينتظر إلي أن أركب معها ولكنه عنفها وزعق فيها فسكتت علي الفور.

وبينما كنت أجلس باكيا وفي يدي صور الرئيس عبدالناصر وبقايا الصور التي مزقتها والد سارة نزل من إحدى السيارات أمامي رجل لم أتعرف عليه في البداية بسبب دموعي التي ملأت عيني. اقترب مني وربت علي كتفي. احتضنني في حنان وسألني عن سبب بكائي فأخبرته ولم أكن قد نظرت إليه بعد. ابتسم لي ورفع رأسي تجاهه فرأيت يبتسم في طيبة وحب. تذكرته جيدا. إنه عم صادق سائق سيارة عبدالجواد باشا الخربوطلي.

أصر علي أن يوصلني إلي البيت بحملي الثقيل. أثناء الطريق سألته عن أبي فقال إنه كان من أذكي الناس الذين عرفهم. عرفت سبب تفوقي في الدراسة. أبي السبب. طلبت منه أن يحكي لي عن أبي فقال الكثير وكنت أتخيله ملاكا. تخيلته يرتدي ملابسه البيضاء وكأنه في السماء. كما كانت أمي تحكي لي دوما إنها كانت تراه في المنام وهو يرتدي الأبيض في الأبيض. لقد مات جمال عبدالناصر كما مات أبي وكلنا سنموت. كنت أتمني أن يكون معي ولو لسنوات قليلة أنعم فيها بدفع حزن الأب وحنان ضمته وصفو بسمته لابنه والذي كان بلاشك سيفخر بي كما تفخر بي أمي. كان أبي عادلا لا يقبل الضيم ويقول الحق ولو علي نفسه. أكثر من مرة كان فؤاد باشا يغضب منه. هكذا واصل عم صادق كلامه. عم فؤاد يغضب من أبي؟ لماذا؟ لأن أبيك كان دائما مع الحق ولا يعجبه الحال المائل. حكي لي أن زوجة أحد زملاء أبي سيد جمعة كانت رائعة الجمال وكان فؤاد باشا مغرما بها. وفجأة سكنت عم صادق ولم يرد أن يكمل الحديث في هذا الموضوع. كنا قد وصلنا إلي البيت. بيت فؤاد باشا فتوقف عن الكلام. دخل معي حجرتنا التي نسكنها. أدخل صور الرئيس عبدالناصر معي. كان يوما صعبا بالنسبة له ولي. كان عبدالجواد باشا الخريوطلي مع زوجته عبدالجواد باشا الخريوطلي. ما أن رأى عبدالجواد سائقه ورآني في سيارته إلا واستشاط غضبا. كيف له أن يجعل أبناء الشوارع يركبون سيارته. لقد أمره أن يذهب في مهمة وأن يعود إلي بيت فؤاد باشا. أخبره صادق بأنه نفذ المهمة علي أكمل وجه وأنه في طريق عودته وجدني في الطريق فأراد أن يأخذني معه لأنه سيمر بنفس الطريق الذي أسلكه. احمر وجه عبدالجواد وخصم أجر يوم من راتب صادق. ليته ما أخذني معه في هذه السيارة اللعينة. رأيت الغضب أيضا في وجه فؤاد باشا وأخبره أنه لم يرد أن يأخذني معه ومع ابنته لأنني كنت علي حد قوله متلبسا بجريمة. لقد كنت أحمل صور الرئيس عبدالناصر. لو كانت جريمة فسأعترف بها. إنني أحب هذا الرئيس أيها الأغنياء. لا. أيها الأغنياء. لن أفعل شيئا. سأغير موضع النقطة. بدلا من أن تكون النقطة من أعلي سأضعها

من أسفل فتصير الأغبياء بدلا من الأغنياء. كان أدهم يراقب الموقف والسعادة تملؤه. نظر إليّ أدهم في احتقار وودت لو انهلت ضربا علي هذا السمين المتعجرف. سأصطاد له فرصة وأكيل له الضربات. والله لأضربنه اليوم حتي لو أدي بنا الحال إلي الطرد من هذا البيت. سمعت نحنحات مضيفنا الغريب. يبدو أنه سيطلع لنا. خرج لنا وهو يرتدي زيا عسكريا كاملا. كانت بدلة الجيش. خرج يذرع الصالة أمامنا جيئة وذهابا. كان يرفع رأسه إلي أعلي ويسير بطريقة عسكرية. يرفع يده مع رجليه التي تتحرك للأمام ثم يستعد بالرجل الأخرى ويرفع اليد الأخرى. كان لا يرمش له جفن وكأنه يتحرك في عرض عسكري مهيب. نظرت له وكدت أضحك أما أمي فلزمت الصمت. وقفت وحاولت أن أتحدث مع مضيفنا الغريب. لم يلتفت لي قط وواصل ذهابه وإيابه عبر الصالة وكأنه في مسيرة عسكرية. لفت نظره نحو اليمين وبرقت عيناه ثم وجه رأسه فجأة تجاه اليسار ووقف تماما. رفع رأسه إلي أعلي. قال بصوت جهوري: تحيا جمهورية مصر العربية. طلب مني أن أحيي العلم معه. قلت له إنني لا أري العلم. قال بصوت مرتفع: ألا تري أيها الأعمى؟ العلم يرفرف في سماء الوطن. نحن علي أرض سيئاء الحبيبة. انظر إليّ أعلي أيها الأحمق. مثلت أني أنظر إليّ أعلي. قلت له: إنني لا أري العلم. وبخني وقال: ركز جيدا أيها الغبي. أنا الصول محمد إبراهيم أبوستة. أبو ستة. أه تذكرت سيد أبوستة. كان يعمل في الوردية التي كنت رئيسها في مصنع حجاج العيسوي. أيعقل ان يكون هذا الرجل والده. تذكرت أني رأيت صورة سيد أبوستة في الجريدة وكان الخبر بمثابة القنبلة بالنسبة لي. أيعقل أن يكون هذا الرجل هو والد سيد؟ قد يكون مجرد تشابه في الأسماء. وقفت بحزم ووقفت في شكل انتباه. خبطت الأرض بقوة ومثلت أني أؤدي التحية لقائدي الصول محمد إبراهيم أبوستة. قلت بصوت قوي: تماما يا افندم. ابتسم لي مضيفنا وقال: أحسنت يا وحش. قلت له في هدوء: كله تماما يا افندم. أين الشاي الذي ستعمله لنا زوجتك. نحن هنا في مهمة محددة. نظر إليّ مبتسما وقال: هل جاء قرار من الرئيس باستكمال الحرب أم اننا سنركن إلي السلام؟ لا سلام مع اليهود. لن

نصالح اليهود يا عسكري.

كادت أمي أن تبتسم لما رأتهني أجاري الرجل. قلت له وأنا في غاية الصرامة: هل هناك من أخبار عن شكرية جارتك يا افندم؟ لم يرد عليّ. أدي لي التحية وقال: نحن في ساحة الحرب الآن ولا يمكن لك أن تتكلم عن الحياة المدنية. لا حديث عن الحريم. مفهوم يا عسكري. كان يجب عليّ أن أرد: مفهوم يا افندم.

وكما خرج علينا مضيفنا الصول محمد إبراهيم أبوستة في هيئته العسكرية الصارمة دخل ثانية وغاب عنا فترة أطول من المرة السابقة. نظرت لأمي وابتسمت فلقد عرفنا اسمه وعرفنا أنه كان صولا في الجيش. سنعرف المعلومات بالتدريج. سيتكشف كل شيء. خشيت أن أخبر أمي بأن الرجل غير طبيعى فتنصرف وتطلب مني أن نغادر فوراً. سننتظر فقد تأتي زوجته الجميلة وتنقذنا وتقدم لنا الشاي فنعرف منها بعض المعلومات.

قلت لأمي أن تسامحني فلطالما سببت لها المشكلات عندما كنت أضرب أدهم عبدالجواد الخربوطلي. ابتسمت لي وطلبت مني أن أنسى هذه الأيام السحيقة. كيف أنسى هذه الأيام التي شكلت نبع حياتي وكوّنت مخزن ذكرياتي وجددت نظرتي للعالم ومن فيها. لقد كانت تتعرض للغضب الشديد من والد أدهم ومن والد سارتي. سكنت أمي قليلاً. أخذت أتابع بعض الصور التي كانت علي حائط صالة مضيفنا الغريب. صورة له مع الرئيس السادات. صورة له وهو في كتيبته مع الجنود والضباط عندما كان شاباً. صورة له وهو يحتضن طفلاً له. اقتربت من الصورة جيداً. إنها قد تكون نفس ملامح سيد أبوستة. سبحان الله. أيمكن أن تكون الدنيا صغيرة بهذه الدرجة. قد يكون ابنه فعلاً وقد لا يكون ابنه. لقد كنت أحب سيد أبوستة. لقد استقلت بسببه. رفضت أن يظلم هذا الشاب. عدت بذاكرتي إلي الماضي لأرشف بعض اللحظات الحزينة السعيدة. نعم لقد كانت لحظة حزينة سعيدة. ذات مغرب كنت أسترق السمع إلي والد سارتي تتحدث مع فريدة هانم زوجة عبدالجواد الخربوطلي. كنا نحن الأطفال في الشرفة. كنت أنظر إلي سارتي بكل حب وفرحة بعد أن مالت الشمس تجاه الغروب.

كنت أري دمعات الشمس تتساقط في قلبي وتصب حمرتها علي وجه سارتي الحبيبة. كنت أشرح لها درس العلوم. كنت أقول لها إذا وضعنا ورقة عباد الشمس في الأحماض فإنها تحمر. لم أكن أنظر إلي الكتاب. كنت أتذكر الدرس جيدا بل أحفظه عن ظهر قلب. آتي أدهم ووقف أمامنا وقال بجدية:

- أنت تقول المعلومات الخاطئة لسارة يا عبدالله
- يا سلام!! وهل تعرف أنت أي شئ أيها الغبي في العلوم؟
- طبعا لقد درست هذا الدرس في العام الماضي. أنا أكبر منكما بسنة
- أنت أكبر مني بسنة ولكنك بليد
- لست بليدا. أنا متأكد. ورقة عباد الشمس تزرق إذا وضعت في الأحماض
- يالك من غبي!!
- أتراهنني؟ إنك لا تنظر في الكتاب
- أراهنك
- علي أي شئ؟
- من يكسب يصفع الثاني علي وجهه مرتين
- موافق. تذكر أنك أنت الذي طلبت الرهان
- وأنا لا أخاف منك يا عبدالله
- نظرت سارة إلي أدهم وطلبت منه أن يتراجع ولكنه أصر. إنه يقسم ويؤكد إنه علي صواب. نظرت سارة إليه ثانية وقالت له في رجاء:
- لا تتحدي عبدالله. سيكسب الرهان
- لن يكسب وأنا متأكد من أنني علي صواب
- صدقني عبدالله دائما علي صواب. أنا أعرفه. إنه الأول دائما.
- وهل أنت معي أم معه؟
- أنا معه دائما. سيكسب.

نظرت إلي وكأنها تتمني أن أكون علي صواب. طمأنتها بنظراتي. لن أخذلك أبدا يا سارتي الحبيبة. تأكدي بأن ثقتك في مكانها. همست سارة في أذني متسائلة: «هل أنت متأكد من أنك ستكسب؟ أتمني ألا يصفعك». كان يكفيني هذا. إنها معي بقلبها وتتمني أن أكسب. رددت عليها بسؤال: «هل تثقين في أنني علي

صواب؟ «قالت مبتسمة وهي فخورة بي:» مائة في المائة يا عبدالله». تعجبت وتساءلت في نفسي لماذا تسألني إذا؟ لعلها قد يصيبها الشك ولو لنسبة واحد في المائة. أخبرتني بعد الرهان أنها لا تشك فيّ أبدا. لكم أنا سعيد بثقتها هذه. تمنيت لو استطعت أن أقول لها وأنا أحبك يا سارتي مائة في المائة ولا يوجد لدي شك ولو لواحد في المائة بأنني لا أحبك.

تعجل أدهم وفتح كتاب العلوم. نظر في درس الكشف عن الأحماض والقلويات. اكتشف أنه علي خطأ. اصفر وجهه تماما وتبدل لون الحمرة الذي يميز وجنتيه وخديه. ابتسمت لي سارة واتجهت نحوي. رفعت يدي بكل فخر وقالت:

— عبدالله المصري يكسب. عبدالله المصري علي صواب دائما.

كانت هذه أعظم شهادة حصلت عليها. إنها حبيبة العمر تمسك بيدي وترفعها. أي وسام أفضل من هذا أود الحصول عليه؟ اقتربت مني ورببت علي كتفي. كنت أود أن تحتضنني لأنني أردت أن أحتضنها لأثبت لها أنني أنا رجلها.

أنزل أدهم رأسه إلي الأرض. وقف حزينا. طلبت مني سارتي أن أسامحه. هززت رأسي موافقا. غضب أدهم وقال في عزة وهو يرفع خده نحوي لأصفعه:

— لقد خسرت الرهان. من حقك أن تضربني

— لن أضربك. سأنفذ ما تأمر به ملكتي سارة. هي أميرتي وسأنفذ أمرها

— ليست ملكتك ولا أميرتك. لو سمحت اضربني

هنا تدخلت سارة وطلبت منه أن يتركنا نواصل مذاكرتنا ولكن أخذته العزة بالإثم وطلب مني مجددا أن أضربه. نظرت إليّ سارة وكأنها تحثني علي ضربه فلم أتردد. صفعته الصفعة الأولى فاحمر مكان أصابعي علي وجهه. تفرقت الدموع في عينيه. سقطت دمعة ثم الأخرى. نظرت إليّ سارة وطلبت مني بنظراتها ألا أضربه بشدة في المرة الثانية لأنها قد أشفقت عليه فعلا. لمست خده المكتنز فقط بأطراف أصابعي. أصابه الغضب وقال لي لو كان هو الفائز لضربني بلا رحمة ولا شفقة. أغاظتني كلماته فصفعته بكل ما أوتيت من قوة. شعرت وأنا أضربه بأنني أضرب كل الأغنياء وأطلق من صدري كل

طاقات الغضب التي كان ينظر بها والده وعم فؤاد إليّ أمي وإليّ. ضربته وأنا أحس أن غليلي منه ومن والده ومن عم فؤاد قد زال تماما. ليتني ما ضربته. فلقد بكى بشدة. ذهبت إليه سارة وربت على كتفه. كأنه لم يحب أن تشفق عليه سارة فاتجه إليّ وأمسك بخناقِي. نظرت إليه في غضب وسألته والشرر ينطلق من عيني: — هل أنت علي قدر هذه المسكة؟

سكت ولم يرد. بان عليه الغضب. أمسكت بخنقه وكدت أن أمنعه من التنفس. احمر وجهه بشدة وأخذ يسعل. خلّصته سارة من يدي. غافلتها وبركت فوقه للمرة الثانية وكيلت له لكمتين. أشار بيده إليّ وكأنه يستسلم قائلاً: — أنا آسف. حرّمت.

قمت من عليه وأنا أرفع رأسي. تمثلت صورة الرئيس عبدالناصر وهو يرفع رأسه. سنقضي علي الظلم والفساد. ارفع رأسك يا أخي. لقد مضى عهد الاستعباد.

خرج من الحجرة وهو يجر أذيال الخيبة والفشل. لقد كسرتة تماما. واصلت شرح الدرس لسارة ولكنها كانت تبكي. اتهمتني بالقسوة. ليتني ما ضربته. ليتني ما لكمته. لم تستطع أن تستوعب شيئاً. وقفت وقلت لها متسائلاً:

— أكنت ستبكين لو خسرت أنا الرهان؟

— كنت متاكدة أنك ستكسب

— إنه حيوان غبي ولا يفهم. أحماض اولها أحـم.. وهذا يعني أن ورقة عباد الشمس ستحمر إن وضعت في الأحماض

— لقد قسوت عليه. أنت ذكي وقوي. يجب علي القوي أن يرحم الضعيف. أهذه كلماتك لي يا سارة؟ ألا ترين كيف كاد والدك يطردني أنا وأمّي واخوتي لمجرد أن غضب لأنني ضربت أدهم في المرة الأولى؟ أنتم أقوىاء أغنياء فلماذا تنزع الرحمة من قلوبكم؟ لماذا تطلبون الرحمة فقط عندما تكونون في موضع الضعف. هل تعرفين أنني أحبك أكثر من نفسي وأكثر من الحياة. هل ستقبلين حبي إن أخبرتك بأنني أعشقتك. أنا أحبك يا ملكة حياتي.

انهمكت في شرح الدرس لها. استرقت السمع إلي والدّة سارة

تحدث مع فريدة هانم. كان بينهما أدهم. سمعتها تقول لأم سارة: الولد أدهم متعلق بسارة جدا. ما أن يعرف أننا سنأتي إلي هنا إلا ويتمني أن يكون معنا. ما رأيك في أن نزوجهما. انزعجت والدّة سارة وقالت: «البنات لازالت صغيرة علي مثل هذه الأمور». ردت عليها ضيفتها قائلة: «البنات يكبرن بسرعة وسارة بسم الله ما شاء الله أجمل من القمر وسيتوافد عليها الخاطبون».

شعرت كأن حية قد لدغتنني فوقفت علي الفور. دخل علينا أدهم وهو يبتسم. يبدو أن كلمات أمه قد راقته. اقترب مني أدهم ووقف جوارى في غضب وقال وخداه أمامه كبالونتين منتفختين حمراوتين من أثر صفعاتي ولكماتي:

— لماذا تنظر إلي سارتي هكذا؟ دعها لو سمحت

— سارتك؟

— آه. سارتي

— إنها سارتي أنا يا أدهم

— بل سارتي أنا

نظرت إلينا سارة في خجل وانصرفت وتركنت المكان لنا. كدنا نتشاجر كديكين. خشيت من مغبة ضربه مرة ثالثة. تركت له المكان واتجهت إلي أمي باكيا.

أخرجتنني طرقات علي الباب من ذكرياتي وأعادتنني إلي شقة مضيفنا غريب الأطوار. خرج من غير ملابسه العسكرية. كان يلبس جلبابا مخططا وطاقية مخططة علي رأسه. يبدو أنه نسي أننا ننتظر خروجه إلينا. ما ان فتح الباب إلا ودخل شخص خائف مرتبك يغطي وجهه بشال أبيض. نظرت إليه. عرفته من شعره الناعم فاحم السواد. كان يظن أن أحدا يتبعه. كادت أنفاسه أن تنقطع. إنه سيد أبو ستة. ارتمي في حضان مضيفنا. أزاحه الصول إبراهيم وقال له:

— ابتعد عني. أنت لست ولدي ولا أعرفك.

— أنا ابنك سيد يا حضرة الصول

— أنا برئ منك.

— ليس هذا وقته يا بابا

ابتعد مضيفنا عن سيد أبوستة الذي نظر إليّ في ذهول وتساءل عن

سبب وجودي هنا في شقة والده ولكنني لم أرد. كنت في ذهول إلى أن طرق الباب للمرة الثانية. ارتبك سيد أبوستة ودخل غرفة والده خائفا فزعا. أغلق الباب عليه من الداخل.

رأيت امرأة قبيحة المنظر. أنفها كبير وكذا فمها. سمينة جدا ووجهها ممتلئ بالبثور. أخذها مضيفنا في حضنه وعرفنا بها قائلا: - زوجتي الجميلة. ستدوقون منها أطعم شاي في الدنيا. خرج سيد أبوستة من الحجرة عندما سمع صوت أمه. ارتمي في حضنها وهي يبكي وأنا في ذهول تام مما يحدث...

الحلقة التاسعة والثلاثون

الشظايا

صباح يوم حار استيقظت فيه والعرق يحرق جسدي. أحس بطعم العرق الملحي يكاد أن يخترق عيني وأشعر أن قطراته تنسكب من جبهتي علي خدي وتصب في فمي. إنني أكره الصيف ولا أحبه أبدا. لا أكاد أطيع نفسي من حرارة هذا الصيف القاتل. متي تكون لدينا مروحة نستطيع التغلب بها علي الحر؟ أنا أحب الشتاء. صحيح أنني أشعر فيه بالبرد إلا أنه يمكنني التغلب عليه بالجري والنشاط والتدريبات. ليس هذا هو السبب الوحيد. الحقيقة أنني أحب الشتاء بسبب سارتي. أستطيع أن أراها كل يوم ودائما تكون معي في نفس الفصل. يمكنني أن أراها دوما. يمكنني أن أتحدث معها كل الوقت. يمكنني أن أذكر معها حتي بعد أن نعود من المدرسة. تعسا لهذا الصيف. إنني أشعر أن هذا الصيف البغيض يفرق بيني وبينها. كان التلاميذ يفرحون ويسعدون عندما تنتهي الامتحانات. يغنون بصوت عذب يمتلئ بالسعادة ونحن في طريق العودة للبيت قائلين: «الله أكبر الله أكبر الله أكبر لا مدرسة بعد اليوم». أنا الوحيد الذي كنت أشعر بالتعاسة وبالحزن. سأعمل في الصيف. سأبتعد عن سارتي. قد لا أراها بالأيام وبالأسابيع. قد تسافر مع والدها إلي المصيف. سأظل وحيدا بدونها إلي أن تعود. أحب الشتاء أيضا لأنني أحقق فيه ذاتي وأشعر بأهميتي. الكل يتسابق لمصادقتي والتعرف علي. نظرات التلاميذ إليّ تشعرني بأهميتي.

عندما لا يعرف الفصل كله إجابة سؤال أنتظر حتي ينظر الأستاذ إلي ويطلب مني الإجابة فأجيب بسعادة بالغة. كل العيون تتحول إلي. حتي والد سارة وأمها يهتمان بي كثيرا في الشتاء. عندما أذاكر مع سارة يأتون لي بالساندويشات والعصير والحلوي. أحيانا يقومون بدعوتي لتناول الطعام معهم. آه أيها الشتاء لكم أحبكم.

أمي علي العكس مني تماما كانت تحب الصيف. لا تحتاج إلي أن تشتري لنا ملابس جديدة. نحن شياطينها نأكل أقل في الصيف أما في الشتاء فنأكل أكثر لنستدفئ. قد نمرض أحيانا فتضطر إلي الذهاب للمستشفى وتضطر أحيانا إلي شراء الأدوية. الحمد لله. إن مرضت فتكفيني ليمونة أكلها ويتم شفائي وإن تطلب الأمر فبصلة تجبرني أمي علي أكلها وينتهي الأمر والحمد لله. الدكتورة فاطمة بارك الله فيها قد تعطيها بعض الأدوية التي تأتيها كعينات. تقول أمي إننا لا نحتاج إلي ملابس ثقيلة أو بطاطين أو أحفة في الصيف. هذا الأمر لم يكن يهم أخوتي فكان الصيف والشتاء عندهم سيان. فتحت عيني وأخوتي نائمون. لم يكن العرق وحده سبب تيقظي بل لقد كانت هناك مهمات لأمي مع بعض جاراتها. كن يتحدثن عن ضرورة الذهاب إلي الجمعية الاستهلاكية لشراء متطلبات العيد من سكر وأرز ودقيق.

نظرت إلي صورة الرئيس السادات. هذا هو الرئيس الجديد. كنت أقترب من الصورة وأتلمسها في اهتمام وتركيز وأتبع نظرتي بنظرات أخرى تترحم علي الرئيس عبدالناصر. كنت قد لصقت كل صورة التي تم نزعها من المدرسة. حتي الصور التي مزقها فؤاد باشا لصقتها بعناية فبدت كأنها سليمة ولم تمزق قط. هذا هو الرئيس الثاني الذي أحيا بعهد. لكم تمنيت أن ينحاز لنا نحن الفقراء وأن يعيننا علي ما نحن فيه. كنت قد سمعت الكثير من الحوارات السياسية بين عبدالجواد باشا الخربوطلي وفؤاد باشا عن الرئيس الجديد. لقد كانا يكرهان عبدالناصر. أكد فؤاد باشا أنه سيسير علي خطي سلفه. وضح له أن حركة الضباط الأحرار ذات أهداف واحدة. قال إن السادات هو الذي ألقى بيان الثورة وكان نائبا لعبدالناصر، بينما أكد الخربوطلي باشا أن السادات سيختلف عن عبدالناصر لأنه لا يمكن ان يكون مثله

وأكد أن الوضع سيختلف وأن البلد لا تزال تعاني آثار الهزيمة وأن الشعب لن يتركه ولن يسمح بهزيمة ثانية.

يا إلهي!! لقد بدأت إجازة الصيف منذ أكثر من أسبوع. سأضطر إلي الذهاب إلي عملي الصيفي مع الميكانيكي في آخر شارعنا ليعطيني ثلاثة جنيهاً تضعها في يد أمي آخر كل أسبوع. يبدو أن أمي قد بلغت بها الشفقة عليّ مداها فتركنتني ألهو وألعب هذه الفترة قبل أن يبدأ الجد وتبدأ فترة جديدة من الشقاء في حياتي. سأضطر أيضاً إلي الذهاب مع أمي كل يوم أحد لأساعدنا في مسح وتنظيف عيادة الدكتور فاطمة لتحصل منها علي خمسة جنيهاً كل شهر.

إنني أشتاق إلي الراحة ولولمة أسبوع آخر. لا أريد لسارتي أن تراني بملابس الورشة أبداً. لا أريدها أن تراني بهذه الملابس القذرة ولا أن تشم رائحتي السيئة. تظاهرت بالنوم. نظرت إلي سمر وقمر وأدركت أنهما يكبران بالفعل. الولدان يكبران أيضاً وكرها المدرسة وكرها المدرسين. فضلاً أن يلتحقا بالعمل مبكراً. لاحظت أنهما لا يعطيان لأمي كل النقود التي يحصلان عليها في العمل. تشاجرت معهما كثيراً وأفهمتهما أنهما يجب أن يضعا كل النقود في يد أمي. ضحكا عليّ وسخرا مني وقالوا لي: «أنت ابن أمك. أنت ابن المدارس».

أخذت أمسح عرقي وأنتظر من أمي أن تأتي إليّ وتلمس خدي لأذهب إلي بيع الفول لأحضر لهم الإفطار كعادتي. شممت رائحة الخبز الطازج. يبدو أن إحدي جارات أمي قد أحضرت إفطار اليوم. متي يكون لدينا مروحة ورايو في يوم من الأيام؟ لن أحلم بأن يكون لدينا جهاز تلفزيون. لاشك أن هذا سيكون حلماً مستحيلاً لا يمكن لي مجرد أن أتخيله. كان فؤاد باشا يسمح لأمي ولنا أحياناً أن نشاهد التلفزيون معهم عندما يكون مزاجه رائقاً معتدلاً. سيحان الله يبدو أن لكل إنسان غزالته. لا أدري من أين جاءت أمي بهذا التعبير. كانت أمي تقول إن غزالته اليوم رائقة. كنا نجلس علي الأرض. سجادة واحدة كانت تجمعنا كلنا في حين كان يجلس هو وزوجته علي الكنبه في حين تجلس سارتي علي كرسي بمفردها. كنت أحتقر نفسي كثيراً. لقد اتخذت قراراً ألا أشاهد التلفزيون معهم عند سارتي. لست أقل من سارة. تجادلت مع أمي وأخوتي كثيراً ولم أستطع إقناعهم بفكرتي. أنا

أفضل التلاميذ في المدرسة. لسنا أقل منهم. أكثر من مرة سألتني سارة عن عدم ذهابي مع أمي وأخوتي لمشاهدة المسلسل معهم. كنت أتهرب من الإجابة. كنت أنظر إلي عينيها الجميلتين وأقول لها: «أنا لا أحب التلفزيون». كنت أكذب عليها طبعاً وأستدرج قمر وأجعلها تحكي لي ما الذي حدث للبطل في المسلسل. كنت أطلب منها أن تحكي لي قصص الإعلانات وأن تذكر لي كيف يتكلم المذيع ويقف ويتحرك من خلال هذا الصندوق الخشبي الصغير. كانت سمر تقف علي مقربة مني وتتعجب وتتساءل لماذا لا أذهب معهم أشاهد معهم إن كنت مهتماً بالتلفزيون هكذا.

زعقت أمي بصوتها الحازم فاستيقظ الجميع. وضعت الحصيرة التي نجلس عليها لتناول الطعام وقمت أنا وأتيت بالطبيلة ووضعناها. أتى طبق الفول الكبير وجلسنا جميعاً علي الحصيرة تطيش أيدينا في طبق الفول. صرخت أمي ومنعنا من الأكل. طلبت منا أن نصلي أولاً وأن نشكر الله علي أن رزقنا هذا الطعام. امتعضت وجوه أخوتي. كنت قد صليت مع سمر عندما أذن الفجر. انصاع الباقون لطلب أمي. قاموا ليصلوا. كنت أشتهي الفول ولا أجرو أن أمد يدي في الطبق حتي ينتهي أخوتي.

نبض قلبي يتزايد الآن. أشعر أنه في خلال دقيقة أو أقل سأسمع صوت طرقات أعرفها علي الباب. إنني قد استمعت إلي خطواتها وهي نازلة من علي درجات سلمها. لبست ملابس المدرسة بسرعة وغسلت وجهي ومشطت شعري أمام مرآتنا المكسورة. لن أسمح لها أن تراني بهذا الجلباب الممزق. إنني أثق أن سارة ستطرق الباب. أحست بي قمر. اتجهت نحو الباب وفتحته ولم تكن سارتي قد دقت الباب بعد. دخلت. ابتسمت في وجهها وابتسمت برقّة وبراعة. كان أخوتي قد انتهوا من الصلاة وسنوا أسنانهم لالتهام الطعام.

طلبت منها أمي أن تأتي تجلس معنا علي الطبيلة وأن تتناول الإفطار معنا. أشارت لأخوتي بعينيها أن يقوموا. شكرت سارة أمي. ألحت أمي علي سارة أن تأكل معي وأشارت إلي أن أجلس مع سارة لنفطر سوياً. جلست قبالي أمام الطبيلة. أخشي أن تلوث حصيرتنا فستانها الأبيض. أتيت لها بقطعة قماش من دولابنا المتهاك وأجلستها عليها.

بانـت ركبـتاها لقصر فـستاـنـها. غـضـضـت بـصـري لما انـفـرجـت ساـقاها وبـان
جـزء كـبـير مـن فـخـدها. صـفر أـخـواي. وددت لو قـمت ولـكـمـتـها. قـدمـت
لـها الخـبز الطـازج. لاكـت اللـقـمـة في الفـول وذاقـته. أعـجـبـها. غـمـست
لقـمـة آخـري وأكـلت مـعـي. كـانـت تـغـلـق فـمـها والطـعام فـيـه فـتـعـلمـت مـنـها
هـذه الحـركـة وصـرت لا أـفـتـح فـمـي أبـدا أثنـاء الأكل. لـقد علـمـتـني كـيـف
أكل مـغـلـقا فـمـي. صـرت أكل مـعـها وأحـس أنـي امـتـلـكت الدنـيا جـمـيـعـها.
أنا وسـارـتي نـأكل سويا. أرادت أن تقـوم بـعد أن أنـهـت نـصف رـغـيـفـها
ولـكن أـمـي أقـسـمت عـلـيـها أن تـتم الرـغـيـف. شـكرت أـمـي وقـامـت. لـيـت
هـذه اللـحـظـات دامت في حـيـاـتي عـمـرا.

قـامـت سـارـة وأراد أـخـوتي أن يـنـقـضـوا عـلي ما بـقـي مـن طـبق الفـول
فـنـهـرـتـهم أـمـي بـنـظـراتـها وخـوـفـتـهم بـنـظـرات أشـد تأثـيـرا. إنـها تـري أنـهم
يـجـب أن يـنـتـظـروا حـتـي تـخـرج سـارـة.

أرادت أن تودع أـمـي. قالـت لـها:

— شكـرا خـالـتـو أم عبـدالله

— يا رب يحـفـظـك يا سـارـة. يا رب يـكـون أكلـنا أعـجـبـك

— أـلـذ أكل يا خـالـتـو. مـاـما تـبـلـغـك أن عـمـو عبـدالله بـاشا الخـربـوطـلي

سـيأتـيـكم الـيـوم بـعد الظـهر مـباـشـرة. لـقد كـلم بابا في التـلـيـفـون وهـو

يـريـدك في مـوـضـوع مـهم

— يـريـدنـي أنا؟

— آه. مـاـما طـلـبـت مـنـي أن أـبـلـغـك هـذا.

خـرجـت كـرـقـة النـسـيم. أغـلـقت البـاب وراـءـها وأنا أكاد أحتـضـن

البـاب. انـقـض أخـوتي عـلي الطـعام وأنا غـارق في يـم مـن السـعـادـة. لـكم

هـي جـمـيـلة!! أـغـمـضـت عـيـنـي وأنا لا أـسـتـطـيع أن أـري أي شـئ بـعد أن

رأيت أحلامـي تـتـحـقق بـلقائـها في هـذا الـيـوم القـائـظ.

جـلـست أـمـي وأخـوتي للطـعام. أـخـذت تـفـكر ولاكـت بـعض اللـقـيـمـات

في فـمـي ثم نـظـرت إلـي في غـضب وقاتـت لـي:

— هل ضـربت أـدهم الخـربـوطـلي عـندما كان هـنا المـرة المـاضـية؟

— لا والله يا أـمـي ما ضـرـبـته

— ماـذا يـريـد أبـوه إذـا؟

وكـيـف لـي أن أعـرف. لم أضـربـه المـرة المـاضـية ولا المـرة الـتي قـبـلـها.

تري ما الذي تريده يا عبدالجواد باشا الخربوطلي؟ تركت أمي الطعام ونظرت في تفكير إلي أخوتي وهم يأكلون. أمرتني أن أذهب قبل الظهر إلي الأسطي في الورشة لأؤكد عليه أنني سأعمل معه من الغد. ضربات أنور حسان للنرد بقوة في جوانب الطاولة أعادتني إلي الواقع وأخرجتني من صمتي وذكراتي لأشاهد الحوار التقليدي الذي يتكرر باستمرار علي هذا المقهي. لقد جرتني هذه الضربات القوية للنرد من تفكيرتي وتذكري لأيام الماضي الجميلة أحيانا والسيئة أحيانا أخرى. طأطأ محمد بسيوني رأسه حزينا كعادته وقال يندب حظه :

- الدش ينقذك كالعادة والله لولا هذا الدش ما كسبت هذه العشرة أبدا
- لا تتحجج بالحظ فأنا أكسبك دائما. قال دش قال؟ بلا دش بلا حوض. ما رأيك في هذه القفشة؟ سأصير قفasha مثلك. قال حظ قال؟
- حظي سي جدا في هذه الأيام
- لا يا حاج محمد قصدك حظك دوما سي
- أغلبك عشرة جديدة
- لن تستطيع هذه المرة
- سأستطيع أنا مروض الزهر وقاهر الطاولة
- هذا لقبني وليس لقبك

عادت المعركة بينهما من جديد وأنا أتذكر الصول محمد إبراهيم جار شكرية. إنه رجل غريب الأطوار حقاً. لم أكن أعلم انه والد سيد أبوستة. تذكرت كيف صدمت تماما عندما دخلت زوجته ورأيتها. إنه يراها أجمل امرأة في الدنيا علي الرغم من أنني أؤكد أنها أقبح امرأة في هذه الدنيا. عدت في أثناء هذه المعركة إلي ما حدث ليلة البارحة. إن سيد أبوستة يقسم إنه حرق مصنع حجاج العيسوي لأنه رجل ظالم ولقد انتقم لنفسه وانتقم لكل من ظلمهم هذا الرجل.

أراد الصول أن يطرد الولد من بيته. قال له إن الشرطة تبحث عنه وبالتأكيد سيصلون إليه وسيفتشون بيت والده. طمأنه سيد قائلاً له إنه قد هرب والبلد الآن في حالة ثورة. لن يبحث عنه أحد. كم من السجناء قد هربوا. أبلغت سيد أن حجاج العيسوي قد مات في المصنع ولم يستطع الهروب. طلبت من سيد أن يسلم نفسه للشرطة. صرخت أجمل امرأة في الدنيا في وجهي وطردتني أنا وأمي في وسط

هدوء الصول الذي ربت علي ذراعها السمين وطالبها أن تهدأ. كيف
أطلب منه أن يسلم نفسه أمام أمه؟

هدأها سيد وأخبرها أنني كنت رئيسه في الوردية وكنت أحرص
علي أن أخذ له كل حقوقه ووضح لها أنني استقلت من عملي
بمصنع حجاج العيسوي بسبب حرص علي حقوقه وحقوق العمال.
هدأت المرأة قليلا ثم فتحت فمها الضخم. أعوذ بالله وكأنه باب
من جهنم يفتح. كانت رائحة فمها كريهة للغاية. طلبت مني
ألا أطلب من ولدها أبدا أن يسلم نفسه للشرطة. كدت أتقيأ.
دخل الصول حجرته ثم خرج لنا بزيه العسكري وقال لسيد:

— اخرج من بيتي. لا أنت ابني ولا أعرفك

— اهدأ يا بابا

— بلا بابا بلا زفت. أنت هربت من الخدمة العسكرية. الجنديّة
شرف. الجنديّة واجب

— يا باب لم أهرب. أرجوك أن تتذكر. أنا ابنك الوحيد بعد أن
مات أخي في حرب النكسة

— مات شهيدا

ثم أخذ يسير مشية عسكرية ويغني أغنية عبدالحليم حافظ
والدموع تذرف من عينيه: «قد مات شهيدا يا ولدي من مات فداء
للمحبيب». والمحبيب مصر. بلد المحبوب. بلدنا. كان عليك أن تدخل
الجيش ولكنك هربت يا سيد. ابن الصول لا يهرب.

جلس الصول هادئا وكأنه يعيش في عالم آخر ولا يرانا. عاش في
خياله وتذكر ولده. ربت عليه زوجته فابتسم. انتفض بعد أن قبّل
يدها ثم أشار إلينا قائلا:

— هؤلاء من الضيوف الأشاوس. ضيوف كصدام حسين العظيم أو
من أتباع محمد سعيد الصحاف اللامع. إنهم علي بوابة العراق.
سيذبحون الأميركيان معنا. الشاي لهما ولنا جميعا يا زوجتي
الجميلة.

يبدو أن الرجل بالفعل قد تداخلت الأحداث في عقله.

احتضنت الأم ابنها وقبّلته. تركت أمي مكانها وأصابها الخوف من
جنون الرجل الذي أصر علي استضافتنا. طلبت مني أن نقوم. أريد

أن أسأل سيد أبوستة سؤالاً ألع علي. هل له علاقة بمحمد بسيوني؟ قامت أمه لتعد الشاي لنا.

لقد تذكرت يوم الانفجار الذي حدث في مصنعنا نتيجة الماس الكهربائي. كان محمد بسيوني يبدو عليه القلق. كانت نظراته زائغة وكان مضطرباً. كان يلتفت خلفه كثيراً. أخذت سيد أبوستة ودخلنا حجرته. سألته فأكد لي أنه لا يعرف أحدا بهذا الاسم وأكد لي أنه لا يعرف بالانفجار الذي حدث في مصنعنا. أكاد لا أصدق أن انفجار مصنعنا كان نتيجة ماس كهربائي. راودتني الشكوك في أن هناك ثمة علاقة بين محمد بسيوني وهذا الانفجار.

كدت أنتهي من حديثي مع سيد أبوستة الذي حاولت فيه أن أقنعه بضرورة أن يسلم نفسه حتي لا تؤذي الشرطة زوجته وأولاده ووالديه لكنه كرر رفضه وأكد أن البلد في حالة ثورة ولن يستطيع أحد القبض عليه. خرجنا نلبي دعوة والدته فوجدنا الصول واقفاً فوق الكرسي يخطب بطريقة تكاد أن تتطابق مع طريقة خطبة السادات. كان يمسك بعصا شبيهة بالتي كان يمسكها السادات. قال مقلداً الرئيس السادات بالضبط بعد أنتصار أكتوبر:

— إن التاريخ العسكري سوف يتوقف طويلاً بالفحص والدرس أمام عملية يوم السادس من أكتوبر حين تمكنت القوات المسلحة المصرية من اقتحام قناة السويس وتدمير خط بارليف وإقامة رؤوس جسور لها على الضفة الغربية من القناة. فقد العدو توازنه. استعادت الأمة الجريحة شرفها. ..

صفقنا جميعاً له. قمت أنا ووالدتي ولكنه أصر علي أن نجلس حتي انتهاء خطبته العصماء. سألته عن شكرية. فلم يفدني بأي شيء. زوجته أكدت أن شكرية كانت في حالها وأنها لم تختلط بها قط وأنه لم يكن بينهما سوي تبادل التحيات السريعة علي عتبات الشقة إن تصادف والتقتها. لقد ضاعت الليلة في ضيافة هذا الرجل غريب الأطوار. خرجنا من الشقة بأعجوبة. لم نحصل علي أية معلومات عن شكرية. ما كدنا نبتعد خطوات عن البيت الذي كانت تسكن فيه شكرية إلا ورأينا عربات الشرطة تدخل البيت الذي كنا فيه منذ دقائق. رأيت ضابطاً يقتاد سيد أبو ستة. رأيت أمه تلطم خديها وتصرخ

بحرقة في حين كان والده الصول محمد إبراهيم يقف في هدوء وثبات يؤدي التحية العسكرية لهذا الضابط.

صرخ محمد بسيوني سعيدا بلذة الانتصار. لقد فاز في هذه المرة. عدت مرة ثانية إلي المقهي مع الضجة والجلبة التي صنعها محمد بسيوني. كانت أم كلثوم تشدو قائلة:

كم بغت دولة علي وجارت ثم زالت وتلك عقبي التعدي

إنني حرة كسرت قيودي رغم أنف العدا وقطعت قيدي

أتراني وقد طويت حياتي في مراس لم أبلغ اليوم رشدي

ابتسم محمد بسيوني وعاد مرة ثانية إلي قفشاته. قال ضاحكا:

— آه. الله عليك يا ست. أتراني اليوم وقد طويت حياتي في مراس

لم أبلغ اليوم رشدي. الله عليك يا ست. أكنت تقصدين رشدي

أباطة أم رشدي بسيوني؟

ضحكنا جميعا علي قفشته هذه. لقد أعاد الانتصار إليه روحه

المرحة ولكني لازلت أنظر إليه بشك. ليس لدي أي دليل يدينه.

سألته بعد أن انخرطت ثانية في جوهما:

— هذا رشدي أباطة ونعرفه فيا تري من رشدي بسيوني؟

رد علي ضاحكا وهو سعيد بانتصاره وكان يهز النرد بيديه:

— رشدي بسيوني أخي. أنا محمد بسيوني وهو رشدي بسيوني. الله

عليك يا محمد يا بسيوني وعلي قفشاتك.

تذكرت هذه الأغنية جيدا وتذكرت أول مرة استمعت إليها في

حياتي عندما كنت في أحد المقاهي مع الأسطي الذي سأعمل معه في

ورشته عندما حل آخر صيف كفت فيه عن العمل. كانت أم كلثوم

تغني والأسطي يأكل ويملاً فمه تماما بالطعام ومع هذا كان يحادثني

ويطلب مني أن أذهب في الغد إلي الورشة صباحا وأفتحها وأرش الماء

أمام الورشة وأفتح الراديو علي إذاعة القرآن الكريم. كان الأسطي يأكل

بشراهة وفمه مفتوح وهو يحدثني ويطلب مني أن أحضر له بعض الماء

حتي يبتلع طعامه. استمعت إلي أم كلثوم تقول:

— وقف الخلق ينظرون جميعا كيف أبني قواعد المجد وحدي.

وبناة الأهرام في سالف الدهر. كفوني الكلام عند التحدي.

شرب الأسطي وكنت لا أزال خائفا من لقاء عبدالجواد باشا

الخربوطلي. سيأتي إلينا بعد ساعات وسنعرف ما الذي يريد. يبدو أنني قد أصابتني العدوي من الصول محمد إبراهيم فصارت الأحداث والأزمنة تختلط في عقلي. لقد صرت غريب الأطوار مثله في هذه الليلة.

الحلقة الأربعون

بين المطرقة والسندان

لماذا أحرص علي عدم تذكر ما حدث لي في مكتب سارة العسكر عندما أخذت بيدي عنوة وأدخلتني مكتبها ولما يحن مواعي بعد؟ لقد كدت أصاب بالغثيان عندما صرخت في وجه زوجها وطلبت من أحد رجال الأمن أن يعيده إلي مكتبه وهو يمسك بزجاجته. أمسكت بيدي بقوة فجرت في جميع رغباتي المكبوتة طيلة أيام عمري السابقة. لم تجرؤ حنان صديقتي في الجامعة علي الإمساك بيدي بهذه الطريقة رغما عني. لقد أمسكت بيدي بقوة وكأنها تدفعني دفعا للدخول بمكتبها. .. شعرت وكأنها ستطرحني أرضا علي إحدي الكنبات بمكتبها الأنيق الفخم ثم تخلع ملابسها أمامي قطعة قطعة ثم تنقض علي شفتي وتفترسني. أحس أنها ستحتضني بعنف لدرجة أنها قد تحطم ضلوعي. إنني لازلت بكرا يا أم سفيان. أرجوك لا تفتضي براءتي وأنا في هذه السن. كنت أتبعها والخوف يحيط بي. لاشك إنها ستصير فضيحة سيتحاكي بها الجميع. لقد اختطفنتني أمام زوجها وأمام سكرتير مكتبها. كانت تبدو جادة وهي تسوقني إلي مكتبها، لكنني شعرت أنها تجبر أصابع يدي علي أن تنام طيعة في قبضتها. كان أمجد سكرتيرها ينظر إلي بكل تعجب. إلي أين يا أم سفيان؟ إلي أين وماذا ستفعلن بي؟ سأفضحك أمام جميع القبائل إن أردت بي سوءا. لازلت أخشي النساء والأعبيهن. لم أتزوج بعد. كان الخجل يملكني وأنا أسير خلفها كالعذراء في حياتها.

دخلت وألقنتني بالفعل علي إحدي الكنبات بالقرب من مائدة الاجتماع المستديرة. نظرت إلي في عنف ثم اتجهت نحو مكتبها. جلست علي كرسيها واستدارت به يمنة ويسرة كملكة تتهادي علي

عرشها. بدت لي كملكة حقيقية عندما لمحت شعرها يتطاير علي
جبهتها ناصعة البياض فأشعر وكأنه تاج مرصع بكل معاني الأنوثة
يخلب لبي ويخطف نظراتي.

بدأت تبتسم وتهدأ قليلاً ثم أخرجت سيجارا فخما من إحدي
العلب أمامها وأشعلته. نفخت الدخان تجاهي فأحدث دوامات عديدة
ودوائر مخيفة شعرت أنني أدور في فلكها.

لازالت الستائر مسدلة. أعتقد أنها مسدلة من آخر مرة كنت فيها
بهذا المكتب. يبدو أنها ستحكم قبضتها علي. هي أنثي وأنا ذكر
محروم. فقدت الأمل حتي في أن أجد خطيبيتي. لا أعرف لها طريقا.
ولا أجد لها سبيلا. أدارت الموسيقى الناعمة الهادئة.

يبدو أنها قد استمتعت بفرض إرادتها عليّ. هدأت قليلا
وشعرت أنا بالقلق كثيرا. لن أسمح لها بأن تفرض إرادتها عليّ
كاملة. قد أسمح لها بقبلة أو قبلتين. أيعقل أن تضم شفتي هاتين
الشفيتين الرائعتين؟ أيعقل أن احتوي جسدها البض الرائع هذا بين
يدي؟ أيعقل أن احتوبها في أحضاني كما احتوتني شكرية من قبل؟
لايزال الصمت هو اللغة الوحيدة بيننا حتي الآن. ماذا لو نطق
الصمت؟ ماذا لو خرقت كلماتها أذني؟ ماذا لو خصمت مني ثلاثة
أيام أو أكثر؟ لاشك أنني أحلم. لا يمكن أن تكون سارة العسكر بهذه
الحالة التي أتخيلها. إنها جميلة فعلا ويبدو أنها ليست بالسوء الذي
كنت أتخيله. إنها أنثي حلوة ظريفة هادئة طيبة. لا. أنا أعرفها
جيذا عندما تنقلب رأسا علي عقب فتصير إنسانا آخر لا يطاق.

ضغطت علي جرس بجوار مكتبها فأتي أحد السعاة فورا. طلبت
لنفسها قهوتها وأكدت أنها تريدها زيادة هذه المرة. نظرت إليّ
بود وابتسامة خفيفة وسألتني عن قهوتي فأخبرتها أنني أفضل
أن آخذ عصيرا. خرج الساعي. إنها تقترب مني مسلحة بكافة
أسلحتها من أنوثة ودلال وجمال يطير العقل ويذهب بالوجدان في
جنات من خيالات حسية لم تطرأ ببالي منذ أيام المراهقة الأولي.
إن ملابسها ذات ألوان متسقة مثيرة رائعة الجمال. نظرت لوجهها
الصبوح الرائع ولعينيها الغائنتين الملونتين ولوجنتيها المشتعلتين. نظرت
إلي نهديها المثلثين بكنوز أود لو استطعت أن أشم ريحها فقط. شتان

أن أحلم بلمسهما أو التقرب إليهما بأصابعي المرتعشة. إنهما يتبختران أمامي في مشيتها فأخال أن جبلين من المرمر يقتربان مني. أود لو أرفع يدي إليهما لأستقبلهما استقبال العظماء المنتصرين الفاتحين وأنا أنظر إليهما وأشتهيهما في صمت وحرمان طيلة عمري المنصرم في أيامي المليئة بالوحدة والمسجاة بالحرمان. لقد أعادتني هذه المرأة إلي تلك الأيام السحيقة التي كان العقل لا يستطيع فيها أن يسيطر علي جموح الخيال الذي كان يسبقني كحصان سباق منطلق كالريح لا يمكن لأي شيء أن يوقفه. لقد غزت عقلي وحطمت كل أسوار تعففي ودكت كل جوانب الفضيلة عندي فلم يعد يصمد أمام أسلحتها أي شيء. أشهد أنني قد انهرت تماما وأشهد انها قد سحقت عقلي وفكري وحاصرتني في جوانب الشهوة وأركان الجسد.

خبيك الله يا عبدالله البندري. تبا لك أيها الغبي. أ تكون كل هذه الكنوز ملكا لك ولا تقترب منها؟ لاشك أنك إما أن تكون عاجزا فلا تقدر علي أن تقرب من هذه الثمار الشهية، وإما أن تكون مغفلا وجاهلا ولا تدرك قيمة كل هذه الثروات التي تفيض بها هذه الأنثي ظالمة الحسن والجمال والدلال. كيف تسمح لها أن تأمرك فطبيع؟ كيف لا تجعل هذا الجسد عبدا لك تأمره فيأتمر بأمرك وتزجره فيطيعك ويهابك؟ كيف لا تكون سيذا لها وترضي بأن تكون سيذة لك؟ كيف تكون عاجزا ولقد رأيتك بعيني رأسي في الفندق والراقصات يتمايلن حولك وكؤوس الخمر تملأ من أجلك؟ كيف تتحكم فيك هذه الأنثي أيها الرجل الغبي؟ كيف ترتعش أمامها وتفر كما يفر الخائف؟ كيف تسمح لها بأن تجبرك علي أن تتركني وأنا أمسك يد امرأتك وكيف تسمح لها أن تمسك بيدي وتدخلني مكتبها وتطردك إلي مكتبك؟ لاشك أن هناك أسرارا يجب أن أعرفها.

إنها تقترب مني وضربات قلبي تتزايد. أشعر أن ساعة الحسم لم تحن بعد. دقائق قليلة ويأتي ساعيتها بالقهوة والعصير. اقتربت مني. انحنيت علي فشممت منها أطيب ريح يمكن أن يشمه رجل من أنثي. ريح أنثي طاغية مليئة بالقوة والسلطة والثروة والنفوذ والجمال. ريح أنثي عاصفة تنحني لها أعناق الرجال وتهرع إليها رغباتهم. ريح أنثي فاتنة تطيح بعقول الرجال وتضرم فيهم نيران الرغبة وتشعل فيهم الحنين إلي

أمل بامرأة تذلل فكر الرجل وعقله وتحصره في تفكير جسدي بحت. ريح أنثي تتلاعب بالرجال كما تتلاعب الرياح بالسحب وتدفعها أمامها بلا هوادة وبلا شفقة إلي مصير يبدو محتوما فتفرغ السحب كل ما فيها في مكان لا تعلم أين سيكون وفي زمان لا تعلم متى سيكون. اقتربت مني وافتر ثغرها الذي أتقنت تحديده بأحمر الشفافة النابض بكل معاني الحياة عن أسنان ناصعة البياض تخلب اللب وتذهب بالوجدان بدت ابتسامتها الساحرة. أغلقت فمها ثانية ثم سحبته من يدي إلي جانب مكتبها. شدتني كما لو كانت تتلاعب بقلبي وبعقلي وبحياتي كلها. كنت أسير مشدوها في ركابها لا أستطيع مقاومة ولا أهتدي سبيلا إلا بهداها. شعرت أنني أسير وكأنني خاتم في أصبعها تحركه كيف شئت ومتي أرادت سرت خلفها وأنا لا أحس بأي شئ حولي في هذه الحياة إلا أنني كريشة في مهب ريح أنثي قوية مسيطرة. مستبدة مهيمنة. في طريق أنثي قوية قاهرة. جلست علي مكتبها وتركتني واقفا لا حس لي ولا حراك. يبدو أنني غبت عن الحياة ولم أعد أحس بأي شئ حولي. لم أعد أدرك إلا أنني في حضرة أنثي قوية. في جناب امرأة تتحكم في الكون كله بنظرة أو بلمسة. لم أستطع أن أفعل أي شئ إلا أن أقبل يدي. هاتان اليدان التي كانت تمسكهما سارة بيديها منذ لحظات. لاشك أنني في حلم وأنني سأفوق فوراً. ليت هذا الحلم يستمر دقائق أو لحظات. رأيتني وأنا أقبل يدي فابتسمت. جلست علي كرسي عرشها ووضعت ساقي علي ساق فتبدت فتنة جديدة وهلت رياح ثمار جديدة تشي بثروات رائعة وجنات نعيم لم أعرف بوجودها من قبل.

أيمكن لي أن أقبل هاتين الساقين؟ لا. هل يمكن لي أن أقرب منهما. لا أريد أن أكون طماعاً حتي في أحلامي. أيمكن لي أن أمر بأصابعي أو بيدي علي هاتين الساقين الناصعتين. سأتواضع أكثر في أحلامي. هل يمكن لي أن أشم بأنفي فقط روائح هذه الكنوز وتلك الثمرات المتدلية من أغصان أنوثتها الناضجة؟ مالي ومال هذه القطوف الدانية من عيني؟ إنها ليست لي. إنها لصاحبها. تبا لك يا عبدالله البندري. تبا لك يا حمارها القابع دوماً بمكتبك. ألا يمكن أن تدعني أنطلق أنا بكل قوتي تجاه هذه المهرة الرائعة. اسمح لي وستجدني جواداً لا

يشق له غبار وجنديا لا تمنعه رائحة الموت ولا تصده رائحة الخوف عن الوصول إلي هذه المرأة الرائعة. أسمح لي وأنا أريها ما الذي يمكن أن يفعله جموح حرمانني طيلة العمر من جنات أنثي ونعيم امرأة طالما عشت أحلم به في أيام مراهقتي؟ أسمح لي أن أفض بكاراة عذيرتي التي طالما حرصت عليها وأحطتها بأسوار من التعفف والفضيلة ولو للحظات أنعم فيها من معين أنوثتها وأدفع فيها حمولة دهر خبائثه من أجلها. أسمح لي بأن أذبح الفضيلة والتعفف قربانا لجسدها الرائع فتقبلني خادما مطيعا وعبدا ذليلا لنور جمالها ولأنهار أنوثتها؟ ستكون امرأة متميزة لرجل لم يلوث عقله بالتفكير في امرأة ولرجل لم يجرع قط من نهر أية أنثي ولم يقع في حبال فتاة من قبل. رأت أنياب نظراتي الجائعة تكاد تنهل من لحم ساقها. شعرت بنيران نظراتي كسهام تنطلق نحو رجليها فاعتدلت في جلستها ثم ابتسمت في وجهي. وقفت خجلا وحياء فانطفأ نور بياض ساقها من ذهني. أيقنت أنها قصيرة إلي حد ما.

دخل الساعي. رشفت أول رشفة من قهوتها ودعتني برموشها الناعسة الطويلة الرائعة إلي عصيرها. عصير الفراولة. وهل هناك أجمل من حبة الفراولة الشهية التي يمكن أن أقتنصها من ثمار شفتيها. هذا ظلم بين. لا أحب العصير. أريد ان ألتهم ثمرة الفاكهة الطبيعية اللينة المتمثلة في شفتيها. أحب الفاكهة ولطالما حرمت منها طيلة عمري. إن ذقنها تشبه ثمرة الكمثرى الرائعة. سأنقض عليها أقبلها وأمصها في تلذذ ليس له مثيل وفي حلم لم أحققه من قبل في حياتي. جمال التفاح يبرز من وجنتيها. سأخذ قضمة من هذه الوجنة وقضمة أخرى من تلك الوجنة الثانية. أي أحلام هذه التي أخوض فيها؟ كادت تنتهي من قهوتها ولم أذق رشفة واحدة من العصير الذي أمامي. لقد زهدت هذا العصير. أكون كل هذه الثمرات الطبيعية أمامي وأشتهي كوبا من العصير الذي لا يقارن بروعة كل هذه الثمار الطبيعية التي رأيتها فيها؟

بدا أنها تريد أن تتكلم. وضعت فنجان القهوة أمامها ثم نظرت إلي ولكنها رأتني لازلت غائبا في أحلامي وتصوراتي فقررت أن تمنحني مهلة أكبر. تشاغلن بالنظر في بعض الملفات والمستندات أمامها

وأخذت توقع بعض الأوراق وتختمها. قالت لي في دلال تشوبه عجالة :
— اشرب عصيرك يا عبدالله. هناك موضوع مهم يجب أن نتكلم فيه.
لم أرد عليها ولكنني بدأت أفيق قليلا من تخيلاتني. رن جرس
التليفون. كانت تكلم الضابط شديد الذي لا أعرف ما الذي جعله
يتصل بها الآن. لقد بدأ يتخلي عن مطاردتي بعد أن وبخته
شكرية ووقفت له بالمرصاد. أين أنت يا شكرية؟ أين الطريق إليك.
علمت أن مكالمته لسارة العسكر تتعلق بي. قالت له إنها ستنتظره.
أيعقل أن تنهار كل أحلامي وأوهامي اللذيذة هكذا؟
انتهيت من عصيري ونظرت بامتعاض إلي أم سفيان التي قالت
لي في دلال :

— أعلم أنك رجل طيب
— طيب جدا والله يا ست الكل
— وأعلم أنك لن تأخذ في يدي أكثر من لقاء وستنفذ ما أمرك به
أيعني هذا أنها كانت تدبر لي في الخفاء وأنا لا أعلم. أيعقل أنها
كانت تقصد أن توقع أوراقني وتعطيني راتب الشهر قبل أن أكمل
شهرًا في العمل من أجل أن أحقق ما تريده؟ ما الذي كانت تقصده
بقولها بأنني لن آخذ في يدها أكثر من لقاء؟ هل اعتقدت أنني مجرد
دمية في يدها أو سأصير عبدا ذليلا وخادما مطيعا لها تفعل بي ما
تشاء وتسبني وتشتمني وتتما تريد؟ أهذه الدرجة تظن أنني تأفه؟
بدأ دم العناد يغلي في رأسي. ما الذي فعلته بنفسني؟ لقد كنت
أتابع نظراتها لي وأنا أهيمن بها في خيالاتي الجنسية. أيعقل أنها
كانت تقصد أو تتعمد أن تراني في هذه الحالة من الضعف لتتلاعب
بي ولتأمرني فأصير لها عبدا مجيبا مطيعا؟ لن أكون مثل زوجك يا
سارة العسكر. لن أكون مثل سيف غرس الدين ولا ندا أبدا. أنا لست
مثلهما ولن أكون مثلهما. أنا عبدالله المصري يا أم سفيان. هزرت
رأسي بالنفسي. لن أستجيب لك. لن أدور في فلحك أبدا. ستجدينني
صلب المراس عنيذ الرأس.

أغلقت الملف الذي أمامها وقالت لي بأنوثتها المتعمدة :

— ما أخبار شكرية؟

— الحمد لله بخير

- هل تحبها يا عبدالله؟
- الحمد لله هي تحبني وهذا يكفيني
- لماذا وعدت نهاد بالزواج ثم تخليت عنها؟
- لم أعدها بشئ. صدقيني.
- ما الذي يجعلها تهتم بأموري هكذا؟ يبدو أن هناك أشياء تدبر لي ولا أعرفها. أيعقل أن تهتم سارة العسكر بمثل هذه الأمور التافهة. يبدو أنها تهتم بكل شئ. إن سارة العسكر إنسانة فولاذية كما يؤكد ندا رئيس وريدتنا. إنها تلاحظ كل شئ وتحفظ كل شئ ولا يمكن أن تنسي أي شئ سواء كان صغيرا أم كبيرا. نظرت إليّ سارة بسخرية وقالت :
- نهاد قالت لي أنك طلبت منها الزواج وتوسطت لك عندي لترجع العمل
- لقد فعلت هذا من تلقاء نفسها.
- هل تترك نهاد البكر وتتزوج شكرية التي كانت متزوجة من قبل؟
- أنا أحب شكرية وسنتزوج قريبا
- كذاب يا عبدالله
- لا أكذب
- أنت كذاب يا عبدالله
- إنها تتحدث بنبرة الواثقة من كلامها. لقد عرفت أنني أكذب. يبدو أن كل شئ عني تعرفه سارة العسكر. تري كيف عرفت ومن أين؟ آه. من علاقتها بالضابط شديد. من علاقاتها برجال الشرطة والجيش. الضباط يدخلون عليها في أي وقت. الضابط شديد يدخل لها في أي وقت. إذا لقد أبرمت سارة اتفاقا معهم. إنها صفقة إذا. كل شئ بمقابل في هذا الزمان. المال يمكنه أن يفعل كل شئ. طالما وجد المال وجدت القوة. حيثما وجدت الثروة وجد كل شئ ، لذا كان رجال الجيش يحرسون مصنعها ثم تم تشديد الحراسة علي مصنعها. هناك دبابتان ترابضان عند مدخل المصنع. يبدو أن سارة قد صارت في أمان بالفعل بعد هذه الحراسة. لا يجب أن أظلمها. إنها تظن أنها ستأخذ مني كل شئ برغم من أنها لم تعطني أي شئ ولم أحصل علي أي شئ منها إلي الآن. تعتقد أنها بابتساماتها ودلالها وأنوثتها ستجعلني

- أفعل كل شيء من أجلها.
- شعرت سارة العسكر أنني فزعت تماما عندما وصفتني بالكذب.
- قالت لي في غضب:
- إياك أن تكذب ثانية علي
- هل ستخمين مني ثلاثة أيام يا أستاذة سارة
- لا.
- لماذا انفعلت عليّ إذا؟
- لا أحب أن يكذب علي أحد العمال في مصنعي
- لست مجرد عامل عادي
- أعرف أنه كان يمكن أن تكون أستاذة في الجامعة وأعرف جيدا
- ما حدث لك
- الحمد لله
- ولذا سأطلب منك أن تساعدني.
- أنا عبدالله المصري الرجل المسكين أساعد سارة العسكر؟ أنت تعرفين كل شيء عني
- نعم أعرف كل شيء. أعرف عنك كل شيء منذ أن كنت طالبا في الجامعة. أعرف حنان عزت السيد وشقاوتها معك، وأعرف كيف فصلت من الجامعة، وأعرف ما قبل أيام الجامعة. أتحب أن أذكر لك أيام حبك الأول؟ أعرف كل شيء عن سارة فؤاد حبيبة عمرك. أعرف الكثير عن أمك وأخوتك. أعرف كل شيء عن حياتك. لا يمكنك أن تكذب عليّ يا عبدالله؟
- أحس أن الأرض تميد بي. أشعر أنني زلزلت زلزالا شديدا. يبدو أنها تعرف كل شيء عني فعلا. نحن نعيش في مصنع تحكمه سارة ولا يوجد أي شيء يسمى بخصوصية الأفراد ولا يُعترف بحق العمال في الحفاظ علي أسرارهم الشخصية. لقد حصلت علي كل هذه المعلومات من الضابط شديد. لا شيء يمكن إخفاؤه في هذا البلد. أخشي أن تكون قد عرفت ما أفكر فيه من دقائق حيث كنت أفكر فيها بشهوة. أشعر أنها قد نزعت عني كل ملابسني. أشعر أنني أقف أمامها عاريا تماما. لقد جردتني تماما من كل ملابسني كما جردتني من رغبتني فيها. اقتربت مني وقالت برقة أنني رأيت فيها

حركة حية زاحفة مأكرة:

- هل ستساعدني يا عبدالله المصري؟
- أنا أساعدك وأنت سارة العسكر التي تعرف كل شيء؟
- المنفعة متبادلة
- ما الذي يمكنني أن أفعله وأنت تعرفين كل شيء
- أريدك أن تحل محل همام الحفناوي
- لم تكذب تكمل كلمتها حتي دخل الضابط شديد مبتسما. سلم علي سارة. نظرت له بكل ود. قالت له وهي تشير إليّ:
- سيعمل كل ما أريده. أعلم أن عبدالله المصري طيب وسيساعدنا
- نظر إليّ وابتسم وقال:
- أعلم إنه طيب جدا. إنه معنا.
- ربت علي ظهري وتحسس شعري وقال ضاحكا:
- لا تقلق سنعيد لك شكرية. لا تقلق. كل شيء تحت السيطرة
- لم ينتظر أن أرد. قال لي بوقاحة غير عادية:
- أعلم أنك قد احتضنتها أمام باب شقتكم. نحن القوة يا عبدالله.
- نحن نعرف كل شيء. كل واحد في هذا المصنع لدينا عنه ملف كامل به كل المعلومات عنه منذ أن ولد وحتى أن يموت وصدقني ستكسب معنا كل شيء وستخسر كل شيء إذا لم تكن معنا.
- لقد وقعت بين مطرقة سارة العسكر وسندان الضابط شديد. لقد صرت في قبضتيهما بالفعل. سارة تريد أن أكون جاسوسا لها علي زملائي في المصنع. تري ما الذي تريده أنت يا حضرة الضابط شديد.
- نظر إلي في ابتسامة وقحة وقال:
- أريدك أن تنزل في المظاهرات من الغد ستحكي لنا كل شيء تراه ستكتب لنا كل شيء ستتناظر أنك معهم ستتهف كما كنت تهف في المظاهرات ستقول وبأعلي صوت لديك: يسقط يسقط حكم العسكر يبدو أنني أحلم. ما الذي يحدث فيك أيتها الحياة؟ هل أكون أنا عبدالله المصري هشا ضعيفا بهذه الطريقة؟ أيمكن أن أكون في حلم؟ ضربت سارة العسكر مكتبها بيدها وصاحت في قائلة:
- الساعة الآن الثانية إلا ثلاث دقائق. إلي عنبرك يا عبدالله يا مصري.
- ابتسمت ثم رفعت يدها وسلمت علي الضابط شديد وانخرطا في

ضحك ساخر. خرجت وأنا أجر رجلي بصعوبة بالغة وأشعر أنني لا أستطيع أن أتنفس. أحسست بضحكات سارة وكأنها ضربات من مطرقتها علي رأسي في حين شعرت أنني مشدود إلي سندان الضابط شديد. ضحكاتهما تتعالي في أذني حتي دخلت العنبر. لم تستطع أصوات الماكينات العالية أن تخلصني من أصوات ضحكات سارة وشديد التي أخذت ترن وبصوت مرتفع في أذني لدرجة أنني صرت أخشي علي نفسي من أن أجن من أثر هذه الضحكات.

الحلقة الحادية والأربعون

التوابع

أعمل علي ماكينتي وأنا أغوص في بحر من الآلام والذكريات المرة التي تشعرنني بالانسحاق تماما في هذه الحياة. موجات الآلام تتقاذفني فأعلوها تارة وتعلوني تارة أخرى ولكني لا أستطيع الاقتراب من موجات الذكريات التي تدفعني بعيدا بعيدا فأجد نفسي أعلو موجات الآلام. كانت الآلام تحاصرني في جانب سحيق من زوايا عمري حيث كنت أشعر أنه لا حول لي ولا قوة. أنا الآن مثلما مضت سنوات عمري التي فاتت. أتألم لأنني أشعر أنني كالعادة لست في دور الفاعل وإنما في دور المفعول به. في مكاني المعتاد. ما أن تغطيني موجات الآلام بصفعات مائها إلا ويأتي دور الذكريات فتصفعني بمائها الذي يعلوني فأشهق عندما تنحسر عني حتي أستطيع أن أتنفس وأعود للحياة الصاخبة بهذا العنبر الذي يكاد أن يخلو من الحياة اللهم إلا ما يعلو من صوت الماكينات والآلات. أصوات الماكينات وصفعات الآلام والذكريات لم تدع لي الفرصة حتي أستطيع أن أتذكر حادثا واحدا مر بي من هول الصدمة التي منيت بها منذ قليل. حاولت أن أتذكر وجه سارتي الحبيب فلم أستطع. رأيتاه يغيب عن ذاكرتي ويخفت في أنحاء قوادي ويغيب في ظلمات وجداني وكأن نوره يكسف من أمام ذاكرتي لهول ما أحس به. حاولت أن أتابع ذكرياتي التي انتصرت فيها علي أدهم الخربوطلي وعلي مخاوفي فلم أستطع. حاولت أن أتذكر حنان

عزت وما كان يحدث منها لتنالني ولكن عجزت ذاكرتي تماما. إن ما يطلب مني صعب للغاية. كيف يمكن لسارة العسكر أن تطلب مني هذا الطلب صراحة بهذه الوقاحة وبهذا الوضوح؟ ما الذي تظنه بي؟ أظنني سأقبل بالرغم من أنها تزعم أنها تعرف عني كل شيء؟ لاشك أنها تريد أن تذلني وتجعلني أقبل شيئا لا يمكنني أن أقبله. كيف يمكن للضابط شديد أن يتبجح معي بهذه الطريقة؟ لقد حاولت أن أهادنه في البداية وأتظاهر بأنه ليس لي في السياسة ولا مشاكلها. يبدو أنه قد طمع فيّ. حتي وإن كان قد اختطف خطيبتني شكرية فمن المفترض أن يتوقع رفضي. أظن أنني سأقبل أن أكون عميلا له حتي يعيد لي خطيبتني؟

أتابع نظرات الزملاء لي. إنهم ينظرون إليّ بكل حب وبكل ثقة. كيف أخون هذه العيون الطيبة التي تكدح معي في نفس العنبر وفي نفس ظروف العمل الصعبة؟ كيف أقبل أن أقوم بدور همام والذي كان الجميع يعرف به؟ أيمن أن أكون جاسوسا عليهم؟ هل يمكنني بالفعل أن أكون في نفس وظيفة همام الحفناوي السابقة؟ لقد تغيرت حالته. طالت لحيته بعض الشيء وصار النور يعلو وجهه كما صار يحرص علي الصلاة ويكثر من الاستغفار والبسمة والحوقة. لقد تغير بالفعل. لقد رأيته يقولها. كان يقول لا صريحة لسيف غرس الدين. إنه يرفض أن يكون عينا علي زملائه. أفتقبل أنت يا عبدالله المصري أن تكون مكانه؟ أفلا تستطيع أن تقول لا؟ لطالما قلتها صريحة مدوية وخسرت كثيرا بسببها. ما الذي يجبرك علي ألا تقول لا هذه المرة؟ هل ستستطيع أن تواجه أمك؟ هل ستستطيع أن تواجه نفسك؟

قام همام الحفناوي ووزع بعض أكواب الماء البلاستيكية علينا بعد أن ملأها بالماء من زجاجته وسقانا جميعا. ابتسمت لي أحلام المطيري وكأنها تؤكد لي فعلا أنه تغير. لقد كان يخل بأي شيء عنده. تذكرت كيف كان يدعوني للشرب من زجاجته ويده ترتعش. لقد تغير فعلا. أما أحلام فلقد كان وجهها يبدو ملائكيا في ظل حجابها الجديد فتبدت في أزهي صورة وأجملها وبدت فتنة جديدة في وجهها. لم نكن نعرف سبب هذا التغير ولكننا عرفنا فيما بعد في نفس اليوم. لقد صار وجهها أكثر إشراقا وسعادة وأكثر إقبالا علي الدنيا.

غاصت أيضا رجاء شوكت في حزنها وإن بدا عليها أنها تتعلق بأهداب ضحكتها التي خفت وبهتت قليلا. خمنت أن مشاكل الزوجية قد تكون السبب في هذا كالعادة. لا يعقل أن تكون حياتها تعاسة خالصة. سأحدث معها يوما وأخبرها كيف تسعد نفسها وتدوس علي خلافاتها وتنظر للحياة بمنظور أفضل. لاشك أن هناك ثمة خطأ ما في حياتها مع زوجها. يبدو أنهما يحتاجان إلي من يأخذ بأيديهما معا إلي بر الأمان من أجلهما ومن أجل أولادهما. إن شاء الله سأزورهما يوما مع والدتي لتفيدها بخبرتها ونظرتها الثاقبة للحياة وأتمني أن أكون مصلحا لما فسد بينهما. أخذ ندا عبدالعليم رئيس ورديتنا يتابعنا كعادته ونحن نعمل من مكانه المرتفع من فوق مقعده. شعرت به ينظر إليّ في غضب. إنه متغير قليلا اليوم. لقد رأيت القلق باديا عليه. أوشكت ابتسامته العريضة علي التلاشي غير أن بعض آثارها لم يزل عالقا علي وجهه. نظر إليّ تارة ثم نظر إلي سادة الدوغري. ذهب إليها ثم همس في أذنها ببعض الكلمات واقترب مني وهو ينفخ في غيظ. لم يحدثني وإنما ابتعد قليلا.

تذكرت كيف عاد إياد ناصر وماجد بحيري بسهولة إلي العمل بعدما استقلا منه. لقد عرفت من قبل أن من يخرج من عمله مستقيلا هنا لا يعود أبدا. عرفت أن المصنع بحاجة ماسة إلي عمال أكثر لإنجاز بعض الطلبات المستعجلة والتي أوشك موعد تسليمها أن ينتهي، ولعل هذا كان السر في حسن معاملة العمال وتحديثه معهم بلطف وخصوصا بعد الذي حدث نتيجة الماس الكهربائي والانفجار وتغيب بعض العمال للعلاج في المستشفى. وقفت واتجهت نحو ندا وقلت له في همس: «هل يمكن أن تتوسط لأنور حسان ومحمد بسيوني لدي الأستاذة سارة العسكر حتي يعودا إلي العمل؟» نظر إليّ ندا في غضب وقال بحدة: «أتريدني أنا أن أتوسط لهما عند الأستاذة سارة؟ أنت الذي كنت عندها منذ دقائق. يبدو أنك ستصير مهما عندها». رأيت نظرات الغيرة تملأ وجهه لأول مرة. أیغار مني؟ لست سوي أحد العمال بورديته. لا يمكن أن یغار مني. إنه رئيس ورديتي. اقترب مني وحاول أن يبتسم ولكنه لم يستطع ثم همس في أذني قائلا

في تساؤل عجيب: «كيف كان حال الأستاذة سارة عندما قابلتها؟» كان يتحدث في هيام. أغمض عينيه وكأنه كان سعيدا عندما نطق اسمها. فتح عينيه ثم بحلق في وامتلات عيناه بنظرات الحب. ذهبت كل نظرات الغضب والغيرة من عينيه. يبدو أنه قد فقد وعيه تماما. أحسست أنه سألني بدون وعي: «هل كانت جميلة كعادتها؟» أغمض عينيه ثانية وانتظر إجابتي. لم أرد عليه. أيعقل أن يكون ندا رئيس وريدتنا هكذا؟ إنه صارم تماما. لا يعرف إلا العمل وفقط كما أنه يبدو خجولا لدرجة كبيرة. علمت أيضا فيما بعد أنه طلب مقابلتها اليوم ولم تسمح له بمقابلتها. عرفت أيضا أنه يحرص علي لقائها كل يوم. لم أرد عليه. سألني قائلا وكأنه أفاق وعاد إلي رشده: «هل طلبت منك الأستاذة سارة ست الكل أن تبلغني أي شيء؟» رددت باقتضاب وأفهمته أن سيرته لم تكن بيننا علي الإطلاق. نظر إلي وكأنه يلح علي بنظراته أن أتذكر. قال لي: «ألم تقل أي شيء عني؟» انكفأت علي آلتى فتركني وذهب مكانه وأخذ يلف ويدور وكأنه يود أن يذهب إلي الأستاذة سارة. لمحتة يرسل نظرات طويلة إلي المكتب الإداري حيث مكتب سارة ورأيتة يرسل زفرات حائرة ثم يهز رأسه وكأنه يريد أن يخترق كل هذه المسافات حتي يصل إلي مكتبها. رأيت صدره يعلو وينخفض. أحسست بزفرات في تنفسه. تغيرت ملامحه وصارت تبرق بنظرات أفهمها جيدا وطالما خبرتها. تذكرت أكثر من مرة حديث محمد بسيوني وأنور حسان ونحن علي المقهي. أكثر من فرصة عمل واتت ندا عبدالعليم في مصانع مختلفة وبراتب أعلي ولكنه كان يرفض باستمرار ويصر علي مقولته الشهيرة: «أنا مستريح هنا تماما. أنا أحب العمل مع أم سفيان. لن أترك العمل هنا أبدا. أنا أحب هذا المصنع. لدي ولاء وانتماء لهذا المصنع. لن أترك الأستاذة سارة العسكر ما دمت حيا». تري ما الذي يجعلك ترضي بالعمل هنا؟ ما الذي يجعلك تتحمل أم سفيان وسبابها وسلطة لسانها؟ ما الذي يجعلك لا تضيق ذرعا بهذا المكان وقد فتحت لك أبواب مصانع أخرى وبراتب أكبر من راتبك؟ نظرت بخبث إلي الأستاذ ندا واقتربت منه وقلت في همس: «فرصة جيدة أن تطلب مقابلتها وتطلب إرجاع أنور حسان

إلي العمل وكذلك محمد بسيوني حتي لا يرفعا قضية يطالبان فيها بالعودة إلي العمل. الطلبة يجب أن تسلم في موعدها. أنا أيضا عندي حب للعمل وولاء لهذا المصنع. هذا من ناحية ومن ناحية أخرى تساعد زميليك. لقد كانا مثلك في رئاسة وريديتهما». التمعت الفكرة في ذهنه ولم ينظر إليّ وإنما خرج بسرعة فائقة واتجه نحو مكتب سارة العسكر. لقد قبّلني قبل الخروج كعلامة لشكره. يبدو أنه سعد وانفرجت أساريره. سيذهب وينعم بمقابلتها. ما أن خرج إلا واقترب مني إياد ناصر وأشار برأسه إلي نهاد وقال لي في غضب: «ارحم أمي من نهاد زميلتك هذه. إنها لم تتركني ولن تتركني. إنها لا تلمح لي. إنها تصرح لي برغبتها في الزواج مني. يعني أنت تهرب منها وتفضل شكرية عليها وأقع أنا في حبالها. أكثر من مرة أفهمها أنني متزوج وأحب زوجتي ولكنها تصر علي الزواج مني وتؤكد لي إن لديها شقة واسعة يسرح فيها الخيل. تغريني بالمال الذي جمعته طيلة عمرها. ارحمني منها. تصرف يا أخي. أعوذ بالله. والله إذا لم تتصرف سأبلغ أم الأولاد وستأتي وتضربها علقة نصفها موت». كان إياد يتحدث بعصبية واضحة وبضيق بالغ. رمقتني نهاد بنظرات لا مبالية وكأنها تتهمني بأنني السبب في كل هذا. لقد سمعت كل ما قاله إياد لي. همست في أذن إياد وسألته عن ماجد بحيري فأخبرني أن ماجد بحيري متزوج أيضا ويحب زوجته وقد منّ الله عليه بالبنين والبنات. ماذا نفعل إذا؟ علينا أن نزوج نهاد وإلا ستسبب لنا كارثة. سألت إياد عن همام فأخبرني بأنه غير متزوج. ابتسمت وحمدت الله. هو إذا من نصيبها. هكذا فكرت. سنهيئ لهما أمر الزواج وسأخطط لهما ونرجو الله أن يتم الأمر ببساطة وهدوء. رفعت أحلام المطيري عاشقة الحرية صوتها وقالت لي وهي تخاطب الجميع:

- طيلة عمري أحلم بالحرية وطيلة عمري كنت أتمني أن أظل في حرية ولكن .
- ولكن ماذا يا عاشقة الحرية
- سأذهب إلي الحبس برجلي
- هذه نهاية طريق السياسة

— لا تفهمني خطأ يا عبدالله يا مصري

— وما الصواب إذا؟

— زفاني الخميس القادم

أطلقت الزغاريد وسعد الجميع. قامت نهاد وابتسمت وقبّلت أحلام وقرصتها في ركبته. هناها الجميع. أرسلت أحد السعاة إلي الخارج فأتوا بالحلويات و ببعض المشروبات.

كل هذا والعمل مستمر والآلات تدور والجميع منكفي علي عمله. نظرت إلي همام الحفناوي. قمت إليه وقبلته. سألته عن رأيه في نهاد. أشاح برأسه رافضاً وكأنه لا يراها جميلة. لمست لحيته النابتة وقلت له: «كيف تعيش عزبا بعد أن من الله عليك بالتوبة. الزواج نصف الدين. ليس الجمال كل شيء. المهم جمال الروح. نهاد لديها شقة ولديها الكثير من المال ولا ينقصها سوي رجل يسترها. توكل علي الله. حرام عليك أتضيّع العمر مثلي؟ توكل علي الله». ابتسم وقام واحتضنني قائلاً: «سأقبل هذه المهمة الانتحارية من أجلك. نكسب فيها ثواباً. توكلنا علي الله. أتزوجها وأمرني إلي الله». باركت لأحلام وقلت وكأنني أود الكشف عن سر للجميع:

— يبدو أن الأفراح تأتي مجتمعة. اسمحوا لي بأن أتقدم رسمياً وأخطب نهاد..

لم أتم كلماتي. وقفت نهاد غاضبة وقالت:

— وأنا لن أقبل خطبتك. أخطبني بعد أن فقدت شكرية؟ لن أقبل.

والله لو وقفت علي رأسك وطلبت مني ان أتزوجك فلن أقبل

— عيني في عينك يا نهاد

حاولت أن أبتلع غضبها. أيتها الغبية. لن أخطبك لنفسى.

اصطبري علي رزقك. قلت وأنا أشير إليها أن تظل مكانها:

— انتظري وأهدئي. أنا أطلب خطبتك لزميلنا همام الحفناوي.

أتمنى أن تقبلي به زوجاً يا أستاذة نهاد. لقد طلبك مني وقبلت

— ومن أنت حتي تقبل أو ترفض؟ هل أنت ولي أمري؟

فرحت أحلام واتجهت نحو نهاد تقبلها. أغلقت أحلام فم نهاد

بيدها. ابتسمت رجاء شوكت واتجهت نحو نهاد تبارك لها. وقفت

نهاد وقالت في عجرفة:

— طيب اترك الفرصة لي يومين لأفكر
لم أهتم بقولها. خشيت أن يغير همam الحفناوي رأيه بعد الجهد
الذي فعلته من أجل أن أقنعه بفكرة الزواج من نهاد فقلت في عجلة:
— ألف مبروك يا أستاذ همam. لقد قبلت نهاد طلب خطبتك. بارك
الله فيكم جميعا. العاقبة عندكم في المسرات. الزواج نصف الدين.
ارتفعت أصوات الزغاريد من جديد.

وبالرغم من سعادة الجميع وقفت رجاء شوكت وقالت وهي تكاد
تبكي:

— فعلا الزواج نصف الدين ولكنه أحيانا قد يخرج المرء من الدين.
أخذت رجاء تبكي. طلبت منها أحلام أن تتمني لها ولنهاد حظا
سعيدا. عاد الجميع إلي عمله وعدت أنا إلي آلامي وذكرياتتي التي
أحاول أن أسترجعها ولكني أفشل من جديد لعلني أهرب من واقع
مؤلم كئيب.

الوحيدة التي لم تنخرط معنا ولم تشاركنا فرحتنا كانت سادة
الدوغري. كانت تعمل علي ماكينتها وكأن الأمر لا يعنيهها. يبدو أنها
كانت تفكر في أمر أكبر وأهم. لم أكن بالفعل أستطيع أن أضمن في
الأمر الذي ملك عليها تفكيرها.

عدنا إلي الصمت جميعا ثانية ولم يكن هناك صوت إلا للماكينات
والآلات الصاخبة. كان هذا الصوت يحاول أن يختلط بصوت آلامي
وذكرياتتي ولكن الآلام كانت تغلبني والذكريات كانت تفشل في أن
تتداعي إلي كما كنت أفشل أنا أيضا في أن أستدعيها.

الحلقة الثانية والأربعون

الحظ يطرق بابي

ضرب محمد بسيوني النرد بقوة في أركان الطاولة فتهلل وجهه.
رد عليه أنور حسان برمية أقوى للزهر في أركان الطاولة المقابلة له.
رشف محمد بسيوني رشفة من قهوته في تليذ ودندن بصوته مع
صوت أم كلثوم الرائع وهي تغني أغنية أمل حياتي وتملاً مقهانا
بأشجان الزمن الجميل والفن الأصيل. تحلق بعض من بالمقهي حولنا

لما رأوا الحماسة تشتعل بين الغريمين التقليديين. أوشكت العشرة علي نهايتها. رمي محمد بسيوني النرد بقوة أكبر. بهت أنور حسان واصفر وجهه تماما. إنه الدش.. لقد خسر أنور العشرة الثالثة له علي التوالي في هذه الليلة. وقف محمد بسيوني وقال في فخر وهو يحدث غريمه والفرحة تملؤه:

— من الغد سأفتح مدرسة هنا لتعليم الطاولة. هذه هي العشرة الثالثة وقد خسرتها يا أنور. عليك أن تطلب مني أن أعطيك دروسا في الطاولة كولوجي. الطاولة علم يا جماعة. لقد أثبت أنها علم. من الغد سنفتح فرعاً للطيطا هنا في جمهورية مصر العربية. الاتحاد العالمي للطاولة سيكون مقره هنا. أما محمد بسيوني العبد لله فسيصير الأمين العام للطيطا.

أمسك أنور حسان عن الكلام. ماذا يقول وآثار الهزيمة ترتسم علي وجهه؟ أحسست بالخيبة تملؤه والحسرة تقهره. أشرت إليه أن يغادر مكانه وجلست مكانه. كان أنور قد علمني أساسيات الطاولة. فلأجرب حظي. لقد أساءني غروره. أشفقت علي حالة أنور الذي لم يجرؤ أن يرد. لا أدري لماذا شعرت أن الحظ يطرق بابي هذه الليلة. لم أكن أوّمن بالخط قط ولكنني شعرت أنني علي موعد مع الحظ الليلة. قلت لمحمد بسيوني في تحد وإصرار:

— أنا سأغلبك الليلة يا محمد يا بسيوني
— أنت؟
— نعم أنا
— لازلت تلميذا. أنت تتهجي أول حروف الطاولة يا صغيري. أنت لا تعرف الدبش من الشيش بيش.
— يمكنك أن تلاعبني. لقد تعلمت جيدا واسأل أستاذي أنور
— لن أفخر بفوزي عليك يا عبدالله يا مصري.
— سأجعلك تتجرع آلام الهزيمة. صدقني الليلة ليلة حظي
— أنت تهزمني؟ لا يمكن. سأعتزل إن هزمتني
— تفضل وستري.

مع أول رمية زهر نسيت كل همومي ومشكلاتي. انخرطت في اللعب. نسيت عرض سارة العسكر كما تلاشت من ذاكرتي سخافات الضابط

شديد. نسيت الدنيا كلها بمكرها وآلامها. نسيت السياسة ومشكلاتها والمصنع وآلاته. نسيت حنان عزت. لم أعد أتذكر إلا وجه حبيبة العمر ونظراتها المشجعة لي والتي أكدت أنني سأكسب هذه العشرة. قالت إنها تثق في وفي قدراتي. رأيت وجهها الجميل يبرق أمامي بكل ثقة وكأنها تشجعني في كل رمية زهر. أبليت بلاء حسنا. كان الكل يشجعني نكاية في محمد بسيوني. الوقت يمر في سرعة وسعادة وروح التشوق والتحمدي والبهجة تخيم علي المقهي. كل العيون تركز نظراتها علي الزهر ومن يرميه. ساد الصمت ولم يعد يعلو سوي صوت رميات الزهر مختلطا بكلمات أم كلثوم وصوتها العذب. حتي صبي المقهي وصاحبها جاءا ليرقبا هذه المعركة غير المتكافئة. شعرت أن الحظ يبتسم لي فعلا ولقد رأيت أسنانه تضحك لي. إن كانت سارتي معي فمعي الحظ كله. كانت رميتي الأخيرة وكنت أحتاج إلي الدش. لم أضرب الزهر بعنف. شعرت بيد سارتي تمسك بيدي وتلقي معي الزهر فكان الدش. بهت محمد بسيوني وجلس في مكانه صاغرا. تهلل وجه الجميع. أرجع محمد بسيوني ظهره إلي الخلف عندما أيقن بالهزيمة. تهلل وجه أنور حسان وقال في فخر:

— لقد هزمك تلميذي عبدالله المصري.

ربت علي ظهري ونظر لي في ابتسامة تنم عن الرضا ثم نظر إلي غريمه محمد بسيوني وقال بصوت هادئ:

— هكذا الدنيا. لا عليك يا محمد. ستعتزل

— لا. أبدا. إنه حظ المبتدئين. سأغلبه العشرة التالية

قمت منسحبا. ألح عليّ محمد بسيوني حتي ألعبه ولكنني رفضت. أشار إليّ أنور ألا أعب معه حتي يحترق بآلام نيران الهزيمة. أمسكت بلياقة قميصي بكل فخر. وضعت ساقا علي ساق وقلت في تكبر مصطنع:

— اذهب وتمرن جيدا وتعال غدا وسأغلبك. ثق بأن الحظ سيكون معي غدا بلغ الغضب من محمد بسيوني مداه. وقف غاضبا وقام والشرر يتطاير من عينيه. أخذت بيده وأقعدته وقلت له متضاحكا:

— هدئي نفسك يا رجل. إنه الزهر. الزهر كالدينا. يوم فوق ويوم تحت. هو الزهر نرميه فيكسب من يكسب ويخسر من يخسر. لا

تغضب هكذا ولا تحزن من أجل اللعب. نحن نتسلي ولا نلعب
علي فدان قطن يا رجل. إنه الحظ يا باشا
جلس وهذا قليلا بكلماتي. طلبت لنا الشاي بالنعناع وجلسنا نستمتع
بأغنية أم كلثوم. كانت تشدو قائلة: «يا حبيبي مهما طال عمري معاك
بردو أيامو قليلة. السعادة والحنان اللي في هواك ما يقضيناش أجيال
طويلة. حبك يا حبيبي ملا قلبي وفكري بينور ليلي ويطول عمري».
تأوه محمد بسيوني وقال:

— الله عليك يا ست

ثم نظر إلينا وقال مبتسما:

— تخيلوا. فكري الذي تذكره أم كلثوم هذا ابن عمي الله عليك يا ست
كانت تعرف ابن عمي آه يا سلام حبك يا حبيبي ملا قلبي وفكري
ضحكنا جميعا. لقد عاد محمد بسيوني إلي قفشاته من جديد.
أردت أن أهدر أيضا فقلت ضاحكا:

— بهذه الطريقة أم كلثوم كانت تعرف حنان زميلتي من أيام الجامعة
— ما علاقة هذا يأم كلثوم يا عبدالله؟

— ألا تسمعونها تقول السعادة والحنان اللي في هواك ما يقضيناش أجيال
طويلة. أنا أيضا سأصير قفشا. أنا قفاش مثلك يا محمد باشا
سألاني عن حنان فأخبرتة أنها كانت قصة طويلة ولن أرويها
لهما الليلة. أوشك المقهي أن يغلق أبوابه. كادت الساعة أن تقترب من
الثانية عشرة. قلت لصاحبي:

— غدا قد أحمل لكما أخبارا سعيدة

تجاهلا ما قلته. أرجعا إحساسي بأني أحمل لهما أخبارا سعيدة
إلي ثقتي بالخط. قالوا لي لا تثق في الخط كثيرا ولكنني سأثق به. أشعر
أن الليلة ليلة حظي فعلا. كنت أود أن أقول لهما أنهما قد يرجعا
إلي المصنع إن نجح ندا في وساطته لهما عند سارة العسكر. ترددت في
البداية ولكنني أخبرتة فأنفجرت أسأريهما. سألتها عن سير القضية
التي كانا ينتويان رفعها. قالوا إنهما يعرفان قضاءنا المصري الذي لا
ينصف الفقراء بينما ينصف صاحب العمل. لقد تراجعنا عن قرار رفع
القضية ضد سارة العسكر. إنهما يعرفان تشعب علاقاتها ويعرفان أنها
يمكن أن ترشو أي قاض وأنها لا تتورع عن فعل أي شيء من أجل أن

تحقق ما تريد. فهمت أنهما كانا يجعجان فقط. مالي كنت أسمع جعجة ولا أري طحيناً؟ هكذا نحن العرب. نتكلم كثيراً ولا نفعل شيئاً. فعلاً صدق المثل القائل: «من يتكلم لا يفعل ومن يفعل لا يتكلم». أوصلاني إلي بيتي. في إحدى الحارات الضيقة المظلمة لمحت شبحاً يتبعنا. غشيني الرعب من أن يكون هذا شبح الضابط شديد. اقترب منا قليلاً ثم نظر ناحية محمد بسيوني. أشار له محمد بسيوني أن يبتعد. يبدو أن شكوكي في محمد بسيوني في محلها. لا زال القلق يراودني في أن يكون محمد بسيوني له دور في انفجار مصنعنا. لقد كنت أرمق هذا الشيخ يحوم حولنا ونحن في المقهي. قلت لأنور حسان:

— سترجع رئيساً للوردية إن وافقت سارة العسكر علي رجوعك للمصنع
— العمل أفضل من الفراغ الذي أحس به
— أنا متفائل لأن ندا سيتوسط لكما
— ندا؟ إنه أناني ولا يهتم سوي بمصلحته فقط
— لا تقل هذا علي زميلك ولا تنس أنه رئيس ورديتي
— يعني رئيس الجمهورية يا أخي؟ إنه لا يجرو أن يرفع صوته علي صوته. لا يجرو أن يخالف لها رأياً. لا يجرو أن يطلب منها مثل هذا الطلب. أنا أعرفه جيداً. إنه يسير خلفها كظلها. رأيتاه يحرص في كل اجتماع علي أن يجلس بجوارها وينظر إليها ويهز رأسه موافقاً علي كل ما تقوله ويصدق علي كل ما تأمر به. إنه يتمني أن يتبعها دائماً في كل شئ حتي وإن كان لا يؤمن به. لقد ألغت شخصيته تماماً.

— لا تقل هذا. الكل يتمني رضاها
— لكن ندا عبدالعليم يبالغ في طلب رضاها
— حتي لا تطرده. أليست ولية نعمته ونعمتنا؟
— أكثر من مرة عرض عليه أن يعمل بمصنع آخر وبأجر أكبر لكنه كان يرفض

— هو يحب المصنع ويحس بالولاء له
— تقصد أنه يحب ست الكل ويطلب رضاها؟

عاد الشبح إلي الظهور من جديد ونحن نقرب من أحد الشوارع المضيئة. صار يتبع خطواتنا بجرأة أكبر. أخرج محمد بسيوني من جيبيه

عشرة جنيهاً وأعطاهما للرجل القصير ذي الشعر الناعم فاحم السواد والذي يتدلى علي جبينه وهو يقترب منا. أعتقد أنني رأيت هذا الرجل من قبل ولكني لا أتذكر أنني رأيته من قبل. نظر نظرة تنم عن عدم الرضا تجاه محمد بسيوني فأسرع الأخير وأعطاه ورقة مالية فئة العشرين جنيهاً وقال له في غضب: «أظن أن هذا يكفيك يا مظهر يا نخيلي». اقترب مني وناداني باسمي. إنه يعرفني. أنا لا أذكر بالتحديد أين رأيته. تعجبت عندما رأيت أنور حسان يقترب منه ويسلم عيه ويسأله عن أحواله وعن أحوال أبيه. مظهر النخيلي. آه. يبدو أنه يعمل معنا في المصنع ولكن يبدو أنه يعمل في ورديّة أخرى غير ورديتنا. أخذ الرجل القصير العشرين جنيهاً واستعد ليمشي ويتركنا ولكن أنور حسان أمسك بيده فأخذ ينظر إلينا في بلاهة واضحة وهو يستمع إليّ كلامنا. عرفت أن والده كان يعمل في المصنع وبترت إحدى الآلات يده اليسرى فلم يعد قادراً علي العمل فقامت سارة العسكر بتشغيل ابنه مكانه مؤقتاً علي الرغم ما يبدو عليه من ضعف العقل وسوء التفكير والبلاهة أحياناً. أخبرني أنور حسان بأن حالتهم صعبة جداً وأن سارة العسكر لم تتخذ قراراً بعد بتعيين مظهر. يالها من قاسية!! كدت أثور وقلت في غضب:

— ولماذا لا تعينه مكان أبيه؟ ولماذا لم يطالب الولد بتعويض مناسب عما حدث لأبيه؟

- لا تتعب نفسك. إنها سارة العسكر وتفعل دوما ما تريده
- فلتعط الناس حقوقهم
- إن أردت أن تستمر في هذا المصنع فلا تتكلم بهذه الطريقة ولا تتحدث أبداً عن الحقوق يا عبدالله يا مصري. افهم. عند سارة العسكر لا حديث عن الحقوق. الحديث عندها فقط يدور عن الواجبات التي ينبغي علي العمال القيام بها
- أي واجب يقابله حق. يجب أن يكون هناك توازن بين الحقوق والواجبات بين العامل وصاحب العمل
- شكك لن تعمر في هذا المصنع طويلاً
- وهل سكت مظهر ووالده علي هذا الظلم؟
- ماذا سيفعلون؟ القضاء أحباله طويلة ولا ينصف العمال يا عبدالله

— لا حول ولا قوة إلا بالله

وما هي إلا لحظات ووجدت هاتفي المحمول يرن. رقم لا أعرف من صاحبه. لقد رن الهاتف وأزعجني لأنني كنت في حالة سكون تام أفكر في حالة مظهر ووالده. لا أحب أن أرى علي الأرقام التي لا أعرفها. ابتعدت عنهما وتركتهما يتحدثان مع مظهر النخيلي.

إنه ندا عبدالعليم. إنه يتحدث بسرعة وكأنه يريد أن ينهي المكالمات بأقصى سرعة. إنه يطلب مني أن أبلغ أنور حسان ومحمد بسيوني أن سارة العسكر قد وافقت علي عودتهما للعمل من جديد في المصنع. شكرته وأنهيت المكالمات معه. إنهما ينظران إلي في تعجب. لم أخبرهما إلي الآن من الذي كان يتحدث معي. قلت لهما في غرور:

— ألم أقل لكما إن الليلة ليلة حظي؟ يبدو أنها ستكون ليلة حظي وليلة حظكما.

— من كان معك علي الهاتف؟

أبلغتهما بقرار سارة فأسعدهما الخبر. الحمد لله. شعرت بالسعادة لأنني كنت سببا في إسعاد هذين الرجلين. كنت أعلم أن المصنع في حاجة ملحة إلي العمال لتسليم الطلبات في موعدها حتي لا تتعرض سارة العسكر للشروط الجزائية نتيجة تأخر موعد التسليم. تساءلت لماذا لم يبلغهما ندا بنفسه. لم يطل تعجبي فلقد كان ندا يرن علي هاتفي ثانية. إنه يطلب مني أن أذهب مبكرا إلي العمل غدا قبل التاسعة بنصف ساعة علي الأقل لأنه يريدني في موضوع ضروري. لما سألته عن هذا الموضوع أخبرني أنه لا ينفذ أن يناقش معي مثل هذا الأمر في التليفون. انصرف الرجلان من أمامي والسعادة تغمرهما واصطحبا معهما مظهر النخيلي. ابتعدا عن عيني. لمحت مظهر ورأيتة يسير معهما وكأنه يعرج.

دخلت الشقة فلم أجد أمي نائمة كعادتها. وجدتها تستمع إلي القرآن الكريم. كان المقرئ يتلو قول الله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون». نظرت إليها في امتنان وانحنيت أقبل يديها. لم تتناول عشاءها حتي الآن. اعتذرت لها. وتناولت معها العشاء علي مهل وحكيته لها ما حدث الليلة. بدا أنها تستمع غير مهتمة بما أقول علي غير

عادتها. كنت أبتسم وأنا أحكي لها في حين كان الهم باديا علي وجهها وكانت عيناها تلمعان ببريق لم أعهد مثله من قبل. سألتها عن سبب همها فلم تخبرني بأي شئ. قالت لي بعد فترة صمت طويلة أنها رأت لي حلما تكرر من قبل. أقسمت أنها رأتني في المنام أؤذن. ماذا أقول لها؟ قلت لها إنها أضغاث أحلام يا أمي. أكدت أن أحلامها صادقة. ما حلمت بشئ إلا وتحقق بالفعل كما رآته.

سألتها وأنا أضحك وقلبي يدمي :

— طيب وهل حلمت بخطيبتني شكرية؟

— لا

— هل يمكنك أن تحلمي لي بها؟ هل يمكنك أن تحلمي لي بمكانها؟

— يبدو أنك لا تصدقني يا عبدالله

— أنت صادقة يا أمي

قمت لأدخل حجرتي ولأستعد للنوم. تري أين أنت يا شكرية؟

هل أخبر أمي بأن الضابط شديد له علاقة باختفائها؟ وما ذنبها في أن

أحملها ما لا طاقة لها به وهي في هذه السن؟ أرجوك يا أمي أن تتركيني.

أشعر أن الليلة ليلة حظي. نظرت إليّ أمي وقالت في هدوء متسائلة :

— هل هناك ما تخفيه عني؟

— أبدا يا أمي

— أنا أمك وأعرف ما تخفيه عينك. أخبرني يا ولدي

— لا شئ يا أمي. مشاكل في العمل ويجب أن أذهب مبكرا.

— سأتركك علي راحتك ولكني أثق أنك تخفي عن أمك الكثير

— صدقيني لا أخفي عنك شيئا

أغمضت عيني ثم فتحتهما ثم نظرت لأمي لحظة وغضضت بصري

عنها وتظاهرت أنني أتناهب. اتجهت نحو حجرتي. بادرني أمي قائلة :

— لم أكن أعلم أنك تحب شكرية كل هذا الحب

— أليست خطيبتني يا أمي؟

— هل أخذت مكان سارتك يا عبدالله

— أبدا يا أمي ولم تأخذ مكان رأس الإبرة من قلبي. سارتي حب العمر.

— قلت لك أكثر من مرة إنها ليست لنا وليسست من ثوبنا. أيعقل

— أنك لازلت تحبها حتي بعد أن تزوجت وأنجبت؟

- وسأظل أحبها طيلة عمري
- إنها زوجة رجل غيرك
- أنا كنت أولي بها منه. نحن نعيش في بلد ظالمة. لقد خسرتها بسبب الظلم يا أمي.
- دعنا نفكر بالعقل
- ماذا تقصدين؟
- لن نسكت علي اختفاء شكرية يا عبدالله
- ماذا نفعل أكثر مما فعلنا. لقد بحثنا عنها وسألنا عنها جيرانها.
- ماذا نفعل أكثر من هذا؟
- لم نفعل ما علينا يا عبدالله
- ماذا تقصدين يا أمي؟ هل تريدين مني أن أوجر مناديا ينادي عليها في الشوارع والطرق؟ هل أنشر إعلانا في الجرائد بأن خطيبتني فقدت؟ هل أعمل إعلانا في التلفزيون عن فقد شكرية ومن يجدها له مكافأة قيمة؟ أنت تعرفين البئر وغطاه يا أمي. لا أستطيع أن أفعل أكثر مما فعلت.
- لدي فكرة وأرجو أن توافق عليها
- ما فكرتك يا أمي
- علينا أن نبلغ البوليس. ما رأيك في أن نبلغ الشرطة؟
- تراجععت عن دخول حجرتي. قلت لأمي إن البلد في حالة ثورة وفي حالة فوضى. الشرطة مشغولة بأشياء أخرى أكثر من انشغالها باختفاء شكرية. البلطجية واللصوص يخطفون الناس ويطالبون بالفدية عيانا بيأنا. إنهم يقتحمون المستشفيات والمدارس ويخطفون وينهبون ويسرقون كما يشاؤون. أخبرتها أن الشرطة ليست متفرغة لنا. قلت لها إن الشرطة قد انكسرت يا أماه. لقد انكسرت أعين رجال الشرطة. لقد فقد رجال الشرطة مهابتهم واحترامهم. طلبت مني أن أفكر في الموضوع بجدية. استأذنتها معذرا برغبتي في النوم.
- دخلت حجرتي وسؤال أمي يرن في أذني. لماذا لا أبلغ الشرطة؟ كيف أبلغ الشرطة والضابط شديد يساومني. إما أن تتعاون معنا ونرد خطيبتك وإما فلن تراها ثانية. قال ليلة حظي قال. لم أكن أعلم أنها ليلة حظي بالفعل. لقد حدث مالا يمكن أن أتوقعه أبدا

رن تليفوني ثانية.

هذه المرة رقم غريب تماما ولكنه رقم فيه خمسة أرقام متشابهة. رقم الستة متكرر خمس مرات أمامي علي شاشة تليفوني. ربنا يستر. أيكون هذا رقم الضابط شديد؟ أيعقل أن يظهر بمجرد أن أفكر فيه؟ لم أرد في البداية. ابتعدت عن التليفون وكأنني أخاف أن تخرج منه يد تبطش بي. انقطع الرنين فهدأت قليلا. سأنام وأغلق الهاتف. ما كدت أضع يدي علي زر إغلاق الهاتف إلا وأخافني صوت رنين التليفون من جديد. رقم متميز. خمس ستات برقم تليفون واحد؟ ألا يمكن أن تكون شكرية؟ ليتها تكون هي. ليتك تكونين شكرية يا من تتصلين بي الآن. قررت أن أرد. قلت بصوت خافت:

— ألو

— ألو

— شكرية....

لا أدري لماذا تسرعت في الرد. إنه صوت أنثوي. خرس الصوت من الطرف الآخر. إنها ليست شكرية. خرس الهاتف تماما. أكثر من مرة أقول ألو ولا أحد يرد.

أغلقت الهاتف والفضول يقتلني. سأنام. لدي عمل في الصباح. يجب أن أذهب مبكرا حتي أعرف ما الذي يريده ندا.

فتحت هاتفني من جديد. لقد استبد بي الفضول من جديد. سمعت أمي وقد شرعت في صلاتها لتقيم الليل.

ما أن فتحت الهاتف إلا ورن الهاتف من جديد. نفس الرقم المتميز. قلت ألو بصوت خاشع وعاد الصوت الأنثوي الجميل يرن في أذني من جديد قائلا:

— ألو

— نعم من معي؟

— أنا.. ..

ثم أغلق الطرف الثاني هاتفه من جديد. ما هذه الحيرة وأية ليلة هذه؟ يبدو أنها ليلة حظي فعلا. لا أعتقد أن هذا صوت سارتي. أنا أعرف صوت أنفاسها من بعيد وأحفظه. ليته يكون صوت سارتي. لا. قلبي يحدثني إنه ليس صوت سارتي. فعلا إنه ليس صوت سارتك يا عبدالله. إنه صوت سيجلب لك الحظ كله. ألم أقل لك إنها ليلة حظك؟

أغلقت التليفون تماما وأغلقت عيني وأنا أستعد ليوم جديد غدا لا أعلم ما الذي سيحدث لي فيه. خلدت إلي النوم وما زال الصوت الأنثوي الجميل يرن في أذني ويختلط بأذني مع صوت همسات أُمِّي ودعواتها وهي تصلي إلي أن غصت في نوم عميق لم أشعر بعده بأي شئ.

الحلقة الثالثة والأربعون

سادة الدوغري

تمر الأيام وتتوالي الليالي وأنا أتقلب بينها ولا حول لي ولا قوة. ها أنا ذا أدور في فلكها علي غير رغبتني وأتقلب في دورانها كما تدور الآلات في المصنع وكما تعمل الماكينات في ورديتنا تماما. أدور متجرعا كل ما تجود به الأيام والليالي من حلو أو مرارة. مسير أنا في ظلمات الليالي وضياء الأيام غير مخير. أني لي أن أختار وكل شئ مدبر في ملكوت الله وميسر لما خلق له؟

كنت أذهب إلي المصنع وأعود كل يوم فأشعر بأنني أدور كما تدور الآلات والماكينات في مصنع سارة العسكر. أنا بالفعل آلة ولكن بدون تروس وأزارار تشغيل. أنا آلة مفكرة تحس وتشعر وتفكر وتتحرك. إذا كان العلماء قد احتاروا في تعريف الإنسان فمنهم من قال إنه حيوان ناطق ومنهم من قال حيوان مفكر أو ضاحك، فأنا إذا آلة ولكنها تدور وتفكر وتحس وتشعر وتتذكر. أنظر إلي الأشجار القليلة التي تقف شامخة صامدة أمام المصنع وأتابعها وأتخيلها وهي تبدل أوراقها وأري كيف تكتسي أغصانها بعد عري استمر طيلة الخريف. تتوالي نسيمات الربيع عليها كما تلفحها حرارة الصيف وتسقط عليها أمطار الشتاء. أتابع كل هذا وأستمع بلحظات قليلة أفكر فيها وأتجرع ذكريات الماضي وأعيش وهج الحاضر وأتربح خطوات المستقبل بكل قلق وحذر.

كان كلما مر يوم وانسلخ من حياتي أهرب من نظرات سارة العسكر ومطالباتها وأهرب من طلقات عيون الضابط شديد لي. أعرف أنه سيأتي وقت يطلبان فيه كل ما يريدان. أعلم أنني سأوقف بين يديهما. متي هو هذا اليوم؟ أرجو ألا يكون قريبا.

صار صمتي أكثر من نطقي وصار التحامي مع رفاق العمل أقل. لا يمكنني أبداً أن أكون عينا عليهم. أتنني سادة الدوغري ذات يوم في ساعة الغداء وقالت لي وهي تصبغ وجهها بكافة الألوان ما بين أحمر وأخضر وأزرق ورمادي وأبيض فبدت لي كبهلوان حقيقي :
— لا أدري لماذا لا تحبني؟

نظرت إليها في تعجب وساءلت نفسي في همس داخلي. ولماذا أحبها؟ هل هو مطلوب مني أن أحبها؟ هل من دواعي عملي أن أحبها؟ أهذا من متطلبات الوظيفة؟ نظرت إليّ وأنا أتساءل في نفسي مستغربا الطريقة التي فرضت بها نفسها عليّ وأنا أجلس وحيدا في الكافيتريا أتأمل أحوال الحياة وأفكر فيها كفيلسوف منعزل عن العالم كله وليس أمامي سوي كوب عصير كدت أن أنتهي منه. اقتربت مني وقالت متسائلة بشئ يشبه الهجوم:

— من تظن نفسك يا عبدالله يا مصري؟ أنا سادة الدوغري

— أهلا وسهلا يا أستاذة سادة

— أهلا وسهلا؟ اسمي الدكتورة سادة يا روح أمك

— أهلا وسهلا يا دكتورة سادة

— وتأخذني علي قدر عقلي؟

— آسف يا ست هانم

— أنا الدكتورة سادة الدوغري والأجر علي الله. أنا تعلمت في مدارس لغات وحصلت علي الماجستير والدكتوراة من جامعة أكسفورد. من أنت؟ أنت لم تحصل نصف المعرفة ولا حتي ربع العلم الذي عندي.

لم أشأ أن أرد عليها أبدا فتذرعت بالصمت ولجأت إلي الهدوء والتجاهل. هل من الحكمة أن ترد علي امرأة غضبانة. أتذكر مقولة لأحد الفلاسفة النابغين عندما سألوه لماذا لا تسب من سبك ولا ترد علي من يهاجمك. لقد رد عليهم مبتسما قائلا: وهل من الحكمة أن أعض كلبا عضني. لقد شعرت أنها تتحدث وترفع صوتها وكأنها تنبح. السكوت أفضل في هذه الحالة. لا يمكن لأي رجل أن ينتصر علي امرأة وخصوصا أنا. أنا ليست لي أية خبرة حقيقية في التعامل مع الأنثى. سأخرس تماما. لم أعد حتي أنظر إليها. يبدو أن هدوئي قد

أصابها بالجنون. لقد بلغ منها الغضب مداه. نظرت إليّ بغضب وقالت متسائلة وهي تصرخ فعلا:

— لماذا لا ترد عليّ أيها الغبي؟

قررت ألا أرد عليها وقررت أيضا تجاهلها تماما. استشاطت غضبا فضربت المائدة التي أمامي بيدها وصرخت متسائلة:

— هل أنا كلبة أمامك وتراني أنبح فلا ترد عليّ؟ أنا أكلمك يا بني آدم

لم أتفوه بكلمة. ازددت تمسكا بموقفي. زادها صمتي غضبا واستفزها هدوئي أكثر فقالت بلهجة إنجليزية:

— شت. أنسر مي. آريو ديف؟

لن أرد عليها. لقد كنت أدرس في كلية الآداب قسم اللغة الإنجليزية وكنت معيدا بها أيتها الغبية السوقية. شت؟ اللعنة عليك أنت أيتها البهلوانة. لن أرد عليك. سادعك تموتين بغيطك. ديف؟ أنا لست أصما أيتها الحمقاء. قال يا قاعدين يكفيكم الله شر القادمين. لم أفعل لها أي شيء حتي تتحدث معي بهذه الطريقة. أتت أحلام المطيري بسرعة عندما استمعت إلي صوتها وكذا نهاد. رأيت نظرات الشماتة في عيني نهاد. أتكون قد سلطتها عليّ؟ أتت رجاء شوكت وشدت يد سادة وأبعدتها عني. لم أفعل لها أي شيء. لا أدري سر هذه العاصفة التي هبت عليّ برياحها القذرة من فم هذه المرأة.

أجمل شيء فعلته أنني لم أرد عليها ولم أخطئ قط. زميلاتهما يتحلqn حولها ليمنعوها عني. رشفت آخر قطرة من عصيري وكان الغيظ يملؤها. نظرت إليّ باحتقار وحاولت أن تفلت من بين أيديهن لتتوجه إليّ قائلة وهي تخاطب زميلاتهما:

— إنه لا يعطيني أي اعتبار. دعوني عليه. دعوني أعرفه مقدار نفسه. أسكت عن الكلام تماما. قالت لهن في تعجب:

— هذا الغبي يظن أنه سيصير نائب رئيس الوردية. لن يحدث هذا أبدا. علي جثتي يا عبدالله يا مصري. فاهم؟ علي جثتي.

يبدو أنها قد فهمت أنني أرغب في أن أكون نائب رئيس الوردية. لم أسع إلي هذا ولم أطلبه ولن أطلبه قط. أنا رجل مسكين. أريد أن

أعيش وفقط. أنا لا أطمع في المناصب ولا في أي شيء ويبدو أن هناك خلطا في ذهن هذه المرأة. نظرت سادة إليّ وقالت وهو توجه أصبعها إليّ: — هذا بوز الفقر. من تظن نفسك؟ وجهك شؤم. أعوذ بالله. تعديت الخمسين ولم تتزوج وحتى التي خطبتها لا أحد يعرف مكانها. أنت وجه النحس.

قررت أن أقوم من مكاني وأن أظل ساكتا. وأنا أترك المكان نظرت إليّ نهاد نظرة متشفية. قلت لأحلام:

— والله لا أريد أن أكون نائبا لرئيس الوردية. من أبلغها بهذا كذاب. صدقوني يا جماعة أنا لا أطمع في أي شيء.

ليتني ما تكلمت. فعلا. إذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب. هربت سادة من بين يد زميلاتهما واتجهت إليّ وبدا أنها تراجععت. قالت لي في شبه اعتذار:

— أنقسم أنك لا تريد أن تكون نائبا لرئيس الوردية؟

— والله لا أريد أن أكون نائبا لرئيس الوردية

— ندا قال غير هذا. لقد أكد أنك تطمع أن تكون نائبا له

— يمكنني أن أواجهه

— لقد أكدت نهاد هذا الادعاء

— يمكنني أن أواجههما معا.

— لو صدق كلامك فأنا آسفة

— أنا صادق لا أكذب أبدا.

جرت نهاد نفسها من أمامي. لقد بدأت المؤامرة تتكشف. قلت موجهها كلامي لأحلام ولسادة:

— وسأقدم طلبا لنقلي إلي وردية أخرى إن كانت الدكتورة سادة ترغب في هذا. أنا لا أريد أي شيء

نكست سادة رأسها وأرادت أن تعتذر لي. تقدمت نحوي وقالت: — أي أم سوري. آسفة يا أستاذ عبدالله

— ولا يهمك يا دكتورة سادة. لم يحدث أي شيء. سوء تفاهم نظرت إليّ في غضب ثانية وقد انمحت علامات الاعتذار من وجهها تماما وتبدلت ملامح وجهها إلي الهجوم والتحفز للعراك من جديد. قالت في عصبية متسائلة:

- أتقصد أنني لا أفهم؟
- حاشا لله يا أستاذتنا. حاشا لله يا دكتورة
- يبدو أن طريقتي في الحوار معها هذه المرة أفلحت. قالت لي وهي ترفع رأسها عالياً:
- أنت لا تعرف من أنا. أنت لا تعرف من هي سادة الدوغري. أنا بنت ناس يا عبدالله
- كتمت ضحكة بداخلي وأدّرت وجهي عنها. إن كان ما تذكرينه صحيحاً فلماذا أتيت إليّ العمل هنا يا بنت الناس؟ أجار عليك الزمن كما جاز عليّ؟ تشرفنا بمعرفتك يا بنت الناس. يبدو أن كل شيء في الدنيا قد تغير. ما الذي أتى بك لتعملي هنا في هذا المصنع؟ ما هذه المظاهر الكاذبة؟ أنت عاملة في هذا المصنع مثلي مثلك. بل أنا أتيت قبلك في هذا المكان. أنا لا أريد أن أكون صاحب منصب في هذا المكان. لقد كنت رئيس وريّة من قبل. أردت أن أعتذر لها. تقدمت بضعة خطوات منها وقلت لها في أدب جم:
- أنا آسف يا دكتورة سادة. أرجو أن تتقبلي اعتذاري
- نظرت إليّ بتعجب. يبدو أنني قد كسبتها بطريقتي المهذبة.
- أومأت برأسها وكأنها قبلت اعتذاري. قالت لي بود:
- يبدو أنني لم أفهمك بالطريقة الصحيحة يا أستاذ عبدالله
- اسمي عبدالله يا دكتورة
- أنت متواضع وعليّ خلق لا كما كانت نهاد تتحدث عنك
- تحت أمرك يا دكتورة وأتأسف لحضرتك مرة ثانية
- لكم أنت مهذب يا أستاذ عبدالله
- تغيرت نظراتها تماماً. رأيت نظرات الرضا في عينيّ أحلام ورجاء شوكت. بدا أن الهدوء قد عم المكان وساد السلام بيننا. ما هي إلا لحظات وفوجئنا بنجدي البقري مدير الشؤون القانونية يقترب منا ويخبرنا بأنه قد أحالنا إليّ التحقيق.
- اقتربت منه وأفهمته أننا قد تصالحنا وأن هناك سوء تفاهم قد حدث بيننا ولكنه كان مصراً. نظر إلينا في عدم اهتمام وقال:
- سيخضم من كل منكما ثلاثة أيام
- تبعناه وأنا في غيظ. علينا أن نسرّع. أماننا أقل من ربع الساعة

حتي تدور الآلات من جديد.

كنت أنظر إلي ماكينتي وهي تدور. لقد تم خصم ثلاثة أيام من راتبي هذا الشهر ومع هذا لن أشتكي من نهاد. لن أبلغ خطيبها همام الحفناوي بما فعلت. لقد أوقعت بيني وبين سادة الدوغري وأشعلت نار الفتنة بيننا. الفتنة أشد من القتل. سأتكم الأمر حتي يتزوجا. أليس من الحرام أن أضيع الرجل وقد تاب وألقي به في أتون امرأة مثل نهاد؟ هكذا الحياة.

عدنا إلي عنبرنا ودارت الآلات من جديد. تذكرت أنني منذ زمن طويل وأنا لا أرغب لا في مكانة خاصة ولا منصب. تذكرت حنان عزت وهي تقترب مني عندما كنا في أوائل السنة الثالثة وتصر علي أن أشرح نفسي في انتخابات اتحاد الطلاب. قلت لها إنني لا أرغب في هذا ولكنها أصرت علي أن أشرح نفسي. قالت لي:

- رشح نفسك يا عبدالله وسأدعمك
- يا حنان ليس لي في مثل هذه الأمور. أنا لا أريد إلا أن أكون الأول فقط في هذه الكلية حتي أعين معيدا
- أحلامك متواضعة
- لا أريد أكثر من هذا
- وأنا أريدك أن تكون في اتحاد الطلاب
- رشي نفسك وأريحيني
- سأرشحك أنت

أيتها الغبية. أنا لا أريد أي شئ سوى أن أتفوق في دراستي. لن أستفيد أي شئ بدخولي اتحاد الطلاب.

في اليوم التالي فوجئت بحنان تأتيني بهدية تلفها في حقيبة رائعة. بعد أن انتهيت من شرح أحد الدروس لها فوجئت بوالدها يقترب مني ويربت علي ظهري قائلاً:

- لي عندك طلب وأرجو ألا تخذلني
- تحت أمرك يا عم عزت
- أنت تعرف كم أحبك وأعتبرك مثل ابني تماما.
- تأمرني يا عم عزت
- أريدك أن تسمع كلام حنان. ادخل انتخابات اتحاد الطلاب.

— يا عم عزت أنا..

— أعرف ما تود أن تقول.

فكت حنان هديتها أخرجت ثلاثة قمصان وبضعة بنطلونات ثم قدم لي والدها بذلة سوداء رائعة وأخذ بيدي وألبسني إياها. لا أعرف كيف أضبط رابطة العنق مشط شعري وأحكم رابطة العنق حول عنقي وقال: — أنا واثق أنك ستصير أمين اتحاد طلاب كلية الآداب.

خرج الرجل إلي عمله وتركني مع ابنته. كنت أشرح لها الدروس وعيناها تدمعان. لقد كنت أرتدي بذلة رائعة ولأول مرة في عمري. أتت بها حنان لي. لماذا لا أحلم أن أكون أمين اتحاد الطلاب. لماذا لا أحلم أن أكون نجما؟

غافلتني حنان. قالت لي أن أغمض عينيّ وستأتيني بهدية وطلبت مني ألا أفتح عينيّ. أغمضت عينيّ فأتتني بمنديل حريري وضعته في جيب بذلتي العلوي. ربّيت علي كتفي وقالت إنها واثقة من أنني سأكسب الانتخابات. أنا الأول دائما. هكذا قالت. طلبت مني ثانية أن أغمض عينيّ لأنها ستعطيني هدية ثانية. استجبت لها وأغمضت عينيّ. فكانت تجربة أتعرض لها لأول مرة في حياتي. لقد غافلتني وأنا مغمض العينين واقتنصت من شفتي قبلة أفقدتني الإحساس بالحياة التي عشتها من قبل ونقلتني نقلة جديدة لعالم لم أكن أعرفه وحياة ليس لي عهد بها. كنت أشعر بأني أرد لها جميلا لا طاقة لي بحمله. لقد خلقت مني رجلا جديدا أشعر بأحاسيس ومشاعر تجاه المرأة لم أكن قد شعرت بها من قبل، كما خلقت مني إنسانا ذا أحلام لم أكن أقدر حتي علي مجرد الخوض في تخيلها.

ما أن لثمت شفتي بطرف شفيتها إلا وأحسست أن قلب الزمان قد توقف تماما عن الحركة وأن نبضه قد شل تماما. شرعت روحي في محاولة إيجاد وسيلة أخرى لإعادته وإعادة نفسي إلي الحياة. أقسم أنني ما دريت بنفسي وذلك لأنني فقدت عقلي فوجدتني فجأة أبحر في أحضانها وأصل تقريبا إلي ثمرات شبابها وأتسلق بساتين أنوثتها. وجدتني أغرق في بحار عينيها اللتين فشلت في الخروج من دوامة واحدة من دوامات الهيام بها فبلغ بي الجهد مداه. استسلمت لتيارات العشق ونيران الهيام فتوسلت بالصبر ولكنني وجدتني صريعا

لا أستطيع أن أقاوم قواذف وصواريخ الشفتين اللتين ما استطعت فكاكا من أسر بطشها ولا الابتعاد عن مرمي أهدافها. أحسست أنني قتيل بئر عميق ولا أستطيع سبر أغوار رغبات السكر والعريضة في غمار هاتين الشفتين الملتهبتين.

أيقنت أنني لا محالة هالك إذا ما اقتربت من حدود ثغر تقطر منه خمور شهد تدلت أمامي فما كدت أقترب إلا واضطرب فؤادي وسال لعاب حبها الذي مسني بالجنون لأقترب من حد لم أقربه وجرم لم آلفه قط، ولكنني اكتشفت أنني توقفت تماما كما توقف الزمن علي الرغم من لذة السكر التي لازلت أجد صدي لها في لساني إلي الآن. مازال قلبي وعقلي ينشغلان بما حدث في هذه اللحظات حتي الآن. خلتنني أسأل نفسي والكون كله إن كان العالم كله قد توقف بالفعل أم أنه كان في حالة ذهول مما حدث؟ أتراه كان يراقب تجربتي الفريدة هذه والتي عبرت بي إلي عالم جديد أم أنه آثر أن يحتفل بنا ونحن نخط لحنا جديدا في فراغ حياتنا؟ أتراه قد قرر أن يحتفل بنا ليلحق بركاب حدث جلل لم تعرف دنيائي مثيلا له من قبل.

أفقت علي جرس التليفون. لقد كان والدها يطمئن عليها ويتأكد من أنني قبلت أن أدخل انتخابات اتحاد الطلاب. حدثته حنان وسألتني كما سألهما والدها فأومأت لها برأسي أنني قد قبلت. هل أملك أن أرفض بعدما حدث.

تركت السماعة واحتضنتني وأصرت علي أن توصلني إلي البيت بسيارتها. كيف لها أن تتركني أجري خلف أتوبيس النقل العام ببذلتني الجديدة؟ أوصلتني ورأتني سارتي في سيارتها. كرهت نفسي وكرهت الدنيا كلها ولم أستطع أن أثبت عيني في عيني سارتي. ليتني ما أطعتك في هذا اليوم المشئوم يا حنان. لقد أحسست أنني فقدت نفسي وفقدت براءتي.

توالت الذكريات إلي ذهني متدفقة. غصت في غمارها. رأيتني أعود شيئا فشيئا إلي هدير الآلات وضجيج الماكينات في المصنع من جديد بعد أن تقطعت خيوط ذكرياتي شيئا فشيئا بفعل عودتي إلي حياة المصنع من جديد بعد أن فركت عيني ونظرت إلي زملاء المصنع من جديد. في آخر اليوم وقبل انتهاء دوامنا بنصف الساعة أتأنا سيف غرس

الدين منتفخا مغرورا. شكرنا جميعا. بفضل جهودنا وعملنا تم تسليم
الطلبية في موعدها. قلت له متسائلا:

- هذا يعني أننا نستحق مكافأة يا سيادة مدير المصنع
نظر إليّ بشئ من الغضب ثم قال وهو يشير إليّ أن أسكت:
- إياك أن تتكلم ثانية يا عبدالله. ألا يكفيك خصم الثلاثة أيام؟
لم يتحرك لساني بعد. فوجئت بسيف غرس الدين يتحدث قائلا:
- من الغد يا جماعة ستزيد ساعات العمل. سيبدأ عملكم في الثامنة
بدلا من التاسعة وسينتهي في السادسة. هناك ساعتان زيادة في العمل
ابتسمت وأحسست بشئ من الفرحة. خمن سيف غرس الدين
ما يدور بداخلي. نظر إليّ وقال وكأنه يريد أن يزيح من ذهني ما
خمنته فقال:

- ترجو إدارة المصنع منكم الالتزام.
- نظرت سادة الدوغري إلي مدير المصنع وتساءلت:
- هذا يعني أننا سنحصل علي إضافي مقابل زيادة ساعات العمل؟
نفس السؤال الذي كنت سأسأله. هذا بالفعل ما خمنته. نظر
إليها سيف بغضب وقال:
- مخصوم منك ثلاثة أيام يا سادة

أنزلت سادة رأسها. هل سنعمل بالسخرة في هذا المصنع؟ نظرت
إليّ سادة وكأنها تطلب مني أن أتحدث نيابة عنها. أشفقت عليها
علي الرغم من أنها تشاجرت معي بدون وجه حق. أين لسانك
الطويل الآن يا بنت الناس؟ أهكذا تصدروننا نحن للمشكلات؟
وقفت مكاني وقلت لمدير المصنع:

- الدكتور سادة لم تخطئ. هذا السؤال كان علي طرف لسان كل واحد
فيها. عمل ساعات إضافية يعني أننا سنحصل علي أجر إضافي.
- لا تتكلم يا عبدالله يا مصري
- يا سيادة المدير المنطق يقول طالما إن هناك ساعات عمل إضافية
فيعني هذا أننا يجب ان نحصل علي أجر إضافي
- اللهم طولك يا روح
- يا سب الدين.. أقصد يا قلع الدين.. آسف يا أستاذ غرس الدين..
- لا تتحدث قلت لك

- اعذرني ولكن .
- مخصوم منك ثلاثة أيام يا أستاذ عبدالله
- خرج مدير المصنع وتركنا في حيرة. نظرنا إلي رئيس وريدتنا ولكنه صاح في غضب قائلاً:
- يا جماعة هذه أوامر إدارة المصنع وعلينا أن ننفذ
- اقتربت مني سادة الدوغري وأثنت علي وقوفي معها. تأسفت للخصم الذي أصابني. نظرتُ إلي ندا وقلتُ له:
- هذه ليست أوامر الإدارة يا أستاذ ندا يا رئيس الوردية. هذه أوامر سارة العسكر
- نظر إلي وكأنه يأمرني أن أسكت. قال بصوت هادئ:
- الأستاذة سارة العسكر. علينا أن نطيع إذا أمرت. ست الكل سارة العسكر وأمرها مطاعة
- لاحظت الهدوء يحيق بالجميع وكأن الطير علي رؤوسهم جميعاً. لم أعد أسمع سوي صوت الآلات فقط. لا أدري لماذا خرسوا جميعاً. اتجهت نحو ندا ولم أنظر خلفي. قلت له في غضب:
- أوامر سارة العسكر ليست قرأنا ننفذها ونلتزم بها. حرام أن نعمل بدون أجر. هذا يعني أننا نعيش في ظلم. سارة العسكر كلامها ليس مقدساً. يا أستاذ ندا .
- قاطعني قائلاً:
- لا تتكلم يا عبدالله
- سأتكلم. حرام. سب الدين يقول لا تتكلم ورئيس وريدتنا يقول لا تتكلم. حرام عليكم. لن نعمل بالمجان. هذا ظلم
- نظرت إلي الجميع فوجدتهم منكفئين علي آلاتهم وماكيناتهم حتي سادة الدوغري. نظرت خلفي فوجدتها تقترب مني وتنظر إلي في تعجب. اقتربت مني وصفقت بيديها قائلة:
- الله الله. أنا ظالمة. عبدالله المصري يتهمني بالظلم في مصنعي. أنا سارة العسكر عشت إلي هذا اليوم الذي أري فيه من ينتقدني في مصنعي. عشت وشفت هذا في مصنعك يا سارة العسكر نظرت إليها وشهقت. لم أكن أتوقع أن تكون خلفي. لقد أخرستني المفاجأة تماماً. تري ماذا ستفعلين بي يا سارة يا عسكر؟

الحلقة الرابعة والأربعون

الخوف

نبضات قلبي تتزايد والخوف يتربص بي. هل سأظل مختبأ في دورة المياة إلي أن تنتهي زيارة عبدالجواد باشا الخربوطلي. أعرف أنه هو الذي كان يطرق الباب منذ لحظات. هرعت إلي دورة المياة هرباً من مواجهته. تركت أمي تواجهه مع أخوتي الصغار. لماذا أجبن دوماً وأخاف هكذا من مواجهة مخاوفي؟ لماذا أخاف وأنا لم أضرب ابنه؟ تظاهرت أمام أمي أنني سأدخل الحمام. إننا نترقب هذا اللقاء. أتذكر عندما ضربت أدهم ابنه. كان في قمة غضبه. تري لماذا جاء اليوم؟ أخاف أن أدعو الله أن يرحمنا من شروره وأنا في هذا المكان. هذا المكان لا يذكر فيه اسم الله. لقد ضربت ابنه مرات ومرات. هل أتي لينتقم منا اليوم؟ ماذا سيفعل لنا؟ هل سيطلب فؤاد باشا بطردنا؟ طيب وإذا طردنا أين سنذهب؟ لماذا طلب من سارتي أن تبلغنا بأنه سوف يزورنا اليوم ظهراً؟ عشرات التساؤلات تدور بذهني. ألسن رجلاً؟ لماذا لا أخرج وأواجه ما سيحدث بصدر جرئ وبقلب شجاع؟ لن أترك أمي تواجهه مثل هذا الموقف وحدها مع أخوة صغار. حتي وإن طردنا يمكننا أن ننام في أي مكان. الخرابات موجودة والأرض القضاء التي تتخلل المساكن موجودة. خيمة ننصبها ونستتر بها. يمكننا أن أطلب من الدكتورة فاطمة التي تعمل عندها أمي أن تسمح لنا أن نبني في العيادة ليلاً. سأخرج وأواجهه. سمعت صوت خطوات أدهم ولده بجواره. سارة أيضاً موجودة ورأيتها بقلبي وهي معهم. لن أترك أدهم ينظر إليها وحده. سأشاركه النظر إليها. فليحدث ما يحدث وليكن ما يكون. سأرفع رأسي وأنا أنظر إليهم. صحيح أننا فقراء ولكن لدي ما ينقصهم. لدي ما ينقصك يا أدهم. أنا أفضل منك في الدراسة والذاكرة والحفظ. لديكم المال لكن لديكم الغباء والاستهتار بالعلم والدراسة. أنا الأول دائماً. سأخرج للمواجهة. حتي وإن كانت آخر مرة سأري فيها سارتي هنا. يمكننا أن أراها في المدرسة. يمكننا أن أسير علي قدمي من عيادة الدكتورة فاطمة إن كنا سنبيت فيها وأتي لها وألعب معها وأحدثها.

صوت أمي ترحب بضيئنا الذي أخاف منه. أصرت أمي علي أن يجلس علي الكرسي الوحيد الذي لدينا. أشعلت وابور الجاز بعد أن سلكته بالإبرة. كنت أسميه باجور الجاز. وضعت الماء والشاي في البراد وعبدالجواد باشا ينظر في تعجب وحيرة. وضعت السكر في الأكواب علي الطبلية التي نأكل عليها أحيانا لأننا كنا نأكل علي الأرض في أغلب الأحيان ونحن مربعين نشني ركبنا وندخل إحدي الساقين في الأخرى. نادرا ما كنت أشبع. كنت أنظر إلي أمي وهي تتظاهر بأنها تأكل حتي نأكل وكنت أحس أنها تقوم دوما وهي جائعة. كنت أفعل مثلها. المهم أن يشبع الصغار. الحمد لله. طالما أنهم يأكلون فكأنني آكل. كنت أسمع صوت الشاي يصب في الأكواب. فتحت باب الحمام قليلا. انفرج الباب قليلا فاستطعت أن أري من خلاله عبدالجواد باشا الخربوطلي وأدهم وسارتي التي رأيتها تبحث بعينيها عني. إنها تبحث عني وأراها ولا تراني. أول مرة أري أدهم لا ينظر إليها ولا يتكلم. إنه ينظر إلي الأرض دائما.

في صوت واحد نطق عبدالجواد باشا وسارتي بسؤال واحد: «أين عبدالله؟» أنتفخت بطن عبدالجواد وأوداجه ومسح شعر سارتي. وددت لو أزلت يده من علي رأس سارتي. قال لها مداعبا: «خلبوصة أنت يا سارة. سألت نفس السؤال الذي كنت سأسأله».

ملاحه لا تشي بالغضب كما كانت في المرة السابقة. وقفت فورا من جلستي التي كنت أجلسها هربا ورفعت بنطلوني. خرجت من الحمام. اتجهت نحو عبدالجواد باشا ولم أمد يدي لأسلم عليه. ترك كوب الشاي بعد أن أفرغ محتوياته في كرشه. تهلل وجهه ثم قام إلي وربت علي كتفي. رأيت سارتي تنظر إلي بفخر في حين أن أدهم لم يرفع عينيه من علي الأرض ولم ينظر إلي ولم ينظر إلي سارتي قط. أخرج عبدالجواد باشا ورقة مالية فئة العشرة جنيهاات. كانت ورقة كبيرة حمراء. أول مرة أري فيها مثل هذا المبلغ. رأيت الجنيه والخمسة جنيهاات من قبل. ياله من مبلغ هائل!! كنت أعمل مع الميكانيكي طيلة الأسبوع ولا أحصل إلا علي ثلاثة جنيهاات في الأسبوع. العشرة جنيهاات تعني بالنسبة لي عمل ما يقرب من الشهر.

وضع الورقة في جيبتي ثم أخرج ورقة أخرى مثلها وقدمها لأمي.
يا إلهي!!

كان يقترب مني فيما يشبه الرجاء. قربني منه وأنا لا أفهم شيئاً. أمي
كذلك كانت في غاية التعجب وكذلك أخوتي. ربت علي ظهري وقال:
— أستاذ عبدالله.

أحس بأنني أحلم. أكنت في حالة الخوف التي غمرتني وجعلتني
أختبئ في الحمام حتي لا أواجه غضب هذا الرجل فإذا به يسبغ
علينا من كرمه ويعطينا المال؟ فعلاً. ما تخاف منه لا يأتي أفضل
منه. قاطعته سارتي وابتسمت لي في فخر قائلة:

— أستاذ عبدالله. هكذا يقول الأساتذة عنه في المدرسة. مستواه يقترب
من مستوي الأساتذة

نظر إليّ أخوتي بشئ من الفخر. اقتربت مني أختي قمر
وأمسكت بيدي، أما سمر فظلت مكانها ولم تفعل أي شئ. أخوأي
كان أحدهما لم يدخل المدرسة بعد، في حين كان الآخر قد دخل السنة
الثانية الابتدائية. كأننا ينظران إليّ وأنا لا أفهم شيئاً مما يحدث.
نظر أدهم إليّ لأول مرة بعد أن أمره والده بأن يقترب مني وأن
يتحدث معي. نظرات أبيه الغاضبة دفعته لأن يحدثني ويمد يده لي
ليسلم عليّ. سلمت عليه. قال لي بأدب لم أعهده منه ثم نظر إلي
الأرض بنظرات انكسار:

— أستاذ عبدالله. هل يمكن أن أطلب منك شيئاً؟

أشعر وكأنني في حلم جميل أو وهم لا يمكنني أن أصدقه. أستاذ
عبدالله؟ كل هذا أمام سارتي وأمي وأخوتي؟ أنا لا أفهم شيئاً.
وقف عبدالجواد باشا الخربوطلي وقال لأمي فيما يشبه الرجاء
وكان يوجه نظره إلي ابنه الخائب وكأنه يؤنبه:

— أدهم رسب في اللغة العربية وفي العلوم.

ربتت أمي علي ظهر أدهم وقاطعت والده:

— إن شاء الله سينجح لو ذاكر

واصل عبدالجواد باشا كلامه قائلاً في حسرة:

— ورسب أيضاً في الدين وفي المواد الاجتماعية وفي الرياضيات. لقد

رسب في جميع المواد وسيعيد السنة

ضحكت سارة هازئة وهي تنظر إليه في سخرية وتنظر إليّ في فخر ثم قالت :

- ولكنه نجح في الرسم وفي التربية الرياضية
- لم أستطع أن أفهم سبب زيارة عبدالجواد باشا وابنه إلا عندما رجا أمي في خشوع :
- أطمع في أن يذاكر عبدالله ابنك مع ابني. سيذاكر له. سيعلمه كيفية المذاكرة.

تعجبت أمي وقالت في استنكار :

- ولماذا لا يأخذ دروسا في المدرسة؟ لماذا لا يدرس له أساتذته في المدرسة؟
- تحدثت مع فؤاد باشا في هذا الموضوع. كان يمكنني أن أجعل مدرسيه يذاكرون له ويعطونه درجات عالية ولكنه لن يتعلم. عبدالله ابنك مستواه كالأساتذة. هكذا قال لي فؤاد باشا.
- ابني لا يزال تلميذا
- سأعطيه عشرة جنيهاات كل شهر وأطلب منك أن توافقني
- ابني لا يزال تلميذا يا عبدالجواد باشا
- وسأعطيك عشرة جنيهاات كل شهر

أخذت أمي تفكر. كدت أصرخ من لذة الفرحة. إليّ هذا الأمر يثق عبدالجواد باشا بقدراتي؟ الحمد لله. ستتحسن أحوالنا. أرجوك يا أمي. وافقي. كتمت فرحتي التي تزايدت بنظراتي المتعطشة إليّ عيون سارتي. كانت تنظر إليّ بكل فخر ولأول مرة أقرأ في عينيها شيئا آخر غير الإعجاب.

عيناها الرائعتان تنظران إليّ. تود أن تقول لي كلاما كثيرا أود أن أقوله لها. رأيتهما تقترب مني وتلامس أطراف أصابعي خفية. تأكدت أن أحدا لا يراها. لمستها للحظة ثم ابتعدت. لكم أحببت هذه اللمسات ولكم انتظرتها!! وجهها الأبيض الرائق المشرب بحمرة المراهقة الرائعة التي تخطو ويثدا نحوها لتكون أنثى ناضجة مكتملة الأنوثة. نظرت إليّ صدرها الصغير الذي بدأ في الاستدارة. وددت لو أخذتها في أحضاني وصرخت فرحا بها في يومي السعيد هذا. أحببتها بكل ما فيها. أحببتها وتمنيت أن تكون لي ومعى طيلة العمر. هاهي ذي تفخر بي وتكون بجواري في يوم من أسعد أيام العمر.

قطع كل تخيلاتني صوت عبدالجواد باشا الخربوطلي وهو يجلس متحسرا علي الكرسي الوحيد لدينا. قال لأمي:

— أرجوك أن توافقي يا أم عبدالله. ليس لي في هذه الدنيا سوي هذا الولد. أدهم هو كل ما خرجت به من الدنيا. الولد مستواه ضعيف ولكن لي أمل في أن يتم تعليمه. صدقيني لدينا المال والمكانة ولكنني أحب أن يتعلم الولد.

كان علي أن أتدخل. ربتت علي كتف عبدالجواد باشا وقلت له:

— لا يهملك يا عمو عبدالجواد باشا. إن شاء الله سينجح ولن يرسب ثانية. دع هذا علي الله ثم علي.

— ألن تضربه ثانية؟

— أبدا سيصير مثل أخي تماما

— وستعلمه يا عبدالله؟

— سأذاكر معه كل يوم

— وأنا سأجعلك تذهب معه إلي النادي. ستكون ابني مثله تماما

— شكرا يا عمو عبدالجواد باشا

احتضنني بحنان بالغ. سلمت علي أدهم. ستبدأ مرحلة جديدة من العلاقة بيننا. سأذاكر له ولكنني لن أسمح له أبدا بأن ينظر إلي سارتي ولن أسمح له أن يقترب منها. لقد صرنا نحن الثلاثة في السنة الثانية من المرحلة الإعدادية بعد رسوبه. لقد تحسنت حالتنا كثيرا بعد زيارة عبدالجواد باشا لنا. لقد عملت مدرسا منذ زمن بعيد. نجح أدهم ولم يرسب في أي سنة بعدها. تحسنت علاقتي به كثيرا ولكنني كنت أشعر بنظراته لسارتي وكأنها سهام يصبها إلي قلبي. لا أدري لماذا كنت أتذكر كل هذه الأحداث الليلة قبل أن أنام وأنا علي فراشي؟

دخلت أمي الحجرة علي بكوب اللبن الدافئ. وقفت وأخذت منها كوب اللبن. بدا أن أمي لديها الكثير تود أن تخبرني به. أنا أعرف أمي جيدا. لديها ما تريد أن توضحه لي. اقتربت مني. اعتدلت علي سريري ثم أجلستها بجواري. كانت تفكر كعادتها وكنت أنتظر أن تبدأ بالكلام ولكنني انتظرت حتي تبدأ كلامها. فكرت فيما يمكن أن تقوله. ساد الصمت بيننا لحظات.

بادرتني أمي قائلة :

— ذهبت اليوم إلي فيلا شكرية في مدينة العاشر من رمضان

— فيلا شكرية؟

— نعم فيلا شكرية المحامية خطيبتك

— ماما أرجوك أن تقولي كلاما معقولا

كنت أحس أن هناك أمرا تريد أن تخبرني به أمي. فيلا؟ يعني شكرية بنت ناس؟ طيب ما الذي يجبرها أن ترتبط برجل مثلي لا يكاد يجد ما يعيش عليه. أعرف أنها قوية الشخصية وأعرف أنها ميسورة الحال ولكني لم أكن أعلم ولم أفكر قط في أن يكون لديها فيلا. واصلت أمي كلامها بحماس :

— والله أتحدث معك بصدق. ذهبت اليوم إلي شقة شكرية في البيت الذي زرتة فيها معي وأخبرني أحد الجيران أن لديها فيلا بمدينة العاشر من رمضان وذهبت هناك وسألت عنها

— وكيف عرفت أنها فيلتها؟ وكيف عرفت الطريق يا أمي؟

— من يسأل يصل ولا يضل الطريق

— ولماذا أتت إلي منطقنا لتعيش فيها ولديها هذه الفيلا؟

— أنت يا عبدالله. أخبرت بعض جيرانها بأنها ستتزوج. سبحان الله

يا عبدالله. فيلا ضخمة مكتوب عليها فيلا شكرية صبري المحامية.

— سبحان الله وكانت ستتزوج بي أنا الفقير المسكين؟ الحمد لله.

ليس لنا أي حظ في هذه الحياة

— تتكلم وكأن غيابها لا يعينيك يا عبدالله

— ماذا أفعل يعني؟ هل أنكش شعري في الشوارع وأبحث عنها؟

هل أؤجر سيارة تقول شكرية تائهة يا أولاد الحلال أم أغني مع

عدوية عيلة تائهة يا ولاد الحلال؟

— هل تحب شكرية يا عبدالله؟

لم أعرف كيف أرد عليها. سؤال صعب. أحببتها أم لا؟ سؤال من أصعب الأسئلة التي يمكن أن توجه إلي رجل مثلي لم يكن له أمل في هذه الحياة إلا امرأة واحدة. وتزوجت وتركتني. لم أكن أعرف إلا أنني أتخبط حتي في أحضان كل من أحببني أو عرفتها. كل النساء صورة مشوهة ممسوخة من حبيبتي الوحيدة سارة. أري سارتي في كل موطن جمال

- لأية أنثى. سأرد عليك يا أمي. قلت لها وأنا غير متيقن من إجابتي :
- نعم أحببتها يا أمي. ألم تكن خطيبتى؟
- ابحث عنها
- أبحث عنها وسط ما يزيد عن تسعين مليوناً؟ إنها غنية وأنا رجل أعيش بالكاد. أريد أن أفهم. كيف تكون غنية وتعمل بمصنع الغاربه؟ لديها فيلا وتقبل أن تكون عاملة بمصنع الغاربه للمنسوجات؟
- ليست عاملة يا عبدالله ولكنها رئيسة قسم الشؤون القانونية
- آه. يعني لم أكن أصلح لها زوجاً يا أمي
- لا أقصد هذا. علينا أن نبليغ الشرطة يا عبدالله
- لن أبلغ الشرطة
- ستبلغ الشرطة. شكرية أحبتك ورضيت بك وطلبت الزواج منك وكانت تعلم جيداً ظروفك
- يا أمي لدي عمل غداً من الصباح. سيصير العمل من الثامنة بدلاً من التاسعة وسأرجع في السادسة بدلاً من الخامسة
- سأذهب لأبلغ الشرطة بغياب شكرية
- لن يفيد إبلاغنا الشرطة بأي شيء
- لماذا؟
- البلد في حالة ثورة يا أمي. الشرطة ليست متفرغة لمثل هذه الأمور البسيطة
- البسيطة؟
- أشعر أن هناك لغزاً كبيراً وراء شكرية يا أمي. الأغنياء لا يتزوجون سوى من الأغنياء
- سأذهب إلي قسم الشرطة يا ولدي
- سوف أذهب معك يا أمي
- لن أخبرها بأنني أعرف أن الضابط شديد له علاقة باختفائها. لن أصدع رأسها بما أعرف. سأريحها. أنت إذا مليونيرة يا شكرية؟ لماذا رضيت برجل تافه مثلي إذا؟
- أبلغنا الشرطة ثم صعدت أمي إلي شقتنا وبقيت مع محمد بسيوني وأنور حسان في المقهى. استمتعت بمتابعة اللعب بين الغريمين

التقليديين. عادت إلي حياتي من جديد أصوات النرد وموسيقى أم كلثوم لأغنية هجرتك يمكن أنسي هواك وأودع قلبك القاسي. صبي المقهي يجئ ويروح ويرفع صوته بطلبات الزبائن من قهوة وشاي وينسون. كانت أم كلثوم تشدو: «صعبان علي جفاك بعد اللي شفته في حبك. مش قادر انسي رضاك أيام ودادك وقربك. لكن اعمل ايه. .صعبان عليه انو اتمني قربك ونال مراده واتهنني بنعيم حبك. ورجعت تسقيه من صدك كاس الهجران. وتفوت عليه أيام بُعدك سهد وحرمان».

موقف أمني أشعل بداخلي نيران الحب من جديد. الحب الحقيقي الذي ملأ حياتي وأنارها بوجه سارتي. دائما ما كنت أري حبها بجواري. لم أستطع أن أتخيل حياتي بدون حبها حتي بعد أن تزوجت. كنت أثق أنها ستعود إلي من جديد. ستعود لأحضان حبي وستستمع لنغمات شوقي ونبضات مشاعري. كيف وقد رحلت؟ حتي عندما تمت خطبتي لشكرية لم أكن بعد قد قررت أن أخون حبي لسارتي. حتي عندما كنت أقبل حنان عزت السيد لم أكن إلا متخيلا نفسي في أحضان سارتي. كنت أنسحب من حياتي كلها لأحتمي بحب سارتي. عندما قبّلتني شكرية لم أشعر أن حبي لسارة قد دنسه أي شيء. هي خطيبتي أما أنت يا سارتي ففي قلبي ووجداني وفكري.

همت من جديد في عشقي لسارة علي نغمات موسيقى أم كلثوم. قطع سيل تيار ذكرياتي في أيام الحب الأولي اتصال مفاجئ. لا يوجد رقم علي هاتفي المحمول. فقط مكتوب «مكالمة». أول مرة يحدث لي مثل هذا الموقف.

توقعت أن يكون الرقم الذي به خمس ستات. رقم ستة مكرر خمس مرات. قررت ألا أرد. واصلت الاستماع إلي أم كلثوم والنظر إلي أنور حسان ومهارته في لعب الطاولة وبراعته الفائقة في رمي الزهر. فاز أنور حسان وعاد محمد بسيوني إلي حزنه وتشاؤمه. قال غاضبا:

— حظك يا أنور يا حسان حظ عوالم
رد عليه غريمه قائلا:

— قال الله ولا فالك. عينك يا محمد يا بسيوني. قل أعوذ برب الفلق
رن هاتفني من جديد. لا رقم مكتوب علي شاشة تليفوني. لن أرد.
ذكرتهم أن العمل غدا بالمصنع سيبدأ من الثامنة صباحا. انصرف كل
منا إلي بيته. رن هاتفني مرة ثالثة. قلبي مضطرب وأشعر بالخوف
من أن أرد.

أتاني صوته من بعيد يقول في أمر واضح:

— ارجع إلي قسم الشرطة واسحب بلاغك يا عبدالله يا مصري حالا
لقد حدث ما كنت أخشاه. إنه صوت الضابط شديد يتحدث
بعنجهيته المعروفة. كيف عرف بأمر بلاغي عن اختفاء خطيبتني.
إنها الحكومة. لكم أخاف من الحكومة ومن السياسة. لكم أخاف
الشرطة والبوليس. لو كان موجودا أمامي الآن لتفاخر بأنه يعرف
كل شيء حتي قبل أن يحدث. ضاع مستقبلي بسبب ضابط ولأنني
قلت لا. لقد كان ضابطا كبيرا وضاع مستقبلي بسببه عندما قلت له
لا. لقد كان نقيبا. أه تذكرت كان علي كتفه شارته وعليها ثلاث
نجوم. أمسكت الهاتف خشية أن يقع مني وقلت في شبه رجاء:

— والدتي هي التي طلبت مني أن نبليغ عن غياب خطيبتني

— وأنا أمرك أن تذهب إلي القسم وتسحب بلاغك فورا

— ستغضب أمي مني

— وإذا لم تذهب سأغضب أنا منك وأنت تعرف غضبنا. غضب
الضباط عواقبه وخيمة

— طيب هل ممكن أن أسحب بلاغي غدا؟

— اذهب الآن إلي قسم الشرطة وستجد ضابطا اسمه حسين سالم.

اسحب بلاغك فورا

— الصباح رباح يا باشا

— قلت لك الآن يعني الآن. مفهوم؟

غشيني الخوف من جديد. ساقني الخوف والفرع إلي قسم
الشرطة لأسحب بلاغي. نظرت إلي الضابط حسين سالم. أعرف
اسمه. إن الضابط شديد يعرف كل شيء. شعرت بالخوف وأحسست
بقلة الحيلة والعجز. كدت أبكي. نظر إلي الضابط وقال في صرامة:
— هل أنت متأكد من أنك تريد أن تسحب بلاغك؟

- نعم يا حضرة الضابط حسين باشا سالم
- أنت متأكد؟ أنت تعرف اسمي
- طبعاً يا افندم
- هل ضغط عليك أحد لسحب بلاغك؟
- لا يا باشا
- قل الحقيقة يا عبدالله
- الحقيقة لا. قصدي نعم

أحسست بنظراته تقتحم جسدي. أردت أن أصرخ وأردت أن أقول لا. البلد في حالة ثورة. الكل قال لا. لماذا أجبين أنا ولا أقول لا؟ لماذا لا أحطم قيود الخوف وسلاسل العجز؟ عُد إلي سالف أيامك وقل لا. قلها ولو لمرة واحدة في حياتك الآن يا عبدالله كما كنت تقولها من قبل. قلها وارفع رأسك. قلها وإن مت في سبيل لا هذه. قلها واذهب لأملك وابك علي صدرها. افعل شيئاً يرضيها الآن في حياتك. قلها. قل لا. مزق الورقة التي قدمتها لتسحب بلاغك. نظرات الضابط تتوسل إليك إلا تسحب بلاغك. ألم تكن شكرية خطيبة لك؟ أتبيع كل شيء من أجل تهديد الضابط. لا.

وأخيراً صرخت بها. أخيراً قتلتها وتحررت من خوفي. قطعت الورقة. مزقتها تماماً. لا. أنا متمسك ببلاغي. أين شكرية؟ أين خطيبتني؟ ابتسم الضابط لي. خرجت من قسم الشرطة سعيداً. عدت إلي أمي التي احتضنتني. أخبرتها وأنا أبكي. نمت علي صدرها. ربتت أمي علي ظهري بحنان وأخبرتني بأن ما فعلته هو عين الصواب. رن الهاتف من جديد. لا رقم علي شاشة هاتفي. أغلقت هاتفي في وجهه. رن كثيراً ولم أرد عليه. إلي متي سيكون هذا الخوف؟ متي سيزول عجزتي؟

رن الهاتف من جديد. إنه الرقم المميز. رقم الستة مكرر خمس مرات. لن أرد أيضاً علي هذا الرقم. لن أرد علي هاتفي الليلة. أنا سعيد بأنني قلت لا من جديد. سأعود إلي التمرد والرفض. نمت في سعادة غامرة وطردت بذور الخوف من داخلي. فليحدث ما يحدث. خرجت إلي باب الشقة وتأكدت من إغلاقه ووضعت خلفه بعض الكراسي ثم أعدتها إلي مكانها من جديد. البلد كلها في

حالة ثورة وأنا سأثور أيضا. لا. سأقولها بأعلى صوتي. لا يا شديد. الصباح سيأتي ولن يقتلني خوف أو يذلني ترهيب. فلأنم الليلة سعيدا لأنني قلت لا. قلتها في الماضي وسأردها كثيرا من جديد. لا وألف لا مهما تكون النتائج ومهما طرق الخوف أبوابي. لا. سأقولها صرخة مدوية من جديد. سأعاود عنادي وصراخي. ليست لا واحدة وإنما ألف لا ستنتقل من فمي وستنعكس علي سلوكي من جديد. لقد مللت الخوف وكرهت الجبن وسئمت العجز. لا يا حضرة الضابط شديد. سألتقيك غدا وستنتظرنني عند سارة العسكر. أعرف هذا جيدا وسأستعد لك ولها.

الحلقة الخامسة والأربعون

تغير مفاجئ

السخط والتبرم يقفزان من عيون جميع العاملين بالمصنع اليوم. صوت الآلات الحزين يتعالي ويشارك العمال ضيقهم وغضبهم الذي يغلي في صدورهم. تعمل الأيدي والآلات في حزن وأسى وكأنها تعزف نغمات ناي يتألم ويدمي حسرة دائمة وسخطا مستمرا. عدم الرضا يبدو علي الجميع إلا سادة الدوغري. كانت تبتسم في سعادة وكأنها الوحيدة الراضية بما يحدث لنا في هذا المصنع.

كانت تبتسم وتمضغ اللبان وتهز جسدها السمين الضخم تارة ذات اليمين وتارة ذات الشمال وكأن شيئا لم يحدث. يبدو أنها كانت تود أن ترقص. يبدو أنه لولا الحياء لهزت أردافها وصدرها الضخم الهائل. سمعتها تغني قائلة: «يا ما نعيمة نعمين خلي عليوة يكلمني». لن يكلمك عليوة أيتها الغبية. كيف يكلمك وأنت هكذا لا تشاركين الآخرين همومهم؟ بل كيف يكلمك وأنت ترسمين معالم وجهك وتحددينها بماكياج صارخ فاضح؟ بهلوانة كانت كما كنت أراها دائما من أثر الأصباغ التي تضعها علي وجهها. كيف سيكلمك أيتها السمينة الضخمة القصيرة التي تضيفي عليك أصباغك لمسات من السخرية؟ لن يقربك عليوة وسيصاب بالاشمئزاز عندما يراك. ألا تفهم هذه الغبية أن ساعات عملنا قد زادت بمقدار ساعتين وأن

هذه الزيادة لن نحصل علي أجر إضافي مقابلها؟ ألا تعرف أن هذا يعني مقدار جهد أكبر سنبدله بلا مقابل؟ أي استغلال هذا؟ كل هذا وتقول إنها حاصلة علي الدكتوراة من جامعة أكسفورد. تقصد جامعة إخص فورد. والله إنها لغبية. ألا تعلم مدي خطورة هذه الأصباغ علي بشرتها؟ إنها لا تساوي امرأة فلاحه جاهلة من وجهة نظري. إنها لا تعرف مصلحتها. أليست غبية أن ترانا جميعا في حزن وسخط ثم تضحك وتبتسم؟ كان من الأجدر أن تصمت أو أن تتجهم أو أن تشاركنا ما نحن فيه. يبدو أن هناك سرا لا نعرفه وراء ابتسامها.

نظرت إليها أحلام المطيري في غضب وحنق وكأنها ستنفجر أو ستجن بعد دقائق. ما هذا الظلم البين الذي نسكت عليه؟ أي اغتصاب لحقوقنا هذا الذي سنسكت عليه؟ كانت رجاء شوكت تعمل وكأنها قانعة بالظلم الذي يحيق بنا وكأنها مستسلمة تماما لقدرها. غابت في تفكيرها في مشاكلها مع زوجها علي ما أعتقد. نهاد كانت تطيل النظر إلي همام الحفناوي زوج المستقبل في إعجاب وود. كانت تنظر إليه لحظات ثم تنظر إلي في غضب وكأن نظراتها تقول: «ألم أكن أستحق أن أتزوجك أنت يا عبدالله بدلا من هذا الدرويش الذي طالت لحيته وأصبح شيخا وزهد الدنيا بما فيها ومن فيها؟» فهمت نظراتها جيدا وودت لو قلت لها: «أحمدي الله أنه رضي بك. لولا زهده وحيأؤه لرفض الزواج بك أيتها الحيزبون. أحمدي الله. أليس هذا أفضل من أن تظلي بلا زواج تتخطفك أجواء العنوسة وتحاصرک نظرات الناس بسؤالك عن سر عدم زواجك حتي الآن؟» إياد ناصر وماجد بحيري كانا ينفخان وكأنهما يتميزان من شدة الغيظ. ندا عبدالعليم كان في عالم آخر غير عالمنا الذي يعج بالغضب وعدم الرضا. كان ينظر في بعض أوراقه ويقلبها غير عابئ بسخطنا وغضبنا. هممت أحلام بأغنية رددتها علي استحياء. سمعتها في البداية ثم كررتها من بعدها بصوت مرتفع: «أخي جاوز الظالمون المدي فحق الجهاد وحق الفدا. أنتركهم يغضبون العروبة مجد الأبوة والسؤدد؟ وليسو بغير صليل السيوف يجيبون صوتا لنا أو صدي؟ فجرد حسامك من غمده فليس له بعد أن يغمد. أخي أيها العربي الأبوي أري اليوم موعدنا لا الغدا. فلسطين تحميك منا الصدور فإما الحياة وإما الردي»

آه. تبا لهذه الأيام التي تجعلنا نرضع الذل من ثدي الحياة ونرضي به!! تبا لهذه الأيام التي نأكل فيها العيش بالجبن ونكرع ماء المهانة ونتجرع آلام القهر!!

دخل علينا سيف غرس الدين متجهم الوجه. اعتدل ندا في جلسته وأغلق الملف الذي كان أمامه ووقف هاشا باشا مرحبا بمدير المصنع. سار سيف غرس الدين بضع خطوات وتفحصنا قليلا. بدا عليه القلق ثم صرخ بأعلي صوته موجهها كلامه لي ولأحلام:

— الغناء ممنوع أثناء العمل

هممت بأن أترك آلتى وأتجه إليه لألكمه. أحست أحلام برغبتى فاتجهت إليّ قبل أن أذهب إليه لأضربه وقالت لي في همس بعد أن أمسكت بيدي: «اهدأ يا عبدالله يا مصري»

دار حول العمال في المصنع وكأنه خبير حاذق ثم ابتسم في سخرية قائلا:

— أريد إنتاجا متميزا هذا الأسبوع. من المفترض أن يزيد إنتاج المصنع بمعدل عشرة في المائة.

هممت بأن أفتح فمي لأتكلم ولكنه قاطعني قائلا:

— إياك أن تتكلم يا عبدالله يا مصري. أنت لست زعيما وكل العمال في هذا المصنع راضون بما يحدث. من لا يعجبه يتفضل خارج المصنع. نحن لا نضرب أحدا منكم علي يده. من يعجبه العمل فليعمل ومن لا يعجبه العمل فليترك المصنع. باب المصنع كبير وضخم يفوت منه الجمل.

الغيظ والغضب يتزايد بداخلي وأود أن أقرب منه وأضربه في وجهه. أود أن أحطم نظارته ووجهه بقبضة يدي التي ستصاب بالشلل إذا لم أفعل شيئا. اتجه سيف غرس الدين تجاه همام الحفناوي. توقف عنده طويلا. نظر إليه في عدم رضا. أمسك بلحيته التي طالت وقال:

— من الغد تحلق لحيتك. نحن هنا في المصنع لن نسمح باللحي الطويلة. البلد لا ينقصها مشكلات مع الأمن والشرطة.

سكت همام ولم ينطق. اتجه سيف غرس الدين تجاه ندا وقال له:

— الأستاذة سارة العسكر ستصدر قرارا بعد اجتماع اليوم بموضوع اللحية والزي الرسمي للعمال وضرورة أن يتسم بالأناقة.

ما أن سمع ندا اسم سارة العسكر إلا وهب واقفا وكأن حية لدغته.

نظر إلينا في ابتسامته المعهودة وقال :

— أوامر ست الكل يجب أن تنفذ. الكل سامع؟

أوقفت آلي. نظر إليّ سيف غرس الدين في غضب ثم ضغط عليّ زر تشغيلها. ازدادت غضباً وأوقفت الآلة من جديد وأزحت يده بطريقة غير مهذبة حتي لا يشغلها ثانية. أحسست أنني سأموت إذا لم أتكلم وأصرخ. صرخت فيه قائلاً :

— اللحية والملبس من ألف باء الحرية الشخصية يا أستاذ سيف.

نظر إليّ غاضباً. لم يرد عليّ عندما رأي الشرر يتطاير من عينيّ. قال في هدوء ليمتص غضبي :

— ألف باء العمل في هذا المصنع أن ننفذ كل ما تأمر به صاحبة المصنع. لن أسمح لك يا عبدالله يا مصري بإثارة روح التمرد والثورة هنا في المصنع. مفهوم؟ لا ترد عليّ. وآخر مرة أقولها بأمر من الأستاذة سارة العسكر من لا يعجبه العمل في المصنع فليتركه ومع ألف سلامة.

كان الأمر يتطلب مني وقتها أن أبصق علي وجهه. كان يتطلب مني أن أترك المكان وأخرج. لا أدري لماذا أدت آلي. كيف سينتصر الحق إذا وأنا أول من أخذه؟ كيف قلت لا بالأمس وها أنا ذا أطأئي رأسي وأرضي بالذل والهوان. لن آخذ قراراً انفعالياً الآن. عليّ أن أهدأ أولاً. بدا علي وجه سيف غرس الدين السعادة. شعر بلذة الانتصار وأحس بالرضا عن نفسه. لقد أطفئت جذوة التمرد. لقد انكسرت رأس المعارضة من وجهة نظره. قلت وأنا أعمل بهدوء وأنظر إلي آلي :

— من الغد سأقدم بشكوي لوزارة العمل في هذا المصنع وإدارته

انطلق شرر الغضب من عيني سيف. قال لي محذراً :

— تعال إلي مكتبي في ساعة الغداء

يبدو أنه قرر أن يتجاهلني تماماً. لعله أيضاً أراد أن يسكتني تماماً. توجه إلي سادة الدوغري ثم ابتسم وقال لها :

— ألف مبروك يا سادة

يبدو أن سر ابتسامتها سينكشف لنا الآن. كانت تبتسم وتغني. منذ البداية أدركت أن هناك سرا في الأمر. نظر سيف إليّ ندا وقال له :

— الأستاذة سارة أصدرت قراراً بتعيين سادة الدوغري نائباً لرئيس

الوردية

نظر إلينا سيف غرس الدين في تعجب وقال :

— مالي لا أري تصفيقا وتهليلا؟

نظرت إليه في غضب وقررت ألا أتكلم. واصل سيف غرس الدين

كلامه قائلا :

— ألا تفرحون لزميلتكم؟ معقول؟ أريد تصفيقا وتهليلا منكم. إذا كنتم

لا تريدون التصفيق لزميلتكم فعليكم أن تصفقوا وتهللوا لقرار القيادة

الحكيمة والإدارة الرشيدة. هللو وصفقوا لقرار الأستاذة سارة العسكر

صفق ندا عبدالعليم أولا ثم تبعه بعض العمال حتي امتلأ العنبر

بالتصفيق. تهلل وجه سادة الدوغري ونظرت إليّ بنظرات تنم عن

التحدي. نظرت إليّ وكأنها تشفي غليلها مني. كأنها تشعر بالظفر.

ما تمنيت يوما أن أصير نائبا لرئيس الوردية. لقد كنت من قبل

رئيس أحد الورديات. بدت الغيرة علي وجه رجاء شوكت وكأنها

تتساءل لماذا لم تصبح هي نائبة لرئيس الوردية وقد عملت في المصنع

من قبلها.

اتجهت سادة الدوغري نحو سيف غرس الدين وشكرته وصافحته

وقالت :

— أنا أشكرك وأشكر الأستاذة سارة العسكر علي اختياري لهذا

المنصب. أشكر إدارة المصنع الحكيمة وقيادته الرشيدة المتمثلة في

شخص الأستاذة العظيمة سارة العسكر التي نحبها كلنا ونثق بأنها

ستعبر بنا إلي المستقبل لنصير أحسن مصنع في الشرق الأوسط كله.

أنا أحب الأستاذة سارة العسكر أكثر من حبي لأبي وأكثر من

حبي لأمي و.. ..

كانت تتكلم كالسفيهة. قيادة حكيمة وإدارة رشيدة؟ لا والله. قيادة

سفیهة وإدارة غبية متخلفة وعودة بنا إلي حكم الفرد وطفیان الفرعون.

تبا لك يا سارة العسكر ولمن ينافقونك.

واصلت العمل علي آلتی. وواصلت سادة نفاقها وكانت آخر كلماتها

شكرا للأستاذة سارة العسكر. انفجر العنبر بالتصفيق. الكل يصفق عدا

إياد ناصر وماجد بحيري والعبد لله. لمحنت وجه ندا يتهلل. لا

أعرف لماذا. واصلت عملي.

فجأة ساد الصمت. نظرت أمامي فوجدتها. إنها تقف أمامي تماماً. سارة العسكر. إنها هي. لقد شممت رائحتها قبل أن أراها. إنها تقف أمامي في أزهي صورة وأبهي طلة. خمنت أنني أحلم. ليس حلماً بل حقيقة. إنها سارة العسكر واقفة أمامي بشحمها ولحمها. إنها هي. لقد كانت في أجمل صورة رأيتهما فيها. إنها تبسم لي وتظهر أسنانها اللامعة البيضاء وفتنتها الرائعة. إنها هي بوجنتيها اللتين يشع منهما الجمال فتتجلى فتنتها وتبرز أنوثتها. اقتربت مني وابتسمت قائلة :

— الوحيد الذي يعمل في صمت. الوحيد الذي يحب المصنع ويشعر بروح الولاء له. الوحيد الذي يعمل أكثر مما يتكلم. اسمحوا لي أن أحيي هذا الرجل. اسمحوا لي أن أشكر عبدالله المصري علي تفانيه في عمله وحبهِ الشديد للمصنع بما فيه من إدارة ومبان وآلات. تصفيق حاد هز أركان العنبر. لقد أصبْتُ بالذهول من هذا الثناء عليّ. لا أدري لماذا هذا الثناء. وقف ندا عبدالعليم واتجه نحوي وصافح سارة العسكر. دقائق ودخل أحد سعاة مكتب سارة العسكر بتورته هائلة مكونة من عدة طوابق. صفقت سادة الدوغري وصفق معظم عمال العنبر. صاحت سادة الدوغري قائلة :

— اليوم عيد ميلاد أحب الناس إلي قلبي. اليوم عيد ميلاد الأستاذة سارة العسكر. نشكرها شكراً جزيلاً فهي رمز الإدارة الحكيمة والقيادة الرشيدة. لقد قررت أن تتواضع وأن تحضر احتفالنا بعيد ميلادها الميمون. الأستاذة سارة العسكر قامة اقتصادية عالية وستجلب الخير لا لبلدنا فحسب وإنما للعالم العربي كله بل وللعالم كله. أشعر أنني في حلم. توقفت الآلات عن العمل. أطفئت الشموع وازدانت الوجوه بالسعادة. أين نظرات التجهّم والغضب والسخط لزيادة ساعات العمل بلا مقابل؟ أينسي الناس بهذه السرعة؟ معقول؟ الناس في هذا المصنع يبدو أنهم ينسون. يبدو أنهم يغيبون عن الوعي. يبدو أنهم يسировون خلف كل من ينسيهم آلامهم ومشكلاتهم وهمومهم. الناس هنا الآن يصفقون ويتناسون. إنهم في الأحري يتغافلون ويجبرون علي النسيان. يبدو أنهم يؤسوا من أن تشعل فيهم روح الثورة والتمرد من جديد.

ساعتان من العمل بلا مقابل. كيف ينسي العمال بهذه السرعة. أنظر لماجد بحيري وأتعجب ويرد ماجد بنظراته المتعجبة. أين حقوقنا يا سارة؟ لن ننسي بهذه الاحتفالية.

أكل العمال في عنبرنا وشربوا. يبدو أنهم قد نسوا حقوقهم المغتصبة. من لك أيها الحق؟ أتى عبدالله البندري يحمل هدية في يده المرتعشة كان يسير في بطء وهدوء ويخشى أن تقع هديته. قدم الهدية لسارة العسكر. أمسكتها وأعطتها لندا أراد أن يقبل سارة العسكر علي جبينها ولكنها ابتعدت عنه. اقترب منها وهمس في أذنها. تغيرت تعبيرات وجهها تماما ثم قبلته عندما أخرج من جيبيه علبة قطيفة فتحها وأخرج منها عقدا من الألماس الحر. إنه يبرق والعمال يصفقون ويصفرون. أي جو أسطوري هذا الذي أعيش فيه الآن!!

لفت سادة الدوغري إيشاربا حول خصرها وأخذت تتمايل وترقص. كانت تهز عجيزتها ونهديها بشكل مقزز. كانت تهز وسطها وتتمايل بشكل مثير للاشمئزاز. صفقت لها رجاء شوكت وحثتها علي الرقص بطريقة أكثر جرأة. تحمست رجاء ونزلت ساحة الرقص وأمتعت الحاضرين بجمال حركات جسدها اللدن الطري. لقد كانت رجاء أكثر براعة ومهارة بكثير من سادة في الرقص. إن رجاء أشد فتنة وأكثر جمالا. يبدو أن سادة غضبت لتزايد تصفيق العمال في المصنع لرجاء. أيقنت سادة أن رجاء أجمل منها وأشد فتنة وحلاوة ومهارة في الرقص. بدأت سادة تكشف عن صدرها أكثر وبدأت تكشف عن ساقها. صار التنافس بينهما في الرقص علي أشده. ملأ التصفيق والصفير والغناء أركان العنبر. سال لعاب عبدالله البندري ونزل علي ركبتيه وأخذ يحاول أن يعري جسد رجاء أحيانا وجسد سادة بعينيهِ أحيانا أخرى. أوقفته سارة العسكر في استنكار ولكنه ابتعد عنها وقال: «دعينا نحتفل بعيد ميلادك يا أحب الناس إلي قلبي». وسط كل هذا الصخب لم يغير ندا عبدالعليم بسمته ولم يدر عينيه قط عن سارة العسكر. كان دائم النظر إليها حيثما حلت وحيثما ذهبت. انتحيت جانبا وكذلك فعل ماجد بحيري وإياد ناصر. تبعتنا أحلام المطيري وهي تتأفف من كل ما تراه. أخذ همام الحفناوي يستغفر ويبسمل ويحوقل بصوت مرتفع جدا. أحيانا كان يغلق عينيه

حتي لا يري شيئاً. قالت له نهاد: «فكها بقي يا شيخ همام». اتجهت نهاد نحو ساحة الرقص ولكنها ابتعدت وتراجعت عندما لم تجد في نفسها القدرة علي منافسة رجاء شوكت التي اشرأبت لها جميع الرؤوس واتجهت إليها جميع الأنظار. إنها ليست خليقة بمنافسة تعلم مسبقاً أنها ستخسر فيها. إنها تعلم أنها نحيفة وأنها غير جميلة علي الإطلاق. انسحبت من ساحة الرقص وعادت إلي همام قائلة في تأفف: «بلا رقص بلا سفالة بلا قلة أدب». وما هي إلا لحظات حتي تحول الوضع تماماً. كف التصفيق والغناء والرقص. أتى أحد السعاة بفاكس إلي الأستاذة سارة العسكر. نظرت إلينا قائلة:

— هيا إلي العمل. ستدار الآلات من جديد.
بدا القلق علي وجه سارة العسكر. سألتها سادة الدوغري عن سبب قلقها. أعطتها سارة الفاكس. نظرت فيه سادة. ارتبكت في البداية ثم سككت.

هدأ الجو تماماً وساد الصمت بين كل الحاضرين. لا يمكننا أن نسمع سوي صوت الآلات التي تدور وتعمل صامتة.
قالت سارة العسكر موجهة حديثها إلي سادة الدوغري:

— ما الذي في الفاكس يا سادة؟
— كلام يا أستاذة سارة
— ما الذي يقوله الفاكس يا سادة يا دوغري
— أصل.. أصل..
— بلا أصل بلا فصل. هل هناك مصيبة في هذا الفاكس يا سادة؟
— بصراحة.. في الحقيقة..

أصابتنا الدهشة جميعاً. يبدو أن الفاكس به أمر خطير ومصيبة فادحة ولا تريد سادة الدوغري أن تخبر به الأستاذة سارة العسكر. هكذا خمنت في البداية ولكن يبدو أن تخميني كان ليس في محله. يبدو أن الأمر كان مختلفاً.

— ردي علي يا سادة. هل هناك مصيبة ستحل علي رأسي؟ أرجوك أبلغيني بما في هذا الفاكس
— يا أستاذة سارة أصل.. أنا في الحقيقة..

- اصدمني وأخبريني بما في هذا الفاكس. لا يهملك. سأمسك أعصابي.
أعدك أن أتحمل أية صدمة
- المشكلة يا أستاذة سارة أنه. ..
- تسمرت سادة الدوغري مكانها وبكت. نزلت دموعها علي وجنتيها
فأفسدت دمعاتها الأصباغ التي كانت تتفنن في وضعها علي وجهها. زالت
أيضا الألوان الخضراء والزرقاء والفضية التي كانت تضعها علي وجهها.
- أنه ماذا يا سادة يا دوغري؟
- أنه مكتوب باللغة الإنجليزية
- أنت خريجة مدارس لغات ومعك الدكتوراة من جامعة أكسفورد
ويمكنك قراءة الفاكس
- أنا لا أستطيع قراءة هذا الفاكس
بلغ الغضب من سارة العسكر مداه وصاحت فيها قائلة:
- أكنت تكذبين علينا يا سادة؟
- للأسف يا أستاذة سارة أنا خريجة دبلوم تجارة
وتكذبين عليّ وتزعمين أنك خريجة مدارس لغات وأنتك حاصلة
علي دكتوراة من جامعة أكسفورد؟
- اتجهت سارة العسكر نحوي وريقت علي كتفي. وقالت:
- لا يوجد سوي الأستاذ عبدالله المصري. أخبرنا ما بهذا الفاكس يا
من كنت معيدا بكلية الآداب بقسم اللغة الإنجليزية جامعة القاهرة
اتجهت جميع الأنظار إليّ. سعدتُ بنفسي أيما سعادة. نظرت
إلي سادة الدوغري وشعرت حقا بلذة الانتصار. أنت إذا جاهلة يا
سادة يا دوغري. أنت أيضا جاهلة يا سارة العسكر. أمسكت الفاكس
وقرأته بهدوء وقلت مبتسما:
- لا شئ يقلق. كل الأمور علي ما يرام. يا أستاذة سارة العسكر
يجب علي حضرتك السفر إلي بريطانيا الأسبوع القادم يوم الثلاثاء
لتوقيع عقد استلام الماكينات الحديثة للمصنع.
- نظر إليها عبدالله البندري في غضب وقال:
- كنت هناك يا سارة منذ قرابة الشهر وأبلغتني أنك توقعين عقد
استلام الماكينات
- يجب عليّ أن أتصرف وبسرعة. توجهت إلي عبدالله البندري

الرئيس الأعلى للمصنع وقلت له :

— الفاكس يبين أن هناك بعض الشروط الخاصة التي تمت إضافتها ويجب علي الأستاذة سارة أن توقع علي عقد جديد بالشروط الجديدة.

نظرت إلي سارة العسكر برضا وإعجاب ثم ابتسمت لي. أخذت الفاكس من يدي وقالت :

— مكانك ليس هنا مع العمال يا أستاذ عبدالله يا مصري. مكانك معي في مكتبي.

رأيت نظرات السعادة في عيون كل من ماجد بحيري وإياد ناصر وهمام الحفناوي وأحلام المطيري. كانت سادة الدوغري لا تزال تبكي. لقد انكشف كذبها. خرجت سارة العسكر مع زوجها وقالت لي :

— أمامك نصف ساعة لتلحق بي علي مكتبي. لن يكون مكانك في هذا العنبر بعد اليوم.

اتجهت نحو سيف غرس الدين قائلة :

— عليك بالغاء قرار تعيين سادة كنانب لرئيس الوردية.

نظرت في غضب إلي سادة الدوغري ثم غادرت العنبر وهي تنظر إلي بفخر وإعجاب.

كنت أألمم أشيائي. اتجهت إلي زملائي في العنبر وشكرتهم جميعا. اتجهت إلي أحلام التي أخذت تغني بصوت مرتفع : «أخي جاوز الظالمون المدي فحق الجهاد وحق الفدا»

ابتسمت إليها وابتسمت للجميع. احتضنت ماجد بحيري وإياد ناصر وقلت لهم :

— اطمئنوا لن أبيع القضية. أنا معكم ولكم وبكم.

نظرت إلي أحلام المطيري فوجدتها لا زالت تردد : «أخي جاوز الظالمون المدي فحق الجهاد وحق الفدا». نظرت إليها في إعجاب وخرجت وأنا أردد في نفسي : «أنتركهم يغصبون العروبة مجد الأبوة والسؤدد؟ وليسو بغير صليل السيوف يجيبون صوتا لنا أو صدي؟ فجرد حسامك من غمده فليس له بعد أن يغمد. أخي أيها العربي الأبوي أري اليوم موعدنا لا الغدا. فلسطين تحميك منا الصدور فإما الحياة وإما الردي».

الحلقة السادسة والأربعون

كلنا في الهم سواء

ألقي محمد بسيوني النرد في الطاولة بقوة وهو في قمة اليأس. كان يتمني أن يأتي بالدش ولكنه فشل وأصابه حزن هائل عندما قرأ الرقمين واحد واثنان علي نرده عندما استقرت حبتي الزهر في أحد جوانب الطاولة. تهلل وجه أنور حسان الذي قال في استهزاء بمنافسه مع فخر بنفسه وسعادة بالغة بانتصاره علي غريمه التقليدي:

- دو يك وتأتي لتلاعبني وأنا أستاذ الأساتذة ومعلم الأجيال في الطاولة؟ لقد خسرت العشرة يا محمد يا بسيوني. عليك أن تذهب وتتدرب من جديد. يبدو أن أمامك عشرات السنوات حتي تغلبني. دو يك؟ سبحان الله. سأقول لك شيئاً أفضل من هذا. سأقبلك طالبا في مدرستي التي سأفتتحها لتعليم الطاولة. سأفتح المدرسة من الغد وسأجعل عبدالله المصري مساعدا لي ليعلمك ويعلم الطلاب الجدد العد ويعلمهم رمي الزهر في الطاولة. سأطلب من تلميذي وتلميذك عبدالله المصري أن يغلبك

أشار إليّ وترك مكانه لي. أمسكت بالزهر وبدأ أنني سأكسب العشرة فلقد كان محمد بسيوني في قمة يأسه. كانت ليلة حظي. كانت أم كلثوم تشدو بأغنيتها الرائعة أقبل الليل يا حبيبي. كانت تغني قائلة: «أنا طير رنان في دنيا الأحلام. أنا زهر بسام في صفو الأيام. كنت وحدي بين أوهامي وأطياف المنى والتقيننا فبدا لي يا حبيبي من أنا وأين أنا». كنت أغني معها وأدندن بكلماتها وأتخيل حبيبتي سارة وهي التي تقول لي هذه الكلمات.

كنت أرمي الزهر بكل ثقة بأنني سأغلب محمد بسيوني. لقد أفلتت أعصابه تماما. أكثر من مرة لمحتة ينقل أوراقه بطريقة خاطئة. كنت أتمايل وأنا أرمي النرد وأغني مع أم كلثوم: «أنا قلب خفاق في دنيا الأشواق. أنا روح هيمان في وادي الأشجان. تاه فكري بين أوهامي وأطياف المنى لست أدري يا حبيبي من أنا أين أنا». فجأة تذكرت قفشات محمد بسيوني وأردت أن أكون قفاشا مثله كما أردت أن أبين له أنني سأصير عبقريا في هذه المجال فسألته:

- أين قفشاتك يا ريس؟
- بلا قفشات بلا قرف. الزهر يعاندني
- أنا أعرف لماذا يعاندك يا زعيم
- لماذا يا فالح؟
- لأنك مشغول
- مشغول بماذا يا فصيح عصرك وأوانك
- لأنك مشغول بالبحث
- البحث عن من؟
- عن فكري
- من فكري؟
- ابن عمك
- ابن عمي من؟
- ابن عمك فكري. ألا تذكر أنك قلت عندما كانت أم كلثوم تغني :
- حبك يا حبيبتي ملا قلبي وفكري. وقتها قلت لنا أن أم كلثوم
- تعرف ابن عمي فكري
- وما علاقة هذا بما نحن فيه الآن؟
- نغلبك الآن لأنك مشغول بالبحث عن فكري ابن عمك الذي تاه
- لأن أم كلثوم تغني الآن وتقول تاه فكري بين أوهامي وأطياف المني.
- أنا فهمت أنت الآن تبحث عن فكري ابن عمك التائه. ها ها ها
- أخذنا نضحك جميعا. لقد صرت قفاشا مثلك يا محمد يا بسيوني.
- ضحك حتي دمعت عيناه. قال لي في إحساس شديد بالقهر وبالأسى :
- أتدري أنني قبل أن أعمل في مصنع سارة العسكر كنت أعمل
- مدرسا للرياضيات؟
- معقول؟
- آه. كنت أفضل أستاذ في الرياضيات. كنت أعلم تلاميذي بطريقة
- رائعة. كنت أحبهم. علمتهم الهندسة الفراغية وحساب المثلثات
- بالأغاني. كل جبار ظالم جاءته داهية. هذا وأنا أعلمهم جيب
- الزاوية وتمام الزاوية. وفصلوني
- من الذي فصلك؟
- الذين سينتقم الله منهم. أمن الدولة. الله يخرب بيتهم كما خربوا

بيتي. عيون الدولة وجواسيسها. الله ينتقم منك يا مبارك. وشوا بي ثم اعتقلوني وكتبوا أنني أتحدث في السياسة وأنتقد مبارك. اعتبروا أن كل جبار ظالم جاءته داهية محاولة مني لإثارة الطلاب علي مبارك وأحالوني للتحقيق وتم تحويلي إلي مدرس إداري. لم أقبل بوظيفة مدرس إداري فاستقلت وصرت كما تراني عاملا في مصنع سارة العسكر. هذا أشرف لي من أن أعمل لدي دولة ظالمة. دولة مبارك الظالمة الهشة.

— لو سمحت لا تنتقد الرئيس مبارك لأنني أحبه. الرئيس مبارك كان ديموقراطيا وأول من فتح للناس باب الحديث في السياسة وسمح بانتقاده. الرئيس مبارك لم يقصف قلما ولم يمنع فكرا. ألم تكن تقرأ جرائد المعارضة التي تنتقده. الرئيس مبارك عندما تولي الحكم أخرج كل من كان مسجوناً في قضايا الرأي. أخرج هيكمل وكل من كان السادات الظالم قد حبسه من قبل. أنا أحب الرئيس مبارك. تحب ظالما طاغية. الله ينتقم منك يا مبارك

— لا تتكلم في السياسة الحيطان لها أذان. الرئيس مبارك علمنا الاستقرار ولم يزعج بنا في أية حرب. الرئيس مبارك بني البنية التحتية لمصر. بصراحة أنا أحب الرئيس مبارك

— لقد تخلصنا من ظلمه ومن فساد. الله أكبر وتحيا ثورة الخامس والعشرين من يناير. خلعنا مبارك وأسقطنا النظام مبارك لم يخلع ولم يسقط نظامه. لقد تخلي عن إدارة البلاد للجيش وسيرجع ثانية إن شاء الله وسيعود نظامه. لا حاجة بنا إلي الكلام في السياسة التي ستغضبنا من بعضنا.

ساد بيننا الصمت لحظات كنت أفكر فيها. هل أقول له ما حل بي؟ هل أحكي له ما حدث لي؟ لن أحكي لهما ولن أنكد عليهما الليلة بسببي. أنا أيضا كنت معيدا في الجامعة وفصلني نظام السادات. كنت سأكون دكتورا وأستاذاً في جامعة القاهرة. تم فصلني بسبب السياسة اللعينة. أنا أكره الرئيس السادات. كرهته لأنه أضاع مستقبلتي بعد أن كدت أن أقرب من تحقيق حلمي. كنت قاب قوسين أو أدنى من تحقيق أمني. لقد عينت معيدا بالفعل ولكن تم فصلني بعد عام واحد من تعييني. عليّ أن أتقبل غضبه علي مبارك لأنه فصل

أيضا بسببه. لماذا أنكر عليه كراهيته لمبارك وأنا أكره السادات لأنه السبب في ضياع مستقبلي؟

سقطت دمة من عيني رغما عني. حاول أنور حسان أن يعيدنا إلي جو الطاولة وإلي جو المرح فقال لي آمرا:

— أجهز عليه واهزمه شر هزيمة. دعنا ننتهي من هذه العشرة. هيا يا تلميذي أيها النابغة

أخذت الزهر ورميته. إنه الدش. لقد خسر محمد بسيوني العشرة وأغلق الطاولة حزنا وهما. كانت أم كلثوم تشدو وتقول: «أواه يا ليل». طرأ في ذهني أن أخرج من همومي وأضحك كلا رفيقي. قررت أن أعمل قفشة جديدة فقلت موجهها كلامي لمحمد بسيوني الذي كست ملامح وجهه سحابة من الهم:

— كنت إذا تعمل مدرسا للرياضيات

— آه يا عبدالله يا مصري

— إذا لن تعجبك أغنية أقبل الليل لأم كلثوم

— لماذا إذا يا فصيح؟ لماذا إذا يا بليغ؟

— أتقصد بليغ حمدي؟ هاهاها. هذه قفشة ثانية. وإليك القفشة الثالثة الليلة يا محمد بيه بسيوني لن تعجبك الأغنية لأنك ستقرأ بعض كلماتها بطريقة غير صحيحة

— ماذا تقصد؟

— ستقرأ «أواه يا ليل» كآلتي: واحد وخمسين وواحد من عشرة يا ليل لأنك مدرس للرياضيات.

قهقهه محمد بسيوني وقهقهه أنور حسان وكأنهما يعترفان بأنني بالفعل صرت قفاشا مثل محمد بسيوني. رأيت الألم يعتصر محمد بسيوني فسألته عن السبب فأخبرني أن سارة العسكر سببت له جرحا كبيرا اليوم. قلت له ضاحكا:

— اليوم كان عيد ميلاده

— آه كان عيد ميلاد هذه السفينة. قال قيادة حكيمة وإدارة رشيدة قال وعبور للمستقبل؟

— ماذا فعلت بك يا محمد يا بسيوني؟

— لقد عينت مظهر النخيلي رئيسا للوردية التي أعمل بها؟

- معقول؟ مظهر النخيلي؟ إنه أبله تقريبا. يا الله!! معقول؟
- آه. أعجبها شعره الفاحم السواد المصفف الناعم
- إنه أبله ولا يعرف أن يتكلم كلمتين علي بعضهما البعض. لقد رأيته معكما. إنه أعرج تقريبا ويثير الشفقة والسخرية لدي كل من يراه. إن علامات البلادة والبلاهة وسوء التفكير تبدو علي وجهه
- هذه هي القيادة الحكيمة والإدارة الرشيدة يا سيدي
- أنا لا أكاد أصدق
- لقد صدر القرار بالفعل ووقعت عليه بالعلم. الغيبة عينتني أنا محمد بسيوني تعينني نائبا لرئيس الوردية!! تخيل!! أنا محمد بسيوني عينتني نائبا لمظهر النخيلي. هذا الولد العبيط الأبله. هذا الأعرج. يبدو أن شعره أعجبها. أعجبها شعره المسبب وقصة شعره. عشنا وشفنا. آخر الزمان فعلا. لقد كان يمد يده لي وأعطيه الجنيه والعشرة جنيهات وقد كان لا يعرف الفرق بينهما. كيف يصير هذا رئيسا لي في العمل. أنا الذي استقبلته وعلمته ألف باء العمل في العنبر. أنا أستاذة الذي علمته كيف يشغل الآلة وكيف يقف عليها وكيف يتعامل معها عندما تتعطل. كان بليدا لا يفهم. لقد كان أحد صبياني. لقد علمته كل شئ وتأتي سارة العسكر في النهاية وتعينه رئيسا لي؟ تأتي بعيل من عمر أولادي وتعينه رئيسا علي؟ ماذا أقول له؟ هل أقول له إنه يبدو مغتاظا لأنه كان يتوقع أن يعين هو رئيسا للوردية. أردت أن أدافع عن قرار سارة العسكر فقلت له في هدوء وكأنني أود أن أقرأ ما بداخله:
- يبدو أنها عينته رئيس الوردية تعويضا له عما حل لوالده الذي بترت يده وكنوع من العرفان بالجميل لوالده
- لا. إنها امرأة غبية. إنها مثل مبارك تماما. كان يعين الأضعف والأقل فهما حتي يسيطر علي الدولة. كان يعين ثلة من الأغبياء الضعاف ليتسني له السيطرة علي مفاصل الدولة
- تذكر أنني أحب مبارك
- يا سيدي أحبه كما تشاء. كيف يكون مظهر النخيلي الأبله العبيط رئيسا لي؟
- والله هذا مصنعها وهذا قرارها. قد ترجع في قرارها. كانت الأستاذة

سارة العسكر قد أصدرت قرارا بتعيين سادة الدوغري في عنبرنا
نأبة لرئيس الوردية ثم ألغته

— والله عال يا عبدالله يا مصري. تقول الأستاذة سارة العسكر وتدافع
عن قراراتها!! آه. سيرتك فاحت في المصنع كله. عرفنا جميعا
ما حدث في المصنع وعرفنا أنك قرأت الفاكس لها ولقد استدعتك
إلي مكتبها. يبدو أنك ستبيع القضية وستكون من رجالها.
حاول أنور حسان التدخل بيننا. كان أسمر اللون جميل الملامح هادئ
الطباع. أراد أن يلطف حدة الجو بيننا وأن يهدئ من طريقة نقاشنا. قال
مبتسما إن هذا مصنعها ومن حقها أن تفعل فيه ما تشاء. دعا محمد
بسيوني للنزال في عشرة جديدة ولكن محمد بسيوني رفض متعللا بسوء
حظه كما تعلل بأن المقهي الذي نجلس فيه صار ضده وانه يريد أرضا
جديدة تلعب لصالحه. تعلل أيضا بحظه النحس بهذا المقهي فعرضت
عليهما فكرة جديدة. عرضت عليهما الذهاب إلي قهوة المعلم حمدتو
والتي تبتعد عن مقهانا هذا خمسة دقائق سيرا علي الأقدام. لعلها
تكون وجه السعد عليه. ستكون أيضا فرصة لي لألتقي بالمعلم حمدتو.
راقت الفكرة لهما كما راقت لي. ونحن بالطريق سألت أنور
حسان قائلا:

— وماذا كنت تشغل قبل أن تعمل في مصنع سارة العسكر؟
نظر لي مبتسما. ظهرت أسنانه البيضاء في ابتسامته الرائعة كنجوم
مضيئة في ليلتنا هذه بعد أن افتر ثغره عن بسملة لطيفة. كانت عيناه
تلمعان ببريق الذكاء فتضفي علي بشرته السمراء جمالا ورقة. لكنني
محمد بسيوني بكوعه وقال لي:

— لا تقلب عليه المواجه
خمنت انه قد يكون غير متعلم. كذب حدسي. لقد كان يعمل
معلما للمواد الاجتماعية في إحدى المدارس الابتدائية واستقال منها.
لقد حكى قصته لنا كاملة. كان محمد بسيوني يعرف القصة أما أنا
فكنت أستمع إليها لأول مرة.

كان يشرب الشاي ويطل النظر إلي ملامحي وأنا أستمع إليه. لقد ترك
التدريس للأطفال علي الرغم من أنه كان حلم حياته. كانت أمنيته أن يصير
مدرسا للتاريخ والجغرافيا. كان يشعر أن الطلاب زهور عمره وورود حياته.

ارتفع صوت المعلم حمدتو وهو يطلب لنا ما نشربه. كان بين الحين والآخر يرفع عقيرته مرحبا بنا. كان يؤكد دائما أن الشاي والقهوة والقرفة والزنجبيل علي حسابه. كان دوما يقول: «وكله علي حساب المعلم حمدتو. أهلا وسهلا بعبدا لله المصري وضيوفه».

رفض أنور حسان نقله إلي أسوان. كيف يترك أسرته في القاهرة وينفذ قرار الإدارة التعليمية بالعمل في إحدى المدارس بأسوان؟ لقد كانت مديرة المدرسة تتحرش به دوما. كانت تريده أن يتزوج بها ولكنه دائما ما كان يرفض. قلت له متعجبا:

— عيني عليك يا أنور يا حسان يا محطم قلوب العذاري ويا قاهر أفئدة البنات

— بلا بنات بلا خيبة. كانت امرأة عجوز تخطت الخمسين ولم أكن تخطيت الخامسة والثلاثين وقتها

— كنت اسمع كلامها وتزوجها واكسب فيها ثوبا

— كنت سأكسب فيها إثما لو تزوجتها. ماذا أفعل مع زوجتي وأولادي؟

فجأة ارتفع صوت أنور حسان وأخذ يلعن نظام حسني مبارك. نظام غبي. كيف أعيش في القاهرة وبسبب مديرة المدرسة وبسبب رفضي للزواج منها يضيع مستقبلي. نظام غبي. الفساد كان يملأ كل مؤسسات البلد. الله يخرب بيتك يا مبارك. طيب لو كنت وافقت وتم النقل كيف كنت سأعيش بعيدا عن أسرتي؟ كيف كنت سأعيش بمرتب الحكومة الهزيل؟ ألم يكن مبارك يعلم مدي تدني رواتب المعلمين؟ لا حول ولا قوة إلا بالله. أضعت البلاد والعباد يا مبارك.

ما الذي يمكنني أن أفعله وقد وقعت بين شقي الرحي؟ كل منهما يكره مبارك. أنا الوحيد الذي أحب الرئيس مبارك وسطهما. نظر محمد بسيوني إلي أنور حسان وقال له وهو يغمز بعينه اليسري: «لا تنس أن عبدا لله المصري يحب الرئيس مبارك».. نعم أحبه. لقد قاسيت في أيام السادات ما لم يتحملة بشر. أيام مبارك كانت أرحم بكثير من أيام السادات. نعم لقد تعرضت لكثير من المضايقات ورأيت الفساد الحكومي في معظم مؤسسات الدولة وتنقلت من وظيفة إلي وظيفة. لم يكن الرئيس هو المسؤول الوحيد عن كل هذا. حرام أن نلقي مسؤولية الفساد علي رجل واحد. كلنا فاسدون.

حاولت ألا يدب الشقاق بيننا بسبب اختلافنا في الرأي فقلت
موجهها كلامي لأنور حسان:

- لن نضيع الليلة في الكلام. عليك بمحمد بسيوني يا أنور باشا
- لن يفلت من يدي الليلة. سأهزمه ثانية حتي لا يتعلل بمقهانا
- ويعلم أننا سنهزمه في أي مكان
- عليك به يا قاهر الزهر ويا قاهر النسوان

كنت أشاهد المعركة بينهما وأعجب لحالي. جمع الزمان بيني وبينهما. كلنا في الهم سواء. كان يمكن أن نكون مدرسين ونعطي في مجال المدارس والجامعات. جميعنا نعمل في مصنع سارة العسكر. كان يمكن أن نكون من النخبة في مصر. صرنا مجرد عمال في مصنع سارة العسكر. لاشك أنهما أفضل حالا مني. لقد كوّن كل واحد منهما أسرة وأدي كل واحد منهما رسالته تجاه أسرته. ماذا عني أنا؟ ما الذي حصلت عليه من هذه الدنيا؟ لا مال ولا أسرة ولا شيء مطلقا.

تبا لحياتي التعبة هذه. ماذا بعد سنوات عدة تخطت عمري من بعد الخمسين؟ هل أطمع أن تكون لي أسرة؟ هل أطمع أن يكون لي ولد؟ من أنا ومن أين وإلى أين؟ ماذا سأترك في حياتي بعد أن جرت بي سنوات الحياة وتخطاني قطار الزواج؟ أيمكن لي أن أحلم أن يكون لي ولد أو أسرة؟ كيف يا رب وقد بلغت من الكبر عتيا؟ لقد شاب الشعر وانحني الظهر وضعف البصر واشتدت صروف الحياة بي؟ هل سأموت خامل الذكر ولا أثر لي في هذه الحياة؟

أسئلة عديدة كنت أراها في عيني أمني. كانت لا تنطق وكنت أقرأ هذه الأسئلة في عينيها ولا أجيب. كانا يرميان الزهر ويسعدان. تري هل تعود إلي الحزن وإلى الكآبة وإلى عشرات التساؤلات التي لا تنتهي؟ وماذا بعد هذه التساؤلات؟ أليست هذه هي الحياة؟ عشنا واحمد الله يا عبدالله. أليس هذا قدرك وعليك أن ترضي به؟

الحلقة السابعة والأربعون

ليلة ذبح فيها الأمل

كنت أتقلب في فراشي وأنا هائم ما بين اليقظة والنام أفكر في وعي أو بلا وعي في أحداث اليوم وأحلم بأحلام عجيبة فتتراءى لي وجوه سارة العسكر وحنان وشكرية وتختلط في هذه الوجوه وجوه أحلام وسادة الدوغري ونهاد ورجاء شوكت. تغيب كل هذه الوجوه وتختفي كأنها كواكب صغيرة تهرب عندما يهل وجه سارة حبيبة العمر كالقمر الذي يجعل كل هذه الكواكب تختفي في لحظة ظهورها. لا أدري أختفي كل هذه الوجوه لسطوع وجه سارة أم حياء من أنها لا تستطيع أن تصمد في وجه أنوار قوية مضيئة يبثها وجه سارتي عندما تظهر فتجتاحهم جميعا رياح جمالها وتقتلع وجودهم من جذوره؟ أري سارتي تقترب مني. تطرق بابنا بيدها الرقيقة الدافئة الناعمة. بابنا الذي هو في بيتها وبكنف بيت أبيها. أهرع إليها مسرعا فتأخذ بيدي. تشدني فنخرج إلي الحديقة. أسابقها ولا تسبقني. تغضب فأرضي مختارا قانعا خانعا بأن تسبقني بل أسعد لأنها ستفرح بأنها سبقتني. أغوص في عينيها العميقتين الواسعتين كبثري ماء ينبعان بالحياة في صحراء حياتي القاحلة فتقول لي: «أعرف يا عبدالله أنني أخاف عليك؟». تبتسم فتبرق أسنانها اللامعة في ظلمة الليل فتنير أضواء الأمل في قلبي. لماذا تخافين علي؟

تحكي لي أن والددة أدهم تغار مني. دائما ما تسمعها تقول يا رب لماذا خلقت ابني بهذا الغباء؟ الولد لن ينفع في التعليم. أولاد الفقراء والشحاذين أفضل من ابني. إنها تقصدني طبعاً. كأن والددة أدهم تستكثر علي نعمة الله. يا رب يا رحمن يا رحيم أتذكر قولك في سورة الزخرف الذي حفظته منذ فترة: «أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمة ربك خير مما يجمعون». ها أنا ذا أعطيهم من نعمة الله عليّ. هل تعطون الفقراء والشحاذين من نعم الله عليكم كما أعطيكم أنا؟ أنا أذاكر لابنهم. إنه لم يرسب هذا العام بفضلتي. لقد نجح في الإعدادية ودخل معنا المرحلة الثانوية

بفضلي. إنه غبي جدا. أعيد له الشرح أكثر من مرة. لقد نجح هذا العام بفضلي كما اعترف عبدالجواد باشا الخربوطلي وزوجته. دب الغضب في صدري عندما قالت سارة لي إن والدة أدهم دائما ما تحتضنها وتناديها بعروسة ابنها. لاحظت هذا بنفسى أكثر من مرة. كنت أود أن أقطع لها لسانها عندما تقول لها أهلاً بعروسة ابني. كنت أنظر إليها بغضب. عروسة ابنها؟ عروسة هذا الحمار الغبي أدهم؟ وماذا عني أنا؟ أنا أفضل من هذا الغبي. سألت أمى أكثر من مرة أن تناديها بعروسة ابني كما تفعل أم أدهم فقالت بأنها لا تستطيع أن تقول هذا لسارة أبدا. بكيت وبكيت ومألت وسادتي دموعا. لماذا يا أمى. قالت عبارة واحدة: «العين لا تلعو علي الحاجب يا ولدى». لماذا يا أمى؟ أنا أفضل من أدهم. أنا أفضل من سارة. أنا أحصل علي درجات أفضل منهما. أنا مستووي الدراسي كالأساتذة. هكذا يقول الجميع. الفضل لله يا أمى والفضل أيضا لك. لقد حرصت علي أن احفظ القرآن. أعلم أنك كنت تقتطعين من قوتنا لتعطي النقود للشيخ الذي يحفظني القرآن. أعلم أنك وبتشجيعك السبب في ما أنا فيه من نعمة. أتمنى جميلك يا أمى. إن شاء الله سيكون مستقبلي أفضل منهما. ألا نعيش في دولة العلم والأخلاق؟ ألا تستمعين إلي خطب السادات؟ الرئيس الجديد يكرر دائما نحن دولة العلم والإيمان. أرجوك يا أمى. بكت وتركتني. تركتني لأبكي ضعفي وقلة حيلتي وهواني علي الناس وعلي نفسي.

إنها لا تستطيع أن تقول لها تعالي يا عروسة ابني. صحيح. معك حق يا أمى. ألسنا نعيش في بيتهم؟ إنهم يتصدقون علينا ويوجدون علينا بفضلاتهم المتبقية من طعام وشراب وكساء؟ أن أمى وأختي يذهبون ليشاهدون التلفزيون عندهم. ليس عندنا تلفزيون ولا مروحة. نعيش متكئين في حجرة واحدة وسارة تعيش مع أبيها وأميها في بيت واسع. أمى أنا أساعد سارة في الدراسة مقابل هذا. يا رب متي نتخلص من هذا الذل؟ متي ن فك أسرنا ونكسر قيد مهانتنا؟ متي نخرج من هذا المكان؟ إنى أكرهه. لا يا أمى. وإن خرجنا من هذا المكان فأين نذهب؟ وإن خرجنا وتحررنا من عبودية تبعيتنا لهم كيف سيمكن لي أن أرى سارتي إلا في المدرسة؟ أريد أن أراها باستمرار. أريد

أن أكون بجوارها. إذا كيف تريد أن تتحرر من التبعية لهم وقلبك عبد ذليل لدي سارة؟ تبعيتي لسارة ليست عبودية وليست رقا. إنها دليل علي حريتي. إنها حبيبتي. أنا أحبها.

لماذا تطالب أمك أن تقول لها تعالي يا عروسة ابني وأنت أجبن من أن تعترف لها بالحب؟ أنت تخشي أن تقول لها كلمة واحدة. تخشي أن تقول لها كلمة «أحبك». دائما ما كنت تحلم ان تقول لها كلمتين: «أنا أحبك». صار الأمر سهلا. إذا قل لها كلمة واحدة. لا تستطيع أن تقولها لأنك جبان. كف عن لوم أمك ولم نفسك يا عبدالله يا مصري.

كانت سارتي في هذه الليلة تبتسم. نسمات الليل تطير شعرها الأسود الطويل المائل إلي الاصفرار. أقترب منها وأنظر لعينيها الجميلتين فأجدني أغرق فيهما وأغوص في بحر من الأحلام. أود أن أعترف لها بكلمة أحتفظ بها في قلبي لها منذ سنوات. متي أبوح بهذه الكلمة؟ متي يمكنني أن أقولها لها. ألا تشي كل نظراتي لها بما أود أن أقوله؟ ألا تحس بنبضات قلبي المتزايدة المرتعشة الخائفة عندما أراها؟ ألا تسمع صمتي وأنا أكرر هذه الكلمات عشرات المرات عندما أراها وعندما أكون غائبا عنها؟

فعلا لقد كبرت وصارت عروسة متألفة جميلة ناضرة. أشهد أنها أجمل فتاة رأيتها في حياتي. جمالها طبيعي لا تلوثه الأصباغ ولا تشوهه الألوان. بياضها الرائع المشرب بحمرة لا يحتاج إلي ماكياج يزينها أو بودرة تفسد جمالها ولا إلي كحل يحدد ملامح عينيها. شعرها ناعم أسود ولكنه يميل إلي اللون الأصفر فيضفي عليها حسنا منقطع النظير وكأنه تاج يزين رأسها.

جلست علي أحد المقاعد في الحديقة وجلست أمامها أتأملها. أنوارها أحب إلي قلبي من أنوار القمر. كان وجهها بدرا والقمر يشهد بأنها أجمل. كانت النسمات رقيقة ولكنها تشهد بأن سارة أكثر رقة وجمالا. أي فتاة رائعة الحسن هذه؟ سبحانك يا رب. والله إنني لأشهد أنها أجمل من البدر في ليلة تمامه هذه. لكم أنا محظوظ! أنا أفضل من كل البشر. القمر ينير لكل الناس أما سارتي فتنير لي وحدي ليلتي وتشعل في أضواء الأمل وتضرم في داخلي نيران الحب والام الغرام.

كنت أنظر إليها كالمشدوه. أهيمن في عينيها. أدقق في ملامح وجهها الرائق ولامحها الجميلة الهادئة. أتمنى أن أقبل جبهتها وعينيها الصافيتين الواسعتين. أترجع خوفا من الأشعة المتوهجة التي تخرج من بين وجنتيها. أخاف من أن يحرقني اللهب المتصاعد من شفتيها. أخشى أشعة أسنانها البيضاء المتوهجة والتي تكاد أن تعمي عيني عندما تنفرج شفتها اللتان تنضحان بلون أحمر قان لتبتسم أو تهيم بالكلام. أود لو استطعت أن ألس خديها الناعمين. أتمنى لو تستطيع أطراف أصابعي أن تلامس ذقنها التي تأخذ شكل الكمثري الشهية. أتمنى أن ألثم وجهها. كل ما كنت أتمناه أن أضع فمي فقط علي أي مكان بوجهها. كنت أقرب وأتمنى أن أنعم بأنفاسها تقترب من وجهي. أود أن أشعر بأنفاسها تضرب وجهي فتخفف من حدة إحساسي برغبتي في التوحد معها، وأن نصير جسدا واحدا بروح واحدة. أتمنى أن تحس بما أحس. أود أن تشعر بما أعانيه وأود أن أقوله ولا أستطيع. آه يا سارتي الرائعة. آه وسقيا لهذه الأيام الرائعة البريئة!!

ليتني صرخت قائلا بأن كل ما في وجهها مواطن للجمال ومساكن للحسن وملاجئ لكل من يبحث عن دقائق الحسن. هل أصرخ متبتلا في محراب حضرتها وفي بساتين حسننها بأنني مغرم معجب معترف مقرر بأنها أجمل ما في الوجود؟ صدمتني قائلة في دلال:

- أنا سعيدة جدا اليوم
- يا رب تكوني سعيدة دائما
- الأستاذ حسن الساعاتي أفندي.
- حسن الساعاتي مدرس الفيزياء
- آه. حسن الساعاتي قال لي اليوم بأنني جميلة
- أنت بالفعل..

خرس لساني تماما. أيها الجبان. قل لها ما كان بذهنك منذ لحظات. قل لها بأنها أجمل أهل الأرض كلهم جميعا. لم يستطع لساني أن يتحرك. حسن الساعاتي هذا الكلب. إنه يطيل النظر إلي سارتي. ألاحظه في كل حصة. حسن الساعاتي. أنه يصلح أن يكون

ساعاتي يصلح الساعات. لا يستأهل أن يكون معلما. قال لها إنها جميلة. إنه يخطئ في الكثير من المعلومات وأنبهه. إنه لا يحبني أصلا. قال حسن الساعاتي قال. كان من الأفضل أن يسمى بحسن العجلاتي. حسن الجزماتي. والله لأعملن لك شغبا كثيرا في حصتك يا حسن.

كدت أغلي من الغيظ. ابتسمت سارة وقالت لي :

— لقد قال لي إنه . .

— إنه ماذا؟

— إنه يحبني وقال إنني أجمل بنت رآها وقال إنه سيأتي ليخطبني غدا

— يا نهار أسود

— مالك يا عبدالله؟

— يخطبك؟

— آه قال إنه أكبر مني بتسعة سنوات وهذا فرق جيد بين الزوجين لم أدر بنفسني إلا وأنا أبكي. لم أستطع فعل أي شيء إلا البكاء. ستضيع سارة منك بالفعل. لقد ضاعت. ستتزوج.

كنت أبكي بحرقة. ملأت الدموع عيني وتساقت علي الأرض. كنت أنتحب. لا أعتقد أنني قد بكي في حياتي كلها مثلما بكي في هذه الليلة. لقد بكي في ليلة زفافها. بكي لكنني كنت وحدي. أنا الآن أبكي أمامها. علي أن أتماسك. ربت سارة علي كتفي وقالت :

— تبكي وأنت رجل؟ الرجال لا يبكون.

من قال لك هذا يا سارة. الرجال يبكون. عندما يبكي الرجال فإنهم يعترفون بالعجز وقلة الحيلة. عندما يبكي الرجال تكون دموعهم رحمة لهم بما يحل بهم من مصائب. عندما يبكي الرجال يتحررون من قيود الضعف ويواسون أنفسهم فتهون الكوارث عليهم ويستعدون لخوض جولات أخرى في خضم المصائب ويخوضون غمار معارك أصعب بروح جديدة يملؤها التحدي.

كفكفت دموعي ونظرت إليها. كانت يدها علي ظهري وهي تربت عليّ بطريقة حسبتها أحسن من يد أمي وألطف بي من يد قمر أختي. كانت يدها كمرهم خفف آلام حزني وبلسما أطفأ جروحي.

نظرت إليّ قائلة :

— قلت لأمي وأعطيته رقم التليفون. كلم أمي وسيأتي لخطبتي غدا
ياللكارثة!! غدا!! سينتهي كل شيء؟ لم تكمل كلماتها. وصلت
سيارة عبدالجواد باشا الخريوطلي. سألت سارة قائلاً:

— ستتزوجين؟

— طبعاً لا. لا زلت صغيرة.

— سيأتي الأستاذ حسن الساعاتي غدا وسيقطف أجمل زهرة في هذا
المكان

— الله. كلامك حلو يا عبدالله يا مصري. أتقصد أنني جميلة؟

— أنت. .

خرس لساني ثانية وعدت إلي بكائي المرير. مال عقدة لساني
لا تحل؟ مالي لا أستطيع الكلام أمامها؟ مال هذا العجز الذي يشل
لساني ويكبل حركته؟ قالت لي:

— عبدالجواد باشا أتى ليقنع أبي ألا يقبل بهذه الزيجة

— معقول؟

— آه. الأستاذ حسن الساعاتي لا يمتلك سوى عشرة أفدنة فقط

ورصيده في البنك لا يتجاوز العشرين ألف جنيه ولم يرث من
والده غير بيت قديم وسيارة وبضعة محلات فقط.

— أنت لا زلت صغيرة يا سارة

— آخر البنات الزواج والبيت يا عبدالله مهما تعلمت ومهما علا
قدرها

— الأستاذ حسن فقير جداً ولا يليق بك

— طبعاً. سترفضه أمي ولن يقبل به أبي زوجاً لي

تنفست الصعداء ولكني سرعان ما عدت إلي حزني. سيأتي خاطب
غيره. قد يكون أكثر منه ثراء. عشرة أفدنة ورصيد في البنك وبيت
ومحلات وسيارة ولا ترضي أمها به. إنه فقير بالنسبة لهم برغم امتلاكه
كل هذا. معك حق يا أمي. إذا كان حسن الساعاتي وهو مدرس ويمتلك
كل هذا ويعدونه فقيراً فماذا نعني نحن بالنسبة لهم؟ نحن لا شيء
بالنسبة لهم. نحن في نظرهم كالذباب. نحن بالنسبة لهم كالناموس.
عبدالله أفق. عُد إلي رشداً. عليك أن تذبح كل أحلامك وآمالك.

عليك أن تقتل حبك وتنحر مشاعرك وتخرس كل أحاسيسك. عليك أن تعمي عينيك وتفقد قلبك. عليك أن تقطع فؤادك وتمزق كل أمل لديك في سارة. هذه الليلة هي ليلة قتل الأمل. ليلة صلب الأحلام. إنها ليلة موت القلب.

كنت أتقلب في فراشي. العرق يملأ وجهي. قطرات العرق تتساقط علي خدي. أشعر أنني أكاد أختنق. الدمعات تنزل من عيني. العرق يصب في عيني. أفيق متألماً. امسح عرقي ودموعي. رنين هاتفني الذي أيقظني أم صوت أحلامي وصخب الآمي. أمسك هاتفني. إنه نفس الرقم المتميز. رقم فيه يتكرر العدد ستة خمس مرات. سارد.

أسمع نفساً أنثوياً. أكون شكرية؟ لا. انتظرت قليلاً ثم قلت:

— ألو. هذا الرقم يتصل بي منذ عدة أيام. من معي؟

طبعاً لن يرد الطرف الآخر. صحت قائلاً:

— سأغلق الهاتف إذا لم ترد خلال ثوان

لم يرد من علي الطرف الآخر ولكنه أصدر صوتاً أقرب إلي الصفير. كاد الجنون أن يبلغ بي مداه. قلت غاضباً:

— من علي الهاتف؟ أنا عبدالله المصري.

سمعت ضحكة أنثوية فاتنة. إنها أنثى إذا. ألا تكفيك مرارة فراق سارتك الحبيبة يا عبدالله؟ ألا يكفيك فراق شكرية خطيبتك يا عبدالله؟ ألا يكفيك رفض حنان زميلتك الزواج بك يا عبدالله؟ أتريد أن تخوض تجربة جديدة تعرف أن مصيرها إلي الفشل؟

أمسكت الهاتف وقلت بصوت ناعم:

— طيب ما أول حرف من اسمك؟

لم يأتيني رد. سمعت صوت التلفزيون من علي الطرف الآخر. ازداد غيظي. هل أنت صغير يا عبدالله المصري لمثل هذه الأمور؟ أترضي لنفسك أن تكون مصدر تسلية لأي عابث أو عابثة؟ أغلقت تليفوني المحمول تماماً.

يبدو أن الأمل في أن أعرف صاحبة أو صاحب هذا الرقم قد قتل تماماً كما قتل ألمي في سارتي في ليلتي تلك.

عدت ثانية لنومي بعد أن أدركت المروحة. ستأتي أمي وتوقفها بعد أن

أنام. مرة ثانية عادت الوجوه تختلط في ذهني. هذا حسام زوج كريمة المريضة. إنه ينظر إليّ ويبتسم. أسمع صوت الأذان من خلفه. يتداخل وجهه في وجه ندا عبدالعليم الذي كف عن الابتسامة. إنه يلح علي ويسألني: «هل سألت عني ست الكل الأستاذة سارة العسكر؟» أراه ينظر إليها مبجلًا هائما؟ أتراه يحبها؟ أسمع صياح ماجد بحيري ثم يظهر وجهه فجأة أمامي. يصرخ قائلاً بأعلي صوت: «يسقط يسقط حكم العسكر. تسقط تسقط سارة العسكر».. أري وجه محمد بسيوني متهللاً سعيداً وهو يقول: «دش يا أنور يا حسان» يخترق كل هذه الوجوه وجه همام الحفناوى قائلاً لي في غضب: «حرام عليك. ألم تجد لي زوجة سوي نهاد؟ سأصبر وإن شاء الله لي الجنة». يبتسم لي وجه إياد ناصر قائلاً: «فرصتك يا زعيم. ستنتقل إلي مصاف إدارة المصنع. كن معنا ولا تكن علينا يا عبدالله. لقد وعدتنا ألا تبيع القضية».

هذه المرة قطع سيل خيالاتي نداء أمي. إنها تلمسني برفق لتوقظني. تليفون لك يا عبدالله. لقد أغلقت هاتفني المحمول. إنه التليفون الأرضي. يبدو أن من يعاكسني في التليفون المحمول قرر أن يواصل إزعاجه لي علي التليفون الأرضي. قد لا تكون هناك علاقة بين المتصلين.

أمسكت السماعة فإذا بصوت عنيف يأتيني قائلاً:

- لماذا لم تنفذ ما أمرتك به؟
- تحت أمرك يا حضرة الضابط شديد
- تحت أمري؟ لقد كسرت أمري
- حاشا لله يا باشا
- لماذا لم تسحب بلاغك؟
- خطيبتني يا باشا وأريد أن اطمئن عليها وأريد أن أعرف أين هي؟
- لن تعرف إلا من خللنا أيها الغبي
- ليتها كانت معي الآن حتي ترد عليك
- وماذا بعد أن ترد عليّ يا عبدالله؟ أين هي الآن؟
- يا باشا الله أعلم ولكنني لن أسحب بلاغي
- أنت تتحداني إذا؟
- العفو يا باشا. أمي رفضت أن أسحب البلاغ

— ألا تخشي أن يكون الدور علي أمك؟
لا أدري إن كنت قد تركت الهاتف أم أن السماعرة قد سقطت من يدي. انقطع الصوت تماما ووجدتني أسقط وأتهاوي علي الأرض قائلاً: «كل شئ يهون إلا أمي. إلا أمي يا شديد».
كانت أمي قد سمعت المكالمة بالتفصيل. نظرت إليّ بابتسامة وقالت:

— ولا يهملك يا عبدالله. قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا.
— نحن في كارثة يا أمي
— ولا كارثة ولا يحزنون. طالما مرت علينا الكوارث بمصر يا ولدي
— أنا خائف

— أنا لست خائفة. أنا فخورة بك. سعيدة أنك لم تسحب بلاغك.
أنت ولدي حقا يا عبدالله يا مصري.

يبدو أنها ستكون ليلة لن يغمض لي فيها جفن. إنها ليلة سيذبح فيها النوم أيضا مع الأمل. أحاط بي القلق وملأني الخوف. لن أنام. أخذت أنظر في وجه أمي. أخذتها بأحضاني. إنه تهديد صريح. ابتسمت لي أمي. لقد سجلت أمي المكالمة. طمأننتني قائلة: «لا تخف. لقد أبلغني حسين باشا سالم بكل شئ وأعطاني جهازا لتسجيل المكالمات علي هذا التليفون الأرضي».

لكم أنت عظيمة يا أماه!! لقد ذهبت واستفسرت عن البلاغ. ابتسمت لي وكانت هادئة مطمئنة. التقت حسين سالم وأخبرها بكل شئ. ربت علي كتفي. ارتميت في أحضانها ولكن عشت في داخلي طيور الخوف من جديد. إنها أمي وليس لي في الدنيا غيرها. قالت لي هازئة: «يبدو أن أذئاب نظام مبارك لا زالت حية تريد أن تلعب بنا».. وماذا بعد يا أمي؟ ألا تعرفين أنني أحب الرئيس مبارك؟ نظرت إليّ في تعجب وقالت: «هذا ما تبقي من نظام مبارك يا ولدي؟ ألم تفهم بعد؟» لا يا أمي. لم أفهم ولن أفهم. ما ذنب مبارك في ما يحدث لنا الآن. إنه في السجن. حرام عليكم أن تلصقوا كل تهمة وكل مصيبة في مبارك. حرام عليكم. الرجل خدم البلد ثلاثين سنة. أيكون السجن جزاؤه؟ حرام عليكم. كفاكم ظلما للرئيس مبارك.

طلبت مني أن أتركها لتنام. رفضت وكان لدي إصرار علي أن أنام

بجوارها. نامت بعد أن قرأت آية الكرسي. رفض النوم أن يقترب من جفوني. صرت أتوقع طرقات رجال الشرطة علي بابنا كل لحظة ولكن لم يحدث هذا.

أنّي لي أن أنام؟! إنها أمي وكل ما لديّ في هذه الحياة. يبدو أنها ليلة سيذبح فيها النوم وينحر فيها النعاس. ما أشبه هذه الليلة بليلتي تلك التي ذبح فيها الألم عندما كنت بجوار سارتي الحبيبة.

الحلقة الثامنة والأربعون

الكذابون

لم أكن أعرف أن اليوم سيكون يوما مميزا بالنسبة لي في هذا العنبر الذي تئن آلاته من شدة هديرها كما يئن العمال فيه من كثرة انكفائهم علي هذه الماكينات. أحيانا كنت أريد أن أصفهم وأصف نفسي معهم بطبقات الشعب الكادحة التي تعمل ولا تكل. إننا طبقة البروليتاريا. إننا نعيش علي بيع مجهودنا العضلي ولا نكاد نحصل علي ما يسد رمقنا. لم أكن أعلم أيضا أن نظرات رفاقي لي في هذا اليوم ستكون مختلفة. ما أن وصلت إلي العنبر إلا وكان ندا عبدالعليم رئيس ورديتنا يجلس في مكانه ليراقب العمال. يمسك بمظروف كبير به بعض الصور والأوراق. أخذ يتفحصها بعناية شديدة واهتمام كبير. كان منهمكا في أوراقه لدرجة أنه لم يرد علي تحية الصباح. دخلت علي آلتني التي صارت بيني وبينها علاقة حميمة. كأنها تشعر بي وأحس بها. تحسستها وكأنني أتحسس شيئا في جسدي. رمتها بإعجاب. إنها تستجيب لي بمجرد أن أضغط علي زر تشغيلها. أشعر وكأنها رفيقتي التي تنظر إليّ وتود أن ترحب بي.

سادة الدوغري تعمل صامتا تماما بلا عجرفة وبلا أي صوت يكاد يسمع. إنها حتي لا تجرؤ أن ترفع عينيها عن آلتها. لقد اتضح كذبها وتم فضح أمرها وانكشفت تماما أمام الجميع. أخذت أفكر في موضوعات شتي والآلات يرتفع صوتها وتصدر أنينها المعتاد. لماذا تكذب سادة؟ إنها حاصلة علي دبلوم تجارة وزعمت كذبا أنها حاصلة علي الدكتوراة من جامعة أكسفورد. ماذا سنفعل بعد أن يتقدم

بنا العمر هكذا ولا نستطيع ان نقوم بنفس مجهودنا العضلي الذي نبيعه لسارة العسكر وأمثالها من الرأسماليين المستغلين في بلد لا يقدر إلا الفنانين والفنانات الأحياء منهم والأموات؟ ماذا سنعمل في مجتمع لا يقدر سوي لاعبي الكرة وأصحاب الأموال والثروات؟

ماذا الذي سنفعله في مواجهة احتكار السلطة ورأس المال في هذا المصنع وفي كافة المصانع في مصر؟ من يملك يتحكم. من يدفع يستغل من يدفع له. كيف قبلنا بزيادة ساعات العمل لمدة ساعتين بدون أجر؟ ألا يعني هذا أن مرتباتنا قد قلت في وقت ترتفع فيه الأسعار كل يوم ارتفاعا جنونيا؟ ألا يعني هذا زيادة نسبة الأرباح والمكاسب لسارة العسكر؟ أين حقوقنا في هذه الزيادة؟ أين حقوقنا المهضومة؟ أين حقنا في هذا المصنع في معيشة كريمة وعلاج مناسب ومأوي يتسم بالآدمية؟ ألسنا أبناء هذا المصنع؟ ألا يقوم هذا المصنع علي كدنا وعرقنا وتعبنا المستمر؟ لماذا لا يدركون أننا يمكن أن نضرب عن العمل ونتوقف فيخسر أصحابه الكثير؟ لا. نحن أصحاب المصنع الحقيقيين. أیظن أصحاب هذا المصنع وأمثالهم أننا لقطاء ولا حق لنا في معيشة مستقرة وحياة هانئة؟

كذب سادة جعلني أشفق عليها. أنا أيضا كذبت. كلنا كاذبون. من منا لم يكذب في حياته؟

دارت الآلات من جديد ونشطت ذاكرتي فعدت أسترجع شريط حياتي لأخرج من مكاني بهذا العنبر لأدق أبواب أيام المراهقة والشقاوة وقتها. برز لي في ذاكرتي أيام كنت أذهب إلي فيلا أدهم لأذاكر له وأحيانا كانت تصحبني سارة إلي هناك. لم تكن المسافة بالبعيدة بل إنني كنت أتمني أن تطول المسافة لأنعم بأكبر وقت ممكن لأصطحب فيه سارتي. كنت أسير بجوارها. كانت تريد أن تضحك وأن أتكلم. لكنني كنت دوما ألوذ بصمتي وألجأ إلي التظاهر بالتفكير العميق وكأنني سأحل كل مشاكل العالم. نحن الآن في المرحلة الثانوية ويجب أن يختلف تفكيرنا عما كان عليه ونحن في الإعدادية.

كنت أعتقد أن السكوت سيجعلني أبدو أكثر حنكة وأكبر سنا من سني. كنت أود أن تمر الأيام بسرعة وأن تنقضي. أريد أن أعمل وأكسب. أريد أن ننقل من بيت فؤاد باشا. أريد هذا ولا أريده حتي

لا أبتعد عن قلب حبي. أريد أن أكبر بسرعة. سأصير غنيا لأنني متفوق وسيمكنني جلب مال أكثر من مال فؤاد باشا. ساعتها سأكون خليقا بسارتي. سأكون أكثر ثراء من حسن الساعاتي. لن يرفضني والدها وقتها. لا أريد أن أتذكر هذا اليوم. لقد جاء لخطبتها بالفعل. ظللت طيلة الليلة أبكي وأمي تسألني عن السبب ولا أجيب ولا أستطيع أن أجيب.

تذكرت ما حدث كما تذكرت تماما ما فعلناه في الأستاذ حسن الساعاتي أفندي. في الصباح المزعوم ليوم خطبته لسارة قررت أن أنتقم لحبي. سخرت من حسن الساعاتي. وضعت له ذبلا من الورق في مؤخرة بنطلونه وهو منهمك في الشرح لنا. أخذت أصفر وأصدر أصواتا من تحت الدرج الذي أجلس عليه. لن أدعه يهنا. اتفقت ولأول مرة مع أدهم علي أن نسبب له أكبر كم من المشكلات. رجعنا من مدرستنا ورجع أدهم معي. انتظرنا حضور العريس حسن الساعاتي. كنت أسخر منه وأقول حسن الثواني. هل هذا البغل يريد أن يخطب سارتي؟ شجعني أدهم وبدأت رحلة تعذيب الرجل علي يدينا. ما أن دخل حسن الساعاتي البيت إلا وكان أدهم يقف علي أحد الجدران وسكب فوقه سائلا كريها نتنا. ثم صببت الماء علي الأرض فانزلقت ساقه وهو يصعد الدرج ليصل إلي الجرس. وضعت سلكا عاريا وأوصلته بمصدر تيار كهربائي فصرخ بمجرد أن وضع يده علي زر الجرس. أخذ يترنح والتيار يصعقه. حمدت الله أنه لم يموت وقتها. رائحته نتنة وملابسه مليئة بالطين. فتحت سارة له البيت وكانت في أجمل وأرق صورة كعادتها ولكنها لم تطق رائحته وكذلك والدتها. كان منظره مخيفا بالنسبة لها ولكل من يراه. ما هذه النكسات والعقبات التي توضع أمامه؟ بدأت رحلتنا في تعطيل سيارته. طلب مني أدهم أن أحضر له بعض السكر. أحضرت كل برطمان السكر. فتح مقدمة سيارته وسكب في موتور السيارة كل محتويات البرطمان. ما أن أدار سيارته إلا وحدث دوي انفجار كبير.

نجحت خطتنا وفشلت محاولة حسن الساعاتي لخطبة سارة كما مني بخيبة أمل عندما أبلغته والدتها أن البنيت صغيرة ولا يمكن أن تقبل بخطبتها الآن. قالت والدتها هذا وهي متأففة من الرائحة ومن

منظر العريس المزري. هكذا حكنت لنا سارة.

خرج مذعورا. أصابه الرعب عندما رأى سيارته هكذا. علمنا بعد هذا أنه لم يتزوج طيلة حياته ربما لأنه قد أصابته عقدة مما فعلناه به. طلب نقله إلي مدرسة أخرى.

كذبت وكذب معي أدهم وحلفنا كذبا بأننا ما كنا السبب في أي شيء. استغفرت الله بعد أن حلفنا كذبا. أفهمت أدهم أن الله سيسامحنا. لا زلنا صغارا.

كنت أتذكر كل هذا وأبتسم في نفسي. ابتسمت سارة. ذكرتني بما حدث وقتها وسألتني: ألا يتناقض هذا الوقار وهذه الحكمة التي تدعيها الآن مع ما فعلته مع حسن الساعاتي؟ نظرت إلي وقالت لي وهي ترفع حاجبها الأيسر متعجبة:

— أعرف من فعل كل هذا بالأستاذ حسن الساعاتي

— من؟

— أدهم. إنه ولد شرير. إنه شيطان.

— ما الذي ذكرك بهذه الأيام؟

— طريقتك المتخشبة في التعامل معي الآن وكأنك شيخ حكيم ورجل

كبير السن شاخ قبل أوانه. لا زلنا صغارا

— تحدثني عن نفسك. لقد كبرت بما فيه الكفاية

— كفأك تظاهرا بالحكمة والرشد

لم أرد عليها واستعنت بصمتي من جديد وواصلنا المسير. قالت سارة في طريقة متعمدة لتثير غضبي:

— أعرف أن أدهم كان يحبني ولقد كان السبب في كل ما حدث للأستاذ حسن.

أردت أن انفجر في سارة ولكنني تذرعت قليلا بالصبر. نظرت إلي غاضبة. كنت أحدث نفسي قائلا: «هذا الغبي يحبها؟ إنه لا يستطيع أن يفعل أي شيء بمفرده. أنا الذي دبرت كل شيء أما هو فكان الأداة التي استخدمتها لأحقق هدي». قالت سارة في محاولة أخرى لإغاطتي وإجباري علي الكلام:

— هل أخبرك أدهم بأنه يحبني؟ هل تعتقد أنه يحبني يا عبدالله؟

— ربما

- أنا أفهم نظراته لي. أية فتاة يمكنها أن تعرف من يحبها من خلال نظراته وحركاته. أنت لست فتاة ولا تفهم في مثل هذه الأمور.
- لقد كبرت وصرت أنثي أعرف كل شيء عن الحب وعن الرجال أردت أن أسبها وأن أتهمها بالغباء. أنا أكثر واحد يحبك في هذه الحياة. أنت لا تفهمين أي شيء في الحب. قالت سارة لي متخابثة:
- لماذا ساعدت أدهم في خطته وقتها؟ دائما ما كنتما علي خلاف.
- أول مرة تتفقان فيها
- لم أساعده
- احلف
- لن أحلف ثانية. لقد حلفت أمام أمي وأمام أبيك وقتها بأنني
- لم أفعل شيئا
- كذاب
- أنا كذاب؟
- آه. لقد رأيتك يومها من فوق سطح البيت وأنت تكهرب الجرس.
- رأيتك تصب الماء علي الأرض لينزلق الأستاذ حسن. رأيتكما تضعان السكر علي موتور سيارته. إذا كذبت علي كل الناس فلا تكذب عليّ. أنا سارة. أنا سارتك.
- في هذه المرة كان صمتي لا لأنني لا أستطيع الرد ولكن لأنني تعجبت من طريقتها في الكلام معي كما تعجبت من قولها: «أنا سارتك».
- أنا الذي كنت أكتب هذا في قصصي التي كنت أكتبها لنفسي منذ أن كنت في السنة الأولى الإعدادية. كم كنت أكتب قصصا في كراساتي وأتخيل فيها أنني البطل دوما. أنا الذي اخترعت كلمة سارتي في إحدى قصصي. يبدو أنها قرأت ما كنت أكتبه. يبدو أنها قرأت قصصي. قالت لي في دلال:
- علي فكرة أنت كاتب رائع ولك مستقبل عظيم في كتابة القصص.
- ستكون أديبا كبيرا يقرأ الناس قصصك ويرددون كلماتك.
- أنت لست متفوقا في الدراسة فقط بل إنك كاتب عبقرى.
- شكرا
- لماذا تتعامل معي بهذه الطريقة؟
- لماذا قرأت القصص التي أكتبها بدون إذن؟

— قصصك جميلة

— ربما

بدا أنها غضبت عندما واصلت سكوتي وتجهمي. أخرجت لبانة من حقيبتها ومضعتها. كانت تنفخ اللبانة وتفرقها بصوت مزعج. طلبت منها أن تتوقف عن هذا. لم تتوقف. مثلت دور الغاضب. قررت أن تتركني وتسير بمفردها. سبقتني بالفعل فكنت أزيد خطواتي لألحق بها حتي دخلت في شارع جانبي.

هل ستجرني وراءها؟ قررت أن أتريث قليلا. لا. إنها بحمايتي. ماذا إن تعرض لها أحد؟ لقد حدث ما خمنت به بالفعل. أسرع الخطي من جديد. وجت شابا يقف علي ناصية الشارع ويسند ظهره إلي أحد الحوائط ويدخن سيجارة. ما أن اقتربت منه سارة إلا وصفر ثم قال:

— يا رب ارحمنا. القمر طلع بالنهار؟

واصلت سارة سيرها ونظرت خلفها فوجدتني. ابتسمت لما رأته وكأنها تريد أن تقول لي أنه ليس أدهم فقط هو الذي يحبها ويعجب بجمالها. تحرك الشاب من مكانه قائلا:

— يا رب ارحمنا. القمر يضحك. ما كل هذا الجمال؟ الله!!

لحقت بها وأمسكت بيدها حتي يفهم هذا الشاب أنها معي. أبعدني الشاب عنها وقال في غضب:

— لا تعاكسها

— لا أعاكسها. هي خطيبتني

— يا سلام!!

— من فضلك ابتعد عني

— خفت منك. أعوذ بالله. خوفتني

اقترب منها الشاب وسألها في براءة:

— الغراب يا وقعة سودا هيجوزوه أحلي يمامة

لم أتحمل ما قاله. دفعته بيدي بقوة فسقط علي الأرض. ركبته وأخذت أعض يده حتي صرخ. لكمته بقوة في وجهه. قمت وأمسكت بيدها ومشينا. لحق بي الشاب وركلني فوقعت. تمكن مني وأمسك حجرا وأخذ يضربني به حتي شج رأسي. سال الدم مني غزيرا.

أمسكت سارة بيدي وأوقفتني.

وصلنا إلي بيت أدهم. هالَ منظر الدم المتدفق مني عبدالجواد باشا الخربوطلي. استدعي الطبيب الذي فحصني. ربط رأسي بالشاش وطهر الجرح. قال إن الجرح لا يحتاج إلي خياطة.. أكد لهم ضعف جسدي وأنني مصاب بالأنيميا الحادة ويجب عليّ أن أتغذي جيدا. كان يعتقد أن أدهم ذلك السمين أخي. قال مازحا: «أخوه يأكل كل طعامه». رق أدهم لحالي. كان مع والده ومع الطبيب ووالدته في الخارج. كان هذا آخر ما أحست به ثم غبت عن الوعي نظرا لغزارة الدم الذي سال مني.

بدأت أستفيق قليلا. وجدت سارة تجلس بجواري وتمسك برأسي بحنان وتمسح علي جبهتي. فتحت عيني لأجد أجمل فتاة في الكون بجواري. أشهد أنها أجمل أهل الأرض كلهم جميعا. أغمضت عيني قالت لي وكانت تعتقد أنني غائب عن الوعي:
— سامحني يا عبدالله. أنا السبب. سامحني يا حبيبي. أنا سارتك. أنا بجوارك يا حبيبي.

كانت هذه الكلمات أحلي الكلمات التي سمعتها في حياتي. أزعم أنني لو كنت مت في هذه المشاجرة وسمعت هذه الكلمات لعدت إلي الحياة. كانت تبكي وسقطت دمعة من دمعاتها علي جبيني. وددت أن أربت علي ظهرها وأقول لها: لا تقلقي يا حبيبتي إني بخير. يا حبيبة العمر لقد تحسنت تماما. لو خربت الدنيا كلها فساكون بخير بفضل هذه الكلمات.

فضلت أن أظل في عينها فاقد الوعي حتي تبوح بكل شيء. تمنيت أن يطول غياب أدهم مع والديه ومع الطبيب. همهمت وزاد نحيبها. قالت لي وهي تمسح جبهتي المعصوبة:

— سامحني يا رجلي ويا سيد الرجال. أنت فارسي وملك أحلامي. أنت فتايّ ومناي. أردت أن أستفزك حتي تعترف لي بحبك. أنت تتركني معلقة هكذا حائرة لا أعرف إذا ما كنت تحبني أم لا. أعرف نظرات أدهم وأفهمها. كثيرا ما يقول لي إنه يحبني. أما أنت فصامت. أقرأ نظراتك جيدا وأفهمها ولكني كاية أنثي أحتاج إلي كلمة أحبك لأرتوي بمائها واستنشق عبيرها فتزهر بساتين الحب

بداخلي. أنا في شك من أمرك. أشعر أنك تحبني وتود أن تمنع الدنيا كلها عني حتي أكون لك وحدك. ولكنك لا تتكلم. أنت صامت. حبك صامت. عشقك ساكت. إحساسك بي أخرس لا يكاد يبين. أحتاج إلي كلمة أنا أحبك تصوغ حروفها بصوتك الذي أحبه. أنا سارتك فلم تبخل بها علي؟ أنا سارتك فلماذا تحرمني منها؟ أحتاج هذه الكلمة كما تحتاج الزهور إلي قطرات الماء. كانت سعادتي بالغة وأنا أستمع إلي كلماتها. ما أسعد من يحب ثم يجد من يحبه يبادلُه نفس المشاعر ونفس الأحاسيس!! لكن أين أنا منك يا سارتي؟ ألا يجب علي المحب أن يحكم عقله أحيانا؟ قطع صوت أحلام المطيري كل أحلامي. وقفت أمامي قائلة:

- أسلوبك هائل.
- ماذا تقصدين؟
- قرأت قصتك سارة والأصدقاء. أنت رائع في الكتابة حقا وتستحق جائزة
- كيف قرأت قصتي؟
- يبدو أنك نسيته أو وقعت منك وقرأتها
- شكرا لك. أين القصة؟
- طلبت مني رجاء شوكت أن تقرأها ووعدتني أنها ستعيدها لك. أخذتها منذ ما يزيد علي الشهرين ولم ترجعها إلي الآن.
- إنها لا تحب القراءة. ألا تكفيها مشكلاتها مع زوجها؟
- تدخلت رجاء شوكت قائلة:
- قصة تافهة.

بدا علي الغضب. همست أحلام في أذني: «إنها لا تقرأ. إنها بقرة حمقاء لا تهتم أساسا بالأدب ولا بالفن. كبيرها أن تدعو علي زوجها وتشتكي منه. سأثبت لك حالا أنها كاذبة». اتجهت إلي رجاء وسألتها:

- هل كان علي البطلة في قصة عبدالله المصري أن تطلب الطلاق؟
- طبعاً. إن زوجها لا يهتم بها ويعاملها أسوأ معاملة
- لا شك أن أمها كانت السبب في معاناتها
- طبعاً. زوجها أسوأ شخصية في القصة

وقفت في غضب واتجهت نحو رجاء وقلت لها في غيظ:
— أنت كذابة ولم تقومي بقراءة سطر واحد منها. ليس في الرواية أي
شي من هذه الأمور

حاول ندا عبدالعليم أن يتدخل بيننا وطلب منا أن يلتزم كل واحد
منا بمكانه أمام آله. قال إنه مشغول جدا بكتابة بعض التقارير التي
يجب أن يرفعها إلي ست الكل الأستاذة سارة العسكر وتشاغل بالنظر
في الأوراق التي يحتويها مزروفه.

عدنا ثانية إلي ماكيناتنا. انهمك كل منا علي آله وانكفأ كل
واحد علي عمله. نظر إليّ ندا عبدالعليم بكل حقد وبكل غيظ. فجأة
رن هاتفه. وقف وعادت البسمة إلي وجهه الذي تهلل من جديد.
قال: «حاضر يا ست الكل حاضر يا أستاذة سارة».

ابتسم من جديد وأعاد ترتيب شعره من جديد بيده. وقف بهدوء
وضبط ياقة قميصه واتجه سعيدا يصفر إلي لقاء الأستاذة سارة العسكر.
كان يدندن بأغنية عاطفية. خرج وترك مزروفه وأوراقه علي المكتب
الذي كان يجلس عليه.

بعد دقائق حانت ساعة الغداء. سكنت الآلات وهدأت الماكينات.
اتجهت إلي مكتب ندا. استقرت النظر إلي الأوراق التي بالمزروف.
إنها ليست سوي شهادات تقدير وقعت عليها سارة العسكر وإذا به
يتأملها طيلة الوقت. حركت هذ الشهادات فإذا بي أجد مجموعة من
الصور الكبيرة. صور تجمع بين ندا عبدالعليم وسارة العسكر. واضح
أنها كانت صوراً صغيرة قام بتكبيرها بشكل ملفت للنظر كما حذف
كل من كان بالصور فلم يعد بها سوي ندا عبدالعليم وسارة العسكر.
هذه صورة يسلم عليها بيده وهذه صورة يبتسم لها فيها. هذه صورة
تسلمه فيها شهادة تقدير وتلك صورة تبتسم له فيها.

أنت أيضا كذاب يا ندا يا عبدالعليم. أهذه هي التقارير التي تعدها؟
صليت الظهر واتجهت إلي مكتب سيف غرس الدين مدير
المصنع. طرقت الباب فلم يرد أحد. كانت سارة العسكر قد طلبت
مني أن أذهب إليه. لم أقابلها بالأمس. دخلت فوجدتهما يتحدثان.
لم ينتبها لوجودي. كانت تطلب منه أن تكون راحة الغداء نصف
ساعة فقط. لم يعترض وإنما وافقها وقال: «أوامرك يا ست الكل».

نظرت إليه وقالت: «يمكنك أن تخدع العمال وتفهمهم أن هذا سيكون لمدة أسبوع أو أسبوعين فقط ثم تصير هذه هي القاعدة بعد ذلك فيتقلص وقت الراحة من ساعة إلي نصف ساعة. هذا نظامنا. من لا يعجبه الحال فليترك المصنع». رد عليها قائلاً: «حاضر يا ست هانم. طلباتك أوامري أستاذة سارة. سأكذب عليهم وأفهمهم أن هذا الأسبوع استثنائي وأن الراحة فيه للغداء نصف الساعة وبعدها تتحول إلي قاعدة. شعب غبي شعب هذا المصنع. شعب ينسي. لقد نسي يا ست الكل أن ساعات العمل قد زادت بمعدل ساعتين. إنهم طيبون. عمال سذج. سأكذب كما تريد يا ست هانم. ويمكنني أن أكذب عليهم وأفهمهم أن نصف الساعة التي يعملونها من وقت الغداء ستكون مدفوعة الأجر. نحن طبعاً لن ندفع لهم. كان الله في عونك يا أستاذة سارة. الدنيا غلاء والمصنع لا يكسب إلا الفتات. ليحمدوا ربهم أن مصنعك مفتوح لهم. يجب أن يقبلوا يديك ليل نهار يا ست الكل». خرجت بدون أن يشعرا بي. وددت لو صرخت وأخرجت سبابي كله وصببته عليهما. أنت إذا كذاب يا سيف يا سب الدين. أنت أيضاً كاذبة يا سارة. المصنع يعج بالكذابين. لكم بك أيها المصنع من الكذابين!!

العيب ليس عيب الكذابين. العيب من يصدق هؤلاء الكذابين ومن يدع الفرصة لأمثال هؤلاء ليكذبوا عليهم. أليس العيب عيبنا نحن معشر العمال لأننا نصدق الكذبة تلو الأخرى؟

الحلقة التاسعة والأربعون

الله أكبر بسم الله

كنت أمر بجانب المبني الإداري ذات يوم ففوجئت بالأستاذ نجدي البقري يسرع الخطي خلقي وينادي نبي بأعلي صوته. استعذت بالله من الشيطان الرجيم. ماذا يريد مني هذا الشيطان اللئيم؟ إنه مدير الإدارة القانونية بالمصنع. دائماً يكيف كل شئ في إدارته وفقاً لأوامر سارة العسكر. يدير دفعة كل شئ لمصلحتها. إني لا أحبه ولا أستريح أصلاً لرؤيته. نجدي. شيطان من نجد. الشيطان نفسه يتعلم منه.

عندما أتى الشيطان إلي دار الندوة ليتفق مع الكفار علي الخلاص من سيدنا محمد وصف نفسه بأنه شيخ من نجد. وضع مع قريش خطة جهنمية لقتل الرسول محمد نأخذ من كل قبيلة شابا فتيا ونضربه ضربة رجل واحد فيتفرق دمه بين القبائل خطة شيطانية أثيمة .

اقترب مني هذا الرجل ضخم الجثة وتحدث معي وهو منتفخ البطن ممتلئ الأصداع. وددت لو أنني أستطيع أن أصفه عشرات المرات علي أصداعه المنتفخة. كان الرجل كثيف الحاجبين كما يصور الكفار والشياطين تماما في الأفلام والمسلسلات. فعلا هو الشيطان النجدي والإبليس الخفي الذي رأيته بعيني رأسي. جبهته بيضاء لامعه ناصعة البياض لدرجة أنني أحسست أنه لا يسجد لله قط. كيف يسجد لله وقد رفض أن يسجد لآدم. إنه رفض السجود لأبينا وتمرد علي أمر الله. هو الشيطان بعينه. هو إبليس اللعين المطرود من رحمة الله. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم للمرة الثانية. كان يخرج رذاذا كثيفا من فمه وهو يتحدث. سمعته يوسوس لي ويسؤل لي الخطيئة قائلا لي :

— لي طلب عندك يا أستاذ عبده

— اسمي عبدالله المصري

— عارف يا عبده

وكانه يصعب عليه النطق بلفظ الجلالة. الله. اسمي عبدالله أم أنها ثقلت عليك. استمعت إلي صوته وكانه صوت فحيح الأفعي. حديثه كوسوسة الشياطين. كلامه يخرج كالساحرات النفاثات في العقد نظرت إلي رأسه فأحسست بأنها كطلع الشياطين. لم أستطع أن أنظر في عينيه كثيرا. عيناه يخرج منهما شرر كالقصر. الشرارة الواحدة تحرق مدينة بأكملها. رياح خبيثة تهب عندما يفتح فمه فتدمر كل شئ أمامها. تحرق الأخضر واليابس وتقضي علي كل شئ. أكثر من مرة حكى لنا ماجد بحيري أنه يتمثل له كالجن الكافر. عندما كان يعمل بوردية الليل ذات مرة رآه يدخل الحمام. غاب فترة طويلة بالداخل. أصابه القلق علي زميله. طرق الأبواب ونادي بأعلي صوته عليه فلم يجب ولم يجده. إنه يبدو وكأنه يعيش مع الشياطين أمثاله. يعتقد ماجد بحيري أنه يسير كالإنسان الآلي. إنه ليس طبيعيا بالمرة وكأنه يدار بالريموت كنترول من قبل عتاة الشياطين ومردة الجان. من

يومها وهو يخشي النظر إليه ويقشعر جسده عندما يراه ويظل يستعيز بالله إلي أن ينصرف من أمامه .

أكد إباد ناصر أنه يكرهه. إنه كما يقول إباد كثير الكلام. لا يكف لسانه قط عن السخرية من الناس والحديث في شؤونهم وأعراضهم. دائما ينطق كفرا. ليتة يسكت دهرًا فيريحنا من شر كلماته. دائم الانتقاد لكل من حوله. دائم العمل لخدمة سيديه سارة العسكر وعبدالله البندري ككلب تابع مخلص أمين. اللهم اخزك يا شيطان. تلفظت بها مرتين اللهم اخزك يا شيطان. نظر إليّ غاضبا وقال لي وكأنه يدافع عن الشيطان:

— ما دخل الشيطان بيننا الآن؟ لا تظلم الشيطان يا عبده

— اسمي عبدالله

— شوف يا أستاذ. هذا عقد جديد وأريد منك أن توقع عليه وتجعل

كل الزملاء في المصنع يوقعون عليه

— وهل انتهت مدة العقود القديمة؟

— لا. هذا العقد أفضل وأود منك أن تقنع كل زملائك بتوقيع هذا

العقد. أنا أعرف تأثيرك عليهم.

— ماذا تقصد؟

— لا أقصد شيئا. أريد أن ألفت انتباهك أنك أحيانا تتحدث بدون

وعي بين الزملاء وتنتقد إدارة المصنع الرشيدة وقيادته الحكيمة.

لو أقنعت الزملاء بتوقيع هذا العقد الجديد فقد يكون هذا تكفيرا

لك عن ذنبك بانتقاد إدارة المصنع .

— الله فقط هو الذي يكفر عني ذنوبي

— وما دخل الله في حديثنا هذا؟

— أستغفر الله العظيم. لله ملك السماوات والأرض. الله ربي لارب لي

سواه. أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله

ما أن نطقت بالشهادتين إلا وتغيرت ملامح وجهه. اكفهر وجهه

تماما. أحسست أنه سيحترق. الله أكبر. الله أكبر. أعوذ بالله من

الشیطان الرجيم. لقد فر من أمامي فجأة. أغمضت عيني برهة

وفتحته فما وجدته أمامي. لقد فر الشيطان الرجيم هاربا. أين هو؟

لا أعرف أين ذهب وكيف. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

أيعقل أنني كنت أحلم؟ سألت أحد رجال الأمن لأستفسر إن كنت بالفعل قد تحدثت مع نجدي البقري منذ دقائق أم لا؟ أخبرني أنني كنت واقفا بمفردي. شيء لا يصدق عقل. لقد كان واقفا معي بالفعل وحدثني وحدثته. طيب أين ذهب الآن؟ لا أحد يدري. حكى أكثر من عامل أن هذا يحدث معه. يكون نجدي البقري يتكلم مع الواحد منا ثم يختفي فجأة.

هاتفني المحمول يرن. إنه أمجد سكرتير الأستاذة سارة العسكر. يطلب مني أن أحضر لمقابلة الأستاذة ست الكل. قلت له في الهاتف إنني قريب من مكتب أم سفيان وسوف أحضر حالا لمقابلتها. دخلت مكتبها فوجدته. إنه نجدي البقري يتحدث معها ويضحك. إنه يجلس أمامها وديعا كالكلب. يهز رأسه تماما كما يهز الكلب ذيله عندما يحدثه صاحبه. خرجت بسرعة وسألت أمجد عن المدة التي قضاها نجدي البقري مع الأستاذة سارة العسكر فأكد لي أنه يجلس معها ويوقع الأوراق منذ أكثر من ساعة. كدت أجن. كيف هذا؟ من كان يتحدث معي منذ قليل؟ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. أستغفر الله العظيم. إنه يراكم هو وقييله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون. صدق الله العظيم.

لقد كان معي وحدثني. كيف يكون معها منذ أكثر من ساعة ولقد كان واقفا معي منذ دقائق؟ ما هذه الأفعال الشيطانية والحركات الإبليسية؟ حاولت أن أتذكر بعض بنود العقد التي اختلست النظر إليها وهو يطلب مني أن أقنع الزملاء بالتوقيع عليه. آه مادة تذكر أن العامل ملتزم بالعمل في المصنع لمدة خمس سنوات فإن ترك العمل خلالها ليس له أية حقوق في مكافأة نهاية الخدمة وليس له أية مستحقات تعويضية عن الفترة التي قضاها بالعمل.

كل هذا وسارة العسكر منهمكة معه في الحديث ولم تنظر إليّ. ما أن لمحتني إلا وتركت الحديث مع نجدي ورحبت بي بابتسامتها الرائعة المثيرة التي يفتر فيها ثغرها عن أجمل أسنان ناصعة البياض فتبرز فئنة شفثيها الرائعتين كما تنطلق أشعة الأنوثة من عينيها. قامت من مكتبها ثم أتت إليّ وسلمت عليّ بيديها الناعمتين الرقيقتين. سرت حرارة في جسدي كله عندما لامست يدها. كنت مترددا. هل أمد لها

يدي لأسلم عليها. أنا لا أحب السلام علي النساء باليد. أخاف من مصافحتهن. النبي لم يصافح امرأة قط. خشيت أن أخذلها وأدعها مادة يدها لتسلم علي. لاحظت ترددي وقلقي. حسمت أمري وقررت أن أصافح هاتين اليدين اللتين تشيان بالأنوثة والرقّة والجمال .

لم يكن يشغلني الآن التفكير في أنوثة سارة العسكر بينما كان كل ما يشغلني كيفية أن يكون نجدي البقري مع سارة العسكر ومعني في نفس الوقت. اقتربت من نجدي في خوف وحذر وقلت له متسائلا:

— مادة الخمس سنوات في العقد الجديد يا أستاذ نجدي لصالح العمال في المصنع؟

— طبعا يا أستاذ عبده

— اسمي عبدالله

— عارف يا سيدي. العامل بهذا المصنع سيضمن العمل لمدة خمس سنوات

— هذه مادة ظاهرها فيه الرحمة وباطنها فيه العذاب

— يا أستاذ عبده هذه المادة في العقد يجب أن يهمل لها العمال في المصنع ويرقصون فرحا علي نعماتها. يجب أن يشكروا الأستاذة سارة العسكر ويقبلوا يديها ظاهرها وباطنها. عليهم أن يحمدا ربهم ويشكروه لأن الأستاذة سارة العسكر صاحبة الإدارة الحكيمة والقيادة الرشيدة ستضمن لهم عملا لمدة خمس سنوات. من الذي يستطيع أن يجد عملا في هذه الأيام وخصوصا بعد الثورة؟ الأستاذة قلبها كبير ورحمتها شملت الجميع. الأستاذة أعرض عليها دوما أن تخفض رواتب العمال ولكنها ترفض. أكثر من مرة أطلب منها هذا وترفض. والله لو خفضنا مرتباتهم إلي النصف فسيقبلون. أنت لا تعرف المدي الذي وصلت إليه البلد يعد الثورة يا أستاذ عبده.

— اسمي عبدالله وأكثر من مرة أقول لك إن اسمي عبدالله المصري. احفظ اسمي جيدا. لازلت عند رأيي. هذه المادة في العقد ظاهرها فيه الرحمة وباطنها فيه العذاب

بدأ وجهه يتغير. إنه شيطان فعلا. كيف يطالبها بخفض رواتب العمال. ما الذي سيستفيده؟ إنها تكسب الكثير ولا تعطينا سوي الفتات. ألم يكن من باب أولي أن يقف في صف العمال ويحاول أن

ينصفهم؟ تبا لك يا نجدي البقري. تبا لك. تالله إنك فعلا لشیطان رجیم. سأسعمل معه آیات القرآن علیه یحترق ویذهب من أمامی. تذكّرت قول الله تعالی فی سورة الحديد: فضرّب بینهم بسور باطنه فیة الرحمة وظاهره من قبله العذاب ینادونهم ألم نكن معكم قالوا بلی ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرّكم الأماني حتي جاء أمر الله وغرّكم بالله الغرور. تلوت الآية بصوت مرتفع فتغیر وجه نجدي. أخذ یتحرك حركات متشنجة كما اختلطت ملامح وجهه. أغمض عینیه وكأنه لا یود أن یستمع إلیّ. تأکدت أنه لا یود أن یستمع إلیّ عندما وضع یدیه علی أذنیه بالفعل وكأنه یتألم .

قالت سارة فی هدوء:

- مصلحة العمل أهم شئ فی أي عقد
- قلت فی هدوء بعد أن استعد نجدي لمغادرة المكتب:
- يجب أن یشكون هناك توازنا فی العقد بین مصالح العمال ومصلحة صاحب العمل یا أستاذة سارة. أقصد أن تراعي حقوق العمال
- ویحترق صاحب العمل
- حاشا لله لم أقل هذا یا أستاذة. الأستاذ عبدالله البندري صاحب العمل فوق رأسی وهو صاحب المال والرئيس الأعلى للمصنع
- لا. أنا هنا الكل فی الكل وست الكل.
- لم أقل شیئا یا أم سفیان. أقصد أنه صاحب المال ..
- يجب أن أقاطعك. أنا هنا فی المصنع كل شئ. هو مجرد واجهة. أرجوك ألا تجعلني أتعصب أكثر من هذا. إنه قابع فی مكتبه دائما. إنه لا یفعل أي شئ. أنا التي أقوم بكل شئ. مالی بحماري هذا القابع فی مكتبه دائما ولا یدري عن الدنيا شیئا.
- لم أكن أقصد أن أصل بالحوار إلی هذه النقطة. كنت أريد فقط أن أتأكد أن نجدي كان واقفا معي وأنني قد قرأت هذه المادة وهو واقف معي. کیف إذا كان واقفا معي منذ دقائق وكان جالسا مع سارة العسكر فی مكتبها فی نفس الوقت؟
- قام نجدي وقال لی:
- فكر فیما طلبته منك وأفنع زملاءك بالتوقيع علی العقد الجديد. إنه فی صالحكم .

لقد تأكدت الآن أنني لم أكن أحلم. لقد كان معي ومع الأستاذة سارة في نفس الوقت. إنه فعلا شيطان رجيم. قلت بصوت مرتفع : «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم». كررتها ثلاثا ثم قلت : الله اكبر بسم الله ثلاثا حتي خرج نجدي مدحورا مهزوما. كان يسرع الخطي وهو يخرج وكأن استعاذتي بالله من الشيطان تؤله. سمعت صوت رياح تعوي وهو يخرج.

بقيت وحيدا مع سارة العسكر. تشاغلست ست الكل في البداية بالنظر في بعض الأوراق وتوقيع بعض الأوراق الأخرى. كيف تتحدث عن زوجها بهذه الطريقة؟ ليس لي دعوة بهذا الأمر. هذه شؤونها الداخلية مع حمارها. أقصد مع زوجها. نظرت لي بابتسامة ونزعت عن نفسها رداء العصبية والغضب وقالت لي :

— يجب عليّ أن أشكرك مرتين يا عبدالله يا مصري

— العفو يا أفندم

— ويجب عليّ أن ألومك مرتين

— تحت أمرك يا أستاذة سارة ولكن لماذا الشكر ولماذا اللوم؟

— أشكرك لأنك قرأت الفاكس ووضحت لنا ما فيه أولا وشكرا لك

— لأنك رددت علي عبدالله البندري ثانيا

— تقصدين أنني كذبت عليه وقلت إن هناك شروطا جديدة وعليك

— أن توقعيها وقد اختلفت عما كانت عليه في المرة السابقة عندما

— كنت ببريطانيا وهذا لم يكن موجودا بالفاكس

— لا تقل كذبت ولكن قل إنك أحسنت التصرف

— ألا يوجد لدي حضرتك في المصنع أي مترجم؟

— لا نحتاج إلي مترجم إلا في أمور بسيطة وطالما أنك موجود

— فسنستعين بك

— شكرا يا أستاذة سارة. طيب ولماذا اللوم؟

— أولا لم تأت إلي مكتبي بعدما انصرفت أمس يوم عيد ميلادي.

— كنت أود أن أحتفل به معك يا عبدالله يا مصري وثانيا لم تأت

— لي بهدية؟ ألهذا لم تحضر إلي مكتبي؟ لم أكن أعلم أنك بخيل

— هكذا .

— ابتسمت فتبدت فتننتها. تري ما الذي تخفينه خلف ابتسامتك

- هذه يا سارة العسكر؟ قلت لها في ابتسامة خفيفة :
- إن شاء الله غدا سأحضر لك الهدية يا أستاذة
- لا. غدا لن أحضر إلي المصنع
- لماذا؟
- غدا عيد زواجي بحماري عبدالله البندري القابع بمكتبه وبحياتي
كاتما علي أنفاسي
كدت أضحك ولكنها ابتسمت. قالت لي :
- وأنت ستحضر حفل عيد زواجنا. أعلم أنك لن تترك العمل غدا
بل أنا متأكدة من هذا
- لماذا يا أستاذة سارة؟
- عندما تعمل غدا سيحسب لك اليوم بيومين
- لماذا؟
- غدا السادس من أكتوبر يا عبدالله يا مصري. إجازة رسمية
والعمل فيها بيومين في القطاع الخاص
- معك حق يا أستاذة .
- قمت واقفا لأذهب إلي عنبري. وقفت من علي كرسيها بعد أن
استدارت به دورة كاملة ثم اتجهت إليّ. مدت يدها لي وصافحتني.
قلت لها :
- لا أحب السلام باليد
- لماذا هل سألدغك يا عبدالله يا مصري. أنت رجل سبور. لا
تكن منغلقا ولا مترمنا هكذا. لقد درست اللغة الإنجليزية في كلية
الآداب جامعة القاهرة وكنت معيدا
- وحضرتك أيضا درست في نفس الكلية و...
- كنت سأقول لها وتخرجت. توقفت عن الكلام. لأول مرة أعجب.
لقد طرأ في ذهني سؤال غريب لأول مرة: كيف نجحت في الكلية وهي لا
تستطيع أن تقرأ الفاكس الذي كان مكتوبا باللغة الإنجليزية؟ يا للمصيبة !!
كيف نجحت؟ إنها لا تفهم شيئا ولم تقدر حتي علي قراءة الفاكس.
كيف تخرجت سارة العسكر في كلية الآداب قسم اللغة الإنجليزية
مثلي؟ يا للكارثة !!
- كأنها أدركت حيرتي. قالت لي :

— وقرىبا سأناقش رسالتى للماجستير فى كلية الآداب جامعة القاهرة
وسأدعوك لحضورها

يا إلهي!! إنها لا تستطيع أن تقرأ الفاكس. كيف ستحصل علي
الماجستير من جامعة القاهرة فى اللغة الإنجليزية وآدابها؟!

سرت خطوات لأنصرف من مكتبها. نادتنى بصوت ناعم رقيق.
التفتت إليها فوجدتها تعض شفتها السفلى بأسنانها العليا. ابتسمت
لي ثم صافحتني ثانية وظلت ممسكة بيدي ثم رفعت يدها تجاه
فمي وكأنها تريدني أن أقبل يدها.

ظللت ممسكا بيدها. انتظرت مني أن أقبل يدها. أنزلت يدها وجذبت
يدي من يدها برفق. قلت فى سري: أستغفر الله العظيم. اللهم اخزك يا
شيطان. بدا عليها أنها استغربت عدم تقبيلي ليدها. هزت رأسها وقالت:
— الكل هنا يتمنى أن يقبل يدي.

لم أرد عليها وظللت أستغفر الله فى سري. قالت لي:

— هل تعلم يا عبدالله أن ندا عبدالعليم رئيسك يقبل يدي وأنه
يتمنى أن يدخل مكتبي كل يوم ليقبل يدي؟ لقد أضعت فرصة
كبيرة علي نفسك. لقد أهدرت فرصتك الغالية. هل تعلم أن سيف
غرس الدين يتمنى أن يقبل يدي ولكنني لم أمنحه هذا الشرف
العظيم فى حين منحته لندا رئيس وريدتك؟ إنه يحقد عليه فقط
لهذا السبب. لقد أضعت فرصتك.

غشيني الصمت وكمم فمي. رجعت إلي مكتبها وجلست وكأنها
لا تصدق أنها رفعت يدها إلي فمي ولم أقبل يدها. كأنها كانت
مذهولة. نظرت إليّ فى شبه غضب وقالت:

— علي كل لدي مفاجأة لك غدا عندما تحضر حفل عيد زواجي.
سأنتظرُ غدا فى الساعة مساء. يمكنك أن تأخذ عنوان الفيلا من
أمجد. سأنتظر غدا. إياك ألا تحضر الحفل غدا.

خرجت وأنا أستعيذ بالله من الشيطان الرجيم بينما كانت سارة لا
تزال تعض شفتها السفلى بأسنانها العليا.

تنفست الصعداء وأنا أخرج من مكتبها إلي مكتب أمجد سكرتيرها.
أشعر بأنني انتصرت عليها إذ لم أذل نفسي لها بتقبيل يدها. لقد

انتصرت عليها كما انتصرت علي نجدي البقري الذي فر مدحورا
مخدولا مذموما عندما استعذت بالله من الشيطان الرجيم. انتصرت
عليها وعلي ضعفي أمامها. تذكرت انتصار السادس من أكتوبر. آه.
أسعد يوم كان في حياتي. يوم أن قهرت مصر الخوف وتخطت الألم
واحتضنت الأمل. هذا اليوم الذي كانت تعترف فيه سارتي بحبي
وتمسح جبهتي معتقدة أنني فاقد للوعي بعد مشاجرتي مع الشاب
الذي عاكسها. شج الشاب رأسي ونزفت الدم فداء لها ولحبها كما
نزف جنودنا دماء ذكية فداء لمصر وحبا لها. قلت للشاب كذبا إنها
خطيبتني. اعترفت بحبها وكنت أسمعها متظاهرا بأنني لا أسمعها. أي
انتصار لعاشق مثل انتصاري هذا؟ أي أنتصار لمصري كان يوم السادس
من أكتوبر؟ كنت في الصف الثاني الثانوي وقتها. لقد كان هذا اليوم
بمثابة النصر لحبي والنصر لمصر.

وجدت أغنيتي المفضلة الخالدة تتردد أصدائها بداخل روعي.
اقتشعر جسدي وأنا أتذكرها. إنها أغنية لا أمل سماعها ولا أمل
تذكرها. إنها تهز وجداني وتزلزل كياني وتبكي عيني. كنت أقول
بصوت مسموع الله أكبر بسم الله. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. غدا
السادس من أكتوبر. كنت أردد بصوت مسموع:

الله أكبر بسم الله بسم الله... أذن وكبر بسم الله

نصرة لبلدنا بسم الله

بأيدين ولادنا بسم الله بسم الله... وأدان ع المدنة بسم الله بسم الله

بيحيي جهادنا بسم الله... الله أكبر أذن وكبر

وقول يارب النصرة تكبر... بسم الله بسم الله

بكفاحنا يا مصر بسم الله بسم الله... تاريخ النصر بسم الله

جنود الشعب بسم الله... بتخطي الصعب بسم الله

بسم الله بسم الله... سينا يا سينا بسم الله بسم الله

أدينا عدينا بسم الله بسم الله... ما قدروا علينا بسم الله بسم الله

جنود أعاديننا بسم الله بسم الله

خرجت من مكتب أمجد وهو يهز رأسه متعجبا سعيدا بي ومبتسما
لحالتني التي يملؤها الفخر وترفرف عليها السعادة. يبدو أن الأغنية
أثارت فيه الفخر والسعادة مثلي فردد معي بكل حماس الله أكبر

بسم الله. خرجت من المبني الإداري واتجهت نحو عنبري وأنا أشعر
أن المصنع كله بما فيه من عنابر ومبان وحيطان وآلات وماكينات
ويشر يرددون معي الأغنية أحسست أن الكون كله يردد معي في فخر
وسعادة أغنيتي المفضلة الله أكبر بسم الله بسم الله .

الحلقة الخمسون

الهدنة

ما أسوأ لحظات هذه الهدنة التي عشتها اليوم قبيل خروجي من
عملي في هذا المصنع !!

أسئلة كثيرة بدأت تلح عليّ كعادتها عندما ينتهي يوم من
أيام العمل الشاق بهذا المصنع الكئيب. تلاحقني الأسئلة وتتلقفني
وأنا أخرج من باب المصنع ناظرا إلي المبني الإداري الذي تقبع
فيه سارة العسكر بجبروتها ويقبع فيه عبد الله البندري حمارها
بالداخل. يستلم العمال الوردية الثانية ولا تستطيع الآلات أن تلتقط
أنفاسها لدقائق ثم تبدأ دورة جديدة من العمل. أقترب من الباب
الخارجي للمصنع وأشعر أنني أقترب من الخلاص فإذا بي أجد
نفسي أقترب من الفراغ ثانية ومن الهاوية. كنت أخرج في الخامسة
فإذا بي أخرج في الساعة السادسة. أحس بالتضاؤل وبعدم الجدوي .
متى أستريح يا رب من هذه الحياة؟ متى تنتهي آلامها ومنغصاتهما؟
أهكذا تتوالي الأيام وتتواتر الليالي ولا أجد وقتا أستريح فيه وأخلد
إلي الهدوء بعد صخب يوم مستمر من الفجر وحتى المغرب أو ما
بعده؟ هم يكسبون ونحن نخسر. تتضاعف أموالهم وتتضاعف حسراتنا.
كنا نبدأ العمل في التاسعة فإذا بنا نبدأ في الثامنة. رفقا بالإنسان في
هذه الأيام أيتها الحياة. رحماك بنا يا رب. ما أسعدك أيها الإنسان
البدائي القديم. لقد كانت حياتك سهلة بسيطة علي العكس تماما من
حياتنا المركبة المعقدة.

ألا توجد واحة ظليلة في هذه الدنيا تحمينا من هجير ما يحدث
في حياتنا اليومية؟ العمل ومستمر و الصدمات وتتوالي. النكبات وتتابع
عليّ يوما بعد يوم. متي الراحة يا رب؟ لقد تعبت من هذه الحياة.

سئمت مشكلاتها وكرهت متطلباتها التي تود أن تلقيني في أتون لا يتوقف عن التهامي وحرقت أعصابي والزج بي في معاناة دائبة لا تتوقف. كنت أتعجب وأتساءل عن كيفية الخلاص مما أعيش فيه. أهذه حياة تلك التي أحياها؟ كيف أعيش والأيام في خصام دائم معي؟ كيف أعيش والليالي تؤرقني والنوم يخاصمني والكوارث تلاحقني والمصائب تتناوب علي؟

كيف أعيش بلا كرامة وأنني لي أن أحيا بلا قوة؟ أشعر بأنني لا شئ. سارة العسكر ويمكن أن تطردني وتطرد من تشاء من عمال المصنع في أية لحظة لنجد أنفسنا مشردين في الشوارع بلا عمل. شكرية خطيبتني ضاعت ولا أعرف مكانها وأشك في أن الضابط شديد له علاقة باختفائها. أمي قد تضيع من بين يدي في أية لحظة. الموت قد يخطفها مني وقد يخطفني منها وقد يختطفها أو يخفيها الضابط شديد كما فعل مع شكرية. المال وليس لي مال. الأمل وقد ضل طريقه وهجرني. العمل ويمكن أن يتركني في أي وقت أو أتركه. الحب وقد ضاع مني ولم أجده في أية محاولات قمت بها أو هم بها غيري ليحرك قلبي. سارة العسكر ويمكنها أن تفعل بي ما تشاء كما تظن وفي أي وقت تشاء. نجاح تحقق وكنت سعيدا به فإذا به يتحول إلي فشل ذريع وإذا بي أجد نفسي بلا شئ في يدي وبلا نتيجة حقيقية وصلت إليها. تفوق دراسي وجدته سرايا وإذا بالحال ينتهي بي إلي أن أكون عاملا في مصنع مثلي مثل من حصل علي الدبلوم أو لم يحصل عليه. تري ما الذي حققته في حياتي. لا شئ. هل أنا سعيد؟ التمساء فقط هم الذين لديهم الفرصة والوقت ليسألوا أنفسهم مثل هذا السؤال. أتيت إلي الحياة بعد أربع سنوات من ثورة عام ألف وتسعمائة واثنين وخمسين. أين كنت قبل هذا؟ لا أدري. ما أحسست بشئ في حياتي في عام ألف وتسعمائة وخمسين. أين كنت وقتها وأين كنت قبل هذا؟ لا أدري. أين كنت أيام الملك فاروق وأيام الملك فؤاد؟ لا أذكر أي شئ لأنني لم أكن شيئا مذكورا. أين كنت أيام دخل الإنجليز مصر؟ أين كنت أيام الحملة الفرنسية علي مصر؟ لم أر نابليون بونابرت. لم أكن موجودا أيام المماليك والعثمانيين. أين كنت قبل كل هذا وأين سأصير بعد أن تنتهي حياتي؟ تاريخ درسته ولم أعشه. تاريخ رأيت به خيالي

علي يد من كتبه ولم يعيشه أيضا.

تاريخ يعصف بذهني ويتجول بداخلي وأنا أدخل هذا المصنع وأجد علي جنباته وعلي حوائطه شواهد تدل علي كل عصر من هذه العصور بل أعتقد أنني أري فيه وبين جدرانه وعلي بعض حوائطه شواهد من العصر البيزنطي والروماني وعصر ما بعد دخول عمرو بن العاص بجنوده مصر. أغوص بذكرياتي ويأخذني خيالي إلي ما قبل هذا وأنا أتجول في جنبات هذا المصنع فإذا بي أري الفرعون واقفا في عظمة وأبهة والناس تنظر إلي عظمته وتركع له أو تسجد. أري الفرعون الآن أمامي متمثلا في سارة العسكر والفراعنة الذين أتوا وحكموا مصر قبلها. أري القهر والظلم. أري سحرة فرعون وأري المنافقين والكذابين يتحكمون ويحكمون. أري الخونة يمتلكون رقاب الناس ويسيطرون عليهم بالقهر والقسر والظلم أري من كان قبل عبدالناصر والسادات ومبارك وأتخيل من يأتي بعدهم ولا أعتقد أن الحال سيتغير. التاريخ يعيد نفسه والكرة تعاودنا المرة بعد المرة. وهكذا دواليك. أيام تتعاقب وليال تمر وتلك الأيام نداولها بين الناس. تلف الحياة وتدور بنا جميعا وبالروح بالدم نفديك يا وطن وبالروح بالدم نفديك أيها الحاكم ولن نتغير ولن تتغير أفكارنا ولن تتغير حياتنا ويظل الظلم والخوف والقهر أهم سماتنا ويعلوننا النفاق والكذب والزيف والألم. ما الشئ المؤكد في هذا الحياة؟ الشئ الوحيد المؤكد أننا زائلون. راحلون وسنترك هذه الحياة. راحلون كما رحل من قبلنا وسيرحل أيضا من سيأتي بعدنا.

تقاذفتني أمواج الحياة وأنا في بطن أمي ثم ألقطني علي ضفاف نهار الحياة. خرجت إلي الدنيا أصارعها وتصارعني. أعتركها وتعتركني. أتخبط فيها وتخبط في جسدي وتفت في عضدي.

حتي وإن خرجت من دوامة التاريخ التي تدور بي دوما وتلقيني علي ضفاف الإحساس بالقهر أجدني أدخل دوامة جديدة من الأحزان وأجد نفسي أدخل من أبواب اليأس لأخرج من أبواب العجز والإحساس بالتضاؤل أمام هذه الحياة .

استغرقني التفكير وأنا أخرج من عنبري وأنظر فاحصا جدران المصنع وجنباته. شعب تعود مثلي علي الإحساس بالذل والقهر والعمل بالسخرة لتمجيد الحاكم وتخليد الفرعون. كيف بنيت

الأهرامات؟ حتي وإذا لم تكن قد بنيت بالسحرة فلقد خلدت اسماء الفراعنة الحكام العظام خوفاً وخفراً ومنقرعاً. فليخلد الحكام ولتتمت الشعوب. فليمت العمال جوعاً وفقرًا ولتنتفخ جيوب الحكام وأصحاب الثروات. أليس ما تفعله بنا سارة العسكر نوعاً من السحرة؟ زاد عملنا بمعدل ساعتين ونصف. حرمونا من نصف ساعة من ساعة الغداء لنعمل فيها. ونحن العمال نرضي بهذه السحرة وهذا الظلم البين. ويزيد الطين بلة أن تجد سارة العسكر من يؤيدها ويبارك لها اتخاذ هذا القرار كنجدي البقري وسيف غرس الدين وندا عبدالعليم ورؤساء الورديات وبعض العمال. حتي أنا وافقت ولم أعترض. أي ظلم هذا؟ أنا حفيد من حفروا قناة السويس بالقهر والسحرة والظلم وسليل من أفنوا عشرات السنوات لبناء هرم الحاكم. أنا ابن من جلد ظهره ظلماً وتكسر عظمه قهراً ونحل جسده دوماً ليكون أداة لينفذ بها ما يريده الحكام الطغاة والسلاطين العظام والقادة الملهمين. أنا سليل من تغني بالمجد الكاذب وأوهام العظمة الزائفة وتغني بكل ماضٍ تليد وتخلي عن مر واقع أليم. أنا حفيد من رضعوا الذل من ثدي أحلام الطغاة. أنا ربيب من رضوا بالقهر وعاشوا به. أنا ابن الظلم. أنا عم الأهوال. أنا أب لكل من يشعر باليأس والحرمان. أنا ابن من أكلوا العيش بالجبين ورضوا بالذل وتراضوا بالهوان. أنا ابن من تواصلوا بالسكوت وتواصلوا بالطاعة ولم يقدرُوا علي رفع راية العصيان للطغاة والبلغاة والظالمين.

ما الذي يحدث لك يا عبدالله يا مصري؟ ما هذه الكآبة وما هذا التفكير السلبي الذي يحيط بعقلك ويكهم فكرك ويحبس عواطفك ويدك بنيانك ويهدم كيانك؟ ماذا بك يا رجل؟ من يراك الآن لا يراك وأنت تغني وتردد بكل فخر منذ ساعات عندما تذكرت يوم السادس من أكتوبر في حياتك وفي تاريخ مصر: «الله أكبر بسم الله بسم الله. أدينا عدينا بسم الله بسم الله ماقدروا علينا بسم الله بسم الله. جنود الشعب بسم الله بنخطي الصعب بسم الله. أذن وكبر وقول يا رب النصر تكبر».

ألم تكن فخوراً بهذا اليوم؟ ماذا حدث لك؟ ألم تكن متفائلاً دوماً وتقول إن مصر بسبعة أرواح. إن مصر لن تموت أبداً. مصر تمرض ولا

تموت لأنها تتعافي دوماً من أي مرض ثم تعود أقوى مما كانت عليه. ما هذا اليأس الذي صار يخيم علي فكرك ويعيش داخلك؟ ألسنت ابن النيل البار؟ النيل وقد لوّثه المصريون بأيديهم لا بيد أعدائهم. النيل؟ النيل سيحجف وسنموت عطشا بعد أن بنيت عليه السدود. النيل الذي رأيت المخلفات من مصنع سارة العسكر وعشرات المصانع تنطلق إليه لتقتلنا مياهه. يقولون من شرب من ماء النيل يعود إليه؟ كيف يعود إليه؟ ليموت؟ صار الماء ملوثا وصار الهواء ملوثا كما صارت الحياة كلها ملوثة.

هكذا كنت أحادث نفسي وتتعارك الأفكار بداخلي.

أزمة وستمر. كارثة وستنتهي. لا. أزمت لن تمر بسهولة وكوارث لم تنتهي أبداً. مبارك الرجل الذي حارب وانتصر سجنائه وحاكمناه وعبدالناصر الذي خسر وانهمز رفعناه وكرمناه. أي منطق هذا؟ ماذا سيقول التاريخ عنا؟ يا رجل لقد كنت فخوراً بنصر أكتوبر. نعم كنت فخوراً ولكن ما النتيجة الآن ومن المنتصر؟ نصر وتبعه سلام أو استسلام. لا تقل هذا. أكل هذا لأنك تكره السادات لأنه السبب في فصلك من الجامعة؟ كن منصفاً يا عبدالله يا مصري. طيب ماذا عن الظلم والفساد وتفشي الرشوة والمحسوبية في عصر مبارك. كن عادلاً يا عبدالله. أين اهتمامه بالعلم والمفكرين والأدباء. الراقصة في عصره كم كانت تحقق من مكانة ومن مال في الوقت الذي كان يموت فيه العلماء جوعاً ويتضور المفكرون عجزاً وقهراً ولا يصل فكرهم للناس في حين كانت البذاعات من الراقصات والمغنيات تصل إلي الناس قهراً وقسراً «أنا بحبك يا حمار؟ كوز المحبة اتخرم. العنب العنب العنب».

هل هذا يعقل؟ أنت لم تعد إلي عملك في عهد مبارك فلماذا تترحم علي أيامه؟ لقد انتهي بك الحال إلي أن تكون عاملاً في المصانع. ليس هذا ذنب مبارك. أنا أحبه لا تحدثني بالعقل ولا بالمنطق. أنت تكره السادات وينعكس أثر كرهك له علي عدم اعترافك بأنه رجل عظيم. لا. ليس عظيماً. أسعيد أنت لأنه قتل؟ حرام عليك. لقد تم اغتياله في نفس يوم نصره. يستحق القتل ألف مرة. لقد هادن اليهود. طيب ومبارك هو الذي لم يهادن اليهود؟ لا تقلق تفكيري. سأقلق تفكيرك. كيف لا تفخر بأنك مصري؟ وما الذي يجعلني

أفخر بمصريتي؟ أنا مهان في بلدي وسأهان لو خرجت من بلدي. لقد رفضت أكثر من عقد عمل خارج مصر لأنني أحب مصر وسأموت في أرضها كما قال الرئيس مبارك. في أيام الثورة وخطابه العاطفي. سأموت في مصر وسيحكم التاريخ علي.

كيف تقول إنك رضعت الظلم والذل في هذا البلد؟ آه. لقد رضعت القهر والذل وأنا أتمرغ في أحوال الفقر. رأيت الأغنياء يفعلون كل شيء في البلد. طيب ألم تر كيف تم بيع البلد وكل ما فيها باسم الخصخصة في عهد مبارك؟ أرجوك لا تتحدث عن الرئيس مبارك بهذه الطريقة؟ لماذا ألم تكن تشاهد الفساد وآثاره بعينيك؟ ألم تكن تتابع الظلم والقهر والكوارث تتوالي علينا؟

دعني من هذا الكلام ومن هذا التفكير. لن أترك حتي تفخر بأنك مصري. وما الذي يجعلني أفخر بمصريتي؟ مصر هي التي حمت العالم من غزو المغول والتتار. مصر أول نور في الدنيا يشق ظلام الجهل والتخلف. كفك شعارات وأغان لا تسمن ولا تغني من جوع. لقد وقعت مصر وسقطت. لا لم تسقط ولن تسقط مصر ولن تقع أبدا. مصر مذكورة في القرآن. تكلم بالعقل يا أخي. ديار الكفر أيضا مذكورة في القرآن. مساكن الذين ظلموا مذكورة في القرآن. إرم ذات العماد. الكفار مذكورون في القرآن. ديار قوم شعيب وصالح وهود ولوط في القرآن. سبأ موجودة في القرآن. لشد ما تغير فكرك يا عبدالله. مصر موجودة في القرآن أكثر من خمس مرات. لا لقد انتهت مصر. يا عبدالله يا مصري ثورتنا ثورة يناير ضد مبارك كانت من أعظم الثورات. لقد كانت مصر محط أنظار العالم. أنت لا تعرف من حرك الثورة ومن كان مدفوعا له. ماذا يقول العالم علينا لا يهمني. الذي يهمني كيف أصبحنا. حرام عليكم كانت الأمور مستقرة. ستجر مصر إلي كارثة كبيرة بعد سقوط مبارك. أخشي علي مصيرنا. الغرب يدبر كل شيء ضدنا. ألا زلت تؤمن بنظرية المؤامرة؟ طبعاً.

كانت الأفكار تتناحر بداخلي. الكآبة كانت تحل بي. ألسنت فخورا حقا بأنني مصري؟ لا أعرف كيف أهز رأسي. «سينا يا سينا بسم الله. واديننا عديننا بسم الله»

هل أبكي أم أضرب نفسي؟ عيناى تدمعان. ألسنت فخورا بمصريتك

يا عبدالله يا مصري. برغم كل ما تذكره وبرغم كل ما ستذكره
يظل السؤال الأساسي. أجب عليه. ألسنت فخورا بمصريتك برغم كل
ظروفك وبرغم كل ما أنت فيه وما نحن فيه؟

انفرط عقد الدموع من عيني. أردت أن احتضن كل شئ حولي
وأصرخ. لقد صرخت بالفعل. فخور بأنني مصري. سأرفع رأسي مهما
حدث. أنت أمي يا مصر. من منا لا يحب أمه؟ من منا لا يحب
بلده حتي وإن علتها المشكلات والهموم؟ أنا أريد أن أحضن كل شجرة
في أرض مصر. أريد أن أقبل كل ذرة تراب علي أرض مصر. أريد أن
أبلغ حبي لكل ذرة هواء ولكل ورقة شجر ولكل قطرة ماء مألحة
كانت أم عذبة بأرض مصر.

أنت تكره ما نحن فيه من مشكلات وستزول. لا مشكلات تظل
طيلة العمر. اكره الحكام. اكره المصريين وكره الظالمين يا عبدالله
يا مصري لكن لا تكره مصر ولا تكره أرض مصر. ومن قال لك إنني
أكرهها. تدمع عينايا. أمر علي النيل أسلم عليه وأغسل عيني
بنظراتي إليه. لقد لوثة مصنع سارة العسكر. قدمت الرشاي وأعمت
عيون المسؤولين عن فسادها وأرهبت العمال بجبروتها. أكلت حقوقهم
واستحلت عرقهم.

لازلت أري الأمل في عيون المصريين المنكسرة وأنا أسير علي النيل.
لازلت أري روح التحدي والأمل في عيون التلاميذ والعمال. ستموت إن
مات الأمل فينا ولن يموت. لن يموت الأمل فينا بعد. لا تيأسوا من
روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون. يا عبدالله يا
مصري ومصر في أسوأ عصور ضعفها أوقفت زحف المغول والتتار. يا
عبدالله يا مصري لقد حططنا خط بارليف الذي كان معجزة عصره.
ألحقنا بإسرائيل هزيمة ساحقة. لقد كانت أقوى معركة في التاريخ.
عبرنا قناة السويس بنور الله. طاقة الأمل أنارت لنا الطريق إلي سيناء.
بكت عينايا ثانية. والله تذكرت أمي. كان يوما كله بركة. صحيح
أنني نذفت بعد أن شج الشاب الذي عاكس سارتي رأسي. أصرت
أمي علي أن تحضر إلي بيت عبدالجواد باشا الخربوطلي لتطمئن
علي وأنت معها أم سارة كانت تبكي من الفرحه عندما عرفت بنصر
أكتوبر. ودت لو أنني كنت كبيرا في هذا اليوم لتلقي بي في غمار

المعركة. بكت قائلة: «ليتكم كنتم كبارا». ضحينا بكل شيء. أخذت بيدي عنوة وجعلتني أشاهد التلفزيون مع فؤاد باشا بعد أن أصرت علي أن أقوم من فراش أدهم الخربوطلي. كفتت عن التظاهر بأني فاقد للوعي بعد أن استمعت إلي اعتراف سارتي بأنها تحبني. كانت الفرحة تغمرها والسعادة تعمها وتعم الجميع. كانت أمي وأم سارة وأم أدهم يزغردن ويحتضن بعضهن. نسيت زوجة فؤاد باشا نفسها لأول مرة واحتضنت أمي. طار فؤاد باشا في الهواء ثم احتضنتني واحتضن عبد الجواد باشا الخربوطلي قائلاً: «والله عملتها يا سادات». احتضنتني سارة كما احتضنت أدهم. لقد كان أسعد يوم في حياتي. من كان منا يصدق أن نكسر حاجز الخوف وأن نحطم سدود الأحزان؟

بعد دقائق من السعادة قال فؤاد باشا:

— أخشي أن تكون هذه كذبة كما كذب علينا عبدالناصر في نكسة سبعة وستين

رد عليه عبد الجواد باشا قائلاً:

— لقد تابعت الأخبار من الإذاعات الأجنبية. لقد فعلها السادات بعد أن راوغ وقال بأنه لن يحارب. إنه لم يخدع إسرائيل والعالم كله فقط. لقد خدعنا نحن أيضاً. إنه داهية.

ما أن فتح باب التبرع للمجهود الحربي إلا وكانت أمي أول من تخرج حصيلة ما وفرته للأيام بكل رضا وسعادة. خلعت غويشتها الذهبية وباعتها وتبرعت بثمنها كاملاً للمجهود الحربي. بكت بعد أن خلعتها فلقد كانت وصية أبي لها أن تحتفظ بهذه الغويشة للزمن ولكنها رأت أن خير شيء تفعله أن تتبرع بثمنها للجنود الذين يرفعون راية كرامتنا ويحملون علمنا ويغرسونه علي أرض سيناء. كانت أمي تذهب للقطارات الحربية وتعطي للجنود كل شيء في بيتنا وكأنهم أبناءها. كانوا يحتضنونها أمام عيني وكانت تدعو لهم. كانت تكثر أيضاً من الدعاء لمصر وجنودها في صلواتها. بكيَت عندما رأيت امرأة لا تجد ما تقدمه للجنود فقدمت حبات الطماطم والخيار التي كانت في يديها. لقد انتصروا وانتصرنا في شهر رمضان. أنتصرنا والجنود صائمون. صدرت فتوي بجواز الإفطار لهم أثناء الحرب ولكنهم أصروا علي الصيام. لكم أنتم جبابرة أيها المصريون.

ليتني كنت جنديا مثلهم. سأذهب وأتطوع. تمنيت أن أرتدي البدلة العسكرية وأحارب. لم يمكنني التطوع وقتها. ذهب معي أدهم أكثر من مرة. كنا نتمني أن نكون جنودا. الله أكبر فوق كيد المعتدي. لا. إنني فخور بأنني مصري. تشهد كل قطرة في دمي أنني فخور بأنني مصري.

لا أستطيع أن أوقف دموعي وأنا أتذكر كل هذه الأيام. أنظر إلي روح التحدي والأمل في عيون كل من أقابله وأنا بجوار النيل. عليّ أن أزيح هذه النظارة السوداء من علي عيني. الله أكبر بسم الله.

لم أكد أتلفظ بهذه الكلمات إلا وكان صوت المؤذن لصلاة العشاء يشق عنان السماء. مسحت عيني من آثار دموعها. رفرع عليّ الأمل بأجنحته وهرعت إلي المسجد. لقد كنت في هدنة أفكر فيها. أية هدنة هذه؟ لكم كنت أحتاج إلي هذه الهدنة.

سأطمئن أمي. لقد تأخرت عليها كثيرا. إنني أتصل بها من هاتفني المحمول ولا ترد. خيرا. أرجو من الله أن تكون العواقب سليمة. حاولت ثانية وثالثة وأمي لا ترد. سأتصل بها بعد الصلاة. ما أن سرت خطوتين إلا وكان هاتفني يرن. يبدو أنها أمي. نظرت إلي هاتفني فإذا بي أفاعأ بأنها ليست أمي. إنه نفس الرقم المميز الذي يوجد به خمس أرقام متشابهة. عدد الستة يتكرر به خمس مرات. أغلقت الهاتف لآخذ هدنة من الحياة ومن الدنيا جميعا. ستكون هدنة أجمل وأسعد. سأخلو فيها إلي ربي. سأتصل بأمي وأطمئن عليها بعد الصلاة بعد أن أتم هدنتي التي سأقضيها بين يدي ربي .

الحلقة الحادية والخمسون

المعركة تبدأ من جديد

تهلل وجه الضابط شديد حين رأي قادمنا نحو المصنع في صبيحة هذا اليوم الذي يتنفس بروح العراك والقتال. في أول الأمر حاولت أن أتحاشاه وأن أواصل خطواتي نحو عنبري. أخذ يبتسم وينظر إلي بطريقته الماكرة المراوغة. تجنبتة بنظراتي وانحنيت بنفسي بعيدا

عن اتجاهه. خبط الأرض بقدمه عدة مرات وهو يسير إليّ بخطوات عسكرية مهيبة وبصدر مفتوح منفوخ وهو يحرك يده اليمني تارة للأمام ثم يرجعها للخلف في الوقت الذي يحرك يده اليسري للأمام. نظر إليّ أحد الجنود الذين يعتلون أحد الدبابتين الرابضتين علي بوابة المصنع الرئيسية وأشار إليه برأسه وعينيه أمرا له أن يأتي بي إليه. نزل الجندي من مكانه وأمسكني من مؤخرة رأسي وكأنه يجرنني إليه. وضع يده علي قفائي ثم شدني بعنف. لست متهمًا ولم أفعل أي شيء أعاقب عليه. أه تذكرت سيحاسبني علي ما طلب مني منذ فترة. لقد طلب مني منذ أسبوعين أن أعمل جاسوسا له وأن أنزل إلي المظاهرات وأن أندس في وسط المتظاهرين ثم أخبره بكل شيء وأكتب له كل ما رأيته في تقرير مفصل. يبدو أن صبره عليّ بدأ ينفد. وجددني واقفا أمام الضابط شديد وجهها لوجه من جديد. لا يزال أمامي عشر دقائق حتي تبدأ ورديتي. عشر دقائق ستمر عليّ كعشر سنين أمام هذا الضابط العتل. إنه قوي البنية مفتول العضلات. إنه حليق الذقن ناعمها وكث الشارب ممتلئ الوجه. تبدو عليه إمارات النعيم وعلامات الترف. لا تزال الساعة الثامنة إلا عشر دقائق. الدقائق تكاد لا تمر والخوف يملكني من هذه المواجهة الصعبة. نظر إليّ بحدة وغضضت بصري إلي الأرض. يبدو أن المصنع قد تحول إلي ثكنة عسكرية. يبدو أن العساكر يبيتون بالمصنع. من يكون بالخدمة صباحا يظل حارسا متيقظا ومن تنتهي نوبته ينام ويمارس حياته الطبيعية داخل المصنع. لم يشك أحد من عمال المصنع من تجاوزات أي رجل منهم. يبدو أن الأوامر كانت صارمة ومشددة لهم ألا يحس أحد منا بأي تغيير اللهم إلا في بعض الحجرات التي خصصت لمبيتهم وإقامتهم.

أليس من الأفضل أن تذهب بالجنود وعساكر الجيش إلي الحدود يا شديد باشا أنت ومن أمرك؟ يمكنك أن تترك رجال الشرطة يقومون بدورهم في حماية الأمن الداخلي. دع عساكر الجيش يحرسون ثغراتنا الخارجية. لا نريد أن نخترق وأن نستهدف من بواباتنا الخارجية. حدودنا أهم يا باشا. ماذا لو احتلت إسرائيل أرضنا ثانية؟ هل سنفرج بكم إذا وقتها؟ لن نسامحكم أبدا. لا تتحاذق ولا تتفلسف يا

عبدالله يا مصري. يبدو أن كل هذا يحدث بالاتفاق والتشاور بين من يملكون الأمر. أنت لا تملك شيئاً. دع الملك للمالك. هكذا قلت لنفسى وأنا أقف خفيض الرأس أمامه وأنا متأكد أن نظرات الضابط تفترسني وكأنها تأمرني أن أدع الملك للمالك ثم تطلب مني أن أقدم تفسيراً لغيابي عن سيادته وعدم تنفيذي لمطالبه. لمحت بعض رجال الشرطة من بين رجال الجيش وكأنهم في تنسيق مع عساكر الجيش. يبدو أن سارة العسكر قد اتفقت مع كل من هؤلاء وهؤلاء لتأمين مصنعها وخصوصاً بعد انفجار مصنع حجاج العيسوي. يبدو أن الحابل قد اختلط بالنابل وصار من الصعب التفرقة بين رجال الجيش ورجال الشرطة. المهم مصلحتها والمهم تأمين ممتلكاتها. هكذا السلطة تماماً عندما تتزواج بالمال. يختلطون ويتناسلون وتكون الطامة علي رؤوس البسطاء.

نظر إليّ الضابط شديد وصاح بشدة وكأنه يصدر أمراً لأحد جنوده:
— انتباه يا عبدالله يا مصري

خبطت الأرض بقوة برجلي اليمني ثم ثنيت رجلي اليسري لحظة وخبطتها علي الأرض بكل قوة وأنا لا زلت أنظر إليّ الأرض وقلت بصوت مرتفع وكأنني أؤدي التحية العسكرية للضابط شديد:
— تمام يا افندم

— انظر إليّ يا عبدالله يا مصري. لقد دخلت الجيش عام تسعة وسبعين وتعرف كيف تكون التحية. جسدك مشدود وصدرك للأمام وتنظر لأعلي

— تمام يا افندم
نظرت إليه بطرف خفي ثم غضضت بصري عنه وقلت في مراوغة:
— والله يا افندم حضرتك حيرتني
— لماذا؟

— حضرتك ضابط شرطة أم ضابط جيش؟
— وما الفرق بينهما؟ كلاهما يخدمان الوطن
— معك حق يا افندم. لا فرق بينهما
— انظر إليّ يا عبدالله. لم تعد جندياً الآن
— نعم. كنت جندياً أخدم بالجيش بعدما تخرجت في الجامعة. كان

شرفا وقتها. حزن أدهم الخربوطلي لأنه الابن الوحيد لوالديه. لم يلتحق بالجيش ولكنه كما كان قدره أن يظل مكبلا بالميري طيلة حياته. كان كثيرا ما يستضيفني ونتحدث سويا. كان يفخر بي لأنني أخدم بالجيش وكان القادة وقتها يعاملوننا باحترام وتقدير علي أساس أننا مقاتلون. كان يخبروننا أن غدا ليس العيد. عيدنا الحقيقي سيكون يوم أن يتحرر المسجد الأقصى من أيدي الغاصبين ويتحرر تراب فلسطين كله. أيام كانت وما أروعها. علي الرغم من أن السادات كانت مفاوضاته في كامب ديفيد مستمرة وكان توقيع اتفاقية السلام مع إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية كان يجري علي قدم وساق إلا أن أغلب قادة الجيش كانت هذه هي عقيدتهم. كيف نصلح أعداءنا ونهادن قتلة إخواننا؟ كان للرئيس السادات رأي آخر. لم تكن كراهيتي له قد بدأت بعد. كنا نراه بطلا حرر تراب الوطن ورفع رأس الأمة العربية عاليا خفاقا. أتذكر أنني بكيت طويلا وأنا أشاهد التلفزيون مع أمي يوم توقيع اتفاقية معاهدة السلام. رأيت مناحم بيجن والرئيس السادات وجيمي كارتر في التلفزيون يبتسمون ويتصافحون. أغلقت التلفزيون وبكيت. كيف تصلح وتهادن من قتل أهلك؟ كنت في إجازة لمدة يومين من الخدمة العسكرية. كانت أمي ميالة إلي السلام وتري أنه كفانا ما حدث لنا من الحروب. أخذت تغني أغنية أم كلثوم بصوت جميل: «بالسلام احنا بدينا بالسلام. ردت الدنيا علينا بالسلام. يا سلام يا سلام يا سلام. بالسلام بالمحبة الدنيا تحيا ليه يكونوا ناس في ناحية وناس في ناحية. مهما كنا ومهما كنتم من حقوقنا احنا وأنتم.. الحياة والسلام». أي سلام هذا يا أمي؟ أنت لا تعرفين الحقيقة يا أمي. لن أجادلك. لقد ضاعت سيادتنا علي سيئاء يا أمي. مناطق منزوعة السلاح وأماكن للقوات الدولية. لن أخبرك بما أعرفه وما قرأته يا أمي. كنت أنظر إلي السادات بما يشبه الكراهية. كيف تضع يدك في يد من قتل أبناؤك من الجيش؟ لقد قتل أخوك عاطف السادات في المعركة. كم من الاطفال قتلوا ويتموا. ألا تذكر مذبحة تلاميذ بحر البقر عندما قتلوا أطفالنا الصغار في المدارس وغطت دماؤهم الزكية كراساتهم؟ لا عهد لليهود يا ريس.

كنت أتذكر كل هذا وأمي تدندن بأغنية أم كلثوم وأتذكر كلمات

الرئيس السادات في الكنيسة الإسرائيلية عام سبعة وسبعين عندما كنت في السنة الثانية بالكلية. كنت أتذكر سارة حب العمر بجواري ونحن نشاهد التلفزيون معا. كان السادات يتحدث بكل فصاحة وبلاغة ويسمع العالم كله كلماته: «وقد جئت إليكم اليوم علي قدمين ثابتتين لكي نبني حياة جديدة. لكي نقيم السلام وكلنا علي هذه الأرض. أرض الله كلنا مسلمين ومسيحيين ويهود نعبد الله ولا نشرك به أحدا. .. إنني أحمل إليكم من شعب مصر الذي يبارك هذه الرسالة المقدسة من أجل السلام. أحمل لكم رسالة السلام. رسالة شعب مصر الذي لا يعرف التعصب. بشروا أبناءكم أن ما مضي هو آخر الحروب ونهاية الآلام.. يا أيتها الأم الثكلي ويا أيتها الزوجة المترملة ويا أيها الابن الذي فقد الأخ والأب يا كل ضحايا الحروب. املؤوا الأرض والفضاء بتراتيل السلام. املؤوا الصدور والقلوب بآمال السلام. أجعلوا الأنشودة حقيقة تعيش وتثمر. اجعلوا الأمل دستور عمل ونضال. وإرادة الشعوب هي من إرادة الله».

لا. ليست إرادة الشعب. إنها إرادتك وحدك. لن يتفرغ اليهود للسلام. إنهم يمسكون غصن الزيتون بيد ويمسكون الصواريخ والأسلحة باليد الأخرى. يقبلونك بوجه ثم يجهزون الخنجر لطعنك باليد الأخرى وبوجه آخر لا تراه. لا للتطبيع يا سادات أبدا. اعتبرها هدنة ولا تعتبرها سلاما. صدقني ولا تدعهم يخدعوك. انسحبت وكدت أبكي وسارتي الحبيبة تتعجب لحالي.

أخرجني شديد من أحلامي بصراخه قائلا في غضب:

- وماذا بعد يا عبدالله يا مصري؟
- تحت أمرك يا افندم
- لا أريدك أن تكون فوق أمري أو تحت أمري. لماذا لم ترد علي؟
- أرد عليك في أي أمر؟
- أنت تستعبط يا روح امك؟
- العفو يا حضرة الضابط
- صفا. انتباه. صفا انتباه.
- كنت أنفذ أمره فأقف صفا وكذلك أنتباه. نظر إلي عيني بكل قسوة وقال:
- لا أريد أن أهينك. لماذا لم ترد علي؟

- أنا رهن إشارتك يا حضرة الضابط
- منذ أكثر أسبوعين ولم ترد عليّ. لا أريد أن أقبض عليك. لماذا لم ترد عليّ؟
- أنت أيضاً لم ترد عليّ
- لا تسألني عن شكرية
- ولا تسألني أن أرد عليك
- أنت قليل الأدب وتحتاج إلي التربية
- لقد ربّنتي أمي جيّدا يا حضرة الضابط
- لا. أبلغها أنك قليل التربية. يبدو أن درس الجامعة الذي أخذته منذ ثلاثين عاما لم يؤثر فيك. لقد أخبرني اللواء عبدالمجيد حسني بأنه لا أمل فيك
- وما علاقة حضرتك بسيادة اللواء عبدالمجيد حسني؟
- والد زوجتي. طبعاً تذكره
- آه. طبعاً. لقد كان السبب في ضياع مستقبلتي
- إلي الآن لم يضع مستقبلك ولكن مستقبلك سيضيع قريباً إذا لم تتعاون معنا
- ماذا تقصد؟
- ما سمعته
- لم أسمع شيئاً
- سلم علي أمك الحلوة
- طبعاً أمي حلوة. هل أمك حلوة مثل أمي؟
- توقعت أن يرد عليّ ولكنه لم يرد بلسانه. لقد رد بصفعة قوية علي وجهي لم أتوقعها في الحقيقة. رفع يده ليصفعني ثانية ولكنني أمسكت بيده بكل قوة ونظرت إليه بكل تحد. لم يستطع أن ينظر في عيني. نيران التحدي والغضب كانت تخرج من عيني كطلقات فتاكة تجاه وجهه وصدره. قلت في هدوء وأنا أضغط علي أسناني:
- لولا البذلة الميري التي ترتديها لرددت الصفعة. أنا لا أحترمك ولكنني أحترم نصر مصر الذي يرفرف علي أزرار بدلتك. تحيا جمهورية مصر العربية يا باشا. علمونا في الجيش يا باشا إذا ارتفعت الأيدي تساوت الرتب.

— لقد صرت تتكلم. عرفت أن تتكلم يا عبدالله يا مصري
— سيتكلم الجميع بعد الثورة يا باشا. لقد انطلق المارد من القمم.
لن ترجع العجلة إلي الورا. رياح الثورة شملت كل شئ
وستغيّر مصر كلها. مصر الآن غير مصر التي كانت من قبل
— أنتم واهمون. الثورة نحن الذين صنعناها ونحن الذين سنخمدوها.
معلوماتي أنك تحب الرئيس مبارك. الآن تتحدث عن الثورة؟
سيعود كل شئ كما كان. تأكد من هذا.

— أنت تحلم يا باشا كما يحلم السذج والبسطاء. أنا أحب الرئيس
مبارك ومعلوماتك صحيحة ولكني كنت أتمني أن يعطي الفرصة
ليصحح من أخطائه السابقة باستعلاء رجال الشرطة والجيش ولكن
الثوار أبوا. ليتهم تركوه ليعالج كل شئ بحكمته. أعلم أن هناك
أصابع خفية كانت تتحرك من خلف الستار لتطيح بالرئيس
وأعلم أنها كانت مدفوعة من الخارج ولكن هذا قدرنا. نعم لقد
ظلم الرئيس مبارك. ليتنا لم نترك ميدان التحرير لكم. كانت
أحلامنا وردية وخنقتموها. كانت آمالنا كبيرة ولكنكم دفنتموها.
ابتعدت خطواتي قليلا وأنا أتجه نحو عنبري. سمعت صوته
يأتييني كالرعد:

— ليس أمامك إلا أسبوع واحد
— أعلي ما في خيلك اركبه
— سأعطيك فرصتك كاملة

— شكرا يا باشا. لن أغير موقفي ولو بعد شهر
— سأعامل معك بالعدل. أسبوع واحد لا غير

انصرفت من حضرته وأنا متأكد من أن نظرات غضبه تخترقني.
ما كان عليّ أن أتحدث معه بهذه اللهجة. سأتجه إليّ التي. سأعمل
وأشتكي إليها. يبدو أن المعركة ستبدأ من جديد. كنت أعتقد أن
الضابط شديد سيفهم أنني لن أعمل معه. كان علي والد زوجته والذي
يعرفني جيدا أن يفهمه أنني لست من هذه النوعية الرخيصة. لقد
ضحيت بمستقبلي العلمي من أجل مبدأ سرت عليه طيلة عمري ولن
أغيره. لماذا يعطيني هذا الأسبوع؟ أيكون هذا الأسبوع بمثابة مهلة
للتفكير بالنسبة لي؟ أعتقد أن الضابط شديد كان سينسي ما طلبه

منك؟ الغريب أنه قد تزوج ابنة عبدالمجيد حسني أبغض رجال الأرض إلي قلبي. الطيور علي أشكالها تقع. لم أكن مستريحا منذ البداية للضابط شديد.

هدنة أو غير هدنة لا يهمني. ليس لدي شئ أخاف عليه أو أخسره إلا أمي. خسرت سارتي الحبيبة وخسرت شكرية خطيبتي وخسرت مستقبلي. ما عاد لدي ما أخاف عليه سوي أمي. ليس لدي مال ولا ممتلكات أخشي عليها. أنا في هذه الحياة بمفردي. كما أتيتها بمفردي سأغادرها بمفردي. ليس لدي منصب أخاف عليه ولا أولاد أخشي عليهم. الحمد لله. ماذا سيفعلون بي؟ لاشئ.

عبدالله المصري في هذه الأيام لا يختلف كثيرا عن عبدالله المصري في أوائل الثمانينيات من القرن الماضي عندما أضعتم مستقبله وكان في أول خطوات حياته. لن أعتبرها هدنة. سأعتبر هذا الأسبوع استعدادا لمعركة العمر. مرحبا بطعنات الترقب والتحدي. أهلا بجحيم المغامرة من جديد في حياتي. فلتشرق أيتها الروح وإياك أن تتواري أمام جحافل التهديد. إياك أن تنهزمي أمام قوات الظلم والبطش. هي روحك التي تعتز بها يا عبدالله يا مصري. لن أطأطي الرأس وسترتفع رايته كما ارتفعت في بداية حياتك. أهلا بالتحدي ومرحي بروح القتال. كنت أعتقد أن السلام سيرفرف علي حياتي وأن الأمن سيعم أيامي. كنت أظن أن الحرب ستضع أوزارها. لقد كنت واهما. يبدو أن الحرب سيشتعل لهاها من جديد وسأصلي بنيرانها. ها أنا ذا أراني في قلب أوارها فتشوي وجهي وتحرق قلبي وتأكل كبدي. أراني أصطلي بنيرانها وأسمع صوت صليل سيوفها وأنينها.

أدركت آلتني وبدأت العمل بنفس الروح. لا يزال ندا عبدالعليم يقلب في صوره وشهاداته ويهيم في دنيا سارة العسكر. لزال الزملاء يرزحون تحت نير القهر والعمل كما أرزح أنا تحت نير الخوف من تهديد الضابط شديد. أنا أرزح معهم. وجوههم مكفهرة منكفئة علي الماكينات. ظهورهم منحنية علي العمل طيلة الوقت. السخط والتبرم يكاد ينطق من حبات العرق المتساقطة من جبينهم. لا مراوح لا مكيفات ضغطا للنفقات. حتي اللمبات الكهربائية تطفأ كثيرا حتي لا تستهلك الكهرباء فيما لا يفيد. البطاريات التي يشتريها العمال

علي حسابهم من مرتباتهم الهزيلة تكون الحل الوحيد. حل الضعيف العاجز. يزدادون ثراء ويزداد فقرا وقهرا وحسرة. لو استطاعت سارة ورجالها لمنعت عنهم التنفس والنبض حتي لا تستنفد من طاقاتهم ليظلوا عبيدا للعمل عندها. زادت ساعات العمل وسكتنا. أخذوا نصف ساعة للعمل من ساعة الغداء وسكتنا. يجب أن نضع حدا لكل هذا. ماذا لو نطق الصمت في مصنعنا وفي كافة المصانع؟ ماذا لو صرخت وقلت لا؟ ماذا لو صرخت بكل ما أوتيت من قوة؟ ماذا لو تبعني العمال؟ إن النظرات تطاردني والآمال تتبعني والحلم يحدوني. نحن ضعفاء بصمتنا. عاجزون بجبننا. نحن في مهانة لتفرقنا. ماذا لو اجتمعنا ولو علي صوت صرخة واحدة بكلمة لا؟ سأبدأ في تنفيذ الفكرة التي عنت لي. سأكون أنا البادئ بالصراخ وبالنطق بالكلمة التي أحبها وتستهويني. سأطلق شرارة الثورة. سأكون بوعزيزي مصنعنا حتي ولو حرقني شديد وأضرمت سارة في نيران غضبها. ماذا ستفعل؟ ستطردني من المصنع؟ الأرزاق علي الله. أوقفت التي وصرخت بأعلي صوت:

— لا

فهمت أحلام المطيري مقولتي وقد كانت تنظر إليّ وأنا أفكر ويبدو أنها قرأت ما يدور بداخلي. أوقفت آلتها. وصرخت قائلة وكأنها تخرج كلمتها من أعماقها:

— لا

توالت نظرات الزملاء إليّ. صرخ إياد ناصر وماجد بحيري مثلنا ورفعنا صوتينهما بلا مدوية وتوقفا عن العمل. أخرجوا ماكيناتهم. أوقفوا أنينها. ما أجمل صوت لا!! ما أحلي رناتها عندما ترتفع وتخترق كل جدران الصمت!! ما أجمل ألحانها وهي تتردد في صدور المقهورين!! أي راحة شعرت بها بعد أن قلتها!! شعرت بأن جبالا من القهر وأطنانا من الظلم وتلالا من الخوف قد أزيحت من علي صدري. شعرت بأنني أعاد سيرتي من جديد وأرتدي لباس إنسانيتي من جديد. أحسست بأنني أشم نسима جديدا وأخلع قيود الذل والهوان وأتحرر من عبودية الرق في هذا المصنع الذي طالما حرقتنا فيه نيران الظلم. سمعنا نفس الرنين لكلمات لا في عنابر عديدة مجاورة.

ينظر إلينا ندا عبدالعليم في تعجب. اتصل علي الفور بسيف غرس الدين الذي هرع إلي عنبرنا. كثرت الأصوات التي تعلو في كل العنابر مرددة نفس الصيحة. لا.

لم تزل نهاد في تردد من أمرها وكذلك رجاء شوكت وسادة الدوغري. كن لا زلن يعملن علي الآلات. اتجه ماجد بحيري نحوهن في غضب وأوقف الآلات. نظراته تطلب منهن أن يصرخن وأن ينطقن بكلمة لا. لا يستطعن أن يصرخن أم أنهن يخفن من المصير القادم بعد الطرد من المصنع.

رياح كلمة لا تهب وتنطلق مدوية في جنبات المصنع. أتت سارة العسكر بنفسها. يبدو أن سيف غرس الدين أبلغها. أتى معها عبدالله البندري حمارها وزوجها الرئيس الأعلى للمصنع. عندما دخلت سارة ساد الصمت.

كان زوجها وراءها وندا عبدالعليم عن يمينها وسيف غرس الدين عن يسارها. أتى نجدي البقري وهو يلهث ووقف بجوارها يهز رأسه كما يهز أي كلب ذيله لولي نعمته وصاحب الفضل عليه. صرخت قائلاً:

— لا

رددت كل العنابر من جديد كلمة لا.

ابتسمت سارة العسكر واقتربت مني في هدوء وقالت:

— ما الذي يحدث في مصنعي يا عبدالله يا مصري؟

— فاض الكيل يا سارة يا عسكر

— اسمي الأستاذة سارة العسكر. إياك أن تنسي نفسك

— يا أستاذة سارة نريد أجراً إضافياً مكافئاً لعملنا لمدة ساعتين ونصف

نظرت إلي العمال وابتسمت في هدوء وهي تضغط علي أسنانها

وتلوي شفيتها تارة تجاه اليمين وتارة تجاه اليسار ثم تساءلت:

— وماذا أيضاً؟ وهل أنت الزعيم الذي تتحدث نيابة عنهم؟

— ساد الصمت لمدة دقيقتين. لم يرد أحد. اتجهت إليها قائلاً:

— نعم

— الأمر بسيط لا يستحق كل هذه الضجة. لديكم صندوق الشكاوي

والمقترحات وكان يمكنكم أن تضعوا فيه ما تريدون. أنا أحرص

- بنفسي علي قراءة ما فيه كل يوم.
- لقد امتصت الصدمة بهدوء وباستبسال. يا لها من امرأة قوية حقاً!! نظرت إليّ قائلة:
- هل جرب أحد أن يضع هذا الاقتراح في صندوق الشكاوي؟ هل طلب أحد مقابلتي ورفضت؟ بابي مفتوح للجميع. هل اشتكي أحد لي ورددت شكواه؟
- عمن الصمت جميعاً. لقد كنا نتهامس فيما بيننا ولم يجرؤ أحد علي رفع صوته أو تقديم شكواه. صرنا ننظر إلي بعضنا. مرت سارة العسكر في ثقة منقطعة النظير بين العمال. نظرت إلي ندا عبدالعليم وقررت أن تجعل منه كبش فداء. صرخت في وجهه قائلة:
- أيها الغبي. مخصوم منك ثلاثة أيام. لماذا لم تبلغني أن العمال يتذمرون من زيادة ساعات العمل
- يا ست الكل. ...
- اسكت أيها الغبي عندما أتحدث ولا تقاطعني. لماذا لم تسألهم عن رأيهم في قرار زيادة ساعات العمل؟ هذا آخر تحذير لك تهللت وجوه العمال. اتجهت نحو سيف غرس الدين وصرخت فيه قائلة:
- أما أنت فلك معي شأن آخر. أنت لا تصلح أن تكون مديراً لمصنعي. أنت تصلح لأن تكون بياعاً للبطاطا. أنت لا تعمل بأسلوب علمي سليم أيها الأحمق.
- أتي بعض عمال العنابر الأخري إلي عنبرنا ليستمعوا ما ستقوله الأستاذة سارة العسكر. رفعت سارة العسكر صوتها وقالت للجميع:
- سأعقد اجتماعاً مع رؤساء الورديات ومع الرئيس الأعلى للمصنع ومع مجلس إدارة المصنع. أنتم أصحاب المصنع الحقيقيين. إن كل ما تقومون به من عمل محل تقدير واحترام. نحن نعرف مدي كفاءتكم ونقدر مدي إخلاصكم وحرصكم علي المصنع وحبكم وولاءكم للمصنع وسنزيل كافة المشكلات التي تواجهكم وسنحرص علي راحتكم وإجابة جميع متطلباتكم.
- سمعت صوت صرخات تخرج من الأفئدة:
- تعيش تعيش سارة العسكر. تحيا الأستاذة سارة العسكر. ست

عظيمة زي السكر.

نظرت إليّ قائلة :

— هل هناك طلبات أخرى يا أستاذ عبدالله؟

لم أستطع أن أرد. نظرت إليّ بود وقالت :

— لماذا إذا لا نذهب إليّ العمل. أمهلونا أسبوعا واحدا وستجاب كل طلباتكم. إليّ العمل أيها الرجال.

لم تخرج سارة العسكر من عنبرنا إلا بعد أن دارت الآلات من جديد. نظرت إليّ سارة في مودة أكبر وضغطت عليّ شفتها السفلي بأسنانها العليا ونظرت إليّ بإعجاب ثم قالت لي :

— اتبعني إليّ مكتبي فورا. أوقفت الآلة التي أمامي بيدها قبل أن تخرج. تبعتها في صمت وليتني ما تبعتها.

خرجت وتبعناها جميعا.

دخلت مكتبها وأشارت إليّ أن أتبعها. أمرت أمجد سكرتيرها ألا يدخل أحد علينا. قالت له بصوت آمر: «حتى التليفونات ممنوعة».

ما أن دخلت إليّ مكتبها إلا واتجهت نحو كرسيها الفخم وكأنه عرشها العظيم الذي ستستوي عليه في استعلاء وعظمة. جلست ثم قامت فجأة وأسدت الستائر. اتجهت إليّ في قسوة وعنف ثم فاجأتني وانقضت عليّ شفتي في قبلة لم أذق مثيلا لها. ألقتني عليّ إحدي الكنبات ثم انقضت عليّ في شراسة بالغة فوجدت نفسي أغوص في أحضانها ولا أستطيع فرارا. حاولت أن أتكلم معترضا محتجا ولكنها أخرجتني بوابل من قذائف قبلاتها حتي استسلمت تماما. لقد خارت قواي وضعفت مقاومتي وانتهى أمري.

الحلقة الثانية والخمسون

حسرة النجاح

نسمات المغرب القائظة تهب عليّ وتلهب وجهي وتلفح تفكيري. أحاول أن أخفف من حدة هذه النسمات بمسح وجهي بمنديلي القماشي. المروحة الكبيرة التي تعمل بالمقهي باستمرار لا تسمن ولا تغني من جوع أمام قسوة الحرارة المرتفعة. المعلم حمدتو يمسك

بخرطومه الأخضر الطويل ويرش الأرض أمام مقهاه بنفسه بعد أن رفع ذيل جلبابه الذي يجعل منه عمدة المكان وسيد المنطقة. ينتظر أن يهل الزبائن. صبيه ينتظر أن ينتهي المعلم ليرص الكراسي ويجهز المكان. يريد المعلم أن يلطف من حدة الجو الحار كما يريد أن يسكت الغبار ويسكنه ويجلب نسمات باردة بمائه الذي يندفع من خرطومه. يحكم قبضة أصبعيه الإبهام والسبابة علي مقدمة خرطوم الماء فيندفع الماء بقوة من خلال فتحتين صغيرتين يتحكم فيهما بأصبعيه ليصل الماء إلي أماكن بعيدة. أري الماء المندفع في تيارين يغسل الأرض ويجلب رائحة مختلفة إلي أنفي بعد يوم شاق من أيام العمل بمصنع سارة الكئيب. كان يتجنب المارة في مهارة بالغة حتي لا يصيبهم بمائه.

رحب بي وسأل عن أخبار حسام وزوجته كريمة والذي كان هو السبب في زواجهما منذ عدة شهور. لم يكن لدي معلومات عنهما. لقد انقطعت أخبارهما عني منذ أن سافرا. أخبرني المعلم حمدتو أن حسام قبل أن يسافر مر عليه بالمقهي وأخذ رقم هاتفه المحمول ورقم تليفون المقهي. كان يغبطه علي أنه سيعمل بمكة المكرمة بالقرب من المسجد الحرام. نظر إلي صورة الكعبة المعلقة داخل المقهي ورفع بصره إلي السماء قائلاً: «ربنا يبسر لنا أمر الحج يا عبدالله يا مصري». كنت أعرف أنه ثري وصاحب جاه ومال وعزوة فسألته: «لماذا لم تحج إلي الآن يا معلم؟». «ابتسم لي فباننت سننته القضية في أعلي فمه:» «لم يأت النصيب بعد. إن شاء الله ربنا يكتبها لنا». تذكرت حلم أمي الذي حلمته لي منذ فترة بأنني أؤذن. أضغات أحلام. من ذا الذي يمكنه أن يحج في هذه الأيام إلا الأثرياء. نظر المعلم إليّ وقال في أمل: «إن شاء الله سأقدم علي الحج هذا العام. دعواتك يا أستاذ».

سألني عن أنور حسان وعن محمد بسيوني فأخبرته أن اليوم يوم المعركة الكبرى. هناك ثأر كبير بينهما. لقد أقسم محمد بسيوني بالله ثلاثاً أنه إن هزم الليلة فلن يلعب الطاولة ثانية وسيعتزل اللعب محلياً ودولياً. لقد قررا أن تكون أرض المعركة هنا. اليوم سيكتب التاريخ علي مقهاك يا معلم. ابتسم المعلم ثم قهقه قائلاً: «ستكون معركة حامية. يبدو أنها ستكون موقعة أشد حماساً من المعارك بين برشلونة وريال مدريد. أنت لا تعرف كيف يكون

الزحام هنا علي هذا المقهي عندما تكون هناك مباراة بين الفريقين؟»
أذن لصلاة المغرب فذهبت إلي الصلاة. عدت فوجدتهما علي أهبة
الاستعداد لهذا اللقاء الحاسم. كأنها حرب باردة تلك التي كانت
بينهما. بدا كل طرف في تخويف الطرف الآخر. تحلق حولنا عدد كبير
من رواد المقهي لرؤية هذه الموقعة الحاسمة. رفع أنور حسان صوته
قائلا في تحد واضح وفخر ليس له مثيل وكأنه يمتلك زمام اللعبة:
— عد إلي رشدك يا ابن بسيوني. لن تقدر عليّ. استسلم وعد
إلي رشدك. لن تستطيع أن تغلبني. ستفقد الملاعب لاعبا مثلك.
اعترف بأستاذيتي وسأعفو عنك. لن أحرمك من اللعب. أقول لك
شيئا. اذهب وتمرن أولا ثم تعال لتلاعبني. سأسحقك. انسحب
من أمام أستاذك. هذا أفضل لك.
— أستاذي؟ أنا أعترف بأستاذيتك؟! أنت تغلبني؟! مستحيل. أنا
أستاذ الأساتذة. سأغلبك الليلة أمام مسمع ومرأى من كل هؤلاء.
أكل هذا لأنك فزت عليّ المرة الماضية بضربة حظ؟
— إن هزمتك فلن تلمس الزهر ثانية. أنا أحذرك. الحظ لا يحالف
إلا الأقوياء. صدقني. الضعفاء فقط هم الذين يتعللون بالخطأ أما
الأقوياء فدائما ما يسير الخط في ركابهم.
— يا ابن حسان. ..
قاطعتهما وقلت في حسم:
— لن نقضي الليلة في حرب نفسية كلامية. فلتبدأ المعركة.
بدأت المعركة. كل منهما يحاول أن يجهز علي الآخر برميات زهره
وبمهارته في إغلاق الخانات أمام خصمه. كانا يلعبان بمهارة فائقة.
الجمهور حولهما في حالة تشجيع مستمر. من الناس من يهمل لمحمد
بسيوني إذا أتاه الدش وآخرون يهملون لأنور حسان إذا أحسن في ترتيب
أوراقه وأمسك ورقة لمحمد بسيوني وحبسها فلا يستطيع التحرك.
غبت عنهما وغصت في دوامات ذاكرتي. أنصت إلي راديو المقهي
وأنا أتابع وقائع هذه المعركة وأستمع لعبدالحليم حافظ وهو يغني
عندما بدأ الليل يسدل ستائره فيختفي ضوء النهار ليحل الليل علينا
بنسماته الحلوة. أغنيته أعادتني إلي ما يزيد علي ثلاثين سنة إلي
الماضي. «وحياة قلبي وأفراحه. وهناه في مساه وصباحه. مالقيت فرحان

في الدنيا زي الفرحان بنجاحه. كان حلم جميل في خيالنا. ولا غابش في يوم عن بالننا. وبني لنا قصور وفرشها زهور لحياتنا ومستقبلنا». غبت عن أرض المعركة بين هذين الغريمين وعدت إلي واحة حبي وأيام شبابي. أتذكر جيدا هذه الأغنية. غناها عبدالحليم حافظ لأول مرة بعد عام من نصر أكتوبر. كانت الأغنية تنقلها الإذاعة. سمعت المذيع يقول إن الإذاعة تنقل الأغنية من جامعة القاهرة. إن شاء الله سأدخل جامعة القاهرة العام القادم. كنت أذاكر اللغة العربية مع أدهم وسارة. كنت أحس أن أدهم يسابقني في النظرات إلي سارة. دخلت والددة أدهم علينا بالسندوتشات ودعت الله أن يوفقنا. ربتت علي كتفي. كأن نظراتها تقول لي بكل حقد وغل: «أنا واثقة من نجاحك. أنت متفوق. ربنا يستر عليهما. سبحان الله. أولاد الفقراء أفضل بكثير من أولادنا في المذاكرة وفي التحصيل». أكل أدهم وأكلت سارة ولكنني لم أذق شيئا. كنت أخاف من نظرات أمه وأقرأ سورة قل أعوذ برب الفلق لينجينني الله من شرها ومن شر نظراتها. علي أي شئ تحسدني هذه المرأة؟ سبحان لي. عندما قلت لأمي إنني أخاف من نظرات هذه المرأة قالت لي هازئة هذا المثل: «يحسدون الأعمى علي طول عصاه؟!» لم أفهم وقتها معني المثل فقالت لي لما استفسرت عن معناه: «يعني ينظر الحساد إلي الأعمى فيحسدونه علي طول عصاه بدلا من أن يشفقون عليه من عصاه». تعني أنهم بدلا من أن تحسدني هذه المرأة علي تفوقي يجب أن تشفق علي وترثي لحالي لأنني يتيم فقير. لم أتعجب لتفسير أمي. أليست هذه هي الحقيقة؟

كنت أفكر أيضا بقلبي. قلبي الذي تعلوه موجات الحب وتذروه رياح الخوف وتعبث به نسمات القلق. أعرف نظرات أدهم جيدا وأفهم ما تعنيه. إنه أيضا يحبها. إنه يهيم بها. إنه يطيل النظر إلي عينيها مثلي تماما. يغوص فيهما كما أغوص. لقد أحببناها معا ولكنني أدركت فيما بعد أنني فقط من يحبها بصدق. إنها لا شريكة لها في قلبي علي العكس منه ولكن من أنا حتي أفوز بحبها؟ صحيح أنني استمعت إلي اعترافها بحبي عندما تظاهرت بأنني فاقد للوعي. تري هل تجرؤ علي أن تعترف بهذا الحب أمامي وأنا في قمة

الوعي؟ تري هل تحبني فعلا أم أنها قالت هذه الكلمات في اعترافها لإحساسها بالذنب تجاهي وتيقنها بأن ما أصابني كان بسببها؟ لقد كنت أحاول أن أمنع الشاب من مضايقتها.

إذا كنت أنا وأنا أهيم بها وأستعد أن أكتب لها كلمة أحبك بدمائي وبدموعي وبصوت أنفاسي المتبتلة في كل محاريب عشقها وبابتساماتي وبهمساتي وبنظراتي لا أستطيع أن أصارحها بهذه الكلمة. لا أجروء علي أن أقولها. أيمكنها هي أن تقولها لي وجها لوجه؟ كنت أشرح لهم الاستعارة المكنية. كنت أشرح لهما بعض الأبيات. آه تذكرتها. أتذكر أنني كتبت لها شعرا في أحد كتبي ذات ليلة. يمكن أن أوضح لهم معني الاستعارة المكنية بهذه الأبيات. فجأة وجدت لساني ينطق بما هو مكتوب في قلبي قبل أن ينسال علي صفحات كتابي. أنشدت قائلا:

همست عيون القلب بحبها سارة أضحي الفؤاد لشعرها قيثاره
ضج الوجود لحسنها بجدارة صاغ النعيم بقربها أشعاره
صاح النعيم بشذاها أحبها سارة نطق الصباح إذ رأي أمامه سارة
نظر إليّ أدهم غاضبا وقال في تساؤل وهو يشتعل ضيقا وينفخ في قلق:
— ما علاقة هذا بالاستعارة المكنية يا عبدالله يا مصري؟ وما علاقة سارة بهذا؟

— يا غبي افهم. الاستعارة المكنية أن تشبه شيئا بشئ فيصير لديك المشبه والمشبه به ثم تحذف المشبه به وتدل عليه بشئ من لوازمه. فلما قلت همست عيون القلب شبيهت القلب بالإنسان وحذفت المشبه به وهو الإنسان وأتيت بشئ من لوازمه وهو العيون. نفس الشئ بالنسبة للصباح إذ شبهته بالإنسان إذ ينطق. الاستعارة المكنية تبرز المعني وتوضحه وتفيد التشخيص.

— كفانا من مذاكرة اللغة العربية. هيا نذاكر الإنجليزي
— بعد أن نكمل درس البلاغة يا أدهم
— لا. كفانا هذا القدر من اللغة العربية ولكن بالله عليك من الشاعر قائل هذه الأبيات؟ غريب أنه يحب فتاة اسمها علي نفس اسم سارة. إنه شاعر محب فعلا. يمكن أن نسميه شاعر سارة فؤاد. اضطربت كثيرا. أحسست أنه يقصدني بهذا الكلام. كذبت وقلت

إنني رأيت هذه الأبيات في إحدى المجلات لأبعد عن نفسي شبهة أن أكون أنا قائل هذه الكلمات ثم قلت في هدوء بعدها نظرت إلي أدهم وكأنني أنفي التهمة عن سارة أيضا:

— الشاعر لم يقل إن اسم حبيبته سارة فؤاد
— من المؤكد أنه شاعر من شعراء العصر الحديث
— لماذا يا أدهم؟

— لأن اسم سارة لم يكن موجودا من قبل.

— هل أنت متأكد؟

— طبعاً. والله العظيم متأكد. اسم سارة من الأسماء الحديثة.

— الله يسامحك. حرام عليك. لا تحلف. اسم سارة موجود منذ زمن بعيد. ألا تذكر أن سيدنا إبراهيم قد تزوج من السيدة سارة — آسف. آه نسيت.

كادت سارة أن تضحك ساخرة من سطحية تفكير أدهم. هذا عقله وهذا مستواه الفكري يا سارة. نظرت إلي سارة بكل فخر واعتزاز. كأنها تقول لي: لقد أفحمته.

طيلة الليلة الماضية لم أنم. كيف أنام وهواها يغلب فؤادي. قرأت كلمات شعري الذي كتبته لها في كتابي. أري عينيها في كل سطر أقرؤه. أحس بطيفها في كل عبارة في كتابي. أشم لظي خدودها وهي تقترب مني إذ أشرح لهما أي درس ويتبدي لي سحرها في كل لحظة أغفو فيها. شعرها المتطاير يلهب خيالي. عطرها المتدافع إلي أنفي يذكرني بها. أحبها. لا. أحبها كلمة صغيرة جدا وحروفها ضئيلة لا يمكن أن تعبر عما يجيش بداخلي تجاهها. أعشقها. أهيم بها. أدور في فلكها. أتمركز حولها.

دخل علينا عبد الجواد الخربوطلي وهو يستمع للأغنية ويقول:

— عبد الحليم صوته رائع. أنا سعيد بهذه الأغنية. إن شاء الله تمر هذه السنة علي خير. المهم السنة القادمة. الثانوية العامة عنق الزجاجة. حتي أشجعكم سأعمل جائزة قدرها مئة جنيه لمن يحصل أعلي الدرجات فيكم.

نظر أدهم وسارة إليّ وقالوا في نفس واحد:

— إذا لقد فاز عبدالله بالجائزة

أحسست بقدر كبير من الفخر والثقة بالنفس. أتت والدة أدهم واستمعت معنا إلي عبدالحليم. أتت لنا بأكواب الشاي وشربناها علي نغمات الأغنية. كنت أختلس النظرات إلي سارة فأجدها تسترق النظرات إليّ أيضا. يراقبها أدهم فيملؤه الغيظ. ينظر إليّ وكأنه يريد أن يزيلني من الوجود حتي لا تنظر إليّ سارة. عبدالحليم يواصل غناؤه وأنا أنظر لسارتي وكأن عيناى ستنتظان بحبها. كان عبدالحليم يشدو: «ولقيتني في عز هنايا. والدنيا فرح ويايا. بتهني حبايبي معايا. وتقول لكل ارتاحوا».

تري هل نجحت فعلا يا عبدالله؟ هل نجحت في حياتك؟ وجددني أجيب في حزن يعتصر قلبي. ويصيب فؤادي وينكأ جروحي. لا. لم أشعر بلذة النجاح ولن أشعر بلذته أبدا إلي الآن. كل معاني النجاح اختزلتها في سارتي. إذا كانت معي فلقد نجحت. أما إذا خسرتها فقد فشلت. يبدو أنني فشلت فشلا ذريعا. أي نجاح في الحياة بدونها؟ أية سعادة للنفس وهي بعيدة عنها؟ أي هناء يمكنني أن أذوقه وأنا أتضور ألما في جحيم بعدها؟ أليست هي متعة الدنيا ولذة الحياة وجنة الأحلام والفرحة التي ما بعدها فرحة؟ أليست هي زينة الحياة وموطن القلب وناصية الدنيا كلها بالنسبة لي؟ في ليلتها أصر أدهم علي أن يكون معنا ليوصلنا إلي بيت سارة. رفضت سارة بشدة. أخافته بأنها قد تقول لوالده إنه يأخذ مفاتيح السيارة من ورائه ويخرج بها ويرفض أن يكون معه عم صادق السائق. لقد رآته أكثر من مرة يخرج بالسيارة ومعه الفتيات. أكثر من مرة ضبطته وهو يقبّل فتاة في سيارة. قالت له في حسم: «هل تريدني أن أخبره بمغامراتك مع البنات؟»

خشي من غضب أبيه. تراجع وتركني أذهب مع سارة وحدي. ألهمه الدرجة تغار عليها يا أدهم مني؟ لا تقلق. طيب إذا كنت تحبها فلماذا تعرف كل هؤلاء الفتيات؟ الحمد لله أنني لا أعرف شيئا في هذه الحياة غير مذاكرتي وحبيبتي. سارة حبيبتي. سارة حب عمري. أنت لا تحبها. لو كنت تحبها ما رأيت غيرها. أنت طماع إذا. أنت تستكثرها عليّ. أنت تغار مني. تريد أن تملكها حتي لا تكون لي. أنت تريد أن تحصل علي كل شيء. لا تريد أن تكون سارة لي. تريد أن تفوز بكل شيء.

أعلم أنني لست لها. أثق بأنني غير جدير بها. أشعر بأنني أود أن أموت ألف مرة عندما يكتنفني اليأس من أن تكون لي زوجة بعد أن كانت لي حبيبة طيلة كل هذه السنوات الماضية. إحساسي بالنقص يقهرني. شعوري بالعجز يخنقني. تبا لهذه الدونية التي تكبلني وسحقا لإحساسي بهذا العجز الذي يميّتي.

يا رب لماذا لم تخلقني مثلهما لي أب يدفع عني صروف الدهر وعضات أنياب الزمان؟ يا رب لماذا خلقتني فقيرا ولست مثلهما؟ أستغفرك يا رب من أن أسألك ما ليس لي بحق. أخشي أن تضيع مني وهي أغلي عندي من حياتي. إنها أثمر عندي من نور عيني. يا رب لماذا خلقتني يتيما؟ يا رب لماذا خلقتني فقيرا؟ يا رب رحمتك بي. ماذا أفعل لقلبي الذي لا يكف عن حبها ولا يتوقف عن عشقها وينبض باسمها في كل لحظة؟ يا رب ماذا أفعل بعقلي الذي يفكر فيها ليل نهار؟ ماذا أفعل بنفسي وأنا أجد نفسي محاصرا بحبها من جميع الاتجاهات؟ رباه إنني أفكر فيها في كل وقت وفي كل حين. أفكر فيها حتي وأنا أصلي لك. أفكر فيها حتي وأنا أخلو إليك. رباه. ظلت سارتي صامئة طيلة الطريق. كانت تنتظر أن أحدثها ولكنني كنت كصخر أصم. كنت كإنسان أصم أبكم لا يقدر علي شئ. كنت أحس أنني عالية علي هذه الحياة. لم أقدر حتي أن أنظر إليها. سألتني سارتي بعد أن وصلنا للبيت قائلة:

— من الشاعر الذي قال هذه الأبيات؟

— أية أبيات؟

— همست عيون القلب بحبها سارة

— شاعر جاهلي

— اسمه عبدالله؟

— يمكن

— عبدالله المصري؟

— لا أعرف

— لقد قرأت هذا الشعر بخط يدك في أحد كتبك

أحسست أن الأرض تميد بي. قالت لي في شجاعة وهي تثبت عينيها في عيني:

— الشاعر عبدالله المصري من شعراء مصر المعاصرين. ستكون له دواوين كثيرة وسيكون له مستقبل رائع. كان من أفضل الطلاب المصريين وسيحصل علي الثانوية العامة في عام ألف وتسعمائة وخمسة وسبعين. سيكون رجلا متميزا.

ملأني الخجل وصرت لا أستطيع أن أثبت مكاني. أسرع ودخلت حجرتنا وتركتها واقفة بالخارج تبتسم. أدخلتني أمي ودعت سارة للدخول. نعم أحبها ولكن ماذا بعد الحب؟ قالت لي سارة بصراحة غير معهودة في الليلة التالية :

— هل تحبني يا عبدالله يا مصري؟ صعقت تماما. لم أكن أتوقع أن تسأل سارتي هذا السؤال. كانت ليلة حزنت فيها حزنا لم أحزن قبله ولن أحزن بعده. ليلة تمنيت لو مت قبلها.

آه أيها الزمان. تبا لك أيتها الأيام. أحبها حقيقة لا خيالا. أحبها يقينا لا وهما. أحبها قوة لا ضعفا، ولكن غلبني الضعف وأنا في قمة لحظات القوة بسبب حبها. أتمني لو كنت أستطيع أن أقاتل أهل الأرض كلهم جميعا من أجلها بشجاعة منقطعة النظير لا يعرف الجبن إليها سبيلا. ماذا لو انتظرت قليلا يا عبدالله ولم تجب؟ إنها لحظات كان من الممكن أن تغير مجري الحياة. لحظات قليلة تلك وهي التي تفصل بين النور والظلام كشعرة دقيقة تفصل بين الصباح والمساء. لحظة كشعرة ولحظات كشعيرات قلائل تفصلنا عن المصير كتلك اللحظات التي تفصل بين العقل والجنون. شعرة بين الحقيقة والخيال. لحظة واحدة بين الوهم واليقين وبرهة فاصلة بين الشجاعة والجبن. وقفة دقيقة بين القوة وضعف الحيلة. لحظة واحدة بين أن تكون أو لا تكون. لقد قررت أن أكون غيبا تماما كالماء العذب عندما يقرر مصيره بنفسه ويلقي نفسه عند المصب وينتحر برمي نفسه مجبرا في البحر في الماء المالح. لقد قررت أن أظل في اللحظة نفسها ولا أجتازها.

هززت رأسي بالنفي. لم أجرؤ علي أن أقول لها لا. هززت رأسي فقط لأضيع نفسي وأقتل حب عمري وأدفن مشاعري والقي بنفسي في بحار من جحيم الندم طيلة عمري. من أنا حتي أستطيع أن أصرح بحبها؟

قبل أن نصل إلي البيت وجدتها تبكي ووجدتني أبكي أنا أيضا.
سألتها عن سر بكائها فقالت :

— شخص غبي لا يفهم

— من هذا الحمار؟

— أنت

— أنا غبي؟ الله يسامحك

— الله يسامحك أنت

بعد هذه الليلة بعام واحد. كنا ننتظر نتيجة الثانوية العامة. كنت متأكدا من أنني سأنجح. أخذت أمي تصلي وتدعو لي. كانت تطلب من الله أن أنجح. كانت الدموع تبلبل خديها. كانت تقسم علي الله بكل غال وعزيز أن ييسر لي أمر النجاح حتي طرق عبدالجواد باشا الخربوطلي بابنا. دخل متهلل الوجه. كان يمسك بجريدة المساء. دخل واحتضنني ثم خرج واستدعي فؤاد باشا. دخل أدهم وسلم علي بلا مبالاة. أتت سارة ووالدها.

أخرج عبدالجواد باشا الخربوطلي ورقة مالية فئة المائة جنيه ووضعها في يد أمي. احتضنني في فخر وقال :

— شرفتنا ورفعت راسنا يا عبدالله

تساقطت الدموع من عيني أمي. زغردت سارة واحتضنتني وكذلك فعل والداها. رفعت أمي يديها إلي السماء وقالت :

— اللهم لك الحمد يا رب. الولد نجح. لكم أنت كريم يا الله

باغتها عبدالجواد قائلا :

— الولد لم ينجح يا أم عبدالله. ..

صرخت أمي مقاطعة إياه قائلة في تساؤل :

— يا مصيبتني !! الولد سقط؟

— لا. الولد نجح. لم ينجح نجاحا عاديا

— هل سيدخل الجامعة؟

— إن شاء الله

— ما حكاية أنه لم ينجح نجاحا عاديا

— ابنك الأول علي جمهورية مصر العربية كلها

— الحمد لله

خرت أمي ساجدة لله شاكراً علي نعمه وكرمه أما أنا فكنت في
ذهول غير مصدق. أعطاني عبدالجواد بيه الجريدة المسائية فوجدت
صورتي تتصدر الجريدة تحت صورة الرئيس السادات. فوجئت بنفسي
أنط إلي أعلي. أشعر أنني لامست السماء. أحس أنني لامست النجوم.
وجدتني أصعد إلي أعلي وأنظر إلي سارتي وكأنني أحملها إلي أعلي
معي. نضعد نضعد إلي أعلي ونقبّل القمر. كأننا نضعد إلي السماء
السابعة. كنت أحملها بين يدي برفق. نجاحي هذا لك يا سارة.
قلبي لك. كلي لك يا سارتي. هيا نهبط سوياً إلي الأرض. أمسك
بذراعيها بحب وحنان. أنزل إلي الأرض رويدا رويدا حتي أسجد لك
يا رب شاكراً. امتلأت عينايا بالدموع. لم تكن دموع الفرحه وحدها
ولكنها كانت دموع الحسرة. لقد أضعت سارتي بعقلانيتي المفرطة.
أضعتها ورأيت نظرات الحسرة في عينيها كما أحسست بمرارة طعم
الحسرة في قلبي. لقد هززت لها برأسي تلك الليلة بأنني لا أحبها.
بنّست هذه الليلة. لقد أفسدتُ علي نفسي فرحتي بالنجاح.
سعد بي كل من كان موجوداً إلا أدهم. نظرات الغل والحدق تملؤه.
فجأة صرخ محمد بسيوني قائلاً:

— دش

هناً كل الحاضرين محمد بسيوني. لقد كسب العشرة ونجا من
قيد الاعتزال الذي كان سيكبل به إذا لم يكسب هذه العشرة المصيرية.
سيواصل مشواره وستستمر حياته كلاعب محترف في دنيا ملاعب
الطاولة. رقص علي أنغام عبدالحليم وهو يرقص فرحاً مردداً وراء
عبدالحليم:

«دا مافيش فرحان في الدنيا زي الفرحان بنجاحه. الناجح يرفع
إيده. هيه. ويغني في عيدنا وعيده. هيه. ونقول ونقول دايماً. ناجحين
علي طول دايماً. ونجاحنا يطول دايماً. دايماً علي طول. دايماً علي
طول. دايماً دايماً دايماً».

أصداء الخيال

الحلقة الثالثة والخمسون

أقمار تتمرغ في الوحل

كانت ليلة من ليالي ألف ليلة وليلة. لم لا وقد رأيت فيها ما لم أراه في كل أيام حياتي السابقة. ليلة عشتها وتمنيت لو أنني لم أعشها. ليلة الغرائب والعجائب. ليلة لم أعش مثلها من قبل ولن أعيش مثلها من بعد. ليلة العجب العجاب والأرض الخراب. ليلة الصدمة كما أحب أن أسميها. لقد كنت إنسانا هامشيا قبل هذه الليلة. لقد كنت بالفعل أعيش علي هامش هذه الحياة أو لم أكن موجودا حقا. لا. أشهد أنني لم أكن حيا قبل هذه الليلة. لم أكن أعيش إلا في عالم خيالي شيدت أعمدته بنفسني. لقد كنت مغمض العينين أو معصوب العينين علي أدق تعبير. لقد رأيت العالم الحقيقي الذي كنت أسمع عنه وأراه فقط في الأفلام أو علي صفحات الجرائم. مهما قلت عن هذه الليلة فلن أوفيها حقها ولن أستطيع أن أعبر عن معشار ما أحسست به فيها. كنت أعمي فعلا. لم أكن أعرف أي شيء في هذه الحياة ولكنني في هذه الليلة رأيت الحياة. لقد تعرت الدنيا أمامي تماما في هذه الليلة. لم يعد عليها ما يسترها قط. لقد انكشفت لي كل السوات وظهرت أمامي كل العورات.

لقد شاهدت الفضيلة تذبح أمام عيني. رأيت الأخلاق تنتحر. آمنت بأن الفضيلة وهم قد اخترعناه نحن الفقراء لأننا لا نقدر علي الرذيلة. أيقنت أن القيم يمكن أن تتبدل وأن تتغير وأن تنتهك وتغتصب. يمكن للقيم أن تتلون كالحرباء بأي لون تحبه. لقد كانت باختصار ليلة ليلاء. رجعت من عملي مرهقا. الجو حار والحياة خانقة والمعيشة في هذه الأيام لا تطاق والعمل في مصنع سارة العسكر بالذات يصد النفس عن الحياة. اقتربت مني أمي ودعتني إلي الطعام. كان اليوم يوم خميس. فعلا لقد كان آخر يوم من أيام الأسبوع. شكرتها وذهبت إلي حجرتي لأنام. جاءني بكوب من عصير الليمون وطرقت الباب علي. اعتذرت لها. لقد كنت صائما. الليلة ليلة الرابع عشر. قررت أن أصوم الأيام البيض. الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر من الشهر العربي. صمت بالأمس وهذا هو اليوم الثاني. ربت أمي علي ظهري في حنان وقالت:

- الجو حار جداً يا عبدالله
- أصوم يوماً حاراً في الدنيا من أجل يوم أشد حرارة في الآخرة.
- أحب الصيام بالصيف يا أمي كما تعلمين
- قواك الله ووفقك.
- سأنام لأنني مرهق جداً.

حاولت أن أهرع إلي النوم ولكنني كنت أحس بأن ريقني ناشف جداً. كأنني أبتلع عصيات في حلقي. من أجلك أنت يا ربي أصوم. أرجو جنتك وأخاف عذابك. عطش الدنيا يمنعني من النار في الآخرة. كنت أتقلب قبل أن أنام. الليلة يجب أن أكون في فيلا سارة العسكر قبل العاشرة. لقد دعيتني إلي حفل عيد زواجها بحمارها عبدالله البندري علي حد قولها. سأنام وليكن ما يكون.

أغمضت عيني ولكنني لم أنم. خطفتم لحظات قليلة من بستان النوم ولكنني كنت سرعان ما أفيق لأن الجوع يقرص بطني ولأن العطش يفعل بي أفاعيله. دقائق وسيؤذن للمغرب. أغيب ثانية في بستان النوم وأقتطف زهرة حلوة من الغفلة ووردة جميلة من سنة نوم هادئة ولكنني سرعان ما أعود للواقع ثانية لأن ريقني قد جف تماماً. أعتقد أن مستوي السكر في جسدي قد هبط تماماً إلي أدني مستوياته. ظلمت بين يقظة وغفوة إلي أن سمعت آذان المغرب. هربت إلي الثلاثة وانقضضت علي زجاجة ماء باردة. نظرت إلي أمي معاتبة. تخاف علي صحتي. عطشان يا أمي. تناولت إفطاري معها. ظلمت تنتظرني إلي الآن. ما أجمل أن يكون لك أم في هذه الحياة!! الحمد لله كم أنا محظوظ بك يا أمي.

انتابتنني رعشة من الخوف عندما تذكرت تهديد الضابط شديد. نظرت إلي يديها المعروقتين ووجهها الذي خط عليه الزمان خطوطاً عريضة. أحسست بحب كبير يملأ كياني تجاهها. قمت واحتضنتها ثم قبّلتها. لكم أخاف عليك يا أمي!!

كانت تحرم نفسها من أجل أن تطعمنا صغاراً وتكسونا أولاً وتكتفي بملابس مهلهلة فقط لتغطي جسدها. لكم أنت عظيمة يا أماء!! انهلت علي يديها وقدميها لأقبلهما. صليت معها المغرب جماعة ثم دخلت لأنام ولو لساعة.

اتصل بي محمد بسيوني فأخبرته بأنني لن أشهد معركته الليلة مع أنور حسان. لقد كان يعرف أنني سأذهب إلي حفل عيد زواج سارة العسكر. كل شئ معروف في هذا المصنع !! لا شئ يختفي. قال لي ناصحا: «لا تذهب يا عبدالله يا مصري». ليتني استمعت إلي كلامه.

لم أستطع النوم. لقد امتلأت بطني والحمد لله. نظرت إلي القمر وقد كان بدرا. نظرت إليه أتأمل جماله ورأيت فيه وجه سارتي الحبيبة. أنا أحب القمر لأنه يذكرني بها. كأن القمر ينظر إليّ وإلي البشر. الله عليك يا حليم. «حلو القمر حلو بس أنت يا حبيبي أحلي من القمر». الله عليك يا ست. آه يا أم كلثوم. «القمر من فرحنا من فرحنا هينور اكتر والنجوم من حبنا هتبان لنا أكبر وأكبر». لماذا يتغنون بالقمر؟ لأنه رمز الجمال. سارتي أجمل من القمر. لكم أحب القمر!! لكني لم أكن أعلم إلا الليلة أن الأقمار يمكن أن تتمرغ في الوحل.

تأنقت ولبست بذلتي اليتيمة الوحيدة التي ليس لدي غيرها بعد أن حلقت ذقني بعناية فائقة ووضعت عليها الكولونيا التي تلتف ما بعد الحلاقة. أحكمت ضبط رابطة عنقي ولمعت حذائي علي غير عادتي. قبلتني أمي وقالت لي إنني مثل القمر. أي قمر يا أمي ولقد تخطيت الخمسين وصرت في خريف العمر. دعت لي دعوتها التي كثيرا ما تدعوها لي:

— ربنا يبعد عنك أولاد الحرام

لقد كنت أحتاج إلي دعوتها. لا أدري لماذا أحسست بأن دعوتها هذه الليلة لن تجاب. هل يبدو هذا لأنني سأذهب إلي أولاد الحرام بنفسي وأنهمك معهم؟ صليت العشاء معها في جماعة وانطلقت إلي وجهتي. كنت أسير وأنا أحس بأنني غير مستريح تماما. أشعر أن البدلة تعوق حركتي وأن رابطة العنق تكاد تخنقني في هذا الحر. لكن يجب علي أن أكون في أبهى صورة. لم أكن أعلم أنني سأعود ملوثا هذه الليلة. لم أكن أعلم أن دماء العفة سأراها الليلة تراق علي الأرض في ضوء الأقمار التي تتمرغ في الوحل. قبل أن أصل إلي الفيلا غشيني الرعب. لقد كانت هناك أصوات

قذائف وقنابل نارية. اعتقدت أن الحرب قد قامت من جديد. عندما اقتربت من الفيلا شاهدت الألعاب النارية والقذائف التي تنشط في السماء وتعمل أشكالا مختلفة بألوان عديدة. هدأت قليلا عندما سمعت أصوات الموسيقى الصاخبة والأغنيات يتعالى. لقد وصلت إلي الفيلا قبل العاشرة. إنها فيلا ضخمة كبيرة. تظهر الشجيرات العالية من خلال أسوارها ويحيط بها النخيل والخضرة من كل جانب.

أذهلني كم عربات الشرطة والجيش حول فيلا سارة العسكر. كأن المنطقة ثكنة عسكرية. إنها بالفعل تبدو وكأنها منطقة عسكرية. الحمد لله كانت معي بطاقة الدعوة لحضور حفل عيد زواج الهانم علي حمارها. لم أكن قد دقت بعد في بطاقة الدعوة. عيد الزواج السادس. لقد تزوجا حديثا. الرجل إن جاز لي أن أسمي عبدالله البندري رجلا يبدو أنه أكبر من المرأة بما لا يقل عن عشرين عاما. أزعم أنه قد تخطي الستين بكثير أما سارة هانم فلا يمكن أن تكون قد تجاوزت الأربعين بأي حال من الأحوال. حتي وإن تجاوزت الأربعين فيمكن أن يكون هذا بمقدار سنة أو سنتين علي الأكثر. تفتيش في كل خطوة أخطوها وإجراءات أمن غير عادية. أجهزة أمر عليها ونظرات شك تخترقني. كنت أقسم كل مرة بأن الأستاذة سارة العسكر بنفسها هي التي قد دعتنني ثم أظهر لهم اللعبة القطيفة التي أضع فيها هدية عيد زواجها.

ما أن عبرت العديد من نفاط التفتيش المتعددة إلا ونظرت إلي عسكري بدت من ملامحه الطيبة وهممت بسؤاله :

- هل أنتم هنا في معسكر للإعداد للحرب؟
- لا يا أستاذ.
- لماذا كل هذه الإجراءات ولماذا كل هذه الاحتياطات؟
- عيد زواج الأستاذة سارة يا أستاذ. سادة البلد وعلية القوم سيحضرون لتقديم التهنئة.
- يعني من الذين سيحضرون؟
- والله يقولون إن بعض الوزراء ورجال الاقتصاد والفن والسياسة سيحضرون
- شكلك مؤهل عال وتفهم يا دفعة

- الحمد لله. أنا خريج هندسة أسيوط. حضرتك تعرف الأستاذة سارة؟
- آه
- بالله عليك حاول أن تكلمها عني. أخشي أن أرمي علي الرصيف.
- نحن في الصعيد لا نجد عملا. خريجو كلية الهندسة منذ عشر سنوات لم يعمل منهم أحد
- ذكرتني بكلمة مدرسة النجاح لم ينجح منها أحد أعطاني رقم هاتفه المحمول. سألتها قائلاً:
- ما تقديرك؟
- جيد جدا مع مرتبة الشرف يا أستاذ.
- وجه العسكري يلمع في ضوء القمر الذي يفرش أشعته علي الأرض.
- بالها من ليلة مقمرة. سألتها قائلاً:
- هل تغذيت؟
- الحمد لله. يقولون إن العشاء سيكون الليلة علي حساب الهانم.
- ربنا يبارك لها.
- لاحظت انه كف عن الكلام تماما ووقف انتباهه عندما لمح قائده يتقدم. نظر العسكري أمامه وكأنه لا يعرفني. اضطررت إلي الابتعاد عنه وكأنني لا أعرفه أيضا ثم واصلت سيري.
- تقدمت إلي باب الفيلا. أذهلني كم بوكيهات الورود. يبدو أنني تأخرت. الساعة الآن العاشرة وخمس دقائق. هذه هي البوابة الرئيسية.
- يجب ان أصل إلي الأستاذة سارة العسكر وأهنئها بسرعة ثم انصرف وأعود إلي أمي.
- اقتربت أكثر. البوابة فتحت فجأة. لم ألمسها. شعرت بالخوف.
- رأيت صوتا ميكانيكيا يقول لي: تفضل أهلا وسهلا. بحثت عن مصدر الصوت فلم أعرف مكانه. دخلت متسللا وأنا أنظر خلفي خجلا وخوفا. ما الذي يحدث لي هنا؟!
- فجأة ودخلت بهو الفيلا وأنا في تعجب من أمري. لا أحد موجود.
- أيعقل أن تكون سارة العسكر قد نصبت لي هذا الفخ؟ أيعقل أن تستهزئ بي؟ الساعة تقترب من العاشرة وعشر دقائق. لا أسمع سوى صوت الطلقات والأغاني. طيب والورود التي رأيتها في الخارج والتفتيش؟

- فجأة وسمعت صوت الأستاذة سارة العسكر وهي تقهقه قائلة :
- حمدا لله علي السلامة يا عبدالله يا مصري
نظرت حولي فلم أجدها. أين أنت يا أستاذة. أخذت أبحث من جديد في جنبات الفيلا فلم أجدها. صرخت قائلا في خوف :
- أين أنت يا أستاذة؟ عيد زواج سعيد.
قهقهت. قالت بصوت صارم :
- الساعة الآن العاشرة وعشر دقائق
إنها تحدثني ولا أراها، أسمع صوتها ولا أعرف إن كانت تسمع صوتي أم لا. كيف تراني ولا أراها. صحت :
- آسف يا أستاذة. أعتقد أنك لن تخصصين لي ثلاثة أيام. نحن لسنا في المصنع ولا في ساعات العمل
عاودت كرة البحث عنها فلم أجدها. كنت ألف وأدور ولا أجدها. ليتني لم أجدها وليتني لم أرها. كنت ألف وأدور حول نفسي. لمست كتفي بأصابعها وأنا أدور وهي تدور حولي. التفت فجأة فرأيتها وليتني ما رأيتها.
- لقد كانت في قمة فتنتها وجمالها. لم أرها مثيرة جميلة فاتنة كما رأيتها في هذه الليلة. لقد استقبلتني بنفسها وبمفردها. كانت الأنوثة تتقافز من نظراتها. رائحتها تخلب لب كل من يشمها. لم أر إلي الآن إلا وجهها. صحيح أن الماكياج قد غير في ملامح وجهها كثيرا ولكنها ما زالت هي سارة العسكر. أنوار البدر تشع من عينيها وشموس الجمال تسطع وضاحة من وجهها. شفتاها تشعلان النار في جسدي وخداها يلهبان نيران خوفي من رغباتي.
- فلتكن جميلة كيفما تشاء. أنا هنا في مهمة رسمية. أهنئها وأعطيتها هديتي ثم أنصرف ويا دار ما دخلك شر. يبدو أن الشر يريد أن يقتحم الدار ويهدمها علي رأسي.
- اقتربت مني. قالت بدلال وهي تضحك :
- لا. لن أخضم منك. أهلا وسهلا
تذكرت طلب العسكري الذي التقيت به بالخارج. طيب أهنئها بعيد زواجها في البداية ثم أحدثها عن هذا الشاب الذي تخرج في كلية الهندسة وأطلب منها أن تجعله يعمل عندها بالمصنع؟

لمحت حيرتي فقالت :

— مالك يا عبدالله يا مصري؟

— عيد زواج سعيد يا أستاذة سارة

— ها وماذا بعد؟

— شاب بالخارج يريد أن يعمل في مصنعك. هو خريج هندسة أسيوط

— دوما تحمل هموم الناس

— أمانة يا ست الكل

جلست ووضعت ساقا علي ساق. لم أكن قد نظرت إلا إلي وجهها. ليتني ما نظرت إليها قط. إنها تلبس فستانا أحمر شفافا

يظهر تقريبا كل تفاصيل جسدها ومواطن حسننها. يا للهول!! إن ثدييها يكادان أن يبرزتا تماما من فستانها. أكتافها عارية تماما.

كدت أن أضحك. لمحت ضحكتي فسألتنني عن السبب فقلت لها:

— الرجال في الحج يكشفون أكتافهم. ظننتك تذهبين إلي الحج.

تخيلت أنك ستقولين الآن: لبيك اللهم لبيك

— دمك خفيف يا عبدالله

جلست ثانية. صدرها يبرز كله تقريبا من هذا الفستان إلا قليلا.

لماذا ترتدي هذا الفستان إذا؟ فلتخلعه. إن الفستان يبرز أكثر مما

يخفي. لما جلست ووضعت ساقا علي ساق برز فخذاها. حاولت أن

أغمض عيني. لم أستطع. وضعت كف يدي علي عيني حتي لا أري

منها أكثر من هذا. إذا كنت أري منها كل هذا اللحم العاري ما الذي

يمكن لزوجها أن يراه منها. أعرف أن الجو اليوم حار جدا ولكن ليس

لدرجة أن تكون عارية هكذا. التكييف يعمل هنا. عليها أن تغطي نفسها

علي الأقل أمامي. قلة حياء. أعوذ بالله. الحياء شعبة من الإيمان.

لاحظت ارتباككي وحيرتي. وقفت ومدت يدها لأصافحها ولكنني

ترددت. سحبتي يدها وقالت في غضب:

— فلاح. ألا تريد أن تسلم علي؟ أمد يدي لأصافحك يا عبدالله

— آسف يا ست هانم

مدت يدها من جديد. ترددت وغشيني الخوف. سلمت عليها

بأطراف أصابعي والخوف يملؤني. أحسست برعشة ملأت قلبي.

سحبت يدي بسرعة وكان أصابعها رؤوس حيات تكاد أن تلتهم أصابع

يدي. ما مس النبي يد امرأة لا تحل له قط. رفعت يدها مرة ثانية إلي فمي. إنها تريد مني أن أقبل يدها. نظرت إلي الأرض وتجاهلتها وكأنني لم أرها وهي ترفع يدها نحوي.

اقتربت مني ودارت حولي وكأنها تتفحصني. قالت وهي تهمس في أذني متسائلة في تعجب:

— ألا أعجبك يا عبدالله؟

— أبدا يا ست هانم. أنت تعجبين الباشا

— ألا تراني جميلة؟

— أبدا يا ست هانم. أبدا يا ست الكل. أنت أجمل من القمر.

مال وجمال وعلم

— بدأت تنافق كما ينافق الآخرون. بداية مبشرة.

— ما قصدك يا أستاذة سارة؟

— أي علم وأنا لم أعرف أن أقرأ الفاكس المكتوب باللغة الإنجليزية؟

— أموالك تجعل تحت قدميك ألف من يتمني أن يقرأ لك.

وماذا فعل من تعلم ومن تفوق يا أستاذة سارة؟ لقد كنت

الأول دائما وها هو ذا حالي ينتهي بي إلي أن أصير مجرد

عامل في مصنع حضرتك. لم يعد هذا الزمن زمن العلم ولا زمن

الشهادات يا ست الكل. ليتني كنت أعلم هذه الحقيقة من

قبل. عليه العوض ومنه العوض يا أستاذة سارة. صار المال

أفضل من العلم. صار المال يتحكم في كل شيء ويشترى كل شيء.

— يعني يمكن أشتريك بمالي؟

— لا يا ست هانم. أنا لا أساوي قرشا واحدا. ماذا لديّ حتي

تشتريني؟ لا شيء

— أنت تبالغ. أنت رجل و...

بدأت نظراتها تخترقني. برقت عيناها ولمعت وهي تنظر إلي

شفتي. رأيتها تضغط بأسنانها العليا الأربعة علي شفتيها السفلي كما

بدأت تحرك شفتها السفلي يميناً ويساراً وهي لا تزال تضغط علي

شفتها السفلي بأسنانها العليا. اقتربت مني بعد أن زادت بيدها من

مقدار فتحة صدرها ليبرز نهذاها أكثر. ابتعدت عنها خوفاً وقلت

لها وعيناّي تتحاشان النظر إلي صدرها الذي يبرز ويلمع كاللؤلؤ:

- عيد زواج سعيد يا أستاذة سارة. آسف للتأخير وأستاذك
- تريد أن تنصرف
- آه. أريد أن أذهب لأمي. أمي تنتظرني
- آه يا ابن أهلك
- فعلا يا أستاذة سارة أنا ابن أمي
- وهل قلت إنك ابن كلب؟
- واصلت تقهقري للخلف لما رفعت صوتها بغضب في تساؤلها الأخير. قالت لي بصوت آمر:
- هل ستجنني يا عبدالله؟
- ماذا فعلت يا أستاذة سارة؟
- تريد أن تنصرف فعلا؟
- آه يا ست هانم.
- الحفل لم يبدأ بعد. أنت لم تقابل ضيوفي بعد.
- حضرتك قلت إن الحفل سيكون في الساعة العاشرة يا عبدالله
- الحفل في الساعة الحادية عشرة يا أستاذ عبدالله
- يعني لن يبدأ الحفل إلا بعد ما يقرب من خمسين دقيقة. طيب
- أستاذ يا أستاذة سارة
- يا غبي. أنت لا تفهم. أنا أردت أن أقابلك أنت وبمفردك قبل الحفل
- لماذا يا أستاذة سارة؟ أنا؟ وبمفردك؟ هل تريدين أية مساعدة مني؟ أنا تحت أمرك. الخير كثير وخيرك سابق. لقد قبضت الحوافز وكلها تحت أمر حضرتك.
- أخذت تنفخ بغضب وكأنها تشير إلي غباي وقله فهمي. أحسست أنها تريد أن تقتلني. إنني غبي فعلا. إنها ثرية وغنية ومعها كل شيء.
- يا لغباي !! إنها بالتأكيد لا تريد مالا. قلت لها مستفسرا في جدية:
- هل تريدين مني أن أنقل لك الكراسي أو أعمل أي شيء لك في هذا اليوم يوم حفل عيد زواجك يا أستاذة سارة العسكرة؟
- يبدو أنها غضبت أكثر. قالت لي بعصبية بالغة:
- اسمي سارة يا غبي
- حاضر يا أستاذة سارة

— يا غبي اسمي سارة. سارة فقط. يمكنك أن تناديني بسارة

— معقول يا أستاذة سارة؟ أنت ست الكل وولية نعمتنا

أخذت بيدي وشدتني بقوة وصعدت بي إلي الطابق الأعلى.
دخلت غرفة نومها. يا ربي. كأنه جناح ملكي. السرير يلف
ويدور. ارتمت عليه. نامت. السرير يدور بها. الأثاث تحفة فنية.
لما ارتمت علي السرير ظهر صدرها كله تقريبا فأسرعت بإخفائه في
حمالة الصدر الصغيرة جدا فوضعت كف يدي علي عيني حتي لا
أري منها أكثر من هذا. استغفرت الله العظيم. نظرت إليّ في غضب.
قامت فجأة ثم شدتني بقوة علي حين غرة وأنا في حيرة من أمري
إلي جوارها علي السرير. كان السرير يدور بنا سويا. خشيت أن
أقع علي الأرض. كدت أصرخ كالأطفال. سألتني ماذا بي فقلت:
— إنني خائف. أوقفي السرير من فضلك.

ما أن توقف السرير حتي نزلت فجأة من عليه. نظرت إليّ سارة
العسكر وقالت ضاحكة في تأفف وكأنها تستخف بي:

— غبي. أنت حمار. أنت خوَّاف. أنت لا تفهم

خلعت ملابسها كاملة أمامي. كانت كيوم ولدتها أمها إلا من
حمالة الصدر التي تظهر صدرها وما يستر سواتها من الأمام كخيط
رقيق يظهر أكثر مما يخفي. وضعت كفي يدي علي وجهي حتي لا
أراها عارية بهذه الصورة ولكني فرجت قليلا بين أصابعي فهالني ما
رأيت ولذا قاربت بين أصابع كفي فلم أعد أستطيع أن أراها بعد أن
قربت كفي من وجهي وكدت أضعه علي عيني. أول مرة في حياتي
أري امرأة شبه عارية. أستغفر الله العظيم. كانت تغير فستانها الأحمر
الذي ظنت أنه لم يعجبني وهي في قمة الغضب. كانت تقول بهمس
وسمعت كلماتها: «أعوذ بالله. قفل. حمار فعلا. الكلمات التي قالتها
نونا تنطبق عليه تماما».

لبست فستانا أبيض مفتوح الصدر يكشف عن ساقها إلي ما
بعد الركبتين. الفستان الآن أكثر حشمة من فستانها الأحمر الذي
كانت ترتديه منذ لحظات. هذا الفستان يعد أكثر إثارة من فستانها
الأحمر لأنه يخفي أجزاء أكثر من جسدها. اتجهت إليّ قائلة:
— هل أنت متأكد أنك رجل؟

- سؤال غريب يا أستاذة سارة. طبعاً أنا رجل وحضرتك امرأة.
- أنت أغرب إنسان علي وجه الأرض
- أتيت لأهنتك بعيد زواجك وأرجع لأمي يا أستاذة سارة
- فلقت راسي بأمك. قلت لك اسمي سارة
- نظرت إليها بتعجب ولم أفهم سبب غضبها عليّ. قالت لي:
- معلوماتي عنك أكدت أنك قبّلت شكرية
- لا والله يا أستاذة سارة. هي التي قبلتني. والله ما قبّلت أحدا
- وحنان عزت؟
- والله هي التي قبّلتني. والله ما قبّلت أحدا
- ماذا كان طعم قبلة حنان؟
- أول مرة كنت أحس بطعم قبلة في حياتي. كانت شقية. لكن
- صدقيني. أنا برئ. أستغفر الله العظيم. والله يا أستاذة سارة لم
- يحدث بيننا أكثر من هذه القبلة. صدقيني والله العظيم لازلت بكرا.
- وكيف كان طعم قبلة شكرية؟
- والله لا أتذكر جيداً يا أستاذة سارة
- اقتربت مني متنمرة كأنها تود أن تفتض بكارتي فعلاً. ذكرني
- اقترابها بأول مواجهة كانت بيننا في المصنع. كانت تتوشب للانقضاء
- عليّ كتوشبها الآن. أحسست أنها قاب قوسين أو أدنى من افتراسي.
- اقتربت أكثر وسألتني:
- ولو قبّلتك الآن؟
- حرام عليك يا أستاذة. عيب. لا يصح. أنت امرأة متزوجة يا
- أستاذة سارة
- بلا أستاذة بلا زفت. أنت نبيلة
- الله يسامحك يا هانم. ممكن أروح لأمي؟ لا أحب أن أتأخر عليها.
- لا. سأعذبك كما عذبتني. ستحضر الحفل ولن تروح لأمك.
- نزلت وتبعته. يبدو أنها يئست مني. خرجنا إلي مبني آخر في
- الفيلا. قالت لي:
- كنت سأعد لك حفلة خاصة أيها الغبي. تعال نحضر حفل عيد
- زواجي. سنحضر الحفل مع ضيوف ومع زوجي. رجل فقري.
- ترفس النعمة

— أية نعمة يا ست هانم؟ أية نعمة يا أستاذة سارة؟ هل سيزيد راتبي؟

— اخرس تماما ولا تفتح فمك مرة أخرى

ما أن وصلنا إلا وكانت الموسيقى تعزف. عشرات من الرجال والنساء في البهو الكبير. كل رجل يراقص امرأة. هناك بعض الرجال الذين كانوا هائمين في نظراتهم. رأيت رجلا واحدا مع مجموعة من النساء ورأيت رجلا مع امرأة وهما غائبان عن الوعي فأغمضت عيني. رأيت رجلا يقبل امرأته وكأنه سيضاجعها حالا. لماذا لا ينتظر إلي أن يذهب معها إلي البيت؟ اقتربت من الرجل وقلت له في رجاء بعد أن استأذنته ليبتعد عن المرأة: «انتظر حتي تذهب بزوجتك إلي البيت». صاح في قائلا: «هي ليست زوجتي يا حمار». هل أنا الحمار أيها الغبي؟ هي ليست زوجتك فلم تقبلها هكذا؟ ذهبت إلي سارة العسكر وسألتها فقالت لي: «اخرس أنت أيها الحمار». سألتها فأكدت أن هذه المرأة ليست زوجته.

أحسست أن الشيطان يصول ويجول في هذا المكان. صفقت فنظر الكل إلي. لعبة جميلة. ترك كل رجل المرأة التي بين يديه. انتبهوا لي. هل أصرخ فيهم جميعا وأسبهم لأنهم هم الحمير. أليس هذا هو الزنا أو الاقتراب منه؟

حاولت أن أقرب من كل امرأة لأجعلها تعقل وتبتعد عن الرجل الذي معها. تلقيت أكثر من صفة علي خدي. الغريب أن كل امرأة تصفني تقول لي: «اخرس يا قليل الأدب». هل أنا الذي أعد قليل الأدب من وجهة نظرهم؟ أستغفر الله العظيم. كانت سارة العسكر تتابعني بنظراتها وتضحك ساخرة مني وكأنها تتشفي فيما يحدث في. راقصت أحد الرجال. احتضنته تماما. إنهما ملتصقان. زوجها عبدالله البندري رأهما ولم يتحرك بل اقترب من الرجل وقال له: «نورت البيت يا سيادة المستشار». أيها الديوث. الرجل يحتضن زوجتك أمامك. إنه يقترب منها ليس بينهما فاصل. صدره علي صدرها وفخذه علي فحذيها. ماذا تبقي بعد ذلك؟ أف لك أيها الأحمق. ابتعد الرجل الذي يراقص سارة العسكر فأشارت إلي وطلبت مني أن أراقصها وكلها رغبة وكأنها تلح علي. اعتذرت لأنني لا

أستطيع الرقص. شدتني بقوة ولكني تملصت منها. تخلصت من يديها بأعجوبة.

كان الجميع يأكلون ويشربون. هذه زجاجات الخمر. يسمونها الويسكي والشمبانيا والكونياك. لا يمكن أن أكون في مثل هذا المكان الملعون والموبوء.

ساد الصمت لحظات. فجأة أظلم المكان. أضيئت الأنوار وسلط ضوء قوي علي امرأة شبه عارية ترقص مرتدية بذلة رقص زرقاء. لقد رأيت شبيهة هذه الراقصة من قبل في التلفزيون مرات عديدة. ملامح المرأة تذكرني بأحد أعرفه. تري من؟ لا أتذكر.

أستغفر الله العظيم. متي ينتهي كل هذا حتي أقدم هديتي إلي سارة العسكر. مصحف ذهبي جميل في سلسلة وبجواره حرف الإس باللغة الإنجليزية كإشارة إلي أول حرف في اسمها. سأقدم لها الهدية وسينتهي كل شيء.

انطلق المزيد من الراقصات أشباه العاريات ليرقصن مع الراقصة الأولى الرئيسية والتي يبدو أنها صاحبة الفرقة الراقصة ببذلتها الزرقاء والتي افتتح الستار عليها وكانت الموسيقي تعزف بشراسة لدرجة أنني كدت أصاب بالصمم. وضعت طرف سباتتي اليمني واليسري في أذني اليمني واليسري. كانت الراقصة الأولى ترقص وحدها ثم اقتربت منها بقية الراقصات وحملنها. لقد كان لون بذلة رقصها الزرقاء مختلفة في اللون عن بذلات بقية الراقصات. اقتربت مني. حاولت أن تستلقي علي صدري فابتعدت.

أحد الحاضرين تعجب من صنيعي. قال لي متسائلا وكأنه غضب :
— أبيتعد أحد عن القمر يا مغفل؟ أنت ترفس النعمة بقدمك يا كافر
— أستغفر الله. أنا لست كافرا يا أستاذ
— حرام عليك. أنت لا تقدر الفن ولا تسجد للجمال
— أستغفر الله يا أستاذ. أنا لا أسجد إلا لله أيها الغبي
— أنا غبي يا حمار يا مغفل؟

عرفت فيما بعد أنه وكيل وزارة الثقافة. كدت أتشاجر معه لولا تدخل سارة العسكر في الوقت المناسب. قلت له :
— معذرة يا سيادة الوكيل. إنهن يرقصن بطريقة مبتذلة. البذلة غير

مطابقة لمواصفات الرقابة علي المصنفات الفنية يا افندم
- ولا يهملك يا أخي. لا تحبّكها الليلة. الراقصة قمر وحولها ترقص
راقصات فاتنات وكأنهن أقمار تتلأأ في سماء حفلتنا الليلة.
ابتعدت عنه قليلا. تساءلت في نفسي قائلا: «أقمار؟ هل الأقمار
تتمرغ في الوحل؟» نظر إليّ متعجبا وقال: «هذا فن يا أستاذ. استمتع
بالفن وبالجمل».

ما أن انتهت الرقصة إلا واقتربت مني الراقصة الأساسية ذات البذلة
الزرقاء. تعجبت أنها تترك كل من في الحفل لتقترب مني أنا. من أنا
حتي تقترب مني؟ يبدو أنها قائدة فريق الرقص. إنها تتقدم نحوي
وأنا أترجع خوفا منها. تقترب مني وكأنها تود أن تقبض عليّ. لولا
يقيني من أنها امرأة ترقص ببراعة لأعتقدت أنها ضابطة شرطة. إنها
تتقدم نحوي في خطوات ثابتة وعزيمة لا تلين. أعرف ملامحها. إنها
تقترب في الشبه كثيرا من راقصة مشهورة في التلفزيون. لا. إنها هي
تلك الراقصة الشهيرة التي تظهر كثيرا في التلفزيون. هي بنفسها.
اقتربت سارة العسكر أيضا مني ورحبت بي. قالت بصوت مرتفع
كأنها تخاطب الجميع:

- هنا يلتقي الزملاء

لقد فجرت سارة العسكر قنبلة من العيار الثقيل. قالت:

- رحبوا معي بالفنانة نونا. حنان عزت السيد سابقا. زميلة عبدالله
المصري في كلية الآداب جامعة القاهرة قسم اللغة الإنجليزية
صفق الجميع وصاحوا وصرخوا لنا. صفقت معهم. أيعقل أن تكون
هذه حنان عزت؟ يا لها من مفاجأة!! تري ماذا في هذه الليلة من
مفاجآت أخرى؟

أصوات الموسيقى والطلقات والألعاب النارية غطت تماما علي
سؤالي الذي لم أجرو أن أسأله إلا لنفسه. أمسكت حنان عزت بيدي
وسحبته بعيدا عن أجواء الحفل.

الحلقة الرابعة والخمسون

حفلان ولكن..

صوت الموسيقى يتعالى مع تزايد الصخب في حفلة الليلة. انتصف الليل أو كاد أن ينتصف. نظرت إلي أكبر تورتة رأيتها في حياتي. يا لها من ضخمة هائلة!! الأنوار في الفيلا تخفت شيئا فشيئا. يقترب كل رجل من المرأة التي معه وينتظران انطفاء الأنوار وكأنهما علي موعد مع القبلية الدافئة في الظلام. تنطفئ الأنوار تماما. أفجأ بامرأة لا أدري من هي. تخطفني فجأة ثم تلتصق شفتي بشفتيها. ليست سارة العسكر. إن هاتين الشفتين أعرف مذاقهما. إنها حنان عزت. تذكرت القبلية التي أخذتها مني عنوة عندما كنا بأيام الدراسة وطالت مدتها إلي لحظات. لا أدري لماذا أحسست بالنفور منها الآن. استغفرت الله كثيرا وابتعدت علي الرغم من أنها حاولت أن تعيدني مرة ثانية ومرات إلي أحضانها. حمدت الله علي أن الأنوار قد أضيئت مرة أخرى. صفق الحاضرون. نظرت إلي حنان بغضب وقالت لي بعد أن تأملت ملامحي قليلا وأطالت النظرات إلي وجهي:

- كما أنت لم تتغير يا عبدالله يا مصري
- أنت التي تغيرت. لقد صرت أكثر جمالا. أنت أصغر مما كنت عليه عندما كنا في الكلية. أكثر شبابا وأكثر جمالا.
- تعاكسني يا عبدالله. لقد صرت تعرف أن تتكلم كلاما حلوا. لقد تغيرت الحمد لله. أنا كما أنا ولم أغير ولن أغير.
- يعني ستعيش حمارا وستموت حمارا
- لماذا يا حنان؟ أقصد لماذا يا أيتها الفنانة نونا؟ طبعا اسم حنان لم يعد يليق بك. اسم الشهرة والفن والمجد. الفنانة نونا. نظرت إليها. لقد صغر حجم أنفها كما صغر فمها. قوّمت أسنانها. وجهها صار يلمع ويتلألأ. آثار الندبات والبثور التي كانت في وجهها قد اختفت تماما. صارت أكثر بياضا ونضرة مما كانت عليه. عيناها صارت أكثر اتساعا. كانت هنا وحمة أسفل خدها الشمال. يبدو أن عمليات التجميل قد غيرتها تماما. كنت لا أراها جميلة في الماضي. كيف صارت أكثر جمالا بعد كل هذه السنوات من مرور سيف الأيام

عليها. لاشك أنها عمليات التجميل. المال وعمليات التجميل يمكنهما فعل أي شيء. آه من المال ومن سحره ومن تأثيره!!

أف للمال وفتنته. أعوذ بالله العظيم من المال ومن فتنته، ومن الحرام وسطوته، ومن السلطان وزهوته. ومن أين يأتي المال؟ المال الحرام كما أتذكر شيخنا في المسجد وهو يقول: «اعلم أن المال الحلال يأتيك قطرة قطرة. أما المال الحرام فيأتيك غدقا كالسيل». طيب. الحمد لله مالنا حلال ولكنه قليل لا يستطيع أن يفعل لنا أي شيء. لا يملك هذا المال القليل أن يطغينا. لا يملك أيضا أن يكفيننا. لا يمكن له أن يبقينا. قليله شكر وكثيره كفر. نظرت إليّ نونا وكأنها فطنت لما أفكر فيه فسألتني:

— ما أخبارك؟ هل تزوجت؟ عندك أولاد؟

— أخبريني أنت أولا. هل تزوجت؟

— هذه قصة طويلة تحتاج مني إلي ساعات لأشرحها لك. لدي عمل في أحد الملاهي بوسط القاهرة وليس أمامي سوى نصف ساعة أكون فيها معك. هل ستأتي معي؟

— أستغفر الله. لا أذهب للملاهي.

طبعاً لم أتزوج. من أين أتزوج وكيف؟ لن أخبرها. سنوات طويلة مرت عليّ دون أن أحس بها وكنيت ألّهت خلف الحياة ولم ألحق بها. لقد سبقتني الدنيا كعادتها وتركتني وذهبت إلي آخرين غيري بينما لازلت أجري أنا خلفها. صبت لنفسها كأساً وتوجهت إليّ فابتعدت خائفاً. رشفت رشفة من كأسها ثم تركت الكأس وأتت إليّ متسائلة:

— ألا زلت تخاف من الخمر؟

— طبعاً. لم أذقها ولن أذوقها

— طيب والنساء؟

— لازلت أخاف منهن أيضاً.

— لكنك جئت اليوم في مكان فيه الخمر. لقد تغيرت وغيرت مبادئك

— أبداً. لم أغير ولم أغير مبادئي يا حنان. عيد زواج الأستاذة سارة

العسكر. أتيت لأهنئها وأعطيتها الهدية وأنصرف. إنها صاحبة

المصنع الذي أعمل به

- عامل يا عبدالله في مصنع سارة العسكر؟! بعد كل نجاحك وتفوقك؟ لقد كنت الأول دائما. كنت أظن أنك ستكون وزيرا.
 - وزير؟ كيف؟ لا مال ولا ظهر ولا سند. علي كل الحمد لله. هذا قدرتي.
 - سأذهب حالا. هل ستأتي معي؟ لا أستطيع التأخر عن عملي أبدا
 - طبعاً. فنانة ملتزمة
 - لا تسخر مني يا عبدالله. أعرف طريقتك.
 - والله لا أسخر منك
- نظرت إليّ حنان نظرات متعجبة تعلوها الشفقة وتحيط بها أحاسيس الاستغراب لما وصل إليه حالي. نظراتها جمعت الماضي كله. أخبرتني أن سارة العسكر صديقتها قد حدثتها عن أحد العمال ويسمي عبدالله المصري لديها بمصنعها وقد تخرج في كلية الآداب عام تسعة وسبعين. خمنت أنه أنت. حكيت لها عنك. فهمت الآن لماذا دعتنني سارة العسكر وشددت علي ضرورة حضوري إلي حفلها.
- بدأ تقديم الحلويات لنا. تقدمت سارة العسكر إلي الجميع بالشكر علي حضورنا ثم قبلت زوجها أمام الجميع قبلة باردة لا روح فيها ولا طعم لها. اقتربت علي وجل من الأستاذة سارة العسكر وتقدمت إليها بهديتي. فتحتها وابتسمت. نظرت إلي المصحف وحرف الإس. شكرتني وأذهلتني بما لم أتوقعه. لقد لبستها في فخر ثم قبلت المصحف واحتضنتني ثم قبلتني أمام الجميع وأمام زوجها ثم أمسكت بيدي وحاولت أن ترقص معي وأنا في ذهول تام. كنت أحاول أن أتخلص منها ولكني لم أستطع. كنت أتوقع رد فعل من زوجها ولكنني نظرت إليه فوجدته يضحك ويصب اللويسكي في جوفه وينظر لزوجته ويبتسم ويصفق لها.
- اقتربت منها نونا وهمست في أذنها بصوت خفيض ساخر ولكنني سمعته: «لا تتعبي نفسك. لا فائدة من عبدالله. أنا اعرفه منذ أكثر من ثلاثين عاما. لا يمكن أن تصلي إلي غرضك منه». ابتسمت سارة وهمست في أذنها ساخرة أيضا ولكنها موقنة: «لن أياس أبدا وسأحاول. دعيني أنجح فيما فشلت أنت فيه. يكفيني شرف المحاولة».
- قدم الجميع هداياهم. احتضنت سارة العسكر نونا وقالت في فخر وهي تمسك يدها:

- شكرا للفنانة الرائعة نونا نجمة السينما والمسرح والتلفزيون. لقد حضرت اليوم لحفليتي مجاملة. لم تأخذ سوى مائة ألف جنيه فقط وهذا أقل بكثير مما تأخذه. مرة أخرى أشكرها علي مجاملتها الرقيقة لي. شكرا لها ولكم لتشريفكم لي.
- كانت تعطي خادوماتها جميع الهدايا التي أذهلتني. ذهب وماس. كل هذه الهدايا التي تقدر بالملايين في ليلة واحدة. تعجبت عندما رأيته تنظر إليّ بامتنان ثم تلمس المصحف. اقتربت من نونا وسألتها في تعجب:
- أتيت مجاملة ولم تأخذي سوى مائة ألف جنيه؟
- طبعاً مجاملة للأستاذة سارة العسكر
- في الأصل تأخذين نصف مليون جنيه عندما ترقصين بأية حفلة؟ مضبوط؟
- لا.. لا تبالغ. من مائتي ألف إلي أربعمائة ألف فقط.
- فقط؟ يا الله. راتبي في مصنع الأستاذة سارة لمدة عشر سنوات تأخذينه في ربع ساعة
- قل أعوذ برب الفلق. أنت الذي ضيعت مستقبلك. أعوذ بالله من الحسد ومن العين. لم يعد للمليون جنيه قيمة يا عبدالله. ألا زلت تعيش أيام الجنيه الذي كان له قيمة في عهد الملك تحتمس الثالث. الدنيا تغيرت. البلد مليئة بالمليارديرات.
- ومليئة بالقراء الذين لا يجدون جنيهاً ولا يهتم أحد لحالهم
- هذا قدرهم. حكمة ربنا. هل يكفرون؟ دعهم يحسدوننا.
- لا يحسدونك ولا أحسدك. ربنا يرزقكم. لقد كنت حماراً بالفعل.
- لقد ضيعت مستقبلي
- أخيراً تأكدت؟ أخيراً فهمت يا عبدالله يا مصري؟
- آه. لقد أضعت مستقبلي. لا يهم. يمكنني أن أتعلم الرقص وسأصير منافساً قوياً لك في الساحة الفنية. لقد كنت الأول. سأتعلم الرقص بسرعة وسأنافسك. صدقيني سأقتحم عالم الوسط الفني.
- أولاً لن تصلح لهذا الوسط فليس أي أحد يمكنه الدخول إليه.
- لقد كافحت وعانيت ليلاً ونهاراً لأصل إلي ما وصلت إليه الآن. رحلة كفاح طويلة مليئة بالتعب والشقاء. ثانياً ليس لديك مؤهلات لدخول وسطنا. ثالثاً والأهم والذي يجب أن تدركه

جيذا أنه ليس المهم الرقص يا عبدالله يا مصري. المهم ما بعد الرقص وهذا ما لن تقدر عليه ولن تستطيع أن تنافسني فيه. ضحكت كثيرا وضحكت معها. إنها تتحدث عن كفاحها. فعلا. كفاح مشرف ورحلة بذلت فيها المزيد من العرق والدموع. ماذا عن رحلة كفاحي أنا؟ ماذا لو حكيت لها؟ السكوت أفضل. أتت سارة العسكر أمامي وتوجهت إليها أنظار الجميع. قالت بصوت مرتفع سمعه الجميع :

— يشرفني أن أبلغكم اليوم أن مناقشتي للماجستير في كلية الآداب بجامعة القاهرة ستكون في يوم السادس من نوفمبر القادم وأدعوكم لحفل مناقشتي لرسالة الماجستير في الخميس الثاني من الشهر القادم. رحبوا معي بضييفي وأستاذي والمشراف علي رسالتي الأستاذ الدكتور شريف القط.

الدكتور شريف القط. كان معيدا عندما كنا بالكلية. لقد كبر وضعف بصره وتساقط شعر رأسه. إنه يرتدي نظارة طبية لا يكاد يري من خلالها. الدكتور شريف؟ هو بنفسه في الحفل؟ اقتربت منه وقبّلته. زوجها يبتسم ويواصل الشرب. أخرج الدكتور شريف علبة من جيبه بها شعار جامعة القاهرة وقدمها لها. لماذا لا تشتري الجامعة بمن فيها وما فيها بأموالها؟ نطق الدكتور شريف وليته ما نطق. قال بحماس :

— عليكم بتقديم التهنئة والتحية لأعظم طالبة أشرفت عليها في أعظم رسالة ماجستير في حياتي العلمية. الأستاذة سارة العسكر باحثة واعدة وذات مستقبل علمي باهر.

يبدو أن التعب قد أصاب الدكتور شريف القط. ليته كان شريف النمر أو الأسد. أيها الكذاب المنافق. أعظم رسالة؟! أهى باحثة واعدة. كل هذا بفضل المال والسلطة؟!

اقتربت نونا من الدكتور شريف وسلمت عليه بحرارة. أخبرته أنها كانت إحدى طالباته بالكلية ثم مالت علي أذنه وتبادلا حوارا قصيرا. بعدها صفقت نونا وأعلنت للجميع خبرا هاما. انتبه كل الحاضرين لها علي اعتقاد أنها سترقص ولكنها قالت في سعادة بالغة :

— اسمعوا يا جماعة. الدكتور شريف وعدني أنه سيقبل الإشراف علي رسالة الماجستير الخاصة بي. لقد وعدني أن أصير أول فنانة

مشهورة في الوسط الفني تحصل علي درجتي الماجستير والدكتوراة من كلية الآداب جامعة القاهرة. وبهذه المناسبة سأقدم لك هذا الفاصل الراقص. دقي يا مزيكا

دارت الموسيقى من جديد. ابتعدت لأنني أحسست أنني سأختنق. أردت أن أبكي. ما الذي يحدث فيك يا مصر؟ صار كل شيء قابلا للبيع والشراء. لمحني الدكتور شريف. ابتسم واقترب مني. وضع يده علي كتفي وقال متعجبا:

- عبدالله المصري؟ الأول علي دفعته أربع سنوات متتالية؟ أين أنت؟
- عامل في مصنع الأستاذة سارة العسكر
- خائب. مغفل. غبي. ألا تري الدنيا من حولك؟ لماذا لم تفعل مثل الناجحين؟ انظر إلي نونا وإلي سارة.
- آسف يا أستاذنا. أضعت مستقبلتي. يبدو أن قيم النجاح ومعايير الحياة قد اختلت.

انتحي الدكتور جانبا بي وأخذ يكح ويسعل بشدة. ربت علي كتفي ثم قال:

- هذه هي مصرنا. هذه بلادنا. لا مكان لنا فيها. لا حول ولا قوة إلا بالله. المكان فيها لأمثال سارة ونونا وغيرهم. أما نحن فلو أرادوا أن يرحمونا لفعلوا. كل شيء تغير يا عبدالله. لا تحزن ولا تغضب. هكذا الحياة.

أخذ يبكي. مسح دموعه بعد أن خلع نظارته السمكة وقال لي هامسا: «هذه الحمارة سارة العسكر لا تفهم شيئا. لا تصدق ما أقوله عنها. أعرف أن أحد الأساتذة بالكلية أخذ منها خمسين ألف جنيه وقام بعمل الماجستير لها. لدي بنتان وولدان. أولادي يعملون في أحد مصانعها. طمئني عليك يا عبدالله يا مصري. لكم كنت رائعا!! أنت أكثر رجولة مني ومن أساتذتك. لا تحزن لأنك لم تواصل رحلتك العلمية في الحياة. صدقني حالنا كأساتذة في الجامعة لا يسر عدوا ولا حبيبا. نحصل علي الماليم. لقد نفذ السادات وعده. قال إنه سيجعل أساتذة الجامعة يشحنون ويتسولون. كان رجال القضاء يطالبون بالتساوي معنا في مرتباتهم فإذا بأصغر قاض اليوم يحصل علي أضعاف مرتب الأستاذ الذي أفني عمره وحياته لخدمة العلم والجامعة. صدقني. أنت كنت

علي صواب. أنت علي صواب يا ولدي. هذه الراقصة التافهة تريد أن تحصل علي الماجستير. لتحصل علي الماجستير وعلي الدكتوراة أيضا. ستحصل عليه من أي مكان. ستسافر إلي أوروبا أو إلي الولايات المتحدة الأمريكية وستحصل علي الدرجة العلمية وتعود بها. لتحصل عليها من مصر أولي. زمن العجائب. زمن اللا معقول. زمن العبث. زمن الجهل. أين أنت يا صامويل بيكيت. هذا زمنك الآن. هذا وقتك». أثلجت هذه الكلمات صدري وانتحيت بعيدا عن الحفل وأجوائه. نتحيت لأتذكر أيام انتصاراتي. أيام كنت الأول. الآن لا شأن لي. الآن أنا أشعر بأنني لا شئ. لذت بالماضي ولجأت إليه لأتذكر أيام فخاري. تذكرت الحفل البسيط المتواضع الذي أصر فؤاد باشا وعبدالجواد باشا الخربوطلي علي إقامته لي بمناسبة نجاحي في الثانوية العامة. أول مرة كنت أري فيها الجاتوه والتورته. كيف تؤكل؟ كنت أول مرة أراها حقيقية أمامي. كنت أراها في التلفزيون فقط. ليتني ما تذكرت وليتني ما عدت لأغوص في أعماق الذاكرة. إنها ذكريات أليمة وأوجاع دفينه. ليتها ظلت مقبورة داخلي.

كل ما في الأمر أنني حاولت أن أقارن بين أجواء الحفلين. شتان بينهما. لا أعتقد أنني سعيد الآن بهذا الحفل وأوجاع المجتمع ومشكلاته تتضح أمامي وأراه يئن ويتوجع. لم أكن سعيدا أيضا في حفل نجاحي قي الثانوية. هي الهموم والأحزان أتقلب فيها ولا أجد مفرا عنها. كيف أسعد والأحوال تسير من سيئ لأسوأ. كيف تتبدل الأمور وهي تنطلق بي من تعيس إلي أتعس.

أدخلت الحلويات والتورتات والجاتوهات الحجره التي نعيش بها بعد أن أعطتني سارة حبيبتي إياها ثم ذهبت. فتح أخوتي اللعب. أكلنا كل ما فيها. تلطخت وجوهنا وأفواهنا من آثارها. أكلناها بأيدينا. لم نكن نعرف كيف تؤكل. أول مرة نري فيها مثل هذه الأشياء. لم نعتد سوي علي الفول.

كنا نأكل بسعادة وبطريقة همجية وحشية بشعة مع أمي. معذرون نحن. لم نر مثل هذه الأشياء من قبل. لقد كانت تعد من قبيل الرفاهية المستحيلة بالنسبة لنا. كنا نعيش علي الضروريات والضروريات فقط. كنا نلحس الجاتوهات أولا قبل أن نجهز عليها.

نلعق الكريمة أولاً قبل أن نأكل قطع الجاتوه التي يبدو وكأنها تستغيث منا. تأملت في أحد التورتات. قلت لأمي مستغرباً وأنا أملاً فمي تماماً وأداعبها: «قالت لي سارة إنها تأكل في الإفطار الباتيه والباتونسليه. أي والله هكذا قالت لي مرة». نظر الجميع إليّ متعجبين ولم يستطيعوا نطق ما قلته. حاولت أُمِّي أن تكرر ما قلته فلم تستطع ولم تستطع كذلك سمر ولا قمر. ضحكنا جميعاً. سألتني أُمِّي قائلة: «وهل أكلت هذه الأشياء أو رأيتهما؟» أجبت بالنفي فسألتني عن السبب فقلت لها ضاحكاً: «إن هذه الأشياء رجس من عمل الشيطان وعلينا أن نجتنبها». ضحكت وضحكنا جميعاً. قلت لأُمِّي ساخراً كعادتي: «سارة قد استمتعت كثيراً بأكل الفول معنا ذات مرة لأنها لا تأكله إلا نادراً. خشيت يومها أن تمرض فتقول إننا السبب في مرضها لأننا أطعمناها الفول. هو لنا غذاء ولهم وباء». ثم قلت مواصلاً سخرיתי: «يمكنهم أن يأكلوا من طعامنا ولا يمكننا أن نأكل من طعامهم. السبب أن معدتنا ستتمرد علي الفول إن ذاقت من طعامهم أو تعودت عليه. الحمد لله علي نعمة الفول».

فجأة سمعنا طرقات علي بابنا. قمت لأفتح وأنا أعرف مسبقاً أن سارتي الحبيبة هي من يطرق بابنا. ضحكت عندما رأتني. فمي وأنفي يعلوهما أثر الجاتوه وكريمة التورته. أغلقت الباب خلفي وخرجت لها. أشارت بيدها إلي ما علق بقمي وأنفي من الجاتوه والتورته. لم أنتبه إلي إشارتها فقد كنت غائبا عن الوعي غائصاً في ملكوت حبها.

نظرت إليها في حب ملاً كياني وفتت فؤادي. قالت لي:

— عندي مفاجأة لك نسيت أن أقولها لك عندما أتيتك بالحلويات.

— ليس هناك أجمل من مفاجأة أن أراك الآن يا سارة

— سيأتي التلفزيون ليصور معك اليوم

— معي أنا؟

— آه

— لماذا؟

— أنت الأول علي مصر كلها في الثانوية العامة

— سأظهر في التلفزيون

كنت سعيدا جدا ولكن ما أسعدني أكثر نظرات سارة الفخورة بي. لم تكتمل سعادتي إذ اقترب منها أدهم الخربوطلي وشدها من يدها بعنف. نظر إليّ في استعلاء. لماذا تغيرت لهذه الدرجة تجاهي يا أدهم؟

كانت نظراته لي تمتلئ بالحقد. لقد نجح بالكاد. نجحت أيضا سارة حبيبتي بالكاد ولكنها لم تتغير تجاهي كما تغير. ابتعدا عني وسمعت أدهم يقول لها:

— مفجوع هو وأهله

— لا تتكلم عن عبدالله وأهله بهذه الطريقة

— انظري إلي أثر الحلويات والتورطة علي وجهه. مساكين. فقراء.

جوعي. لم يروا مثل هذه الأشياء من قبل. جرابيع.

— لو سمحت لا تتكلم عن عبدالله بهذه الطريقة

— يعني غلظت في البخاري يا سارة؟ من عبدالله هذا؟

— الأول علي مصر كلها في الثانوية العامة

— طز فيه وفي أهله. يعني هد عكا ولا طلع القمر؟ فقير ومسكين.

ماذا سيفعل بأنه الأول في الثانوية؟

معك حق يا أدهم. أنتم فوق رؤوسنا وستظلون فوق رؤوسنا دوما وستطبقون علي أنفاسنا دوما ما حيينا. أنتم الأعلى ونحن في أسفل سافلين. هذا قدرنا مهما علونا فأنتم أعلى. مهما كبرنا فأنتم أكبر. مهما انتصرنا فأنتم الأقوي. مهما حاولنا فأنتم دوما الغالبون. لكني ساعدتك وكنت أذاكر لك ولسارتي. عليّ أن أخرس ولا أذكر هذا. لقد كنت آخذ مقابلا لما أقوم به. كنت أكل وأشرب عندكم. كل شيء بثمنه كما كانت نظرات أمك وأبيك تقول لي.

نحن لا شيء. نحن نكرة في حياتكم. من الأفضل أن تقضوا علينا. لماذا لا تقتلون الفقراء والمساكين. عليكم أن تبيدوهم من علي ظهر الأرض. إننا عار يجب التخلص منه. أنتم كل شيء ونحن لا شيء. نحن نضيق عليكم حياتكم ولا داعي لنا مطلقا. ربنا ينتقم منا. أنتم الأصل ونحن الخيال. عليكم أن تفكروا في كيفية الخلاص منا لتبتسم لكم الحياة. نحن نقاط القبح والقذارة في حياتكم. حرام علينا أن نعيش.

سلوا الله لماذا خلقنا؟ أليغيظكم بنا؟ بصراحة عليكم أن تجمعونا في ميدان عام وتعدمونا حرقا. افعلوا هذا لتستريحوا منا ومن بلائنا. لن يحاسبكم أحد. أنتم تمتلكون الأموال. يمكنكم أن تستصدروا ما شئتم من قوانين وتتخلصوا منا. اضربونا بالرصاص أو افقؤوا عيوننا. قطعوا أيدينا وأرجلنا من خلاف. يمكنكم أن تنفونا من مصر لتصير لكم وحدكم. أعلنوا أننا من الزنادقة واقتلونا كيفما تشاؤون. اقتلوا أبناءنا واستحيوا نساءنا وأنتم فوقنا قاهرون. افعلوا ما بدا لكم ولن يعارضكم أحد. ستظلون أنتم علي قمة الهرم الاجتماعي ونحن في القاع. خلصوا مصر من شرورنا ومن قاذوراتنا.

قطع صوت سارتي الحبيبة عليّ صوت غضبي وأسكت معارك عنيفة كانت بداخلي. قالت سارة لأدهم وكأنها تذكره بي وبوجودي في حياته:

- عبدالله ساعدنا في المذاكرة. لولا مذاكرته معنا ما نجحنا يا أدهم
- أكرهه يا سارة
- تكرهه لأنه أحسن منك
- لا. ليس أحسن مني ولن يكون. فاهمة؟
- مستقبله سيكون أحسن منك
- أبدا. العين لا تعلق علي الحاجب يا سارة. هؤلاء فقراء وسيظلون كذلك. الماء لا يطلع إلي العالي. الواطئ سيظل واطئا دوما يا سارة.
- لا نتحدث عن عبدالله هكذا
- لماذا؟ هل يعجبك؟ هل اعترف لك بحبه؟ أفهم نظراته جيدا لك وأفهم نظراتك جيدا له.
- أنت واهم ولا تفهم شيئا
- لماذا؟ أراهن أنه يحبك وأراهن أنه اعترف لك بحبه
- أتمني..

توقفت عن الحديث برهة. كنت أترقب كلماتها وأنا أختبئ خلف الباب. ليتها تقول أتمني أن يعترف لي بحبه. كنت أتمني أن أسمعها ولو أظلمت الدنيا تماما في عيني بعدها. كنت أتمني أن تقولها ولو مت بعدها. لم أكن أحس أنني سأخسر شيئا لو فقدت حياتي بعد

أن تقولها. أتمني لو قالتها وخسفت الشمس بعدها إلي الأبد. يبدو أنها تريد أن تتراجع عما كانت ستقوله. نظرت إليه في احتقار ثم قالت له في استهزاء:

- تخسر الرهان كما تخسر أمامه دائما
- لم ولن أخسر أمام هذا المسكين الفقير الشحاذ. أمي كانت تعطي أمه ملابسي القديمة ليلبسها. أمي تعطيهم فضلاتنا. لن أخسر أمامه أبدا. نحن أسياده وأسياد أهله. والله العظيم لقد اعترف لك بحبه
- كذاب
- هو يحبك؟
- لا أعرف
- أنت تحبينه؟
- لن أقول لك شيئا. هيا إلي أبي. لقد تأخرنا عليه
- سارة أنا أحبك
- أنت تحب فتيات كثيرات رأيتك معهن أكثر من مرة
- سأتركهن كلهن من أجلك. لقد كبرت وعقلت. أحبك أنت
- هيا إلي البيت يا أدهم. لا تتكلم ثانية لو سمحت
- استمعت إلي كل ما قيل. شعرت أن كرامتي تذبح. أحسست أنه يقتلني بكلماته ويطعنني بألفاظه ويعيرني بما لا أستطيع أن أدراه عن نفسي. ليتني أستطيع أن أقتل نفسي. ما هذا الحقد الذي يملؤك يا أدهم؟ ما هذه الكراهية التي تشتعل بصدرك تجاهي. أتستكثر علي أن أنجح وأن أتفوق. لديكم كل شيء. حرام عليكم. ألا تريدون أن تتركوا لنا شيئا ولو يسيرا؟ تريدون أن تحصلوا علي كل شيء.
- سندت بظهري علي باب حجرتنا. شعرت أنني لا أستطيع أن أتنفس. قلبي الضعيف لا يحتمل. أحسست أنني أسقط وأتهاوي خلف الباب. كنت أسقط وأشعر أن روحي تخرج مني. لم أدر بنفسني إلا وأنا مكوم علي الأرض. لم يسعفني صوتي الذي رفض أن يخرج من داخلي لأستغيث بأمي أو بسارتي. أحسست بروح سارة تقترب مني. تطرق علي الباب. لا أسمع شيئا ولا أري شيئا. لقد غبت عن الوعي وغمرت الدموع عيني. تعسا لك أيتها الحياة. تبا لك أيتها الدنيا. ألا تسمحين لي أبدا بأن أسعد ولو ليوم واحد. رحماك بي. لقد غرزت

كل أنيابك بجسدي. لقد نفثت كل سمومك بداخلي. لقد قسوت عليّ بما فيه الكفاية ومزقت أوصالي وجففت كل منابع فرحتي. سأذهب في عالم آخر بعيدا عنك أيتها الحياة. دعيني أسترق النظرات إلي سارتي الحبيبة. دعيني أراها وهي تتهادي قادمة نحوي لتأخذ بيدي إليها بعيدا عنك وبعيدا عن جحودك لحقي في أن أحيا وأن أسعد وأن أهنأ ولو لدقائق أختلسها رغما عنك.

ملعونة أنت أيتها الحياة. سأغيب عنك ولو بإرادتي. سأتركك قبل أن تتركيني.

كنت قد غبت عن الوعي تماما ولا زالت كلمات أدهم تتردد في داخلي علي الرغم من أنني لم أدرك أين كنت ولا ما حدث لي وأنا أقع مستندا بظهري لباب تمنيت أن يسد عني كافة الشرور المنطلقة من سهام كلمات أدهم ونظراته التي أصابتني بالقلب تماما فأدمت عينايا واقتلعت قلبي.

الحلقة الخامسة والخمسون

المواجهة

ابتعدت قليلا عن جو الحفل حتي أستطيع أن أتنفس هواء نقيا بعيدا عن جو النفاق والصفقات المشبوهة التي تبرم في حراسة صفوة المجتمع وعلية القوم. قبل أن أخرج إلي البلكونة لأستنشق هواء نقيا بعدما لوث هؤلاء الفساق الجو المحيط بي هنا. لمحت سارة العسكر تسلم علي أحد الرجال. عرفت فيما بعد أنه وكيل وزارة المالية. أمسك يدها وقبّلها وهو يغمض عينيه مستمتعا ثم وعدها بأن يخفض الضرائب المستحقة علي مصانعها. نظرت إليّ سارة العسكر فرأيتني أتعجب لمنظر وكيل الوزارة وهو يقبّل يدها. كأنها كانت تود أن تقول لي: «أرأيت أيها المغفل كيف يتهافت الرجال لتقبيل يدي؟». أطل علينا وزير الكهرباء. فجأة أطفئت الأنوار. انطلقت عبارة نورت يا معالي الوزير علي كل لسان. لقد كانت خدعة من سارة العسكر ضد وزير الكهرباء الذي وعدها أن يعيد النظر في قيمة كل فواتير مصانعها. تستفيد تماما من كل ضعف. سلم عليها فمدت له يدها فقبلها مبتسما

ثم انصرف عنها تجاه امرأة أخرى. لكل ضيف دوره في حفلك يا سارة العسكر. تري ماذا دوري في هذه المسرحية التي تطلقين عليها اسم الحفل؟

آه أيها الفقراء الأغبياء. آه لكم!! الله وحده لكم وهو الذي يتكفل بكم في مجتمع فقد نظره فصار أعمى لا يري بؤس حالكم وفقد عقله فصار مجنوناً لا يفهم ما يحاك لكم في بيئة الصفوة المختارة والنخبة الحاكمة!! كل شئ يدبر ضدكم بليل هنا وأنتم لا تعلمون. الضرائب يعاد فيها النظر بالنسبة للأغنياء وتزداد عليكم أيها الفقراء البؤساء. الكهرباء يرتفع سعرها بالنسبة لكم ويعاد النظر في فواتير الأغنياء الذين يربحون الملايين.

خرجت إلي البلكونة ورفعت رأسي إلي السماء. كان الجو لطيفا. صحيح أن الجو حار نوعاً ما لأن التكييف لا يعمل هنا غير أن المكان هنا أكثر نقاء بعيداً عن الشياطين التي تتراقص حول هؤلاء الظالمين. يا رب. يا الله إذا لم تكن لفقراء هذا البلد فمن لهم؟ رأيت القمر بدراً فتذكرت سارتي الحبيبة. عدت بذكرياتي إلي ليلة حفل نجاحي في الثانوية العامة.

صرخت أختي قمر لما رأتني مكوماً علي الأرض خلف الباب. أتت أمي مسرعة علي الفور وهرعت إلي فؤاد باشا. تقلوني إلي المستشفى. بكّت سارتي لحالتي. أخذت تنظر إليّ وتبكي كما أخبرتني سمر أختي التي أصرت علي أن تبنيت معي الليلة بالمستشفى. ذلكت سارتي يدي وقالت: «أفق يا عبدالله يا مصري. التلفزيون سيصور معك». نظر إليها أدهم وقال: «من ذا الذي تكلمين؟ ربنا يلطف به. هذا هو حال الفقراء المساكين. لا حول لهم ولا قوة. ربنا غضبان عليهم». حكّت لي سمر الحوار الذي دار بينهما عندما أفقت. كلم عبد الجواد باشا الخربوطلي أحد رفاقه من الباشوات الكبار وأخبره بما حدث لي. أتى وزير الصحة إلي المستشفى واتصل برجال التلفزيون فجاء الجميع ليروي حال أول الجمهورية في الثانوية العامة. كان الطبيب الذي يعالجني يتحدث عن حالة الأنيميا الحادة التي أصبت بها منذ زمن بعيد ومدي تأثيرها علي الصحة العامة لي. أفقت بعض الشئ. أشرت إلي المذيعة التي تجري الحوار مع وزير

الصحة ومع الطبيب المعالج لي. طلبت الكلمة وكان اللقاء التلفزيوني مذاعا علي الهواء.

أخذت الميكروفون وصرخت قائلا في حزن وفي توسل ظهر أثرهما في كلماتي: «لست وحدي المصاب بالأنيميا في هذا البلد. الرحمة بالفقراء والمساكين». أخذت المذيعة الميكروفون من يدي عنوة وقالت وهي تبتسم وتلعب بخصلات شعرها وتبتسم للسادة المشاهدين علي الرغم من حالتها المؤلة: «وزارة الصحة تبذل قصاري جهدها وعلي رأسها وزير الصحة. لقد حدثت طفرة كبيرة وقفزة هائلة في مجال الحفاظ علي صحة المواطن المصري في عهد الرئيس المؤمن محمد أنور السادات».

تحاملت علي نفسي وأخذت الميكروفون من المذيعة فجأة وقلت والكاميرا تتبعني: «أنا لم أشرب لبنا منذ شهور. نحن لا نعرف إلا الفول والخبز طعاما لنا صباحا ومساء. لست وحدي بهذه الحالة. هناك الملايين من الفقراء في مصر مثلي. الأنيميا تضرب الفقراء. من للفقراء؟ أتمني أن يصل صوتي للمسؤولين وللرئيس. أنا أطالب السيد الرئيس المؤمن محمد أنور السادات بالنظر إلي أحوال الفقراء. أتمني أن يعبر بنا كل حواجز الفقر والمرض إلي الصحة والرفاهية كما عبر بنا من العجز والهزيمة إلي بر الانتصار والكرامة والعزة». حاولت المذيعة أن تأخذ الميكروفون مني ولكنني كنت متمسكا به تمسكي بالحياة. طلب منها وزير التربية والتعليم أن تتركني. عرفت المشاهدين بي وقلت: «أنا عبدالله المصري وأشكر السيد وزير الصحة والسيد وزير التربية والتعليم علي إتاحة هذه الفرصة للحديث من القلب إلي الأب الرحيم الرئيس المؤمن. لم أر أبي. لقد ولدت يتيما وأشعر أن هذه الفرصة أتتني لأوصل صوتي وصوت أمثالي إلي المسؤولين. لا أطمع سوي في معيشة كريمة. أطلب لي ولأخوتي الذين تعبت أمني في تربيتنا شقة تجمع شملنا. أطمع وأنا الأول في الثانوية العامة علي جميع أنحاء مصر أن ينظر إلينا المسؤولون بعين الرحمة. أشكرهم وأشكركم جميعا والسلام عليكم ورحمة الله». كانت كلماتي بسيطة ومؤثرة. بكى كل الحاضرين. لم تتمالك المذيعة نفسها من البكاء. علي الفور اتصل ديوان رئاسة الجمهورية بالمستشفى. أخبرهم بتبني موضوعي.

رجعت إلي سريري وأخذت أبكي. كانت فاتحة خير علينا. أخبرني وزير الصحة بأن رئيس ديوان رئيس الجمهورية زف إليه أخبارا سعيدة بالنسبة لنا. سنبتعد عن وجه هؤلاء الذين يمنون علينا. صارت لنا شقة بالمساكن الشعبية يمكن أن نستلمها غدا. أصبحت أمي تتقاضي معاشا شهريا. تحسنت حالتنا. سنستعني تماما عنك يا أدهم وستكف عن معايرتك لي.

برقت عيناى بالدموع. يا رب لك الحمد. كنت لي دوما ومعى. من للفقراء بهذا البلد؟ ربت علي كتفي وزير الصحة يومها.

قمت من سريري ووقفت علي الرغم من إجهادي. كان عليّ أن أواجه أدهم. أحسست أنني سأموت إذا لم أواجهه. لابد أن أرد عليه وأعرفه مكانته ومقامه. أشرت إليه بيدي ثم أشرت لسارة. أخرجت قمر وسمر من حجرتي. قلت لأدهم في احتقار بعد أن ظل ثلاثتنا بالحجرة: — لقد استمعت إلي كل كلمة قلتها لسارة وعرفت أنك تحقد عليّ أنا أحقد عليك أنت؟

— آه. تحقد عليّ أيها الفاشل

— أنا لست فاشلا. سأدخل كلية الشرطة وسأصير ضابطا
— أنا أحسن منك يا أدهم. عليك أن تعترف بهذه الحقيقة. أنا الأول علي مصر كلها وأنت قد نجحت بالكاد يا ابن الأكابر

— مثلك يحتاج إلي النجاح أما نحن فلا نحتاج إلي النجاح. حتي وإن كنت قد رسبت فأنا ابن باشا. لست أحسن مني ولن تكون. لا تنس نفسك يا عبدالله. إياك أن تظن أنك مهما علوت ومهما وصلت ستصل إلي مستواي. أنا ابن عبدالجواد باشا الخربوطلي أيها الجربوع يا ابن الجرابيع. من تظن نفسك؟ لم أدر بنفسى إلا وأنا أمسك بخناق أدهم. أعلم ما أنا فيه من حالة ضعف. لقد أمسكت برقبته. صرخت سارتي. لا تستطيع أن تفرق بيننا. لكمته ثم رفسته برجلي في بطنه وأنا اشعر بدوار فكدت أسقط. لن أدعه يضربني. بركت عليه وأخذت أعضه في كتفه. صرخ بشدة قائلا: «يا ابن العضاضة».

انتفض من تحتي ثم برك فوقى بجسده الضخم وأخذ يكيل لي اللكمات. صرخت سارتي وأبعدته عني وصفعته علي وجهه. دفعها

بعيدا ثم ضربها فأسال الدم من وجهها وصاح فيها قائلاً بكل غضب: «أتضربيني لأنني أضرب حبيب القلب؟». أصابني الجنون لما رأيت الدم يسيل من وجهها الجميل. استجمعت عافيتي علي الرغم من إحساسي بالهزال والضعف وأمسكته من عنقه وضيقته عليه الخناق. جحظت عيناه. شعرت أنه يكاد يموت. صرخت سارة وقالت: «أرجوك يا عبدالله يا حبيبي. أتركه أرجوك. سيموت».

الله. لقد قالتها. قالت يا عبدالله يا حبيبي. كانت هذه الكلمة طوق النجاة بالنسبة له ولي. تركته وهرب يجري صارخا شاتما لي ولها. نظرت إليها في حب ووضعت يدي علي شعرها الناعم الجميل ثم مسحت الدم عن وجهها الجميل وقلت: «سارة.». لم أكمل لها كلمة أحبك والتي كنت أود أن أقولها. كنت قد فقدت وعيي تماما. يا رب كنت لي دوما فلك الحمد ولك الشكر. لست حزينا لما أصابني ولا ما يصيبني ولا ما سيصيبني. كلها أقدارك تصرفها كيفما تشاء. هذه حياتي وهذه أقداري وأنا راض بقضائك.

لمحت سيارة وزير الصحة تدخل إلي فناء الفيلا. نزل عبدالله البندري بنفسه ليستقبله. سمعته يقول لمعالیه وهو يضحك: «أريد ما هو أقوى من الفياجرا يا معالي الوزير». ربت الوزير علي كتفه قائلاً في ابتسامة خفيفة: «الفياجرا تفيد لتعالج الضعيف يا بندري ولكنها لا تحيي الموتى». ثم قهقه بصوت عال. دخلت لأترك هذا المكان الموبوء. سمعت معالي وزير الصحة يقول لسارة العسكر: «هناك العديد من الشكاوي ضد مصانعك. لماذا لا تطبقين التأمين الصحي علي عمالك؟» ابتسمت وقالت: «البركة في معاليك». ابتسم لها لما مدت يدها نحوه. انحني وقبّل يدها وقال: «أخشي أن تتحدث جرائد المعارضة». ردت سارة قائلة: «ولا يهملك يا معالي الوزير. اطمئن كل المحررين في كل الجرائد معي سواء كانت هذه الجرائد معارضة أم حكومية. إنهم يقبضون مني فلا تقلق. كل الأمور تحت السيطرة».

دخلت نونا البلكونة لتسلم عليّ قبل أن تغادر الحفل. أخبرتها أنني سأغادر معها. لا أطيق أن أقعد هنا أكثر من هذا. أعطتني الكارت الخاص بها. ثم قالت لي بجدية: «إن احتجتني في أي وقت فلا تتردد في الاتصال بي يا عبدالله. كنا زملاء. نحن عشرة عمر يا حبيبي».

غافلتني وأنا أنظر إلي القمر وقبّلتني. كأن سارة العسكر كانت تنتظر مثل هذه اللحظة فدخلت مسرعة إليّ وكأنها ضبطتني متلبسا فقالت لي: «ضبطتك أيها المجرم وأنت تقبل نونا». ابتسمت وقلت لها وكأنني أدرا التهمة عن نفسي: «والله العظيم هي التي قبلتني». ثم نظرت إلي نونا وقلت لها متوسلا: «بالله عليك أخبريها أنك أنت التي قبلتني يا نونا».

خرجت نونا مبتسمة بعد أن برأتني أمام سارة العسكر. أغلقت نونا باب البلكونة ثم عادت فوجدت سارة العسكر تحكم حصارها عليّ وأنا أكاد أصرخ لأهرب منها. همست في أذن سارة العسكر ببضع كلمات. حمدت الله أن رجعت إليّ نونا. لن أدع هذه الفرصة. سأخرج معها من هذا المكان. أمسكت حنان بيدي. قالت سارة العسكر لي وهي تمسك بالمصحف الذهبي في رقبتها والذي أهديته إياها منذ دقائق:

— إلي متي ستهرب مني يا عبدالله؟ وهذا المصحف لن تفلت مني. إن أفلتت مني الليلة فلن تفلت غدا وإن ظننت أنك تفلت غدا فلن تفلت بعد غد. علي فكرة ستسافر معي إلي بريطانيا لننتهي من صفقة الآلات والماكينات الجديدة.

— أنا أسافر مع حضرتك يا أستاذة سارة؟

— طبعا. أنت الوحيد الذي تعرف الإنجليزية في المصنع. لن آخذ مترجما معي وأنت موجود

— هل سيأتي معنا الأستاذ عبدالله البندري؟

— قصدك حماري البندري؟ لا. اطمئن. أنا وأنت فقط من سيسافر

إلي بريطانيا. سأنفرد بك وحدي هناك يا عبدالله. أرني كيف ستهرب مني

— يا ست الكل يا أستاذة سارة. أصل. .

— لا أصل ولا فصل. لقد قررت ولا راد لقراري

كدت أن أبكي. يا رب اصرف عني كيدها وإلا تصرف عني كيدها أصب إليها وأكن من الخاسرين. ابتسمت نونا لي قائلة:

— لا تخف يا عبدالله. إنها تمزح معك

ثم توجهت إلي سارة العسكر وقبّلتها قائلة بصوت سمعته: «خفي علي الرجل. إنه يبدو كالعذراء». ثم توجهت لي قائلة:

- الآن علمت أنك لم تتزوج يا عبدالله. لازلت تخاف من النساء.
هيا تعال معي. سأنقذك الليلة فقط وعليك أن تتدبر أمورك فيما
بعد. لن أسافر معك إلي لندن
- الله معي ولن يخذلني
ابتسمت سارة كما ابتسمت نونا وهي تشدني بيدها للخارج قائلة
لي وكأنها تدللني :
- تعالي معي يا ننوسة أنت يا روح نونا. عبدالله المصري شطورة.
خرجت وكأنني أخرج من سجن. ضحكت سارة العسكر قائلة لنونا :
- أوصليه البيت إلي أمه. منذ أن جاء وهو يريد أن يروح لأمه.
إنه ابن أمه
- بهدوء يا سارة يا عسكر. الولد لا يزال بكرا. الولد مسكين لم
يدخل دنيانا بعد.
- كيف يمكنني أن أواجه نفسي وهما يتحدثان عني بهذه الطريقة
المكشوفة. إنني أفهم كل ما ترميان إليه. لو كنت رجلا الآن حقا
لتقدمت باستقالتي ولتركت العمل لدي سارة العسكر. سأفكر ما الذي
يمكنني أن أفعله من أجل رفاق المصنع. سأترك العمل الأسبوع المقبل
بعد أن يأخذ العمال حقوقهم. لن أسافر معها. يبدو أن مواجهات
الليلة لم تنته بعد. أهلا بالمفاجآت والمواجهات.
- شدتني نونا إلي الخارج. ما أن خرجنا إلا وأوقفني الضابط شديد.
كان يترنح والسكر يطل من عينيه. قال لي متسائلا في سخرية :
- عبدالله المصري أنت هنا؟
- أفندم يا حضرة الضابط.
- يمكنني أن أقبض عليك الآن بتهمة الخروج علي الآداب العامة
أنا؟
- طبعاً. القانون قانوننا والحكم حكمننا. الدفاتر دفاترنا والحكومة
حكومتنا يا عبدالله يا مصري. أنت تمسك بيد قمر الفن. تمسك
بيد الراقصة المشهورة نونا. سأجعلها تشهد ضدك. أنت تهتك
عرضها. هذه جريمة يمكن أن أسجنك عليها.
- يا باشا لم أرتكب جرماً.
- نظر إليّ بازدراء ثم اتجه إلي سارة العسكر وحاول أن يقبّلها

ولكنها أبعده عنها بكراهية شديدة ونظرت إليه باحتقار. مد يده لها ليسلم عليها. مدت يدها وحاول أن يقبل يدها ولكنها سحبت يدها بسرعة. نظرت إليه بغضب ولكنه نظر إليها بابتسامة وقال لها:

— عيد زواج مبارك يا ست الكل

تأكدت أنها تكرهه مثلي من نظراتها. قالت له سارة:

— لو حاولت أن تلعب بذيلك معي أو مع غيري سأخبر هدي هانم

— طز في هدي هانم

— يبدو أنك قد فقدت وعيك

— أنا أشرب المحيط ولا أسكر

— سأخبر سيادة اللواء عبدالمجيد بيه حسني

— عبدالمجيد حسني رجل حمار تماما مثل حمارك البندري

— يبدو أنك سكرت جدا

أخذ الضابط يترنح. تعجبت عندما وصلت سيارات العديد من لواءات الشرطة والجيش. يبدو أن المنطقة بالفعل قد تحولت إلي ثكنة عسكرية. كل هذه الرتب تأتي لتهنئ الأستاذة سارة العسكر بعيد زواجهما؟ تقدمت الأستاذة سارة العسكر لتدخل من البلكونة لاستقبال ضيوفها. ضربت الضابط شديد علي وجهه أكثر من مرة. لم يفق. صفعته بشدة وقالت له:

— انتبه أيها الغبي. لقد جاء والد زوجتك هدي. لقد جاء اللواء عبدالمجيد حسني.

لما رمت وجهه بكأس من الماء. أفاق مذعورا وقال متسائلا:

— والد زوجتي هنا؟ اللواء عبدالمجيد باشا هنا؟

هرع للخارج فورا. يبدو أنه تنبه تماما.

لم يكن وحده هو الذي تنبه فقط. لقد تنبهت أنا أيضا كما تنبهت نونا عندما رأيناه. لقد عاد الماضي إلينا الآن. لقد وصل الماضي إلينا الآن. لقد كان عبدالمجيد بيه حسني قائد الحرس الجامعي عندما فزت بانتخابات الكلية. لقد كان هذا اللواء أيضا سبب فصلي من الجامعة بعد أن عينت معيدا. لقد باغتني الماضي بظلاله وهجم عليّ بأثاره من جديد. غشيتني رياح الخوف ثانية لما نظر إليّ سيادة اللواء. لقد تذكرني وتذكرته. تركت نونا يدي وهرعت للخارج. لديها عمل ولا يمكن أن

تتأخر عن جمهورها. ظننت أن الماضي قد رحل ومات وشيئ إلي
مثواه الأخير فإذا بي أجدني وأنا الآن في الحاضر علي وعد معه من
جديد بعد أكثر من ثلاثين عاما. يبدو أن القدر كان قد جهزه لي
بلقاء مع ماض لم يمّت ولا يبدو أنه يريد أن يموت.

الحلقة السادسة والخمسون

الماضي يعود من جديد

عندما سمعت اسم عبدالمجيد حسني لأول مرة من فم سارة
العسكر كنت في أسايبيعي الأولي للالتحاق بالعمل بمصنع سارة
العسكر. تذكرت الاسم وارتعشت قليلا ولكني لم أكن أعرف أنني
سأقابلة يوما ما. هالني ضخامة جسده الآن. لقد صار كرشه يتدلي
أمام بطنه بطريقة بشعة وكأنه يحمل عشرة توائم في بطنه أو أكثر.
السمنة صارت أهم ما يميز ملامحه الآن. لغده ينزل تحت ذقنه
بطريقة ملفقة للنظر. كان كلما تحرك برأسه يمينا أو يسارا أشعر
وأنه يجر لغده معه أو يحتاج إلي من يساعده في جر لغده
للجهة التي يريدّها. أشعر أنني أري غضب الله علي وجهه الآن.
صار وجهه شاحبا مصفرا بعدما كان وجهه يفيض بحمرة قانية.
أصبح يرتدي نظارة طبية بإطار ذهبي بعدما كان يتفاخر بأنه عين
الصقر. صار رمزا للشيخوخة بعدما كان بريق الشباب يسطع من وجهه
ومن فتوته. ذبلت عيناه بعدما كانتا رمزا للأمل والتحدي. سقط كل
شعر رأسه تماما. وهنت قواه بعدما كان رمزا للقوة والفتوة. سمن جسده
وامتلأت ثنيات جسده بعدما كان دلالة عن الرشاقة وسرعة الحركة.
صار يتحرك بصعوبة وكأنه إنسان آلي يحسب كل خطوة يخطوها.
سبحان الله علي أكبر عدو للإنسان. الزمان أكبر عدو للإنسان.
تقدم العمر أقوي سلاح يمكن أن يحارب به الإنسان. ركبت قطار
الزمن لأتذكر أول مرة رأيته فيها عندما كنت بالسنة النهائية بالكلية.
كنت أقرأ القرآن من مصحفني الأخضر الجميل عندما كنت أنتظر
نتيجة الانتخابات باتحاد الطلاب.

تغير وجهه عندما خرجت إحدي موظفات الكلية وابتسمت لي قائلة: «اطمئن». أخبرتني أيضا أن عملية فرز الأصوات مستمرة وأنها لم تنته بعد. نظر إليّ بسخرية وقال بعد أن أخذ المصحف من يدي وأمسكه بطريقة تنم عن الاستهزاء بي وبالمصحف ثم شدني عنوة:

— لن تفوز يا عبدالله يا مصري

— حضرتك تعرفني؟

— أعرفك؟ وهل يخفي القمر. أنت ذيل حنان عزت السيد. مضبوط؟

— لست ذيلا لأحد

— لقد استخدمتك كالكوبري لتعبر علي ظهرك يا مغفل

— كوبري؟ ومغفل؟ من حضرتك؟

أخذ يضحك ويقهقه إلي أن دمعت عيناه. كان يضرب الأرض بقدمه بشدة ويضرب كفا بكف متعجبا ثم يلوح بمصحفي الأخضر. اتجهت نحوه بثبات وقلت له:

— اعذرنني من لا يعرفك يجهلك. من حضرتك؟

— أنا عملك الأسود. أنا نارك وسواد ليلك يا عبدالله يا مصري

— أستغفر الله العظيم

— تستغفر الله؟ من هذا الله يا مغفل؟ ألا زلت تؤمن بوجود الله؟ هل في الكون ما يسمي بالله؟ أفيقوا أيها الأغبياء. ألا زلتم تحيون حياة الجاهلية؟

— أستغفر الله العظيم. الله موجود. موجود في كل زمان وفي كل مكان.

— نحن في عصر العلم يا أيها الجاهلون. أمريكا وصلت القمر وروسيا قبلها ثم غاصت في أعماق المحيطات ولا زلتم تعيشون في عصور الجهل والتخلف؟ الله؟ لماذا تتقدم روسيا وأمريكا علينا إذا إن كان موجودا؟ كفاكم تخلفا. لماذا نتخلف نحن أيها الحمقي؟

— لأننا بعدنا عن الدين وبعدنا عن الله

— الناس يصومون ويصلون. المسلمون يحجون ويتناسلون ومع ذلك هم من أكثر شعوب الأرض الذين يعيشون في تخلف وهم في ذيل الأمم كانت هذه أول مرة أري فيها رجلا يمكن أن أصفه بأنه من الكفار. إنه يعلن كفره صراحة. أستغفر الله العظيم. كنت أري الشياطين تتقاذفه وتزين له سوء عمله فيراه حسنا. حسبت أنه من كفار قريش. إنه في

وجهة نظري كأبي جهل رأس الكفر أو كعبدالله بن أبي بن سلول ابن مالك ابن الحارث بن عبيد رأس النفاق. لا. إنه ليس منافقا. إن كفره كفر صريح لا ذرة للنفاق فيه.

لا فائدة للكلام معه. لن يجدي الحديث معه. الصمت أفضل. صمت هو أيضا. أخذ يفتح صفحات المصحف ويغلقها بسرعة. خشيت أن يلقي بالمصحف علي الأرض. إنه غير مؤمن بالله أصلا فكيف سيؤمن بكلامه. نظر إليّ في استهزاء ثانية ثم نظر للمصحف وقال: —
تقرأ كلاما منذ أكثر من ألف سنة؟ لماذا يا عبدالله وأنت في القرن العشرين؟ لماذا لا تأت إلي الجامعة بالناقة أو بالبعير؟ لماذا لا ترتدي الجلباب يا رجل؟ تبا لك ولأمثالك.

لن أرد عليه. ماذا يجدي الكلام مع الكفار؟ لمحت الشر في عينيه. أراد أن يغافلني ويلقي بالمصحف بعيدا إلي أبعد مكان. لقد ألقاه بالفعل. كنت أتوقع منه هذا. جربت وبأقصى قوة مع سرعة وهبني الله إياها. أزعم أنني طرت. لن أترك كلام الله ليقع علي الأرض. لن يهان المصحف. شعرت أنني يجب أن أتعلق به وأصل إليه قبل أن يقع علي الأرض. كنت في قمة تركيزي. هي معركة الآن بين الكفر والإيمان. هرعت نحو المصحف وأمسكت به قبل أن يقع. طرت ماذا كلتا يدي. سقطت علي الأرض أولا ثم تلقفت المصحف قبل أن يسقط علي الأرض. قبّلت المصحف ووضعتة علي عيني وعلي رأسي. نظر إليّ عبدالمجيد حسني بسخرية وقال:

— برافو.
لم أنظر إليه. أخذت المصحف وأدّرت وجهي بعيدا عنه. صرخ في قائلا:

— أنا أتحدث معك يا عبدالله.
واصلت سيرتي بعيدا عنه. كاد الجنون يصيبه. هرع خلفي وقال:
— نسيت أن أعرفك بنفسي. أنا قائد الحرس الجامعي بالكلية. أنا الملازم أول عبدالمجيد حسني وأنتظر الترقية لدرجة النقيب قريبا.
— أهلا وسهلا

— يعني أنا ضابط. علي كتفي نجمتان
— يعني حضرتك شاطر جدا

- وبالترقية سيصير علي كتفي ثلاث نجوم
- ربنا يبارك لك. إن شاء الله تكثر نجومك وتصير خمس نجوم
- لا مجال للسخرية يا عبدالله. مفهوم؟
- لم أنظر له. واصلت سيرتي. اتجه إليّ في غضب وقال:
- أتعرف أن أفضل شئ فعله عبدالناصر أنه كان يعذب أمثالك أيها
- الغبي ويضعكم في السجون؟ كان يريد دولة العلم. كان يريد أن
- يخلصنا من خزعبلاتكم ومن جهلكم. حبسكم جميعا في السجون.
- عن من تتحدث؟
- الذين يتاجرون بالدين
- لا أنتمي لحزب أو لجماعة يا عبدالمجيد بيه
- أنت تمسك المصحف والتقارير تؤكد أنك تصلي
- أنا مسلم. هل يوجد مسلم لا يصلي أو يقرأ القرآن؟
- أنا مسلم يا عبدالله ولا أصلي ولا أقرأ القرآن
- للأسف يا باشا. أنت مسلم بالبطاقة. أنت تشك أصلا في وجود
- الله وألقيت بالمصحف منذ دقائق. كيف تقول إنك مسلم وأنت
- أصلا لا تؤمن بوجود الله؟
- أنتم تجار دين
- وأنتم الدين منكم براء. أستغفر الله العظيم.
- خير لقاء بيننا هو اللقاء الأول يا عبدالله. أنا وراءك والزمن طويل.
- طالبت وقفنا وأبرق الحاضر في عيني عندما رحبت سارة العسكر
- بضيفها. مدت يدها له فانحنى عليها ببطء يقبلها. دعتني إلي تناول
- كأس من الخمر فاعتذر لها بأنه لا يستطيع. أخبرها بأن الأطباء قد
- منعوها تماما من الخمر حتي لا يتلف كبده. ابتسمت وقلت لها:
- سيادة اللواء لا يشرب الخمر لأنها حرام.
- نظر إليّ في سخرية وقال مستهزئا:
- ألا زلت في ضلالك القديم يا عبدالله؟
- الله وحده هو الذي يعلم من يكون علي هدي أو في ضلال مبين.
- هل تكف عن الخمر لأن الأطباء منعوك عنها ولا تكف عنها لأن
- الله منعك منها؟
- لازلت تحب الجدل يا عبدالله. لن أجادلك.

- ليس هذا جدالا يا سيادة اللواء. الخمر حرام حاول أن يضيفي جو المرح والمزاح فقال ساخرا:
- عجباً لأمر الأطباء إنهم مثل الشيوخ يحرمون الخمر ولكنهم يحللون البول

ضحك كل من كان بالحفل مجاملة لسيادة اللواء عبدالمجيد باشا. نظرت إلي بطنه الضخمة. تذكرت أبا جهل. لقد كان جظا جبارا ذا بطن عظيمة وكان ثقيلا جدا. قتله معوذ ومعاذ في يوم بدر وكانا في السادسة عشرة من العمر ثم أجهز عليه عبدالله ابن مسعود وجز رأسه وذهب بها لرسول الله الذي أخبر أنه فرعون هذه الأمة. لا أدري لماذا تذكرت أيضا عبدالله ابن أبي ابن سلول. لقد كان عبدالمجيد حسني يصلي عندما يأتي رؤساؤه وقادته ويصلون. إنه منافق مثله تماما. سبحان الله. كان ذا بطن ضامرة. إن بطنه الآن عظيمة ضخمة كالجبل أمامه. تماما مثل بطن عبدالله ابن أبي بن أبي سلول. كان يسمى بالحبلي لعظم بطنه. دعت سارة العسكر لتناول الجاتوه ولكنه رفض لأنه يخشي من أن تزيد نسبة السكر عليه. من أين إذا هذا الجسد الضخم؟ اقترب منه صهره وأخذ يدور حوله. نظر إليّ الضابط شديد وقد بدا عليه أنه قد أفاق قليلا. أشار إليّ وقال:

- هذا هو عبدالله المصري الذي حدثتك عنه.
 - ابتسم اللواء عبدالمجيد حسني وقال له في هدوء وهو يقهقه كعادته:
 - أتعرفني عليه؟ أنا أعرفه منذ أكثر من ثلاثين عاما.
- منذ إحدى وثلاثين سنة بالتحديد. عادت بي الذاكرة إلي وجهه المسود عندما علم بفوزي. كنت رئيس اتحاد الطلاب للسنة الثانية علي التوالي. ذات مرة أتته فتاة ترتدي ملابس خليعة. جلست معه بمكتبه. اعتقدت في البداية لما طال وجودها معه أنها ستكون فتاته. راقبت المكتب. إنها بالداخل منذ أكثر من ساعتين ولم تخرج. أيها الوحش الجبان. إنها فتاة من عمر أبنائك. خشيت أن يغويها وأن يضاجعها في مكتبه. إنه لا يؤمن برب ولا يعتقد بوجود إله. دخلت قبل أن أطرق الباب. فوجئت بها في أحضانه وهي تبكي. إذا لقد وقع المحذور ولقد تأخرت. أيها السافل. في الجامعة وفي مكتبك؟

نظرت إليه باحتقار وبصقت. ابتسم في سخرية وقال لي وكأنه يعرفني بالفتاة:

— هدي

ثم أشار إليّ وكأنه يعرفها بي:

— عبدالله المصري أول دفعته ورئيس اتحاد الطلاب

يا لوقاحته!! إنه لا يخجل من نفسه. العيب ليس فيه وإنما العيب فيها. ماذا أفعل الآن؟ حاولت أن أتماسك ولكنه قال لي بسرعة بعدما أحس بما أفكر فيه:

— هدي بنتي

أستغفر الله. اقتربت مني هدي. رأيتها تنظر إليّ بعينيهما المتوسلتين. كأنها تريدني أن أخرجها مما هي فيه. مدت يدها لأسلم عليها ولكنني تجاهلتها ولم أسلم عليها باليد. قلت لها مبتسما ابتسامة باردة: «أهلا وسهلا». نظرت إليّ وكأنها كانت تبحث عني طيلة كل سنوات العمر السابقة. هكذا حكّت لي فيما بعد. قالت إنها تحس معي بروح الصداقة وبمعني الأخوة وعبق الحب. كانت أصغر مني بثلاث سنوات وكانت معنا بكلية الآداب قسم الفلسفة. أحسست بأنني أخرجتها بعدم مصافحتها. أستغفر الله العظيم. لا أسمح لها بمصافحتي وأسمح لحنان عزت السيد أن تختلي بي وأن تحتضنني وأن تقبلني أحيانا. أستغفر الله العظيم. سامحني يا رب. إن شاء الله ستنتهي هذه السنة ولن أسمح لحنان بالاقتراب مني ثانية. أنا أحتاج إليّ الستين جنيها كل شهر من حنان. سامحني يا رب. مغفرتك يا الله. لا أريد أن أكون منافقا.

خرجت مسرعة وكانت ورائي في وسط زهول من والدها. سألتها في البداية: «لماذا كنت تبكين في أحضانه؟» ردت مخبرة إياي بأن أمها مريضة وأيامها في الدنيا معدودة. طلبت مني أن أدعو لوالدتها. تعرفت عليها وصارت أقرب صديقة لي لدرجة أن حنان صارت تغار عليّ منها. كنت أرى آثار الحقد في عيني حنان تجاه هدي عندما كانت تراها معي. بدأت مع هدي من الصفر. بدأت أعرفها بأسس الإسلام وقواعده. كانت تقرأ معي بالمصحف وتبكي. أخبرتني أنها تكره والدها. ما علمها القرآن وما علمها أي شيء عن الدين.

وقعت الكارثة وأحببني هدي. كل نظراتها كانت تؤكد لي هذا كما كانت تصرفاتها تؤكد نظراتها تماما. أخبرت أمي بكل شيء فطلبت مني أن أكون عاقلا. قالت عبارتها الشهيرة: «نحن لسنا مثل هؤلاء الناس يا ولدي. نحن ناس بسطاء. أعرف أنك كنت تحب سارة بنت فؤاد باشا ولكني كنت متأكدة أنها لا يمكن أن تكون لك. سأخبرك بأمر قد يحزنك. أدهم تقدم لخطبة سارة فؤاد ووافق والدها. يا ولدي نحن فقراء بسطاء. سنعيش هكذا وسنموت هكذا. الحمد لله». أخبرتني هدي أنها يمكن أن تفعل أي شيء من أجلي. ذات يوم جاءت تبكي حزينة لأنها شهور قليلة وأتخرج ولا يمكنها أن تراني. أخبرتها بأنني سأكون معيدا بالكلية وسأواصل دراستي للماجستير والدكتوراة. ابتسمت وسألتنني إن كنت أحبها. لا يمكن أن أكذب عليها. أخبرتها بقصة حبي لسارتي التي ضاعت من يدي للأبد. لا يمكن أن أحب غيرها.

بكت طويلا وبكيت طويلا. قلت لها في تعجب:

— أنا أبكي لحالي ولما أصابني. بالأمس خطب أدهم عبدالجواد الخربوطلي حبيبتي سارة فؤاد وسيدخل بها بعد شهور بعد أن يتخرج ويصير ملازما. لقد فقدتها للأبد.

— وأنا أبكي لحالي ولما أصابني. أحببت أفضل إنسان في الدنيا ولكنه لا يحبني ولا يمكن أن يحبني. إنه كبير ورائع ولكن أمه تخبره أنه لن يكون كبيرا أبدا. ستصير أستاذًا في الجامعة.

كانت تتحدث وكنت لا أستمع إلي كلامها ولا أنتبه إلي كلماتها. كانت كلمات أمي تصم أذني عن أي كلمات أخرى يمكن أن تقال.

وفي اليوم التالي حدثت مصيبة أكبر. أتت هدي عبدالمجيد الكلية وهي ترتدي الحجاب الشرعي. كان وجهها يتلألأ كالقمر. كانت تنير كل جنبات الكلية. سعدت بها جدا. يبدو أن الله شرح صدرها بعد أن فقدت أمها التي ماتت منذ أيام وهداها الله إلي هذا القرار. ما أن رآها والدها إلا وهاج وماج وعلته كل سحب الغيظ فأمطرت لعانا وسبابا علي لسانه لابنته.

استأذنت من أستاذي في قاعة المحاضرات. خرجت لأجده يصرخ في وجهها ويكاد أن يضربها. صاح بها قائلا:

- أكيد هو عبدالله المصري ابن الكلب الذي سمم تفكيرك وأفسدك.
كنت غير بعيد منها وسمعتها تقول له في هدوء:
- لم يسمم تفكيري ولم يفسدني. هذا قراري يا أبي
- قرارك أن تصيري مثل أولاد الفقراء والشحاذين يا هدي؟ أنت بنت ضابط كبير وستضيعين مستقبلي بهذا الملبس. يا بنت اتقي الله وعودي إليّ رشدك
- أنقول لي أن اتقي الله وكأنني خرقت خرقا في الإسلام؟ يا أبت هذا هو قراري
- أنا أبوك ولك عليّ السمع والطاعة
- لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق
- هو عبدالله المصري ابن الكلب. أولاد الفقراء والمساكين سيفسدون علينا بناتنا وحياتنا
- أمسك والدها بخناقني عندما رآني وقال في غضب:
- الله يخرب بيتك. أرايت نتيجة ما فعلت؟
- ماذا فعلت يا باشا؟
- وكأنك لا تعرف ما فعلت؟ البنت تحجبت. يا للمصيبة!! أفسدت البنت؟
- الحجاب حرية شخصية يا باشا. أنتم تعطون الحرية للفتاة في أن تأتي للجامعة بأي ملبس ترتديه. تسمحون لها بالدخول حتي وإن كانت ترتدي ملابس فاضحة أو غير لائقة. لماذا لا تسمحون لمن ترتدي الحجاب بالدخول؟ أليس الحجاب حرية شخصية؟ إن الحجاب ليس جريمة.
- لن أسمح لها بزي الفقراء والمساكين هذا؟ إنها ابنتي. ألا تفهم. أقنعها حالا بأن تخلع هذا الزي
- نظرت الفتاة إليّ أبيها في تحد وقالت:
- لا يا أبي. لن أخلع هذا الحجاب حتي وإن طلب مني عبدالله هذا أو أجبرني عليّ خلعه.
- قال لها في هدوء:
- أنا الذي سأجبرك عليّ خلعه يا بنت الكلب.
- هوي علي وجهها بصفعة قوية. ما الذي يمكنني فعله؟ لاشئ.

الانسحاب كعادتي. كانت نظراتها تتوسل إليّ أن أتدخل ولكن ما الذي يمكن لمثلي فعله. انسحبت. في اليوم التالي طلبت مني أن نتزوج. أخبرتني أنها تحبني ولا يمكن أن تستغني عني أبداً. ليس بإمكانني الصراع مع والدك. سألت الدموع من عينيها أنهاراً. أنت محبة مخلصة يا هدي. أنت أفضل بكثير من حنان التي لم توافق أصلاً علي طلب زواجي منها. لكن ما الذي أستطيع أن أفعله؟ سأستشير أمي. لقد كبرت في نظري يا هدي ولكنني أخشى من والدك. لا بد من موافقته وهو لا يمكن أن يوافق. إنه لا يحبني. أخبرت أمي فاختارت لي طريق السلام. أخبرت والدها. أقسم أن يمنعها من الدراسة. شكرني لشهامتي ورجولتي بلسانه ولكن قلبه كان يضر لي الشر كله والحقه جميعه. إنه مثل رأس المنافقين. إنه يبرز الود والمحبة ويبطن الكراهية والشر. أوهمني بأنه قد يقبل زواجي منها إن طلبت يدها. أخبرته أن ظروفه صعبة ولا أستطيع. أخبرني أنه يعرف بحبي لسارتي. شكرني لأنني لم أعبت بمشاعر ابنته. كانت هدي تسترق السمع إلي حديثنا. ربت علي ظهري وأخبرني أنه سيكافئني. لحظات وسمعنا الخادمة تصرخ طالبة النجدة. لقد انتحرت هدي. ملاً صواتها البيت. الهلع يخيم علي وجه عبدالمجيد. أخذ بيدي واتجهنا نحو ابنته التي حاولت قطع شريان يدها وكان دمها يسيل علي يدها ويتساقط ليملاً الأرض في حجرتها. اتصل بالإسعاف وهو يغلي من الغيظ ويرتب لي المكافأة التي وعدني بها. لم أكن أعرف أن هذه المكافأة كانت تقضي بحبسي في المعتقل مدة تزيد عن الأسبوعين في وقت كادت أمي أن تجن. لقد صرخت وبكت ومألت الدنيا بكاء حتي كادت أن تفقد بصرها لولا لطف الله بنا.

الحلقة السابعة والخمسون

ساعة العسكر تبكي

الساعة تقترب من الواحدة صباحاً. الأفكار تعصف بي وتلقيني في مدن الماضي العتيقة ورياحه البعيدة. لماذا يصر الماضي علي إفساد الحاضر بحوافره التي يغرسها في عقلي الآن؟ لماذا لا أفر وأرجع إلي

أمي؟ هذا الجو لا يناسبني. لا أستطيع أن أنظر في وجه عبدالمجيد حسني أكثر من هذا. تري كيف تزوج الضابط شديد من ابنته هدي؟ إنها رمز للركة وللهدوء والإيمان. كيف يتعامل معها؟ تري هل نسيت هدي كل الأيام السابقة؟ إنها لا تزال علي قيد الحياة. لقد هددت سارة العسكر الضابط شديد عندما حاول أن يقبلها بأن تخبر هدي زوجته. أيام تمر وأحداث تتعاقب ونحن نتقلب في أتونها ونحترق وليس لنا من الأمر من شيء. كل الدنيا تتغير من حولي وأنا الوحيد الذي لا أغير ولا تتبدل أحوالي. كل الدنيا تسير إلي الأمام وأنا الوحيد الذي أراجع إلي الخلف. لن أنتبه أنني أرجع إلي الخلف لأنني جبان وخواف. إنني يجب أن أصارح نفسي بهذه الحقيقة بالفعل. لم أسمح لنفسي أن أخوض التجربة. دائماً ما كنت أجبن وأتردد. ليست هذه هي الحقيقة. ليس التردد سبباً لفشلي وليس الجبن علة لضياع أحلامي. لم يكن بالإمكان أن تكون سارتي الحبيبة زوجة لي. كيف كان يمكن أن يحدث هذا ولم أجرؤ قط علي أن أعترف بحبي الذي يجول بقلبي قبل أن يولد علي لساني؟ عندما أيقنت بضياعها لم يكن ترددي سبباً. عندما اقتربت مني هدي لم يكن جبني قصداً. أنا ابن أمي. نعم أنا ابنها ولكن هل كان بوسعي أن أكون غير هذا؟ لم يكن بمقدوري في الماضي أن أجاري حنان في ضلالها. لم يكن بمقدرتي أن أتبع هدي في طيشها، كما أنه لم يكن بإمكانني أن أجاري سارة العسكر في غيها في الحاضر. إنني أحب أن أعيش في سلام وفي أمان مع ذاتي أولاً ومع من يحيطون بي ثانياً.

عندما كنت أقول لا كنت أقولها كصراخ للهرب ولم أكن أقولها أملاً في إصلاح الواقع أو تغييره أبداً. كيف يصلح الواقع أو يغيره من لا يستطيعون؟ كيف يمكن للمفعول بهم أن يقهروا ظروفهم أجبروا علي التوقع بدخلها؟ لماذا تريد أن تصرخ الآن قائلاً لا؟ أتريد أن تهرب الآن؟ ما الذي أفادك الهروب به من قبل؟ لماذا لا تسير مع اتجاه الريح؟ لقد كنت تسير دوماً عكس الريح فدكت رقبة مستقبلك ولويت أعناق آمالك وقتلت كل صرخات رفضك. لماذا لا تسير أمواج الحياة؟ هيا تغير ولو مرة واحدة في حياتك. أمامك سارة العسكر وستفتح لك كنوز المستقبل. لن تفتح لك آفاقاً أكبر في المصنع فحسب بل في الحياة

كلها. إنها تريدك وتتمناك. لقد فتحت لك طاقات عوالم جديدة لم تطأها. لقد كانت كلها ترغب وتشتهي. فلتكن ليلتك هي الفرصة التي يمكنك أن تقتنصها يا عبدالله.

عشت طيلة حياتك السابقة أسير مبادئ ظالمة وقيم راکدة ظننت أنها الصواب المطلق. ما الذي فعلته لك هذه المبادئ وهل أنقذتك هذه القيم؟ كن مختلفا ولو لليلة واحدة فلا رقيب ولا حسيب. انهل من كأس الحاضر وذق طعما جديدا للحياة. هلم يا رجل إلي عالم الصخب واللذة والمتعة. بالله عليك أليست سارة العسكر امرأة تشتهي؟ ألا تراها جميلة؟ ألم تكن تحلم بها في خيالاتك عندما كنت في مكتبها أكثر من مرة؟ ألم تغب عن الواقع في أحضانها حلما وخيالا وكنت ترغب في اقتناصها وهما وطننا؟ ما الذي حدث لك أيها الجبان المتردد هذه الليلة؟ إلي متي جبنك وترددك هذا أيها الغبي؟ اقتنص الفرصة فقد لا تعود. ستسافر معها إلي لندن. ستنعم في جنات اللذة وسترتوي من آبار المتعة وستجني ثمار التجربة التي حرمت نفسك من مجرد الاقتراب منها. أيها الغبي لقد أضعتها كما أضعت العديد من الفرص التي كانت سانحة لك بين يديك. لقد كانت قاب قوسين أو أدنى من أن تحقق لك رغبة لم تذوقها من قبل ولذة لم تألفها ولا حتي في أحلامك. لم تقترب منك أنثي كما اقتربت منك سارة العسكر الليلة برغبتها وإرادتها. لقد كانت تتمني أن تعتصرها بيديك وتقتطف ثمار أنوثتها. يالك من أحمق مغفل جبان متردد!! هل ستظل هكذا؟ تغير. فرصتك الوحيدة للتغيير.

هاهي ذي امرأة جميلة تقترب منك. تقدم لك كأسا من خمر. أ تكون سارة العسكر قد بعثت بها إليك لتختبر مدي سطوة جمالها عليك؟ لقد لمحتها تتكلم مع سارة وتضحكها. اغتنم من الحاضر لذاته ولا تكن عبد ماض قد ولي وانتهى. كن ابن حاضر باح ولاح. لا يمكنني أن أشرب الخمر أبدا. يا سيدي لا تشرب الخمر. هيا اقتنص قبلة من شفيتها عوضا عن خيبتك الثقيلة مع امرأة سيقث إليك وأضعتها بغباء جهلك بعد أن كنت معها علي سرير دوار لم تكن تحلم أن ترقد عليه ولو في خيالك وأحلامك. إنها ترتدي ملابس مثيرة. هي لك. إن سارة العسكر تراقبها. لقد اقتربت منك يا عبدالله. إنها

تقترب من شفتيك وتتأوه وتنثني أمامك لتغريبك بحسنها ودلالها. لقد
قيلتُكِ. هيا تجاوب معها. خذ الكأس من يدها. مالك تتردد هكذا؟
هلم إلي النعيم.

الدنيا تسود في عيني. لا أستطيع. لا يمكن أن أغير كل ما جبلت
عليه في لحظة واحدة. كيف أنتقل من حال لم آلفه ولم أعتد عليه
إلي حال جديد يغير جلدي ويفري عظامي ويسلخ وجهي؟ لن أشرب
الخمرة قط. سأبعد المرأة عن وجهي. بصقت عليها ملقيا بالكأس ثم
أزحتها من أمامي ولطمتها بكل قوة. صرخت في وجهي بكل غضب
قائلة: «حمار. غبي».

أستغفر الله العظيم. لم أكن أعلم أنني هش لهذه الدرجة. كيف كان
بإمكاني أن أتصور أن أنزلق في مكائد الشيطان وأسقط في حباله لهذه
الدرجة؟ كسر الكأس. تهلل وجهه سارة العسكر قليلا ثم عاد أدراجه.
يبدو أنها كادت توقن أنه لا أمل في. نظرت إلي عبدالمجيد بيه
حسني الذي اقترب مني وقال في غلظة:

— يبدو أنه لا أمل فيك. يبدو أنك لن تتغير

— يبدو أنك علي صواب يا سيادة اللواء

— عليك أن تتحمل نتيجة عنادك وصلابة رأسك.

— فليقدرني الله

— الضابط شديد زوج ابنتي أخبرني أنه قد يضطر لكسر رأسك

— زوج ابنتك هدي؟

— جميل جدا أنك لازلت تتذكر اسمها

— لا يمكنني أن أنسي لحظة واحدة من لحظات الماضي

— قلبك أسود جدا يا عبدالله

— لقد ضاع مستقبلي بسببك

— لقد ضاع بسبب عنادك

— لم أقدم لك أي شر

— وأنا حاولت إنقاذك. ليكن في علمك أيام السادات كانت جنة

بالنسبة لك. الآن قد تخسر حياتك. منذ ثلاثين عاما خسرت

وظيفتك

— تقصد منذ إحدى وثلاثين سنة

- اليوم قد تخسر حياتك وحياة أمك
- كما خسرت خطيبتى
- أول مرة أراك بهذا الضعف
- لست ضعيفا يا سيادة اللواء. هل قتلتم شكرية؟
- إلى الآن لم تقتل. لا أعرف لماذا تتحدث معي بهذه اللهجة العدائية. أنا لست في الخدمة الآن. أنا علي المعاش ولست سوي أحد مستشاري معالي وزير الداخلية
- وأنا كما أنا لم أغير ولن أغير. افعلوا ما شئتم.
- تدخلت سارة العسكر بهدوء. نظرت إليّ في شفقة وودت لو تلح عليّ لأنقذ نفسي من شرور أخطار تثق أنها تحدد بي وتكاد تقتل بي. أبعدت اللواء عني وقالت له:
- لماذا تتعجلون علي عبدالله المصري؟ أرجوكم ألا تحاسبوه إلا بعد أن يعود من لندن. سأصطحبه معي وسأغيره تماما. أنا لا أحب العنف ولا أحب اللجوء إليه إلا كآخر أسلوب يمكن استخدامه وبعد أن تنفذ جميع الأساليب الأخرى.
- أخرجت من صدرها مفتاحا ولوحت به في وجهي قائلة:
- هذا مفتاح فيلتك الجديدة. عبدالله يا مصري يجب أن تتغير. كفاك عنادا. لقد ضيعت الماضي بعنادك فلا داعي لأن تضيع المستقبل بغبائك.
- توجهت إلي الضابط شديد وقالت له:
- من أجل خاطري فليؤجل كل شئ إلي حين عودتنا من لندن
- ابتسم شديد وابتسم عبدالمجيد بيه وقالوا في صوت واحد:
- لا نستطيع أن نرفض لك طلبا يا ست الكل
- أخذت سارة العسكر بيدي وخرجنا إلي البلكونة. نظرت إليّ في صمت لمدة لحظات. قالت لي وهي تشير إلي القمر قائلة:
- الناس تبخلق في القمر وتراه رمز الجمال. يرونه مضيئا. القمر في الحقيقة معتم. ملئ بالصخور والأحجار والأحزان لأنه وحيد. كذلك أنا يا عبدالله يا مصري. الناس تري سارة العسكر القوية الجبارة المتسلطة. الثرية المتكبرة. عبدالله يا مصري لدي الكثير أخبرك به عن سارة العسكر. أنا أعرف أنك تكتب القصص

- والروايات. صدقني أنت لا تعرف عني شيئاً ولا تعرف الكثير
عن معاناتي وآلامي. ستستفيد من مجيئك معي إلي لندن
- أنت سارة العسكر بجلالة قدرها عندك آلام ومعاناة؟
- ومن من البشر يخلو من المعاناة والآلام؟
- أنا لا أصدقك. في الحقيقة أنا أخاف منك
- أعرف أنك تخاف من الحرام فقط
- وأخاف من الله
- ما رأيك أن نتزوج؟
- أنت متزوجة
- الأمر بسيط. يطلقني عبدالله البندري ثم نتزوج
- بهذه السهولة؟
- الأمر أسهل بكثير مما تتخيل بكثير
- يا سلام!!
- دنيانا غير دنياكم
- لا أصدق
- عبدالله..

سكتت قليلاً ثم نظرت إليّ وبدأت أكثر ضعفاً مما كنت أتخيل.
لقد كانت تنتحب ولم أكن أتوقع أن أرى سارة العسكر أبداً في مثل
هذا الموقف. إنها تبكي بحرقة. نظرت إلي القمر فوجدت العديد
من السحب تكتنفه ورأيت السحب تسرع لتبتعد عنه بعد أن غطت
وجهه، فيظهر لي وجهه رائقاً بدراً. ربت سارة علي كتفي فصرت
أرى القمر منعكساً في عينيها الرائعتين. مسحت دموعها ثم نظرت إلي
الأرض حياءً فازدادت جمالاً في نظري وقالت لي وهي تتجنب أن
تضع عينيها في عيني:

- أنا أحبك يا عبدالله يا مصري. لا أعرف كيف ولكن هذه هي
الحقيقة التي يجب أن أعترف بها لك. منذ أول مرة رأيتك وأنا
أقاوم. أرفض أن أعترف بأنني أحبك ولكن هذه هي الحقيقة. لم
يخفق قلبي من قبل لإنسان مثلما خفق لك. أنا سارة العسكر
أقر وأعترف لك بأنني أحبك. لم أحب أحداً قط ولن أحب أحداً
قط. ما الذي فعلته بي يا عبدالله.

نظرت إليها وأنا لا أكاد أصدق ما يحدث. إنها تتحدث بصدق كما يبدو لي. ولماذا تكذب وأنا لست إلا أحد العمال لديها في مصنعها وتظن أنها تملكه كما تمتلك الآلات والماكينات فيه. كلماتها تخرج من القلب وتصل إلي قلبي مباشرة. ألا يمكن أن تكون تعويضا من الله عن حبيبتي سارة. هذه سارة العسكر قد بعثها الله لتكون مكان سارتي الحبيبة.

— لم أر رجلا في مثل قوتك. لم أتوقع أن أجد إنسانا علي هذه الأرض في مثل تدينك وأمانتك. لم أجد إنسانا يؤثر الآخرين علي نفسه إلا أنت. لقد بحثت كثيرا في ماضيك. عرفت كل شيء عنك. أنت إنسان يندر وجوده في مثل هذه الأيام. لم أعهد الرجال إلا خائنين أشرارا يسيرون خلف غرائزهم ورغباتهم الدنيئة. حماري عبدالله البندري أسير رغباته وشهواته. علي الرغم من قلة حيلته وخيبتة فإنه يخونني. لقد كتب كل شيء باسمي. إنه كالحاتم في أصبعي. أنت ليس مثلك أحد. أنت لا تسير إلا بإيمانك. أنت لست عبدا لأحد. — أستغفر الله. أنا عبد من عباد الله.

— أنت تستمد قوتك من عبوديتك لله. أنا مؤمنة بالله ولست مثل اللواء عبدالمجيد حسني. صدقني أنا أضعف مما تتخيل يا عبدالله. أنا أحبك وأعني ما أقوله بكلمة أحبك. أنا أستطيع أن أترك الدنيا كلها من أجلك. عبدالله لقد كنت في أحضانك وهربت مني. لقد حاولت أن أجرك إلي الخطيئة وتركتني ولم تنظر إلي ولم تهمل بالمعصية. هل أنت نبي معصوم؟ أنت رجل دعتك امرأة ذات منصب وجمال ولم تستجب لها. صدقني يا عبدالله أنا لا أحبك فقط أنا أهيم بك حبا. أنا أعشقك. يمكنني أن أترك كل شيء من أجلك. لا يمكن أن أجد رجلا في الحياة كلها مثلك.

كنت أستمع إلي كلماتها في ذهول. لا أستطيع أن أحرك لساني. كنت أنظر إليها وعيناها تدمعان ولكني لا أستطيع أن أصدقها. ألا يمكن أن تكون كاذبة؟ ألا يمكن أن تكون هذه حيلة من حيلها الماكرة لتنفذ كل ما تريد؟ لاشك أنها تمثل هذا الدور علي. دموعها دموع التماسيح. لا يمكن أن أصدق. سارة العسكر تحب؟ وتحب من؟ تحب عبدالله المصري؟ تحبني أنا؟ يبدو أنني أحلم. حتي وإن كان هذا من

أحلام اليقظة فلا يجب أن أصدق ولا ينبغي لي أن أصدق ما تقول.
لاشك أنني أهذي. يبدو أنني قد نمت وأنا في هذا الحفل وأحتاج إلي
من يصفعني علي وجهي أو يضربني علي قفائي أو يلقي الماء علي أم
رأسي حتي أفيق.

الحلقة الثامنة والخمسون

سيد أبو ستّة من جديد

ضربات الزهر تتردد كثيرا في أركان الطاولة وأنا هائم تماما في
كلمات أم كلثوم التي تختلط مع صيحات محمد بسيوني ليغيظ
غريمه أنور حسان عندما يأتي بدش. أتظاهر بأنني أشاركهما بحماس
ولكن الحقيقة أن أم كلثوم بأدائها الرائع لأغنية أمل حياتي تجذب
كل اهتمامي. كانت تغني وتشدو قائلة بصوت يأسر قلبي ويخلب
وجداني: «أمل حياتي يا حب غالي ما ينتهيش. يا أحلي غنوة
سمعها قلبي ولا تتنسيش. خد عمري كله بس النهاردة خليني اعيش.
خليني جنبك خليني في حزن قلبي وسيبني أحلم سيبي. يا ريت
زماني يا ريت زمني ما يصحنيش يا ريت يا ريت ما يصحنيش».
أمل حياتي يا سارتي الحبيبة. يا من كنت لي أمل الحياة
وحب العمر. يا من كنت لي جنة الأحلام في الماضي وعطر الأوهام في
الحاضر تري أين أنت الآن؟ لقد انقطعت أخبارها عني تماما. منذ أن
خطبها أدهم ثم تزوجها بعد أن تخرج في السنة النهائية وصار ضابطا
ولا أعرف عنهما أي شئ.

لا أريد أن أتجرع هذه الأحداث الحزينة ولكنها تلح علي ذاكرتي
الآن. كنا قد انتقلنا إلي شقتنا الجديدة في المساكن الشعبية التي منحتها
الحكومة لنا قبل أن تبدأ سنتي الجامعية الأولى بكلية الآداب. كنت
مؤهلا لدخول كلية الاقتصاد والعلوم السياسية وكلية الإعلام. كل كلية
من كليات القمة كانت تفتح ذراعيها وتقبلني. قلت لأمي وقتها:

— سأدخل كلية الاقتصاد والعلوم السياسية

— بلا خيبة يا عبدالله يا ابني

— وما الخيبة في هذا؟

- أتدخل كليتين في نفس الوقت؟ كلية الاقتصاد وكلية العلوم السياسية؟
- لا يا أمي كلية واحدة.
- وإن شاء الله عندما تتخرج ماذا ستعمل
- سأكون سفيراً
- بلا وكسة يا بني. سفيراً! كل شئ بالواسطة يا بني في هذا الزمان. ألف مرة قلت لك ادخل كلية الشرطة مع أدهم. عبدالجواد باشا الخربوطلي كان سيساعدك وسيوصي بك خيراً.
- لا أحب كلية الشرطة. يا بهية يا أمي أنا الأول علي مصر كلها.
- هل أرمي مجموعي في كلية الشرطة وأصير مثلي مثل من نجح بالكاد في الثانوية؟
- طيب ادخل كلية التدريس. ستكون مدرسا
- اسمها كلية التربية يا أمي. لا أحب أن أكون مدرسا
- بلا وجع راس. ادخل ما تشاء
- سأدخل كلية الآداب. سأدرس اللغة الإنجليزية.
- خواجة يعني. ستصير خواجة
- نفس الكلمة التي قالها أدهم عندما علم بعزمي الالتحاق بكلية الآداب بقسم اللغة الإنجليزية. قال لي في غيظ: «أتظن أنك ستصبح خواجة؟ هل تري نفسك عميد الأدب طه حسين؟» كان يقولها بشماتة. بعد ما يقرب من أربعة سنوات أتاني ليخبرني خبراً قتلني. إنه يدعوني علي زفافه بحبيبة عمري. سألته: «هل تحبها؟»
- نظر إليّ ولم يرد عليّ. لعله خطبها ليحرق قلبي. لعله أراد أن يحرمني من أمنيّتي الوحيدة بهذه الحياة ومن أمنيّ الذي لا أمل لي سواه.
- علي الرغم من أنه دخل كلية الشرطة إلا أنه كان يأتي إليّ في جامعة القاهرة كل خميس ليصيد فتاة أو يضيع وقتاً. دائماً ما كان يأتي بملابسه العسكرية ليصادق فتاة أو يتحدث مع أخرى. لطالما ضبطته أكثر من مرة يقبّل فتاة بكليتي وكأنه يقول لي: «يمكنني أن أفعل كل شئ أما أنت فلا تستطيع أن تفعل أي شئ». أهذه هي الحرية المزعومة؟ ليس الخطأ فيه ولا عليه الخطأ أنه عاش في مجتمع متفلس لم تعد تحكمه أية قيم ولا أية أعراف. بعد أن

ضبطته مرة يتلمس بيده فخذ زميلة لي بالكلية واقتنص منها قبلة قال لي: «اذهب إلي محاضراتك أو إلي مكتبتك. لكم دينكم ولي دين. دعني يا أخي. هل تراقبني؟». صرت أحتقرها واحتقر كل الفتيات. يتحدثن عن الشرف وعن العفة وهن أبعد ما يكون عن الشرف والعفة. خائفات. يخرجن من بيوت آبائهن وأمهاتهن علي أساس أنهن يذهبن ويتعلمن وهن يضيعن الوقت ويلعبن ويجلسن مع الشباب الذين يلهون بأجسادهن. وفي النهاية يقلن إنهن يتعلمن!! حياة الجامعة وسنوات العمر الأولي بها. أية حرية وأي انفتاح. كنت منزويا علي نفسي. كنت أذاكر وفقط. كنت أتعجب من جرأة الفتيات والشبان وقتها. أري الفتاة منهن في قاعة المحاضرات وكأنها قديسة عفيفة، ثم يتصادف أن أجدها في يد شاب لا أعرف من أين وقع عليها أو وقعت عليه. أجده يختلي بها. يكاد يلاصقها وتلاصقه!! كأنهما يعيشان قصة حب ملتهبة!! أين إدارة الجامعة؟ يبدو أن الجامعة تريد هذا. هذا أفضل من الحديث في السياسة أو الخروج في مظاهرات ضد الرئيس السادات. تبا لكم أيها الجهلاء. أتريدون للشباب أن يكون هكذا؟ أتريدون للشباب أن يتحول إلي كائنات لا عقل لها ولا دين؟ أتريدون منهم أن يكونوا حيوانات تلهو بأعضائها التناسلية؟ هذا الشاب يقبل هذه الفتاة عيانا جهارا نهارا وهذه الفتاة تتأوه في حزن زميل لها؟ أهذا هو التعليم؟ أهذه فلسفتكم في التربية؟ أين ذهب الحياء؟ أقتلتموه؟ أين ذهبت الأخلاق؟ لقد قبرتم كل شئ ودفنتم الدين. كنت أبدو عجوزا في وسطهم. شهرتي لأنني أول الجمهورية في الثانوية وفقط. كيف أحادث فتاة؟ لا أعرف. كنت أتصيب عرقا. أية فتاة هذه التي تضحك هذا الشاب وتصافحه وتصادقه؟ أنها تسمح له بأن يجالسها بعد المحاضرات!! قد يمسك يدها أو يحتضنها!! إن أنفاسه تصب في وجهها. ألا يجروا أحد أن يقول لها إن هذا حرام؟ أين أبوها وأين أمها؟ لماذا أنت رخيصة تافهة إلي هذا الحد؟ ما هذه الأصباغ التي تلون وجهك؟ والله أكثر من مرة رأيت فتاة تصلح ماكياجها أمامي بلا خجل أو حياء في المدرج. كأنها لا تفعل شيئا تخجل منه. يجلس الشاب علي درج السلم مع فتاته وما أكثر المتحابين. كأن هذا حق مكتسب لهم. أين الآباء والأمهات؟ ألا يخجل

الأساتذة من هذه المناظر؟ أيعمل الأساتذة قوادين بهذه الجامعات؟ أين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ أين أنت أيها الرئيس السادات يا صاحب دولة العلم والإيمان بل أين أنت من مفهوم العيب الذي صدعت به رؤوسنا في خطبك؟ أية ساحة هذه؟ أساحة تعليم أم ساحة حب؟! لماذا لا يكتبوا علي باب الكلية كازينو الآداب؟ ليست كلية الآداب وإنما هي كلية قتل الآداب أو قلة الآداب.

كنت أحتقر مثل هذه المناظر وأحتقر نظام التعليم كله. أهذا هو ما يطلقون عليه الحرم الجامعي والذي تنتهك فيه كل الحرمات وترتكب فيه جميع الموبقات؟! والله أكثر من مرة رأيت شابا يقبل فتاته أو فتاة تتأبط ذراع زميلها. كنت أنظر للجميع باحتقار وتعجب. ومن أدراني أنهم ينظرون إليّ بمثل هذه النظرات؟ من أنا؟ لست إلا فقيرا يتيمًا أعيش مع أمي وأخوتي بالكاد. من أنا حتي أنظر إليهم بهذه الطريقة؟ أنا أفضل منهم. أنا الأول عليهم جميعا في الثانوية العامة. طيب وهم أكثر مني مالا وثناء. المعادلة بسيطة إذا. لهم حياتهم ولي حياتي وليس هناك من هو أفضل من الآخر. ليس لديهم أية أخلاق أو أية قيم. لا تضحك علي نفسك. ماذا إن كانت سارتك الحبيبة معك في الكلية؟ ألم تكن تتمني أن تحدثها وأن تقف معها فتمر الساعات الطويلة وكأنها ثوان معدودة؟

أنا أحب سارتي. ومن أدراك يا عبدالله بأن هذا الشاب يحب هذه الفتاة وأن هذه الفتاة تهيم عشقا بهذا الشاب؟ لا يحبها. إنه يكاد أن يحتضنها. إنه يهينها ويهين نفسه. هي تريد منه أن يلمسها وأن يحتضنها يا أخي وأنت مالك؟ إنه يضحك عليها. وهي أيضا تضحك عليه. دع الناس في أحوالهم يا عبدالله. هذه ليست جامعة إذا. إنها ساحة للعشاق وواحة للقاء المحبين. وساحة للعلم لمن أراد أن يتعلم أيضا. عقلي سيضيع مني. أين القيم والأخلاق يا عالم؟!!

الشاب يجلس بجوار الفتاة ويلامس فخذها فخذها. كيف سيفهم أو يركز في المحاضرة؟ صارت الجامعة مكانا تقير فيه كل الأخلاق الحميدة. إنه يحدثها ويخرج معها ويذهب إلي أي مكان ليفعل فيه ما يريدان. كل هذه المناظر ويتحدثون عن الحب. هذه العاطفة السامية النبيلة ترتكب باسمها أبشع المنكرات!!

قضية شغلت عقلي وتفكيري لفترة طويلة قبل أن تقذف حنان في طريقي. أليس هذا مجتمع الجاهلية؟! ما هذا التبرج والعري الذي تظهر به الفتيات في الجامعة؟! أتذهب الفتاة إلي الجامعة وكأنها تذهب إلي ديفيله أو سهرة راقصة؟! إنها تتزين وتجدها وكأنها ذاهبة إلي عرس أو ذاهبة لاصطياد عريس!!

وجدت ضالتي في شرائط الشيخ عبدالحميد كشك والتي كانت منتشرة جدا في هذه الأيام. أي مجتمع متخلف هذا؟ أين الدين في هذا المجتمع الذي ينسلخ من جذور إيمانه ويبتعد عن ملة الإسلام؟ وجدت ضالتي أيضا في الكتب التي كان يفترشها بعض الباعة خارج أسوار الجامعة. الرئيس السادات كان علي حق في خطبه ولكن أين التنفيذ؟ كان دوما يتحدث عن دولة العلم والإيمان ومصر تتفلسف عن العلم بعيدا وعن الإيمان كانت أبعد ما تكون. ألم يكن يري ما يعرض علي شاشات التلفزيون من فجر ورقص ومجون؟ لقد تحول إلي أمريكا بعد أن انقلب علي الروس. أراد أن يحطم الاشتراكية أو الشيوعية في مصر. صار يضع رموزهم في السجون. ممتاز. ستنصلح مصر إذا. صار يضع كل من يعارضه في السجون. إنه يلقب نفسه بالرئيس المؤمن. لماذا شعرت وقتها أنني أحبه في بعض الأمور ولكني كنت أعارضه أكثر في أمور أخرى؟ لا أدري. كنت أؤيده في كل ما يفعل وما يقول ولم أكن أعلم أن الدور سيصيبني. إنه يضع رموز اليسار في السجون. كنت أفرح وأقول: الله أكبر الإسلام قادم وسينتصر الله لدينه. كيف يتحدث عن الدين وأخلاق القرية والعيب ويترك كل هذا في بلده؟ كيف له أن يهادن اليهود؟ كان السادات أيضا يقوَّى من شوكة اليمين في مصر ليضرب به اليساريين والعلمانيين. إنه يريد أن يضرب التيارات المتعارضة ببعضها ليظل في أمان. كنت ذكيا يا سادات ولكنك لم تكن تعلم أنك تحفر قبرك بيديك. لم أكن أعلم وقتها أن الذي يسجن فصيلا سيسجن كل فصيل آخر بمجرد أن يعارضه أو يقف في طريقه. الديكتاتورية ليس لها إلا وجه واحد. لم أكن أعلم بأنه سيزج كل معارضي في السجون وأولهم الشيخ كشك وبعض رجال الدين وكذلك الإخوان المسلمين. صرخ محمد بسيوني فأفزعني وأخرجني من واحة ذكريات الماضي

قائلا: «دش. خسرت العشرة يا أنور يا حسان».

يبدو أنه أراد أن يهدينا قفشة من قفشاته التي لا تنتهي. وقف يرقص مؤخرته ويهز صدره متمايلا إلي الأمام ويغني قائلا لأنور حسان في شماتة:

— حميني جنبك حميني في طشت قلبي. قال خبيني جنبك خبيني قال. علي كل عيني عليك يا ست. أحب هذه الأغنية لأن أم كلثوم تغني لي

— كيف يا ابن بسيوني؟

— آه. أمل حياتي. يا حب غالي ما يتنسيش. أمل. أم كلثوم تغني لابنتي أمل. والله بنتي اسمها أمل

— عيني عليك وأنت متجلي يا بن بسيوني

نظر إليه أنور حسان وقال له في تحد: «تعال وسأهزمك في هذه العشرة». أراد محمد بسيوني أن يضحكنا بقفشاته فقال لأنور حسان:

— أتعرف أن أم كلثوم تغني لك أيضا في هذه الأغنية علي الرغم من أنك خسرت العشرة الأولي؟

— كيف يا ذكي؟

— تقول أم كلثوم: «أنا حبيت في عينيك الدنيا كل الدنيا حتي عوازلي أو حسادي»

— أين أنا إذا يا فصيح وكيف تغني لي؟

— كانت تقصد أو حساني وليس حسادي كانت تقصد محمد حساني ولا تعرف أنه سيهزم الليلة مني. عيني عليك يا حساني أنت يا جميل

— سأجعلها تغني لك يا بسيوني يا جميل عندما أهزمك يا حلو. هلم إلي العشرة الثانية.

عادا إلي اللعب مرة ثانية وعدت إلي آفاق ذكرياتي. عاد صوت ضرب النرد إلي الارتفاع. غصت في صوت أم كلثوم: «أمل حياتي. عيني. يا أغلي مني علي. يا حبيب امبارح وحبيب دلوقتي. يا حبيبي لبكرة ولآخر وقتي».

هذه هي الحقيقة. لقد كانت سارتي حلم الماضي وحبه ولا زال حبها يتغلغل في قلبي إلي الآن وسأظل أحبها بكل ذرة في ذرات كياني

حتى أموت. لا يمكن أن أحب غيرها. لازلت أتذكر نظراتها لي وهي في ليلة زفافها. تكاد عيناها المتوسلتان أن تصرخا لي بأن أنقذها من أدهم. عيناها تقسمان لي بالله أنه لا يحبها. لقد تزوجها ليحرمني منها ويحرمها مني. لماذا وافقت إذا علي الزواج منه؟ كان بإمكانك أن ترفضني. نظراتها تتهمني بأنني السبب مما نحن فيه الآن. نظراتها تسبني وتقذفني قائلة: «أنت جبان متردد. أنت لم تقل لي ولو مرة واحدة أنك تحبني. ستضيع حياتي وتضيع حياتك. ستضيعني بأن ترميني في طريق شاب مستهتر كما ستضيع نفسك وتلقي قلبك الليلة في طريق الضياع. يمكنك أن تحب غيري يا عبدالله؟ أنا لا يمكنني أن أحب غيرك».

وماذا كان بإمكانني أن أفعل يا سارتي؟ لاشئ. رفعت الأقلام وجفت الصحف. كان أدهم يرقص فرحا ودموعك تنهمر علي خديك في ليلة يفترض أن تكوني سعيدة فيها. كانت عيناها تسألاني في حيرة: «أهان عليك أن تحضر ليلة زفافي؟ أهان عليك أن تراني ذاهبة إلي الموت في أحضان شخص غيرك؟ أهان عليك أن تدوس قلبي وقلبك بأحذية جبنك وترددك. افعل شيئا أرجوك. حطم هذا الفرع وكسر كل هذه الكراسي وأطفئ جميع هذه الأنوار. اقتل أدهم واخطفني من هنا بعيدا عنه. أرجوك افعل شيئا». انصرفت وأنا أبكي حزينا لضعفي وقلة حيلتي. لا أستطيع أن أكرم دموعي ونفمتي علي الدنيا بأسرها. ليتني ما ذهبت إلي حفل زفافها. سقيا لأيام الحب التي ماتت وضاع عطرها وانفضت لياليها. ستكون في أحضان أدهم. أين هذه الأيام التي كنت أطيل النظر فيها إلي حبيبة حياتي. كنت أنظر إليها وتطول النظرات. كنت أحس اللحظة عمرا وأنا أنظر إليها. لقد صار حراما علي أن أفكر فيها. لقد بعدت عني بعد المشرق عن المغرب. الموت أهون علي من أن أبتعد عنها. تشدو أم كلثوم بأحاسيسي وبما كنت أشعر به وأنا أنظر إليها: «وأنت معايا يصعب علي رمشة عيني لو حتي ثانية. يصعب علي ليغيب جمالك ويغيب دلالك ولو شوية. قد كده مشتاق إليك قد كده ملهوف عليك. نفسي أنه لك بكلمة ما اتقالي تش لحد ثاني. كلمة قد هواك دا كله قد أشواق وحناني. كلمة زيك واللي زيك فين. دا أنت

زيك ما اتخلقش اتنين». آه. لقد كنت أشتاق إلي رؤيتها وهي معي. لقد كنت أتمني أن تصبح اللحظة ساعات وأنا أسترق النظر إلي وجهها الجميل وأسترق السمع إلي صوتها الرائع. لقد ضاع كل شئ كما ضعت أنا أيضا. ضاع الحب وضاع الأمل وضاع كل شئ بعدك يا سارتي. لم أكد أنتبه لنفسي إلا ووجدت دموعي تنساب غزيرة علي خدي فأضطر إلي مسحها. لا يا سارتي. لن أقول هذه الكلمة لأحد. لن أقول لفظة أحبك أبدا لأي أحد بعدك. أنت فقط من تستحق هذه الكلمة. صديقي. لا يوجد أحد في هذه الحياة يستحق هذه الكلمة سواك. نظرت بجانبني فوجدت سيد أبو ستة ينظر إليّ بهدوء. اقترب مني وألقي علي تحية المساء. لقد ظهر سيد أبو ستة في حياتي من جديد. تذكرت أيام كان يعمل معي في مصنع حجاج العيسوي. إني أحبك يا سيد ولطالما وقفت بجانبك. كيف هربت من رجال الشرطة؟ لقد قبضوا عليك أمام والديك. تري ماذا وراءك يا سيد هذه المرة؟ اقترب مني وأخبرني بما أفزعني. نظرت إليه وأنا لا أكاد أصدق. كنت أتحري الصدق في عينيه. لقد أبلغني أمرا جلالا همس به في أذني مما جعلني أستأذن من غريمي الطاولة وأنتحي به بعيدا. أيعقل ما تقوله لي يا سيد؟ هل هذا وقته؟ وكيف عرفت هذا الأمر؟ سبحان الله. هل ما تقوله حقا يا سيد؟ وإن كنت تكذب فلماذا؟ سأعرف منه كل شئ بالتفصيل.

الحلقة التاسعة والخمسون

طريق الأوهام

انتحيت بسيد أبو ستة غير بعيد عن المقهي. لقد صعقني تماما وشد أنتباهي عندما قال لي هامسا بجديّة: «لديّ معلومات عن خطيبتك شكرية». وقفت وأخذت بيده في هدوء وابتعدنا قليلا. أشرت له ألا يتكلم حتي نبتعد عن الأعين. رأيت الصدق في عينيه. قلت له والقلق يكتنفني:

— هل ما تقوله صحيح؟

— لا أكذب عليك يا عبدالله يا مصري

- هل هي بخير؟
- في الحقيقة لا أعرف
- إذا كيف تقول إن لديك معلومات عنها. لقد بحثت عنها وكأنها فص ملح وذاب. ذهبت أُمِّي إلي فيلتها وسألت عنها كثيرا كما ذهبت أنا أيضا ولكنني لم أَعثر لها علي أثر ولذلك قدمت بلاغا في قسم الشرطة وليس لدي أية معلومات عنها حتي الآن.
- أقول لك ما لدي وصدقني. أُمِّي يريد أن يراك ويقول إنه قد رأي شكرية وطلب مني أن أخبرك بهذا.

سألته كيف فر من قبضة رجال الشرطة. لقد رأيتهم بعيني رأسي يقبضون عليه. أقسم لي بغليظ الأيمان أنه كان مظلوما. إنه لم يكن طرفا في تفجير القنبلة في مصنع حجاج العيسوي والتي أدت إلي مقتله منذ شهور. أمه وكلت له أحد أمهر المحامين بعد أن باعت كل ذهبها وخرج من القضية سالما تماما كما تخرج الشعرة من العجين. نظرت إليه في تعجب وكأنني غير مصدق لما يقوله. طلبت منه أن يخبرني ما قاله والده بالضبط. تحدثت وذكرت محمد إبراهيم أبو ستة ذلك الجار الغريب الذي أصر علي استضافتنا أنا ووالدتي عندما قررنا بدء البحث عن خطيبتني شكرية. قال في أُمِّي إن والده كما يقول الأطباء قد فقد عقله تماما وأصبح عليه عبء أسرته وأطفاله وعبء والدته أيضا. طلب مني سيد أن أبحث له عن عمل معي في مصنع سارة العسكر ولقد علم أنني استطعت أن أقنعها بأن تعيد بعض من تم فصلهم من العمل مرة أخرى. إنهم في المصنع يقولون عني أنني مقرب من سارة العسكر ولا ترفض لي طلبا. نظرت إليه وسألته:

- أيمكن أن أذهب معك إلي والدك الآن؟
- بالطبع لا
- لماذا؟
- إنه محجوز الآن في مستشفى المجانين
- متي يمكننا أن نذهب إليه؟
- الجمعة القادمة يمكننا زيارته

أخذت أتساءل في نفسي قائلاً: «ألا يمكن أن يكون كل ما يقوله سيد أبو ستة كذبا؟». لا يمكن أن يكذب عليّ. لقد كنت أحبه عندما كنت رئيس ورديته وكثيرا ما كافحت لآخذ له ولزملائه حقوقهم. لقد استقلت من مصنع حجاج العيسوي من أجل حقوقهم التي كان يريد حجاج أن يهضمها ظلما ويأكلها عليهم حراما. ألا يمكن أن يكون ما يقوله والده مجرد تخيلات وأوهام؟ حتي وإن كان كذلك فما الذي أستطيع أن أفعله؟ إن السير في طريق الأوهام أفضل أحيانا من السير في طريق الحقيقة إن كان لا يوصلنا إلي أمل. طريق الأوهام قد يكون محفوفًا بمخاطر الضلال ولكنه أحيانا قد يكون الطريق الوحيد الموصل إلي لذة الأمل. طريق الحقيقة مؤلم وملئ بأشواق الخوف وغالبا ما يؤدي إلي اليأس علي عكس طريق الأوهام الذي يكون مفروشا بزهور الحلم وورود الألم وإن كان يؤدي إلي صدمة الواقع.

أتي إلينا أنور حسان مسرعا يضحك في فخر و يصيح قائلاً:

— الحق بمحمد بسيوني حبيبك

— ماله؟

— سيموت من القهر والغیظ. لقد غلبته. أخذت منه عشرة صائمة

— صائمة؟ وهل هناك عشرة مفطرة؟

— أقصد أنه لم يكسبني طيلة هذه العشرة ولو في دور واحد

— آه فهمت

— ليس هذا فحسب

— ماذا أيضا؟

— أخذت العشرة كلها خشب. لم يستطع أن يخرج بقواشيظه من

الخشب طيلة هذه العشرة

— حسرة عليك يا محمد يا بسيوني

كان محمد بسيوني يجلس في كرسیه منزويا خجلا من هزيمته

وكأنه لا يستطيع أن يرد علي أنور حسان الذي سحقه تماما في العشرة

الماضية. إنه حتي لا يستطيع أن يفتح فمه ليتكلم. نظرت إليه فغض طرفه. اقتربت منه وقلت له :

— رد يا باشا علي قاهر الزهر ومروض القواشيط أنور باشا حسان

لم يستطع أن يرد. قلت في تحفيز له :

— ولا يهملك. غلبته عشرة وغلبك عشرة. هيا بنا إلي العشرة الفاصلة لتوضح لنا من له الغلبة الليلة.

وكان كلماتي أنقذته. لقد كانت كلماتي هذه حبل النجاة بالنسبة له. تهلل وجهه. ابتسم وقال:

— وأنا لا أستطيع أن أرد كلام عبدالله المصري. هلم يا أنور حسان. عيني عليك يا ست أم كلثوم. اشجينا.

أردت أن يواصل الغريمين لعبهما لأنفرد بسيد أبو ستة ولكنه اعتذر بحجة أنه يجب أن يذهب لأمه التي صارت وحيدة بعد أن ذهب والده إلي..

سكت قليلا وأشرت له ألا يكمل إذ وضعت يدي علي فمي ليفهم أنني لا أريد له أن يكمل.. طلبت له قهوته الزيادة. شربها علي عجل وواعدني أن نلتقي يوم الجمعة. طلب مني ألا أنسي طلبه ثم انصرف وتركني أتابع اللعب وأستمع إلي أم كلثوم وهي تشدو. يبدو أن صوتها سيأخذني ثانية إلي طريق الأوهام الذي أحب أن أسير فيه دوما بغية الأمل والحلم.

خرجت تماما من المقهي بتفكيري وغصت في عالم الطرب وعالم آخر أعادني إلي ظلال الحب ثانية. رأيتني أردد معها: «أنت خليتني أعيش الحب وياك ألف حب. كل نظرة إليك أحبك من جديد وأفضل أحب. أنا حبيت في عينيك الدنيا كل الدنيا.. دي السعادة والحنان اللي في هواك ما يقضيناش أجيال طويلة».

لم أعش معك يا سارتي الرائعة حبا واحدا فقط. لقد عشت في هذا الحب طيلة عمري كله إلي الآن. بعد أن تخرجت وعينت معيدا في كلية الآداب كنت أحن إلي بيتها. كنت أسمى الطريق إلي بيتها بطريق الأوهام. لما سألتني أمي عن سبب ذهابي إلي هناك أخبرتها أنني أحن إلي الذهاب إلي هناك لأتذكر أيام الطفولة والصبا. كنت أكذب عليها بالطبع. لقد كنت أذهب من أجل أن أتذكرها. من أجل أن أتذكر أيام البراءة الأولى وأيام الحب الخالية. أتذكر كيف كنت أسبقها ثم أترك لها المجال حتي تكسبني. أتذكر كيف كنت الأقوي دوما من أدهم والأفضل منه ولكنه فاز بها وتركني أتجرع مرارة أحلامي. لماذا لا أعيش في الوهم طويلا؟ أنا أحببتها وأحبها.

لماذا أكون أنانيا؟ ألا يكفيني أنني أحببتها؟ يمكنني أن أعيش عمري كاملا وأنا أحبها. ليس من الضروري أن يحبنا من أحببناه وليس من الضروري أن نتزوج من نحب. ألا تكفيينا روعة الحب ومتعته؟
ألا يكفي أننا جربنا الحب؟ كم من الناس عاش ومات كالبهائم لا يعرف الحب ولم يذقه. ألم يصدق الشاعر إذ قال: «إذا أنت لم تحب ولم تذق طعم الهوى فقم فاعتلف تبنا فأنت حمار».

ألمس جدران بيتها وأمسها وأتعلق بأسوار حديقته بعد أن أنتهي من طريقي الذي أقطعه إليها في تودة واستمتاع. هنا كانت تلعب وهنا غمزت لي وهنا نظرت إليّ ساخرة من أدهم لغبائه. هنا أول مرة نظرت إليّ بحب وهنا أول مرة ضربت فيها أدهم وبركت علي صدره أمامها لأخبرها بأنني رجلها وأنني أنا الجدير بها. هنا وضعت الطين وملاّت الأرض ماء لينزلق الأستاذ حسن الساعاتي الذي كان يود أن يخطبها. أضع يدي علي جدران البيت. أتلمس أسواره بيدي. تذكرت قول قيس ابن الملوّح الشهير بمجنون ليلى: أمر علي الديار ديار ليلى أقبل ذا الجدار وذا الجدار

وما حب الديار شغفن قلبي ولكن حب من سكن الديار

أنا عاشق مثله تماما. كلانا يسير في طريق الأوهام. هو يحب ليلاه وأنا أحب سارتي. كلانا هائم متيم في حبه. لماذا أنا هنا الآن؟ أنا هنا لأبكي علي أطلال حبي ولأترحم علي أيام قد مضت وأظن أنها لن تعود من جديد. من أدراني؟ أليس الله بقادر علي كل شيء. كفالك أحلاما وأوهاما. لقد ضاعت منك سارتك إلي الأبد. لقد تزوجت وتزوجت بمن؟ تزوجت بأدهم. غريمك الغبي. هذا التافه الخائب. أهو التافه الخائب أم أنت؟ لقد فاز بها وخسرتها. لقد كانت تحبني. أنا أولي بها منه. لقد اعترفت أكثر من مرة أنها تحبني. وماذا فعلت باعترافها أيها الأحمق؟ لقد أضعتها. لم يكن الوقت مناسباً. لم أك شيئا. أنا الآن معيد بالجامعة. ليت الوقت كان غير الوقت. أكنت تستطيع أن تخطبها من والدها الآن؟ كيف كان يمكن لك أن تخطبها وأنت ربيبها؟ إنه هو الذي رباك. والدك كان أجيرا لديه وأنت كذلك مثله. لقد ربيت في كنفه وبكرمه. لا. أيمكنك أن تواجهه وتطلب يد ابنته منه؟ في الحقيقة لا. لقد فاز بها أدهم لأن والده عبدالجواد باشا

الخبوطلي هو الذي خطبها له. أين والدك أنت؟ لقد مات وشبع موتا. سمعت خطوات تسير ببطء خلفي. يا لها من مفاجأة!! لقد نزلت من التاكسي. إنها هي. أعرف صوت خطواتها. إنها سارتي الحبيبة. لن ألتفت إليها حتي تنادييني. سارت خلفي بهدوء ثم لمست كتفي. نظرت خلفي فوجدتها. أمسكت بيدها وتساءلت إن كنت أحلم أم أن هذه حقيقة؟ إن عينيها تبتسمان لي. حدثتها وحادثتني. جريت واقتطفت وردة حمراء وأعطيتها لها. ابتسمت لي وللوردة. شمتها ووجدت ريحها في أنفي. أعطتني الوردة ثانية. أردت أن أغرسها في شعرها.

ولكنني أفقت لأجدني أحلم. آه يا سارتي الحبيبة. تري أين أنت الآن؟ ماذا يفعل بك هذا الوقح أدهم. أتمني ان تكوني سعيدة معه حتي وإن كنت بعيدة عني فروحي أقرب إليك منه. سارتي الحبيبة. أنت تحبينني أليس كذلك؟ أنا وقيس كلانا واحد في الحب. لم أكن واهما. سارتي كانت تحبني. وقيس أيضا كان يعتقد أن ليلاه تحبه. تذكرت بيت الشعر الذي كتبه فيها إذ يقول: أشارت بطرف العين خيفة أهلها إشارة مذعور ولم تتكلم فأيقنت أن الطرف قد قال مرحبا أهلا وسهلا بالحبيب المقيم أنا أحسن منك حالا يا قيس. يبدو أنها لم تعترف لك بالحب مثلما اعترفت سارتي لي.

كنت ذات مرة أمر علي بيتها كعادتي بعد العصر في أحد أيام الربيع فوجدت والدها يسقي الزرع والورد. أشار إليّ أن أدخل. دخلت وسلمت عليه وأخبرته أنني عينت معيدا بكلية الآداب. كان مهموما مغتما. أصر علي أن أشرب الشاي معه. دخلت معه فوجدت والدة سارة تبكي. عرفت أن أدهم يضرب سارة. يتركها بحكم عمله أياما طويلة ولا يمكث معها إلا نادرا. المصيبة أن سارة حامل. طلبت سارة الطلاق أكثر من مرة ولكن أدهم كان يرفض بشدة. كان يقول لها كما تحكي والدتها: «لن أتركك لتعودي إلي عبدالله المصري حبيب القلب». أهكذا قلب أدهم الدنيا؟ لمحات الحزن والهم تغشي وجه أم سارة. والدها فؤاد باشا لم يعد كما كان من قبل. أظن أنهما الآن في غاية الندم. هكذا الدنيا. آخر مرة رأيت فيها سارة عندما كانت بطنها منتفخة.

كنت أمر علي أطلال حبي فوجدتها تزور والديها. تصرخ وتبكي
قائلة لهما:

— لا أستطيع أن أعيش معه ولو لدقيقة واحدة. إنه يخونني يا ماما.
إنه يعرف الكثيرات.

ذيل الكلب لا يمكن أن يستقيم أبدا. وددت لو أنه كان أمامي الآن.
لو كان أمامي لشربت من دمه وانهلت عليه ضربا وركلا. أيها الكلب.
أيها الوقح. إنها ستلد قريبا. ربتت علي كتفها وطلبتها بالصبر
رحمة بنفسها وبجنيها. علمت أن الطبيب أخبرها بأنها ستلد بنتا.
اختارت أن تسمي ابنتها باسم آمال.

أنا الذي أدعوها إلي الصبر علي أدهم؟ أليس من حقي أن أجعلها
تعاند وتطلب الطلاق. كانت نظراتها المتوسلة لي تستمر وتتواصل.
لا أشعر أنني أستطيع أن أكون سببا في طلاقها وخراب بيتها.
لم أرها ثانية ولم أر آمال ابنتها. لقد عدت إلي الواقع من جديد
مع صيحات محمد بسيوني من جديد إذ هب واقفا بعد أن أتى بدش
وصرخ بطريقته المعهودة قائلا: «فزت ورب الكعبة». لقد كسب العشرة
الفاصلة وأرجعني صوته من طريق الأوهام إلي عالم الحقيقة المر. رفع
يده اليمني إلي أعلي وكأنه يمسك بكأس بطولة الطاولة العالمية.
قال في فخر:

— العبرة بالنهاية يا أنور يا حسان. اشجينا يا ست. لقد انتصرت
نصرا مؤزرا

ثم واصل قفشاته وقال موجهها حديثه لأنور حسان الذي انزوي
في مقعده بعد هزيمته وبأنت عليه علامات الإحباط وتذرع بالصمت:
— أم كلثوم دوما ما تغني لبنات عمي. طبعاً لن تسألني لماذا أيها
المهزوم يا ابن حسان. أنا سأقول لك لماذا لأقهرك وأنت ساكن
هكذا. أم كلثوم تغني قائلة: «إيه من الأمانى ناقصني ثاني وأنا
بين إيديك» وتقول: «وقابلت آمالي وقابلت الدنيا وقابلت الحب».
في الحقيقة آمال وأمانى بنات عمي.
الله عليك يا ست. إنها تغني لي أنا. آمال هذه ابنة سارتي
الحبيبة.

ظل أنور حسان ساكتا بعد هزيمته وأصر محمد بسيوني أن يدفع الحساب بالكامل علي الرغم من أنه الفائز في هذه الليلة. عدت إلي أمي والتفكير يكاد أن يفلق رأسي. هدأت قليلا. هاتفني يرن. إنه نفس رقم الهاتف المتميز الذي يطاردني منذ فترة. تري من صاحب هذا الرقم؟

الحلقة الستون

بداية الثورة

سأرد علي الهاتف لأعرف من صاحب هذا الرقم المتميز. خمسة أرقام متشابهة. خمسة أرقام بها العدد ستة. يعني خمس ستات. تري من صاحب هذا الرقم؟ لعله الضابط شديد. إنه سيأتي بي ولو من تحت سابع أرض إن أرادني. لا أعتقد أنه هو الذي يتصل بي. لماذا لا أتساءل من صاحبة هذا الرقم؟ ومن أنا حتي تشاغلني أنثي أو تعاكسني امرأة؟ يبدو أن الغباء سيقتلني. لماذا كل هذه التساؤلات؟ سأرد وأعرف. ضغطت علي زر الرد. لا أحد يجيبني من علي الطرف الآخر. بدأ الغضب يستبد بي. قلت: «ألو. ألو. من معي؟» أكثر من مرة ولا أحد يجيب.

هل أسب من علي الطرف الآخر؟ ظللت متحيرا للحظات. سمعت علي الطرف الآخر صوت تنفس حالم وشهيق عميق. تري من هذا الغبي الذي يداعبني بهذه الطريقة السخيفة؟ لحظات وقام من علي الطرف الآخر من المكالمة بالتصفير بفمه وبتشغيل أغنية عبدالحليم حافظ: «باحلم بيك أنا باحلم بيك. وبأشواقي مستنيك. وان ما سألتش فيا يبقي كفاية علي عشت ليالي هنية باحلم بيك أنا باحلم بيك». رددت في غضب واضح وأنا أصيح في غيظ: «كفاك هذه الحركات الصبانية. من معي؟ رد يا مغفل».

لم ألتق ردا. بل قام من علي الطرف الآخر من المكالمة برفع صوت الأغنية إلي أعلي مدي. دوت كلمات عبدالحليم في أذني ثانية: «باحلم بيك يا حبيبي أنا ياللي مليت أيامي هنا. باحلم بيك عارف من امتي من أول ما عرفت أحب. باحلم بيك وباحبك وأنت أول حب

وآخر حب. أنت حياتي وابتساماتي وأنت الروح والعين والقلب». لا أعرف سببا لحبي لعبدالحليم حافظ. لقد كظمت غيظي من أجل أن أوصل الاستماع للأغنية. كانت سارتي الحبيبة تحبه. يبدو أنني أحببته من أجلها. تذكرت يوم الثلاثين من مارس عام سبعة وسبعين. كان يوما عصيبا عليّ. في ذلك اليوم أعلنت وفاة عبدالحليم حافظ. تذكرت مدي حزن سارتي عليه. لقد ارتمت في أحضانتي تبكي. أصرت علي حضور مراسم تشييع جنازته ولكن الحمد لله منعها والدها. حضرت مع والدها تشييع جنازته. جنازة مهيبة. أكثر من مليوني شخص يبكون بحرقة. أنتحرت فتيات كثيرات. أيعقل هذا؟ حكي لي فؤاد باشا أنها جنازة فريدة لا يضارعها سوي جنازة عبدالناصر التي لم يحضرها وجنازة أم كلثوم. وفي اليوم التالي ولمدة أكثر من أسبوع لم تحضر حنان عزت السيد زميلتي إلي الجامعة. لما زرتها في البيت لأعطيها الدروس التي فاتها كانت لا تزال تبكي. قامت هي أيضا واحتضنتني. صحيح أنني أحب عبدالحليم حافظ ولكن لماذا هذه المبالغة. أبعدتها قائلا:

— يعني هل انقطع الوحي من السماء؟ مات مثل غيره. إن كان النبي عليه الصلاة والسلام قد مات.

— مات صوت الحب يا عبدالله يا مصري. مات شهيد الفن

— مات مات. نصيبه وقدره. يعني مات شهيد حرب ثلاثة وسبعين؟

— مات وهو في عز شبابه. إنه لم يتم الخمسين. لقد كان يحارب بصوته

— ربنا يرحمه ويرحمنا ويرحم شهداءنا. هيا نذاكر دروسنا

ومع الأيام بدأ حنقي يزداد علي عبدالحليم وعلي رموز الفن والراقصات. مات الكثير من العلماء وشيوخ الأزهر وعباقره التلاوة ولم أجد مثل هذا الحزن عليهم ولم تركز وسائل الإعلام عليهم بهذه الصورة المبالغة. كلنا سنموت. سبحان الله. تفرقة حتي في الموت ألا تكفي التفرقة في الحياة بين الناس؟

لقد قررت أن أغلق هاتفي بعد أن قمت بسب محدثي علي الطرف الآخر قائلا في ثورة: «لن أرد عليك ثانية أيها الأحمق. دع عبدالحليم يغني لك». لماذا لا تكون محدثتي؟ لا يهمني. لن أرد علي هذا الرقم المميز بعد هذا.

قَبِلْتُ أُمِّي ودخلت علي سريري لأنام. أحلم بك يا حبيبي أنا.
آه يا سارتي الحبيبة. إنك لا تفارقين خيالي منذ أن أَسْتِيقِظُ وحتى
أنام. قمت مسرعا وفتشت جيوبي بعد أن برقت في ذهني صورة سارة
العسكر. لا أجد مفتاح الفيلا الذي وضعته سارة العسكر في يدي عندما
كنت في حفلها. هل أكون أحلم؟ لقد أعطتني سارة العسكر مفتاح
الفيلا القريبة منها والتي سأسكن فيها أنا ووالدتي بعد أن أعود من
رحلتي إلي لندن معها.

تري ماذا يحدث لي؟ أيمكن أن يكون كل ما عشته في الليالي
الماضية مجرد أحلام؟ هل بكت سارة العسكر أمامي واعترفت بحبي؟
يا إلهي؟! إني أكاد أن أجن.

خرجت إلي أُمِّي مسرعا وسألتها في فزع عن المفتاح. كان قلبي
ينبض بشدة وأترقب ردها. قالت متثأبة:

— أي مفتاح يا ولدي؟

— مفتاح كان في جيبي

— الصباح رباح يا عبدالله

— لا يا أُمِّي. أرجوك. أين المفتاح؟

— لا أعرف عن أي شئ تتحدث

خلدت أُمِّي إلي النوم وانطلقت كالمجنون إلي حجرتي وإلي
المطبخ وإلي الحمام وإلي كل مكان في شقتنا لأبحث عن المفتاح. أيعقل
أنني كنت أحلم؟ لقد ذهبت إلي حفلة سارة العسكر وقابلتها وقابلت
اللواء عبدالمجيد وحنان عزت زميلتي أيام الجامعة. لقد جذبتني إلي
سريرها الدوار وخلعت ملابسها كاملة أمامي. لقد اعترفت بحبي في
البلكونة وأعطتني مفتاح الفيلا التي سأسكن بها بعد عودتنا من
لندن. سأسافر معها. اتجهت إلي أُمِّي ثانية وهزرتها برفق وهي
نائمة وقلت لها في رجاء:

— أرجوك يا أُمِّي يا بهية أرجوك

— مالك يا عبدالله؟

— هل أنا مجنون؟

انتبهت أُمِّي إليّ وجلست بعد أن استفاقت. تثاءبت ثانية. لمست
شعرها الأبيض الذي انسدل علي جبينها ثم قَبَلَتْهَا قائلاً:

- يبدو أنني قد جننت يا أمي مثل محمد إبراهيم أبو ستة
- لا حول ولا قوة إلا بالله. هل جن هذا الرجل الغريب؟ لماذا تقول هذا؟
- لقد جن فعلا وببدو أنني جننت مثله
- لماذا تقول هذا؟ كفك الله شر الجنون
- لقد كنت صائما يوم الخميس الماضي وذهبت إلي حفلة الأستاذة سارة العسكر.
- صاحبة المصنع الذي تعمل به
- آه. هل تتذكرين؟ لقد لبست بذلتي اليتيمة ليلتها
- آه. أتذكر هذا يا ولدي.
- الحمد لله. أين بذلتي؟ لقد بحثت عنها في كل مكان ولم أجد لها
- عند الكواء
- ياللمصيبة!!
- ما المصيبة في هذا؟
- بها مفتاح الفيلا
- أية فيلا يا ولدي؟ نحن لا نكاد نجد ما يكفيننا لنعيش عليه.
- كيف تقول إننا سنعيش في فيلا هل جننت؟
- حتي أنت يا أمي؟
- هرعت إلي الكواء مسرعا. لقد نزلت حافي القدمين. الكواء قد أغلق دكانه. صحت مناديا عليه في بيته. خرج إلي عم حنفي الكواء وهو يفرك عينيه من أثر النوم. أيعقل أن يكون كل ما مر بي مجرد حلم وخيال؟ رجوته أن ينزل ويفتح لي محله. أعطاني بذلتي. سألته إن كان وجد مفتاحا ببذلتي. تبسم قائلا:
- موجود يا أستاذ. في الحفظ والصون. الأمانة متوفرة لدي عمك حنفي يا أستاذ
- قبّلت رأسه وشكرته. المفتاح موجود. الحمد لله. انفرجت أساري
- وقبّلت عم حنفي. لم يكن يفهم ما بي. نظر إليّ بتعجب فقلت له:
- الحمد لله المفتاح موجود. أشكرك يا عم حنفي
- أخذت بذلتي والمفتاح وأسرعت إلي أمي. أخذ ينظر إليّ بتعجب ويضرب كفا بكف. ودعني قائلا:
- سلامة عقلك يا أستاذ

ردي عليه أفضل. لم أجن بعد. بدأ الرجل يغلق دكانه من جديد.
قلت في فرحة غامرة:

— شكرا يا عم حنفي. شكرا يا أمير

انتبهت أمي وأفقت. لن أخبرها بأي شئ. أخذت أرقص وأغني. لست
مجنونا. إذا كل ما حدث كان حقيقة لا خيالا. الحمد لله. أتت أمي وربت
علي ظهري. نظرت إليّ وكأنني مجنون بالفعل. قلت لها وأنا أرقص:

— سنعيش بهذه الفيلا يا أمي

— تقصد فيلا شكرية؟ هل وجدتتها؟

أعادني سؤال أمي إلي الوقار ثانية. تري أين أنت يا شكرية؟
غادرتني سعادتي وعادت إلي كآبتي.

طرقات علي الباب في مثل هذا الوقت من الليل. من تراه يأتينا
الآن؟ دسست المفتاح في جيبي. فتحت الباب فوجدته الأستاذ ماجد
بحيري زميلي في المصنع. كانت عيناه تبرقان بمزيد من الجدية
والتفكير. يبدو أن هناك أمرا جلا أتي به في هذا الوقت المتأخر من
الليل. رحبت به وجلست معه. تري لماذا يأتيني في مثل هذا الوقت.
خيرا يا رب. بدأ يحكي لي أن هناك كارثة قد وقعت في المصنع.
أكد أن نجدي البقري قد أقنع سارة العسكر أن تخفض أجورنا بنسبة
عشرين في المائة. كان يتحدث والغيط يظهر في كلماته. نظر إليّ في
نظرات أبوية أحبها وأجدها تملأ عينيه دائما. قال في سره هذه
الكلمات ولكني سمعتها: «تبا لهذا الشيطان نجدي البقري». يبدو أن
الأمر يتعلق بهذا الشيطان الحقير. إنه يراه كشیطان مثلما أراه. واصل
كلماته في أسى قائلا:

— تخيل أن كل شئ يرتفع سعره في هذا البلد إلا الإنسان. لقد أقنعها
بأنها إذا خفضت رواتبنا إلي النصف فسنواصل العمل. قال لها
ولا يهتمك. من سترك المصنع يمكنني أن أحضر لك عشرة مكانه.
لا أحد يجد عملا في هذه الأيام

— وما الذي سوف يستفيده هذا الشيطان من تخفيض رواتبنا؟ إنه
غبي. سيتم تخفيض راتبه أيضا.

— شخص مؤذ. كل متعته في إيذاء الناس. يظن بهذا أنه سوف
يتقرب منها ويحصل علي علاوة أو ترقية. يعتقد بهذا أنه يوفر

- لها في النفقات ليزيد نسبة أرباحها.
- يا فرحة ما تمت. المفترض أن أسافر إلي لندن معها الأسبوع القادم. يبدو أن الحظ دائما يعاندني ويقف حجر عثرة في طريقي. يبدو أن هناك كارثة ستقع في المصنع. نظرت إليه وقلت له متسائلا:
- وما العمل يا أستاذ ماجد؟
 - العمل عمل ربنا. يجب علينا جميعا أن نفكر لمواجهة هذه المصيبة الحقيقية
 - طيب وماذا كان رد ندا؟
 - خروف كعادته. قال بالحرف الواحد أوامرك يا ست الكل وابتسم ابتسامته العريضة المعتادة وود لو ينحني ليقبل يديها ورجليها إن استطاع.
 - وسيف غرس الدين؟
 - لا يحل ولا يربط
 - والحل؟
 - الثورة
 - الثورة؟
 - نعم لا حل إلا بالثورة علي هذا الظلم المبين. بدلا من أن تزيد مرتباتنا لمواجهة الغلاء تخصم عشرين في المائة من مرتباتنا. الخمس يا ظالمة. الخمس أيتها المفترية. الله يلعنك في كل كتاب وفي كل ملة.
 - وماذا فعلت بنا الثورة علي الرئيس مبارك؟ مزيد من الاضطرابات والاعتصامات والمطالب الفئوية تحاصرنا كل يوم. أنا أفضل الحل التدريجي. نبليها غضبنا ونحن نواصل العمل. قد تجن سارة العسكر إن توقف العمل يوما لأن هذا يحمل لها المزيد من الخسائر وهو الأمر الذي لن تقبله أبدا.
 - يبدو أنك صرت حكيما يا عبدالله
 - لم يكذ ينتهي من كلماته إلا وكانت هناك طرقات أخري علي الأبواب. إنه إياد ناصر. وبعده بعشر دقائق وصل همام الحفناوي. تري أنكون بداية الثورة من عندي؟ لا أستطيع أن أفكر بما قد تحمله عواقب هذا الاجتماع. قلت لهم جميعا في قلق:
 - يبدو أنه يجب علينا أن نتخذ موقفا واحدا. لقد أبلغت رأيي

للأستاذ ماجد بحيري والرأي لكم.

نظروا إلي في شبه موافقة بعد أن شرح لهم ماجد وجهة نظري. وصلت أحلام المطيري منذ دقائق واطلعت علي جميع الجوانب التي طرحناها قبل مجيئها. كان معها رجلان. عرفت فيما بعد أنهما والدها وأخوها الأكبر. بعد أن فتحت الباب قلت لها:

— مرحبا عاشقة الحرية

— يبدو أن هذا سيكون مقر مجلس قيادة الثورة علي سارة العسكر. ابتسمت في نفسي وقلت ساخرا:

— بيتي المتواضع لن يكون مكانا لثورة قد تدمر مستقبلي. كفانا ما نعانیه من نتائج الثورة يا جماعة. نتفق أولا ثم نبلغ الأستاذة سارة العسكر.

نظرت إليّ أحلام في شبه احتقار وقالت:

— الأستاذة سارة العسكر؟ لقد قربتك منها لتنسي كفاحك وحبك للحرية وثورتك. الأستاذة سارة؟ هل ستجعلك من رجالها مثل ندا وغرس الدين؟ استقطبتك يا عبدالله يا مصري؟ هل ستبيع نفسك؟ يبدو أنك قد بعث نفسك أو ستبيع نفسك. أليست سارة العسكر ممثلة للطبقة الرأسمالية الجشعة المستغلة؟ أترضي أن تدوس علي رؤوسنا بثرواتها؟ ماركس يقول إنه لا حل إلا بالثورة. لم أرد عليها ولكنني كظمت غيظي. قلت في هدوء وأنا أتجاهل النظر إلي عينيها الثوريتين ولكنها ثبتت عينيها علي وجهي:

— نذهب إلي المصنع ولا نعمل لمدة ساعة. ندخل في إضراب جزئي ونري النتيجة.

— لماذا لا نذهب إلي العمل غدا؟

— حتي لا نعطيها فرصة لتفصلنا ونخسر مستحققاتنا

— لا فائدة. لقد وعدتنا أن ترد علينا بعد أسبوع ولم ترد بعد أن مر أسبوع وأسبوعان. أتذكر يوم أن اتفقنا جميعا وصرخنا لا للعمل ساعات إضافية بدون أجر. زادت ساعات العمل ورضينا. أنرضي بأن تخفض رواتبنا؟ سارة العسكر ذكية جدا وستتخلص من أي موقف يؤذيها

إنها بداية الثورة إذا؟ تعاهدنا علي أن نذهب إلي العمل غدا. ستلهب

أحلام حماس النساء وسيتحرك ماجد وهمام وإياد في أوساط الرجال. إنها الثورة إذا. تري لأي الفريقين سوف تنضم يا عبدالله؟ لا شك أن هذا أول اختبار حقيقي لك مع سارة العسكر. أ تكون معها أم ضدها؟ لقد كانت تبكي وتزعم أنها تحبك في المرة الماضية. تري هل ستجن من ثورة العمال؟ أتخيلها قوية لا تبكي ولكنني قد رأيت دموعها أمامي ليلة الحفل. أتمسح دموعها أم ستكون سببا في مزيد من الدموع لها يا عبدالله يا مصري؟

ودعتهم جميعا وأنا زائغ العينين. عدت إلي سريري وأنا أفكر بعمق سلب مني النوم وسرق مني الراحة والهدوء. لقد ذهبت الأحلام وأتاك اليقين يا عبدالله. في أي معسكر ستكون؟

الحلقة الحادية والستون

الشياطين

فجر يوم جديد يبرز نوره بصوت جميل لمؤذن مسجدنا القريب. فجر يوم يحمل داخله بذور صراع جديد. لا تتمنوا لقاء العدو فيضرب أعناقكم وتضربون عنقه. ماذا وإن كان اللقاء قد فرض علينا من عدونا؟ ما الذي دفع سارة العسكر إلي تخفيض رواتبنا؟ أليس هذا كفيلا بفرض لقاء العدو علينا؟ أبو جهل لعنة الله عليه كان من الممكن بعد أن هربت قافلة أبي سفيان أن يعود ويتراجع ولكنه فرض اللقاء علي المسلمين وعلي سيدنا محمد وكانت هزيمة مؤلة لكفار قريش. لقد مات في بدر مع مئات المشركين. يبدو أن هذا سيكون شبيها لما سيحدث مع سارة وأبي جهلها الملقب بنجدي البقري.

لم أنم من الليل إلا قليلا بعد تجمع أمس. توضأت في تودة ونزلت صوب المسجد. مشي خلفي شبح لم أكرث لأمره في البداية. اللهم اجعل لي عن يميني نورا وعن شمالي نورا ومن أمامي نورا ومن ورائي نورا ومن فوقني نورا ومن تحتي نورا. صاح الشبح الذي عرفته عندما اقترب مني رغم غبشة الظلام:

— ومن أين يأتيك النور يا غبي وأنت أحمق لا تعرف مصلحتك ولا مصلحة بلدك؟

- أستغفر الله العظيم. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. يا فتاح يا
 - عليم يا رزاق يا كريم
 - مر أسبوعان يا عبدالله
 - يا حضرة الضابط شديد ألا يوجد شغل لديك في البلد إلا عبدالله
 - المصري؟ ألا تتركني أذهب لأصلي الفجر؟ هل ستمنعوننا من
 - الصلاة في المساجد يا أخي؟
 - لست ملحدا مثل حماي
 - الحمد لله إذا ستدخل وتصلي معي ثم نتحدث بعدها
 - سأعتبره آخر طلب لك قبل أن تنفذ ما أمرك به
 - ربنا كريم يسهل لنا كل الأمور
- بسم الله والصلاة والسلام علي رسول الله اللهم افتح لنا أبواب رحمتك. رأيت شديد قد انفلت مني بعد أن دخلت المسجد. الله أكبر. وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا ومن الليل فتعبد به نافلة لك عسي أن يبعثك ربك مقاما محمودا. لما فرغت الصلاة تلفت عن يميني وعن شمالي فلم أجده. خرجت من المسجد فلم أجده أيضا. يبدو أنه قد ذهب مع شياطين الليل وأبليس الظلام التي تفر من نور الله. ليس ملحدا مثل اللواء عبدالمجيد حسني والد زوجه. غريبة! الطيور علي أشكالها تقع. لقد تزوجت ابنته وأنت تعلم أنه لا يؤمن برب ولا يعبد إلهًا؟ لماذا تعمل إذا معه أو يعمل معك؟ ليس الإلحاد بالكلام وإنما بالعمل أيضا. تعسا لك يا شديد. لماذا لم تدخل إلي المسجد إذا للصلاة؟ بدأ نور الصباح يلوح في الأفق. تعجبت في نفسي متسائلا عن سبب صبر الضابط شديد عليّ طيلة هذه الفترة. لم أرد عليه ولن أرد. آه تذكرت. لقد طلبت منه سارة العسكر أن يصطبر عليّ ريثما نعود من رحلة لندن المزمعة قريبا. ساعة بج بن التي طالما رأيت صورها ولكنني لم أرها حقيقة قط. لندن عاصمة الضباب وما أدراك ما عاصمة الضباب. وما الثمن الذي ستدفعه يا عبدالله يا مصري؟ ما الثمن؟
- أستغفر الله العظيم من الشيطان الرجيم. لن أبيع نفسي كما قالت أحلام وهي في قمة انفعالها بالأمس. أنا أصلا لا أساوي شيئا. اليوم سيكون يوما عصيبا بلا شك. سيكون يوما حافلا بالأحداث لتقرير المصير. اللهم ما أصبح بي من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك

لا شريك لك فلك الحمد ولك الشكر. اللهم إني أسألك خير هذا اليوم
نوره ونصره وبركته وفتحته وهده. اللهم إني أعوذ بك من الشيطان
من نفثه وهمزه ولمزه.

كيف والحياة كلها صارت من حولي تعج بالشياطين؟ شياطين
الإنس يركبونني وتتدلي أرجلهم من علي ظهري. تركت كتابة الشعر
في الماضي خوفا من شيطان الشعر الذي لم أكن أحب أن يركبني. ركبني
شيطان القصة وكتابتها. شيطان القصة أهون حالا من شيطان الشعر.
أخبرتني أحلام المطيري أنني سأكون روائيا وقاصا لا يشق له غبار.
قدمت لي روايتي في إحدى المسابقات. نسيت هذا الأمر منذ فترة طويلة.
سأهرب من شياطين الجن بفضل الله وعونه وتوفيقه الذي لا
يخالفني قط، ولكن ما الذي أستطيع أن أفعله مع شياطين الإنس؟
إنهم أقرب مني الآن بل ويسرعون في طريقهم من أجل الوصول إليّ
وتحقيق مآربهم.

ارتميت علي سريري وأنا أستمع بميلاد يوم جديد علي موسيقي
زقزقة العصفير وأصوات اليمام وتنفس الصباح. تساءلت وماذا إن ارتميت
في أحضان شياطين الإنس رغما عنك يا عبدالله يا مصري؟ لا. لا يمكن.
أتذكر أنك كنت تستمتع عندما انقضت عليك سارة العسكر في مكتبها
ثم ألقته علي أريكة في مكتبها وأسدت الستائر؟ لقد منعت دخول
أحد كما منعت المكالمات الهاتفية لها وأفقدتك مقاومتك وانهالت عليك
تقبيلًا بعدما صرخت مع عمال المصنع بلا وأعطتكم وعدا بالنظر في
ساعات العمل التي فرضتها بلا مقابل؟ لا. لم أستمع قط بغواية
هذا الشيطان المتمثل في هذه المرأة. لقد هربت منها حالما استطعت.
خرجت وأنا أشعر أنني مكبل بأوزار ضعفي وخوفي. لقد أحسست
أنها كانت تغتصبي وتقتطعني من جسدي وروحي ومع هذا لم أمكنها
من نفسي ولن أمكنها من نفسي قط. الله يقول في سورة الأنعام: وقد
فصل لكم ما حرم عليكم إلا ما اضطررتم إليه. كنت مضطرا يا رب
وأنت تعلم. كأنها أرادت أن توصل إليّ رسالة مفادها أنها يمكنها أن
تذلني وتكسر عيني بعدما أدركت أنني كنت السبب في هياج العمال
وصراخهم بلا. أرادت أن تهين كرامة غضبي. لا أدري لماذا انحشر
صوتي داخلي ولم يخرج. لم أركن إليها ولن أركن إلي الذين ظلموا

أنفسهم ولن أكون معهم. إنني أخاف من النار. لم تتحرك ذرة في ولم أهتم بها قط في ليلة الحفل عندما كانت عارية أمامي أو ترتدي ملابس تكشف أكثر مما تظهر. لم تؤثر فيّ دموعها عندما اعترفت أنها تحبني ثم بكت أمامي. أعرف دموع التماسيح هذه.

غفلت عينايا قليلا فإذا بي أرى الشياطين تتراقص أمامي وأنا أكاد أصرخ لأبتعد عنها. الشياطين تريد أن تراقصني وأن تأخذني في طريقها. تداخلت الوجوه وشاهت الوجوه فصرت لا أستطيع أن أميز بين شيطان وآخر. الضابط شديد يضحك ويقهقه ويبرز ناباه وشعره المنكوش. سارة العسكر تبدأ في خلع ملابسها وتبتسم فيندلق الدم من فمها. قهقهات مخيفة. برز وجه لم أستطع أن أميزه. اقتربت منه شيئا فشيئا لأتحقق منه. إنها سادة الدوغري تقهقه وتدعوني إلي أحضانها في جرأة عجيبة ثم تظهر نهديها لي فأراهما نيرانا موقدة. لسان رجاء شوكت يتدلي طويلا من فمها. يكاد أن يلامس الأرض. أحرار في طولها الفارع وجمال وجهها الذي ظل لحظات رغم تشيطن باقي جسدها فإذا بها تخرج أنيابها وتطول أظافرها حتي تخدش وجهي. عادت لحظة إلي طبيعتها البشرية فرأيتها بيضاء حوراء جميلة. تبتسم ابتسامتها الصفراء بطريقة طويلة فتتساقط أسنانها. يأتي نجدي البقري فيزيح جميع الشياطين من أمامه ويسيروا خلفه. ينضم إلي طابور الشياطين الذي تتقدمه سارة العسكر تارة ويتقدمه عبدالمجيد حسني تارة أخرى. هذا سيف غرس الدين يحاول أن يتقدم أحيانا فتنهره سارة طالبة منه أن يقف في مكانه في صف الشياطين. تأتي بسيف من نار وتعتمد به شياطينها بأن تمس رؤوس كل من بالصف. تغمس سيفها الناري في صدر ندا عبدالعليم فيبتسم ابتسامته العريضة ويرسل لها قبلة في الهواء. تقترب بسيفها الناري من صدي وتحاول أن تغمره في صدي فأفيق علي الفور. أجدني أصرخ. أفتح عيني فأجد أمي واقفة بجواري تستعيز بالله من الشيطان الرجيم وتقرأ المعوذتين وترت علي صدي. أحتمي بصدرها العامر بالإيمان. أستعيز بالله من الشياطين. وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون. تطلع علي السرير وأنام علي حجرها. لم أكن أعرف أن اليوم سيكون آخر يوم لي أري أمي قبل اختطافها أنظر إليها في هدوء وأقول باسمها في مرارة:

— يبدو أن هذا اليوم يا أمي سيكون أصعب يوم في حياتي
— سيكون يوما عاديا. لطالما مرت علينا المصائب ولا نزال أحياء يا
عبدالله

— أخشي أن اليوم لن يمر يا أمي. سيكون يوما صعبا
— يعني هل سيكون أصعب من العشرين من أبريل عام واحد وثمانين
— ما الذي ذكرك بهذا اليوم يا أمي؟
— وهل هذا يوم ينسي يا ولدي؟

ذهبت أمي لتحضر طعام الإفطار وتركتني أجتز ذكريات أصعب
يوم مر علي في حياتي حيث انهارت أحلامي وتهافت جميع
طموحاتي. حاولت أن أدخل من باب الجامعة الرئيسي فإذا بقائد
الحرس الجامعي يمنعني من الدخول. أيها الغبي لدي محاضرة
سأتحدث فيها عن الشاعر العظيم ت. إس إليوت. سأشرح لهم قصيدة
الأرض الخراب أهم علامات الأدب الحديث. نظر إلي وقال باستهزاء
وسخرية:

— مع السلامة يا بني. تفضل من غير مطرود
— لا حول ولا قوة إلا بالله. لا تعطلني يا عم. لدي محاضرة الآن
— اللهم طولك يا روح يا بني آدم اذهب من أمامي حالا
— كيف تكلمني بهذه الطريقة؟ أنا عبدالله المصري معيد بكلية الآداب
— كنت

— كنت؟ ماذا تقصد؟
— مكان عملك ليس هنا يا أستاذ.
— أين إذا مكان عملي؟
— في مجمعات الجيزة الاستهلاكية
— يبدو أنك قد جننت

— ويبدو أنك لا تعلم أن مكان عملك لم يعد هنا
— أنا عبدالله المصري معيد بكلية الآداب قسم اللغة الإنجليزية
— قلنا كنت يا أستاذ. بالله عليك لا تعطلنا. شكل اليوم ظاهر
من أوله. كلها مظاهرات وقرف. لا أدري لماذا يأتي الطلاب إلي
الجامعة؟ يحضرون ليتعلموا أم ليتظاهروا؟
— آه يا إبريل يا أقسى الشهور سأريك الخوف في قبضة غبار.

- القصيدة أربعمائة وأربعة وثلاثين سطرا. هي قصيدة ملحمية. . .
- هل ستعطيني المحاضرة بدلا من الطلاب؟
- أنت تمنعني من الدخول لآداء عملي
- قلت لك لم يعد عملك هنا. صدر قرار بأن تعمل موظفا في المجمعات الاستهلاكية بالجيزة
- طيب سأدخل إلي عبدالمجيد باشا حسني
- سأتصل به ليأتيك ويبلغك بنفسه
- أوقفني علي جنب الطريق إلي أن أتي عبدالمجيد باشا حسني.
- جاء يتبختر في بذلته العسكرية. ابتسم لي وقال في شماتة واضحة:
- دع ربك ينقذك من هذه الورطة يا مؤمن
- طبعاً مؤمن. الله معي وسينقذني دوما
- معك حق. لقد اعتقلت بسبب تحريضك للطلاب علي العنف.
- أنت تتحدث في السياسة في محاضراتك. مكانك ليس هنا يا عبدالله. مكانك في المجمع الاستهلاكي. الجامعة للمحاضرات والعلم فقط. لا دين في السياسة ولا سياسة في الدين هكذا قال الرئيس السادات. هذا إن كان هناك ما يسمى بالدين أو بالله ربكم
- اخرس يا كافر
- يبدو أنك قد انضمت إلي التكفير والهجرة يا شيخ عبدالله يا مصري
- حسبي الله ونعم الوكيل
- اذهب لربك واطلب منه أن يعيدك إلي عملك بالجامعة كمعيد
- بعد أن تحولت إلي وظيفة بيع في مجمع استهلاكي تبيع اللحوم والسمن والبيض. انظر إن كان ربك يستطيع أن ينقذك ويغير الوضع.
- أستغفر الله العظيم. أعوذ بالله منك ومن كل شيطان رجيم.
- لست شيطانا
- أنت أكبر شيطان. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. لا أريد الجامعة ولا أريد العمل في الحكومة. ملعون أبو السادات وملعون أبو الكفرة والمشركين. أنا مستقيل
- لو كنت رجلا اكتب استقالتك الآن
- أكتبها علي ورقة قذرة. الله معي. الله ربي لا رب لي إياه.
- سلمته الورقة الخاصة باستقالتي ورأيت في عينيه ابتسامة شيطانية.

لقد استفزني وأغظته ثم هتفت ضد السادات. تحركت جحافل كثيرة من طلابي ومن المتظاهرين واقتلعنا باب الجامعة وخرجنا إلي الشوارع. أطلقت علينا قنابل الغاز. تم القبض عليّ مع عشرات الزملاء. زارتني أمي ولم تستطع أن تخفي دموعها. ضاعت كل آمالنا يا أمي. لست السبب صدقيني. من نحسبه موسي يطلع فرعوناً. أيعقل أن يكون هذا هو السادات الذي آمنّا به وكنا نسعد بخطاباته؟ أهذا هو الرئيس المؤمن؟ كانت تمر الأيام بصعوبة. تبا لك يا سادات!! حبست الجميع. من قبل قلت انتفاضة الحرامية واعتقلت كل من يعترض عليك. لقد كانت ثورة الجياع. طيب والآن تعتقل الشرفاء وترمي بهم في السجون. السجن أشرف لنا من حياة الذل والقهر. السجن شرف في هذه الأيام. السجن أشرف إليّ من أن أكون حراً في مجتمع كافر ظالم. لست أفضل من سيدنا يوسف نبي الله. لبث في السجن بضع سنين. اللهم امنحني القدرة علي الصبر. اللهم اربط علي قلب أمي كما ربطت علي قلب أم موسي لتكون من المؤمنين. لقد أثبت أنك أكثر ديكتاتورية من عبدالناصر. الويل لك من سوء أفعالك. وظللت في السجن تزورني أمي وتخفي دموعها وتدعو لي. آخر مرة أتتني بشرتني باقتراب ميعاد الفرج. بعدها بأيام أحسست بانفراج الصدر وانتشراحه بعدما صليت الفجر وأنا أبكي وأشكو حالي لربي. بعدها بأيام جاءنا الخبر اليقين في الزنازين. لقد قتل السادات في يوم انتصاره وفي زهوة غروره. الله أكبر. الحمد لله لقد مات الفرعون لقد قتل بالأحري. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

كيف لا أحب الرئيس مبارك وقد أخرجني وأخرج الآلاف غيري من السجون. لقد سجننا ظلماً. كيف لا أحب الرئيس مبارك ولولاه لظللت في السجن سنوات طويلة.

ما أن خرجت من السجن إلا وعلمت أن مستقبلي قد ضاع. حاولت العمل في أماكن كثيرة بلا جدوي. كنت أضع صورة الرئيس مبارك في حجرتي. أليس له الفضل عليّ؟ أشعر أنه كأب لي علي الرغم من أنني لم أر أبي. يكفي أنه أعادني إلي أمي. أعادني إلي أحضان أمي ثانية بعدما ظننت أنني لن أخرج من هنا. أحسست بأمان كالذي شعرنا به في عهد الرئيس عبدالناصر. تمنيت وقتها أن تكون أيام

الرئيس الجديد أفضل. كنت أردد بعض كلمات الأوبريت الذي ألف خصيصا للرئيس مبارك في أول عهده «اخترناه اخترناه يوم ما عبر وقلوبنا معاه. اخترناه اخترناه من أول كلمة سمعناه اخترناه اخترناه ومن أول عهده فهمناه. ده ابن بلدنا وهو قائدنا وبدأنا المشوار وياه واحنا معاه لمشاء الله. لا هيديني ولا يرقيني ولا فيه مصلحة بينه وبينني إلا بلدنا وحب بلدنا وبقولها ورزقي علي الله وعشان كده احنا اخترناك». كنت أرددها متيمنا بعصر جديد.

أخذت أفكر للحظات وقتها. يبدو أننا نحن الذين نصنع الطغاة ونؤلههم. لا يهمني المهم أنني كنت أحب الرئيس مبارك في أول عصره وتفاءلت به خيرا كثيرا من أول خطاب استمعت له. قال إن الكفن بلا جيوب. دعوت الله أن يحميه وأن يمنع عنه بطانة السوء. هذا أول عهدنا بك وكان خيرا نتمني أن يظل عهدك كله خيرا. تقاطرت كل هذه الأحداث في ذهني وأنا أخطو أول خطواتي إلي المصنع. أعوذ بالله من نجدي البقري. كان هو أول من التقيت به هذا الصباح بالمصنع. نظر إلي بخبث وأشار إليّ وأخبرني أن سارة العسكر في انتظاري مع شديد باشا في مكتبها. تحاشيته ولكنه أصر علي أن يتبعني ويسلم عليّ بيده. أحسست برعشة عندما لمس يدي. أعوذ بالله من شياطين الإنس. صفرت سادة الدوغري لي قائلة وهي تغمز بعينها اليسري:

— أنت علي موعد مع الأستاذة سارة العسكر. إنك لذو حظ عظيم. استعذت بالله من الشيطان الرجيم ومنها. اقترب مني ندا عبدالعليم وقال هامسا في أذني: «قبّل يدها يا غبي. ليتني مكانك. أنا أحقد عليك. أنت لا تحمد ربنا علي النعمة. عرفنا حكاية الفيلا يا عبدالله. فعلا وراء كل ساه داهية. ليتني كنت مكانك فأفوز فوزا عظيما. ليتها تحس بي وأنا أقبّل حذاءها كل يوم. حكمتك يا رب تعطي الحلق لمن لا آذان له».

أعوذ بالله من كل هذه الشياطين. أنا في حمايتك يا رب. أعلم أن هذا اليوم لن يمر علي خير. أعوذ بالله منك يا ندا. تعس عبد المرأة. تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة إن أعطي رضي وإن منع سخط. تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش.

- ما أن صعدت درج المبني الإداري إلا ونادتني رجاء شوكت قائلة :
- أبيها الروائي العبقري. يا كاتبنا العظيم.
- نزلت إليها وسألتها :
- هل حقا قرأت روايتي؟
- طبعاً. أنت أحسن من مطران خليل مطران وأحسن من جبران
- كانا شاعرين يا رجاء
- المهم أريدك في موضوع هام بعد أن تنتهي من لقاء الأستاذة سارة. هي المصلحة إذا. عرفت فيما بعد أنها تريد أن تسألني عن شكرية. يبدو أنها لم تقرأ سطرًا واحدًا في روايتي. الساعة الثامنة وخمس دقائق ولم تدر آلات المصنع. يبدو أن الإضراب قد بدأ بالفعل. تعجلني أمجد سكرتير سارة العسكر للدخول وطلب مني أن أدخل اليوم بالذات برجلي اليميني.
- دخلت فوجدت الضابط شديد يجلس علي أحد الكراسي بينما تقف هي ناظرة إلي العمال الذين يقفون خارج عنابرهم. قلت بهدوء شديد :
- السلام عليكم ورحمة الله
- نظرت إلي سارة العسكر في غضب ثم نظرت إلي العمال مشيرة إليهم ثم قالت غاضبة :
- ومن أين يأتي السلام ومن أين تأتي الرحمة يا عبدالله
- من عند الله
- لا تراوغ يا عبدالله. لقد عرفت كل شيء
- عرفت كل شيء؟
- طبعاً. علمت باجتماعكم في شقتك ليلة أمس. عبدالله أنا أعرف عنك كل شيء. أعرف عنك مالا قد تعرفه علي نفسك. أنا أجري في دمك وعروقك.
- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. أعوذ بالله منك يا سارة. صدقت يا رسول الله. إن الشيطان يجري من ابن آدم مجري الدم من العروق. أستبعد أن يكون من بيننا خائن. أثق في كل من كان معي بالأمس. نظرت إلي الضابط شديد وسألته :
- هل كنت تراقبني من أمس يا باشا؟ لقد تشرفت بك اليوم وأنا
- زاهب لصلاة الفجر

- لم تكن نائما إذا؟
- رأيتك بعيني
- وما ردك؟ لقد صبرتُ عليك طويلا
- ثم اقترب من سارة العسكر وقبّل يدها فسارعت سارة بنزع يدها منه. قال لي بغضب:
- لولاها ما صبرنا عليك يوما واحدا
- طلباتك يا باشا
- الدنيا تغلي خارج المصنع وداخله. اندس بين المتظاهرين واهتف بسقوط حكم العسكر واكتب تقاريرك لنا
- هذه بسيطة وسهلة
- جميل يبدو أنك ستعود إلي رشدك
- فعلا بسيطة وسهلة ولكني لن أفعلها يا شديد باشا
- يا غبي لن نعطيك وقتا أطول من هذا
- نظرت إلي سارة العسكر واقتربت منها وقلت:
- متي سنسافر إلي لندن؟
- بعد أربعة أيام
- بهذه السرعة؟
- كل شيء جاهز
- أعطتني جواز السفر الخاص بي. فتحته فوجدت التأشيرة إلي لندن. كل الأمور معدة إذا. سألتها في هدوء:
- هل أنت متيقنة من أنني سأجئ معك؟
- طبعا يا عبدالله مائة في المائة
- لماذا؟
- لن أخبرك الآن ولكن قل لي ماذا سأعمل في هذه المصيبة؟
- من أحضر العفريت يصرفه يا أستاذة سارة
- ماذا تقصد؟
- ترجعين في قرارك ولا يتم خصم أي قرش من رواتب العمال
- بهذه البساطة؟ سيعتقدون أنني ضعيفة.
- هذه حقوقهم
- أنت طيب جدا يا عبدالله

- ما الحل إذا من وجهة نظرك؟
- لن أخبرك إلا ونحن في لندن
- أنت متأكدة؟

نظرت إلي الضابط شديد ثم نظرت إلي ثانية في سخرية وكأنها قد امتلكتني تماما. أعرف نظراتها عندما تحس بالزهو أو الفخر. أعرف طريقة رفع رأسها إلي أعلي عندما تشعر بلذة الانتصار. انقبض قلبي وأحسست بأنني قد وقعت في قبضتها فعلا. نظرت إلي بعين التهديد وقالت وكأنها تحذرنني:

- أمك ليست في البيت يا عبدالله. اتصل بها لتتأكد
- سفلة

- احترم نفسك أيها الحيوان
- أخذتم أمي؟ غريب أمرك. مرة تقبضون علي ومرة تقبضون علي أمي!!

اتجهت إلي الضابط شديد وسألته في غضب:

- وما تهمة أمي يا حضرة الضابط؟
- أنجبت شخصا غيبا مثلك

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. الشياطين كلها تحيطني. ماذا أفعل يا رباه. كنت متأكدا أن هذا اليوم لن يمر علي خير. رحماك يا الله. رحماك يا رب العالمين.

الحلقة الثانية والستون

الانهيار

إذا لقد خطفت أمي. هذه هي الحقيقة. أحسست أن جبال القهر تعلوني وشعرت بأن المقاومة لم تعد تجدي. ثلوج عنادي تذوب وتتبخر ثم تخر في داخلي ماء يغلي ويتميز حزنا ودموعا. وجدتني أشعر بالتضاؤل وأجلس منهارا علي أقرب كرسي وجدته. أنهار جالسا في أنهار من دهشتي. لم أكن أخذ تهديد شديد علي محمل الجد. لكنه نفذ تهديده وطعنني في قلبي بسلبه أمي واختطافها. شعرت أنني منهك وأن أعصابي تتفلت. وجدتني في زهول أجلس غير مصدق أن

تنتهي كل رغباتي في تحقيق آمالي بالصمود في وجه طغيانهم. أبهذه السهولة أسقط وتنهار بهذه السرعة أيضا كافة أسلحة مقاومتي؟ لقد خسرت من الجولة الأولى. عليّ أن أستسلم إذا وعليّ أن أسلم أسلحتي لهم ليقرروا إن كانوا سيقتلونني بها الآن أم غدا أم في الوقت الذي يحلو لهم أن يحدوده لسلخي وصلبي. أنا قتيلهم علي كل حال وأنا صريعهم الآن. لماذا يقتلونني وأنا في قبضتهم الآن؟ عليّ أن أقبل أقدام الظالمين. لقد أحرزوا النصر كاملا علي. وضعت وجهي في كفي وشعرت أن الدنيا كلها قد أظلمت من حولي. لقد تخلصوا مني بالضربة القاضية؟

لن أبكي الآن فلقد بكيت كثيرا من قبل في حياتي. نظرت في قهر إليّ الضابط شديد الذي كان جالسا في عظمة علي أحد الكراسي ينظر في زهو إلي سارة العسكر وإليّ. أخذ يدخل سيجارته بنشوة غامرة تمتزج مع إحساسه بانتصاره عليّ. وضع ساقا علي ساق ثم أخذ يهز ساقه التي هي في الأعلى ويدندن بفرحة كبيرة. إنه لم يدخل معي إلي المسجد لصلاة الفجر اليوم. يوم يكشف عن ساق ويدعون إلي السجود فلا يستطيعون. خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة وقد كانوا يدعون إلي السجود وهم سالمون. أتمني لو أضربه ألف مرة في ساقه هذه التي يهزها. أتمني أن أبصق في وجهه عشرات المرات.

نظرت في نفس القهر إلي سارة العسكر. كانت تبدو أكثر قوة وجبروتا. نظرت إليّ بسخرية وكأنها تقول لي: «لقد صرت كالخاتم في أصبعي. لقد صرت كفأري الذي أدخلته مصيدتي وأستطيع أن أفعل به كل ما أشاء. أنا سارة العسكر أفعل ما أشاء». الله قادر عليك وعلي شديد وعلي كل ظالم متكبر جبار. من تظنين نفسك؟ إنني أحتقرك واحتقره.

دخل سيف غرس الدين يبتسم في إحساس بالقوة وبالظفر أيضا. دخل ومعه عبدالله البندري الذي كان يحمل زجاجة معه في يده. إنها زجاجة خمر. لقد وافته الشجاعة الآن ونزع عن زجاجته ذلك الكيس البلاستيكي الذي كان دوما يغطيها به. أستغفر الله العظيم وأعوذ به من شرورهم ومن شرور شياطينهم. لقد اجتمع الشياطين معا. اجتمع عليّ كل شياطين الإنس والجن. تكالبوا عليّ وانتظموا

صفا. كانوا يضحكون وكأنهم يقولون لي متسائلين في سخرية واستهزاء: «من أشد منا قوة؟» أنظر إليهم وأرد عليهم بكل ثقة بلسان قلبي: «أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة؟» كان من الطبيعي أن تصير الأمور إلي هذه النتيجة. لن يصبروا عليّ إلي الأبد. أود أن أصرخ حقيقة ولكنني استطعت أن أكتم صرخاتي. لحظات ودخل ندا عبدالعليم يخبر سارة العسكر أن العمال يرفضون الدخول إلي العنبر. تركتهم جميعا ونزلت إلي العمال ووقفت فيهم خطيبا. قلت بصوت ينم عن الضعف:

— أيها الزملاء الأعزاء. لقد تحدثت مع الأستاذة سارة العسكر ووعدتني أن تصرف جميع مستحقّاتكم بمجرد أن ترجع من لندن. أنا أضمن لكم أن تحصلوا علي جميع مستحقّاتكم بعد عودتنا من لندن.

نظر إليّ ماجد بحيري في تعجب وقال:

— لقد اتفقنا علي إضراب جزئي لمدة ساعة

— لا داعي للإضراب. أعدكم. هذا وعد مني بذلك.

استحسن كلامي ودخل كل عمال عنبرنا إلي العمل ودخلت معهم. دارت الماكينات وعملت الآلات من جديد. كنت أسمع أنين الآلات وهي تعمل وكأنها تصرخ وتتأوه من القهر مثلي تماما. تمر الدقائق متباطئة وأتذكر كبير سن أمي وأبكي. أنا السبب في اختطافها. كان عليّ أن أوافق من البداية. لقد تركت مكتب سارة العسكر كرها وضيقا. كل هموم الدنيا وآلامها وأحزانها قد تراكمت عليّ أكتافي. قد ينسيني العمل مرارة ثقل ما أحمله. لم أعد أطيق النظر في وجه سارة العسكر ولا كل من كان معها. خرجت قبل أن أبصق في وجوههم جميعا. لقد قطعت علي نفسي عهدا بحصول كل الزملاء علي مستحقّاتهم. كنت أعمل وأشعر أن هناك من يضربني بالسوط علي ظهري لأنجز العمل. لا أريد أن أفكر. أتمني أن يخرس عقلي عن التفكير وأن تكف رأسي عن العمل.

أتي سيف الدين وشكرني وأخبرني أن الأستاذة سارة العسكر تطلب مقابلتي. قلت له أن يخبرها أن تنتظر إلي ساعة الغداء. قال في سخرية: «أتريدها أن تنتظرك طيلة هذا الوقت؟ لقد صار وقت الغداء

نصف ساعة فقط. هيا معي الآن».

ضغط علي زر إيقاف آلتني ولكنني نظرت إليه في غيظ وضغطت علي زر تشغيلها. حاول أن يوقفها ثانية ولكنني قلت له بلهجة حاسمة: «من فضلك دعني أعمل». ابتسم استهزاء بي وقال ساخرا ومحذرا في نفس الوقت: «سأبلغها بما قلته حرفيا».

كنت أعمل بكل غضب وكأنني أحطم كل ما يترأى أمامي. إنهم لن يرحموا ضعف أمي ولن تأخذهم بها شفقة أو رحمة. لقد جربت سجونهم ومعتقلاتهم. لن تتحمل أمي. دموعي تتساقط أمامي وتكاد تعمينني فلا أري ما أمامي. الله أرحم بها مني ولكنني أنا السبب وأنا المسئول عما آلت إليه الأمور الآن.

وما هي إلا دقائق معدودات إلا وكانت سارة العسكر أمامي. في البداية تجاهلتها. إنها تنظر إليّ وتبتسم. تبا لك يا سارة العسكر. أقتلن القليل وتسيرين في جنازته؟ كانت تبتسم لي بسخرية وتبتسم للعمال قائلة:

— أشكركم علي استجابتكم لدعوة العمل. سأنفذ كل ما قاله عبدالله المصري بعد عودتي من لندن. سنأتي بماكينات جديدة وسيعم الخير علي الجميع. صدقوني لن تضيع حقوقكم. نظرت إليّ في جدية وقالت:

— هناك بعض العنابر يرفض العمال فيها العمل ويتمسكون بالإضراب الجزئي. عبدالله من فضلك تعال وأفنعهم بضرورة العودة إلي العمل.

ضغطت علي زر إيقاف آلتني برقة ثم ربتت علي كتفي وابتسمت لي ضاغطة بأسنانها العليا علي شفتها السفلي. اقتربت مني متعمدة أن تلامس كتفي بصدرها وأن تحتك بي. وقفت مذعورا لأبتعد عنها وقلت:

— أمرك يا أستاذة سارة. خرجت معها وزهبننا إلي العنابر التي يرفض العمال فيها أن يعملوا. كلمتهم وكلي حماس وثقة ويقين زائف بأنني أكذب عليهم وأغشهم. طلبت منهم أن يعملوا بحماس وجدية. شجعتهم علي أن يعملوا ويدعوا الأمور لقيادة المصنع الحكيمة وإدارته الرشيدة. وأنهيت كلماتي بقولي:

— ثقوا بأنكم ستحصلون علي كافة حقوقكم. عندما تصل الآلات

الجديدة ستحل جميع المشكلات. لقد أعطانا المصنع الكثير. فلنتحمل أسبوعا واحدا. إن لحم أكتافنا جميعا من خير هذا المصنع. اعترض بعض العمال علي كلماتي في البداية ولكنني جادلتهم واستطعت أن أكسبهم إلي صفتي قائلاً:

— أنا واحد من العمال مثلكم. سأعمل وسأنتظر لمدة أسبوع. إذا لم تتغير الأمور للأفضل فأنا أول واحد سيضرب. هذا الكلام أقوله أمام الأستاذة سارة العسكر. صدقوني أنا معكم ومنكم ولكم. أعدكم أن تأخذوا حقوقكم كاملة الأسبوع القادم.

يبدو أن كلماتي وحلو حديثي مع رغباتهم في إصلاح أحوالهم قد تمازجت فهرعوا إلي العمل. دارت الآلات في كل عنابر المصنع وعلا صوتها. اتجهت إلي عنبري تاركا سارة العسكر مكانها. سمعت صوتها خلفي. قالت:

— رهيّب والله يا عبدالله يا مصري. لم أكن أعلم أن لك تأثيرا كبيرا وسحرا هائلا علي كل الناس. كان يمكنك أن تعمل بالسياسة.

— شكرا يا أستاذة سارة. عملت بالجامعة وفشلت

— وستعمل بالمصنع وستنجح. لن تكون مع العمال ثانية

— سأذهب إلي عنبري والتي

— سيصدر قرار لتكون مستشاري الخاص

— وأمي؟

— لا تفكر في الماضي. فكر في الحاضر وفي المستقبل

— أمي بالنسبة لي كل الماضي وكل الحاضر وكل المستقبل

— لا تقلق. سأساعدك

— تحت أمرك يا أستاذة سارة

— أحبك وأنت مطيع هكذا

— هيا إلي مكتبي إذا

— تحت أمرك يا أستاذة سارة

— الله عليك يا قطتي وأنت مطيعة هكذا

وضعت يدها علي وجنتي لتقرصها. أزلت يدها بكل هدوء. تبتعتها إلي مكتبها. كنت أتمني ألا أجد الشياطين في مكتبها. بالفعل لم نجد أحدا في مكتبها ولكنني وجدت شياطينها التي تكبلها وتشعل شهواتها

- الجنسية تتقافز أمامي وتظهر في نظراتها.
- رفعت سماعة الهاتف وطلبت من أمجد ألا يدخل أحدا علينا كما طلبت منه ألا يحول لها أية مكالمة تليفونية. قلت لها في رجاء:
- أستاذة سارة ليس لي في هذه الدنيا غير أمي.
- ألا تقبل بأن أكون أما لك حتي تعود أمك؟ تعال في أحضان أمك الجديدة
- أنا لا أهدر الآن
- وأنا أتكلم جدا. تعال أرضعك. تعال ألقمك صدرا يفيض حبا وحنانا
- أمي بعيدة عني ولن أحس لأي طعم في الدنيا بدونها.
- طلبت من شديد باشا أن يحافظ عليها
- أقبل يديك يا أستاذة سارة. بالله عليك اطلبي منه ألا يؤذيها
- هيا قبّل يدي إذا ثم قبّل رجلي
- أعطتني يدها فقبّلتها وأنا أشعر بالغثيان. مدت لي رجلها فابتعدت. رفعت ثوبها إلي ما فوق فخذها. قالت في إصرار:
- قبّل رجلي قلت لك
- أحسست بالتضاؤل. ما الذي أوصلك إلي هذه الحالة؟ أضعت نفسك وأضعت أمك. رن هاتفها المحمول فتركتني وعادت إلي مكتبها الفخم. لم ترد علي التليفون وأغلقتة في غضب قائلة:
- تبا لهذا الغبي. شديد سيجنني
- لماذا لا تردين عليه؟
- إنه غبي لا يفهم. أنا لا أحبه ولا أطيعه. ليس بيننا إلا العمل. إنه يريدني وأنا لا أريده. غريب أمر الحب وغريبة كل أمور الدنيا. هو يريدني وأنا لا أريده. أنا أريدك وأنت لا تريدني.
- أنا تحت أمرك يا أستاذة سارة
- لا تعجبني نظرة الانكسار في عينيك هذه يا عبدالله. إن سر جاذبيتك يكمن في ثورتك وعنادك وتمردك
- تحت أمرك يا أستاذة سارة. بالله عليك أتمني أن أكلّم أمي.
- أريد أن أراها. كلمي لي حضرة الضابط شديد وأوصه بها خيرا
- لا
- أرجوك.

- لا. لن أكلمه. إنه يريد أن ينام معي إن طلبت منه أي طلب
- لهذه الدرجة؟ أيخون زوجه بهذه السهولة؟ ما ذنب هدي لتتزوج هذا الحيوان؟
- أتعرفها؟
- كانت معي بالجامعة. أبوها السبب في ضياع مستقبلي. يمكنك أن تخبريها وتخبري سيادة اللواء عبدالمجيد بيه حسني برغبة شديد باشا فيك.
- فكرة رائعة. تفكيرك شيطاني.
- أنا؟ أنا تلميذكم وتحت أمرك لكن بالله عليك أريد أن أطمئن علي أمي
- لقد ألهمتني فكرة رائعة. سأسلط إحدي الساقطات علي الضابط شديد وسأخبر زوجته ووالدها بمكان لقائهما في شقته الخاصة بمصر الجديدة وأخلص منه ومن حقارته.
- وحمائته لمصنعك
- ستستمر الحماية سواء بشديد أو بغيره
- تركت سارة مكتبها وأتت إلي جواري. احتضنتني ثم قبلتني. مسحت موطن قبلتها وابتعدت عنها في ضيق. شعرت أنها تصيبني بالغثيان. نظرت إلي في شفقة وقالت:
- لقد سقطت في قبضتي يا عبدالله يا مصري
- سقطت وانهرت. أعترف بهذا تماما يا أستاذة سارة
- اسمي سارة. دللني وقل لي يا سارتي
- سارتي واحدة فقط
- أعلم أنك لا تحب غيرها ولن تحب غيرها. لن أجبرك علي فعل شيء لا تريده
- معقول؟ ستتركيني وتعتقيني لوجه الله
- نعم. إلي أن نسافر إلي لندن وتصير ملك يميني وعبدًا لي.
- لكم أحتقر نفسي لسقوطي وانهياري بهذا الشكل. لست عبدا لك يا سارة يا عسكرو لن أكون قهقهت سارة العسكر وقامت في نشاط بعد أن ابتعدت عني قليلا وحادت هدي ابنة اللواء عبدالمجيد حسني وأخبرتها بأن زوجها سيذهب إلي شقته في مصر الجديدة ليلتقي

بإحدي فتيات الليل. اتصلت أيضا باللواء وأخبرته نفس الخبر. ابتسمت لي وقالت:

— لنقرأ الفاتحة علي روح الضابط شديد يا عبدالله يا مصري. البركة في سونيا.

لم أفهم شيئا وقتها ولم أكن أريد أن أفهم. قلت لسارة العسكر وأنا أسقط منها را علي الكرسي أمامها:

— أرجوك. أريد أن أطمئن علي أمي

— أعدك أن تكلمها غدا. هذا وعد مني بذلك

— مثل وعدي للعمال أن يحصلوا علي حقوقهم كاملة عندما نعود من لندن؟

— لا. هذا وعد صدق. ستكلم أمك غدا وتطمئن عليها.

— طيب ووعدني للعمال؟

— لم أعدهم بشئ.

— لقد وعدتهم أمامي أن يحصلوا عل كافة حقوقهم فواصلوا العمل

— ليضربوا رؤوسهم في الحيطان. لدي خطة بديلة لهم. سأجعلهم

يعملون وبأجر أقل صدقني. أنت لا تعرف سارة العسكر. المهم

كم قبلة ستعطيني غدا بعد أن تكلم أمك؟

لم أرد عليها. قامت وقالت:

— ثق بأمي لن أجبرك علي شئ طالما كنا في مصر ولكن سيتغير

الأمر عندما نساfer إلي لندن. عليك أن تستعد للسفر يا عبدالله.

أماننا ساعات محدودة ونسافر. جهز حقيبتك.

خرجت من مكتبها وجسدي يتمني أن يسقط ولكني أتماسك.

ما أن وصلت إلي العنبر وأدركت آلتني إلا وكانت عيون الزملاء

تتفحصني. أحسست أنني أرغب في أن أسقط. أحضرت كرسيًا

وجلست عليه وأنا أسقط فعلا في هوة سحيقة ودوامة عميقة لا قرار

لها. أحس بأنني أقع وأنهار وتنهار معي كل مبادئ وقيمي. يبدو

أنني سأسقط في بئر لا قرار له. لقد كذبت علي زملائي وخنثهم.

وعدتهم بما لن يحدث. لقد اتبعت خطي الشياطين. اتصل بي

الضابط شديد علي هاتفني المحمول وقال: «غدا مظاهرة في ميدان

التحرير. نفذ ما أمرك به». أغلق السكة في وجهي. ما أنا إلا عبد

يؤمر فيطيع وينفذ. صرخت قائلاً: «يسقط يسقط حكم العسكر». حاضر سأنفذ طالما صرت أنا خادكم المطيع وعبدكم المملوك. ضاع صوتي في صوت آلات العنبر وماكيناته وأنا أصرخ ولا أحد يسمعي: «يسقط يسقط حكم العسكر. تسقط تسقط سارة العسكر».

لا حول ولا قوة إلا بالله. لقد فقد عبدالله المصري عقله. هذا ما قالته رجاء شوكت وهي تنظر إليّ في شفقة وتقرب مني في هدوء. تري ماذا تريدين يا رجاء؟

ما أن اقتربت إلا ورن هاتفي مرة ثانية. إنه سيد أبوستة. إنه يؤكد لي علي ضرورة الذهاب معه غدا لزيارة والده في مستشفى المجانين. حاضر. أذهب معه قبل صلاة الجمعة ثم أنطلق مسرعا إلي ميدان التحرير لأنفذ أوامرهم. أذهب لمعرفة ما سيخبرني به محمد إبراهيم أبو ستة عن شكرية. طيب وأمي؟ ابتلعت أحزاني وغصت في صمت. يبدو أن الفرصة لن تتاح لرجاء شوكت حتي تتكلم معي. رن هاتفي أحلام المطيري وتهلل وجهها. نظرت إليها. أتتني فرحة وباركت لي. لقد فزت بجائزة أفضل رواية في المسابقة التي تقدمت بها أحلام بروايتي التي لم تقرأ رجاء سطرًا واحدًا منها.

سبحانك يا رب. ها أنا ذا أري بصيصًا من الضوء في غمرة كل هذه الظلمات. يا رب لك الحمد كله ولك الشكر كله ولك الأمر كله. وقفت في فرحة وذ هول غير مصدق لما تقول. لاشك أن هذا الخبر قد خفف قليلا من حالة إحساسي بالسقوط والانهيال. يبدو أن هذه رسالة بأن الظلام مهما اشتد فلا بد من بارقة أمل ولكن ماذا يفيد بريق الضوء هذا في كتلة من ظلمات ليل لا يريد أن ينقشع؟ إن الليل المظلم يبرك علي حياتي كلها. تذكرت معلقة امرئ القيس التي يخاطب فيها الليل إذ يقول:

وليل كموج البحر أرخي سدوله علي بكل أنواع الهموم ليبتلي.

فقلت له لما تمطي بصلبه وأردف إعجازا وناء بكلل.

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي بصبح وما الإصباح منك بأمثل.

ما أقرب الشبه بين ليلى وليلك يا شاعري المفضل. ليلى وليلك لا يريدان أن يذهبا بعيدا. أين أنت أيها الصبح؟ أليس من أمل فيك ينقذني من إحساسي المفرط بالسقوط وبالانهيار؟ تري متي تطلع أيها الصبح؟ متي؟

الحلقة الثالثة والستون

اللقاء الأخير

نظرت إلي جسده النحيل المغطي بملاءة خفيفة واقتربت منه في وجل. عيناه تبحلقان فيّ. كاد أن يسألني بنظراته الزائغة: «أين رأيتك من قبل؟». كانت تجلس بجواره من كان يصفها بأنها أجمل امرأة في الدنيا وهي من وجهة نظري أقبح امرأة رأيتها علي الإطلاق. إنه يبدو مستسلما تماما. إنه لا يتحرك في زهو ولا يسير بخطوات عسكرية متئدة كما رأيتته مع أمي عندما أصر علي أن يستضيفنا. لا يبدو عليه أنه غريب الأطوار في هذه المرة. إنه أقرب إلي الحكمة والسكون.

تري أين أنت الآن يا أمي؟ ألم يكن من الأفضل أن أركز جهدي في البحث عنك بدلا من أن أشتت نفسي في البحث عنك وعن شكرية معا؟ أنا الآن مشتت في جبهتين. سيجمعني الله بهما قريبا. لا أريد أن أفقد أيا منهما. لو خيرت بينهما لاخترت أمي بلا شك. الأم لا تعوض. حنانها لا يوجد مثيل له كما أن حنانها يستمر ويتواصل رغم غضبها.

اعتدل الرجل النحيل في جلسته وقال بصوت واهن وكأنه يحتضر:

— أهلا وسهلا بعبدا لله المصري. انتباه

ضربت الأرض بقدمي اليمني ثم رفعت رجلي اليسري للحظة وضربت بها الأرض بقوة وقلت:

— تمام يا افندم. حضرة الصول محمد إبراهيم أبو ستة. كله تمام

ابتسم لي وبدا أنه تذكرني وتذكر تلك الليلة التي استضافني فيها مع والدتي. سألني عن أمي وسألني عن سبب عدم مجيئها معي لزيارته فأدمني قلبي سؤاله. لم أرد عليه. أمسكت بيديه المعروقتين ونظرت إليه في حنو. نظراته تائهة. عيونه غائرة. حركاته حائرة. أشار إليّ بأصابع يديه ثم قبضها مرتين وكأنه يناديني. اقتربت منه أكثر. همس في أذني قائلا:

— إياك أن تصدقهم. لست مجنونا. لا يمكن لجندي شارك في حرب ثلاثة وسبعين مثلي أن يكون مجنونا. لا تصدق زوجتي الجميلة

- ولا تصدق ولدي سيد أبو ستة ولا تصدقهم هنا في المستشفى. هم المجانين. اسمع نحن صباح يوم الجمعة وفي شهر أبريل... اقتربت منه وقاطعته ثم ابتسمت له في حب وقلت له :
- أنت سيد العاقلين ولا أريد منك إثباتا لهذا. وقفت وأديت له التحية العسكرية ورفعت كفي وجعلته مفرودا ثم أملت له جانب جبهتي وقلت له :
- تمام يا أفندم. حضرة الصول محمد إبراهيم رسالتك وصلت.
- جندي مجند عبدالله المصري. اقتررب مني هنا اقتربت منه فهمس في أذني قائلا وهو يشفق وكلماته تتقطع : «مصر أخبارها لا تسر عدوا ولا حبيبا. حرام عليكم أن تخربوا البلد. اتقوا الله في مصر. كفاكم مظاهرات أيها الأغبياء وكفاكم اقتتالا. ما الذي حدث لكم؟ أبعد أن أسقطتم النظام تريدون الخراب للبلد؟ أتريدون إسقاط البلد؟ لماذا يضربكم الجيش وتضربون الجيش؟ أنتم أخوة. هل خصصوا الجيش؟ غريبة يا أخي جمال عبدالناصر يؤمم وهو يخصص. ألم يكفنا أن مبارك قد خصخص البلد؟» هزتنني أسئلته تماما. الجيش يحمي مصر كلها لا يحمي أصحاب رؤوس الأموال. كيف أفسر إذا إحاطة قوات الجيش بمصانع سارة العسكر وحمايته للفيلا الخاصة بها. تذكرت ليلة حفل عيد زواجها. شعرت أن كل المنطقة التي تقيم بها وكأنها ثكنة عسكرية. كل هذه القوات من الشرطة والجيش لتأمين سارة العسكر؟ قلت له :
- اطمئن الجيش والشعب يد واحدة
- لا تغرنكم الشعارات
- تأكد أن الجيش لا يمكن أن يقتل شعبه أبدا. كله تمام يا أفندم وقياداتنا واعية تماما.
- ما الذي سمعته إذا عن أحداث ماسبيرو وأحداث محمد محمود؟
- أحداث مؤسفة
- حرام عليكم. ستحرقون البلد وتحترقون. اتقوا الله في مصر لا يمكن أن يصدر هذا الكلام عن مجنون أبدا. إنه واع تماما لما يقوله. ليت كل الناس بوعيه وبحسه الوطني. صحيح أنه يتحدث ببطء ويكاد صوته يخرج بالكاد، إلا أن كلامه مضبوط ودقيق. نظر إليّ بحدة وقال متسائلا :

- ألا زلتم في ميدان التحرير؟ إياكم أن تتركوه أبدا. إياكم أن يتحكم في الميدان أحد سواكم
- اطمئن. دع السياسة علي جنب. ما أخباري عندك؟
- تقصد حبيبة القلب. خسارة. ترمي وطنك وتهتم بشكزية. أعلم أنك هنا لتطمئن علي شكزية.
- ولأطمئن عليك أيضا. ماذا لديك من أخبار يا حضرة الصول؟
- شكزية ليست بخير. لقد رأيتها هنا في المستشفى. المسكينة كانوا يعملون لها جلسات كهربية علي دماغها. مسكينة. يعملون لي أيضا نفس الجلسات. أنا عاقل يا ناس. والله العظيم عاقل. زاغت عيناه قليلا. أبعدتني زوجه عني. همست إليّ بأن الحديث يتعبه. أشارت لي بيدها ألا أصدق له لأنه مجنون. لمحها واغتاظ قائلا لي :
- لا تصدق زوجتي الجميلة. الكلام لا يتعبني. السكوت هو الذي يتعبني. أليس ما يحدث في البلد الآن هو الجنون بعينه. نقتل بعضنا. ماذا أقول لكم لأثبت أنني عاقل. أين أنت يا سادات؟ لقد جلبت لنا مبارك ليخرب لنا البلد ويضيعها.
- أنا أحب مبارك
- أحبك برص وعشرة خرس. لقد أضاع البلد. الله ينتقم منه
- صدقني ما حدث مؤامرة
- وما يحدث الآن أليس مؤامرة؟ ستضيع البلد أيها الأغبياء. لا تحب أحدا لشخصه ولكن أحب البلد لذاتها وصدقني لقد نهب مبارك ورجاله البلد.
- لا أسمح لك.
- وملياراته التي نهبها. زاد الأغنياء ثراء ومات الفقراء جوعا. أوصيكم بمصر.
- رفع أصبعه إلي السماء وكأنه يري مالا نراه. أمسكت بيده فوجدتها باردة. إنها تزداد برودة لدرجة أنني أحسست كأنها لوح ثلج في يدي. سحب يده وانتفض قليلا ثم نظر إلي زوجه الجميلة كما يراها. أردت أن أخبره بأنها أقبح امرأة رأيتها علي الإطلاق. ليس لدي وقت. علي أن أذهب إلي التحرير لأعطي المظاهرات وأكتب تقريرا لشديد باشا. قلت له في هدوء :

- أنا سعيد لأنك بخير
- وسأظل بخير. لقد عاد إليّ عقلي هاهنا. أشعر أن بصري الآن حديد. إنهم يعدون شكرية مجنونة كما يعدونني كالمجانين. سأذهب إليه. إنه يناديني. سأترككم وأذهب إليه هناك. هناك.
- هل سألتها عني؟
- كان يتعثر في كلماته ويتكلم في تباطؤ وكأنها آخر كلماته :
- نعم. قالت إنها تحبك يا عبدالله. لقد أعطتني هذه الرسالة لك. والله لم أفتحها ولا زالت في الظرف كما هي. أشارت إلي من حولها ليتركونا بمفردنا. كانت تتأوه وعلي وجهها المزد من علامات الخوف والقلق. الحمد لله أنني سلمتك رسالتها. يمكنني أن أذهب الآن. سأذهب إليه في النعيم. اللهم الطف بمصر وأهلها. أنا قادم. أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله. جحظت عينا الرجل. شفق شهقة طويلة. سمعت حشرجته. انتفض جسده مرة ثانية ومالت رأسه علي يمينه فجأة ولم يعد يتحرك. لم أعد أحس بنبضه. لم أعد أحس أنه يتنفس.
- صرخت زوجه. لقد مات الرجل. مات في لحظة. يبدو أنه كان يوجه لي نصائحه الأخيرة. لقد كان يوصيني بمصر. كان يعرف أنها نهايته. وضعت رسالتي في جيبي. أغمضت عيني وقرأت الفاتحة ووجدت عيني تدمعان. مات بعد أن أدي الأمانة وسلمني رسالة شكرية. قبلت رأسه البارد ودعوت له بالرحمة. تري متي ستأتي نهايتي؟ لقد نطق الشهادتين بطلاقة. هل سأنطقهما مثله؟ من كان آخر كلامه من الدنيا لا إله إلا الله دخل الجنة. أنا ذاهب إلي النار برجلي خلال ساعات. سأكون جاسوسا رغما عني. سامحني يا رب. أود أن أنقذ أمتي. بكى سيد بحرقة كما بكيت أيضا وصرخت زوجه. نهرتها عن الصراخ والصوات بعنف قائلا في غضب ورجاء معا حني تتوقف : «حرام عليك. هكذا سيعذب بنواحك». قمت واحتضنت جثته التي ازدادت برودة وأنا غارق في دموعي. لقد مات الرجل العاقل. لقد مات جاز شكرية القديم. رحمك الله أيها الرجل الطيب. رحمك الله يا من كنت أظنك غريب الأطوار. رحمك الله وأسكنك فسيح جناته. اللهم مد له في قبره مد بصره. اللهم اجعل قبره روضة من رياض

الجنة ولا تجعله حفرة من حفر النار.

أخرجت كل ما كان بجيبي وأعطيته لسيد أبو ستة. لم أحتفظ
لنفسي سوي ببضعة جنيهاً. شكرني وقال وعيناه مغرورقتان بالدموع:

— كأنه كان ينتظر لقاءك حتي يموت. لا إله إلا الله.

— كلنا أموات. لقد أدي الأمانة قبل أن يموت. البقاء لله. كن بجانب
والدتك فليس لديها سواك الآن. رحمه الله.

تركنت المستشفى وعقدت النية علي أن أهرول إلي ميدان التحرير.
استحلفني سيد أبو ستة ألا أذهب حتي أصلي عليه الجنائز. قال إن
هذه وصية والده. سألته: «ألست أقرب له مني؟ صل أنت عليه صلاة
الجنائز». بكى قائلاً لي إنه لا يصلي. تعجبت وغضبت جداً. أ يوجد
مسلم لا يصلي؟ قال لي إنه لم يتم تعليمه ولقد خرج من السنة
الثانية الابتدائية. والده كان يحثه علي التعليم والصلاة ولكنه لم يصل
قط ولم يتعلم. لم يكن يسمع كلامه قط. دللته أمه فلقد صار وحيداً
بعد استشهاد أخيه في الحرب فأفسدته بدلالها. حكى لي هذا لأول
مرة. سبحان الله. لقد كنت أحبه وأحس أنه قريب مني عندما كنت
رئيس ورديته. ليته حكى لي من قبل. ليتني أخذت بيده إلي الله
وقتها وعرفته طريق بابها.

بكى وقال: «لكنني مؤمن والله وقلبي أبيض».. أسرعنا لإنهاء إجراءات
الحصول علي تصريح الدفن. وضعت الجثة في سيارة الإسعاف وانطلقنا
إلي المسجد لنصلي عليه عقب صلاة الجمعة. وقف سيد أبو ستة
بعيداً. أخذت بيده إلي المسجد. ترك يدي وقال: «أرجوك دعني.
أنا أستحي من الله. لم أدخل المسجد قط منذ أن كنت صغيراً. لم يكن
أبي يجبرني قط علي الذهاب معه للمسجد. ليته أجبرني. أستغفر الله
العظيم من كل ذنب عظيم. سامحني يا رب. لن أدخل المسجد». جذبته
بقوة وقلت له: «ستدخل وستصلي وستكون بداية جديدة لك مع ربك.
هل ستظل هكذا ولا تصلي. هل تنتظر أن تدخل المسجد لأول مرة محمولا
علي الأعناق ميتاً مثل والدك ليصلي عليك الناس؟ ستدخل معي يا سيد
وستصلي وسيغفر الله لك. ادخل وصل وادع لوالدك بالرحمة والمغفرة».

بكى بحرقة وقال:

— أستحي من ربنا

- هيا ادخل معي. رحمة الله بالداخل وعظمته ستتجلي عليك وعلينا جميعا. سيد عليك أن تدخل معي. والدك سيرحمه الله. اليوم يوم جمعة. سيصلي عليه كثير من الناس وسيدعون له. ربنا يهديك يا سيد
- سأدخل وسأصلي ولن أترك صلاة واحدة بعد اليوم. سامحني يا رب. اللهم ارحم أبي وارحمني وسامحني
- الله يرحمنا جميعا
- لدي مشكلة أخرى ولذا لا أستطيع أن أدخل إلي المسجد معك
- ما هي؟
- لا أعرف كيف أتوضأ.
- راقبني وانظر كيف أتوضأ وما عليك إلا أن تفعل مثلما أفعل أثناء وضوئي
- لن يغفر الله لي ولن يقبلني.
- لماذا تقول هذا؟
- أعرف نفسي. لقد حرقت مصنع حجاج العيسوي وأنا السبب في قتله
- الله غفور رحيم وسيغفر لك وسيرحمك ويقبلك
- أنت متأكد؟
- نعم. وستسلم نفسك للشرطة وتعتزف
- وهل سيسامحني الله؟
- نعم. إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم
- أستغفر الله العظيم. والله إنني أحبك يا الله ولكنه الشيطان. يا رب سامحني. كيف كنت بعيداً عنك كل هذا الوقت؟ سأعود إليك يا ربي. أرجوك أن تقبلني
- دمعت عيناى وهو يحتضنني ويبكي. رباه. يا من أنت قريب لنا ورؤوف بنا. رحمتك يا رب. دموعي تتساقط فلا أكاد أرى الطريق أمامي. لا أعرف إن كنت أبكي عليه أم علي والده أم أبكي علي حالي وعلي نفسي وعلي أيامي الماضية والقادمة. كنت لا أدري إن كنت أسحبه إلي المسجد أم أنه هو الذي كان يقود خطاي؟ يا رب فلترحمنا برحمتك. من لنا سواك إلا أنت؟ من لنا غيرك. رحماك يا الله.
- ذهبت إلي ميدان التحرير بعد انتهاء الصلاة وليتني ما ذهبت.

لقد كنت غيبيا. كل هذه الرسائل من الله ولا أفهم؟ عليّ أن أحسم أمري وعليّ أن أغير قناعي. لا يناسب قناع الحزن علي الميت وجهي ما سأقوم به الآن. سأمسح دموعي وأتغلب علي آلامي وأحزاني لموت الصول محمد إبراهيم وأحزاني لاختطاف أمي. عليّ أن أظهر بقناع جديد. سأتحول إلي إنسان قذر ذي وجهين. عميل خائن قذر جبان لا قيمة له. ورقة يلعب بها الآخرون. لست إلا ورقة وسيحرقونها عندما تنكشف ولا تظل تفي بأغراضهم. هكذا هنت عليهم كما هنت علي نفسي. وجه الجاسوس القذر لا يتناسب معه وجه يرتدي قناع الحزن. هذا الوجه الدني السافل الوقح يناسبه قناع المكر والخيانة. غصت في هتافات الغاضبين. هتفت معهم وهم ينظرون إليّ ويتعجبون. لم أكن معهم منذ فترة. إنهم يتعجبون لوجودي. هتفت معهم بكل ما أوتيت من قوة وبأعلي صوت يمكنني إخراجه: «يسقط يسقط حكم العسكر». كان أحد الرجال يرقبني بنظراته. كانت هناك آثار مطوأة في وجهه. حيثما ذهب كان يتبعني بنظراته. تحسست خطاب شكرية الذي لم أستطع أن أقرأه حتي الآن في جيبي. فجأة نظرت في إحدي الجرائد في يد متظاهر بجواري. الحمد لله لقد جاء الفرج من عندك يا رب. كل هذه الرسائل من الله ولم أفهم. تركت المظاهرة وانسلت خارجا. لن أعمل جاسوسا. لقد فرجت. فرج الله عني. لن أكون جاسوسا. طلبت من صاحب الجريدة أن يعطيها لي فوافق. شكرته وتركتهم يصرخون: «يسقط يسقط حكم العسكر».

الحمد لله. لقد كانت جمعة مباركة. لقد حسم الأمر الآن. لن أكتب أية تقارير. الخبر الذي في الجريدة بالصفحة الأولى أثلج صدري. لن أكتب أي شئ عن مظاهرة اليوم ولن أخرج في أية مظاهرة أخرى. لقد جاء الفرج من عندك يا رب. قرأت الخبر أكثر من مرة وتأكدت من صورته. إنه هو. لكم أنت كريم يا رب !! لكم أنت عظيم يا الله !! أتمني أن تنقذني من يد سارة العسكر كما أنقذتني الآن بهذا الخبر الرائع الذي أخرجني من سجنني الذي كنت سأضع نفسي فيه بالعمل كجاسوس قهرا.

علي أن أتوجه الآن إلي شقتي لأقرأ خطاب شكرية ثم أتوجه إلي شقة الصول محمد إبراهيم لأواسي سيد ووالدته.

الحلقة الرابعة والستون

ما قبل الانقلاب

ها أنا ذا أرجع إلي شقتي وحيدا. أظن أن نبضات قلب أمي ونظرات عينيها المرحتين تنادينني لأستريح من عناء اليوم. أقترب من الباب. أفتحه وأجري لحجرة أمي فلا أجدها. أشعر بأنفاسها تبحث عني. أبحث عنها في المطبخ فلا أجدها. أبحث عنها في حجرتي ولا أجدها. أنادي علي أمي ولا أياس ثم أنادي مرات عديدة أخرى فلا أجدها ولا أجد منها ردا. أشتاق إلي ابتسامتها التي تنسيني كل هموم الحياة. أشتاق إلي رؤيتها فأشعر أنني أمتلك الدنيا بأسرها. أشتاق إلي صحبتها فلا أحس بالوحدة. أشتاق إلي صوتها فأشعر بالأنس والدفء والمودة. لقد أخذوك يا أمي وبالأحرى لقد اختطفوك ليلعبوا بي كيفما أرادوا.

لا أثير لضحكة أمي ولا لصوتها وهي تصلي أو تنادينني. لا أثير لحنانها فأحس بالأمان. لا أثير لإيمانها الذي يملأ المكان هنا والدنيا جميعها فأحس بالخوف. لا أثير لعينيها اللتين أغتسل فيهما من أدران الحياة وتبعات مشكلاتها عندما أنظر إليهما. أين صدرك يا أمي يا حبيبتي ليحميني من غوائل الدهر؟ أين أحضانك فأرتمي فيها يا أماه يا نبع الخير ويا بر الأمان ويا واحة الدنيا ويا عبق الأيام ونور الحياة ولذة لا يعادل وجودها لذة. أيا متعة لا تدانيها متعة بل أين الجنة إذا لم أجد ريحها تحت قدميك. أين أنت يا غالية ويا نور العين وبريق الحياة؟

طيلة عمري وأنا أرجع متلهفا لتقر عيني برؤيتك. أدخل حجرتها منتظرا أن تلقاني بابتسامة لم تتغير. أظنها تنتظر صوت خطواتي إلي أن تقترب منها. تعد اللحظات لأعود إليها. أود أن أحكي لها. أنت الوحيدة التي تؤمنين بي. لمن سأحكي بعدك كل ما يحدث في حياتي أو يطوف بخيالي أو يمر بخاطري؟ من سيؤمن بي بعدك؟ من سيحبني بعدك؟

لقد تذكرت أن الأوغاد قد اختطفوها وتركوني وحيدا لأتعذب. لن أجدها مهما بحثت. لم تنل مني سارة العسكري يا أمي مثلما نالت مني

بعدي يا حبيبتي يا أمي. لقد انهرت وقبّلت يدها وكنت علي وشك أن أقبل رجلها من أجلك. أستطيع أن أفعل أي شيء من أجلك يا أمي. لقد كدت أن أكون جاسوسا حتي أستعيدك. يا أمي يا حياتي أين أنت؟ كيف سأحيا من غيرك؟ كيف سيكون للدنيا أي طعم بدونك؟ كيف يطيب لي أن أكل وأشرب وأركن للحياة وأنت لست معي؟ تبا للدنيا كلها وسحقا للحياة إذا لم تكوني بجواري ومعني!! انهرت علي الأرض وشعرت باليتم حقا. لم أكن يتيما قط ولم أحس بمرارة اليتيم طالما كانت أمي معي. الآن فقط أحسست بنار اليتيم وجحيم فقدانها. أخذت دموعي تتساقط ولا أستطيع أن أوقفها. لن تتوقف حتي ترجعي. هل يرجع من يذهب إلي طريق سجونهم ومعتقلاتهم؟ هل يعود من يوضع في زنازينهم وقيودهم؟ لو عادت شكرية فستعود أمي. هل سأظل أنتظر هكذا؟ لا وقت للبكاء ولا مكان للدموع. عليّ أن أتحرك وبأسرع طريقة. إن أمي لن تتحمل ما قد يوقعوه بها. لمن أذهب وبمن أستغيث؟ لا أعرف. أقع علي الأرض ثانية لأفكر. قم أيها الجبان. ألا زلت تفكر وتفكر؟ أمك مختطفة ولا زلت تريد أن تفكر؟ لقد فرضت عليك المواجهة والمجابهة. لا يمكنك أن تهرب هذه المرة. لن يفيدك الهرب. إنها حياتك وموتك. إنها أمك وبلدك وعرضك وشرف عمرك. من أخبرك أن سارة العسكر ستطمئنك عليها؟ هي أخبرتني بهذا. أكنت تضمن أن تعود لك أمك لو أطعت أوامر الضابط شديد؟ الضابط شديد. الله يرحمه. لا. الله لا يرحمه. الله يجحمه و يجعل مثواه جهنم وبئس المصير. ستفكر وستظل تفكر يا عبدالله ويضيع الوقت. ماذا لو كنت أنت الذي تم القبض عليك؟ لم تكن ليغفل لها جفن أو ليهدأ لها بال حتي تطمئن عليك. ماذا أفعل؟ عندما تم القبض عليك كانت معك في المساء. يبدو أن أمك ستنال شرف الحبس والسجن أيضا. لقد كانت مسجونة طيلة عمرها في أحوال الفقر والمسئولية والعمل علي راحتك أنت وأخوتك. لقد كانت مقيدة بكم. ماذا كان يضرها لو رمت بكم إلي الجمعيات الخيرية أو الملاجئ وعاشت لنفسها؟ أمك يا عبدالله. ماذا أفعل. أنا مراقب. لقد عرفوا كل شيء عن الاجتماع الذي كان بشقتي وحضره الزملاء في المصنع. إنهم يعرفون كل شيء

عني ويراقبونني. لقد علموا أن شكرية قبلتني علي باب شقتنا. إنهم يعرفون كل شيء ولا أعرف أي شيء. إذا كانت سارة العسكر تقول أنا أعرف عنك كل شيء وأعرف عنك أشياء قد لا تعرفها عن نفسك. ما بالي بهم وهم أدري بي منها؟ إنهم يعرفون كل شيء. أيراقبوننا في كل دقيقة من عمرنا؟ أية دولة هذه التي نعيش فيها؟ أهى دولة المخبرات وانتهاك الخصوصية؟

صرت أنظر إلي السقف وإلي أي مكان فقد توجد فيه سماعات أو كاميرات للتجسس عليّ وحساب كل خطواتي. نظرت إلي السقف معتقدا أن أحدا من إخواننا البعداء يراقبونني وقلت في حسرة ويأس وقلة حيلة وضعف ملأني وأبكاني في كل كلمة أتلظ بها: «أنا عبدالله المصري رجل بسيط علي باب الله. عامل في مصنع سارة العسكر. كنت الأول دوما في كل سنة من سنوات الدراسة وكنت متفوقا وأنتم تعلمون كل هذا. تركتموني وكسرتم كل أمل بداخلي ولم تأخذكم بي شفقة أو رحمة. تخطيت الخمسين ببضعة سنوات وليس لي أمل في أي شيء إلا في أن تعيدوا إليّ أمي. خذوا كل شيء مني. خذوا ملابسي خذوا ما تبقي من عمري علي أرض مصر. خذوا مني شهادة الليسانس التي أعطيتموها لي بالمجان كما تعيروننا دوما بأننا تعلمنا بالمجان. خذوا نور عيني. خذوا كل أعضائي. سأتبرع لمستشفياتكم بكل دمي حتي آخر قطرة يمكنكم أن تصفوها من دمي. لا. حرام علي. سأعترف لكم. عندي العديد من الفيروسات التي تملأ دمي من نواتج مستشفياتكم القذرة. لدي هزال وفقر دم. لدي مصائب بجسدي من هرمونات الزراعة والمبيدات المسرطنة التي أمرضتمونا بها. كل دمي ملوث نتيجة سوء تخطيطكم. حرام أن تعطوا دمي الملوث لغيري. هل تستطيعون تنقية دمي وإرجاع شبابي. أنا آسف. أنا المخطئ. أنتم ملائكة لا تخطئون. نحن الشياطين. شعب وقح. سنحترمكم يا باشوات. معالي اللواء لا تغضب. آسف يا حضرة الضابط. علي كل هذا دمي فافعلوا به ما تشاءون. خذوه. ازرعوا به الصحراء أو ألقوه في المجاري. أنا لكم. خذوا كبدي وكليتي. خذوا نخاعي وجهازي العصبي. سأتبرع لكم بكل جسدي كاملا وبكل فكري. خذوا رواياتي التي كتبتها ولم تر النور حتي الآن. خذوا كل قصصي وأشعاري وقراءاتي في الأدب

الإنجليزي الذي أعشقه. خذوا عمري. خذوا بصري وأعيدوا لي أمي. أرجوكم أعيدوا لي أمي. أنا لست مهما ولكنها هي المهمة فهي الأمل. فيها الخير. فيها كل شئ جميل وحلو. فيها نور المستقبل والنية الصافية وحلم كل آت. فيها السكينة والحنان والدفء. فيها الأمن والأمان. إن أنا هلكت وضعت فلا قيمة لي أما أمي فهي الرمز وهي جنة الله في أرضه. هي الحياة. هي الدنيا. هي العالم كله. هي أمي وأم كل أخوتي. هي أم الدنيا. أنا لست مهما. يمكنكم أن تجروا علي جميع التجارب. اعتبروني فأرا للتجارب أم ستفضلون استيراد فئران تجارب من الخارج؟ أعيدوا لي أمي فقط. لا أريد أن أري الحياة بعدها. أطلقوا سراحها. فكوا أسرها أرجوكم. يمكنكم أن تبيعوني لأمریکا أو لأية دولة تدفع في ولو قرشا. أنا وعشرات الملايين من أمثالي مستعدون لفعل أي شئ لترضوا عنا يا باشوات. نحن لا قيمة لنا. نحن فداء لكم. قد لا أساوي شيئا لكم ولكن عقلي قد يفيدكم. قد أكون تافها بالنسبة لكم فلم تهتموا بي ولم تستمعوا لي. صدقوني لا أريد أي شئ من هذه الحياة. خسرت كل شئ. خسرت الأمل والعمل والحب والحياة الكريمة. رضيت بذل القهر ورضيت بشظف العيش. رضعت الخوف والقهر والجوع والجبن والذل والضنك ولم أعتد علي نعيم الحياة مثلكم. كنت أحلم وضاعت كل أحلامي علي أرض مصر. تمنيت أن أكون أستاذا بالجامعة وبذلت قصاري جهدي وكدت أصل لحلمي ولكنكم حطمتم أمني. كسرتم رأس طموحي يا باشوات مصر. أنا أسف. أنتم قد فعلتم كل هذا لحكمة لا أعلمها. أنتم أعلم بالبلد منا. يا رجال مصر وحكامها. يا سيادة اللواء. يا حضرة الضابط. يا جناب الأمور. يا من تستمعون إلي وتراقبونني. بالله عليكم اسمعوني. أرجوكم. لم أفكر قط بالسفر إلي الخارج أو العمل بالخليج مثل الملايين من غيري. سأعيش هنا وسأموت هنا. كيف أهجر أمي؟ كيف أترك مصر؟ قد بكت أمي عندما فكرت أن أذهب إلي العراق وأنا في غمرة يآسي أيام السادات. رفضت أمي أن أذهب إلي دول النفط الغنية في أول عهد مبارك فمسحت دموعها برضاي وازددت فقرا علي فقري ويأسا علي يآسي. ماذا أفعل؟ بالله عليكم لا أريد أي شئ. فقط أعيدوا لي أمي. أعيدوا لي أمي».

مسحت دموعي وابتلعت صمتي. لم يسمعني أحد ولن يسمعني أحد. منذ متي وهم يسمعون؟ تذكرت صورة أمي وهي تبتسم لي قبل أن أنزل لأبحث عن عمل بعدما طردت من الجريدة. قالت لي والأمل يملؤها بعد أن دعت لي بأن يرزقني الله رزقا طيبا:

- ولا يهملك يا عبدالله. أنت متعلم
- البلد لا تريد المتعلمين يا بهية يا أمي
- العلم نور
- كان زمان يا أمي. الآن بلدنا تريد الراقصين والراقصات والمغنيين والمغنيات
- سيأتي وقت العلم وزمان المتعلمين
- لا يبدو أن هذا سيحدث يا أمي
- كيف يا ولدي؟ مصر بلد العلم والعلماء
- لا يا أمي. مصر بلد الفنانين والفنانات. الأحياء منهم والأموات
- لا تتشاءم هكذا يا ولدي
- ما الذي يدعو إلي التفاؤل؟ لا شئ يدعو إلي التفاؤل
- ربنا يرزقك بالحلال يا بني
- اطمئنني يا أمي فالحرام لا يجرؤ أن يقترب منا طالما أن دعواتك تلاحقني
- سأدعو لك طيلة عمري

من سيدعو الله لي الآن يا أمي؟ من سيكرمني الله من أجلها؟ وجدت عمالا في أحد الأبراج السكنية في منطقة الهرم وبالتحديد بجوار منطقة الطالبية. عامل بناء ولا يهمني. شهادتي معي وسأعمل مثل الفواعلية. سأحمل الرمل والزلط والطوب علي كتفي للأدوار العليا وألنقط رزقي. الحمد لله. عمل شريف. قلت لأمي إنني سأعمل في الأعمال الحرة حتي لا تحزن. أخبرتها بأنني سأصير عاملا مثل من لم يتعلموا تماما. سخرت وقالت لي:

- ربنا كريم. ربنا سيفتح عليك في مصر ولا داعي للسفر
- الحمد لله ولكن. .
- ولكن ماذا؟
- مصر ماتت

- لا يا عبدالله. مصر لا يمكن أن تموت أبدا. مصر قد تمرض وقد يطول مرضها ولكن مصر لن تموت أبدا
- أنت واثقة فيها؟
- طبعاً. مصر كانت وستكون وستظل
- يعجبني تفاؤلك يا بهية
- يعجبني غضبك عليها وقهرك منها ومع ذلك يعجبني حبك لها
- مهما فعلت فيك
- وماذا بوسعي إلا أن أحبها وأحبك؟
- قدرنا يا عبدالله
- نعم. قدرنا يا بهية يا أم عبدالله
- أخذت أُمِّي في حضني وبكىنا بأعين خافت. سَنَحَبُكِ مَهْمَا حَدَثَ ومهما فعلت بنا. سَنَحَبُكِ رَغْمَ قَسَوَتِكَ وَشِدَّتِكَ. لَقَدْ نَمَتَ لَيْلَتُهَا بِدُونِ عِشَاءٍ وَأَحْضَرْتَ لَأُمِّي بَعْضَ سِنْدُوتِشَاتِ الْفُولِ وَالطَّعْمِيَّةِ وَكَذَبْتَ عَلَيْهَا قَائِلًا: «لَقَدْ تَغْدَيْتَ فِي الْعَمَلِ. الْمَعْلَمُ الْمَقَاوِلِ وَالَّذِي أَعْمَلَ مَعَهُ فِي الْعِمَارَةِ الَّتِي سَتَبْنِي أَصْرَ عَلِيٍّ أَنْ نَتَنَاوَلَ مَعَهُ غَدَاءً فَآخِرًا». كَذَبْتَ عَلَيْكَ يَا أُمِّي وَعَلِمْتَ كُلَّ مَا يَجِيشُ بِدَاخِلِي. لَمْ تَتَنَاوَلِي قِضْمَةً وَاحِدَةً مِنَ السِّنْدُوتِشَاتِ. قُلْتَ لِي لَيْلَتُهَا:
- عَيْبٌ أَنْ تَكْذِبَ عَلَيَّ أُمُّكَ. أَنَا أَحْسَنُ بِكَ. أَنْتَ جَائِعٌ وَلَمْ تَأْكُلْ مِنْذُ الصَّبَاحِ. الْعَمَلُ فِي طَائِفَةِ الْمَعْمَارِ يَحْتَاجُ إِلَيَّ تَغْذِيَّةً. خَذْ حَلْقِي هَذَا وَانْزِلْ وَبَعِهِ. سَيَعُوْضُكَ اللَّهُ وَتَشْتَرِي لِي غَيْرَهُ. اسْمَعْ كَلَامَ أُمِّكَ بِهَيَّةِ الصَّابِرَةِ
- الْحَمْدُ لِلَّهِ يَا أُمِّي. أَنَا سَعِيدٌ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ
- لَا تَكْذِبْ عَلَيَّ أُمُّكَ حَبِيبَتِكَ. أَبُكَ يَا عَبْدَ اللَّهِ. أَبُكَ وَاصْرُخْ يَا عَبْدَ اللَّهِ يَا مِصْرِي. أَمَّا الدُّنْيَا صِرَاحًا وَبُكَاءً لِأَحْسَاسِكَ بِالْقَهْرِ وَلَكِنْ لَا تَكْذِبْ عَلَيَّ أُمُّكَ. سَنَأْكُلُ سِوَا هَذِهِ السِّنْدُوتِشَاتِ وَسَتَذْهَبُ لِتَبْيِيعِ هَذَا الْحَلْقِ وَتَشْتَرِي لَنَا لَحْمًا مِنَ الْجَزَارِ فِي آخِرِ الشَّارِعِ. أَنَا لَا أَلْبَسُهُ إِلَّا نَادِرًا. سَأَعْمَلُ لَكَ شُورْبَةَ كَوَارِعَ تَرْمُ بِهَا عَظْمَكَ.
- أَنْتَ تَعْرِفِينَ كُلَّ شَيْءٍ يَا بِهِيَّةَ
- وَسَأَصْبِرُ يَا وَلَدِي وَسَتَصْبِرُ وَسَيُصْلِحُ اللَّهُ الْحَالَ لِهَذَا الْبَلَدِ
- نَظَرْتُ إِلَيَّ صُورَةَ الرَّئِيسِ مِبَارَكِ الْمَعْلَقَةِ عَلَيَّ أَحَدِ حَوَائِطِ

حجرتي. تذكرت أول خطاب له عندما قال بأننا يجب أن نشد الحزام. البلد ظروفها صعبة. سنصطبر وننتظر ولكن متي ستتحسن ظروف البلد. تقشف ومزيد من التقشف. موافق. تبرع لسداد ديون مصر. سن تبرع ولكن ماذا بعد. ن تبرع نحن الفقراء. طيب وماذا عن الأغنياء. مشروع الصحوة الكبرى يا أبناء مصر. موافقون. أين الصحوة وأين آثار التبرع لسداد الديون؟ الحال يزداد سوء والفقير يتزايد. ذات مرة ذهلت تماما وأنا أعمل بإحدى العمارات أحمل علي كتفي الأسمنت والجبس. كنت سأطلع إلي الدور السابع فكنت أستريح قليلا قبل أن أواصل العمل. وجدتها فرصة للراحة والتقاط الأنفاس ولو قليلا. رأيت رجلا وامرأة يقتربان من أكياس الأسمنت المتراصة. لحظات وأحسست بيد تقترب مني. ابتعد الرجل عن المرأة قليلا واقترب مني. إنه الدكتور صابر الملط. أستاذ الصوتيات. لقد كان يدرس لنا الفوناتيكس ونحن بالسنة الثالثة. أنزل شيكارة الأسمنت من علي كتفي وقبّلني. استنكرت المرأة فعلته وقالت في تكبر:

— ما الذي تفعله يا صابر؟ هل تعرف هذه الأشكال؟
— آه. تلميذي عبدالله المصري. أول دفعته. لقد تنبأت له بمستقبل

عظيم
— آه منك ومن تنبأتك التي لا تتحقق يا صابر. قلت إننا سننزوج بعد ثلاث سنوات من خطبتنا وهذه هي السنة الخامسة سكنت قليلا وبدا عليها الضيق. أحسست أن مشجرة كبري ستتشب بينهما بسببي. أردت أن أنصرف وحاولت أن أبتعد حتي لا يحدث بينهما مالا تحمد عقباه وأكون أنا السبب فيه. حملت كيس الأسمنت بهمة ونشاط وكأنني أريد أن أنهي لقائي بهما ولكنه أنزله وربت علي كتفي. نظرت إليّ في غضب وقالت مشيرة إليّ بسخرية واضحة:
— أول دفعته؟ لماذا انحدر به الحال هكذا؟

لم يرد ولكني قلت لها في صوت ينم عن إحباط وإحساس بالقهر:
— حكمة ربنا يا هانم

امتعض وجهها وابتعدت عني في تأفف. قال لها أستاذي الدكتور صابر:

— كان من أفضل الطلاب في تاريخ القسم ولولا الظلم لصار أستاذا

يشار إليه بالبنان ولصار عالما فذا لا يشق له غبار كما أن له كتاباته الشعرية والنثرية باللغة العربية واللغة الإنجليزية التي كانت تسبق سنه

أشارت المرأة للدكتور صابر وكأنها تتأفف من رائحتي :

— هيا لننصرف. الرائحة هنا صعبة جدا يا صابر

— سأقف معه قليلا

— لا تقف مع هذه الأشكال. أنت تغيظني. أنت دكتور. يجب أن

يكون لك وضعك فلا تقف مع أشكال هذه الطبقة. لك بوزيشن محترم

— بوزيشن؟ من أين عرفت هذه الكلمة وأنت لم تحصلي إلا علي الإعدادية؟

— سمعتها في التلفزيون. هيا لننصرف من هنا. أنت دكتور محترم

ولقد سلمت عليه وهذا يكفي

— عبدالله كان سيصير دكتورا مثلي

— لا تقف مع مثل هذه الشخصيات. شخصيات النحس قد تعديك.

الفقر يعدي والنحس يعدي. صدقني يا صابر

— عبدالله كان من أفضل طلابي إن لم يكن أفضلهم علي الإطلاق

— بلا طلابك بلا علمك. ماذا فعل لك علمك؟ هيا ننصرف من هنا

— لن نمشي من هنا

— سنمشي يا صابر

— لن نمشي

نظرت إليه في تحد وبدا أنها ستنفجر كالبركان. نظرت إليه في تحفز ونظر إليها ولكن غضبها كان أسبق إذ انفجرت فيه قائلة :

— خذ دبلتك يا أخي. أنت من هؤلاء الناس وستظل معهم ومنهم

طيلة حياتك. لن ترتقي أبدا. أنت مع أصحاب النحس. سافرت

عدة سنوات إلي الكويت لتدرّس هناك وعدت وكل ما معك ثمن

الشقة ويا عالم كيف سنتزوج. وقال دكتور قال. ماله ابن عمي؟

صناعي وكسيب وعنده عمارة في مدينة نصر

— تتحدثين بجد؟

— لن أدفن نفسي معك

- في ستين داهية
- بلا خيبة بلا وكسة يا أخي. خطبتني خمس سنوات ولا تستطيع أن تتزوجني. هل تحجز ثلاجة؟ كن مع أمثالك
- يا بنت الجاهل. أيتها الجاهلة. كيف تتكلمين معي بهذه الطريقة؟
- أبي الجاهل هذا كما تقول أفضل منك. يشتريك ويشتريني عشرين دكتورا مثلك. هذه العمارة ملك أبي. ظننت نفسك رجلا وقلت أنك ستأتي بشقة من عرق جبينك. أبي لم يكن موافقا عليك في البداية وأنا التي قلت سأتزوجك لأنني أحسست أنك فعلا لا تطمع في مال أبي. لكنك عشت شحاذا وستموت شحاذا. أفق يا صابر. اعتبر كل شئ بيننا قد انتهى.

طلبت منه أن يتبعها ولكنه رفض ثم جلس بجواري علي تل الرمل وقال إنها لا تستحقه. جلسنا وساد الصمت بيننا قليلا. هذا حال العلم والعلماء فيك يا مصر. بالله عليكم ألا تعرفون يا من تمسكون بزمام الأمور في مصر كيف يعيش هؤلاء الأساتذة وما رواتبهم؟ ألا تخبروننا بمصادر ثروات هؤلاء الجهلاء؟ نظر إليّ المقاول في غضب وقال ليحثنني علي العمل:

- هل ستظل مع ضيفك هكذا ولا تعمل؟ قم يا عبدالله وواصل عملك. هل تريد أن أحسب لك نصف يوم فقط؟

نظرت إلي أستاذي في شفقة واعتذرت نظراتي. أنا السبب في فسخ هذه الخطبة. نظر إليّ بشفقة أيضا وكأن نظراته ترد علي قائلة: «لا. لست السبب. هذه مصيبة جيل يا عبدالله. هذه مصيبة بلد. أزمة جيل. والله العظيم حرام علي بلدنا أن تفعل فينا هذا. لو كان الانجليز وكل من احتلونا يحكمون مصر لما فعلوا بنا هذا». قام وانصرف من أمامي وعلمت بعد هذا أنه لم يعد إلي مصر بعد أن سافر. لقد مات بالكويت وماتت معه أحلامه في مصر. تذكرت أيضا أحداث فبراير عام ستة وثمانين وطويت صفحة أستاذي الذي لم يستطع أن يتزوج علي الرغم من سفره للخارج عدة سنوات. لقد أنقذك الله من الذل ومن عاقبة الفقر يا سارتي الحبيبة. لقد تزوجت أدهم وعشت في كنفه بعيدا عني وعن الفقر الذي يلازمي ولن يتخلي عني قط.

بعد خمس سنوات من الاستفتاء علي الرئيس مبارك. كان يوما عصيبا بالنسبة لي وبالنسبة لأمي الحبيبة. أحست بآلام مفاجئة منذ الصباح. ربنا يستر عليك يا أُمي. لم أتحمل أن تتألم فهرعنا إلي المستشفى. أخبرنا الطبيب أنها يجب أن تعمل عملية المراحة بإحدى المستشفيات الخاصة بالهرم وحذرنا من أن تجري العملية في أي مستشفى حكومي دخلت أُمي المستشفى ولم أذهب إلي عملي يومها. كنت أحب أن أظل بجوار أُمي حتي تستفيق من آثار البنج. العمل لن ينتهي. ماذا فعلت بالعمل؟

كنت قد ناهزت الثلاثين وقتها. بدأت احتجاجات العمال في المصانع. شعرت بحركات غير عادية في الشوارع. لم أكن أعلم أنه سيقع حدثا يعد انقلابا يدك مصر كلها. لقد كان انقلابا حقيقيا وعلي ما يبدو فلقد كان كارثة فعلا. لقد تم تطبيق حظر التجول لأول مرة في تاريخ حكم الرئيس مبارك.

أخذت أتذكر إلي أن أفقت. أُمي ليست معي وأفكر وأتذكر. تصرف أيها الغبي. ماذا ستفعل؟ سأتصل بحضرة الضابط حسين سالم باشا. لقد رأيت في نظراته حبا لي وشفقة بي وكأنه لم يكن يريدني أن أسحب بلاغي باختفاء خطيبتي شكرية. سأحدثه. وماذا لو لم يساعدك. سأنتظر انتظار ما قبل الانقلاب. يجب أن يتغير الحال. سأجد أُمي حتي ولو انقلب الكون كله رأسا علي عقب. سأجدها وسأبحث عنها حتي ولو أدي الأمر بي إلي تنكيس الدنيا كلها وقلبها تماما كما فعل جنود الأمن المركزي وقتها. لقد فعلوها. ليسوا ضعافا. لماذا لا أفعلها أنا أيضا؟

الحلقة الخامسة والستون

الانقلاب

خرجت لأشتري ما أقتات به هذه الليلة لأمكث بجوار أُمي في هذه المستشفى التي تعد من أكبر المستشفيات الخاصة بالهرم. سأسهر بجوارها طيلة الليل بعد استئصال مرارتها. لقد فقأ الفقر مرارتها كما كاد اليأس يسرق بسمتي وبسمتها. وجدت الدنيا وكأنها قد انقلبت

فجأة فتحولت من الوداعة إلي الغضب، ومن الصفو إلي الكدر، ومن الهدوء إلي العصف، ومن السكينة التامة إلي القصف المستمر والهدير الدائم الذي لا ينقطع ولا يريد أن ينقطع. الغاضبون يحطمون السيارات ويكسرون واجهات المحلات ويتعدون علي الفنادق ويحطمون كل ما يجدونه في طريقهم كأعصار جارف أو نهر غاضب قرر أن يفيض فجأة فأغرق الشواطئ القريبة من مجراه. ليس كل من أراهم من جنود الأمن المركزي فقط. لقد انضم إليهم عشرات الغاضبين من العاطلين اليائسين الذين يشعرون بالفقر والقهر ليحرقوا المحلات والسيارات وفاترينات العرض. سألت أحد جنود الأمن المركزي وقد كان نحيفا جدا وكأنه عود قصب لطوله ونحافته. رأيته يغمس العيش الفينو بالخبز البلدي. نظر إليّ ثم كلمني في غضب وخده منتفخ تماما بما يأكل والرداذ يخرج من فمه :

— يظنون أننا عبيد عندهم يا أستاذ. يريدون أن يمدوا الخدمة العسكرية لمدة أربع سنوات. يريدون أن يجندوننا في الجيش كل هذه الفترة بالمجان تقريبا. عمالة رخيصة أو بلا مقابل. هكذا يروننا وهكذا يستغلوننا. نعيش كالكلاب في جوع دائم وهم يأكلون ويتمتعون. أول مرة أري مثل هذا الأكل داخل المطاعم ونحن نعيش كالكلاب. انظر إلي الحلويات والرفاهية وهذه السيارات الفارهة. أنت لا تعرف كيف نعاني في العسكرية وهم يتمتعون.

— أنا أعرف وقد عانيت مثلكم. أنا خدمت سنة وشهر في الجيش

— أنت مؤهل عال ولا تعرف ما نعانيه.

— ولكنني أعمل الآن باليومية وأعمل بطائفة المعمار

— ما فائدة التعليم إذا؟

لم أرد عليه ولكنني اقتربت من عسكري آخر كان يبتسم لي في بلاهة ويحمل بطانية ذات فراء وثير، يبدو أنه نهبها من الفندق القريب وبيده وسادة ناعمة. تحدثت معه بود فقال لي وهو يربت علي وسادته التي سلبها:

— مرتبي يا أستاذ ستة جنيهات في الشهر لمدة ثلاث سنوات وهناك من يأخذون الآلاف بل الملايين. يستعبدوننا بنظام المراسلة. الضباط يظنون أننا خدم لهم. يأكلون في ميز الضباط ونحن نأكل الفتات.

أنا أمي يا أستاذ لا أعرف القراءة ولا الكتابة وأتيت لأخدم الوطن بالجيش ولا أعرف أي شئ. أنا عسكري عادة يا أستاذ ولكنني أفهم بالفطرة. هذا ذل نعيش فيه. هذا ذل العيش وباختصار هذا هو الجيش. لم أنم أبدا علي مثل هذه الوسادة ولم أنم متغطيا بمثل هذه البطانية. هم ينعمون ونحن نعذب. هل حالنا هذا يرضي الله؟ يجب أن نوجعهم ويجب أن يحسوا بنا. وعلي رأي أحمد عدوية: «حبة فوق وحبة تحت».

معك حق أيها الجندي. يبدو أن من هم بالأسفل يجب أن يفعلوا الكثير ليكونوا بالأعلى. إنها شرارة الثورة إذا تنطلق من غضب هؤلاء المساكين الذين عضهم اليأس بأنبابه الحامية فحركهم وانضم إليهم من اکتووا بنيران الفقر وفقدان الأمل. يبدو أن القهر حركهم إلي التصادم مع المجهول الذي يتربص بهم وبنا. أشار لي أحد العساكر لأنضم إليهم مع آلاف الغاضبين وهو يلقي بطاقيته تحت بيادته ويدوسها في غضب قائلا :

— لقد ثرنا علي قادتنا الظالمين يا أستاذ. انضم لنا. يريدون أن يأخذوا من مرتباتنا الضئيلة لسداد ديون مصر. لماذا لا يأخذون من الضباط الكبار ذوي الرتب العالية والمرتبات الكبيرة ويأخذون من جنبيهاتي الستة؟ ما هذا الظلم؟! لقد فاض الكيل وطفح. إنهم يعاملوننا بطريقة غير آدمية. نحن بشر يا ناس. نحمي أماكن بملايين ولا نحصل سوي علي الملايين. انضم إلينا ولا تكن مع الظالمين الذين سلبونا حق الحلم. أنت أخي مثل هذا الذي بجواري ولم أعرفه من قبل. تعال نقول للظلم لا ولو مرة واحدة. حرك بداخلي الحنين إلي الغضب ومس نوازع الرفض والتمرد بداخلي. كيف نوصل رسالة غضبنا؟ شدتني رغباتي إلي أن أكون معهم ولكنني أسرعرت وفضلت أن أكون لأمي في مثل هذه الأوقات العصيبة. أطمئن عليها ثم أنزل ثانية لأتابع هذه الثورة. وجدتھا نائمة في دعة. مصر تنتفض مع عساكر الأمن المركزي وأنت تنامين؟ أنت تكرهين مبارك وأنا أحبه ومع ذلك تتحرك داخلي كل نوازع الرفض. نحن متفقان في شئ واحد يا أمي رغم اختلافنا. نتفق علي كراهية الفقر والظلم.

تم فرض حظر التجول وتم تنفيذ أمر نزول الجيش إلي الشوارع وتم سحق هذه الانتفاضة بكل شراسة وبكل قسوة.

كنت أتابع الأخبار في وجل ممتزج بالسعادة تارة وممتزج بالغضب تارة أخرى. كانت السعادة تمتزج بالغضب بداخلي في أن واحد. سيادة الرئيس ألا تشعر بنا. أنا أحبك ولكن انظر إلي المساكين بعين الرحمة. كن مع الفقراء بيد العون. عملت جمعية وقبضتها أول اسم لأجري لأمي هذه الجراحة. لا يمكن أن تجري مثل هذه الجراحة لأمي في مستشفى حكومي. أخاف عليها وأنا أسمع الكثير عن حالات الإهمال في المستشفيات الحكومية. من يدخل سليما يخرج مريضا جراء الإهمال والتلوث وانعدام الضمير وقلة الاهتمام وغياب الرقابة وانتشار الرشوة والمحسوبية. حتي صحتنا لا تهتمون بها؟ أين تذهب إذا أموال الضرائب؟ لا يهتم ولكن الرئيس مبارك عاقل وسيفهم هذا الدرس وستتغير الأحوال.

تمر الأيام الصعبة كما هي ولا تتغير حياتنا. إنه لا يزال يعلن أنه ينحاز تماما لمحدودي الدخل ولكن غول الرأسمالية يتوحش ويكشر عن أنيابه ليقهرنا تحت وطأة الفقر. كانت أمي تصرخ إذا اشتد بنا الحال قائلة: «مجرد كلام يا عبدالله ولا يزال النهب مستمرا لثروات الشعب. الفقراء يزدادون فقرا والأغنياء يزدادون تخمة وثراء. عليه العوض. يبدو أنه قد كتب علي من يولد فقيرا أن يظل فقيرا بهذا البلد كما كتب علي الغني أن يظل غنيا لا يمسه فقر ولا تصيبه حاجة. كنت أُملي يا ولدي ولكني رأيت معك كل أحلامنا تنهار. يا بني صدقني. عصر السادات هو هو نفس عصر مبارك. لا فرق. كلهم كذابون. في البداية قال لن أحكم إلا فترة واحدة. دخل في الفترة الرئاسية الثانية وسيستمر حتي يموت أو نموت». ماذا يمكنني أن أقول لها؟ تعلم أنني أحب الرئيس مبارك ولكن ما الذي أستطيع أن أفعله لأؤيد به هذا الحب أمامها؟ سأثور يا أُمي وسأستعيدك. سأنقلب علي حياتي إذا لم أطمئن عليك الليلة. أنا سأنتفض يا أُمي من أجلك. وضعت رسالة شكرية في درجي ولم أكن قد قرأتها بعد. هرعت إلي قسم الشرطة بعد أن مررت بشقة سيد أبو ستة وواسيته. دخلت إلي الضابط حسين باشا سالم. لم ينتظر حتي أتكلم. قال لي في هدوء:

- لا تقلق. أعرف لماذا أتيت
- أمي يا باشا.. خطفوها
- ظننتك هنا من أجل شكرية
- أمي أهم يا حسين بيه
- اهدأ
- أمي يا باشا
- أخذ يجري اتصالاته. نظرت إليه وأنا أشعر أنه أخ أو صديق.
- كانت نظراته لي وكأنها تحثني علي ألا أسحب بلاغي عن اختفاء
- خطيبتتي شكرية عندما طلب مني شديد أن أسحب بلاغي. طلب
- لي الشاي وواصل اتصالاته. نظر إليّ بهدوء وقال بصوت منخفض:
- هل عرفت ما حدث لشديد؟
- لقد مات يا باشا كما قرأت بالجرائد
- قصدك قتل
- إن شاء الله مأواه جهنم وبئس المصير
- أتعرف من قتله؟
- بصراحة لم أهتم بالتفاصيل
- صديقتك أيام الجامعة ومن كانت تريد أن تتزوجك
- معقول؟ هدي بنت عبدالمجيد باشا حسني. أنتم تعرفون عني
- كل شيء.
- آه. تخيل. لقد قتلتها وأنقذتك. لها الله ولكن والدها هو المشكلة.
- معاليه منهار تماما. أتمني أن تذهب لتزوره أو لتزورها.
- ليس لدي وقت
- عليك بزيارته. ألا تريد أن تري عدل الله؟
- ليس لدي وقت للتشفي. عدل الله موجود دوما وأثق أنه يتحقق
- في كل لحظة وفي كل مكان علي وجه الأرض. أمي يا باشا. كانت
- شكرية فقط والآن شكرية وأمي. هل نعيش في شيكاغو؟
- كنت أتحدث معه وأشعر أنني علي وشك الانفجار وكأنني بركان
- يغلي وينتظر اللحظة المناسبة ليطلق كل الحمم البركانية التي بداخله.
- كان يتحدث بهدوء لا يناسب انفعالي وقلقي وكأنه يتعمد أن يثيرني
- لأنفجر. قال لي في هدوء وهو يبتسم:

— الرجل أصيب بالشلل تماما. لقد ذهب مع ابنته ليفاجئ شديداً وليضبطه متلبساً بخيانتها لابنته ولكنه لم يكن يتوقع ما فعلته ابنته. لقد أطلقت علي شديداً ثلاث رصاصات بالصدر ورصاصة رابعة بالرأس من مسدس والدها. سيادة اللواء مسكين إنه لا يستطيع أن يتكلم أو يتحرك من أثر الصدمة ولقد حاول الانتحار عدة مرات. تخيل أنه الآن يطلب أن ينزل إلي المسجد ويصلي؟ تخيل يا عبدالله يا مصري. يود أن يصلي وينزل إلي المسجد!!
حكمتك يا رب.

— فليرحمه الله وليرحمنا جميعاً. سبحان الله. لقد عرف أخيراً أن هناك ربا يمكنه أن يلجأ إليه ويحتمي بعظمته وقدرته.

— لقد كان يطلب منك أن ترجو الله لينقذ مستقبلك. كان يشك دوماً في وجوده وها هو ذا الآن يؤمن به ويتمني أن يذهب إليه في بيته.
لقد أضاع مستقبلك

— الحمد لله يا باشا

— المؤمنون لا يدخلون الجنة إلا بالعمل يا عبدالله

— لا أستطيع أن أفعل شيئاً يا باشا. أنتم الحكومة. المؤمنون يدخلون الجنة بالعمل وبرحمة الله أيضاً. أمي يا باشا.

إنه يريد أن يثيرني أكثر. لقد تأكدت من هذا بالفعل. إنه يكاد أن يدفعني إلي الجنون بهدوئه وباستعادة ذكريات الماضي. أتيت إليه لأبلغه بفقدان أمي فإذا به يتحدث عن عدل الله وعن ماض مؤلم بالنسبة لي وكأنه يدفعني دفعا إلي الانقلاب علي كل هذا الكون من أجل أمي. يبدو أنه لن يحك ظهرك سوي ظفرك. يبدو أنني أنا الذي يجب أن أبحث عنها. نظر إليّ ثانية وقال في محاولة جديدة لاستفزازي:
— لقد أضاع مستقبلك وتدعو له بالرحمة؟؟!!

— هذا قدرى

— لكم أنت طيب!!

— ليس لدينا غير الطيبة

— تقصد الاستكانة وأن نركن إلي البكاء والدعاء علي من ظلمنا

كدت أصرخ ولكنني تماكنت نفسي قليلاً وكدت أفقد أعصابي وضربت مكتبه بقبضة يدي بنفاد صبر ثم ضغطت علي أضراسي

السفلية بأضراسي العلوية وصحت :

- أمي يا باشا
- للأسف ليس لدينا أية معلومات عنها. ليس لشديد أو للشرطة صلة بهذا الأمر.
- طيب والجيش؟
- لا أعرف
- هل أقدم بلاغا ثانيا بفقدان أمي؟
- يمكنك أن تقدم بلاغا ثانيا وثالثا
- وماذا فعلتم ببلاغي الأول؟ أين شكرية خطيبتني يا حضرة الضابط؟
- يرحمها الله. ألم تقرأ رسالتها الأخيرة لك؟
- لا. أنتم تعرفون كل شيء. لقد عرفت بأمر الرسالة. أخبرني أين أمي
- بصراحة لا أعرف.
- أنتم تعرفون كل شيء. إذا لم تكونوا تعرفون فمن سيعرف؟
- قدّم بلاغا وسنبحث ونتحري
- لا. سوف أبحث أنا بنفسني وسوف أجدها يا باشا. لن أقدم بلاغا هنا. أعرف ماذا أفعل
- ابتسم وقال في محاولة جديدة لاستفزازي :
- نحن نثق بك ونعرف أنك مواطن صالح وستصل لغرضك. أتمني لك التوفيق في بحثك وفي سفرك.
- خرجت والغضب يستبد بي. لقد عرف أنني سأسافر. بركان الغضب يتأجج داخلي ويكاد أن ينفجر بالضغط. توجهت إلي فيلا سارة العسكر. لا تزال قوات الشرطة والجيش تحيط بالفيللا. حراسة مشددة. إنها لم تقم بدعوتي هذه المرة. أنا الذي سأفرض نفسي عليها. لقد وعدتني أن تطمئنني علي أمي اليوم. سأري كيف وعدتني بذلك وهل ستنفذ وعدها؟ لقد سألتني في ثقة قائلة: «كم قبلة تعطيني غدا بعد أن تطمئن علي والدتك؟»
- كنت أخطو تجاه فيلتها كالذبيح. أريد أن أصرخ وأريد أن أصبح فيها وأجمع حولي كل الغاضبين لنسمعها كلمة لا ثانية. أود أن أنبه الجنود المساكين والعساكر المستضعفين وكافة المظلومين أن ينقلبوا عليها وعلي

كل من هم علي شاكلتها. أتحمون الأغنياء الفاسدين المفسدين وتتركون البسطاء ومن يستحقون الحماية فعلاً؟ دعونا نمزقهم بأسناننا ونمص دماءهم ونزيقها علي الأرض جزاء ما فعلوه بنا. جزاء وفاقا. سرقونا وتزاجوا مع السلطة واتفقوا علينا بعد أن ركبتهم شياطين الفساد. افهموا ولا تكونوا كقطع الشطرنج. لا تكونوا ببيادق الطغاة وحماة الفساد ورايات الظلم. كونوا معي كما كنتم من قبل. الآن لنا ولا ندري لمن سيكون الغد ولكن ثقوا بأن الغد لن يكون لنا إن ظللنا نسير خلفهم. تعالوا نسبقهم ولو بخطوات. إن الأغنياء قادرون علي تغيير مجري الأحداث لصالحهم دوماً لأنهم يتحالفون مع الشيطان إن كان ذلك سيصب في مصالحهم ويملاً جيوبهم ويشبع نهمهم للمال والثروة والسلطة والقوة. أريد أن أضعها وأريد أن أضع الدنيا كلها بنيران غضبي التي توقد وتعلو لتصل السماء وتخرق صدري لتحرق الكون كله. لم أكن أعرف أن هناك أيضاً من يريد أن يقتلها لا يصفعها فقط. عرفت هذا الليلة فقط. عرفت أن هناك من يريد أن يتخلص منها. أشعر أنني أريد أن أنقلب علي ضعفي وعلي نفسي وعلي الدنيا بأسرها. لن أكون ضعيفاً أو تافهاً بعد اليوم. ليس لدي ما أخسره. جديدة روح الشجاعة هذه التي تسري بداخلي. غريبة روح التحدي هذه التي أشعر بها. سرت في سعادة رافعا رأسي تجاه مدخل فيلا سارة العسكر. لم أكن أعلم أن أحداً يتبعني. سرت في ثقة بالغة وعظمة حاولت أن أجعلها بارزة في خطواتي. كنت أبتسم وأسير غير عابئ بنقاط التفتيش. كان من يسير ورائي يتبعني في صمت. لمحتة يتبعني ويسير خلفي. تجرأ عسكري ونظر إليّ وكاد يطلب هويتي ولكني واصلت سيري بخطوات واثقة فاعتقد أنني من أصحاب الحظوة ممن لهم حق الدخول. تراجع لما رأي أشق الطريق بسرعة. تبعني من يسير ورائي في هدوء. كان يسابق خطواتي ليلحق بي ولكني كنت الأسرع. كنت أسير ولا ألتفت إلي من خلفي ولكني كنت ألمحه بطرف عيني. سأقدم وأخترق وأصل إليها. سأواجه سارة العسكر. لا أريد إلا أن أطمئن علي أمي. نظر إليّ عسكري يبدو أنه مستجد بالخدمة وبدا أنه سيسألني حتماً عن هويتي. ابتسمت وقلت له في صرامة:

— تبدو مستجداً هنا ويبدو أنك لا تعرفني

تراجع في خوف واضح وقال :

— آسف يا باشا. تفضل

ثم أشار إلي من يسير خلفي أن يتبعني ويسير خلفي. سرنا بضع خطوات ولم يعد أمامنا الكثير لنصل فيلا سارة العسكر. صفر من كان خلفي وصاح بصوت رقيق ناعم :

— أين سارة العسكر؟

صوت ناعم رقيق لا يتناسب مع سرعة خطواته وإخفاء وجهه. لأول مرة ألتفت إليه. نظرت إلي مصدر الصوت فوجدت شخصا لا تظهر منه سوي عيناه. لم أستطع أن أتأكد من ملامح وجهه فقد كان يسدل الكوفية علي وجهه ولا يظهر سوي العينين. قلت لمصدر الصوت :

— تقصد الأستاذة سارة العسكر

لم يتكلم وإنما أوماً برأسه. كان من يسير خلفي نحيفا طويلا. أيمكن أن يكون شخصا قد أرسله الضابط حسين باشا سالم خلفي ليتبعني ويعلم ماذا سأفعل؟ كلما حاولت أن أقترب ممن كان يسير خلفي ابتعد وغطي وجهه أكثر. سألت بنفاد صبر :

— حضرتك من طرف حضرة الضابط حسين؟

لم يجب وإنما هز رأسه بالنفي. لماذا يخفي وجهه إذا؟ قلت في هدوء :

— أتعرف الأستاذة سارة العسكر؟

— نعم. عز المعرفة

كان الصوت رقيقا ناعما. اتجهت للشخص المتخفي أمامي فأخرج مسدسا من بين طيات ملابسه وهددني بصوت ناعم لكنه أراد له أن يكون خشنا :

— أمامي إليها. اسبقني إلي هذه الجريمة

لا يمكن أن يكون هذا صوت شخص مجرم. إنه صوت رقيق ناعم. خشيت أن يكون الشخص الذي يسير خلفي من حرس سارة العسكر وإلا ما سمحوا لي بالدخول. قلت وأنا أرتعش خائفا من أثر المسدس الذي أشعر بوخزه في ظهري :

— أنا مع الأستاذة سارة العسكر. أنا أعمل معها في المصنع. صدقني لم أسمع صوتا وكنت أسير تجاه الفيلا. توقفت قليلا. قال لي الصوت :

- لماذا توقفت يا غبي؟
- بعد خطوات سننتهي من هذا الممر والطريق إلي باب الفيلا
- مراقب الكاميرات وأخاف أن يمزقنا الحرس بالرصاص فنموت
- في الحال
- ماذا تعني؟
- سيرانا من يراقب الكاميرات وقد يقتلوننا
- أنت مع سارة العسكر؟
- المهم أنت. هل أنت مع سارة العسكر؟
- لا. أنا ضدها
- كان الصوت ناعما. التفت خلفي فوجدت الشخص الذي يمسك
- بالمسدس يضعه في طيات ملابسه ويقول لي بصوت ناعم وهو لا يزال
- يخفي وجهه:
- لقد أضاعت مستقبلتي.
- وأنت أيضا أضاعت مستقبلك؟
- كان الشخص يرتدي ملابس واسعة فضفاضة. بدا لي نحىلا في
- البداية. حواجبه ليست كثيفة. قال لي في نبرة تهديد رقيقة:
- لا تنظر لي كثيرا
- تحت أمرك
- أريد أن أشرب من دم سارة العسكر
- لا أصدق
- لماذا؟ ألم تحس بالمسدس الذي كان في ظهره؟
- شكلك رجل طيب ولا تستطيع أن تذبح دجاجة
- أنا مجرم عتي في الإجرام
- لا يبدو عليك هذا. صوتك رقيق ولا يبدو أنك ارتكبت جريمة
- واحدة
- أنت لا تعرفني
- وأنت لا تعرفني
- نتعارف إذا
- أنا عبدالله المصري وسارة العسكر خطفت أمي
- وسارة العسكر طردتني من مصنعها وشردتني وشردت أولادي

- من أنت؟
- أنا.. أنا شين
- رأيت قطرات من الدموع تنزل من عيني من يقف أمامي. قلت في سخرية:
- لم أر مجرماً قط يبكي
- لن أبكي بعد الليلة. سأخلص العالم كله من شرور سارة العسكر
- وأولادك؟
- لهم الله
- حرام عليك أن تدعهم للفقر والجوع
- سأقتلها وأهرب. أتمني أن أراها تموت والدماء تنزف من كل مكان
- من جسدها. لقد ملأت هذا المسدس بالطلقات وسأضربها في قلبها
- وفي رأسها وفي يدها وفي رجلها. سأشوهها تماماً
- لم أرك في مصنعنا
- أنا أعمل في مصنع سارة العسكر بالمقطم
- لذا لم أرك من قبل. أنا أعمل في مصنعها القريب من هذه الفيلا
- نحن زملاء إذا ولكنك في مصنع آخر من مصانعها
- سأساعدك فكلنا مظلومون
- الظلم يعم في كل مكان تكون فيه
- اقترب منا أحد الجنود وقال في حزم متسائلاً:
- من؟
- ارتبك من كان بجواري. واصل الجندي اقترابه متجهاً نحونا. قلت
- له في صرامة وشجاعة أخافته فاعتقد أنني ضابط أتخفي في الزي المدني:
- مكانك أيها العسكري. إياك أن تقترب خطوة واحدة. انتباه.
- أدي العسكري التحية لي وقال وبدا أنه قد أيقن أنني ضابط:
- تمام يا باشا
- تعال هنا
- أمرك يا أفندم
- اسبقنا إلي مدخل الفيلا
- تحت أمرك يا باشا
- سرنا خلف الجندي الذي سار في خطوات عسكرية فأحسنا بالأمان.
- لقد كان هذا العسكري مصدر حماية لنا. اقترب مني ذلك الشخص

المتخفي. سعدنا درج الفيلا. دخل الجندي وتبعناه ثم خرج في هدوء وقال :
- أمرك يا باشا. أأمرني بأي شئ آخر؟

لم أرد عليه. تركنا الجندي في هدوء. كانت الإضاءة خافتة إلي حد كبير. يكفي سارة العسكر كل التحصينات خارج الفيلا. ما الذي تريده أكثر من هذا؟ ثراء علي حساب عمالها الجياع، وأمان وراحة علي حساب العساكر الفقراء المطحونين بالظلم والقهر. يبدو أن كل هذا من حسن حظ رفيقي الذي يريد أن يقتل سارة العسكر. ما أن دخلنا إلا وقد فر من كان معي. اختبأ خلف ستائر أحد الجدران حيث لا ضوء يكشفه ولا عين تراه. ما الذي أتني بي الآن؟ قد يقتل من كان معي سارة العسكر وأتهم في الجريمة ظلماً. لا أريد إلا أمني. أتاني صوت سارة العسكر التي لم أرها ويبدو أنها تراني ولا أراها. قالت بترحيب بالغ :
- أهلاً وسهلاً يا عبدالله المصري. كنت متأكدة من أنك ستأتي.

كنت أود أن أفرش لك الأرض ورداً وزهوراً
تحرك الشخص الذي كان معي وأشار بمسدسه من خلف ستار الجدار وكأنه يستعد لإطلاق الرصاص وأداء مهمته المقدسة. ملأني الرعب بعد أن سمعت صوت سارة العسكر :
- سأنزل لك بعد خمس دقائق. أنتظرنني. أعلم أنك ستنتظرنني علي أحر من الجمر يا عبدالله. أتمني أن تكون قد أكملت استعدادك للسفر بعد غد.

سكت صوت سارة العسكر. اتجهت خلف ستار الجدار وأمسكت بالمسدس ولكنني أبعدته عن صدري. قلت في همس :

- انتظر ولا تقتلها حتي أعرف منها مكان أمني
لمست يد الشخص عندما حاولت أن أقبض علي يديه فشعرت بها ناعمة ملساء. حاولت أن أزيل الغطاء من علي وجهه فقاوم قليلاً ثم انهارت مقاومته. أقصد مقاومتها. لقد كان من يمسك بالمسدس امرأة!! لقد تحسست شعرها الطويل!! تأكدت أكثر عندما لمست بيدي ملامح وجهها. إنها امرأة!! صعقت تماماً. إنها امرأة جميلة حقاً. لقد حاولت أن تنتزع مني المسدس ولكنني أخذته ودسسته بجيبتي وتركتهما لأستقبل سارة العسكر ولكنني عدت إليها مرة أخرى لأطلب منها أن تنتظر حتي أعرف مكان أمني.

نزلت سارة العسكر وسمعت صوت خطواتها علي السلم. رجعت إلي المرأة الغاضبة الجميلة التي تريد أن تقتل سارة. أمسكت يد المرأة وربت علي ظهرها وهمست في أذنها قائلاً في أمر حازم: «إياك أن تتحركي من خلف هذه الستارة». أمسكت بيدي لتبعدها عن ظهرها وقالت بهمس محذرة لي: «إياك أن تقتلها أنت. لن يقتلها غيري». تركتها وأنا أتجه نحو سارة العسكر التي كانت تتهددي كملكة تنزل في سعادة وأميرة تتبختر في رقة. لقد كانت ليلة انقلبت فيها كل المعايير وتحولت فيها حياتي. لقد كانت هذه الليلة بمثابة انقلاب حقيقي. ليس لي فحسب وإنما لزميلتي شين أيضاً. لقد انقلبت كل المعايير. لا أدري لماذا أعتبر أنها قد انقلبت. يبدو أن الأمور في هذه الليلة كانت في صالحتي تماماً. يا لها من ليلة يؤرخ لها في تاريخي وتستحق أن أذكرها بتفاصيلها بكل دقة!! يبدو أن ظلم سارة وجبروتها قد حاق بهذه المرأة فأرادت أن تنتقم لنفسها ولكل من مسته يد ظلم سارة وأمثالها. إنها حقاً ليلة الانقلاب.

الحلقة السادسة والستون

ما بعد الانقلاب

أتابع بنظراتي سارة العسكر وهي تنزل في هدوء وتؤدة لتتلقاني. كنت أتمني أن تمر هذه اللحظات بسرعة ولكن سارة كانت تتباطأ في نزولها وكأنها تتعمد أن تجعلني أنتظر فتمر اللحظات وكأنها دهور طويلة. اللهم ألهمني الصبر هذه اللحظات حتي أطمئن علي أمي وألهم هذه المرأة الجميلة، زميلتي شين والتي لا أعرف اسمها بالكامل والتي تنتظر سارة وتتربص لها لتقتلها، بعض الصبر حتي أعرف مكان أمي. أخشي أن ترتبك الأمور كما أخشي أن تتعقد الدنيا في هذه الليلة بسبب وجود هذه المرأة المفاجئ والتي تريد قتل سارة. لم أكن أعلم أن هناك أمورا أخرى ستحدث وتتعقد المسائل أكثر مما هي عليه.

تبتسم سارة وهي تنزل. إنها تقترب مني. تضع وشاحا علي شعرها الذي يبدو لي كخيوط سلك خشنة. انحسر الوشاح عن رأسها وسقط فأريت شعرها القصير المتقصف. ابتسمت وفتحت فمها فلم أر أسنانا لها. قد يكون هذا بسبب خفوت الإضاءة. أين أسنانها ناصعة البياض؟ أيعقل أنها كانت ترتدي طاقم أسنان؟! أيمكن أنها كانت تخذعنا جميعا طيلة الوقت؟ يمكن ألا تكون هذه المرأة هي سارة العسكر التي ننتظرها. يبدو أنها لم تستعد لاستقبالي لأنني أتيت علي غير موعد ولم تتح لها الفرصة لتقف أمام المرأة لتتجمل. كلما تقترب أزداد نفورا وأبتعد عنها. لا يمكن أن تكون هذه هي سارة العسكر رمز الأنوثة والرقة والجمال. يبدو أنني أحلم وأعط في نوم عميق. لا. لا يمكن أن أكون في حلم. أنا في حقيقة. أنا هنا لأعرف مكان أمي وأطمئن عليها ولقد أخذت المسدس من يد هذه المرأة الجميلة التي تختبئ خلف ستار الجدار وتود أن تقتل سارة العسكر. تحسست المسدس في جيبتي وقلت لنفسني لأؤكد أنني متيقظ ولا أحلم: «وهذا هو المسدس الذي أخذته من هذه المرأة حتي لا تقتل به سارة».

فركت عيني جيدا. لما اقتربت مني أكثر وصارت قباب قوسين أو أدني صرت أبخلق فيها أكثر وأنتظر لأتأكد من أنها هي. فتحت فمها لترحب بي. ظهرت أسنانها الصفراء والتي تساقط بعضها فعلا. إنها كانت ترتدي طاقم أسنان إذا!! لقد كانت تستخدم مبيض الأسنان أيضا لتبدو أسنانها أكثر بياضا أو بمعنى آخر تبيض طاقم أسنانها حتي يبدو أكثر بياضا. حواجبها ليست متسقة وليست مزججة ورموشها أيضا ليست طويلة كما كنت أراها وبشرتها ليست بالبياض الذي كنت ألحظه. ما هذا الذي أري؟ يا إلهي!! ماذا أري أمامي؟! لا أكاد أصدق. أهذه سارة العسكر الجميلة الرقيقة التي تنحني لها رقاب الرجال؟ أهذه هي ست الكل؟ أهذه هي سارة العسكر؟ لا. إنها ليست هي. يبدو أنها كانت مسخا مشوها. إنها ليست جميلة علي الإطلاق. وجهها أصفر وبشرتها مليئة بالبثور والندبات. شفتاها كبيرتان وأنفها ضخمة. هناك العديد من الدمايل في وجهها علي أنفها وفي وجنتيها. إنها أقصر بكثير مما كنت أتخيل. يا إلهي ماذا أري!! هل يمكن للماكياج أن يغير المرأة

هكذا؟! ! أشعر أنها امرأة مختلفة تماما عن سارة العسكر التي أعرفها. إن بشرة وجهها سمراء وبدرجة داكنة أكثر مما كنت أعتقد. أسمع عن مساحيق التجميل التي تسد مسام البشرة وتزيل دهون البشرة وتخفي الحبوب والبثور ولكني لم أكن أعرف أن لها كل هذا التأثير. سمعت أيضا عن الكريمات التي تساعد في تفتيح البشرة ولكني لم أكن أعتقد أبدا أن تكون نتيجتها بهذه الطريقة المذهلة. إذا كان هذا ما نراه علي سبيل الظاهر فما لنا بقوة عمليات التجميل المختلفة وقدرتها علي تغيير ملامح الوجه والجسد؟ أكان جمال سارة العسكر الذي تطل به علينا صناعيا وخذعتني به وخذعت كل من حولها طوال هذا الوقت؟ لحظات مرت عليّ كسنوات. أهذه هي سارة العسكر التي تنحني لها أعناق الرجال؟ لكم أنتن مبهرات يا أيتها النسوة في تغيير خلق الله!! ! أهكذا يتم الضحك علي الرجال واستغفالهن بهذه الدرجة. ينظر الرجل إلي المرأة فيعتقد أنها أجمل خلق الله ولا يعرف كم من الوقت أمضته في صناعة هذا الوجه أو تغييره من الحالة التي كان عليها وفطرها الله عليه، فإذا به تغير خلق الله وتبدله لأن صبغة الله لا تعجبها. لماذا والله يقول لا تبديل لخلق الله. الشيطان يأمرهن فيغيرن خلق الله. كان الله في عونك يا عبدالله البندري. أنت مظلوم إذا مع هذه المرأة. أنت مظلوم معها ولكن هذا لا يبرر لك خيانتها والتردد علي البارات والملاهي وشرب الخمر باستمرار. يبدو أنه كان يشرب لينسي وجه هذه المرأة. الغريب أنه مسكين. الرجال يحسدونه علي سارة وهم لا يعرفون أن هذه حقيقتها. أين ابتسامة سارة العسكر الساحرة التي تخلب ألباب الرجال وأين نعومة شعرها وصفاء بشرتها وأين بياض وجهها وأين السحر الذي كان يطل من عيونها عندما كانت تبتسم؟ بل أين رقتها؟

عدت إلي واقعي وشممت ريحا طيبة لسارة العسكر وهي بجواري عليها وضعتها بسرعة. اقتربت مني سارة العسكر وكانت تغني بصوت متغنج وتنظر إلي بشوق ولهفة قائلة: «أعرف أنني أحب أغنية يا عبدالله يا اخويا سماح وسيبنا من اللي عدي وراح ولكني سأغني لك الليلة أغنية أحبها وأراك دوما فيها. إنها أغنية عبدالحليم عاشق ليالي الصبر مداح القمر عشق العيون السود غواني السهر». أتمني أن أقول لها إن هناك

من ينتظرها ليقتلها. أتمني أيضا أن أقول لها لو أن عبدالحليم رآها وهي تغني أغنيته لأقسم بالله ألا يغني ولا اعتزل الغناء بسببها. ابتسمت لي ومدت يدها لي لتسلم عليّ ولكني لم أمد يدي. لن أسلم عليها. هكذا قررت وليكن ما يكون حتي وإن أدي الأمر إلي أسوأ النتائج. مدت يدها ولكن في هذه المرة رفعتها إلي أعلي حتي تصل فمي لأقبلها ولكني ابتعدت قليلا. يبدو أنها قد أصابها اليأس فلقد عرفت ما بداخلي وعرفت أنني قد اتخذت قرارا بألا أصافحها مهما حدث. ابتسمت ابتسامة كريهة باهتة وقالت لي في هدوء:

— أنت الذي أتيت من غير موعد. لم أستعد لاستقبالك أيها الجميل. عيونك سوداء وتعجبني يا قمري يا عبدالله

وضعت الوشاح علي شعرها وغطت به وجهها وقالت في شبه أسف وهي تخفي رأسها إلي الأرض وتنظر إلي أسفل لتتحاشي النظر إلي عيني المستغربتين المتعجبتين:

— طبعاً لا أعجبك الآن. لم أتجمل ولم أزين. أنت الذي أتيت فجأة يا عبدالله.

لم أرد عليها. كنت في حالة صدمة تامة. ما الذي أفكر فيه؟ ما الذي يهمني إن كانت جميلة أم غير جميلة. صدمة أن أري سارة العسكر لأول مرة بهذا القبح وعلي طبيعتها وبدون ماكياج لا يجب أن تنسيني مهمتي التي أتيت أصلاً من أجلها. قلت لها بغضب:

— أين أمي يا أستاذة سارة؟

— اسمي سارة فقط من غير أستاذة

— أين أمي يا سارة فقط من غير أستاذة؟

بدا أن الغضب سيقتلني. حاولت أن أتحمل وأن أضغط علي أعصابي أكثر. قالت لي في هدوء مصطنع ومحاولة إغراء مقبلة وهي تفتح عباؤها لتريني جزء كبيراً من صدرها لتثيرني وتغويني لأرتمي بأحضانها:

— تعال بحضني أولاً. تعال بحضن ماما سارة العسكر

هل أخبر هذه الغبية أن امرأة تنتظرها بفارغ الصبر خلف الجدار وتريد أن تقتلها؟ هل أخبرها بأن صدمتي فيها لا توصف؟ ابتعدت

- متراجعا فقالت لي في ابتسامه خبيثة :
- أعلم أنني لا أعجبك الليلة. كان يجب أن تبلغني أنك ستأتي فاستعد وأتجمل وأتزين لك يا حبيبي
- حبيبك؟
- طبعاً حبيبي ونور عيني وستكون زوجي قريباً
- زوجك؟ وعبدالله البندري؟
- سنخرطه للوز. سنتفق علي الطلاق وستتزوجني يا عبيط. يا حبيبي يا عبيط
- اللهم طولك يا روح. ابتسمت سارة واقتربت مني وهي تكمل أغنيتها : لولا النهار في جبينك لولا الورود في خدودك لولا الأمان في وجودك ما كنت هويت ولا حييت ولا حسيت بطعم الحب يا عمري. ابتعدت عنها أكثر. جرت ورائي وقالت :
- أعلم أنك طويل وأنني قصيرة ولكني أحببتك من أول مرة رأيتك فيها يا عبدالله يا مصري ولذلك كنت مصرة علي أن أستم حماري القابع بمكتبه أمامك. أحببتك لشجاعتك وصرامتك وروحك الحلوة. آه يا عبدالله. آه. يا عيني علي طولك. قدك المياس يا عمري أيقظ الإحساس في صدري أنت أحلي الناس في نظري جل من سواك يا عمري. أنا أعلم أنك كنت تشتهيمني وتتمني أن أكون بأحضانك. كنت أري هذا بنظراتك عندما تطيل النظر إليّ ولكم حاولت أن أمسك يديك وأقربك مني. أعلم أنك ستقبل الزواج مني يا عبود يا حبيبي. يا روح قلبي ومالك أمري ومسير عمري. لقد اعترفت لك بحبي ليلة عيد زواجي. أتذكر؟
- أذكر ولكنك كنت مخطئة.
- طيب عيني في عينك
- لا يمكن أن أصدق ما يحدث ولا يمكنني أن أصدق ما تقوله أبداً. أشك أصلاً أن تكون هي سارة العسكر. أمسكت بيدي. أطلت النظر إليها وسألتها قائلاً في شك :
- بالله عليك هل أنت الأستاذة سارة العسكر؟
- أنا سارة العسكر من غير أستاذة. ألا تعرفني

كدت أموت من الضحك. أيستطيع الماكياج فعل كل هذا؟
أيستطيع تغيير ملامح الوجه لهذه الدرجة؟ ولا ندري ما الذي
سيحدث لنا في المستقبل نحن الرجال. يبدو أنهم سيستخدمون
أقنعة لا يخلعونها. التطور التكنولوجي رهيب سيتمكنون
أكثر من خداعنا. انتبهوا أيها الرجال. قلت لها في ذهول:
— لا أصدق

— صدقني أنا أم سفيان. كيف أثبت لك؟ والله أنا أم سفيان. أتعرف
أنني أحببتك لروحك المرحية وضحكتك الحلوة وثقتك بنفسك.
لقد قبلت رأسي عندما خضمت منك ثلاثة أيام وأضحكتني
عندما قلت لك رائحة فمك مليئة بالبصل وتأسفت لي قائلاً
بأنك يمكنك أن تقبل رأس الماكينات حتي تغفر لك أنك قمت
بإيذائها برائحة البصل التي في فمك. تمنيت أن تقبل رأسي
وتقول بأنني أجمل ماكينة رأيتها في حياتي. الرجال يطلقون
علي المرأة الجميلة ماكينة. هل صدقت أنني سارة العسكر؟ لم
يملاً رجل غيرك عيني. كدت أموت ضحكاً لما حكوا لي ما
قلته وكيف أضحك كل من كان بالمصنع علي اسمي أم سفيان.
دمك خفيف وروحك مريحة. ألم تسأل نفسك لماذا أرجعتك إلي
العمل؟ من يخرج من مصانعي لا يعود أبداً ولذا أرجعت صاحبيك
محمد بسيوني وأنور حسان من أجلك أنت. من أجلك أنت.
— ولو طلبت منك أن ترجعي أحداً آخر إلي العمل هل توافقين؟

— طبعاً يا حبيبي طلباتك أوامر
— سترجعين امرأة طردت من مصنعك في المقطم
— شيريهان الطنطاوي. أتعرفها؟
— بصراحة لا. أطلب منك أن تعود إلي العمل
— تأمرني وأنفذ يا عمري ويا حبيب حياتي
— وتزيدين لها المرتب
— طلبك أمر وينفذ
— طيب وأمي؟ أين أمي؟
— سأخبرك وستعطيني عشر قبلات كما اتفقنا يا من ضحكك حلوة
وترد الروح

اقتربت مني وحاولت أن تقبلني ولكنني ابتعدت فغنت لي قائلة وهي تغمض عينيها:

— يا ابو ضحكة حلوة منورة ليل السهر يا ليل يا ليل يا لي
حسنك خلي دقات القلوب بتقول آهات. ياما قالوا فيك أشعار
كثيرة وحكايات. وليلاتي بيحكوا في هواهم وكلام علي الرمش اللي
رماهم. والليل بيطول ويأهم ويقرب لي فرحة عمري.

قالت لي بعد أن رأيتني أنظر إلي عينيها في غضب وكأنني أتساءل
عن أمي ولا أطيع الانتظار أكثر من هذا. أين أمي يا سارة العسكر؟
أرجوك أخبريني حتي لا يجن جنوني وأحطم كل شئ حولي. لقد
كنت منخدعا فيك طول الوقت ولن أسمح لك أن تخدعيني فيما
يتعلق بأمي. كانت تغني وتنظر لي في حب. كنت أتساءل في غيظ
وغضب: أيعقل أن يكون كل ما رأيته من قبل فيها جمالا مصطنعا؟
قالت لي في حزم وكأنها ترد علي تساؤلي:

— طبعاً لا يعجبك شعري لم أفرده. سأضع الباروكة. سأرتدين وأضع
كل ماكياجني حتي تراني جميلة ولكن انتظري قليلا يا عبدالله.
الحمد لله أنك رأيتني علي طبيعتي. أنا لا أريد أن أغشك أو
أخدعك. أنا أحبك فعلاً. أعرف أن شعرك جميل وفاحم السواد
يرغم أنك قد تخطيت الخمسين. هل تصبغه؟

لم أرد عليها. مست شعري بيدها وتحسسته في محاولة لإغرائني ثم
وضعت يدها في شعر صدري وتحسسته في رغبة واضحة وغنت قائلة:
— يا شعر ليل. يا ليل يا ليل وفارد ضفايرك علي القمر

رن هاتفها المحمول. إنه الفريق الملكلف بزيئتها كما استنتجت من
المكالمة. طاقم تزيينها. سيصل حالا كما أمرت. قالت لي:

— نصف ساعة وستراني كما كنت. أنا سأصير كما كنت في خيالك.
إن شاء الله سيتم طلاقني الليلة من حماري عبدالله البندري. لقد
اتفقنا علي كل شئ

— لن أستطيع أن أملك يا أستاذة سارة

— لماذا وسوف يطلقني؟ سيبدأ شهر عسلي معك في لندن

— حرام يا ست هانم

— أنا سارة حبيبتيك وسأكون زوجتك فكيف تقول لي يا هانم

- أنت سارة هانم وما أنا إلا عامل بسيط عندك. لا أستطيع أن أملك بعد طلاقك من أبي سفيان أقصد عبدالله البندري فيجب أن تنتهي عدتك
- أنت سيدي وتاج رأسي. أنا أحب فيلم عبدالحليم حافظ معبودة الجماهير. لقد أحببت النجمة الكبيرة الكومبارس الذي يعمل معها. دعنا من هذا الكلام الفارغ الدنيا تغيرت يا عبدالله. لقد وعدتني أن تتركني أفعل بك ما أشاء في لندن
- آسف يا سارة هانم. لك كل شئ بعد الزواج يا سارة هانم
- بعد الزواج. هذا يعني أنك موافق علي الزواج بي يا حبيبي. هل تقول لزوجتك وحبيبتك سارة هانم؟ اسمي سارة فقط.
- طيب أين أمي؟
- اطمئن. أمك في الحفظ والصون. لن يمسه أي أذى. هل يمكن أن أتسبب في أذى حماتي؟ أمك هي أمي.
- بدا الاطمئنان علي قليلا. وصل طاقم تجميلها والمكون من أربعة نساء يحملن حقائب متنفخة وكلهن علي أهبة الاستعداد للعمل لتغيير هذه المرأة وإعادتها لتكون سارة العسكر. صعدن معها إلي الطابق الأعلى. قبلتني في عجالة وصعدت معهن. قالت: «انتظري. نصف ساعة وأعود إليك يا عبودي». ثم ألقت إلي قبلة في الهواء.
- رجعت إلي شيريهان الطنطاوي خلف ستار الدار. نظرت إلي شاكرا واقتربت مني وكأنها تراني لأول مرة. إنها جميلة فعلا وبدون أية مساحيق. سبحان الله كانت ستتحوّل إلي مجرمة إذا لم أقابلها. يا له من قدر! أي واحد قد يتحوّل إلي مجرم في دقيقة لو فقد عقله. نظرت إلي في امتنان وقالت:
- أنت روميو إذا يا عبدالله يا مصري. لقد أطار حبك عقل المرأة
- ولا روميو ولا يحزنون. أنا رجل مسكين أبحث عن أمي
- أشكرك. لقد أنقذتني من جريمة كنت سأرتكبها بغضبي الأحق الذي كان سيضيعني ويضيع أولادي. أنا مدينة لك بالشكر. أشكرك ومع ذلك أنا أشعر بالشفقة عليك حقا يا عبدالله يا مصري.
- لماذا؟
- لأنك ستتزوج هذه المرأة. إنها امرأة بلا قلب. النقود كل ما

يشغل همها

- معك حق في الشفقة عليّ لأنني سأتزوج هذه المرأة. إنك تظلميهما.
- يبدو أنها أحببني فعلا يا شيريهان
- أحببتك؟ أمثال سارة العسكر لا يعرفن الحب. أخشي أن تكون مجرد نزوة في حياتها
- ليس لدي ما أخشي عليه. لا أمتلك أي شيء حتي أخاف ضياعه.
- سمعت عنك كثيرا ولكني لم أكن أعرفك. لديك الكثير
- ليس لدي شيء. لا مال ولا أمل وأعمل عندها
- عندك فكرك ونار ثورتك والأمل فيك لم يمت بعد. أنت رجل عظيم يسمع عنك كل من يعمل بمصانع سارة العسكر. أنت لست مشروع الدكتور المفكر الذي أفشله السادات وزبائنه فقط وإنما أنت شعاع الأمل لآلاف من العمال. أنت مشروع الحلم لكل المظلومين سواء كانوا من العمال أم من غيرالعمال. أنت نور الأمل لكل ضحايا سارة وأمثالها. لقد عملت في كثير من المصانع وانتقلت من مصنع إلي آخر. أنت لست مجرد عامل في مصانع سارة العسكر. أنت أمل لكل من يبحث عن الحق والعدل والخير. أنت رمز لكل المستضعفين.
- أنا؟
- نعم أنت
- أنا لا شيء
- أنت لا تري نفسك جيدا. صدقني.
- كانت تتحدث بكل حماس وكأنها تخاطب بطلا وأملا. كادت دموعها تنزل. رأيتهما جميلة رقيقة ولكني خشيت أن يكون كل ما أراه مجرد أصباغ وتكون مثل سارة العسكر. دققت النظر إليها فوجدتها جميلة حقا. قالت لي في تعجب وهي تمسح عينيها ووجهها من أثر دموعها:
- لماذا تطيل النظر إلي هكذا؟
- لا شيء
- تخشي أن أكون مثل سارة العسكر؟ تعتقد أن امرأة أنت لتقتل ستأتي وتلطخ وجهها بالأصباغ؟ هل ستتجمل وتترزين؟
- لم أكن أفكر بهذا

- والله العظيم لا أضع شيئاً علي وجهي.
- أخذت تمسح وجهها بالمنديل بقوة وتريني أنه لا أثر يظل بالمنديل.
- لقد صدقتها. تذكرت كيف كنت أعتقد أنها رجلاً يتبعني. تذكرت كيف حاولت أن أكشف الكوفية عن وجهها وأنا أحاول أن أنتزع المسدس منها وقاومت. تذكرت كيف صدمت عندما عرفت أنها امرأة.
- قالت لي في حماس:
- تزوجها يا عبدالله. جرب الحيلة وخذ حقوق المظلومين والفقراء.
- اجعلها تنسي حبها للمال. كن للفقراء والمساكين. جرب أن تغير شيئاً من أجلنا
- تريدان أن أضحي بنفسي؟ تريدان أن يهرب غيري من الكفاح لأكافح أنا بدلاً منكم؟
- كنت سأضحي بنفسي وأقتل سارة العسكر لأريح كل مظلوم
- ليس قتلها حلاً جيداً فسيأتي أسوأ منها
- أرنا مهارتك
- أتريدان أن أخدع المرأة؟ أخدع سارة وقد أحببتني ووثقت بي؟
- تزوجها وحاول أن تغيرها
- لا أحبها
- لأنها ليست جميلة؟ أم لأنك لم تحبها؟ أعلم أنك تحب سارتك.
- سيرتك علي كل لسان. سارة فؤاد.
- كل الناس يعرفون حكايتي
- أنت رمز يا عبدالله. أبطالنا رموز ونعرف كل تفاصيل حياتهم.
- أنت نجم لنا جميعاً. لقد حركت فينا جميعاً روح الثورة.
- تتحدثين وكأنني عمر مكرم أو جيفارا أو سبارتكوس أو تشافيز
- أنت جعلت الناس تتمرد وتثور. سأتركك وأذهب لأولادي. أنا مدينة لك.
- أعطتني رقم هاتفها ومشيت شاكراً. خشيت عليها وأردت أن أوصلها للخارج حتي لا يتعرض لها الجنود. أخبرتني أن المشكلة ليست في الخروج وإنما المشكلة كلها في الدخول. قالت لي إنها تدعوني لزيارتها وزيارة أولادها بعد العودة من لندن ووعدتها بالزيارة.
- اقتربت مني وقالت لي بعينين شاكرتين:

— أشكرك مرة ثانية

— لماذا؟

— لولا أنك كنت معي لما عرفت أن هذه سارة العسكر

— ماذا تقصدين؟

— إنها قبيحة جدا. كان الله في عونك وفي عون كل من يراها علي حقيقتها. والله لو كنت بمفردي لما عرفت أنها سارة العسكر.

صورتها في كل مصانعها يراها الجميع رمزا للجمال

— قد تكون هذه خطتها للتخفي حتي لا يقتلها أحد

— ربما

ضحكت وضحكت معها. خرجت وتركتني. جلست أفكر بانتظار سارة العسكر. ما أسوأ لحظات الانتظار. أجمل ما في الأمر أنها طمأننتني علي أمي وأن الله قيضني لأنقذ امرأة من جريمة كانت ستنتهي مستقبلها ومستقبل أولادها.

بعد ما يزيد عن نصف الساعة نزلت إلي سارة العسكر التي أعرفها ويعرفها الجميع. ابتسامة رائعة ووجه مشرق لامع. آه. يبدو أن فريق تجميلها دلق علي وجهها كيلو من البوية وكافة أنواع الطلاءات والمساحيق المسموح بها وغير المسموح بها والمصرح بها من وزارة الصحة وغير المصرح بها وتمت صنفرة وجهها مع الاهتمام بمنطقة العينين والخدين والشفيتين.

نزلت تتهادي كأميرة ونسيت أني رأيتها علي حقيقتها. آه يا سارتي الحبيبة. أين أنت يا سارة فؤاد يا حبيبتي. جميلة كانت بطبيعتها. كانت لا تضع المساحيق قط. أعرفها منذ الطفولة. غضبت عندما رأيتها تستخدم الروج والبودرة لأول مرة ونظرت لها بغضب وقلت لها حرام عليك أنت جميلة بطبيعتك فلا تشوهي جمالك بهذه الأصباغ. لم تعد تستخدم هذه المستحضرات قط منذ هذه المرة. رأيتها في ليلة الزفاف ولكنها لم تكن هي سارتي الحبيبة التي أعرفها. كانت تنظر إلي وتبكي وأمها تمنعها حتي لا يتلف الماكياج الذي أنفقت الساعات الطوال في عمله بالكوافير. تبا لهم. فعلا الكوافير من الكفر. الماكياج يغير كثيرا فعلا لقد توصلت إلي هذه الحقيقة المؤلمة. عدت إلي سارة العسكر وهي تمد يدها لي لأقبلها ثانية ولكنني

رفضت وأصررت علي الرفض. ابتعدت قليلا وسألتها بعد أن جلست :
— أين أمي؟ أريد أن أطمئن عليها
— ستطمئن عليها حالا
أخرجت هاتفها. قالت لي :

— اطمئن علي أمك

أتاني صوتها ناعما حنونا هادئا. أحسست أنني كنت متعبا وارتحت. هدأت نفسي واسترحت تماما عندما سمعت صوتها. أهلا يا عبدالله. وحشتني يا ولدي. وأنت يا أمي. وأنت يا حبيبتي. أنت بخير؟ أريد أن أطمئن عليك. أنا بخير. أخبروني أنك ستسافر وأدعوك. دعواتك يا أمي. أنا في فيلا رائعة ولا تقلق عليّ فلقد قالوا إنك ستعيش معي في هذه الفيلا. من أين حصلت عليها وكيف. أنت تحكي لي كل شيء. لم تبلغني قط بحكاية هذه الفيلا. صدقتهم عندما قالوا إنهم من طرفك وأنتك سافرت. أسافرت من غير أن أودعك يا ولدي؟ حافظ علي نفسك وحافظ علي صلاتك واتق الله. أعلم أنك في لندن. احذر من بلاد الكفرة يا عبدالله. حاضر يا أمي. وأنت؟ أنا بخير يا عبدالله. حافظ علي نفسك. قالوا لي إننا سنعيش في هذه الفيلا دوما. إن شاء الله يا أمي. دعواتك يا أمي ان يحفظني الله من أولاد الحرام وأن يبعدني عن الحرام. أدعوك يا ولدي في كل وقت. دعواتك ستحرسني يا أمي. سحبت مني سارة العسكر التليفون وقالت في رقة :

— اطمئني يا أمي. عبدالله بخير. مع السلامة

شدتني سارة من يدي. سحبتني كما تسحب الناقة. إن أم سفيان تسحبني إلي الهلاك. يبدو أنها تمسك يدي وستصعد بي إلي غرفة النوم من جديد. ربنا يستر. لقد سحبتني فعلا إلي الطابق الأعلى. لست قلقا فلقد دعت لي أمي. قالت سارة العسكر في حزم :
— من حقي عشر قبلات يا عبدالله يا مصري الآن. عملت ما تريده فافعل ما أريده

ثم واصلت غناءها قائلة بصوت حاولت أن يكون رخيما : «موال عاشق بقيت موال وقصتي بتتقال للناس والعاشقين. وقالوا في الموال قالوا علي اللي صبر ونال قالوا من بعد صبر سنين قالوا. وأنا اللي

قلبي ارتاح أنا وبقيت في دنيا من الأفراح. أنا. ومشيت يا ليل مشوار طويل ولا قلت مرة مستحيل. ومشيت علي الشوك ما رجعتني لحد الحب ما طوعني».

يبدو أنك صبرت كثيرا يا سارة العسكر عليّ ولكني أعدك بأنك لن تنالي مني شعرة واحدة. أوافق علي الزواج منك. أوافق علي أن أكون لك في الحال. أنا مستحيل عليك يا سارة وأنت محرمة علي إلا بعد الزواج.

لقد وافقت علي الزواج منها. ألا يعد هذا في حد ذاته انقلابا في حياتي؟ ولكن تري ماذا بعد الانقلاب؟ كانت تغني وتشدني إلي أن وصلنا إلي سريرها الدوار. دارت رأسي. ارتمت علي فراشها بينما كنت أتخفز للهرب.

الحلقة السابعة والستون

التقدم إلي الخلف

أصوات ضربات النرد تتردد كثيرا مرتطمة بأركان الطاولة. صوت صبي المقهي يرتفع بطلبات الزبائن من شاي وقهوة وقرفة وزنجبيل وما إلي ذلك ويختلط مع أصوات لاعبي الطاولة والدومينو والشطرنج. صوت محمد بسيوني يرتفع قائلا: «شيش بيش. أمسكتك في اليك يا نور عيني. سأمزقك تماما يا أنور يا حسان في هذه العشرة. سأعلمك في هذه العشرة درسا جديدا وأريك في فنون الطاولة الحديثة ما لم تره قط طيلة حياتك. سأعمل لك مباراة اعتزال بعد أن تعترف بأستاذيتي وعبريتي في الطاولة. أنا أول من أثبت أن الطاولة علم وأطلقت عليه طاولا كولوجي». يقاطعه غريمه في تحد قائلا: «في المشمش يا محمد يا بسيوني. أنا أول من روض الزهر ومَرَّ القواشيط. أنا سأسجل في صفحات تاريخ الطاولة فخرا جديدا يضاف إلي تاريخي. أنا أوشوش الزهر وأمره همسا فيلبي. انظر. أيها الزهر أريد الدوبارة». يرمي أنور حسان الزهر فيحصل علي دوبارة كما أراد فيتعجب الحاضرون ويصفقون وينظر له غريمه بتعجب فيقول له أنور حسان: «لا زلت تلميذا في مدرستي. أقصد في جامعتي. سأفتح جامعة لأعلم الطلاب فيها لعب الطاولة».

كنت أتابع اللعب مجاملة لهما. لا أدري لماذا أحس بأنهما قد تغيرا تجاهي. نظراتهما لم تعد كما كانت لي من قبل. كنت أتابع مع الملتفين حولهما ولكني كنت مشغولا أفكر في أمور حياتي وكأنها دائرة مفرغة أدور فيها باستمرار. أفكر في شكرية التي أحبتني وأثبتت حبها لي ولقد تمت الخطبة ولكنها اختفت. .. كنت أفكر أيضا في سارة العسكر. بعد الغد سأسافر معها إلى لندن. ليس لدي سوي أقل من يومين. إن سارة العسكر تحبني كما أحبتني شكرية. لا بالطبع لا فهناك فرق كبير بينهما. إن سارة العسكر قد أحبتني كما أحبتني حنان عزت السيد غير أنها طلبت مني الزواج علي العكس من حنان التي لم تطلب الزواج بل ورفضت أن أتزوجها بعدما عرضت عليها هذه الفكرة لأبعدها عني. لقد كنت متأكدا أنها لن تقبل الزواج بي. لقد كانت حنان كما كانت سارة العسكر في البداية تريدك أن تكون لها بدون زواج. إن حب شكرية لي كان يماثل حبي لسارتي عشق العمر. سارة فؤاد التي كنت أتمني الزواج بها. حرام أن أظلم سارة العسكر فهي أيضا انتهت في حبها إلي طلب الزواج مني. لا كلهن مختلفات. أنا أتزوج سارة العسكر؟ ولم لا؟

لم أتزوج سارة فؤاد حبيبة العمر لفقري وإحساسي بأنها نجمة في السماء تعلقو خيالي وتعلوني. كنت أشعر بأنني لا أستحقها ولا يمكنني أن أفكر فيها. ألا تعد سارة العسكر أيضا نجمة في السماء ولا تستحقها يا عبدالله؟ لقد أتتك النجمة وصارت أقرب إلي يديك من سارتك التي أحببتها وأفنيت العمر تتبتل في محراب حبها وتصلي في نور عشقها وتدعو الله أن تكون لك. إن سارة العسكر طلبت منك الزواج وضحت بزوجه عبدالله البندري من أجلك. من يدريك أنها قد تضحي بك يوما ما كما ضحت بزوجه ومن يضمن لك ألا تلقبك بحمارها عبدالله المصري كما كانت تلقب زوجها السابق لا سيما وأنك ستظل تعمل معها في المصنع تابعا لها وخادما مطيعا لها ولأوامرها؟ الأفكار تتقلب في ذهني وتتابع بسرعة وأشعر أنني عاجز عن متابعتها والدوران في فلكها خشية أن يصيبني الدوار والتعب. طيب أين أمك في تفكيرك يا عبدالله؟ أمي؟ أمي كل حياتي ولقد كدت أن أكون جاسوسا من أجلها لولا فضل الله الذي أدركني بمقتل الضابط

شديد. من أدراك أن هناك ضابطاً آخر سيحل محله وسيطلب منك نفس الشيء؟ من أدراك أنك لن تعمل جاسوساً لدي سارة العسكر علي زملائك؟ لم يتغير شيء.

فعلاً لم يتغير شيء ولن يتغير شيء ولا زلت كما أنت يا مسكين في نفس المأزق. لا زلت تلهث وتحاول كما أنت. لم تتغير ولم يتغير شيء. أنت دوماً مفعول بك يا عبدالله. اعترف بأنك لم تحب ولن تحب سوي سارتك رفيقة الصبا وحبيبة العمر سارة فؤاد. أعترف ولكنها.. ولكنها ماذا أيها الغبي؟ لقد أحبتك واعترفت لك بحبها. لكنها لم تقترب مني ولم تدافع بشراسة عن حبها لي. لم تفعل ما كان يجب أن تفعله. أيها الغبي الأحمق. أكنت تريد منها أن تطلب الزواج منك أم أنك كنت تريدها أن تصرخ بحبك وتملاً بصياحها الدنيا؟ ولم لا؟ أكان والدها يقبل بزواجها منك؟ لقد كانت فتاة صغيرة ليست مثل حنان عزت ولم تكن كذلك مثل سارة العسكر في جبروتها وسلطانها. أنت أصلاً لم تحاول مجرد أن تعترف لها بحبها. كان يمكن أن تقلب الدنيا لو اعترفت لها بحبك. كان اعترافك لها بالحب وإظهار رغبتك في الزواج بها سيغير الكثير ولكنك جبنْتَ. كعادتك جبان خجول متردد خواف. أنت الرجل يا عبدالله. أكنت تريدها أن تقوم بدورك؟ سأعترف أيضاً أنني أحببت شكريّة وكنت أنوي أن أكون مخلصاً لها. إنها الوحيدة التي قررت أن أكون لها وبدأت في تنفيذ ما قرّره. إن شكريّة القصة الحقيقية التي كادت أن تكتمل ولكنها فشلت. أعترف بأنني أريد امرأة تتزوجني. أريد امرأة تأخذ بيدي في صخب الحياة وأقتفي أثرها. لاشك أنني غبي. إنني لم أقرأ رسالتها التي تركتها لي حتي الآن. الرسالة في البيت. ما الذي سيكون مكتوباً فيها؟ أيها الغبي وماذا فعلت لهذه المرأة التي أرادت أن تتزوجك؟ لو كانت مكانك وأنت الذي كنت قد اختفيت لم تكن لتسكت علي هذا. ألا تذكر ما الذي فعلته بالضابط شديد حينما استوقفك في أول مرة حدثتها فيها؟ امرأة تصلح للحياة وتصلح للزواج ولكن أين هي؟ هل تريد امرأة تقود سفينة حياتك وتوجهها كيفما شاءت أم أنك تريد امرأة تقودها أنت وتسير بها حياتك؟ ألا زلت تعيش في دور أنك تريد أما لا زوجة؟ ألم تعير أكثر من مرة بأنك ابن أمك وأنك لم تتحرر من

سلطتها بعد؟ ألم تكبر بعد يا عبدالله يا مصري؟ أنت إذا لا تبحث عن زوجة وإنما تبحث عن أم.

ذات مرة أخبرني والد سارة فؤاد باشا أنه نادم علي أنه قد زوجها لأدهم. تمنيت لو أنني سألته أكان يقبل أن يزوجها لي ولكني خرس. أي ضعف هذا الذي أنت فيه يا عبدالله؟ متي تتحرر من إحساسك بالعجز والدونية. لقد هدمت حياتك تماما وضيعت كل شيء بإحساسك بالعجز وعدم تقديرك لذاتك.

كيف كان يمكن لي أن أجرو أن أطلب يدها من والدها؟ ليلة كاملة فكرت في أن أتحدث معه بشأن رغبتني في خطبتها. كتبت كلمات كثيرة في صفحات طويلة وأفنيت ليلة كاملة أمني نفسي بأن أتحدث مع والدها وأتخيل موقفي وأنا أمامه أطلب منه الزواج بابنته. تذكرت قصة سيدنا موسى مع فرعون. تخيلت أنني سأصير كالنبي موسى أمامه. أتقدم إليه بسحري. لقد حصلت علي المركز الأول في الثانوية. أنا فقط الذي أري هذا السحر. من يري هذا السحر غيري؟ لن يؤمن أحد بما حققته؟ لن يكون لدي سحرة مثلي ليؤيدوا سحري. أكنت أقبل أن أهين أمي وأخذها معي لنطلب يد كريمة فؤاد باشا؟ تخيلته كالفرعون أو أشد بطشا. لعله كان سينظر إلي بكل احتقار واستهزاء ويقول لي كما قال فرعون لموسي: ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين؟ لقد كانت له علي اليد العليا والذراع الطولي. أنسيت نفسك وتطلبها مني؟ يالها من قعدة سيئة!! أين كنت أعيش إذا لم يقم بإيوائي؟ ألم يكن يساعطني ويعطيني المال؟ كيف أتجراً وأطلب مثل هذا الطلب الذي سيراه نكرانا للجميل وعضا لليد التي امتدت لي وأعطتني وساعدتني؟ لقد تخيلته يقوم بصليبي في جذوع النخل أو يقوم بتقطيع يدي ورجلي من خلاف أو يأمر بأن أنفي من مصر كلها. كل هذا وتسألني عن تقديري لذاتي؟

تقديري لذاتي؟ وماذا فعلت حتي أقدر ذاتي؟ ما الذي حصلت عليه في الدنيا؟ لا شيء. مجرد عامل حقير في مصنع من مصانع سارة العسكر. لقد كنت أول الجمهورية في الثانوية العامة وأول دفعتك في الكلية. وماذا بعد؟ كل هذا لا قيمة له. الناس الآن توزن بما معها من مال. من معه قرش يساوي هذا القرش ومن ليس معه لا يساوي شيئا.

نحن في مجتمع حقير يري الفقر عيبا ويرى الفقراء نجاسة لا يجب الاقتراب منها. مجتمع لا يري إلا الأغنياء ويناصرهم. مجتمع يري الفقراء عارا ويحاربهم. يري الفقراء ميكروبات ملوثة يجب التخلص منها والتطهر خوفا من أن تصيب مجتمع الأغنياء بالعدوي. مجتمع لا يؤمن إلا بسطوة الجنيه وقوة المال وإغراء الثروة. المال عصب الحياة والاقتصاد نعيمها. ما الذي حققته من ثراء أو وفرة من مال يا عبدالله؟ لاشئ.

كان الرئيس مبارك يعلن أنه ينحاز للفقراء ولكن هذا لم يكن يظهر علي أرض الواقع أو يتضح في تخطيط حكوماته المتعاقبة. أنا أحبه ولكني أعتقد أنه لم يكن ينزل ليري آثار الخطط بنفسه فلقد كان مشغولا بمصلحة وطن. لقد أضرت سياسة الخصخصة بالفقراء وزادت من ثراء الأغنياء. يبدو أن هذه الخطط الظالمة ساعدت علي إثراء الأغنياء ورجال الأعمال فتم إنشاء المشاريع الضخمة برؤوس أموال هائلة فبرزت طبقة الحيتان الجدد الذين صاروا يعيشون في الأرض فسادا ويمصون دماء الفقراء والمعدمين. لا أدري كيف سمح ببيع القطاع العام؟ طيب وأين الشفافية وأين ذهب هذه الأموال؟ ولماذا لم يتم إنشاء مشروعات وطنية تقوم بها الدولة بناتج بيع منشآت القطاع العام ومصانعه ومؤسساته؟ كل شئ في البلد صار من أجل الأغنياء الذين يتحكمون في كل شئ ويشرعون القوانين والأنظمة التي تفيدهم وتكون في صالحهم.

حتي الجامعات الخاصة التي أنشئت أهدرت تفوق الفقراء وكانت لصالح الأغنياء. أولاد الفقراء سيتفوقون ويدخلون الجامعات الحكومية وأولاد الأغنياء لن يتفوقوا وسيدخلون الكليات التي يريدون دخولها بأموالهم في الجامعات الخاصة وسيتعلمون فيها وستصير فرصهم أكثر في التدريس والتدريب لأن أعداد الطلاب فيها أقل والإمكانيات متوفرة علي العكس من الجامعات الحكومية التي يزيد فيها عدد الطلاب وتقل فيها فرص التدريب والتعلم.

كان أحد العمال معي في مصنع لم أمكث فيه سوي شهرين في أواخر التسعينيات يبكي ذات مرة وكان مهموما فسألته عن السبب فقال:

— ابني مقهور وأنا مثله يا عبدالله يا مصري

- لماذا؟ خيراً؟
- حصل علي ستة وتسعين بالمائة في الثانوية العامة ودخل كلية الطب
- جميل. ما الذي يغضبه في هذا؟ ما الذي يقهره؟
- زميله ابن أحد الأغنياء والكبراء في البلد حصل علي ثمانين بالمائة
- في الثانوية ودخل كلية الطب في إحدى الجامعات الخاصة
- لاحول ولا قوة إلا بالله.
- ابني تعقد من حياته وحول من كلية الطب ودخل كلية الآداب
- لماذا؟

- شعر أن تعبته لا قيمة له. لقد تساوي معه من هو أقل منه في
- المجموع في الثانوية. تخيل أن ابني صار منعزلاً وحزيناً. دائماً
- يقول لي لقد تساوي معي من كان ينافسني وكان أقل مني في
- التحصيل والفهم. كيف سأثبت عيني في عينيه بعد ذلك؟ إنه
- أفضل مني. إن والده سيدفع له ما يقارب من نصف مليون جنيه
- ليحصل علي بكالوريوس الطب وسينشئ له عيادة خاصة عندما
- يتخرج وسيصير في المستقبل أفضل مني. سأخرج من المنافسة
- لأنني لست أهلاً لها يا أبي. سأحصل علي مرتبي الذي لا
- يتجاوز خمسمئة جنيه في حين سيحصل هو علي الآلاف في
- عيادته الخاصة. من الأفضل لي أن أترك دراسة الطب. وبالفعل
- ترك كلية الطب وحرق قلبي. عليه العوض ومنه العوض.
- ابنك عملي وفهم الحياة لا تقلق عليه
- ابني ضاع وصارت نظرتي للحياة مادية

لم يمر سوي بضعة أيام إلا وتم بيع المصنع وشردت أنا وزميلي. اشتراه أحد المستثمرين الأغنياء وبدأ في الاستغناء عن العمالة ليحقق أكبر كم ممكن من الأرباح. صار العمل الذي يقوم به اثنان يقوم به واحد فقط. أعطانا الملايين ليكسب هو الملايين. طردنا وطرد الكثيرين ليوفر المزيد من الأجور.

التسعينيات تلقي عليّ الآن بظلالها في تفكيري. تذكرت يوم الثاني من أغسطس عام تسعين. أصبت بشرخ كبير في حياتي. كنت أحب صدام حسين أيضاً ولكنني في هذا اليوم أحسست بمدي ألم كارثة غزو الكويت. هل نحن في غابة؟ دولة تبتلع دولة؟ ماذا يحدث؟ إنها كارثة

تدمي الفؤاد. ما هذه التعاملات التي تخلو من الأخلاقية؟ اقتحام دولة. شعرت أننا في زلزال كبير يضرب الوطن العربي. صرخت أمي ولطمت وضربت خديها عندما طلبت الكويت مساعدة أمريكا والغرب. بدأ إرسال الأساطيل والبوارج وحاملات الطائرات إلى الخليج. أقسمت أمي وقتها أن الأمريكان والحلفاء لن يخرجوا من هذه المنطقة إلى قيام الساعة. لقد وقعت الكارثة يا أمي. صرت أراها تببت علي دموع وتصحو علي حزن وكأن شققتنا قد دخلها الأمريكان وحلفاؤهم. كانت أمي تقوم من النوم فزعة وتصرخ قائلة: «شققتنا دخلها الأمريكان والحلفاء. اطردهم يا عبدالله. سيدمرونا ويدمرون العراق».

لقد صدق حدسها في حين أقسمت لها وقتها بأن العملية لن تتعدي إخراج العراق من الكويت ثم تعود الأمور إلى طبيعتها كما كانت. ابتسمت لي ساخرة وقالت: «هذه خططهم الجهنمية يا عبدالله يا مصري وهذا مكروهم وتخطيطهم». تأكد لي صدق حديثها عندما عرفت أن مادلين أولبرايت وزيرة الخارجية الأمريكية وقتها قد أعطت الضوء الأخضر لصدام حسين لدخول الكويت واجتياحه وأن أمريكا أبلغت العراق أنها لا تمانع في أن يدخل العراق وأنت له بتقارير تثبت أن الكويت تسرق نفطه. أحسنت يا أمي. ما أحسن تفكيرك وتحليلك!! لقد بقت قواعدهم بالخليج إلى الآن وظلت هيمنتهم وسيطرتهم موجودة. انتهزت الفرصة لأقنع أمي بأن تحب الرئيس مبارك فقلت لها:

— هذا يعني أن مبارك رجل وطني عظيم. لقد قرأت عن خلاف بينه وبين الولايات المتحدة منذ توليه للحكم في مصر وأنه كان يرفض وباستمرار أن تنشئ أمريكا قاعدة أمريكية علي أرضنا يا أمي.

— ستثبت لنا الأيام

— يا أمي مبارك قام بعمل البنية التحتية وأنشأ مترو الأنفاق وبني الجسور واستصلح الأراضي والخير سيأتي والتقدم سيحدث

— آه. التقدم سيحدث ولكنه تقدم إلى الخلف يا ولدي. رجوع إلى الخلف. نحن نتراجع. انتبه من فضلك. مصر تتراجع إلى الخلف والعرب يتراجعون معها.

كانت الأيام تمر كثيبة حزينة أمام عيني. رأيت عمليات تحرير الكويت وبعدها رأيت عمليات هدم العراق علي من فيها. كانت أمي

تتابع الأخبار علي التلفزيون وتبكي. كانت تتحسر علي قوة العرب التي تدمر. صرخت كثيرا وبكت لأغتيال حضارة عظمي وتجريب أسلحة الغرب في أجسادنا. من يموت ومن يصاب من إخواننا يا عبدالله. لقد ضاعت المنطقة. ضاعت العراق يا عبدالله. كانت تصيح وتصرخ كل يوم. ماذا يمكننا أن نفعل يا أمي؟ لن نستطيع أن نحارب الحلفاء. الدور سيكون علينا يوما يا عبدالله. الخطط ستستمر وسنضيع. ليس تدمير العراق حلا يا ولدي. كانت قطرات الدموع تنساب من عيني أمي وقلبي يدمي لما أراه من تقتيل وتخريب علي شاشة التلفزيون.

وفجأة صرخ محمد بسيوني بصوت مرتفع فأفزعني وأعادني بعنف إلي المقهي وجو معركته مع أنور حسان قائلا:
— دش يا أنور يا حسان. أبعده عني فلقد خسر العشرة. اطلبوا له الإسعاف أو انقلوه إلي غرفة الإنعاش.

اصفر وجه أنور حسان وخرس تماما. أدركت أن أنور حسان قد خسر فلم يعد ينطق. لقد أصابته نوبة ذهول بعد أن رأي الدش علي أرضية الطاولة. سكنت قليلا ثم قال بروح تحد وبابتسامة ساخرة وكأنه ينتظر أملا جديدا :

— هذه هي العشرة الأولي. سألعب وأتعادل معك بعد أن أغلبك إلي أن نصل إلي العشرة الفاصلة
— أنت تحلم
— الزهر بيننا

دارت رحي معركة جديدة بين الغريمين. نظرت إليهما بكل حب ولكن نظراتهما كانت مختلفة وباردة نحوي الليلة. لا أدري سببا لهذا ولكني عرفت آخر الليلة السبب وليتني ما عرفت. تظاهرت أنني أتابع معركتهما ووجدت الفرصة سانحة لأعود إلي تذكر ما حدث لي مع سارة العسكر بعد أن عادت إلي رونقها وجمالها. لقد بذل طاقمها أقصى جهد لتجميلها ولإعادتها إلي الصورة التي تظهر بها أمام الجميع في المصنع.

لقد أخذت بيدي وساقنتني إلي غرفة نومها. كانت تتحفز لدفعي إلي أحضانها وكنت أتحفز للهرب منها. ارتمت علي سريرها جالسة

وأشارت إليّ بسبابتها تدعوني في دلال للاقتراب منها والجلوس معها علي حافة سريرها الدوار. استهجنّت طريقتها في دعوتي بسبابتها. لن أذهب إليها ولن أقربها. ابتعدت وكان قلبي يلهج بالرفض وعيناها تنتويان الهرب منها.

كنت أترجع نحو الباب وأشعر بالقلق والخوف منها. ابتسمت لي ثم كررت طلبها لي بالقرب منها بسبابتها ولكني كنت أترجع حتي وصلت إلي الباب. قامت بسرعة كالريح الغاضبة فجأة واتجهت نحوي وقالت في غضب:

— إلي متي ستهرب مني يا عبدالله؟

لم أرد والتصقت بالباب والخوف يكاد يقتلني. دقات قلبي كانت تتزايد. فزعي منها كاد أن يعصف بي. تذكرت أول مرة التقيت فيها بسارة العسكر بعد أن رجعت من الخارج بعد أيام قليلة كنت قد مكثتها في مصنعها. كنت أحس بأنني فأر أرتعد خوفا من قط متوحش متنمر متحفز للهجوم علي بمخالبه وأنيابه التي ستقطعني إربا. الشعور نفسه يبتابني الآن. لا سن لي يقطع ولا ناب لي يمزق لأدخل معركة غير مأمونة العواقب. لا مخالب لي ولا صوت أستطيع أن أصدره لأخيف هذه القطّة المتنمرة. اقتربت مني وقالت في رقة ما بعدها رقة:

— أنا أحبك يا عبدالله يا مصري

لم أستطع أن أنطق بكلمة. كل ما فعلته أنني قمت بهز رأسي بالموافقة وأنا أترجع للخلف وشعر رأسي يقف والقشعريرة تنتابني. إنني أكاد أشعر بتجمد الدماء في عروقي. أشعر بنيران رغباتها تتأجج وأحس بغليان غريزتها يتدفق في أنفاسها الحارة التي تخرج من فمها المصبوغ بروج أحمر قان كالدماء التي تغلي رغبة في جسدها. تداعب شعرها بيدها اليميني وتتحسس صدرها بيدها اليسري ثم تطبق بشفتها العليا علي شفتها اليسري وهي تقترب مني ثم تفتح شفتيها. كأنها تتمني أن تلتئم شفتي. إنها تأتي نحوي وتخفي ضوء المصباح الخافت عني فلا أري سوي جسدها يقترب مني. تقترب من شفتي ثم تنقض علي شفتي فجأة فأحس أنني لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا ولا أستطيع هربا أو صراخا. تقترب أكثر فأشعر أنني لا أملك لنفسي حياة ولا موتا. يبدو أنها قد قررت وتنتظر رد فعلي. إنها تقترب

وتجثم عليّ بكل جسدها. صدرها يعلو صدري. لقد تمكنت مني تماما واحتضنتني. لقد جثمت علي صدري تماما وأنا واقف خلف الباب وأتمني أن أتخلص منها بأيّة طريقة. حاولت أن أبتعد عن الباب ولكنني وجدتّها تمسك خديّ وتتحسسهما وتغمض عينيها وأنا لا أدري ما الذي يمكنني أن أفعله. لمست شعري بيدها اليسري. أدخلت يدها في صدري وأخذت تعبت بشعر صدري. أكاد أن أستسلم ولكن دوافع الرفض داخلي تدفعني للمقاومة.

أحسست أنني سأستسلم تماما ماذا تجدي المقاومة مع سارة العسكر؟ إنها تنتصر دائما وتحصل علي ما تريد شعرت بأنني أسقط. لقد قررت أن أسقط بالفعل. سأقع حتي أهرب من قبضتها وجدتني أسقط خلف الباب أخرجت شفتي من شفتيها بمعجزة ثم نزلت علي الأرض ولكنها كانت تتبعني وتمسك بي بيديها تمسك الغريق بقشة. لن أستسلم لها أبدا. لا يمكن أن أدع لها ساحة المعركة. لن أكون لها أبدا ولن أدعها تفعل بي ما تشاء. أقسم أنها لن تنال مني شعرة واحدة بدون زواج. لن تحصل علي أي شيء مني أبدا إلا بعد الزواج. لست رخيصة لهذه الدرجة ولست بقادر علي أن أعصي الله من أجلها. يا رب ساعدني لقد قلت ومن يتق الله يجعل له مخرجا. لقد نزلت علي الأرض ثم انتفضت فابتعدت عني وفررت من خلف الباب. فرت خلفي وكأنها تريد أن تثبت لي أنها ورائي ولن تتركني أبدا حتي تحصل علي ما تريده مني كاملا غير منقوص. بحلقت سارة العسكر في وجهي وقد امتلا بطلاء الروح الذي كانت تضعه ثم ضحكت مبتسمة وكأنها تريد أن تقول لي وكأنها قد امتلكتني تماما: «لن تستطيع أن تهرب».

نظرت إليّ في غضب وقالت:

— أخشي أن ينفذ صبري عليك

حاولت أن تعيد الكرة من جديد ولكنني فررت منها لما خفتها ولما رأيتها تبتسم ابتسامة ظفر وفخار. صرخت فيّ قائلة:

— اثبت مكانك. لقد وقعت في يدي. لا تحاول المقاومة. مقاومتك لن

تجدي. هل ستلعب معي لعبة القط والفأر؟

كنت أدور حول سريرها الدوار. كانت تتبعني ولكنني لن أسمح

لها بالقبض عليّ وتلوّث براءتي وطهارتي وعذرتي التي لم تفتض حتي الآن. أخشي أن تطلع فوق السرير ثم تنقض عليّ وتفوز بمرادها. يبدو أنها قرأت ما بذهني. لقد سعدت فوق السرير وأرادت الانقضاض عليّ ولكنني كنت أسرع واتجهت نحو الباب هاربا وأنا ألهث في إعياء. أتت إليّ مرة ثانية والتقمّت شفتيّ. نظرات الظفر تملأ عينيها. ابتسمت بعد أن تركت شفتي برهة وقالت:

— أنا سارة العسكري يا عبدالله. أنا أفعل ما أريد.

غافلتها وهربت منها بعد أن بلغ بي الجهد مداه. عاودت الكرة مرة ثانية وبدأت أدور حول سريرها من جديد. خلعت فستانها ولم يعد علي جسدها سوي قميص نومها الشفاف الذي يبرز جسدها. استغفرت الله العظيم وغضضت بصري عن صدرها النافر الذي بدا وكأنه يريد أن يقفز من مكانه مطلا عليّ برأسه ليحتضنني. قالت لي في غضب:

— لا أصدق أنك لا زلت بكرا وقد تعديت الخمسين يا عبدالله

لم أرد عليها. عشرات النداءات تتردد داخلي. إياك أن تسمح لها يا عبدالله بالتهامك. إياك أن تضعف. لقد هربت منها في المرة الماضية. لقد خلعت كل ملابسها ووقفت أمامك كيوم ولدتها أمها ولم تضعف. رب اصرف عني كيدها. يا رب إن لم تصرف عني كيدها أصب إليها وأكن من الخاسرين. لن تهز فيّ شعرة واحدة. بدأت تخلع قميص نومها. صحت فيها برجاء:

— حرام عليك يا ست هانم

— حرام عليّ؟ حرمت عليك عيشتك. لن أتوسل إليك

— آه. أنا الذي أتوسل إليك. حرام عليك. أنت امرأة متزوجة

— سيطلقني حماري غدا

— العيب فيّ يا أستاذة سارة

— أي عيب؟ لقد قبلتك شكرية ومن قبلها أخذتك حنان في أحضانها وقبلتك أيها المنافق. هل هذا حلال لها وحرام عليّ؟ هل قبلتها حلال وقبلتي حرام يا عبدالله؟ هل هي أفضل مني؟ ماذا لديها وليس لدي أيها الغبي؟

يبدو أنها قد جنت تماما. لقد خلعت قميص نومها لتريني كافة مفاتنها الأنثوية بعد أن استشاطت غضبا ومزقته بالفعل. أخذت أبكي

والدموع تتساقط من عيني. قالت لي في غيظ:

— لماذا تبكي الآن؟

لم أرد عليها وإنما قلت لها:

— لماذا تتحدثين في ماضٍ قد فُرض عليّ. والله لم ألمس حنان عزت

برغبتني قط. لقد كانت تراودني عن نفسي. شكرية أيضا هي التي

احتضنتني وقبّلتني. يا أستاذة سارة إنني أخاف الله رب العالمين.

— وهل ما نفعله خطأ؟ أنا أحبك وأنت تحبني.

— أرجوك يا ست هانم. دعيني أخرج في هدوء. أعدك أن أختفي

تماما من حياتك

— لا زلت أصر علي أنك لست بكرا يا عبدالله. شكلك مقطع السمكة

وذيلها. شغلك هذا وبكاؤك لا يخيل علي.

— انفجر بركان غضبها في وجهي وصاحت بغضب:

— أنا لا أعجبك يا عبدالله. ما الذي لا يعجبك فيّ؟ يبدو أن حنان

كانت علي صواب. أنت من الطبقة الحقيرة. أنت لا تستحق أن

أنظر إليك.

ساد الصمت لحظات. صرت أرتجف وسقطت الدموع رغما عني.

صاحت فيّ بغضب:

— ما الذي يبكيك؟

— لم أصل العشاء حتي الآن. هل يمكن أن أتوضأ وأصلي العشاء؟

— نعم يا روح أمك!!

— أريد أن أصلي العشاء

— لن تنظلي علي حججك الفارغة

اتجهت نحو الباب وأغلقتة بالمفتاح ثم اتجهت نحو النافذة وألقت

بالمفتاح في الحديقة وقالت:

— لقد حبستك معي حتي الصباح يا عبدالله. أنا وأنت والليل طويل.

اقتربت مني وأرادت أن تلمسني فقلت لها ماذا يدي أمامها:

— حد الله بيني وبينك يا سارة يا عسكر. حد الله بيني وبين الحرام.

تحرمين عليّ حتي نتزوج. لقد كنت أفكر فعلا بالزواج منك.

— أنت تحبني إذا؟

— يا أستاذة سارة

- بلا أستاذة بلا زفت. هل تحبني أم لا؟
- نتزوج أولا. ألا تخشين أن يأتي الأستاذ عبدالله البندري حالا ويرانا علي هذه الحالة؟
- لا لن يأتي. لقد اتفقنا علي الطلاق غدا
- ألا تخشين الله يا سارة يا عسكر؟ الله موجود. الله مطلع علينا. الله يرانا

سكتت برهة وكأنها تفكر. أسرع نحو السرير وألقيت الملاءة علي جسدها خشية أن أذكر اسم الله وهي عارية أمامي. لم تدفع الملاءة عن جسدها. كنت أسألهما وقلبي يهتز خوفا وأنا أنطق كلمة الله وعينا تدمعان. ومن قال إنها تخشي الله؟ كل ما تفعله بالمصنع من ظلم بين وأكل لحقوق العباد وتعتقد أنها تخاف الله رب العالمين؟ يا رب أخرجني من هذا المازق. لقد غلقت الأبواب ونفذت ما تريد وقالت هيت لك. يا رب إذا أغلقت جميع الأبواب فبابك لا يغلق. معاذ الله يا إلهي يا رب العالمين. أين دعواتك يا أمي؟ أين وعدك لي بدعوات قادرة علي رد هذا البلاء والكرب الذي أنا فيه؟ يا رب أرجوك وأنا في هذا الكرب وأدعوك أن ترجع لي أمي سالمة.

- لما رأيته لا تتحرك اتجهت إليها في هدوء وقلت بلسان واثق صادق :
- كنت أفكر حقيقة أن أتزوجك ولكني الآن خفت منك بالفعل. ما الذي يضمن لي أنك لن تفعلني هذا مع شخص آخر بعد الزواج
- لأنني أحبك يا غبي. ألا تفهم؟ سأترك الدنيا كلها من أجلك. يا عبدالله سأفعل كل شئ تريده من أجلك. لقد أخذتك حنان بستين جنيها في الشهر. كانت شكرية تريد أن تشتريك لأنك تستحق فعلا أما أنا فسأعطيك كل شئ. سأعطيك حياتي وعمري. أنا أحبك. لقد حذرتني حنان عزت منك. هل أنت إنسان بلا قلب؟ أنا أحبك وأنت لا تحس بي. أخذت تبكي ونامت علي سريرها تنتحب.

رمي محمد بسيوني النرد بكل قوته وبكل يأسه أيضا في الطاولة فعدت ثانية إلي المهفي وأجوائه فلقد كانت أم كلثوم تشدو بصوتها الرخيم: «حب إيه اللي أنت جاي تقول عليه؟ أنت عارف قبله معني الحب إيه لما تتكلم عليه؟ أنت ما بينك وبين الحب دنيا دنيا

ما تطولها ولا حتي بخيالك. أما نفس الحب عندي حاجة تانية.
حاجة أغلي من حياتي ومن جمالك».

عدت كذلك إلي أنور حسان الذي رفع يديه بكل فرحة وسعادة
ولكني لما نظرت إليه تحاشي النظر إليّ. لقد تعادل مع محمد
بسيوني بعد أن فاز عليه. كاد محمد بسيوني أن يصرخ من شدة
الغيظ. قال في تحد: «لقد سرقت هذه العشرة يا أنور يا حسان». رد
عليه أنور حسان بابتسامة ساخرة وتوعد كلا منهما الآخر بنظراته.
أغلقت الطاولة وقلت لهما: «كفاكما لعبا. التعادل يرضيكما. يجب أن
نذهب إلي العمل في الصباح الباكر. سيكون آخر يوم لي أذهب فيه
إلي المصنع قبل السفر».

لقد بدأت أفهم لماذا تغيرت نظراتهما لي الليلة عن نظراتهما لي
من ذي قبل. لقد نظر إلي محمد بسيوني في استنكار وقال متسائلا:
«أنت الذي تتحدث عن العمل؟ أنت ستسافر إلي لندن يا عبدالله
يا مصري؟ يا لحظك!! ستكون مع سارة العسكر. حسرة علينا نحن
العمال الكادحين. لقد صرت مع من هم في الأعلى يا عبدالله فلا
تنظر إلي من هم في الأسفل. كلها أيام ولن تجلس معنا ولن نستطيع
أن نتكلم معك».

أخبرتتهما أنني سأكون معهما في المصنع غدا وسأكون معهما ومع
العمال دائما. ابتسم أنور حسان. يبدو أنهم قد أحسوا بأنني لم
أعد معهم ولست منهم. نظراتهم لي تغيرت. أنا أشعر أنني سأقدم
بقضايهم وسأكون لهم وواحدا منهم. سأضحى من أجلكم وأتزوج
سارة العسكر. بعد أن أعود من لندن سأتفرغ لحقوقكم وقضايكم.
لماذا تلقيان عليّ هذه النظرات وكأنها النيران تصوب إليّ؟
هممت بالانصراف ولكني لم أوضح ولن أوضح لهما أي شئ. لقد
فهمت. لماذا تغيرت نظراتهم لي؟ طلبا مني أن أجلس حتي تنتهي
الأغنية.

لن أكون إلا معكم وفي صفكم. نظرا إليّ في تعجب ثم تبادلا النظرات
إلي بعضهما البعض. أيعقل أن يعتقدوا أنني صرت غريبا عنهما؟ أكل
هذا لأنني سوف أسافر إلي لندن مع سارة العسكر وأفكر فيكم وفي
مصالحكم؟

قد أكون أسأت فهم النظرات في أعينهما. لا. إنهما متغيران تماما الليلة. واصلت أم كلثوم غناءها وقد بدت عليهما الصرامة تجاهي. كانت تغني: «حب إيه اللي أنت جاي تقول عليه. ظالمه ليه دايمًا معاك. دا أنت لو حبيت يومين كان هواك خلاك ملاك». ماذا أفعل لأفهمهما أنني كما أنا ولن أتغير؟ سأحاول أن أكون قفاشا مثلك يا محمد يا بسيوني وسأريك أنني لم ولن أتغير. ابتسمت وقلت لهما:

— أم كلثوم تغني لي. تخيلوا؟

تعجبا فقلت لهما وأنا أضحك:

— أصل ملاك هذا كان أحد زملائي في الكلية. كان هواك خلاك ملاك. الله عليك يا ست

ضحكت وضربت كفا بكف وانتظرت منهما أن يشاركانني الضحك ولكنهما صمتا. يبدوا أنهما ضنا عليا بضحكة مجاملة لي. لقد أردت أن أكون قفاشا مثل محمد بسيوني ولكنهما لم يضحكا. خرس لساني لحظة وقلت لمحمد بسيوني:

— يبدو أن أم كلثوم تغني لأولاد عمك فقط ولا تغني لي. ألا يوجد أحد في أولاد عمك أو أولاد خالاتك يسمي بملاك؟

— أردت أن تكون قفاشا يا عبدالله؟ لم تعد القفشات تناسبك بعد الآن. هذا المقهي أيضا لن يناسبك بعد اليوم. ستجلس بعد هذا في الكافيتريات أو في أي كوفي شوب. لن تليق بك مثل هذه المقاهي البلدي. كان يتحدث معي بطريقة غير تلك الطريقة التي اعتدت عليها. لماذا تريدون مني أن أنسلخ عنكم وأنا منكم؟ أيعقل أن يصل الحقد بكم تجاهي إلي هذه الدرجة؟

خرجنا من المقهي ولم نتبادل كلمة واحدة. كنا نتقدم في الطريق ولكنني كنت أشعر أننا نتقدم في علاقتنا إلي الخلف. يبدو أن علاقتي بهما ستسوء أو ستنتقطع. سأواصل ما صممت عليه. سأسافر مع سارة العسكر برغم كل ما حدث بيننا الليلة. سأواصل تقديمي نحو حقوقهم وبطريقتي ولكنني أخشي أن يكون تقديمي إلي الخلف. أوصلاني إلي بيتي ولم يتكلم كلمة واحدة. دخلت ولم أتكلم معهما بكلمة واحدة. وأصلا تقدمهما وظللت واقفا أنتظر منهما أن ينظرا إلي

الخلف ولكنهما واصلا المسير بدون نظرة واحدة إلي الخلف. انتظرت أيضا أن يلقي علي تحية المساء ولكنهما ظلا صامتين. كانا يتقدمان في سيرهما بدون أن ينظرا إلي الخلف.

الحلقة الثامنة والستون

سفر وعودة

ما الذي حدث للدنيا؟

كنت أفكر بعد أن ذهب صديقي عن عيني وواصلا سيرهما دونما إلقاء تحية المساء علي. ما في صدورهم قد تغير تجاهي. أشعر بغصة وغضب وحزن وألم. ظللت واقفا للحظات أمام بيتي أتعجب. لم يلتفتا حتي إلي التفاتة شفقة. لم يودعاني بكلمة طيبة ولا بنظرة عابرة. قد بدت البغضاء من نظراتهم وما تخفي صدورهم أكبر. قررت أنني سأصعد إلي شقتي ولكني تراجعت. لمن سأصعد؟ أمي ليست موجودة. هل سأبيت الليلة بطولها أمام البيت ألطم خدي وأبكي علي نظرات صديقي وأطال علاقة كنت أعتقد أنها متينة قوية ستصمد لصروف الدهر وتقلباته؟ وماذا يفيد البكاء؟ هل سيرجع لي أمي؟ هل سيعيد البكاء لي حبي الضائع وسارتي الحبيبة التي لا أعرف عنها أي شيء؟ هل سيعيد لي خطيبتي شكرية؟ هل سيعيد قلب صديقي؟ لماذا البكاء إذا ولماذا الوقفة هنا ولن يتغير شيء؟ لا فائدة من البكاء. سأصعد إذا طالما أن البكاء علي اللبن المسكوب لا يعيده. كنت أعدد درجات السلم المتكسرة وأنا في تعجب مستمر من أحداث هذه الحياة. علاقات بشرية صعبة ومعقدة. يوم تكون فيه الحياة مليئة بالحب والقرب ويوم آخر تتفسخ هذه العلاقات. لقاء وفراق. حب وكراهية. تجمع وتفرق. سفر وعودة. حياة وموت. أليست هذه هي الحياة؟ نسير في ركابك أيتها الحياة ولا نري إلا ملامح عبوسك أحيانا كثيرة ونادرا ما نري مظاهر ابتساماتك أيتها الغادرة. نسمع صوت بكائك الدائم المستمر ونادرا ما نسمع أصوات ضحكاتك. دوما تؤلمينا بلدغاتك ونادرا ما تداوينا يداك. تا الله إنك غريبة عجيبة. تبا لك أيتها الحياة الوقحة. تغربين عن وجه من يجري خلفك

وتأتين طوعا وتهرعين خلف من يتركك ويهجرك وتشرقين في سماه.
عرفتك أيتها الدنيا. أنت كالمرأة. تحبين من لا يحبك ولا يريـدك،
ومن يريـدك ويهواك ويقع في شراكك تهربين منه وتعطينه ظهرك غير
عابئة به. أنت متقلبة دوما ولا تعطينا بعض ما نريد بل تسلبين منا
كل ما نحب. تعطينا الآمال والأوهام والأحلام وتصفعينا بقوة لنفيق
علي سرابك وعذاباتك وألم صفعاتك وصوت نفيرك ولظي سخطك.
نحسب أن الماء بيدك والظمأ يقتلنا فنهرع إليك فنجده سرابا. نعود
وتنادين علينا بنفس غرورك ومتاعك ونري الماء بيدك ثانية ونظنه
عذبا فراتا ونقترب منك لأنك تبسمين فإذا ما اقتربنا بدا عبوسك
وظهرت أنياب غضبك فنراك تسكبين الماء أمامك فننكفي عليه نلحسه
ألما ونلغقه غصبا ولكننا نجده ملحا أجاجا. فإذا ما رأيت حزننا
وألمنا انطلقت بسماتك وزادت أصوات ابتساماتك.

لقد نسيا أنني أنا الذي أعدتهما إلي العمل. نسيا أنه لولا دلالي
علي سارة العسكر ومكانتي عندها لكانا في الشارع بلا عمل ولا مال.
أستغفر الله العظيم. أنا لا أؤمن عليهما بل الله يمين علي من يشاء.
لقد نسيا هذا لي وصارا يحقدان علي لأنني سوف أسافر مع سارة
العسكر إلي لندن. والله لا أريد أن أسافر معها ولن أسافر معها إلا من
أجل أُمي. لقد زهدت الدنيا تماما ولم أعد أريد منها أي شئ. ما
الذي ستفعله الدنيا لي؟ ستعطيني اليوم ولكنها ستسلب مني غدا.
ستحتضني اليوم ولكنها ستدير ظهرها لي غدا. والله لا أحبها ولا
أحب عطاءها.

لا أحب مالها ولا زينتها ولا زخرفها. سيضيع كل شئ. سيذهب
كل شئ. ما لي وللدنيا؟ إما أن أتركها وإما أن أتركني. لم أر أحدا
يخلد في الدنيا. أين قارون وأمواله؟ أين ذهب حسني مبارك وسلطانـه
وهيلمانه؟ أين فرعون وجنوده. كل شئ يفني ولا يبقى سوي وجهك
أنت يا ذا الجلال والإكرام.

أيعقل أن يحقد علي محمد بسيوني لأنني سأسافر مع سارة العسكر
إلي لندن؟ إن نظراته ونظرات أنور حسان قد تغيرت لي. أيمكن أن
تكون الغيرة قد أصابتهما لهذا السبب؟ لماذا لا ينظرا إلي بؤس حالتي
بعد اختطاف أُمي؟ لماذا لا ينظرا إلي خيبتتي الثقيلة التي لم يصب

بها غيري؟ لقد فقدت شكرية خطيبتني ولا أعرف عنها شيئا، وفقدت من بعدها أُمي. إن خيبتني ليس لها مثل في دنيا الناس. يصدق علي المثل القائل إن خيبة الناس السبت والأحد وأنا خيبتني لم ترد علي أحد. ابتسمت لنفسني قائلا في يأس: «هذا يعني أن خيبتني طيلة أيام الأسبوع بداية من يوم السبت إلي السبت الذي يليه».

أتذكر كلمات أُمي لي واستعدادها للترحيب بي عندما أرجع. ألا يكفي أنني أعيش كالميت بعد اختطافها؟ نعم. أنا ميت غير حي بدونها. لا أحس بأي طعم للدنيا بدونها. صدقت أُمي عندما كانت تقول لي أكثر من مرة إن الناس لا ينظرون إلي ما تفتقده ولكنهم ينظرون إلي ما تمتلكه ولا يعلمون أنك تفتقد أكثر مما تمتلك إلا أنهم يرون الذي تمتلك ولكنهم لا يرون الذي تفتقد. أحيانا ينتابني الحزن وأتمنى ألو كنت قد عملت بمصنع سارة العسكر أو التقيت بها. آه لو كنت أعلم الغيب. لست علي هذا القدر من الشجاعة والجرأة والإيمان لأبتلي بهذه الامتحانات الصعبة المتوالية. ليتني ما أتيت إلي هذه الحياة ولكن أليس هذا قدر الله؟ أليس هذا ما كان مقدرًا لي؟ ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك. أنت مؤمن يا عبدالله. ما يحدث قد يكون خيرا. لعله خير. أنت لا تدري. يا سبحان الله. كيف يكون هذا هو الخير؟ الشر في الأصل خير ولكننا نجهل ما الذي يراد لنا وبنا. آه يا عمنا يا ابن سينا. حتي الشر في داخله خير. يا عيني علي الفلسفة. الله يفعل بنا الخير المطلق. يا سلام علي فلسفتك أيها الشيخ الرئيس. هل هذا وقت فلسفة؟

هي خطوات نخطوها في حياتنا في دنيا الله ولا يمكننا التراجع ولو قيد أنملة. مشيناها خطي كتبت علينا ومن كتبت عليه خطي مشاها. اقتربت من درجة السلم الأخيرة. أخرجت المفتاح لأفتح باب شقتنا. هنا وفي هذا المكان احتضنتني شكرية وقبلتني. وجدتني أتحمس خدي. أين أنت الآن يا شكرية بل أين أُمي؟ لقد اشتقت إليهما حقا. لا يزال لدي أثر من رائحة أُمي في داخل الشقة. سأدخل حجرتها وأنسم ريح عبيرها. هنا كانت تنام وهناك كانت تصلي. هذه ثيابها ويمكنني أن أشم ريحها جيدا. لا أدري لماذا ينتابني إحساس غريب بأنني سوف أراها الليلة. أحس أنها ستكون بأحضان

وسأراها ثانية. لن أنام في حجرتي وحيدا ولكني سأنام معها وفي حجرتها. لا أعرف إن كان هذا سيتحقق أم لا. أشعر بقرب رائجتها. ليس هذه الرائحة نابعة من حجرتها. هذه رائحة أمي التي أعرفها جيدا وأشمها من علي بعد. أحس أن أمي تقترب وأشم ريحها وكأنني أسمع خطواتها بالفعل.

لدي أيضا شيء من رائحة شكرية خطيبتي. لدي الخطاب الذي أعطته شكرية لوالد سيد أبو ستة وأعطاه لي قبل أن يموت بلحظات. سأقوم حالا وأذهب لقراءته. عبدالله. ماذا حدث لك؟ هل تحبها وتنسي سارة حبيبة عمر؟ أبدا. حاشا لله. لا يمكن أن أنسي عبق أنفاس سارتي حبيبة العمر. لا. إنها الآن زوجة لغيرك ولا يحل لك أن تفكر فيها. هل أستطيع أن أمنع نفسي من تفكير ملاء علي حياتي وغلب كياني؟

إذا بها لحظات قلائل تمر ويرن هاتفني المحمول. إنه نفس الرقم المتميز الذي يتكرر فيه العدد ستة خمس مرات. خمس ستات برقم تليفون واحد. وقفت من فوري وقلت في تساؤل متمنيا أن يرد من يتصل بي هذه المرة وألا يتركني في حيرة كعادته كل مرة: — ألو. من؟

لم يرد علي المتصل. سمعت تنهدات صوت خمنت أنه صوت أنثوي. أشعر أنني أعرف هذا الصوت. أعتقد ولا أؤكد. أزعم وأشك أنني قد سمعت هذه التنهدات من قبل ولكني لا يمكنني أن أجزم من صاحب هذه التنهدات. لماذا أظن أنه صوت أنثوي؟ ومن أنا حتي يكون هذا الصوت لأنثى؟ أنت عبدالله المصري. ألم تكن سارة العسكر ترجوك منذ ساعات أن تكون في أحضانها وأن تطفئ نيران شهواتها؟ أنت مخطئ. أغلقت هاتفني عندما لم يرد أحد. لماذا لا يكون صوت رجل يقلد تنهدات الأنثى؟ سأقوم وأقرأ خطاب شكرية. لم أكد أدخل حجرتي إلا وكان الرقم المميز يرن ثانية. انتظرت برهة ولكني وجدت نفسي أرد علي الهاتف بعدها بسرعة يدفعني الفضول لأعرف من علي الهاتف. لم أجد ردا ولكنني استمعت إلي كلمات هذه الأغنية تأتيني من علي الطرف الآخر: «قولولو قولولو قولولو. قولولو الحقيقة. قولولو باحبه باحبه من أول دقيقة. قولولو باحبه ومتوهني حبه في بحوره الغريقة أبو عيون جريئة».

خطر ببالي أنها حنان عزت السيد زميلتي أيام الكلية فلقد كانت تحب عبدالحليم حافظ حبا جما. انتظرت لأستمع فلعل من يتصل يمل وينهي المكالمة ولكن هذا لم يحدث. صوت عبدالحليم يتواصل مغنيا: «طال شوقي وطال تعذيبي وإمتي حاداري لهيبي لهيبي. هاوصف له غرامي دا كله وفي أول مقابلة هاقله. واحلف له بليالي الشوق ونجوم السما اللي فوق ازاى قلبي حبه والبال انشغل به من أول دقيقة أبو عيون جريئة».

هل أتحدث بصوت عنيف وأغلق الهاتف؟ لقد انتظرت أن يتحدث المتصل بي. قلت متسائلا بصوت هادئ بشئ من العتاب:

— هل سأظل متيقظا طيلة الليل لأستمع لأغنية عبدالحليم؟
انتظرت أن يأتيني الرد من الطرف الآخر. لم يأتني رد. قلت في غضب:
— لدي عمل في الصباح. يبدو أنك متفرغ تلهو وتتسلى
أغلقت الهاتف بغضب وانفعال قائلا:

— يبدو أنك تضيع وقتك وتضيع وقت الآخرين
هل يمكن أن تكون حنان هي التي تتصل بي؟ فتشت في جيوبي عن رقمها. لقد أعطته لي في حفل عيد زواج سارة العسكر. لا. إنه ليس رقمها. طراً بذهني أنه قد يكون رقم سارة العسكر. لماذا لم يدر بذهني أن تكون المتصلة هي سارة العسكر؟ سأنتظر لو ردت هاتفي سأقول لها: «أهلا وسهلا يا سارة». لو كانت هي فلسوف تعلم أنني فهمت أنها هي فلن تتصل بي ثانية. أجمل ما في الأمر أنني أتحدث مع من يتصل علي أساس أنه رجل. فعلا قد يكون المتصل رجلا. ولم لا؟ بعد دقيقة وبعد انتظاري الذي خلته سنة رن نفس الرقم المتميز. ما أن قمت بالرد إلا وكان صوت عبدالحليم في أذني فلم أستطع أن أتكلم. لقد كان الصوت مرتفعا ولكنه كان مقبولا. كان عبدالحليم يغني بصوته الرائع: «فات جنبي وعيونه حبايبي. نسوني اللي عايشين جنبي. بصيت له قوام حبيته. من فرحة عيني ناديته. قولولو يقول لعينييه إيه آخرة دا كله إيه. يا يصحي لي قلبه. يا ينسيني حبه. أبو عيون جريئة أبو عيون جريئة».

ما أن انقطع صوت الأغنية إلا وقلت في صوت بشوش:
— أهلا سارة

وفجأة انقطع الخط. لم أعد أسمع شيئاً من علي الطرف الآخر. يبدو أن خطتي قد نجحت. يبدو أنها سارة العسكر. أعتقد أنها خمنت أنني عرفت أنها هي المتصلة. لن تتصل إذا ثانية. بالفعل مرت دقائق عديدة ولم تتصل.

لقد كشفتها. من المؤكد أنها سارة العسكر ولن تتصل بي. لا. ليس هذا تفكيراً سليماً. كيف تتصل بي وقد كنت معها منذ ساعات. ليست هذه هي المرة الأولى التي تتصل بي ولا تعلن عن شخصيتها. لن يتعدي الأمر بشأن من يتصل بي إلا أن يكون احتمالاً واحداً من احتمالين. إما أن تكون هي وإما أن تكون حنان عزت السيد. ولماذا لا يكون المتصل رجلاً يا عبدالله؟

مرت أكثر من خمس دقائق ولم يتصل أحد. لذا قررت أن أرن مرة واحدة علي هذا الرقم المتميز ثم أغلق بسرعة. لقد احترت في الأمر. لم يرد أحد. وبعد أقل من دقيقة كان الرقم المتميز يرن علي. كنت متلهفا للرد وكان عبدالحليم لا يزال يغني: «كان مالي ما كنت في حالي متهني بقلبي الخالي. فات رمشه الجري وندھلي. وفي أجمل عيون توهني. قولولو ندهني ليه. حيرني وشغلني عليه. بالحب اللي زايد والشوق اللي قايد. من أول دقيقة. أبو عيون جريئة». لا أسمع أي صوت من الطرف الآخر. فكرت في أن أكون خفيف الظل فقلت بصوتي مغنياً في طرب واضح:

— بالحب اللي زايد والشوق اللي قايد. آه. الحب اللي زايد في مدينة الشيخ زايد. رد يا عمنا. شكلك من الجيزة يا باشا. طب ردي يا سارة.

يبدو أن سارة العسكر لن ترد علي. هكذا أقنعت نفسي بأن سارة هي التي تتصل وبأن الرقم المميز هذا ليس إلا رقمها. قلت باسماء بعد أن سكنت صوت عبدالحليم حافظ:

— أنا متأكد أنك سارة.

فجأة وانقطع الخط ثانية. لقد كشفتها. لا أعتقد أنها ستواصل محاولتها ثانية. لقد كشفتها. كانت حيلة جيدة مني. قد يكون هذا غير صحيح. سأواجهها عندما نكون في المصنع غداً أو ونحن في الطائرة. لا يجب أن أشغل نفسي كثيراً. لدي الكثير يجب

فعله. إنني لم أقرأ خطاب شكرية. سوف أقوم بقراءته أولاً ثم أنام. خطاب شكرية. إنني لم أقرأ سطراً واحداً فيه. دفعني الفضول إلى قراءته وليتني ما قرأته. لو كنت أعرف ما به لكنت قرأته من أول لحظة وقع فيها في يدي. شعرت بالتردد وأحسست بيدي ترتعش وأنا أفتحه. أحس أن وراء هذا الخطاب أمراً جليلاً.

لا أحب أن أقطع هذا الظرف الذي وضع فيه الخطاب. فتحتُه بعناية. كأنني متشوق تماماً لقراءته. الساعة الآن تقترب من الثانية عشرة. لا أدري ما الذي دفعني إلى الذهاب إلى حجرة والدتي. سأنام في سريرها. لا يزال الإحساس بأنني سألقاها الليلة متغللباً عليّ. نظرت إلى الرسالة التي في الظرف وقرأتها بعناية وأنا أحس أنني أسمع صوت شكرية وهي تتحدث وكأنها هي التي تقرأ كلماتها لا أنا: «خطيبي عبدالله المصري. ..

ترددت كثيراً قبل أن أبدأ محاولاتي إرسال هذا الخطاب لك. وترددت أكثر في أول كلمة كنت أود أن أبدأ بها رسالتي لك. كنت أود أن أكتبها مبتدئة بكلمة حبيبي. صدقني أنني كنت أود أن أكتب لك في بدايتها زوجي العزيز.

لقد عرفتُك جيداً منذ شهور. عرفتُ عنك الكثير ولكني لم أكن أعرف أنك بهذه الشخصية الرائعة التي ما حلمت أن أقابلها قط. كنت أتمنى أن أكون لك زوجة كما كنت لك حبيبة أرجو أن نكون سوياً ولا تفرقنا الأيام. لقد تحريت عنك كثيراً وعرفت أنك فارس أحلامي الذي كنت أبحث عنه في خيالي. أنت رجلي الذي ما حلمت بغيره قط. لم أعرف بحياتي رجلاً مثلك. صحيح أن فترة خطبتنا لم تكن طويلة ولكني من كثرة المعلومات التي جمعتها عنك أدركت أنك أنت الذي ستصير فتاى وزوجي وأخي وأبي وحبيبي. كنت أتابعك من علي بعد. رأيتك ولم تعرف أنني أراقبك. عرفت أنك رجلي الذي يجب أن أقتنصه من الحياة. لا تظن أنني كنت أفعل هذا لأنني أريد أن أتزوج فالذكور كثيرون ولكن قليلون هم حقاً الرجال في هذا الزمان.

لقد صدقت نبوءتي فيك. لا يمكنني أن أنسي موقفك معي عندما

نصرتني علي نهاد زميلتك في المصنع. لقد اخترتني علي الرغم من أنني كنت متزوجة من قبل في حين كانت هي بكرة لم يسبق لها الزواج. فكرت وقتها بأن أهديك عمري ولكنني اكتشفت أن عمري ملكك منذ أن بدأت أبحث عنك. أردت أن أهديك قلبي فوجدته بيتك ووجدتك تسكن فيه وتملاً علي حياتي. عيناى لم تكونا سوي طريقي إلي أُملي والذي كان يتمثل في رؤيتك. سأهديك يا عبدالله ما يعجز عن إهدائه أغلب البشر. سأهديك الوفاء لأنني أحبك وأحبك من أعماق أعماق قلبي. عبدالله يا قدرتي. إن كان الحب قدراً فأنت بلا شك قدرتي وإن كان الحب اختياراً فأنت اختياري ومهبط قلبي الاضطرابي. إليك أنت أيها الفارس وأيها الفتى الرائع الذي ملك زمام قلبي وأسر فؤادي وتحكم بكافة أحاسيسي ومشاعري وإليك يا حبيب روحي أبعث كل باقات زهور العمر محملة بعطر المحبة لأنني أدركت أن للحب لذة وللحياة أكبر معني وذلك عندما أحببتك ونما حبك بداخلي فصرت أسيرة عشقك. أنا سعيدة بحبك شقية ببعذك. لقد كان قلبي صحراء قاحلة ولكنني عندما أحببتك تحولت تلك الصحراء القاحلة إلي جنة غناء يرويها حبك ويرعاها طيفك. أريد أن أصرخ بأعلي صوتي وأكتب بكل أقلام العالم أنني أحبك أنت. أحبك». لم تنته رسالتها بعد ولكنني طويت الرسالة واحتضنتها في صدري. ما هذه الكلمات يا شكرية الرقيقة؟ أكان كل هذا بداخلك نحوي؟ أكنت تحملين لي كل هذا الحب؟ لقد كنت مغفلاً. أهذه هي الحياة؟ أنحب من لا يحبنا ولا نحب من يحبنا؟

سامحيني يا شكرية يا خطيبتى العزيزة. أكنت تكنين لي كل هذا الحب ولم أكن أتنبه لحبك؟ أين أنت الآن يا شكرية؟ كادت الدمعات أن تفر من عيني هاربة من تحجر قلبي. سامحيني يا شكرية.

مسحت دمعاتي بعد أن اقشعر جسدي من التأثير بكلماتها. قررت أن أواصل القراءة فإذا بكلماتها تشد عيني وتخلب لبي وتنير وجداني: «خطيبي عبدالله..

تعتقد أنني أكتب لك هذه الكلمات وأنا في راحة ودعة وسعة من العيش. لا. أنا أواجه أصعب أيام عمري ولا يخفف أي شئ عني

سوي تذكرك. لا يلفظ عني ما أنا فيه سوي تفكري في عينيك
الجميلتين المليئتين بالتحدي والحنان. لم أر حنانا في حياتي مثل الحنان
الذي رأيته في عينيك ولم أر إيماننا وثقة بالله مثلما رأيته في عينيك.
أحس أن نهايتي قريبة. لا أعلم شيئا عن والدي غير أنهم قد
اعتقلوه معي عند آذان الفجر تماما ويبدو أن زوار الفجر قد عادوا من
جديد. بقيت معه ساعات في أحد أقسام الشرطة ثم تم فصلنا. لست
مجرمة فلا تقلق ولست مذنبه فلا تخاف. صدقني أنني أحس بالفخر
والسعادة بهذه التجربة الجديدة في عمري. لكم كنت غبية وأنا حرة
ولكم زال هذا الغباء عندما دخلت السجن. صدقني أشعر الآن أنني
حرة. أنتم بالخارج أشفق عليكم. أنتم مسجونون في غمار الخوف.
الحرية هنا خلف قضبان السجن.

عبدالله لم تحدث ثورة في مصر. النظام هو هو. النظام لم يتغير.
تغيرت الأحذية لكن الأرجل واحدة. تغيرت الأقنعة لكن الظلم كما
هو. أنا محامية وأعرف حقوقي كما في القانون ولكن كل هذا الكلام
يعد مجرد شعارات طالما أنه لا ينفذ. السجن والقهر والتعذيب كما
هو. يا خطيبي الحبيب لقد ضحكوا علينا وخدعونا. لم تحدث ثورة
في الأساس طالما أن تغييرا حقيقيا لم يضرب جذور المجتمع. عرفت
أن لدينا ما يقرب من مليوني ضابط وعسكري في الأمن وهذا يعني أن
لدينا ضابطا أو عسكريا لكل سبعة وأربعين مواطنا. لا زال التعذيب
والعنف كما هو داخل سجوننا ومعتقلاتنا.

زعموا أنني مجنونة وأخذوني ليمارسوا هواياتهم في التعذيب
بالصعق الكهربائي. زوروا التقارير وحبسوا الأطباء الشرفاء الذين أكدوا
أنني عاقلة. أتوا بأطباء وأرهبوهم وأكدوا أنني مختلة عقليا. الضابط
شديد كان وراء كل ما يحدث لي وما يزال يحدث لي. أتذكر عندما
أوقفته وأهنته عندما تعرض لك في ليلة خطبتنا؟
كانوا يريدون مني أن أخاف وأن أسكت. عبدالله. أنا متأكدة أنك
فعلت الكثير لتخرجني. لا أريدك أن تكون مثلي. كن فخورا بخطيبتك.
أحبك.
شكرية

ملحوظة. في آخر رسالتي هذه ستجد رقما لزميل عزيز لي. اتصل به ونفذ ما يأمرك به. خذ حذرك من سارة العسكر. أعرف أنك كنت قد غضبت مني لأنني كنت أريدك أن تترك العمل معها وتنتقل للعمل معي بمصنع الغاربية. أنت لا تعلم ما تفعله ولا تعلم أنها كانت سببا مباشرا لما أنا فيه. وفقك الله.

أحبك. أرجو من الله أن يجمعنا ثانية. ستعلم كم أحبك عندما تتصل بزميلي.

معذرة لأن الحروف تبدو عاجزة عن إيصال مدي أشواقي لك كما أن الكلمات تبدو عرجاء لا تستطيع أن توصل لك مقدار حبي. كنت أتمني أن أنجب ابنة لك تحمل اسمك. أمل عبدالله المصري. أرجو من الله أن يتحقق أمني. أرجو من الله أن تدعو لي وألا تنساني في صلاتك. أعرف أنك تحب الله وتدعوه كثيرا وتتحلي بإيمان ليس له مثيل. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. «.

احتضنت الرسالة وأخذت أبكي. أيعقل أننا عشنا في وهم طيلة الفترة الماضية؟ أيعقل أن الدنيا بهذا السوء. لم أفعل ما كان يجب عليّ لأنقذك يا شكرية. أنت خطيبتني وكنا سنصير زوجين. لحظات ورن الهاتف. نفس الرقم المتميز. أغلقت الهاتف في وجه من يتصل. اعتقدت خطأ أنها سارة العسكر. لقد حذرتني منك. سأتصل بمن يساعدني. يجب أن أتصل الآن بحنان عزت السيد. أحتاج إلي مساعدتها. الضابط حسين سالم لم يساعدني. في هذا الزمان وفي مثل هذا الوقت المريض من تاريخنا الرديء لا تصلح فيه إلا الراقصات. أنا واثق أنها ستخدمني.

أخرجت رقمها واتصلت بها. أتانني صوتها غير مصدق. تساءلت :

- من؟ معقول؟ عبدالله المصري
- آه. أنا عبدالله المصري. كيف عرفت صوتي؟
- عشرة عمر يا عبدالله.
- أنا هو يا حنان هانم
- لا زلت غير مصدقة
- أنا في حاجة ماسة إليك. أرجوك. أحتاج مساعدتك

- تأمر وأنا أنفذ. دائماً كنت أنا التي أحتاج لك فإذا بك ولأول مرة تطلب مساعدتي
- لأول مرة سأطلب منك خدمة
- تطلب مني أنا وعندك سارة العسكر؟
- أريد أن يظل هذا الأمر بيني وبينك
- يبدو أن الموضوع فيه إن
- إن وكأن وليت وبقية أخوات إن.
- ما أنا إلا راقصة يا عبدالله
- أنتن تحكمن البلد يا حنان. كل شئ في أيديكن
- ليس لهذه الدرجة
- خطيبتني شكرية صبري يا حنان
- مالها؟
- أريد أن أراها ضروري وبأية طريقة
- ألهذه الدرجة بلغ الحب بك يا عبدالله؟ أتكلمني بعد منتصف الليل لتطلب مني أن تري خطيبتك؟
- هل ستساعديني؟
- وتعطيني عشر قبلات؟
- كل شئ عندك بمقابل؟
- أمزح معك يا عبدالله. بالمناسبة هل أخذت منك سارة العسكر
- العشر قبلات التي طلبتها منك؟
- يبدو أنك تعلمين كل شئ
- أنا فخورة بك وبثباتك ولكني أزعم أن مقاومتك ستنهز علي أبواب لندن
- دعينا نفكر في طلبي. هل ستساعديني؟
- لدي علاقات واسعة ومتشعبة مع كبار رجال الشرطة والداخلية
- كنت أعلم أن الحل لن يأتي إلا من خلالك
- لا تطلبني إلا لحل مشكلة
- أرجوك يا حنان
- نصف ساعة وأكون في شقتك يا عبدالله
- سأنتظرك علي أحر من الجمر

أغلقت الهاتف وانتظرت إلي أن تأتي حنان. يبدو أن الرقصات هن الحل السحري لجميع مشكلاتنا في هذه الأيام. كنت أثق أن الحل سيكون عندها. تري هل سأتمكن من رؤية خطيبتي شكرية الليلة؟ يا رب. أتمني أن أراها.

اغرورقت عيناى بالدموع وذهبت في سفر بعيد بتفكيري. سافرت إلي قلب شكريتي الحبيبة. شكريتي التي كانت تستحق حبي وكل تفكيري. شكرية يا حبيبتي.

عدت ثانية إلي كلماتها وأنا أركب طائرة الخيال لأحلق في كلمات رسالتها. سافرت ثانية إلي قلبها وحملتني رياح حبها علي البكاء ثانية وثالثة. سافرت وابتعدت عن دنياى الظالمه. سافرت في معاني كلماتها وحملتني عباراتها إلي مدن حبها وشوارع أشواقها وعشقها. لكم أحبكم يا شكرية.

رن الرقم المميز ثانية فوجدتني أرد في غضب:

— من فضلك لو سمحت لا تتصلي ثانية أيها الغبية

ليتها تكون سارة العسكر حتي لا تحاول الاتصال ثانية. قلت مرة أخرى غاضبا في الهاتف:

— لو عندك دم لا تتصلي ثانية بهذا الرقم. إنى أكرهك. أنا متأكد من أنك سارة. أرجو منك عدم الاتصال ثانية. ألا تفهمين؟ حرام عليك. لو كان عندها أدنى ذرة من الكرامة ما اتصلت ثانية.

وبالفعل لم يرن هاتفى ثانية. قرأت الرسالة مرات ومرات وغصت في سفري إلي شكرية خطيبتى التي اكتشفت أنها كانت تحبني. كنت أعلم أنها تحبني ولكن ليس إلي هذه الدرجة. كنت أقرأ جملة ثم أسافر إلي ذكرياتي القليلة مع شكرية. أنا فارسها؟ أنا فتاها؟ كل هذا الحب وأنا لا أعلم عنه شيئا. كيف لم يهز هذا الحب كياني ويدك قلبي؟ سأسافر إلي حبك ولن أعود ثانية يا شكرية. سأتجول في بلاد حبك. أليس الحب حياة جديدة للإنسان؟ إنه بلا شك عمر آخر يضاف إلي رصيد حياته. سأسافر إلي حبك ولا أريد أن أعود. لا يجب أن أعود. ستنصل حنان لتأخذني في سفر حقيقي بعد أن أخرج من سفري في خيالي وفي أعماق رسالة شكرية. خرجت ووقفت علي أعتاب الشقة لأنتظر حنان. ستأخذني بلا ريب إلي شكرية. سأراها. سأصافحها

بيدي. سأنظر في عينيها.
وقفت في نفس المكان الذي قبلتني فيه. سافرت بخيالي ثانية وبعدت كثيرا ولم أشعر بالعودة إلا بعد أن وصلت حنان وهي في كامل زينتها. لقد كانت تبتسم. سأراك يا شكرية. انتظريني يا غالية. انتظريني يا خطيبتي العزيزة الرائعة الشجاعة. فارسك وفتاك سيأتيك حالا علي حصانه الأبيض.

الحلقة التاسعة والستون

الأسرار تتكشف

طالت وقفتي بعض الشيء وأنا أنتظر الفرج من عند الله. لازلت أقف أمام باب شقتنا وبالتحديد في نفس المكان الذي قبلتني فيه شكرية. تلمست خدي بيدي وأحسست بشعور جديد لم أحسه عندما كانت بأحضاني ليلتها. أحسست بأنني أرغب في أن يتكرر هذا الموقف كما أحسست أنني أود لو قبلتها. لقد تذكرت كيف كان قلبها ينبض بسرعة. ليتني رددت لها قبلتها وقتها. لا أدري لماذا تسمرت في مكاني وقتها. أهكذا نحن لا تأتينا عوارض الحب ولا تظهر علينا أعراضه إلا بعد أن يغيب الحبيب؟ تذكرت قلبها الذي كان ينبض بحبي واشتقت فقط أن إلي أن أراها لأنظر إلي عينيها وأخبرها أنني كنت لا أدرك أنها تحبني كل هذا الحب. كنت أعتقد أنها تفكر في مجرد زيجة فقط. سأطلب منها أن تسامحني. لقد أيقنت أنها كانت تحبني حقا. لقد سعت إلي وأحاطت بي وأغرقتني في بحر من أمواج حبها. المرأة يمكنها أن تدك الدنيا لتصل إلي من تحب. المرأة يمكنها أن تغير كل شيء إن أرادت ويمكنها أن تفعل أي شيء حتي وإن كان المستحيل نفسه لتكون بجوار من تحب. هذا إن كانت تحب فعلا. يمكنها أن تقلب السم عسلا إن كانت تحب، أما إن كرهت فيمكنها أن تقلب العسل سما.

تذكرت أيضا تلك الليلة التي أوصلتها فيها إلي بيتها ونظرت إليها وهي في شرفتها وظللت واقفا أنظر إليها وأتأمل كيف استطاعت أن تجعلني أبتعد بتفكيرتي لفترة عن سارتي. كان القمر بدرا ليلتها. فكرت وقتها أن يتم الزواج بسرعة ولكن هذا لم يحدث. إنها المرأة

الوحيدة التي أصرت علي الزواج بي وبدأت أولي خطواتها تجاهي بفرض الخطبة علي. أليس هذا هو النوع الذي تفضله في المرأة؟ أليست هذه هي المرأة المحبة قوية الشكيمة التي كنت تحلم بها؟ تمر اللحظات عصيبة كئيبة متباطئة عليّ فأحاول أن أجعلها تسرع بتذكري لحظات كانت سعيدة في حياتي مع إحساسي بأنني فرطت كثيرا في حق شكرية. أحسست وكأن اللحظات تعاندني وتأبني أن تمر. كأن الوقت يناصبني العداء ويرفض أن يتقدم للأمام. أشعر أنه يريد أن يغيظني ويخرج لي لسانه. أعتقد أن الوقت يريد أن يكلمني ويخبرني أنه سيتراجع إلي الخلف ولن يتقدم للأمام. كلي أمل في أن تأتي حنان لتأخذني إلي شكرية. شكرية هذه المرأة المحبة التي أهملت مشاعرها.

لم أحنها بظهر الغيب والله يشهد. لا. لقد خنتها يا عبدالله يا مصري. لقد خنتها بتفكيرك. ألم تكن تفكر في سارتك طيلة عمرك منذ رأيتها وظللت في ضلالك القديم حتي بعد الخطبة؟ ألا تعد هذا نوعا من الخيانة؟ أتذكر أنك كنت تفكر في سارتك ليلا ونهارا علي الرغم من أن خطبتك لشكرية قد تمت بالفعل؟ ألم يكن من الأجدر بك أن تتفرغ لحب شكرية وأن تهتم بها؟ صحيح أنني كنت ولازلت وسأظل أفكر طيلة عمري في الحب الوحيد الذي غمر حياتي وملاً عليّ كياني وشغلني بالكلية إلا أنني حاولت أن أخلص لشكرية. ليست الخيانة بالتفكير وإنما الخيانة بالفعل. لقد حاولت أن أكون مخلصا لها وكنت أفكر في إتمام الزواج ولو بشقتنا هذه مع أمي. كاذب. لا. صادق وإلا فلماذا كنت أفكر في إتمام الزواج بسرعة؟

ها أنا ذا لازلت واقفا أنتظر الفرج. سأنتظر وأتمني من الله أن يهبني الصبر. إن الصبر نوع من أنواع الموت البطيء. الانتظار أصعب ما في هذه الحياة. الانتظار هو الموت بعينه والترقب ما هو إلا بدايات الاحتضار. أشعر بأن الوقت متوقف لا يمر. متي تأتيين يا حنان؟ انتابني إحساس بأنها لن تأتي. لماذا تأتي؟ هل يمكن أن تأتي وتنسي أنها كانت تتمني أن تكون في أحضاني وكنت أرفض عندما كنا نذاكر سويا؟ تذكرت عندما نجحت ونحن في السنة الرابعة بالكلية وذهبنا إلي العزبة التي

يمتلكها والدها في الريف ليقيم لها حفلا أسطوريا بسبب نجاحها. ذهبنا في الصباح الباكر في سيارتها الفخمة التي أحضرها لها والدها كهدية لنجاحها بالكاد في الكلية. كنت أتعجب من حال الدنيا وأستغرب أمورها. نجحت بتقدير مقبول وأتي لها والدها بسيارة مرسيدس حديثة علي الزيرو لم يركبها قط إنس ولا جان. ضحكت كثيرة عندما قلت لها هذا التعبير. قلت لها إنني اقتبست هذا التعبير من القرآن الكريم. يأتي والدها لها بهذه الهدية. أما أنا فقد حصلت علي تقدير ممتاز ولا أجد من يهديني حتي ولو بوردة.

قالت لي وقد قرأت ما بداخلي:

- تستحق الرولز رايز لنجاحك بتقدير ممتاز
- أعوذ بالله ! الرولز رايز!! أهذا رجس من عمل الشيطان؟
- لا. أغلي نوع من السيارات. ألا يعجبك؟
- لم أسمع عنه قط
- ولا يهملك. وتستحق أيضا سيارة فيراري
- فيراني؟! هل تهزئين بي يا حنان؟
- ألم تسمع بالسيارة الفيراري؟
- لا فيراني ولا قططي. أنا لا أعرف سوي الأتوبيس. أحشر نفسي فيه حشرا لأصل به إلي الجامعة كل يوم. أتوبيس النقل العام. التذكرة فيه بقرشين.
- هل ستذهب إلي الجامعة في الأتوبيس حقا عندما تصير معيدا فيها؟ ماذا سيقول عنك طلابك؟ ستذوق الأمرين وقد يسرقك بعض اللصوص. طيب اركب التاكسي
- لا طاقة لي بالتاكسي. هل أدفع ربع جنيه أو نصف جنيه في التاكسي؟ أعوذ بالله. ربع جنيه؟! خمسة وعشرون قرشا أو خمسين قرشا؟ لا يمكن. ركوب التاكسي يحتاج إلي ميزانية لا أقدر عليها. قاتل الله سائقي التاكسي. إنهم ينهبون الناس ويأكلون أموالهم بغير حق. وأنا مالي بالطلاب. فليقولوا ما يقولون. ألسنت أستاذهم؟ أنا لا تهمني المظاهر يا حنان.
- نظرت إلي حنان في دهشة وقالت:
- الناس تهتم بالمظاهر يا دكتور عبدالله. الدنيا تغيرت. ستصير

معيدا في الجامعة ويجب أن تتغير طريقتك وتهتم بمظهرك وملابسك وإلا فلن يحترمك الطلاب.

— الحمد لله. لا تهمني المظاهر ولن أغير. أنا هكذا. ولدت هكذا وسأظل هكذا. ستفرح أمي بي كثيرا. الحمد لله. انتهت المعاناة وسنبدأ موسم جمع الحصاد. سنبدأ في جني ثمار الكفاف. دكتور عبدالله المصري. الله. لكم هو لقب رائع. وحان وقت الحصاد. — وحان وقت الحصاد؟ أسمى العشرين جنيها بالحصاد؟ راتبك لا يكفيني بضعة أيام — الحمد لله.

— ما رأيك في أن تستمر في التدريس لي وتأخذ السنتين جنيها كل شهر؟ لاشك أنك ستحتاج إلي هذا المبلغ. إن راتبك في الجامعة هزيل ومضحك جدا. راتبك لا يسمن ولا يغني من جوع. — أتريدون إهانتني؟ هذا قدرتي وأنا راض بقضاء الله. لم آخذ منك صدقة من قبل ولن أقبل منك صدقة الآن. أنت التي طلبت مني أن أدرس لك يا حنان. لا تظني أنك قد أعطيتني شيئا غير حقي. — أتحادث معك جادة. ستعلمني اللغة من بدايتها. ستعلمني الحروف. تخرجت وأنا لا أفهم شيئا والفضل لله ثم لك. كانت تقود بسرعة وفي عجلة. استبد بي الخوف وقلت لها في رعب واضح:

— أخشى أن نحتفل بنجاحك في المستشفى

— لا تخف. أنا ماهرة جدا في القيادة.

كانت تقود السيارة بطريقة جنونية لدرجة أنني فكرت أنها قد فقدت عقلها تماما. حاولت أن أتماسك ولكنني شعرت بأنها تريد أن تصطدم عمدا بالسيارات التي أمامنا. أحسست أنها تريد أن تسخر من نجاحي وتفوقي. كأنها تريد أن تقول لي: «وماذا بعد أن نجحت وتفوقت؟ وماذا بعد أن كنت الأول. مرتب تافه حقير». لا لن أقبل أبدا أن أمد يدي لها بعد أن تخرجت. طلبت منها أن تتوقف. نزلت من سيارتها ومشيت علي قدمي. ألحت علي أن أركب معها ثانية. قبلت بشروطي. لن نتحدث معي ثانية بهذه الطريقة. إن أملي قد تحقق. كنت أريد أن أكون الأول وقد كنت. ساعين معيدا

بالكلية كما أخبرني رئيس القسم. الحمد لله. لا أريد أكثر من هذا. ابتسمت حنان وقالت :

— والله أنت مسكين. تريد أن تقتل نفسك بين صفحات الكتب والمراجع وتتعب عينيك بالقراءة ليلا ونهارا؟ حرام عليك نفسك. سيزيد مرتبك أربعة جنيهات بعد الماجستير وستة جنيهات بعد الدكتوراة؟ هل هذا معقول؟

— أنا راض بهذا. أنا أستمتع بالذاكرة والقراءة. الحمد لله رب العالمين. أنا أشفق عليك كثيرا يا عبدالله

تشفق عليّ؟ وما نتيجة هذه الشفقة؟ هل عرضت علي والدتها أن أعمل معه؟ لقد طلبت منها الزواج ولكنها رفضت مؤكدة أنها لا يمكن أن تتزوجني. تبا لهم هؤلاء الأغنياء. ما نتيجة هذه الشفقة؟ لقد كانت تريد أن تسلبني أعز ما يمتلكه الرجل وأنا أثق أنني لو كنت وقعت في براثنها لتركتني وبحثت عن غيري. لاشك أنني أذلت كبرياء غرورها وعنجهيتها. لقد رأت في إنسانا مختلفا. أعتقد أنها قد أبقت علي إلي الآن لأنها لم تنل مأربها مني حتي الآن. كانت تعتقد أنني سأسقط سريعا في بئرها وسأقع في براثنها بسهولة. نظرت إليها وأنا أعجب لشفتها المزعومة وقلت لها :
— وأنا أشفق علي نفسي أيضا. تصدقي بالله أنني أشفق علي نفسي وعلي مصر من أمثالك
— لماذا؟

— نشفق عليكم من حنانكم ومن شفقتكم الزائدة بنا. إنكم تثبطون من همتنا

— من نحن الذين نشبط همتكم؟
— أنتم الأغنياء. تتعلمون معنا وتشاركونا التعليم بالمجان وليس من حقكم، ثم تسخرون من التعليم ومنا نحن معاشر الفقراء. ملعون أبو ثورة يوليو ألف مرة. لو كانت ثورة حقيقية لأصلحت حالنا وحال البلد. الثورة الحقيقية تصلح من أحوال الناس. صحيح أنني استفدت من الثورة وتعلمت ولكن هل من العقل أن أتعلم بالمجان وأنا فقير وتتعلمين أنت أيضا بالمجان وأنتم تملكون كل شيء؟ أين العدل؟ مرتبي يعجبني. أستم بقادريين علي تحسين أحوالنا إن

- أردتم. يمكنكم فعل كل شيء ولكنكم لا تفعلون أي شيء إلا لمصلحتكم. سلامتها أم حسن وسلامتها هذه الشفقة التي تظهرونها نحونا.
- أنت معبأ إذا وفي داخلك الكثير
- نعم معبأ. وتأتين في النهاية وتسخرين مني ومن تفوقي؟ كان من المفترض أن تدفعي كل رسوم الدراسة لا أن تتعلمي بالمجان مثلي. والدي مات ونعيش بالكاد ووالدك يمتلك كل شيء ونجلس في مدرج واحد وتتعلمين مثلي بالمجان؟ بصراحة يجب إعادة النظر في موضوع المجانية الظالم. حرام.
- لا تكبر الموضوع. أنا حنان زميلتك. لماذا أدخلت موضوع الثراء والفقر ومجانية التعليم في حديثنا الآن؟
- كان من الصواب أن تدفعي عشرات الألوف من الجنيهات لتحصلي علي الليسانس لا أن تحصلي عليه بالمجان. كان من الأجدر أن يدفع والدك لا أن تصيري عالة علي الجامعة يا حنان
- أكنت تريده أن يطعمكم ويشربكم ويشترى لكم ما تحتاجونه من أجل أن أتعلم؟
- ولم لا؟ لماذا لم يعرض هذا؟ كان بإمكانه أن يتبرع بجزء من أمواله من أجل تحسين حال الأساتذة والمدرجات والخدمات التي تقدم للطلاب. كان بإمكانه أن يدفع الكثير للطلاب الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا. كان يمكن أن يوظف بعضهم للعمل بإجازة الصيف. كان بإمكانه أن يفعل الكثير ولكنه كان يفضل إنفاق المال بسفه وفي غير موضعه.
- هذه حياتنا وهذه معيشتنا
- لقد حصلت علي الليسانس الذي تحتاجين إليه
- أنا لا أحتاج إليه. لقد اخترت حياتي يا عبدالله. ليكن في علمك أنني لا أحتاج إلي التعليم ولن أحتاج إليه. أنتم الذن تحتاجون إلي التعليم لترفعوا به من شأنكم. نحن لا نحتاج إليه مثلكم. التعليم مظهر اجتماعي لنا فقط. الليلة سيأتي أحد المخرجين الكبار وسيكتشفني. يقول إنه يري فيّ راقصة ممتازة. سأكون راقصة المستقبل
- راقصة؟!!

- لا تقل راقصة. راقصة يعني فنانة يا متخلف
- يعني هل أخطأت في البخاري؟ راقصة راقصة. طيب وما رأي والدك؟
- والدي فخور جدا بهذا الطريق الذي اخترته
- فعلا. إذا كان رب البيت بالدف ضارب فكل أهل البيت شيمته الرقص. راقصة؟ أستغفر الله العظيم
- احترم نفسك. فنانة أنا ولدت فنانة. الجرائد والمجلات ستكتب عني وتتبع أخباري من سيعرف عنك شيئا حتي ولو حصلت علي الدكتوراة؟ حتي ولو صرت أستاذة؟ أنا ستكتب عني الجرائد كل شيء. سأظهر في برامج الراديو والتلفزيون سأصير مشهورة يا عبدالله كن معي في هذا الطريق أنا أحبك أنا أريد الخير لك أرجوك لا تضيع مستقبلك كن معي وستكسب لقد تغير الزمان وتغيرت الدنيا كن في كنفي ولا تكن مع الجانب الخاسر.
- أنت لا تحبين إلا نفسك. لا تتحدثي عن الحب. لقد طلبت منك الزواج ولم تقبلي
- الزواج ليس من أولوياتي. الزواج ليس حلمي وأنت لست حلمي يا عبدالله. أريد مساعدة من هم في الوسط الفني لأصير أشهر راقصة في مصر وبعدها سأصير أشهر راقصة في العالم العربي. القاهرة هوليوود الشرق. مصر أم الفن وراعية الفنانين. ستري كيف سيبتسم لي المستقبل وكيف سيأخذني في أحضانه
- هذا بعد أن تنامي في أحضان العشرات أو المئات ليرتفعوا بك إلي قمة المجد
- لا يهمني لأنني سأصير أحسن راقصة.
- راقصة؟؟!!
- فنانة يا عبدالله ولا تحقر من شأني من فضلك. لقد رفضت أن أحقر من شأن حلمك ومن شأن راتبك الحقيق أصلا.
- وتتعرين أمام الناس؟ أستغفر الله العظيم.
- ستفخر بي يا عبدالله يوما ما. ستنمني مساعدتي. ووقتها لن أخذلك. لن أنسي لك أنك ساعدتني في الحصول علي الليسانس.
- أتعرف لو أن رأسك هذا يتغير. .
- ماذا لو تغير؟

- كان يمكن أن يكون فيك بعض الأمل ولكنك متخلف متحجر.
- أنا؟
- طبعاً. يبدو أنني.. ..
- آه. أنا متخلف متحجر.
- كنت أريدك بجواري في طريقي للكفاح من أجل الوصول إلي الشهرة والنجومية والدخول في عالم الفن والسينما والتلفزيون. كنت أود أن نواصل طريقنا معاً
- يبدو أن طريقنا ليس واحداً يا حنان.
- أوقفت السيارة. خطفت مني قبلة مباغطة حسبتهما وقتها وكأنها قبلة الوداع كما أحسست أنها صارت لا ترغب في أن أكون معها. غافلتها ونزلت من السيارة وتركتها. قلت لها: «هذا فراق بيني وبينك». طلبت مني أن أركب معها ولا أكن مع الخاسرين وكأنها ترجوني أن أكون معها لآخر مرة. قلت لها إنني قد اخترت طريقي كما اختارت طريقها. مشيت بسيارتها وتركتني. ورجعت إلي أمي.
- لقد كانت هذه آخر مرة أري فيها حنان عزت السيد رفيقة أيام الكلية. لم أرها ثانية إلا في حفل عيد زواج سارة العسكر منذ أيام.
- قد لا تأتي حنان. قد تتذكر هذا الموقف ولا تأتي. لا. ستأتي لتثبت لي أنها كانت علي صواب وأنها التي فازت وأنني كنت من الخاسرين. ستأتي. إن شاء الله ستأتي. ستأتي لتساعدني علي الأقل كما وعدت. ها أنا ذا لا زلت أنتظر الفرج.
- الفرج لا يأتي إلا من عندك يا رب العالمين. يأتي الفرج من عند الله علي يد راقصة يا عبدالله يا مصري؟ هل أنت غبي؟ آه. الفرج قد يأتي من عند الله علي يد راقصة. ما المانع في أن يكون النصر علي يد غير المؤمنين؟ ألا تذكر القول بأن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر.
- هذا حديث صحيح عن النبي صلي الله عليه وسلم. لماذا لا يكون الفرج علي يد راقصة. لماذا لا يكون النصر علي يد هذه الراقصة وأمثالها.
- سمعت صوتاً يصفر خلفي ثم أحسست بيد رقيقة تلمس كتفي.
- التفتت فوجدتها.
- إنها هي. هذه نفس طريقتهما في الصفيح والفتي. أحفظها. إنها حنان بنفسها بشحمها ولحمها. لقد ارتمت في أحضانها تبكي. أحسست بها

تبكي وتئن. لا أدري ما الذي كان يريد صوت بكائها أن يخبرني به. كأنها تريد أن تشتكي لي كما أردت أن أشتكي لها ما فعلت بي الأيام. وماذا فعلت بها الأيام؟ لم تفعل بها الأيام شيء. أنا الذي يجب أن أشتكي وأن أبكي. لم أحصل علي شيء بينما حصلت هي علي كل شيء تريده. ارتيميت في أحضانها أيضا لأطوي خلاف مسافات بعد دامت بيننا لأكثر من ثلاثين عاما. لا يمكنني أن أحسب لقائي بها في حفل عيد زواج سارة العسكر. لقد كانت في عمل وكنت في مهمة رسمية لأؤدي التهنئة لسارة العسكر وكان حولنا خلق يحيطون بنا في كل الوقت.

أعتقد أن هذه هي المرة الأولى الحقيقية التي نلتقي فيها بعد أكثر من ثلاثين عاما. أحسست بأنها كما كانت في ريعان الشباب. لا. لقد ازدادت نضارة وجمالا. يبدو أن الزمن لا يمر إلا بنا نحن الفقراء ولذا يظهر علينا علامات في حين أنه لا يمر بالأثرياء. لازالت قوية وشابة وجميلة. لقد صارت أكثر سطوة وقوة ونفوذًا. لا أعرف كيف صارت أكثر جمالا في عيني. لم أكن أراها جميلة أيام الدراسة. عجيب أمر هذه الحياة وغريب تصرفها بنا وتسييرها لأقدارنا.

أحضانها كانت بريئة كما كانت أحضاني. كأنني أريد أن أشتكي الزمان لها. كأنني أردت أن أؤكد لها أنها اختارت الطريق الصحيح في حين اخترت أنا الطريق الخطأ. هل أنهار وأعترف لها بأنني كنت علي خطأ في آخر لقاء كان بيننا؟

لم أمكث في أحضانها سوى بضع دقائق. انتبهت بعدها واستعدت توازني وخلصت نفسي منها. نظرت إليها وتعجبت متسائلا في نفسي كيف استطاعت أن تحتفظ ببريق شبابها طيلة كل هذه السنوات. لقد بدت لي أجمل مما كانت عليه أيام الكلية. نظراتها تؤكد لي أنها انتصرت وأنني قد خسرت. لن أعترف بالهزيمة أبدا. قالت لي:

— أنا تحت أمرك يا عبدالله. كل شيء جاهز. أخذت تصرّحا لك بزيارة شكرية من مساعد وزير الداخلية شخصيا.

— شكرا لمساعدتك.

— لو احتاج الأمر إلي طلب تصرّيح من الوزير شخصيا لأحضرتك لك

— بارك الله فيك يا حنان. أعلم أنك لك شبكة علاقات واسعة

وأعلم أنك تستطيعين فعل كل شيء

— كذاب. لم أستطع أن أقنعك لتكون معي.

كنت أستعد لأغلق الباب ولكنها أبعدت يدي عن الباب ودخلت
برجلها اليمنى بعد أن قالت باسم الله. يبدو أنها كانت تريد أن
تري كيف أعيش. دخلت حجرة أُمي ثم جلست علي أحد الكراسي
المكسورة في الصالة. دخلت المطبخ والحمام. أخرجت رغيفا ووضعت
عليه قليلا من الجبن وبدأت تأكله بتلذذ غريب. طلبت مني أن
أعمل لها الشاي. فتحت صنبور الماء وشربت منه بيدها. قلت لها:
— آسف يا حنان هانم. ليس عندي مياة معدنية. أخشى أن تتلوث
معدتك من ماء الحنفية. نحن نشرب ماء النيل مختلطا مع ماء
الصرف. نسبة التلوث فيه عالية. هذا الخبز من الخبز المدعم.
الرغيف بخمسة قروش. أخشى أن يصيبك بالتسمم. مالك ومال
الفقراء يا ست هانم؟

— دعني أكل وأشرب يا عبدالله. أحس بجوع غريب. أحس بأنني لم
أكل منذ زمن بعيد. كل شيء بحساب. رجيم مفروض عليّ. أطباء
يفحصونني دوما. أريد أن أهرب من كل قيودي. أريد أن انطلق.
كل شيء بمواعيد محددة. صرت أكره حياتي.

دخلت حجرتي وارتمت علي سريرى الخشن وكأنها ترتمي علي
فراش وثير من الحرير. تأوهت وأغمضت عينيها. تنفست بعمق
وكانها تريد أن تنام. لعلها أرادت أن تشعرني كم هي مستريحة
وسعيدة. قالت لي:

— أنت تعيش في نعيم يا عبدالله!! يا بختك!!

— أنا يا حنان؟

— أنت لا تحس بالنعمة التي أنت فيها

— آه. نعمة الفقر

— نعمة البساطة يا عبدالله. لا حفلات ولا تصوير ولا مسلسلات ولا
أفلام. الوقت يضغطنا وحياتنا تضيق ولا نستمتع بها

— صحيح نحن الذين نستمتع. يبدو أننا نعيش في نعمة من الفقر
والجوع والمرض

متي نذهب إلي شكرية؟ ليس لدي وقت أضيعه. لا أدري لماذا

أحسست بتغير حنان. لم تعد نظراتها لي أكثر جرأة. لم تعد نظراتها تمتلئ بنيران الشهوة كما كانت من قبل. لا أدري لماذا ساورني الشك بأنها هي التي تتصل بي من التليفون ذي الرقم المميز الذي يتكرر فيه رقم الستة خمس مرات. أردت أن أقطع الشك باليقين. أخرجت تليفوني المحمول من جيبتي واتصلت بالرقم. لقد سمعت صوت الجرس وانتظرت أن أسمع صوت هاتفها يرن ولكني لم أسمع شيئاً. قفلت الخط بسرعة. لقد ظلمتها. ليست هي التي تحاول الاتصال بي. لاشك أنني كنت محقا في الاعتقاد بأن سارة العسكر هي التي تتصل بي. قامت حنان من علي السرير ورشفت آخر قطرة من الشاي وقالت لي وكأنها تريد أن تخبرني بأننا يجب أن ننصرف:

— أريد أن أعترف لك باعتراف قبل أن نذهب إلي شكرية

— تفضلي

— لم أعرف الحب في حياتي قط إلا معك. لازال طعم قبلك في فمي. أتذكر هذه القبلة يا عبدالله؟ لاشك أنك تذكرها. لقد قرأت وصفك لهذه القبلة في دفتر محاضراتك. لقد اغتصبتك منك وبيدو أنها أثرت فيك لدرجة أنك كتبت عنها ما يقرب من صفحة.

— لا أصدق. أنت نجمة وكل المعجبين حولك. يبدو أنك قد تزوجت

— لا. لم أتزوج بعد.

— غريبة

— لا أؤمن بالزواج ولازلت آنسة. لن أسمح لنفسني بالزواج إلا منك

— طلبت منك الزواج ورفضت

— كنت مغفلة غبية. ليتنا تزوجنا

— لم يكن هذا من الممكن. لم يكن طريقنا واحدا

— ليتني ما دخلت طريقي

— معقول؟! النجمة الكبيرة والفنانة العظيمة والراقصة المبدعة

— لا تسخر مني.

— هل لديك أولاد؟

— أقول لك لم أتزوج. لقد تزوجت الفن. لدي مدرسة في الرقص

ولدي أتباع ومريدون

— الوقت يسرقنا

— إن شكرية محظوظة بك. يبدو أنها فقيرة مثلك. ماذا فعلت لتكون في السجن؟

— كم في الحبس من المظلومين!!

قادت السيارة بنفسها وبنفس التهور الذي كان منها في المرة الأخيرة للقائنا. أيعقل أن أراك ثانية يا شكرية؟ كانت حنان تنظر إليَّ في تعجب. كأنها تريد أن تسألني عن شكرية تلك التي انتزعت مني حب سارتي. أخبرتني أنها تعد من الخطيرات. إنها في سجن انفرادي. تعجبت أن تكون شكرية محامية وتقع تحت طائلة القانون. أخبرتني أنها تريد أن تري شكرية. تريد أن تري تلك التي طلبت مساعدتها من أجل أن أراها. إنك تحبها يا عبدالله. هكذا كانت نظراتها تخبرني بما تود أن تقول.

وصلنا إلي السجن. رحب بها مدير السجن. نظر إليها الضباط والجنود وهم في غاية الانبهار. ما الذي يأتي بحنان عزت السيد الراقصة المشهورة إلي السجن. نظرت إلي الخلف بسرعة وأمسكت أحد الجنود ثم صفعته. تعجبت وتعجب أحد الضباط. يبدو أنه أراد أن يلمس مؤخرتها عن عمد. صرخت قائلة: «أيها الحيوان كيف تجرؤ علي هذا؟» اغتالطت وكادت أن تبكي. حاولت أن أهدئ من روعها. أخبرتني أنها حزينة لأن هذه المواقف تتكرر لها كثيرا. بكت وقالت إن الناس لا يرون فيها إلا رمزا من رموز الجنس والإغراء. لن أرد عليها. أنتم الذين أعطيتكم الناس الإحساس بأن هذه هي الحياة بالنسبة لكم. هل تظنين أن من يراكم علي الشاشة بالطريقة التي تظهرون بها سيعتقد أنكم من القديسين والصالحين والشهداء. رجت الضابط أن يسامح العسكري وألا يعاقبه. ما هذا الحنان الذي يفيض به قلبك؟

أخبرنا أحد الضباط أنه يفضل أن نظل في غرفة مدير السجن وأن يتم استدعاء شكرية إلينا ولكنني رفضت. أريد أن أذهب إليها بنفسني ولو زحفا. لقد قرأت رسالتها جيدا. وددت أن أبصق علي كل من في السجن. ألا يزال الإنسان يعذب الإنسان في هذا الزمان؟ ما السبب ولماذا؟ الحيوانات لا تعذب من يكون من نفس فصيلتها. دخلنا في بهو كبير. ومنذ أن دخلنا من هذا البهو ولم يقابلنا سوي

النساء اللاتي يرتدين ملابس الشرطة. لم نجد رجلا واحدا. أدركت أننا دخلنا قسم السجينات.

اقتربنا من الغرفة التي تحبس فيها شكرية. شعرت بالخوف وارتجف قلبي. أحسست وكأنني سأسمع صراخ اللاتي يُعذبن. سأسمع تأوهات السجينات.. سراديب تحت الأرض. الإضاءة خافتة ونكاد أن نصاب بالعمي. أري إحساس حنان بالنفور ونحن نتقدم من الرائحة العطنة. طلبت منها أن ترجع وتنتظرنني في مكتب مدير السجن ولكنها أصرت أن تري شكرية. أهذه حياة يمكن أن يحيها المسجونون؟ أين حقوق الإنسان؟! لقد أخبرتنني أن التعذيب في السجون قد عاد وبأشع ما يكون.

فتح باب الزنزانة وأحسست كأن باب الموت يفتح لأدخل منه. دخلت وكلتي شوق ولهفة لأطمئن علي شكرية. كانت تنام علي الأرض. ما أن اقتربت منها إلا وأحسست بها تتأوه وهي نائمة. كانت تنن وتبكي ومع ذلك لم تكن تتحرك. كانت تبدو لي وكأنها متخشبة متصلبة في مكانها. سألت دمعاتي رغما عني. لقد رأيتها شاحبة مصفرة الوجه. اقتربت مني حنان ونظرت إليها في فزع. رأيت آثار جروح وندبات في وجهها. يا إلهي!! هناك جرح غائر وعميق في جبهتها لم تغلح آثار الخياطة في إخفائه!! شعرت أنني أود أن أصرخ قائلا: «ما الذي فعلته من أجل كل هذا التعذيب؟ هل سرقت أموال الشعب ولعبت بمقدراته؟ كل من سجنوا خرجوا براءة. لماذا لا تخرج شكرية براءة أيضا؟»

كدت أصرخ بالفعل لولا أن حنان وضعت يدها علي فمي قائلة في همس:

— لا تجعلني أندم علي ما فعلته من أجلك. تمالك نفسك. أعرف أنك تتألم من أجلها. لماذا تقحم نفسك في مجال السياسة؟ مسحت دموعي. لقد تغير شكلها تماما. تري ما الذي حدث لك يا شكرية؟ أكنت أعيش حياتي ولا أحس بمعاناتك وأنت بالسجن؟ حاولت والله أن أصل إليك. بحثت عنك كثيرا وقدمت بلاغا لمعرفة ما الذي حدث لك. سألتني نظرات حنان سؤالا لم تقله. أهذه هي شكرية التي أحببتها وخطبتها يا عبدالله؟ أخذت بيدي وأرادت أن

تبعدني عن شكرية ولكني أزحت يدها. همست حنان في أذني :
 - إنهم يعدونها خطيرة يا عبدالله. أتعلم أن مساعد وزير الداخلية
 أخبرني أنها قد يحكم عليها بالسجن المؤبد أو بالإعدام؟
 بدأت شكرية تتحرك. تراجعت حنان إلي آخر الزنانة ووقفت
 تراقبنا في فرع انحنيت تجاه شكرية وأمسكت بيديها أقبليهما. تحسست
 جبهتها فتحت عينيها ببطء ثم سحبت يدها اليمنى مني بعنف
 ورفعتهما وكأنها تريد أن تتقي ما ظنت أنه سيوجه إليها من ضربات.
 جلست بعد أن قامت من رقدتها. يبدو أنها تنبهت تماما
 لوجودي. نظرات عينيها وكأنها تريد أن تعاتبني ولقد سمعت من
 نظراتها ما يكفيني. اطمئني يا شكرية. اطمئني يا حبيبتي. أنا
 معك. أنا بجوارك فعلا. لقد تلقيت خطابك. أخذتها في أحضاني
 وأنا أبكي. لا أستطيع أن أكتم دمعاتي وآهاتي وآلامي لما يحدث لك.
 نظرت إلي بعد أن ابتعدت عن أحضاني برهة ثم بدأت تصلح
 من شعرها. اعتدلت في جلستها ونظرت إلي بحب واضح فلم أستطع
 أن أكتم صرخة خرجت رغما مني ممتزجة بدموع نزلت رغما عني
 مدرارا من عيني تشعان بالظلم والإحساس بالعجز.
 أخذتها في حضني ثانية وعلا صوت نحبي. احتضنتني بشدة
 وأحسست بدموعها وأاناتها. ربت علي ظهري وقالت :
 - اطمئن يا عبدالله. أنا بخير. صدقني أنا أقوي مما كنت أتخيل.
 لم يحدث لي أي مكروه. والله العظيم أنا بخير. كنت أعتقد أنني
 سأضعف وسأنهار وأطلب العفو والسماح لأخرج من هنا ولكني
 مع الأيام ازددت صلابة وقوة. لم أعد أخاف. أكثر من مرة جاء
 الضابط شديد وحضر حفلات تعذيبي ولم أضعف. إنه لم ينس
 إهانتي له أمامك. أتذكر أول مرة التقينا فيها يا عبدالله؟ لقد
 كانت أسعد لحظات حياتي. بصقت علي وجهه أكثر من مرة.
 حتي في حفلات التعذيب بالكهرباء بعد اتهامي ظلما بالجنون.
 كان يطلب مني أن أتراجع ولكني لم أتراجع ولن أتراجع.
 أخذت أبكي بحرقة. قلت لها مواسيا وأنا أربت علي ظهرها :
 - لقد قتل الضابط شديد يا شكرية.

واصلت بكائي بحرقة لحالها الذي يقطع نياط القلب. ابتسمت لي في ثقة وقالت :

- الرجال لا يبكون يا عبدالله. الرجال يغيرون الدنيا.
- قرأت رسالتك يا شكرية
- ليتني ما أرسلت لك شيئاً.
- أتمني أن أكون مكانك هنا. سأفتدك بنفسي يا شكرية
- لقد عرفت الحقيقة ويجب أن أدفع الثمن. من يعرف يهتم ولقد أخذت جزاء المعرفة. نحن هنا خلف قضبان السجون نعرف كل شيء أما أنتم فتجهلون كل شيء ولا تعرفون أي شيء. أنتم السجناء ونحن الأحرار. كل شيء بثمن وليست الحرية بالمجان. أنتم في سجن كبير ونحن قد تحررنا من كل شيء والحمد لله. خبأت رأسي في حجرها. تحسست شعري ورأسي. كانت تربت علي صدري. قلت لها :
- أحبك يا شكرية.

- ابتسمت في مرارة وقالت :
- أخيراً قتلها يا عبدالله !! كنت أتمني أن أدفع كل عمري ثمناً لأسمع هذه الكلمة منك يا عبدالله
- أنا نادم لأنني لم أقلها لك بلساني. يبدو أننا لا نشعر بالحب ولا نعيشه أبداً في الوقت الصحيح. دائماً ما يأتي الحب في الوقت الخطأ. لقد قلت لك أحبك بنظراتي عندما أوصلتك لببتك ونظرت لي من البلكونة في ليلة كان القمر فيه بدراً وكنت بدر حياتي. ليتنا تزوجنا وما اختلافنا. أنا حزين لأنني غضبت منك في نفسي عندما اعتقدت أنك تريد أن تتحكمي في حياتي بدعوتك لي إلي العمل معك في المصنع وترك مصنع سارة العسكر. أحبك الآن أكثر يا شكرية

- سارة العسكر أساس كل بلاء. لقد حذرتك منها في رسالتي سكتت شكرية برهة وكأنها تذكرت شيئاً ما وقالت :
- كيف وصلت إلي؟ لقد قالوا لي إن الذباب الأزرق لن يعرف لي طريقاً.
- وصلت إليك بطريقي. لو كنت في آخر الدنيا لوصلت إليك
- كيف حال والدتك؟

لم أقدر علي الإجابة علي هذا السؤال. هل أخبرها بأني لا أعرف طريق أُمِّي؟ هنا تدخلت حنان واقتربت منا وقالت:

— وقت الزيارة المسموح لنا أوشك علي الانتهاء.

فركت شكرية عينيها وسألتني عن هذه المرأة. لما اقتربت منها أدركت أنها حنان عزت الراقصة المشهورة بان عليها الغضب. نظرت إليّ وقالت مستنكرة في تساؤل:

— أهذه التي استعنت بها لتصل إلي؟ أوصل بك الأمر أن تستعين بأمثال هذه لتصل إلي؟ أهذه التي توسطت لك حتي تراني؟ حسبي الله ونعم الوكيل.

ضربت حنان الأرض بقدميها في غضب. أخبرتها أنها زميلة سابقة لي من أيام الدراسة. ما هذا المأزق الذي وقعت فيه؟ حاولت أن أهدئ الجو قليلا فقلت لشكرية:

— ما أخبار والدك؟

— أخبرني أنت عن والدتك

— لقد خطفت يا شكرية

— وهل ستسكت؟

— ماذا بوسعي أن أفعل؟

— علي رأيك ماذا سنستطيع أن نفعل وقد اختطفوا منا ثورتنا. ماذا لو اختطفوا حياتنا؟ ماذا لو قطعونا ورمونا في الشوارع كالكلاب. لا حيلة لنا. لا فائدة. لن نفعل أي شئ ولن يجدي شئ.

— إياك واليأس

— سارة العسكر هي التي خطفت أمك يا عبدالله

— هل أنت متأكدة؟

— مئة في المئة. وسارة العسكر هي السبب في وجودي هنا.

لم تكذب تنتهي شكرية من كلماتها إلا وكانت سارة العسكر تخطو داخل الزنزانة. ارتفع صوتها قائلة:

— نعم. أنا السبب في كل هذا يا شكرية. هل كنت تريدني مني أن أقف مكتوفة الأيدي أتفرج عليك وأنت تهدمين كل ما بنيته في سنوات عمري السابقة؟ أكنت تتوقعين أن أترك لك كل شئ قمت به وأن أدعك تدكين مستقبلي؟ لن أدعك تضيعين

كل جهدي. سيصدر عليك الحكم بالإعدام خلال أيام. أنت أضعف من الضعف ذاته. أنت لا تعرفين من هي سارة العسكر. استبد بي الذهول من صدمتي. لم أكن أتوقع قط أن أرى كل خيوط الماضي والحاضر تتشابك أمام عيني. كانت نظرات سارة تنطق بكل معاني الثقة والتحدي في حين كانت نظرات شكرية تنطق بالأمل. كنت حائراً بنظراتي بينهما في حين اقتربت مني حنان عزت فاعرة فمها غير مصدقة مثلي تماماً ما حدث.

الحلقة السبعون

الميلاد

ها أنا ذا أسمع صوت آذان الفجر يرتفع عالياً في أذني ويتردد صدها في قلبي وروحي ليخترق سكون الكون بقبسات من نور ذكر الله. كنت أشعر بأن أصداً صوت المؤذن تعلو ليفض ظلمات الليل ويزيل غشاوة السكون الذي كنت أعيش فيه. عليّ أن أخرج من رحم النوم. عليّ أن أتأكد من أنني سأخرج من ظلمات ليل الضلال والظلم إلي نور عالم المعرفة والعدل وأضواء الثورة التي تتفجر من داخلي والتي رأيت ظلالها وآثارها بعيني في وجه شكرية وثباتها. سيتمخض رحم هذا الليل لأولد من جديد. سيكون ميلادي من جديد صعباً كما كان ميلادي الأول صعباً.

أخبرتني أمي أنها عانت طويلاً في ميلادي. كنت ابنها البكري. أنا الآن ابنها كما أنني ابن الغضب الذي استبد بي لحال شكرية وما رأيت. إنني أيضاً ابن الحزن الذي أصابني بسبب اختطاف أمي ووقوف عاجزاً لا أستطيع فعل أي شيء تجاه هذا الأمر. أنا ابن القهر الذي أصابني ويصيبني دوماً بسبب كل الإحباطات التي أصاب بها ولا أستطيع أن أغير شيئاً. أشعر بمخاض الولادة ينتج ألماً في كل جزء من جسدي. سأفتح عيني. سأتحرك من قيود طالما كبلت بها نفسي وقيدت بها تفكيري. عليّ أن أقطع الحبل السري لأنطلق إليك أيتها الحياة. سأصرخ وأمزق كل عوالم الظلم بصرخاتي. الله أكبر الله أكبر تزيل عني غبار الوهن والكسل فأنتنفخ. لم أنم

سوي ساعتين فقط أو أقل منذ أن عدت من لقائي بشكرية أمس. أي ظلم هذا؟ لقد دارت معركة حامية بين شكرية من جانب وحنان وسارة العسكر من جانب آخر. وقفت حائرا لا أستطيع أن أتحيز لأي جانب. انتهي الحال بأن أتت ثلة من الشرطيات وقمن بصعق شكرية بالهراوة الكهربائية فانتفضت قليلا ثم سقطت علي الأرض بلا حراك. تألمت لسقوطها وشعرت أنني أنا الذي وقعت. ماذا بيدي أن أفعل؟ أيعقل أن تكون سارة العسكر وراء كل هذا؟ ما الذي أتى بها في هذا الوقت؟ لا شك أنها قدرتي. إنها تتبطني في كل مكان.

أتلطف بالشهادتين وأهرع مسرعا وأقف علي قدمي سعيدا فرحا بأن الله قد وهبني نعمة الحياة من جديد بعد أن غصت في بحار من الموت وسكراته قبيل النوم. وقفت لأستعيز بالله من شر شياطين الإنس الذين رأيت شرورهم بعيني. الحمد لله الذي أحياني بعد ما أماتني وإليه النشور.

أكنت ميتا طوال هاتين الساعتين؟ لا. لقد كنت ميتا طيلة سنوات عمري السابقة لا أري شيئا ولا أفهم شيئا ولا أحس بأي شئ. كنت كالأنعام بل أضل سبيلا. كنت لا أهندي حيلة ولا أري معالم الطريق واضحة. لماذا أعده موتا؟ يمكنني أن أحسب طيلة الفترة السابقة علي أنها ما قبل الاستعداد للميلاد الجديد. كنت أتبع السبل فتتفرق بي كما تفرق أمري. لم أكن أضع قدمي قط علي بداية الطريق الصحيح. لقد أفقت علي مر الحقيقة وصحوت علي قسوة الظلم والآلام وفتحت عيني علي كبد المعاناة.

كنت أردد الآذان. لا حول ولا قوة إلا بالله. الصلاة خير من النوم. الحياة الجديدة التي شعرت فيها بميلادي بعد زفرات الدنيا من حولي خير من الموت. أفق يا عبدالله يا مصري. لقد رأيت ما يكفيك. الله أكبر الله أكبر. الله أكبر من كل شئ. لا إله إلا الله القوي المتين العلي الجبار المتكبر المنتقم. الله سينتقم لنا وسيأخذ لنا ثأرنا. الله أكبر منهم جميعا. الله أكبر من سيوف الظلم وأسلحته وسينصر من علي حق ولو كانوا قلة مستضعفين. لقد انتصر أهل بدر علي قلتهم مع كل جبروت أهل الباطل. الله أكبر مهما علا صوت الباطل وارتفع. وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل

كان زهوقا. همسة ربح من أصوات أهل الحق ستدك كل صرح الضلال وتهدم كل عروش الظلم وتقهقر الظالمين وتردع المعتدين. نخلد إلي الراحة وننتظر عدالة السماء؟ أي خطأ في هذا المنطق الغريب العجيب. نم يارجل. لتغفل عينك قليلا. نم برهة لتستريح. ساعتان من النوم لا يكفيانك. لديك عمل في الصباح وتحتاج إلي الراحة. تثناءبت وجرني الشيطان إلي سريري مرة أخرى. تفلت عن يميني وعن شمالي ثلاثا واستعذت بالله من شر الشياطين ومن شر همساتهم ومسههم وغمزهم ولزهم. وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون.

أتريد أن تكمل النوم في سريرك الدافئ وشكرية والآلاف من أمثالها ينامون علي الأرض ويلقون من العذاب أصنافا؟ لقد دفعت ضريبة المعرفة. أنت قد عرفت الآن وعليك أن تدفع الثمن. لقد كشفت لك كل الأوراق. لم يعد بينك وبين الحقيقة أي ستار. لقد كشفت عنك غطاء الوهم ونزعت عن عينيك حجب الباطل. لقد رأيت كل شيء علي حقيقته فبينت لك كل الأمور.

برهة ولحظات قليلة يمكنك أن تنام فيها. أنت متعب منهك القوي وخاصة بعد كل الذي مر بك منذ ساعات. ليس من الضروري أن تصلي في المسجد. نم قليلا. ستنام لتريح جسدك المتعب وعقلك المنهك وستقوم لتصلي الصبح قبل أن تشرق الشمس. لن يفوتك الفجر حاضرا. أنا أعدك وثق بي. لن أثق بك أبدا. تعدني وتمنيني وما تزيدني إلا خسرانا مبينا. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. قم وكسر كل أصنام الضلال واهدم خوفك وزلزل عروش الطغاة الظالمين. أنا وحدي وليس بيدي ما أفعله. محمد بسيوني وأنور حسان صارا ضدي. الظلم كل أهله ملة واحدة والكفر سبيله معروف والمنكر واضح والحق مضطرب أهله وضائع طلابه ومتعطل مريدوه. كدت أستسلم للنوم ولذاته لولا أن رن جرس هاتفي المحمول. من يتصل الآن. من يريدني في هذه اللحظات العصيبة. لأزلت أولد. لم أتمكن من الخروج من رحم ضعفي وخوفي وشكوكي وهلوثتي وحديثي مع نفسي.

وقفت وأمسكت بالهاتف.

إنه نفس الرقم المميز. خمس ستات بهذا الرقم. ألو. لا أحد يرد كالعادة. هي سارة العسكر بلا شك. ما الذي تريده مني هذه المرأة الظالمة؟ نعم إنها ظالمة. أرادت أن تدمر شكرية لأن شكرية تريد أن تهدم كل ما بنته سارة. كيف هذا؟ شئ غريب. هل يعني هذا أن سارة هي التي دبرت كل هذا؟

لن أرد عليها لو اتصلت ثانية. سأغلق الهاتف.

لا أدري لماذا دار ببالي أن أتصل برقم المحامي الذي ذكرته شكرية في خطابها. أتااني صوته مليئاً بالنعاس. قال في كسل:

- ألو. أهلا بتليفونات الفجر
- أهلا وسهلا يا أستاذ. آسف لإزعاجك
- جميل أنك أيقظتني لأصلي الفجر. عليّ أن أشكرك علي كل حال
- الشكر لك أنت يا أستاذ. من معي؟
- عبدالله المصري.

لم أكن أتوقع أن يتحول حال المحامي الذي اتصلت به إلي هذه الدرجة بمجرد أن لفظت باسمي. رحب بي وتغيّر حاله وأحسست أنه قد تيقظ تماما. أتااني صوته في جدية:

- أهلا وسهلا بك. يا مرحبا بالرجل الذي أبحث عنه منذ فترة طويلة. أهلا وسهلا بك يا عبدالله يا مصري.
- أهلا وسهلا بك يا أستاذ. ..
- اسمي الأستاذ ضياء توفيق.

— أهلا وسهلا يا أستاذ ضياء. طلبت مني شكرية في خطابها أن أتصل بك.

— أخيرا وصلك خطابها!!

— الحمد لله

— مبروك عليك يا أستاذ

— مبروك؟ علي أي شئ تبارك لي؟

— لقد كتبت لك الأستاذة شكرية صبري كل شئ تمتلكه. أين أنت

يا رجل؟ لقد قلبت الدنيا عليك. أخيرا ظهرت!!

— كل شئ تملكه؟!!

- نعم وطلبت نقل كل أموالها بالبنوك إلي حسابك.
- حسابي؟ ليس لي أي حساب بالبنوك. أنا أفقر من الفقر نفسه يا أستاذ
- لقد صرت مليونيرا يا أستاذ. لقد فتحت لك حسابا وأودعت به كل مالها. جميع العقارات والأماك انتقلت إليك. مبروك عليك يا أستاذ. فيلا السادس من أكتوبر وفيلا مارينا وعشرة أفدنة زراعية بالشرقية. كل مالها آل إليك.
- معقول؟! آه. معقول. سبحان الله. ملك الملوك إذا وهب فلا تسألن عن السبب. يمكننا أن نلتقي بعد غد.
- سأكون في لندن بعد عودتك يمكنك أن تشرفني في أي وقت.
- أغلقت الهاتف. انتابني خدر لذيذ وكدت أعود إلي فراشي ثانية لولا أنني سمعت أصوات علي باب الشقة. يبدو أنني لأزلت أهلوث. سأهرع إلي فراشي.
- غفلت عينايا لحظة ولكنني أفقت في فزع علي صورة جبهة شكرية وأثر الخياطة فيها وجرحها الغائر وكأنها تستغيث بي. لقد أمسكت بسارة العسكر بكل عنف ولكمتها رغم حالة الضعف والهزال والإعياء التي كانت عليها. شدتها من شعرها بكل قوة بعد أن أخبرتها أن الحكم بإعدامها أو سجنها المؤبد سيصدر قريبا. لم تكن تتوقع سارة العسكر مثل هذا السلوك منها. لقد انقضت شكرية علي سارة العسكر عندما رأتها كقط جائع مفترس يكاد أن يموت جوعا. لقد بركت فوقها تماما وأوسعتها عضا وضربا.
- كنت في حالة ذهول تام مما أري.
- تدخلت حنان لتنقذ سارة العسكر من يد شكرية ولكنها لم تستطع وأوسعتها ضربا هي الأخيرة. أية قوة هذه التي قد دبت فيك يا شكرية؟ لماذا لا تؤثرين السلامة. كادت تمزقهما بأسنانها وهما يصطرخان من الألم.
- غفلت عينايا. أحس بأنفاس أمني. لتهرب إلي الحلم أيها الخائب الضعيف. لقد اختطفته سارة العسكر. نم. لست رجلا يا عبدالله.

شكرية أفضل منك. أنت لم تواجهه ولم تجابه الظلم والطغيان بعد ولن تواجهه. أنت أضعف بكثير. لازلت تسير بجوار الحائط وتؤثر السلامة وتسير في ركاب الخوف والجبن.

ماذا ستفعل لو قتلت سارة العسكر أمك؟ لا شيء. لا. لن تقتل أمي. ستقتل شكرية. التهم جاهزة والأحكام معدة مسبقا. ما أسهل تلفيق التهم في هذه الأيام. البلد مضطربة والحالة غير مستقرة. الكاذب يصدق والخائن يؤتمن. الحقيقة لم تعد واضحة المعالم للجميع. الناس يتخبطون. لا أحد يعرف حقا من المصيب ومن المخطئ. ماذا ستفعل لو قتلتك سارة العسكر؟ إنها تتربص بك. لقد همت بك أكثر من مرة وسعت إلي افتراسك ولم تستطع فعل أي شيء إلا الهروب. إلي متي سوف تهرب؟ أيمن لك ألا تسافر معها؟ أنت أضعف من أن تخبرها بهذا. سأسافر معها من أجل أمي. كذاب. أنت كالجميع ضعيف أمامها. لقد كنت ترفضها لأنك كنت تشعر بالإهانة لك ولطبقتك. تريد أن تشعرها أنها لم تمتلكك تماما. تريد أن تكون واحدا يشغلها ويقول لها لا ولو لمرة واحدة. أنت غبي يا عبدالله المصري. إن سارة العسكر لا تخجل مما تفعله بك ومن تحرشها بك. لقد راودتك عن نفسك مرات عديدة وكنت تهرب في كل مرة. ليس أمرك بسر. إن حنان علي معرفة تامة بكل ما تفعله بك سارة العسكر. يبدو أنك أحقر من أن تهتم بك سارة العسكر. إنها تريد أن تذلك وأن تهينك. تريد أن تغتصبك. لقد ضحكت حنان وقالت: «يعجبني صمودك ولكنني أخشي أن تنهار مقاومتك علي بوابات لندن». لقد صرت مزحة تتندر بها سارة العسكر مع حنان. أنت إنسان رخيص. نم يا عبدالله قليلا.

سأنام. تغفو عيني ولكنني أفيق لأنني أشم رائحة أمي. هذه رائحتها ورب الكعبة. أقسم بالله أن هذه رائحة أمي التي أعرفها جيدا. يمكنني أن أشمها من علي بعد عشرات الكيلوات. قمت وفتشت الشقة ولكنني لم أجدها. لا شك أنك تحلم. أنت خائف جبان متردد. أنت تحلم حتي وأنت متيقظ. لا. لست جباناً. لقد حاولت أن أجابه الظلم والفساد والضلال

بطريقتي الخاصة. لست علي استعداد لأواجه جحافل الظلم ونيران الشياطين. شكرية إذا أفضل منك. الكل أفضل مني. أنا ضعيف يا سيدي. هل استرحت؟ دعني أنام.

سأنام. ستهرب أيها الجبان. سأهرب سأهرب. دعني. سأضع جنبي علي السرير وأحتضن وسادتي لأنام. أري في الوسادة وجه شكرية الصبوح المحب. لا. أري فيها سارتي الحبيبة وحب العمر. تختلط صورتيهما. تبرز لحظة في خيالي سارة العسكر بشهواتها المتقدة والمضطربة ورغبتها فيّ وعنجهيتها وسلطتها وتأكدها من أنني سأستسلم لها. إنها واثقة من هذا ولذا تضحك. أكاد أغيب في ظلمات النوم ثانية إلا أن صوت هاتفني المحمول يرن ثانية.

نفس الرقم المميز. تبا لك يا سارة العسكر. صحت:

— ألو. نعم يا سارة. أفندم. تحت أمرك.

لم أجد ردا ولكنني سمعت علي الطرف الآخر صوت المؤذن يقول الصلاة خير من النوم. لقد هدي الله سارة العسكر. إنها تدعوني للصلاة. معقول؟ لا شك أنني أحلم. أيهدي الله سارة العسكر وأمثالها. لا. لا يمكن أبدا. كانوا يقولون لو هدي الله حمار الخطاب وأسلم فلن يسلم عمر. لقد أسلم وأعز الله به الإسلام وصار عمر الفاروق. لا أدري لماذا أشعر بالكسل. سأنام. السرير يدعوني إليه ولا أستطيع أن أقاومه. أخرست هاتفني المحمول وأردت أن أنام هذه المرة ولكنني لم أستطع. أسمع يقينا صوت أقدام تصعد سلم بيتنا. وضعت الوسادة فوق رأسي. لقد تعبت من التفكير وحديث النفس. سأنام حتي ولو انتهي بي الحال أن أكون في صف سارة العسكر وأن أكون أحد جنودها. أتتني شكرية والدماء متجلطة علي وجهها. شكلها بشع ولا أستطيع النظر إليه. قالت لي في إعياء ممتزج ببسمة:

— هل بعث كل شيء يا عبدالله؟ هل بعثني؟

— لا. لا يمكن أن أبيعك ولا أعرف عن أي شيء تتحدثين

— المقاومة. هل ستستسلم؟

— ماذا تفيد المقاومة؟ لقد خسرت كل شيء

— ماذا خسرت؟

— خسرتك وخسرت أمني وخسرت مستقبلي. لقد ضاع كل شيء. لقد

- فازت حنان وأمثالها. ربحت سارة العسكر. مات الحق وانتصر الباطل. خسرت. صدقيني
- لا زالت أمامك فرصة إذا لم تخسر نفسك. لا زال أمامك باب الله.
- باب الله لا يغلق أبدا. إنه مفتوح علي مصراعيه دوما. إذا انتهت كل أسباب الدنيا فهناك أسباب الله.
- حتي نفسي قد خسرتها
- ليس هذا عبدالله الذي أحببته وتمنيت الزواج به. لا أعتقد أنك
- هش إلي هذا الحد
- ستعدمين أو تسجنين
- سأظل رمزا يا عبدالله.. سأحيا في نفوس من بعدي. سينتحر من قتلني. سأعيش وسيموتون. صدقني المعركة طويلة. قد نكون خسرنا جولة واحدة ولكننا لم نخسر المعركة بعد. لا تستسلم.
- الباطل دوما ينتصر. الشر له دوما القدرة علي الخداع وإحراز النصر. لقد هزمونا.
- ليس بعد. الموازين قد تنقلب في لحظة. الله غالب علي أمره
- نفسي أعرف من أين أتيت بهذه القوة
- الأمل في الله
- عن أي أمل تتحدثين؟ أين الأمل وقد ضاع كل شيء؟ أنا الأول دوما وقد انتهى بي الحال إلي أن أكون عاملا في مصنع. الجهل يسود والعلم يستتر ويختفي. الباطل علا فوق رقاب الحق.
- لا تتعجل يا عبدالله. تعال إلي. كن في طريقي.
- تبتسم لي وتمد يدها إلي. أحاول أن أمد يدي لها ولكنها تبتعد. غافلتها وقلت لها متسائلا:
- من أين أتيت بهذه الثروة التي قمت بإعطائها لي بهذه البساطة يا شكرية؟ من أنا حتي تهييني حصيلة عمرك؟
- أنت عبدالله المصري. خطيبي وحبيبي وملك عمري. إن رحمت أنا فأنت الباقي. هذا حقك. إننا نهب قلوبنا لمن نحب فكيف لا نهب أموالنا وثرواتنا لمن نحب؟ لو كان لي عمر ثان لأعطيته إليك. سأذهب يا عبدالله. ثق أنني أحبك. لا تصدق كل ما يقال بشأني أرجوك. تأكد من أن شكرية صبري كانت تحبك. الوداع يا عبدالله.

اهتم بنفسك. احذر من سارة العسكر. هذه وصيتي الأخيرة لك. هذه طرقات علي الباب أخرجتني من حلمي بشكرية. أف. اللهم طولك يا روح. أريد أنا أنام. قمت في تكاسل وتباطؤ واتجهت نحو الباب. نظرت من العدسة السحرية بالباب. لا يمكن أن أصدق. أوصلت بها الجرة والبجاجة إلي أن تأتينني في شقتي؟ لقد زادت الطين بلة. لن أفتح لها أبدا. لقد حذرتني منها شكرية منذ ثوان. إنها تأتي علي رائحة ذكر اسمها. أصوات مختلطة بداخلي. الأصوات عالية وكلية يتردد بين أن أفتح أو لا أفتح.

والله العظيم إنها سارة العسكر. لا تزال آثار الخدوش والندبات في وجهها. لقد خدشتها أظافر شكرية. لماذا أتت الآن وفي هذا التوقيت؟ دخلت الحمام وغسلت وجهي وعدت ونظرت ثانية من خلف الباب لأتأكد من أنني لا أحلم. إنها سارة العسكر. لقد أتنني وبمفردها. قالت من خلف الباب: «افتح يا عبدالله. أنا اعرف أنك بالداخل». فتحت الباب في دهشة. قالت لي وهي ترتمي في أحضاني بعد أن أشارت إلي وجهها:

— هل رأيت ما فعلته هذه المتوحشة؟
لم أرد وإنما أزحتها من أحضاني وأبعدت نفسي عن يديها. فركت عيني. قالت لي في محاولة متدلة:

— كيف كنت ستتزوج هذه المتوحشة؟ لقد كادت أن تقتلني. لقد ضربتني أنا وحنان ضربا مبرحا وبمفردها. إنها مفترسة. الحمد لله أنك لم تتزوجها.

نظرت إليها وطال صمتي. قالت لي:
— هل سأظل واقفة هكذا علي بابك؟ ألن تطلب مني الدخول؟ ألم تعدني بأن تتزوج؟ لقد قلت إنك فكرت بالزواج مني.

قالت لي وهي تظهر الغضب وتلوح بأنها ستنصرف:
— لا تصدق شكرية. إنها كاذبة. الحق عليّ لأنني أردت أن أوضح لك الحقائق.

— كيف تطلين مني ألا أصدق شكرية؟ أنت ظالمة. مفترية.
— أنا؟ أنا ظالمة؟ حرام عليك

— آه. أنت ظالمة. تظلمين الناس. تأكليين حقوق العمال في المصنع. لقد

ظلمت شكرية وألقيت بها في السجن. لقد اختطفتم أمي. تعاونت مع الضابط شديد ومن يحرسونك ويسهلون لك كل أمور. لقد رشوا القضاة من أجلك. ما الذي فعلته شكرية لتلقي هذا المصير؟ أنت تظلمني يا عبدالله. حرام عليك. سأضحى بكل شئ من أجلك. سبقتك شكرية.

— لا أفهم ما تقول. أنت تتعاطف مع العمال لأنك واحد منهم. لا آكل حقوق أحد. ماذا لو جاءت فرصة لأي عامل ليذهب في مصنع آخر ليعمل براتب أكبر من الراتب الذي أعطيه له. صدقني هذا بيزنس. أنت مسكين. عليك أن تري الصورة كاملة. لا تنظر للصورة من جانب واحد. أنا لست بهذه الصورة البشعة التي ترسمها لي. كل شئ يهون في الدنيا إلا نظرتك هذه لي. أنا أحبك. لست ظالمة. — لقد اعترفت بعظمة لسانك أنك لن تسمح لي لها بأن تدمر كل ما قمت ببنائه

— تريد أن تهدمني. تتفق مع العمال الذين يتم فصلهم من مصنعي فيسرقون مالي وترفع لهم قضايا كيدية ضدي وتطالب بتعويضات خرافية ضدي علي أساس أن فصلهم كان تعسفيا ولقد كسبت العديد من القضايا. القانون أعمي ولم يكن لينصفني. أنت لا تعرف إلا عيب المحامين وأساليبهم غير الشريفة لتحقيق أهدافهم. اتفقت مع أصحاب مصنع الغاربة لتدميرني. هل كنت ستتركها لو كنت مكاني؟ أنا لم أفعل لها شيئا. الحمد لله. بدأت رائحة فضائحها تفوح في كل مكان.

— لا أصدقك
— يجب أن تصدقني وعليّ أن أنصرف حالا. كانت لدي مفاجأة حلوة لك

نادت بصوت أقرب للرقّة. قالت: «يا أم عبدالله. يا ماما بهية يا حماتي العزيزة. تفضلي. هذا بيتك وهذا ولدك وهذه سارة العسكر زوجة ابنك».

اعتقدت أنها تمزح أو تستخف بي. قالت سارة العسكر مواصلة حديثها:

— شكرية انضمت إلي عصابة إرهابية. لقد اختطفتم هذه العصابة

- أمك. دفعت لهم فدية نصف مليون جنيه حتي أستردها لك يا
عبدالله. أنت لا تصدقني ولكن هذه هي الحقيقة
- لا شك أنك تمزحين
- يمكنك أن تقرأ هذه التقارير حول شكرية وعصابتها. أنت لم تر
شكرية علي حقيقتها. لقد صدقتها وهي الكاذبة وأنا البريئة.
- لا أصدق
- نزلت درجات السلم مسرعا إلي آخر درجة. أشم ريح أمي ولكني
لا أجدها. صعدت ثانية لأجد سارة تتجول في شقتي وكأنها قد
امتلكتها. وجدت سارة العسكر تبتمسم. قالت لي:
- أمك في الحفظ والصون
- أين أمي يا أستاذة سارة. إنني أشم رائحتها
- موجودة في السيارة في أسفل البيت
- لا تتلاعبني بأعصابي أرجوك
- قلت لك إنني حررتها من عصابة شكرية بنصف مليون جنيه
أخذت تبكي وتقول:
- أتدري أن أكثر ما أغضبني أنك لم تدافع عني ولم تخلصني من
يد خطيبتك السابقة. إنها فعلا لمجرفة
- ليس لي أي هم الآن إلا أمي. أين أمي؟
- تعال لننزل لأمك يا عبدالله. اطمئن أنا لا أكذب يا عبدالله.
- أخذت بيدي ونزلنا إلي أسفل بيتنا. رأيت سيارة سوداء. ميزت
بها أمي. ما أن رأيتها إلا وارتيمت علي أبواب السيارة. أخذت أمي
في حضني وكنت أبكي.
- أخذتني في حضنها. كانت صلبة هادئة. نظرت إلي سارة العسكر
بشكر. أفهمتنني نظراتها أن سارة هي التي حررتها فعلا. لا أدري كم
من الوقت قد مر عليّ وأنا في أحضانها. يبدو أن عمرا قد مر وأنا في
حضانها. شعرت أنني دفنت رأسي في صدرها وبللتني دمعاتي. ربتت
علي ظهري. أنا في غاية الخجل منك يا أمي. لم أستطع أن أفعل أي
شيء لأستردك. كانت عيناها تنظران إليّ بكل حب ولكنها لم تنطق
حرفا واحدا. قالت سارة العسكر:
- مبروك عليك عودة أمك.

صعدت مع أمي إلي شقتنا. أغلقت الباب وعدت ثانية إلي حضنها وأنا في غاية الذهول. طرقات علي الباب من جديد. دخلت سارة العسكر وقالت لي مبتسمة:

— غدا لدي مفاجآت سعيدة لك. غدا؟ لا اليوم. كلها ساعات وستكون في مكتبك الجديد بالمصنع. لقد عينتك المستشار الخاص بي. نظرت إليها وقلت وأنا في ذهول:

— أنا تحت أمرك. سأسدد كل ما دفعته لاستعادة أمي. شكرا جزيلا لك

— من أين يا حسرة؟! من جهدك أم من جهد فاسدة. شكرية امرأة فاسدة.

— شكرا لك وسأرد لك كل قرش دفعته لاسترداد أمي.

— لا أريد أي شيء إلا إسعادك. أنا أحبك يا عبدالله وستصير زوجي. لا فرق بين الزوج وزوجه. لا تشكرني يا عبدالله. عليك أن تصدقني فقط. الحمد لله أن الله قد أنقذك من يد شكرية هذه المرأة المتوحشة. أعرف أنك ستصدقني.

نظرت إليّ ورأيت الشيطان في كلماتها. تراجعت ظنا مني أنني أظلمها. والله لم أعد أدرك من الظالم ومن المظلوم. قالت لي وهي ترفع حاجبها الأيسر:

— من أين هبطت عليها هذه الثروة التي لم تستطع أن تثبت من أين أتت بها؟

اتجهت إلي أمي وقالت لها:

— حضرتك تعرفين أن لها فيلا في مدينة السادس من أكتوبر. وهذه صور لرصيد حساباتها في البنوك. أخبرني عبدالله أن من اختطفك أكد أنه من طرف شكرية وأنه كان سيذهب بك إليها. هزت أمي رأسها بالموافقة. ابتسمت سارة العسكر ابتسامة شيطانية وقالت لي والحقد يملؤها ويفيض علي صوتها:

— كل هذا كوم وهذا الملف كوم آخر. صور لها وهي في علاقاتها المشبوهة مع رجال القضاء الذين كانت تستعين بهم. في هذا الملف أيضا تجد صورا من مستندات بعض القضايا الخاصة بالدعارة والتي كانت متورطة فيها. احمد ربنا يا عبدالله أن الله قد أنقذك

من هذه المرأة الفاجرة. كيف كان يمكن لك أن تتزوج من هذه المرأة وأنت رمز للطهارة والبراءة؟! !

كانت كلماتها الأخيرة كافية لتهد جبال الحب التي بدأت بوادرها تطفو علي سطح قلبي تجاه شكرية. لقد دكت كل مشاعري تجاهها. لقد سعت إليّ لتخطبني وتزوجني. كانت تهرب من أشياء كثيرة ولكنها قد انكشفت والحمد لله. لقد جلست علي الأرض بجوار أمي. ابتسمت سارة العسكر وخرجت. أشارت إليّ فتركت أمي وخرجت معها. قالت لي سارة العسكر في هدوء ورقة وخب لم أعهده عليها من ذي قبل: - لقد فعلت كل هذا من أجلك يا عبدالله. أنا أحبك. لن أضغط عليك. لا تعتقد أنني أرجعت لك أمك لأمنّ عليك. لقد فعلت هذا لأن هذا واجبي تجاه من أحب. لك الحرية في أن تختارني أو لا تختارني. لك الحق في أن تسافر معي أو ترفض. أنا أحبك بكل ما تحتويه هذه الكلمة من معان. سأترك لك التفكير. عبدالله ثق بأنني أحبك. أنت الرجل الوحيد الذي أتمني أن أكون معه بقية عمري. أنت لا تعرف ما الذي فعله حبك بي. أنا مدينة لك بكل عمري. أتمني أن يكفي عمري لأسدد لك ما فعلته بي. لقد خلقت مني إنسانة جديدة تعرف معني الحب وتقدره. أرجوك أن تتم جميلك عليّ. لقد ولدت فعلا منذ أن رأيتك أول مرة يا عبدالله. أنا أحبك. أتمني أن أقولها لك بكل نبضة من نبضات قلبي. أتمني أن أقولها لك مرات عديدة في كل شهيق وزفير يخرج مني. ستكون سيد حياتي وسأكون لك كما تشاء. صدقني. أنت الشيء الجميل النظيف الوحيد في حياتي. أنت الوحيد الذي لم تتلوث ولن تتلوث. يكفيني أنني أحببتك. لن أضغط عليك في اختيارك. مهما كان قرارك فلسوف أحبك وأظل أعيش ما تبقي لي من العمر وأنا أهيّم في ظلال حبك.

يبدو أن كلماتها قد أثرت في ورققت قلبي. اقتربت منها. رفعت يدها تجاه فمي. أمسكت بيدها ونظرت لعينيها في حب لم أشعر به تجاهها من قبل. نظراتي لها تنطق بكل شكر. غمغمت عيناها بدمعات التأثير. قلت لها:

— لماذا حكيت لحنان كل شئ كان يدور بيننا؟ أقصد لماذا حكيت لها ما كنت تفعلينه بي يا أستاذة سارة؟
— كنت أظنك نزوة وستمر. أنت حياتي فعلا وأتمني أن تقبل أن تكون بها دوما. هي أيضا حكّت لي ما كان يدور بينكما وأكدت لي أنك أظهر من عرفت. ظننت مخطئة أنني سأفعل ما لم تقدر عليه حنان.

دخلت أمي الحمام لتتوضأ وتستعد لصلاة الفجر. نظرت لي أمي معاتبة وكأنها تريد أن تفهمني أن وقت الصلاة قد حان. تركت يد سارة العسكر. قالت سارة لي:

— يمكنك ألا تأتي للمصنع غدا. يمكنك أن تنام. أعرف أنك منهك الليلة. سنسافر غدا الأحد في الساعة الخامسة فجرا. لديك أقل من أربعة وعشرين ساعة.

— لن أنام. سآتي إلي العمل. لا أريد خصم أي يوم من المرتب
— المصنع وصاحبة المصنع وكل شئ لديها ملكك أنت يا من ملكت عمري وروحي وقلبي. لكم أحبك يا عبدالله.

انحنيت علي خدي وقبلتني. شعرت برعشة في جسدي.
سمعت المؤذن ينادي مقيما الصلاة لآداء صلاة الفجر. نزلت صوب المسجد ومشاعري متضاربة متناقضة. أحسست أنني أغلي. أحسست بأن خارطتي يجب أن تتشكل ويعاد تكوينها من جديد. يبدو أن كل شئ قد اهتز بداخلي. ركبت سارة العسكر سيارتها السوداء وانطلقت بسرعة. توقفت لحظة ثم أخرجت يدها من السيارة ولوحت لي بيدها ثم ألقت لي قبلة وأرسلتها في الهواء علي أمل أن تصل إلي. ابتسمت لي وابتسمت لها ثم اتجهت نحو المسجد والدموع تملأ عيني فأجذني أقول: «لا حول ولا قوة إلا بالله. يا رب لا يعلم الغيب إلا أنت. لا يعلم تقلبات الأمور سواك. وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير».

لقد ضاعت كل ملامح الطريق من تحت قدمي من جديد. لقد انقلبت كل الأمور من جديد. لا أعرف أين الحقيقة. يبدو أن كل ما يحدث لي كتلك التقلصات التي تحدث داخل بطن الأم في آلام المخاض. أتألم أيضا وأشعر أنني أولد من جديد.

لم تكتمل هذه التقلصات وهذه الآلام إلا وأنا في الطائرة وبجانبى سارة العسكر ونحن في طريقنا إلى لندن. كانت تمسك بيدي بكل حب. كنت أنظر إليها وأحس أنني علي أعتاب حياة جديدة أدركت أنني يجب أن أعيش فيها بعد ميلادي الجديد.

الحلقة الحادية والسبعون

الشئ المفقود

كانت بجانبى تلامس أناملى بأصابعها. استسلمت للمساتها لما أحسست بخدر لذيذ في جسدي وبرغبة عارمة تملكنتني في أن أقبلها وأن أعتصرها في أحضاني. لماذا لا أضاجع سارة العسكر وما الذي يمنعني من أن أركبها وأركب طبقته وأذيبها في وأذوب فيها؟ لماذا لا أمحو من ذاكرتي تماما أي أثر لكل الخلافات والأفكار المسبقة التي بذهني عنها؟ أصابعها تعبت بشعيرات صدري. لقد نجحت في إثارتى بنظراتها التي ترغب وتشتهي. مالت برأسها علي كتفي. شممت ريح شعرها المتطاير تجاهي. أمسكت يدي بكلتا يديها. أغمضت عينيها وأغمضت عيني والطائرة تقلع وتعلو فوق السحاب. وضعت يدها اليمني خلف ظهري ثم طوقتني بذراعها وقبّلت خدي وراوغت بشفتيها حتي كادت أن تصل إلي شفتي. لكم أنا محبط ويأس من هذه الحياة علي الرغم من أنني صرت ثريا وفي مصاف الأغنياء!! فلألتقم شفتيها ولأنهل من بئر جسدها ورغباتها. صرت أتخيل نفسي في أحضانها وهي شبه عارية أو عارية كما كانت أمامي ليلة حفلها في عيد زواجها وكما فعلتها مرة أخرى عندما ذهبت إليها بحثا عن والدتي. هذه هي سارة العسكر التي كنت تتمناها في البداية عندما كنت عاملا في مصنعها ودخلت لها أول مرة في مكتبها وكنت في غاية الانبهار وتمنيت لو أنك قبّلتها وحلمت لو أنك احتضنتها ووطأتها. لقد حلمت بها وظننت أنها حلما بعيد المنال وهاهي أمامك وملك يديك. ماذا يضيرني لو تركت لها نفسي؟ أنا لا أخاف منها الآن. لقد أصابتني بالذعر في أول مواجهة حقيقية معها عندما عادت من الخارج

وكانت كقط يتحفز بك. كنت متأخرا وخصمت منك ثلاثة أيام كما كانت رائحة فمك سيئة من أثر إفطارك الذي تناولت فيه البصل. إنها ترغب الآن في تقبيلك وترغب في أن تنهل من معين رجولتك وتغرق في ليلة ماجنة مليئة بأسرار جسدك وقوي رجولتك كما تشي نظراتها. إنها تشتتهك الآن بعد أن تمنعت عليها وأفهمتها أنك لست سهل المنال وأنها لن تلمس شعرة واحدة منك إلا بالزواج. لست فقيرا الآن. لم يعد هناك حائل بينك وبينها. لدي الكثير من الأموال والممتلكات ولكن من أين أتتك؟ من شكرية وأين شكرية؟ في السجن وقد يحكم عليها بالإعدام. ما مصدر ثروتها؟ لا يهمني. غسيل الأموال القذرة. مصطلح كنت أسمع عنه كثيرا. خيرا فعلت شكرية. إنها كانت سيئة ومع ذلك اختتمت علاقتها بي بخير ما يمكن أن تفعله المرأة مع الرجل في علاقة كادت أن تنتهي بالزواج. خسارة يا شكرية هذا الوقت الذي قضيته في التفكير فيك وخسارة هذه المشاعر التي أنفقتها من أجلك. أليست هذه هي المرأة بشكل عام؟ ماذا لو لم تكشف لك سارة العسكر عن حقيقة شكرية؟ لقد عرت ماضيها أمامك. لقد كشفت لك حقيقتها المرة. وأنا الذي كنت سأحزن وأقضي حياتي حزنا لأنها كانت تحبني. لكم أحببت غيري ولكم كانت في أحضان غيري. شكرية تتورط في قضايا دعارة!! ومع كل هذا شكرية أفضل مني. لقد عملت شيئا في حياتها. لقد غيرت حياتي وشكلت جانبا من مستقبلتي. إنها في السجن الآن. سيحكم عليها بالإعدام أو المؤبد ولكنها تواجه ما لم تستطع أنت مواجهته. حتي وإن كانت سيئة ألا يمكن أن تكون خاتمتها حسنة؟ ومن أدراك في الأساس أنها سيئة؟ الأوراق والملفات التي أتت بها سارة إليك؟ ومن أدراك بحقيقة هذه الأوراق؟ لماذا لا تضع في اعتبارك ولو لواحد في المئة أنها مظلومة. لقد ضاع الحق في هذه الأيام ولا نعرف المفسد من المصلح. ما أسهل تشويه الخصوم وما أيسر إلقاء التهم الظالمة علي الأبرياء. الأحرار في السجون والمذنبون خارجها يتمتعون بالحياة. الملف به الكثير من المستندات والأدلة. أين الحقيقة؟ لماذا بدت لي شكرية كبطلة تدافع عن الحق وتريد أن تطفئ مصابيح الظلام؟ أكل هذا لأنها معارضة تريد أن تدعو الجميع إلي الحرية؟ من يؤكد لي أنها علي صواب إذا كانت كل

أصابع الاتهام تشير إليّ جرمها؟ لمن كانت ستؤول كل هذه الأموال إذا لم تتركها لي؟ لقد آلت إليّ ثروتها حتي ولو كانت من حرام. المهم أنني قوي الآن وبالطبع لن أكون علي قدم المساواة مع سارة العسكر بأموالها ومصانعها. فلتعبت بأصابعي ولتفعل ما تشاء. ستكسب وسأخسر كعادتي في صراعي مع الحياة. ما قيمة العفة وما فائدة الصبر؟ ضربة حظ خير لي من كل ما اجتهدت به في حياتي السابقة. قيراط حظ ولا فدان شطارة. لقد فازت حنان. من يريد الفوز في هذه الحياة من الأفضل له أن يهجر الجد والعمل والمثابرة. لن يفوز إلا المحظوظون ولقد واثاك الحظ وأتتك الفرصة إليك. لكم كنت غبيا!!

مرت علينا مضيئة محجبة. كانت وضيئة الوجه غريبة الملامح. أحسست أنني أعرفها منذ زمان فلقد كانت هادئة الملامح جميلة القسمات. عيناها تمتلآن ببريق المودة وتشعان بنور الصداقة والقرب. أحسست بالخجل من موقفني وسارة العسكر تكاد تفرسني بلمساتها ونظراتها. إن سارة تكاد أن تظهر شهواتها تجاهي بنظراتها الجائعة وأنا في طريقي إلي السقوط في بئرها العميق. نظرت إليّ المضيئة وكأنها تستنكر مثل هذا السلوك. ابتسمت لي المضيئة في وقار ورقة فابتسمت لها وابتعدت قليلا عن سارة وسحبت يدها من يدي وأبعدت ذراعها عن ظهري. عينا المضيئة تبرقان بمثل البريق الذي كانت تبرق به عيني سارتي الحبيبة. سارة الماضي والحاضر والمستقبل. وجهها صاف رائق. سبحان الله. لقد رأيت فيها روح سارتي الحبيبة. سارة فؤاد حبيبتي. نظرت إليّ سارة العسكر وأصابني الاشمئزاز.

ابتعدت بشفتي وقلت لها وأنا أبعد فمها عن وجهي: «ماذا يقول الناس عنا؟» ابتسمت في حب وقالت: «لقد اتفقنا أن تكون لي بمجرد أن نغادر القاهرة. هل أنت كالصبيان وسترجع في كلامك؟ لكم كنت أنتظر هذه الرحلة بفارغ الصبر!! عبدالله ستكون لي. أليس كذلك؟ لقد تم الطلاق وسأصير لك. انتهيت من عبدالله البندري لأبدأ صفحة جديدة من عمري مع عبدالله المصري. رجل صعب. لا أعرف كيف كنت أتحمله طيلة السنوات الماضية».

قلت لها ساخرا:

— وأتي ليودعك في المطار؟

- عادي
- لا. ليس الأمر عاديا
- الأمر عادي جدا. لا يزال بيننا بعض الأمور المالية والكثير من المصالح. لدينا أيضا سفيان ابننا
- وأين سفيان؟
- في إحدى المدارس الخاصة بالمعاقين. إنه من ذوي الظروف الخاصة.
- هل كنت تحبين عبدالله البندري؟
- لا. أبدا. لم أحبه يوما قط ولم أحب ابنه.
- لا تحبين ابنك؟
- إنه من أبيه وأنا أكره هذا الحقير. لكم أنا امرأة تعيسة يا عبدالله يا مصري!!

أخذت تحكي لي قصتها وهي تبكي بمرارة. لقد كان عبدالله البندري لواء متقاعدا في الجيش ودخل إلي عالم رجال الأعمال. بدأ بمصنع واحد ثم تضخمت ثرواته نتيجة علاقاته المتشعبة بكبار رجال الدولة. رآها في حفل وأعجبته وأصر علي الزواج بها. أقسمت أنها شعرت أنه قد عراها بنظراته في أول ليلة رآها فيها. أبهرها بإصراره عليها بالرغم من فارق السن الهائل بينهما. ظنت أنه يحبها فارتمت في طريقه بعد أن خدعها ابن عمته الذي ضاجعها وفر إلي لندن بفعلته. لقد كرهت كل الرجال بسببه. أوهمها بحبه وبحنانه واهتم بها في البداية ولكنه انكشف علي حقيقته بعد أن فعل فعلته بها وقرر أن يسافر بعد أن رأي دموعها. قال إنه لم يضربها علي يدها. لقد تم كل شيء بينهما برضاها وليس غصبا عنها. بصق عليها ووصفها بأنها امرأة ساقطة. لقد تركت له نفسها بدون زواج. قال إنه لا يمكن أن يكون بأمان لأن فكرة أن تخونه بسهولة تطرق ذهنه باستمرار. لقد فقد الثقة فيها ونال منها ما يريد بكلمات معسولة فكيف يضمن ألا تتكرر هفواتها بعد أن يتزوجها. بصقت في وجهه وبصق في وجهها. واجهته وكانت متأكدة من أنه سيفر. أخبرني أنه قد يلتقيها أمامي في لندن. إنها إذا امرأة ذات ماض مؤلم. كنت أستمع وأنا في حالة ذهول. قالت إنها كانت تحب ابن عمته الذي تفتحت زهور أنوثتها علي لمساته وقبالاته وكلماته المتغزلة الحلوة وعباراته التي كان ينتقيها

ويزرعها في أذنيها صباح مساء. كان لا يترك مكانا تذهب إليه إلا وكان أمامها. سحرها بحبه وغمرها بعشقه. ألح علي قلبها وأثني عليها كثيرا أمام كل أفراد الأسرة. كان يراها أجمل من علي وجه الأرض. أول من فتح لها باب مدينة الجنس كان ابن عمتها. نهلت معه مما تشاء من طرقات هذه المدينة العامرة المجهولة لها وقت مراهقتها والتي لم تذق من ثمارها إلا علي يديه. أوهمها أنه لن يتركها أبدا. بدأ يتهرّب من لقاءاتها وأخبرها أنه بدأ يشعر بالذنب. بكى وأخبرها أنه يريد أن يتوب عن هذه العلاقة. طالبته بحقها فيه بالزواج ولكنه أخبرها أنه لا يحبها وأن الرجل لا يمكن أن يتزوج من امرأة سلمت له نفسها بلا زواج وبلا ارتباط. ذكرته بكلماته عن الحب. بكت قليلا وبكى كثيرا وأخبرتني بأنها تزوجت بعبدالله البندري نكايّة في ابن عمتها الذي خدعها. لقد سعت للتعرف علي حبيبة ابن عمتها الجديدة والتي أصر علي خطبتها والزواج منها بأسرع ما يكون. علمت سارة فيما بعد أن عبدالله البندري قد أغراها ونام معها وهي علي ذمة ابن عمتها. ضحكت ساخرة وقالت لي هذه هي الدنيا. عجيب أمر هذه الحياة. كنت في غاية التعجب وسألتها:

— وماذا فعلت أنت في مصيبتك؟

— أية مصيبة؟

— مصيبتك التي فعلها بك ابن عمتك؟

— آه. تقصد أنني لم أكن عذراء وقتها؟

— وهل هناك مصيبة أكبر من هذا؟ يبدو أن عبدالله البندري اكتشف

مصيبتك ليلة الدخلة

— لا. لقد أخبرته قبل الزفاف بأسبوع وضاجعني قبل الزفاف مرتين

ثم قال إنه ليس متخلفا ليفكر في هذه الأمور التافهة وضحك وقبّل

رأسي قائلاً إنه يحبني وسعيد أنني لم أخدعه بعملية لأغشه

— عملية؟ وهل يمكن إصلاح ما تم كسره؟ الشرف غال يا سارة.

عملية تعيد العذرية؟ أي غش وأية خديعة؟

— لا تكن متخلفا يا عبدالله. العذرية ليست في الجسد وإنما العذرية

في الفكر. لقد أحبني أكثر واشترط عليّ ألا أسأله عن ماضيه كما

طلب مني أن أتركه يفعل ما يحلو له فهو يعيش الخمر والنساء

ووافقت واشترطت عليه أن أفعل أنا أيضا ما أشاء ومرت بنا الحياة

- وقبل أن يتزوجك؟! يا له من غبي أحقق ديوث.
- وأنت قبلت الزواج بي وفكرت في أن تتزوجني وكنت تعلم أنني متزوجة ولقد نام معي عشرات المرات. لماذا تمنح لنفسك ما لا تقبله لغيرك؟
- لقد كنت متزوجة علي سنة الله ورسوله من عبدالله البندري أما ابن عمك فكانت علاقتك به.... أقصد أن هذه العلاقة كانت. .
- لا تكمل. لا تكبر المواضيع ولا تحملها أكثر مما ينبغي
- وهل خنت عبدالله البندري؟
- كثيرا. لقد خنته كما كان يخونني. إنه مولع بالنساء. حتي الخادومات لا يسلمن منه. كان يخونني باستمرار. لقد كان يحاول أن ينام مع بعض العاملات في المصنع. لقد ضاجع نهاد وأعطاهما شقة مقابل أن تنام معه ليلة واحدة.
- كدت أن أسب نهاد ولكني تماكنت نفسي. أهذه هي الشقة التي كانت تريد أن تغريني بها لأتزوجها؟ أيعقل أن يكون عالمنا بهذه الحقارة وبتلك الدناءة؟ لا تكبر الأمور ولا تعطها أكبر من حجمها. كنت ستتزوج شكرية وأنت لا تعرف أي شئ عن ماضيها وكنت تظنها خير النساء ولقد انكشفت لك كل الحقائق. عقلي سيتشتت. أشعر أنني سأجن. أهذه هي حقيقة الحياة وهذه هي طبيعة المرأة؟ حاولت أن أستدرك أمري وأعود إلي سارة وسألتها:
- وهل قبلت نهاد مثل هذه الصفقة؟
- نعم. لماذا لا تقبل؟ لقد اقتربت من الأربعين ولم تتزوج. ظروف الشباب صعبة ويمكنها اصطياد أي شاب يتزوجها في هذه الشقة
- هذا منطق غريب. ربنا يستر
- خطر بذهني همام الحفناوي وأدركت حجم المصيبة التي ألصقتها به. أنا الذي كنت العقل المدبر لخطبة نهاد لهذا الرجل الذي التزم مؤخرا. لقد أعطيته مصيبة إذا. والله هذا قدره. أن كان الخير له في أن يفسخ هذه الخطبة فسوف ييسر الله له أمره. صدق من قال من الأفضل أن تمشي في جنازة وهذا خير لك من أن تمشي في زيجة

لا تدري ما الظروف المحيطة بها. لقد ألحقت بلاء بهذا الرجل المسكين. لقد تاب ورفض أن يواصل عمله كجاسوس علي أصحابه من العمال بالمصنع لصالح سارة العسكر. كدت أضحك في سري. لعل نهاد تكون تكفيرا له عن ذنوبه فهي بغض النظر عن كونها غير جميلة فليدورها ماض تليد. ومن منا ليس له ماض؟ أنت يا عبدالله المصري قد كان لك من الماضي المؤلم نصيب غير منقوص. أتذكر أنك لا زلت تذكر أثر قبلة حنان؟ أتذكر أنك كنت قد تمنيت سارة العسكر بينك وبين نفسك؟ ألا تذكر قصة حبك التي لا تنتهي لسارتك وحبيبه عمرك سارة فؤاد؟ كنت تحبها وتفكر فيها علي الرغم من زواجها بأدهم الخربوطلي؟ من منا بلا ماض مؤلم؟ لماذا تنكر باب التوبة لكل من يخطئ والله يتوب علي من رجع له؟

كنت أفكر وأتذكر مقولة السيد المسيح من كان منكم بلا خطيئة فليرجمها. كلنا مخطئون. فليسامحنا الله. لماذا لا تسامح شكرية إذا؟ ولماذا لا تسامح سارة العسكر وتتزوجها إذا؟! صعب جدا أن تفكر بمنطق العفو والتسامح والأصعب أن تختار من الذي ستعفو عنه ومن الذي لن تقبل العفو له. جالت الأفكار بذهني بعد أن سكنت سارة برهة. عادت تواصل كلامها قائلة وهي تنظر في عيني: — إن عبدالله البندري كان يأتي أحيانا ببعض النساء في الفيلا وينام معهن علي علم مني ولكم تظاهرت كثيرا أنني لا أهتم. كنت أدع له الحبلى علي الغارب.

— حياة غريبة
— لقد نام مع حنان وأخبرتني.
— حنان الراقصة المشهورة وزميلتي السابقة بكلية الآداب؟
— آه. حنان زميلتك. لقد منحها ما يقرب من مليون جنيه وضاجعها علي فراشي. حكيت لي كل شئ عنك يا عبدالله يا مصري.
— أخشي أن أقول إننا نعيش في بيت دعارة كبير. لا حول ولا قوة إلا بالله. وأنت يا سارة هل كنت تسامحين نفسك عندما كنت تخونين زوجك؟ كيف كنت تنظرين لنفسك؟

لم ترد علي. سكنت قليلا. كنت في غاية التعجب مما أسمع. تري ما الذي حدث للدنيا وما الذي أصاب الناس؟ أشعر أنني

أسمع قصة مختلفة لم يكن لي أن أتخيلها أو أصدقها. فعلا الواقع قد يكون أحيانا أغرب من الخيال. تبا لك أيتها الدنيا فلکم أنت مليئة بالغرائب والعجائب التي لا تكاد تصدق ولكنها تحدث حقيقة مع كل هذا. نظرت إليّ سارة قليلا وترددت لبرهة ثم قالت وهي تضع عينيها في الأرض ولا تستطيع مواجهتي:

— خنته مع أقرب الناس إليه. نمت مع سيف غرس الدين وندا وبعض العاملين بالمصنع ثم كنت أطردهم بعدها. غرس وندا توسلا لي أكثر من مرة وأقسما أكثر من مرة أن يكونا تحت قدمي وأكدا أنهما يحباني حبا جما لا مثيل له. خنته أيضا مع بعض من كان يعمل في الفيلا كالطباخ والسفرجي ولقد ضبطني أكثر من مرة وضبطته أكثر من مرة. صار لا يلومني ولا ألومه. أنتما مناسبان لبعضكما البعض.

— ماذا تقصد؟

— لا شيء.

— أنت الوحيد الذي قلت لي لا يا عبدالله. أنا أحبك. صدقني يا عبدالله. كثيرون يتحدثون عن الشرف وعن الأخلاق وهم في الحقيقة أبعد ما يكون عنها. أنت الوحيد الذي أحسست فيك بمعني الشرف والأخلاق. كنت أعتقد أنك لا يمكن أن تكون بكرا في زمان فقد فيه الكل عذريته وطهارته.

— وأنا لن أتزوجك يا سارة أبدا وآسف لأنني فكرت في الزواج بك. لقد نمت مع كل الناس تقريبا وإن تزوجتك لا أدري هل ستواصلين حياتك وتنامين مع غيري أم لا.

— هل ستتركني لأنني صارحتك بالحقيقة؟ لم تصارحك شكرية بماضيها وكنت ستزوجها يا عبدالله. الدنيا كلها تتغير فلماذا لا تتغير أنت أيضا؟ أنا أحبك. أعدك ألا أكون لغيرك أبدا. تغير من أجلي أرجوك.

— لا يمكنني أن أتغير بهذه الطريقة. كيف سأنظر في عيني سيف غرس الدين وفي عيني ندا؟ كيف سأنظر إلي نهاد ورجاء شوكت وأحلام المطيري وسادة الدوغري؟ لا أستطيع أن أواجه نظرات من حولي. لا شيء يختفي في المصنع. الأخبار والشائعات تنتقل كالبرق الخاطف.

— لا تقلق. لم ينم سوي مع نهاد وسادة فقط. لقد حاول مع رجاء وفشل فأشعل نيران الخلافات بينها وبين زوجها وسينتهي الأمر بالطلاق قريبا بينهما. جعل زوجها يشك فيها باستمرار وجعلها تكره زوجها. كان يثني عليها ويمنحها المزيد من المكافآت ولكنها كانت ترفض. لم يقرب أحلام قط فلقد كذبت وقالت إنها ستخطب لأحد الرجال هربا منه ونحن نعلم أنها كاذبة فلقد تحرى عبدالله البندري وواجهها بكذبها. سادة الدوغري هي التي أغوته ونامت معه وطلبت منه الترقية وأخذت بضعة آلاف مقابل ليلة واحدة قضتها معه.

لا يمكن أن أصدق. هل كنت أعيش في مصنع أم في بيت دعارة؟
أحدث كل هذا وأنا لا أعرف أي شيء؟ لا معيشة لي في هذا المصنع.
لن أدخله أبدا. أمسكت سارة العسكر بيدي فسحبته بسرعة. كيف يمكن لي أن أتعامل مع هذه المرأة؟
ابتسمت سارة العسكر وقالت لي:

— أعلم أنك تحتقرني. أعلم أنك قد صدمت في كثير. هذه حياتي ولكنك لم تسمع حكايتي إلي النهاية. صدقني أنا امرأة تعيش ولقد أصابني القرف من حياتي ولطالما فكرت في الانتحار. أشعر بالغثيان عندما أنظر إلي نفسي في المرأة. أحن إلي الحياة الهادئة. أحن إلي حياة الشرف والكرامة. أحن إلي الحب الحقيقي. أنت لا يمكن أن تعرف كيف تعيش امرأة بدون الحب. أنا لا أحب زوجي ولا أحب ولده. أنا لست إلا امرأة بائسة يائسة تعيش. أكثر ليلة كرهت فيها عبدالله البندري كانت عندما طلب مني أن أنام مع بعض رجال الجيش من أجل حماية المصانع التي نمتلكها. لقد قدمني لهم بسهولة. ذهلت تماما وبكيت. زوجي يقدمني في صفقة لأحد الضباط من أجل حماية مصانعنا. بكيت وارتيميت في أحضانه. صفعني قائلا بأنه يعلم أنني أنام مع كل من هب ودب فلماذا لا أضحي الليلة أيضا حتي لا تضيع ثرواتنا بعد الثورة؟ نظرت إليه ونيران الكراهية تشتعل بداخلي. صفعته وبصقت في وجهه. صفعني عدة مرات وأدخل علي بعض الضباط الذين تناوبوا علي. شعرت بذل الاغتصاب. كنت أشعر

بأن قبلاتهم نيرانا تلفح وجهي وأحضانهم سيوفا تمزق جسدي. شعرت بمدي خسة عبدالله البندري وحقارته. كان يضحك ويشرب الخمر. أيمكن أن يسمي عبدالله البندري بزواج لي؟ من ليلتها أسميته بحماري عبدالله البندري.

— أعتقدت أنك أنت التي ارتميت في أحضان الفساد برغبتك
— لا والله. لقد كرهت كل شيء وكرهت نفسي. الوحيد الذي كنت أتمني أن أقتله بنفسي الضابط شديد. كان يريد أن ينام معي علي الرغم من التعب والإعياء الذي كنت فيه. رفضته وبصقت في وجهه أكثر من مرة. كان يصبر بعدها علي أن يضاجعني ولا أدري لماذا كنت أرفض باستمرار. ركع أمامي وحاول كثيرا. كان طوع بناني ورهن إرادتي. ليتني قتلتته بيدي اطمئني فلقد قتل بفضل تفكيرك. أنت صاحبة فكرة قتله بعد أن أبلغت زوجه أنه يخونها

— دعك من كل هذا. أنا أحبك وحببي لك يكبر كل يوم. لا أستطيع أن أعيش بدونك. خذني إلي أقداس أنوارك وطهارتك. أخرجني من ظلمات الحياة التي كنت أعيش بها. أنت ألمي الوحيد بهذه الحياة. كان حببي لك أجمل شيء في حياتي فأتم جميلك عليّ وكن معي دوما. ستنام بحضني الليلة أليس كذلك؟
— لا. طبعا لن أنام بحضنك. لا زلت في فترة العدة. صدقيني أنا لا أصلح لك. ها نحن نتكلم وقد بدت معالم لندن الشهيرة من نافذة الطائرة في غبشة ضوء الصباح. سكتنا لحظات عندما كنا علي مشارف لندن. هذه ساعة بيع بن الشهيرة. ابتسمت لي المضيضة المحجبة وكأنها ترحب بنا في لندن. كانت سارة العسكر تعد حقيبتها استعدادا للنزول. أعطتني المضيضة ورقة نظرت فيها بسرعة. إنها دعوة لحفل زفافها في المجمع الإسلامي الكبير بلندن. نظرت إلي وكأنها تدعوني للحضور غدا في الرابعة مساء. أومأت لها برأسي.

بدا الضيق علي سارة العسكر لما رأتني أتحدث مع المضيضة ولكني أخبرتها بأننا مدعوان لحضور حفل زفافها. سألت المضيضة عن زوجها فأخبرتني بأنه مصري يعمل في لندن. أخبرتني أنها عرفت أنني مصري من ملامح وجهي. أنفي الكبيرة وعيني. عرفت أنني مسلم أيضا من

خلال نور وجهي. سألتني إن كانت سارة العسكر زوجتي فأخبرتها سارة بسرعة بأننا سنتزوج قريباً. تمنيت أن تحضر حفل زفافنا. إن المضيئة إنجليزية الأصل وكانت المفاجأة أن اسمها سارة دافيسون. ابتسمت سارة العسكر وقالت: «كل الجميلات اسمهن سارة». ترجمت ما قالته سارة العسكر للمضيئة فلقد كانت لا تجيد الإنجليزية علي الإطلاق. أول مرة أبتعد فيها عن مصر وعن أمي. لكم أشتاق إليك يا أمي. دخلت حجرتي بالفندق. سأنام. سارة العسكر أبلغتني أننا يجب أن ننتهي من صفقة الآلات الجديدة الليلة. ستدعوني للغداء في الرابعة. إذا لا زال لدي الكثير من الوقت للراحة. استلقيت علي السرير ولم أخلع ملابسني بعد. أخذت أفكر وأتأمل. دخلنا بوابات لندن ولم أسقط بعد يا حنان ولن أسقط إن شاء الله. أنا لا أحب لندن، لماذا أحبها وأنا لا أنسي التاريخ علي الرغم من أن العرب ينسون. من الذي غرس أعداؤنا في المنطقة ومن الذي أعطاهم الوعد المشؤوم؟ لن أنسي ولن ينسي المخلصون الذين لم يخونوا. فتحت التلفزيون لأتابع الأخبار. انفجارات في بغداد. اشتباكات ومعارك في كل مكان. أين الأمن في هذا العالم؟ تقرير عن انفجارات العراق. أه يا لحزني عليك يا بغداد!! بدأت أستعيد ذكرياتي المرة عند سقوط بغداد في التاسع من أبريل في عام ألفين وثلاثة مقترنة بسقوط دموع أمي وبكائها المير علي ضياع دولة عربية كبرى تمتلك نهريْن وتمتلك النفط. سقطت العراق ويا تري علي من سيكون الدور بعدها؟ هكذا كانت أمي تبكي وتولول. مرت الأحداث في ذاكرتي سريعاً. سقوط تمثال صدام حسين في قلب بغداد بإخراج سينمائي رائع اقترن مع سقوط النظام. غارات التحالف علي بغداد من قبله لتدمير حضارة الخلافة العباسية وإعادة العراق عدة قرون إلي الوراء ومن قبل هذه الغارات آلاف التظاهرات في كل مكان بالعالم احتجاجاً علي قصف العراق. كم من القتلي والجرحي؟. أنا لا أحب لندن ولن أسقط علي بواباتها. بوش وتحديه لصدام حسين. بوش وذيله توني بلير. مصالح مشتركة وكل هذا فوق رؤوسنا نحن العرب. إعدام صدام حسين صبيحة يوم عيد الأضحى. وتري علي من سيكون الدور؟ تذكرت فرار زين العابدين ابن علي من تونس إلي السعودية بعد أن

نهب شعبه وكانت الشرارة التي بدأت بها ثورات الشعوب العربية علي حكامها. اعتصام ملايين المصريين في ميدان التحرير ضد مبارك. تنحيه عن الحكم لصالح المجلس العسكري. ثورة ليبيا وانتهاؤها بعملية قتل بشعة لمعمر القذافي. لقد صدقت كلمات صدام حسين الذي تقدم بكل شجاعة وإقدام نحو حبل المشنقة وردد الشهادتين أمام العالم مظهرا وجهه في حين أخفي من أدموه وجوههم. صدقت كلماته بأن له الفخر أن يقتله الأمريكان الأعداء في حين قال بكل ثقة أما أنتم فستقتلكم شعوبكم أيها الخونة. الله أكبر وتحيا العراق. تبا للخيانة التي تمتلأ بها صفحات تاريخنا!!

دمعت عيوني وكل هذه الأحداث تتوالي في ذهني وتترى في تفكيري. آه. وأنا أيضا لن أسقط. لن أتزوج سارة العسكر ولن أقع في برائنها. رن الهاتف. من غيرها سيتصل بي؟ لا شك إنها سارة العسكر. رفعت السماعة وكنت مندهشا عندما لم أسمع صوتها. إن الصوت الذي علي الهاتف صوت رجل!!

الرجل يتحدث الإنجليزية بطلاقة. إنه يطلب أن يأتي إلي غرفتي في أمر ضروري. كيف يعرفني. لقد أخبرني أنه يعرفني جيدا. عبدالله المصري كما نطقها بصعوبة. استقبلته وقال لي إن اسمه جون مورتن. هذه هي المرة الأولى التي أراه فيها. إنجليزي الملامح. قال إنني يجب أن أسمعه جيدا. عرض علي نسبة عشرة في المائة من ثمن صفقة الآلات الجديدة التي ستشتريها سارة العسكر. سألته عن المقابل فأخبرني أنه من طرف أحد الوزراء المصريين السابقين الذين يريدون أن ينتقموا من عبدالله البندري زوج سارة العسكر. حدثني عن الخلافات الشخصية بين عبدالله البندري وبين ذلك الوزير. عرفت أن هذه الخلافات كانت بسبب الفوز بقلب راقصة مشهورة. كان الوزير يحبها إلا أن عبدالله البندري سبقه وتزوجها سرا.

فهمت من حديثه أن الآلات التي ستشتريها سارة ليست لها قطع غيار وأن بها عيوباً بالتصنيع وأن المطلوب مني بالتحديد ألا أكشف لسارة عن هذه العيوب لأن العقد به بعض البنود التي لا يجب أن أترجمها لها. طردت الرجل من حجرتي. اتصلت بسارة العسكر وأخبرتها فدعتني إلي الذهاب إلي غرفتها علي الفور.

رباه ما الذي يحدث في هذا العالم الغريب؟ لا شك في أن هناك شيئاً مفقوداً في عالمنا. ما الذي حدث للناس. أين الصدق في حياتنا؟ أيعتقدون أن لكل شيء ثمناً؟

كنت أسرع إلي غرفة سارة العسكر وفوجئت عندما نظرت خلفي بشخص رأيته من ظهره. توقفت تماماً. إن ظهره يشبه شخصاً أعرفه جيداً. حتي شعره الأشيب ونفس ملامح الجسد. أيعقل أن يكون قد جاء خلفنا إلي لندن. إن له نفس طريقة عبدالله البندري في الحركة والهيئة. إنه هو. لا شك أنني غبي. اقتربت منه ودرت لأنظر إليه من الأمام وسألته عن حاله باللغة العربية ظناً مني أنه عبدالله البندري. لم يرد علي. حدثته بالإنجليزية متسائلاً إن كان هو عبدالله البندري أم لا. سبحان الله. إنه ليس هو. اقتربت منه أكثر ونظرت جيداً لملامح وجهه. أشاح بوجهه عني وابتعد. سبحان الله يخلق من الشبه أربعين. لاحظت أن جون مورتن يتبعه ويراقبه من علي بعد. دخلت إلي سارة العسكر فوجدتها علي سريرها ترتدي قميصاً يبرز كل ملامح فنتنتها فغضضت بصري عنها وبدأ علي الخجل. وجدتها تنظر إليّ بحب وكأنها تدعوني إلي فراشها. ابتعدت وقلت لها متسائلاً: لماذا لا نزل إلي صالة الفندق؟

— إلي متي ستهرب مني يا عبدالله؟

— سأهرب منك إلي الأبد.

— وحببي لك؟ أجمل حاجة أحبها فيك نظرة الخجل التي لا أراها

سوي في عينيك. أنا أحب الرجل البكر الوحيد في العالم كله.

— نحن الآن في مصيبة ويجب أن أبلغك بما حدث معي منذ دقائق

— أعرف كل شيء

— تعرفين كل شيء؟

— وأعرف أنك أفضل إنسان في الدنيا وأنت لا يمكن أن تخون أبداً

وأعرف أنك أتيت إليّ لتبلغني بما حدث معك منذ دقائق

ولذلك سأتمسك بك لآخر لحظة في حياتي يا عبدالله. أنا أحبك

وسأغير فعلاً من أجلك. أنت إنسان ليس له مثيل في هذا العالم.

قامت من فراشها وارتدت ملابس الخروج بسرعة ونزلت معي بعد

أن قبّلتني قبلة أخجلتني وجعلتني أبتعد عنها. قالت لي وهي تمسك

بيدي لتعيدني إليها :

— أنت كنز لا يمكنني أن أفرد فيك. عرفت أن إبراهيم الفقي وزير الصناعة الأسبق كان يدبر فخا لعبدالله البندري وأراد أن يورطه في صفقة آلات خاسرة

— أنت تعرفين كل شيء

— وسنجعل عبدالله البندري يشرب هذه الصفقة

— لا يمكنني أن أتورط في مثل هذه المؤامرة

— أنت طيب وبرئ يا عبدالله. لكم أحبكم !!

— أريد أن أخبرك أنني رأيت شبيها لعبدالله البندري هنا ورأيت

جون مورتن الذي زارني بحجرتي يتبعه

— لا تقلق سأؤكد لك بنفسني.

اتصلت بهاتفها علي عبدالله البندري بمصر وفتحت السماعة وسمعت الحديث بينهما كاملا. ثم نظرت إلي كأنها تريد أن تخبرني أن كل شيء علي ما يرام. إن عبدالله البندري بمصر ولا يعرف أي شيء يدبر له هاهنا.

لا أحب جو المؤامرات هذا. لن أتورط في مثل هذه المؤامرة. أخبرني أنها تريد أن تنتقم من عبدالله البندري. رفضت تماما. انقلبت سارة العسكر تماما وقالت :

— اسمعني جيدا. يجب أن تتم هذه الصفقة. هذه فرصتي الوحيدة للانتقام منه

— لن أتورط في مثل هذه المؤامرة. سيقع الضرر علي العمال في المصنع وقد يتم الاستغناء عنهم بسبب الخسائر التي ستقع بعبدالله البندري الرئيس الأعلى للمصنع. حرام أن تكون خلافاتكما سببا لضياع العمال

— ألا يمكنك أن تنسي يوما أنك كنت مع العمال؟ سننتقل نقلة أخرى. أنا صاحبة المصانع. افهم يا عبدالله ستخسر هذه المصانع وسيعود فقيرا لا يجد الطعام ولا المأوى

— كنت عاملا وأكلت مع العمال وأعرف مشكلاتهم ولن أشارك فيما يضرهم

— ليس الأمر بمزاجك. ستشارك لأنك ستتزوجني

- لن أتزوجك يا سارة.
- سأمنحك كل ثروتي يا عبدالله. سأكتب لك كل ما أملك كما فعلت شكرية
- أنت تعرفين كل شئ يا سارة
- أعرف كل شئ وستساعدني
- لن أساعدك
- ستساعدني رغما عنك. جواز سفرك ليس معك. سأتحكم بك يا عبدالله وستتم الصفقة. أنت هنا لا قيمة لك بدوني. يمكنني أن أتركك هنا وستموت بدوني. ليس لديك أي شئ
- أنت هكذا تجعليني دمية في يديك. يا سارة ليست الأمور هكذا يبدو أنك لن تتغير يا عبدالله. لسنا في زمن المثاليات والصفح والعفو. إذا لم تأكل عدوك فسيأكلك. لا مجال للمنافسة الشريفة.
- ليس هذا زمن الفرسان. أرجوك افهم. عبدالله البندري سيدبر أيضا ليحطمني بعد الطلاق.
- لن أكون طرفاً في صراع ليس لي به ناقة ولا جمل. أنا رجل بسيط ومسالماً ولا أحب المؤامرات
- لقد أرجعت لك أمك
- جميلك لن أنساه
- أنا أحبك يا عبدالله
- وأنا سأصارك يا سارة. سأرجع إلي موقعي وسأكون في صف العمال أنت فقري وتحب الفقر ولا تحافظ علي نعمة الله. لن أرجوك ولن أتوسل إليك حتي تحبني ولن أتسول حبك. سنرجع غدا إلي القاهرة
- شكرا لك.
- ستعود عاملاً عندي في المصنع.
- موافق ولكنني لن أشارك في مثل هذه المؤامرة
- لا أفهمك يا عبدالله. يبدو أنك سوف تصيبني بالجنون
- لماذا يا سارة؟
- لديك ملايين جنيهات وتريد أن تعود إلي عملك في المصنع مع العمال البسطاء؟

- نعم
- شاركنا في المصنع
- لن أشارككما. أنا فقير ولا أملك من الدنيا شيئا
- ونقود شكرية وثروتها التي تركتها لك
- لا أريدها. أريد الراحة وهدوء البال. أنا لا أعلم مصدر ثروة شكرية
- أنت أكيد مجنون. يبدو أن هناك شيئا مفقودا في شخصيتك. أنت لست مثل باقي الناس. أنت إنسان مختلف. سنسافر غدا إلي القاهرة.
- شكرا لك. فلنسافر غدا.

طيلة الرحلة وسارة العسكر تنظر لي بتعجب. لا شك أنها تبحث وتفكر عن الشئ المفقود في وفي شخصيتي وأنا أيضا كنت أبحث وأفكر عن الشئ المفقود فيها وفي عالمنا الذي نعيش فيه. كنت أود أن احضر حفل زفاف سارة دافيسون المضيئة الإنجليزية علي زوجها المصري بالمجمع الإسلامي الكبير في لندن. ليباركهما الله ويحفظهما ويهبهما الذرية الصالحة. نظرت إلي سارة العسكر في غضب وقالت لي في عنف: «غدا تكون في المصنع قبل الساعة الثامنة. مفهوم؟» أكاد لا أفهم هذه المرأة بسبب الشئ المفقود في علاقتي بها.

لشد ما اشتقت إليك يا أمي الحبيبة!! ها أنا ذا في قلب القاهرة وقائد الطائرة يخبرنا أن الهبوط سيكون بعد دقائق. رن هاتفني المحمول. إنها أمي. سألتها كيف عرفت بعودتي فأخبرتني بأنه قلب الأم. أغلقت معها بعد أن اطمأنت علي.

لا زلت أفكر في الشئ المفقود في هذا العالم. تري أنفتقد شيئا واحدا أم نفتقد أشياء كثيرة فيك أيتها الحياة؟

الحلقة الثانية والسبعون

الصدمة

أخذت أمي بأحزاني وبكيت منتحبا. ربتت علي ظهري ومسحت علي رأسي فشعرت أنني أغرق في بحر من حنائها الغامر برياح الحب والشفقة التي كنت أشعر بنسماتها في أنفاسها التي تتلقاني

بالحب ونظراتها التي تغشاني بالشوق. لكم اشتقت إلي حضنك !! لقد بكّت أمي أيضاً وأخبرتني أنها تعلم بالأمي وأن قلبها حدثها بأنني وصلت إلي مصر في نفس اللحظة التي كلمتني فيها علي الرغم من أنني كان من المفترض أن أصل بعد غد. إنها المرة الأولى والتي ما حدث أن افترقنا قبلها. أريد أن أبكي في أحضانها وأريد أن أدفن رأسي في صدرها لأهرب من مخاوفي. لم أعد أدري ما الذي يحدث لي في هذه الحياة. ما أن وصلنا إلي صالة الوصول إلا وارتمت سارة العسكر في أحضان عبدالله البندري الذي استقبلها بحفاوة ونظر إليّ بكل بغضاء وكراهية كما نظرت هي أيضاً إليّ بمثل نظراته. لا أفهم ما الذي يحاك لي. لا أفهم شيئاً. قالت له وهي تبتسم: «لقد تمت المهمة بنجاح». كنت أبكي بشدة ولا أفهم ما الذي يراد بي أو يدبر لي. ماذا حدث يا سارة العسكر؟ أهذا الذي كنت منذ ساعات تحدثيني بكراهيته وها أنت الآن في أحضانه؟ ألسنت أنا الذي كنت تبكين من أجل أن أتزوجك؟ أنا لا أفهم شيئاً. أحسست بأن روحي تنسحب مني وأصابتني رعشة خوف وهزة ألم لا أدري سببها. انقبض قلبي بشدة وهو يمسك بيدها ويتجها نحو سيارتهما الفارهة في حين ركبت أقرب سيارة أجرة وجدتها أمامي ورأسي يموج بكل عواصف الخوف والقلق. لماذا كان السفر إلي لندن إذا؟ لماذا عدنا في غير موعد عودتنا المخطط له. كيف تقول له لقد تمت المهمة بنجاح وصفقة الآلات لم تتم؟

كانت أمي تحتضنني بشدة وتنتحب. أخبرتني أنها كانت خائفة جداً عليّ وأنها كانت تدعو لي بكل صلاة لأعود لها آمناً وفي خير. أخبرت أمي بحقيقة شكرية كما حكّتها لي سارة العسكر فنصحتني بعدم الحكم إلا بعد التأكد مذكّرة لي بقول الله تعالى يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا علي ما فعلتم نادمين. غريب أمرك يا أماه. لم تتعلم ولم تعرف القراءة والكتابة ولكنها تحفظ القرآن منذ طفولتها كما تعلمته في الكتاب في قريتها علي يد الشيخ حسن. كانت تراجعها باستمرار مع صوت مقرئي القرآن في إذاعة القرآن الكريم وكانت تقول لي إن هذه الإذاعة الحسنة الوحيدة لثورة يوليو في عام اثنين وخمسين. سامح

الله والدها الذي أصر علي عدم الذهاب بها إلي المدرسة علي الرغم من تدخل الشيخ حسن مرات عديدة مخبرا والدها بأن بهية سيكون لها مستقبل رائع في التعليم. آه لتعلمي هذا الزمان والذين يعدون من الجهلاء إذا ما قورنوا بأمي وبأمثالها!! قاتل الله الجهل والجهلاء. ماذا لو تعلمت أمي بهية ومن كن في جيلها؟ لماذا رفض والدها أن تتعلم بالمدارس؟ كانت أمها دوما تقول مصير البنات إلي بيت زوجها حتي وإن تعلمت. كانت أمها تسير بركاب أبيها ولكنها عند وفاتها طلبت من بهية أمي أن تسامحها لأنها لم تصر علي إلحاقها بالمدارس. آه لو كان والدها يعلمان ما سيفعله الدهر بابنتهما بعد موت أبي زوجها الأول؟ إن أمي عالمة بالقطرة. لقد كانت تمارس معنا مبادئ التربية بحذافيرها دون أن تعلم أنها تربي وتعلم بشكل علمي. لم تكن مجرد أم لي وفقط بل كانت حبيبة وصديقة ورفيقة ومتابعة لي في كل حالاتي. الوحيدة التي تستمع إلي وتؤمن بي وتثق فيّ بكل الظروف. الوحيدة التي لم ولن أجد لها مثيلا. الحنان كله ممتزج بالركة والرحمة والعطف يشع من نور عينيك وينطق به لسانك وأراه بجوارحك وفي صمتك. آه يا أماه لكم أحبك!!

حكيت لها عن استعانتني بحنان عزت من أجل الحصول علي تصريح لزيارة شكرية. لم أتم كلامي إلا وكان هاتفي المحمول يرن. إنها حنان عزت زميلتي القديمة سابقا والراقصة المشهورة حاليا. قالت لي في دلال:

— حمدا لله علي سلامتكم يا بطل

— الله يسلمك يا حنان

— سبع ولا ضبع؟

— ماذا تقصدين يا حنان؟

— اعترف هل سقطت علي بوابات لندن أم لم تسقط؟

— يمكنك أن تسألي سارة العسكر. هي صديقتك.

— لقد اتصلت بي تدعوني لحضور مناقشتها لرسالة الماجستير يوم

الخميس القادم ولم تتكلم معي بشأنك. أخبرني هل سقطت يا

عبدالله؟ هل استسلمت؟

— وماذا تظنين بي؟

— لا أعتقد أنها نجحت فيما فشلت أنا فيه.

- الحمد لله علي حسن ظنك بي
- ما رأيك في زواج وحج؟
- زواج وحج؟ ماذا تقصدين؟
- أعرض عليك الزواج يا عبدالله وسنحج سويا ومعنا والدتك. لديك ثلاثة أيام تفكر فيها.
- قاطعتني أمي وطلبت مني أن تكلم حنان. أخذت أمي الهاتف مني وقالت:
- "لدي رجاء يا حنان وأرجو ألا ترددي رجائي. أريد تصريحاً للمرة الثانية لمقابلة شكرية."
- لم تقل أمي سوي هذا وأعطتني الهاتف. شكرت حنان وطلبت منها أن تأخذ رجاء أمي بعين الجد فقالت لي:
- لا أستطيع أن أرد رجاء حماتي
- أنت متأكدة إذا من أنها ستصير حماتك؟
- طبعاً. عبدالله أنا أحبك. لكم أنا نادمة لأنني رفضت الزواج بك منذ أكثر من ثلاثين سنة ولو قبلت لكان كل شيء قد تغير.
- أبلغ أمك أنها ستزور شكرية غداً في أي وقت إن أرادت وثق بأن التصريح بزيارة شكرية من أسهل ما يكون بالنسبة لنا
- طبعاً أنتن الرقاصات تستطعن فعل كل شيء في مصر بسهولة. أنتن المدللات والمثاليات ورموز المرحلة التي نعيش فيها. بارك الله لنا فيكن. يا عيني علي الدنيا
- تقصد نحن الرقاصات والفنانات يا عبدالله
- ولا يهملك. شكراً لك.
- فكر بجدية في موضوع زواجنا
- رجعت ثانية إلي حزن أمي وواصلت بكائي من وطأة الآلام التي تجتاحني وتعصف بي. ها هي ذي حنان تطلب الزواج بي. ماذا يحدث لي في هذه الدنيا؟ أشعر بأنني ريشة تطير في مهب رياح الدنيا بلا معين وبلا هدف، ولا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا. ابتعدت أمي قليلاً ثم جلست علي الكنبة بجواري وقالت لي والدموع تترقرق في عينيها:

— سامحني يا عبدالله. سامحني يا ولدي. أنا السبب في كل ما أنت فيه. أنا السبب في كل ما يحدث لك. أنا السبب. صدقني. لم أكن أقصد

— ماذا يا أمي؟ هل هناك ما لا أعرفه؟

— أنا السبب يا عبدالله. لقد أضعت مستقبلك وعلمتك. أصررت علي أن تكمل تعليمك أنت وأخوتك لأعوض ما حل بحياتي من نقص فيكم. أردت أن أعطيكم ما حرمت أنا منه. لما دخلت الجامعة كان أسعد يوم في حياتي وأحسست أنني أنا التي سأواصل دراستي في الجامعة. علمتك القيم والأخلاقيات في وقت القبح الذي ضاعت فيه القيم وخربت فيه الذمم وتعفنت فيه الأخلاق ودفن فيه كل شيء جميل. غرست فيك النبل في زمان لا يعترف بأخلاق الفرسان. غرست فيك حب الحرية في زمان لا يسود فيه إلا العبيد. غرست فيك الخوف من الله في وقت ليس للدين ولا للفضيلة أي وجود يكاد يذكر. ليس للأحرار مكان في هذا الزمن يا ولدي. العبيد يتصدرون المشهد الآن. حنان صار بيدها كل شيء وصرت أرجوها أن أقابل شكرية لأعرف الحقيقة. الأحرار يتوارون خوفا في حين يعرض العبيد بضاعتهم. ستناقش سارة العسكر الماجستير وهي أقرب للجهل ولا تعرف شيئا. أليس هذا عصر تكريم الجهلاء؟ ضاع العلم ومات العلماء جوعا بعد أن طويت بطونهم في حين امتلأت بطون الجهلاء. صوت الجهل أضحى أعلى دويًا من صوت العلم الذي كاد يخرس أو يكتم. الكرامة ليست للأحرار الآن وإنما كل الكرامة لعبيد استساغوا الذل وأكلوا العيش بالجبن وشربوا المهانة ورضوا بها. أرادوا للجميع أن يكونوا أذلاء وعبيد إحسان لذوي القوة والجبروت. لم أكن أعرف أن الأمور ستؤول إلي هذا المصير. كذبت عليك وقلت لك تعلم ليصير مستقبلك أفضل ولم أكن أعلم أن هذا الزمان سيكون معكوسا. لم أكن أعلم أن الجهل سيسود وأن العلم سينحسر وأن الأحرار سينقرضون وأن الغلبة ستكون للعبيد. لم أكن أعلم أن العصر الجديد ليس لنا. إنه ليس عصرنا للمرة بل إننا نتراجع وبقوة إلي الوراء. إننا ننحدر إلي الخلف ونساق إلي الضياع.

ما الذي حدث لك يا أمي؟ كل هذا التشاؤم؟!!

نظرت في عينيها ورأيت الدموع تترقرق في عينيها. لا. لن أسمح أن تبكي من أجلي. هذا واقع جديد علينا أن نتعايش معه. لا شك أنه واقع طارئ يا أمي. لا أصدق أنك تنهارين باكية هكذا. لقد مرت بنا ظروف أصعب من هذا. نظرت إليها وأنا أرغب في أن أبث فيها بذور أمل تغير حالتها وتبدل دموعها إلي بسمات. قلت لها بعد أن فسرت نظراتي وفهمتها جيدا:

— كل شيء يتغير يا بهية

— التغير إلي الأسوأ يا ولدي

— أنسيت يا بهية أكتوبر ثلاثة وسبعين؟ كنت معك ومع الآلاف الذين يتبرعون للعساكر وينفقون للمجهود الحربي. أخذت معك كل ما ببيتنا وكل ما لدينا للجنود في القطار الحربي. يا بهية مصر تمرض ولكنها لا تموت. الأحرار يتألمون ولكنهم يعودون أقوى مما كانوا. العبيد يهرعون إلي قيود الرق والأحرار يهرعون لنسمات الحرية. الجهل عمره قصير لأن نور العلم يطفئ ظلامه. ماذا بك يا أمي؟ لا أقبل دموعك هذه. لكم مرت أيام علينا أسوأ من هذه الأيام ولا زلت أري أضواء الأمل تشرق من بعيد وستشع قريبا وتطفئ كل ظلمات الجهل والعبودية واليأس. نظرت أمي لي طويلا ونظرت إليها. لكم مرت علينا بعض أوقات كانت أصعب مما نحن فيه. لقد تعلمت ألا أفقد الأمل علي الرغم من تشاؤمي الزائد في كثير من الأحيان. قلت لها بصوت الواثق: «ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من رح الله إلا القوم الكافرون». مسحت دموعها واقتربت مني أكثر فقلت لها: «ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين». احتضنتني وربتت علي ظهري وقالت في صوت أقرب للهمس: «هذا هو ابني. أنا مؤمنة بك يا ولدي. أنت ابني حقا. أعلم أنني قد أنجبت. لم تكن للدنيا كلها أن تكسرك أو تنال منك. أعلم كم من الضغوط قد تعرضت لها يا عبدالله وكنت واثقة من أنك لن تنهزم لها ولن تستسلم. أنا متأكدة من قوة عنادك ومثابرتك. أعلم أنك مثل أبيك ومثل أجدادك. لن ترضوا بالذل وستحقق المستحيل. أنا متأكدة أنا عزيزتك قوية لو أردت أن تقتلع الجبال لاقتلعتها بإيمانك ولو أردت أن تفرغ

المحيطات لفعلتها. معك حق يا ولدي كل هذه أمور طارئة. الله معك». أحسست أن كلماتها تضيئ مزيدا من النور في طريقي نحو الأمل الذي كانت معاملة قد بدأت تضيع مني. لقد أنبتت أُمِّي أشجارا عالية مثمرة بالتفاؤل الذي كان نادرا ما يتمثل أمامي. من فقد الأمل فقد كل شيء. لن أستسلم يا أُمِّي. أردت أن أعدها بهذا. حتي وإن كانت أسراب العبيد تنتشر في كل مكان، وحتى وإن علا الجهال وارتفعوا، فإن أُملي بأنهم إلي زوال، فما طار طير وارتفع إلا وكما طار وقع. سيهزم الجمع وبولون الدبر.

أحسست أنني أتنفس من جديد. يا له من شعور رائع أن تغوص في بحار من الآمال فتبتسم حيث يعم الحزن وتشعر أنك تضيئ شمعة في سراب اليأس!! يا له من شعور رائع أن تبث روح الأمل في إنسان كاد يتهاوي في ظلمات اليأس!!

دخلت أُمِّي تعد الطعام في المطبخ ودخلت معها. لا أصدق أن أُمِّي تقترب من السبعين من العمر. لا زلت أري فيها روح الشباب والعزيمة. قلت لها مشاكسا بعد أن بدأت تتنفس روح الأمل الجديدة:

- أحلامك نزلت الأرض يا بهية
- مستحيل أن تنزل أحلامي الأرض. أحلامي تتحقق يا ولد
- معك حق. لدي عرض للزواج والحج معا
- لا تقل لي أن العرض من سارة العسكر
- لا. العرض من حنان عزت السيد
- الراقصة؟ زميلتك أيام الكلية؟
- آه

— شكرا لك أيتها النحلة فلا نريد عسلا منك ولا نريد أن تلدغينا

— كنت أعلم أنك ستفرضين؟

— وهل كنت ستقبل أنت يا عبدالله؟ أتريد أن تحج من حرام؟

— أردت أن أحقق حلمك. لقد حلمت لي أنني أؤذن وهذا تفسيره أن أحج ولقد عرضت علي أن أتزوجها وأحج معها كما عرضت أن تكوني معنا

— لا يا سيدي. الله طيب لا يقبل إلا طيبا

— يا أُمِّي قد تتوب وترتدي الحجاب وتحسن خاتمتها ويكون لي

- الأجر عند الله
- أعلم أنك تهذر
- يا أمي إنها فنانة
- تقصد رقاصة.
- لقد انقلبت الأمور يا أمي. لقد فهمت وجهة نظرك.
- ولا تحسبن الذين كفروا سبقوا إنهم لا يعجزون
- معك حق يا أمي. إنها لم تغلبنني. الدليل أنها ترغب في الزواج
- مني وتقول لي إنها أخطأت وتمنت لو كانت قد تزوجتني منذ أكثر من ثلاثين سنة
- ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين
- يا أمي لا أريد أن نغلق عليها باب التوبة
- يبدو أنها قد أقنعتك بالفكرة. أتريد الزواج منها حقاً؟
- أنا أتحدث معك فقط وأتناقش معك ليس إلا
- نتحدث وسارة العسكر تمكر بك؟ لن تدعك في حالك.
- لن أخاف يا أمي
- ما أن أعدت الطعام إلا ورن هاتفى المحمول. نفس الرقم المتميز.
- الرقم الذي به خمس ستات. قلت لأمي في ابتسامة ساخرة:
- إنها تأتي علي الرائحة. جننا بسيرة القط فأتانا ينط
- معقول سارة العسكر تتصل بك؟ لقد أخبرتني أنها ارتمت في
- أحضان زوجها أقصد حمارها عبدالله البندري
- انتظري لأعرف ما تريد
- فتحت الخط فلم أسمع ردا. انتظرت لحظات فاستمعت إلي
- موسيقي أغنية الأمل التي أعشقها لأم كلثوم. علمت أنها لن تتحدث
- كعادتها. فتحت السماعة الخارجية للهاتف المحمول حتي تسمع أمي
- فإذا بأم كلثوم تشدو:
- الأمل لولاه عليا كنت في حبك ضحية.... بالأمل أسهر ليالي في
- الخيال وابني علالي
- واجعلك فيها نديمي وامللك ليلي ويومي.... ولو أطول اللي باقول
- يبقي المنى مهما يكون
- ولو أسيت مهما أسيت برضك أنا عندي أمل

قالت أمي وهي تمضغ اللقمة في بطن شديد :

— ليست هذه سارة العسكري يا ولدي.

التصفيق يستمر لأم كلثوم فترة طويلة. أشارت لي أمي أن أسكت لنسمع الجزء الثاني من الأغنية وتركت الطعام وتفرغت تماما للأغنية. رفعت مستوى الصوت فواصلت الاستماع للأغنية.

من زمان طال انتظاري واحتمالي ولا أنت داري.... نار بعدادك واصطباري كل ده عشان عينيك

يا ما خبيت في الجوارح كل قول قاسي وجارح.... اسمعه واصفح واسامح والحنان يزداد إليك

وأنا لو يدوب قلبي ما أتوب عن الهوي ولو أسيت مهما أسيت أنا عندي أمل

زاد انفعالي لقوة الكلمات وحسن الأداء فصحت قائلاً :

— الله عليك يا سارة. أغنية جميلة. اختيارك رائع.

لم أكد أنتهي من كلماتي إلا وانقطع الصوت من علي الطرف الآخر. قلت لأمي :

— هل تأكدت أنها سارة العسكري؟ ما أن نطقت باسمها إلا وأنهت المكالمة

— أنت طيب جدا يا ولدي لدرجة العبط. ليست سارة العسكري. هذا يقيني يا عبدالله

اتصلت بشركة المحمول وحاولت أن أعرف صاحب هذا الرقم. رفض الموظف تماما أن يعطيني أية بيانات عن صاحب الرقم. عزمت علي أن أتصل بهذا الرقم في الغد وأنا أمام سارة العسكري لأقطع الشك باليقين مرة ثانية. أنا متأكد من أن صاحبة هذا الرقم المتميز هي سارة العسكري. قمت بالاتصال بالرقم المميز من جديد. لم يرد أحد. اتجهت لأمي وسألتها :

— ألا تعتقدين أن هذا رقم سارة العسكري؟

— لا. أبدا

— لماذا؟

— ليست هذه شخصيتها.

حاولت الاتصال ثانية فوجدت الهاتف مغلقا أو غير متاح. ابتسمت

أمي ووجدتها تدندن ونظرت إلي في حب وغنت وكأنها تقصدي
بهذه الكلمات :

يا شبيهه البدر وحدك في ارتفاع برجه وسعده.... يشبهك هو في
دالك وأنت في نوره وبعده

ما لقيتش إليك وسيلة غير سكوتي وانتظاري.... واعمل ايه ما
بيدي حيلة في انكساري واقتداري

وأنا لو يروح عمري انوح دا محتمل.... ولا اعيش من غير أمل
لكن أنا عندي أمل

انتهينا من تناول الطعام وكانت أمي تحملق فيّ وكأنها كانت
تغني لحبيب لها. أخبرتني أنني أشبه أبي كثيرا وأنها كانت
تحبه جدا ولولا الحاجة ما تزوجت بعده. قالت بأنني أشبه القمر
بل إنني أجمل من القمر ولقد كانت حنان وسارة العسكر علي
حق عندما وقعتا في حبي. ضحكت بصوت مرتفع وقلت لأمي في
سخرية: قمر وقد تخطيت الخمسين يا أمي. صدق المثل القائل:

«القرد في عين أمه غزال». ابتسمت أمي وقالت معاتبة في ود:
«يا ولد يا قليل الأدب. ماذا تقصد القرد في عين أمه؟ أم القرد
قردة». قمت وقبّلتها وقلت لها: «أنت أجمل ما رأيت عيني. لكم
أحبك يا أمي!! معذرة إن كنت قد أخطأت أو خانني التعبير». دق الباب فقامت مسرعا لأفتح الباب فوجدت حنان عزت السيد واقفة أمامي في خشوع وعيناها لأول مرة علي الأرض ولا تجرؤ أن
تواجهني بنظراتها. أحسست فيها بنظرات الانكسار. رحبت بها
ورحبت بها أمي في أسي وقالت متأسفة:

— حماتك لا تحبك

— كنت أتمني أن تكوني حماتي

— أبلغني عبدالله أنه طلب الزواج بك ورفضت عندما كنتما في الكلية

— ليتني قبلت. لقد كنت مغفلة. إن شاء الله سنزور شكريّة غدا

حسب رغبتك. أنا أطلب منك الزواج بعبدالله. سأعزل الفن

وأرتدي الحجاب

— زواجك بعبدالله مسألة تخصكما أما اعتزالك الفن وارتداؤك

للحجاب فهذا سر بينك وبين الله. سأترك لكما المجال لتتحدثا.

قامت وتركتنا ودخلت حجرتها. قالت حنان لي وهي تقترب مني وأنا أبتعد عنها:

— هل تصدقني يا عبدالله؟ أنت الذي فزت. أنت لم تخسر شيئاً

أما أنا فقد خسرت كل شيء

— هل تضحكين عليّ أم تضحكين علي نفسك يا حنان؟ أنا عرفت

عنك كل شيء

— ماذا عرفت؟

— حكيت لي سارة العسكر كل شيء عن علاقتك بعبدالله البندري زوجها

سافلة

— ليست وحدها السافلة

— وأنت مغفل

— الله يسامحك.

— ألن تذهب معي للحج؟

هاتفني المحمول يرن ويتعالي رنينه. في هذه المرة. لم أر الرقم المميز

وإنما رأيت رقما يبدأ بصفرين ثم تسعة ستة ستة. نظرت حنان إلي

الرقم وقالت إنه رقم من السعودية. أمسكت هاتفي فإذا بصوت يقول

لي :

— أهلا وسهلا يا عبدالله يا مصري

— أهلا بك. من معي؟

— أنا حسام

— حسام؟ من حسام؟

— يبدو أنك نسيتني. معذرة لم أتصل بك منذ فترة. كنت مشغولا

جدا

— يبدو أن الرقم الذي تتصل به لشخص غيري

— لا. أنا أكلّم عبدالله المصري وهذا صوتك أنا أعرفك. معقول ان

تكون نسيت حسام عبدالعاطي. أنت سبب سعادتي كان لك

الفضل الأكبر في أن أتزوج من كريمة

— من كريمة؟

— ممرضتك يا عبدالله عندما كنت في المستشفى

— آه. آسف يا حسام

- هل نسيتني يا رجل؟ نسيتني يا عبدالله يا مصري؟ سأذكرك.
- المعلم حمتمو صاحب المقهي
- آه. تذكرت. ألا تزال تذكرني
- طبعاً أذكرك وأدعوك أنت ووالدتك إلي زيارتي وإلي الحج معنا
- هذا العام. لن تتكلف شيئاً سأرسل لك بطاقة الزيارة. تقبل الله
- منا ومنكم. لا زلت أذكر جميلك وفضلك
- الفضل كله لله
- بلغ والدتك السلام وسننتظركم. ستحجان معنا هذا العام
- جزاك الله خيراً. كيف حال كريمة
- الحمد لله بخير وفي أحسن حال
- لقد تحققت رؤيا أُمي. سنذهب إلي الحج هذا العام. لن نحتاج
- إليك يا حنان. الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل
- العظيم. جاءت أُمي واحتضنتني فرحة سعيدة. قالت لي بثقة:
- أرجو أن تكون قد أدركت أن أحلامي لا تنزل الأرض أبداً
- نهضت حنان غاضبة فلقد أدركت أن وجودها لا فائدة منه. قالت
- لها أُمي:
- ربناً يهديك يا بنتي ويتوب عليك. إن كنت تفكرين بالتوبة
- والاعتزال والحجاب فأنا أنصحك بالمبادرة وفي أسرع وقت
- سأحضر لك إذن الزيارة لشكرية غدا.
- شكراً يا ابنتي. لن تستطيعي. لقد حاولت أنت هذه المرة وفشلت.
- غدا سيكون معي التصريح الخاص بزيارة شكرية.
- تعجبت من ثقة أُمي بأن تصريح زيارة شكرية ستكون بيدها
- غدا. تعجبت كذلك من ردها علي حنان بهذه الطريقة. ما الذي
- تغير؟ لقد قالت حنان لي من قبل إنها تستطيع أن تحصل علي أي
- شيء تريده من وزير الداخلية. تري ما الذي جد في الأمور؟ خرجت
- حنان من بيتنا منكسرة مدحورة ولا أعتقد أنها سيكون لها أي وجود
- في حياتنا بعد اليوم. لقد خرجت تماماً ولن تعود. سألت أُمي عن
- سر ثقة أُمي في حصولها علي التصريح بزيارة شكرية فقالت لي:
- لن يأتي في الغد وإنما سيكون التصريح في يدي بعد منتصف الليل
- لماذا طلبت التصريح منها إذا؟

- كنت أختبرها ولقد رسبت في الاختبار
- كيف؟
- إنها لم تأت بالتصريح معها. كنت أتمني ألا تكذب عليّ يا عبدالله. لقد كذبت. لن يستطيع أحد الحصول علي تصريح بزيارة شكرية أبدا. أنا سأحصل علي التصريح من حسين سالم بنفسه
- ما هذه الثقة يا أمي؟
- ثق بي. لقد تغيرت الأمور
- كيف؟
- لله في خلقه شؤون يا عبدالله. المطلوب منا ألا نتعجل.

قمت مع أمي وزهنا إلي المطبخ لأساعدنها في تنظيف الأواني والصحون. نظرت إليّ وأخبرتني أنها تحبني جدا وأنها ستسامحني في كل شيء إلا في شيء واحد. سألتها فقالت لي: «حبك لمبارك». أكدت لي أنه السبب في كل المشكلات التي نعيش فيها. قالت لي في تعجب: «أربع فترات رئاسية!! حكم ثلاثين عاما. بدأ حكمه مع مهاتير محمد الذي حكم ماليزيا. أين نحن من ماليزيا. ماليزيا أحد النُمور الاقتصادية القوية كما عرفت من التلفزيون. لا أعرف كيف تحبه وتنسى الفساد الذي عم بسببه وتخريبه للبلد وتفريطه في حقوق مصر والمصريين. كيف تنسى غرق العبارة التي كانت تحمل ألفا من البسطاء والفقراء؟ كيف تنسى هرب خيرة شبابنا للعمل بإيطاليا ليواجهوا الموت في البحر وهم يفضلونه علي حياة الفقر والذل؟ كان يريد أن يورث ولده الحكم».

يا أمي هذا رأيي وهذه قناعتي. مبارك لن يفسد جو محبتنا ولقد ترك الحكم وسنري بعده أياما سوداء. سيحكم التاريخ عليه كما قال. يا أمي لقد كان قائد الضربة الجوية في الحرب الوحيدة التي انتصرنا فيها في تاريخنا المعاصر. لم يفر من مصر حاملا كنوزه التي نهبها من شعبه مثل رئيس تونس ولم يكن دمويا في التعامل مع شعبه مثل القذافي. نظرت لي أمي بغضب وقالت متعجبة: وملياراته التي نهبها من قوتنا. ألا تذكر أغنيات الأطفال التي كانوا يغنون بها حسني مبارك يا طيار جبت منين ميت مليار؟ لقد خرب البلاد وأفقر العباد وأذل مصر والمصريين في كل مكان.

- كنا بالمطبخ ورن الهاتف. قلبي غير مطمئن لهذه المكالمة. قلت
لأمي وأنا خارج من المطبخ:
- لن نتكلم في السياسة ثانية. الحيطان لها آذان
 - كان هذا الكلام في الماضي. سنتكلم في السياسة وسنتكلم دوماً
وسيسمع الجميع
 - هذه فترة عصيبة يا أمي
 - لقد أفاق الناس ولم يعد أحد يخاف. يبدو أن أفضل شيء حدث
بعد الخامس والعشرين من يناير أن الخوف قد مات
- التقطت الهاتف. نظرت علي شاشته. لا يوجد رقم. رقم غير
معروف يتصل بك. سترك اللهم يا رب. أحسست بالخوف والقلق
معا. هذا يعني أن المتصل لا يود أن يكشف عن هويته. أعرف
صاحب هذا الصوت. إنه يرحب بعودتي بالسلامة من لندن. آه. لقد
تذكرته. إنه الضابط حسين سالم باشا. لكم أحب الحديث معه!!
قال بداية لا تذكر أي أسماء. ذكرني بأنه يحبني وأنه هو الذي
طلب مني ألا أتنازل عن محضر الإبلاغ عن اختفاء شكرية. بعد
منتصف الليل سأكون عندك. هكذا قال لي ثم أضاف اهدأ واطمئن
ولا تجزع لأي سبب ومهما حدث. خيراً. أنهى المكالمة بسرعة.
قالت أمي لي وهي تصب الشاي:
- ماذا ستفعل بثروة شكرية؟
- نظرت إليها متعجبا. يبدو أنها تعرف كل شيء. لم أخبرها قط بما
كتبت له لي شكرية. لم ألتق المحامي إلا مرة واحدة. سألتني أمي في
هدوء ثلاثة أسئلة دفعة واحدة:
- متي ستلتقي بالأستاذ ضياء توفيق؟ لقد كلمته مرة واحدة فمتي
تكلمه ثانية؟ وهل تحب شكرية حقاً يا ولدي؟
- يبدو أن أمي تعلم كثيراً مما لا أعلمه. كيف حصلت علي كل هذه
المعلومات؟ شعرت بالتضاؤل أمامها. قلت لها متعجبا:
- أنت تعرفين كل شيء يا أمي. الأستاذ ضياء توفيق أخبرني بأن
شكرية قد كتبت لي ثروتها ووعدته أن أذهب إليه بعد عودتي
من لندن وصدقيني يا أمي عندما زرت شكرية في محبسها شعرت
بأنني أحبها وبأنني قد فرطت كثيراً في حقها. ثروة شكرية ليست

- من حقّي يا أمي. لا يمكن أن آخذ مالا بدون وجه حق
- يعني ستعيد المال إلي أصحابه؟
- إلي والدها
- مات والدها. لقد قتل في السجن وبيدو أنهم يخططون لإلحاقها
- بوالدها
- تتحدثين وكأنك عليمة ببواطن الأمور يا أمي
- وسيقبض عليك يا عبدالله بعد منتصف الليل
- لا حول ولا قوة إلا بالله
- لا تقلق. سيتم القبض عليك لحمايتك
- هل أدخل السجن لحمايتي؟
- أليس هذا أفضل لك من أن تقتلك سارة العسكر؟
- لقد اتصلت بي منذ دقائق. إنها تحبني ولا يمكن أن تقتلني. لقد
- كانت تتمني أن أوافق علي الزواج بها
- أنت ورقة لعبت بها وقد احترقت يا عبدالله يا مصري. سارة
- العسكر لا تعرف أن تحب ولا يمكن أن تحب. سارة العسكر لا
- تبحث إلا عن نفسها وعن مصالحها.
- أنت تعلمين كل شيء
- أنا فخورة بك يا ولدي. كنت متأكدة أنك لن تسقط أبدا مهما
- كانت الإغراءات. أتذكر عندما بدأت تحفظ القرآن وقلت لك
- يومها إن القرآن سيحفظك يا عبدالله؟
- تتحدثين الآن بروح التفاؤل والسعادة وكأنك واثقة أن كل أزماتنا
- ستحل وأن كل مشكلاتنا ستنتهي. من يستمع الآن لا يستمع إليك
- منذ ساعة
- كنت أتحدث بلسانك ووجدتك لا تزال تتمسك بروح التفاؤل
- والأمل. كنت أريد أن أقول ما تقوله لنفسك وما تحدثك به
- شياطينك ولكني وجدتكم صلبا قويا لا تنثني ولا تلين مهما حدث.
- أخبرتني أمي أنها عرفت كل شيء عندما اختطفوها سارة العسكر.
- لقد قامت مجموعة من البلطجية باختطافها بأمر من الضابط شديد
- لصالح سارة العسكر. الضابط شديد واقع في غرامها وينفذ لها ما
- تريد. أرادوا أن يخضعوك ولكنك لم تخضع. ما أن نفذ طلبها إلا وأرادت

التخلص منه. لم تحب شديد ولم يعجبها. استفادت منه إلي أقصى درجة ثم دبرت له ليلقي حتفه. لا يزال بالجيش شرفاء يا ولدي. الضابط حسين سالم الذي اتصل بك منذ قليل أخبرني بكل شيء. أتعرف أن أكبر صفقة لتهريب الأسلحة قد تمت وأنت مع سارة العسكر في لندن؟ تعجبت وضربت جبھتي بباطن يدي قائلاً:

- كل هذا وأنا لا أعرف؟ يا لغبائي !!
- تم القبض علي الأخ الأكبر لعبدالله البندري وهو شبيه له تماماً
- قد رأيته وظننت أنه هو عبدالله البندري
- سارة العسكر أكبر تاجرة سلاح في الشرق الأوسط يا عبدالله.
- تشتري الأسلحة للمصريين ليقتل بعضهم بعضاً.
- والمصانع التي تمتلكها؟
- كل هذه المصانع ليست إلا ستار تلعب من ورائه في تجارة الأسلحة
- يبدو أنك قد عرفت كل شيء. هذا يعني أن سارة لم تكن تحبني.
- لم تكن إلا رهانا بين سارة العسكر وزوجها من جهة وحنان عزت من جهة أخرى.
- لقد فكرت في الزواج بها
- إنها لم تطلق بعد من زوجها بعد
- الكذابة
- وليس ابن زوجها معاقا كما قالت لك
- تقصدين سفيان؟
- آه. تفكيرنا محدود يا عبدالله. لقد كانت تجربة اختطافي صعبة جدا ولكني تعلمت من خلالها الكثير. سأصدمك أكثر يا عبدالله.
- حنان عزت شريكة سارة العسكر وزوجها في المصانع وفي تجارة الأسلحة
- وكانت تريد أن تتزوجني وأوهمتني أنها تريد أن تحج
- وتعجبت أنك كنت ستصدقها. يظنون أننا من السذج
- أخشي أننا كذلك يا أمي. لقد طلبت مني أن أكون في المصنع غدا من الثامنة صباحاً
- ستكون غدا في المصنع قبل الثامنة
- كيف وسيتم القبض عليّ بعد قليل؟

رن جرس الباب. فتحت علي عجل. إنه صديقي محمد بسيوني. أخذني في حضنه وبكي. كان معه أنور حسان. طلبا مني السماح. لقد كانت نظراتهما قاسية تجاهي في آخر مرة التقينا فيها. أبلغاني بخبر هد كياني. لقد قامت سارة العسكر بفصل كل العمال الموجودين في المصنع. أتت بطاقم جديد من العمال يتقاضون أجورا أقل بكثير منا. لقد خططوا أن يذهبوا إلي المصنع في الغد ليحطموا كل ما فيه. لا يمكن أن تغلق بيوت كل هؤلاء العمال في مصانع سارة العسكر. هل يمكن أن نطرد هكذا ببساطة من مورد رزقنا. يقولون إن هذه هي أحوال السوق وعلينا أن نتعامل معها. العمال من الصين ومن دول جنوب شرق آسيا يقبلون العمل بهذه الظروف وبهذه الأجور. أليست هذه هي العولة؟

لو كانت أمامي سارة العسكر الآن لقتلتها. لكم أبغض هذه المرأة!! انصرفا وهما يقبلاني بحرارة. ما أن خرجا إلا وكان بقية الزملاء في المصنع علي الباب. أخذت ماجد بحيري في أحضاني وكذلك همام الحفناوي الذي أبلغني بأنه قد فسخ خطوبته من نهاد لأنه لا يستطيع التفاهم معها. تنفست الصعداء وحمدت الله. فعلا. الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات. صدقت ربنا. لقد تحررت من إحساسي بالذنب تجاهه. ابتسم إباد ناصر في وجهي واحتضنني. أبلغني الزملاء سلام زميلاتنا. أحسست بأننا في كارثة وأن علينا المواجهة جميعا. لقد صارت الثورة علي سارة العسكر ضرورية. لن نحطم ولن نكسر المصنع. صحيح أننا نواجه كارثة ولكن علينا بالحدز والتروي. لن تفيدنا الشكاوي التي يمكن أن نتقدم بها لوزارة العمل ولن يفيدنا رفع القضايا أمام المحاكم. سنجتمع أمام المصنع وسنتصل بوسائل الإعلام. لن نلجأ للعنف ولا للدماء. لن نقبل أن تسيل دماؤنا أو دماء رجال الجيش الذين سيدافعون بكل شراسة عن مصانع سارة العسكر وزوجها. الحكمة والوحدة فيما بيننا قد تكون الحل الذي لن تقدر عليه سارة العسكر. يا لجبروتها ومكرها!! تغيير الطاقم كله. كل طاقم العمال. إنها ظالمة مفترية.

ابتسم ماجد بحيري في مرارة وقال ساخرا:

— لقد عم التغيير الجميع عدا ندا عبدالعليم رئيس الوردية وسيف

غرس الدين

رد عليه إياد ناصر في عصبية قائلاً:

- سيظلان كلبين ينبحان بالثناء لها
- طالبتهم بالهدوء وقلت ساخراً:
- حرام عليك أن تظلم الكلاب. يوجد من الكلاب من هم أفضل من ندا وغرس الدين
- خرجوا جميعاً. لكم سعدت بلقائهم!! أجمل شئ في المصائب أنها
- تجمعنا علي قلب رجل واحد ولعل هذه من أفضل السمات التي
- تتميز بها الشدائد. سنلتقي غداً. إن غدا لناظره قريب.
- بقيت مع أمي وحدنا. قالت لي في هدوء:
- سيرن هاتفك المحمول حالا يا عبدالله
- أعلم. سيأتي حسين سالم
- لا. مواعده بعد منتصف الليل. لعل الماضي يتصل بك
- الماضي قد مات يا أمي
- ليس كل ماض يموت
- كل شئ يموت
- لم أتم كلماتي إلا وكان الرقم المميز يتصل بي. قلت في غضب:
- سارة العسكر تتصل بي بعد كل هذا. تظنني غيباً.
- طرقات علي الباب وأنا أستعد لإجراءات القبض عليّ. طلبت من
- أمي أن تفتح الباب فرفضت ونظرت إليّ آمرة أن أقوم أنا بفتحه.
- نفس الرقم المميز يتصل. ألقيت هاتفني علي الكنبه من الغيظ لاعنا
- سارة العسكر وأهلها جميعاً. تزداد الطرقات وأمي لا تريد أن تقوم
- لتفتح. ليس من حل إلا أن أقوم وأفتح أنا. لا أدري لماذا لا تريدين أن
- تفتحي الباب يا أمي؟ قالت إن من يطرق الباب يريدني أنا. أيعقل
- أن تكون شكرية قد خرجت من محبسها؟ قمت سعيداً وأنا أتجه نحو
- الباب وهاتفني الذي ألقيته علي الكنبه يرن وعلي شاشته الرقم المميز.
- فتحت فوجدتها واقفة كالقمر علي باب الشقة تنظر إليّ في ود وابتسام
- وتسألني نفس السؤال الذي سألته منذ أكثر من أربعين عاماً. كانت
- تقول في وداعة بنفس صوتها الجميل الذي يتردد دائماً صداه في أنحاء
- قلبي ويضئ بجوانح فؤادي فأشعر بأنها لا تتكلم وإنما تغني فتغرد

الحياة من حولي :

— خالتو أم عبدالله موجودة؟

لقد صعقت تماما. إنها حبيبة العمر وشذا الزمان وحلم الأيام وعبق الليالي. إنها سحر الماضي وأمل الحاضر ونور المستقبل. إنها حبيبتي سارة فؤاد.

الحلقة الثالثة والسبعون والأخيرة النهاية

كان صوتها بالنسبة لي كالفجر الجديد الذي يهل عليّ بالبشر والخير كما كان كالأمل البعيد الذي يطل عليّ بالفرحة والبهجة. كثيرا ما كنت أحوم حول بيتها لأتذكرها ولأعود إلي مراتع الصبا وخفقات القلب الأولي فإذا بها هي التي تبادرني وتأتيني بعد ما يزيد علي أربعين عاما لأراها كما رأيتهأ أول مرة. رأيت عمري الذي فني في محراب عشقها فبدت لي تتمايل كفروع الأشجار عندما يداعبها النسيم. ترتدي جوربا أبيض إلي ما فوق ركبتها المرمية ، يبرز ساقها من تحت جيبة زرقاء ترتفع إلي ما فوق الركبة. وجهها الأبيض الصافي كحليب اللبن الرقاق إلا أنه مشرب بحمرة جمال فاتن سلب عقلي. نزلت علي ركبتي لأحدثها. تطاير شعرها الذي يميل نحو الصفرة بعد أن لمس وجهي فأغمضت عيني وقبّلت جبهتها البيضاء. ابتعدت عني في دلال. إنها سارتي الحبيبة التي لم تمر عليها نوائب الدهر ومصائب الليالي. أخذتها في حضني وبكيت عمرا في الهوي كنت قد سكبته بدون أن أبوح لها بكلمة واحدة. كنت أتمني أن أقولها لها ولو لمرة واحدة. أحبك. أحبك يا سارتي ولكني لم أقلها. لكم هو مؤلم ألا تستطيع أن تنطق بكلمة الحب لمن تعشق وأنت تراه وأنت تعرف أنه يحبك!! لكم هي الحياة قاسية مؤلمة عندما لا تملك البوح بهذه الكلمة لمن تغرق في هواها كل يوم مئات المرات!! لكم هو مؤلم ألا تعترف بلفح نيران الحب لقلبك وإصابتها عقلك بعد أن تتأكد أن الطرف الآخر يحبك!! لكم هو فوق قدرة الإنسان علي

التحمل أن يري عيني تبوحان له بالحب ولكنه يقف أخرس لا يستطيع لسانه أن ينطق ولا تستطيع عيناه أن تلمحا بنيران الحب التي تتميز داخلك وتتلظي ولا تستطيع أن تنطق بما تعانيه وما تكابده!! لكم هي ظلمة هذه الحياة عندما تري شعرك يشيب وقوتك تفني دون أن تتلفظ ولو لمرة واحدة بهذه الكلمة وقد أفنيت عمرا علي عتبات حبها. أحبك يا سارة. حبيبتي.

هكذا لفظتها والدموع تتقاذف من عيني ولساني يلهج بها. أحبك. طأطأت رأسي ووضعت رأسي في صدرها وأنا أنتحب. لم تتغيري يا حبة القلب. أنت كما أنت يا ثمرة الفؤاد. لا زلت كما كنت بعد العاشرة. أنت تعنين لي الحياة فبدونك أعيش بلا هدف وتكون حياتي فارغة ولا أجد لها أي معنى. أنت كما أنت لم يخط الدهر فيك سطورا واحدا لا أعرفه. لقد كنت أقضي الوقت وأنا أتذكر ملامحك التي كنت أنساها حتي وأنا في صحبتك. كنت أخشي أن ترمش عينا فتغيبين عن ناظري ولو لثانية. كنت أعيش عمرا كاملا في كل ثانية أكون معك فيها. ألا يجب أن يحسب العمر بلحظات الحب التي نقضيها؟ لذا لازلت أري نفسي طفلا في هواك يا سارتي. أنا أيضا لم أتغير. لا تغرنك خطوط الزمان التي رسمها علي جبهتي. أقول بصوت متهدج:

— أحبك يا سارة. أحبك. اشتقت إليك. أوحشتني. أين كنت؟ لماذا تبتعدين؟ أحاول أن أضمك أكثر إلي حضني. تتحسس الطفلة رأسي وتقول:

— عمو أنا سمر. ماما اسمها سارة. أسمع صوتها وتبتعد عني متجهة إلي أمها. أقف وأمسح دمعاتي. إنها طفلتها. أجد بجوارها فتاة تخطت سن المراهقة. تنظر سارتي لي وأنا في دهشة فأجدها تشير إلي ابنتها الكبرى قائلة: — وهذه آمال بنتي الكبيرة

صار لديها ابنتان. آمال وسمر. عيناك لم تتغيرا. كما هما. تشعان بنور الأمل وغدير الحياة. ذهبت سمر إلي أحضان أمي وتبعتهما آمال. ابتعدا قليلا. أجمني الصمت. لم أستطع أن أفعل أي شئ سوي النظر إلي عيني سارتي. غرقت فيهما بعد أن غصت بنهريهما لأعبر طريقا

طوله أكثر من أربعين سنة. كنت أنظر في عينيها بلهفة كما كانت تنظر
 إلي عيني بنفس نظرات الحب التي كنت ألمحها في عينيها. كنت
 كالظمان الذي أيقن بالهلاك لانقطاع الماء فإذا بنبع ماء صاف عذب
 يفور أمامه ويصل إلي فمه. يغرقه ويسعده. يفرحه ويؤله. يبقيه ويفنيه.
 كنت كالتائه الذي وجد طريقه. كنت كغريق ألقى إليه طوق
 النجاة فأعاد إليه الحياة من جديد. حاولت أن أحرك لساني
 لأقول لها إنني كنت أحبها ولا زلت أحبها إلي الآن وسأموت
 وأنا أحبها. لم أجد القدرة علي الكلام. بح صوتي وخرس لساني
 وراحت قدرتي. أكتفي بالنظر إليها وأبكي. تسح عيناى دموعا لا
 آخر لها. لا أدري كيف واثقني الدموع ولا أعرف كيف تفجرت من
 عيني ولم تستطع سارة العمر إلا أن تجاريني بدموعها التي انهمرت
 كنهز متدفق يلتقي مع بحر دموعي الذي لم يجف منذ ليلة زفافها.
 يرن تليفوني من جديد. إنه نفس الرقم المميز. لن أرد. ظننت
 أنها سارة العسكر. تبتسم سارتي الحبيبة سارة الطفولة المنصرمة. إنها
 هي التي تشاغلني منذ فترة. ابتسمت واحتضنت التليفون ثم نظرت
 إليها بنظرات حبي الصادق وعشقي المتدفق كشلال غمر حياتي وكبل
 روحي في سجن هواها. ابتسمت سارتي وكأنها تقول لي بنظراتها:
 «ألم تكن تعرف أنني أنا التي أتصل بك طيلة الفترة الماضية. كنت
 أود أن أعترف لك بأنني ما أحببت غيرك. أنت فارسي وحببي وأول
 حب في حياتي ولم تعترف. ها أنت قد اعترفت بحبي. ما الذي كان
 يمنعك من الاعتراف يا عبدالله؟» نظرت إليها في وله وردت نظراتي:
 «وهل كان بإمكانني أن أعترف بلساني؟ لقد كنت أعترف لك بكل ذرة
 من ذرات كياني ولكن كان يصعب علي لساني الاعتراف بأمر لا يمكن
 لكافة جوارحي أن تخفيه. أين كنت أنا وقتها وأين كنت أنت يا
 ملاكي البعيد عن بشريتي ويا أُملي المحال. ألم تكن تعلمي بحبي
 منذ أول مرة رأيتك وأنا صبي؟» ردت عيناها بالبكاء وظللنا نتحدث
 بلغة العيون حتي أخذت أُمي البنيتين واتجهت لحجرتها.

لم أطق صبرا وإنما اتجهت لسمر الصغيرة وسألتها عن والدها أدهم
 الخربوطلي. بكنت وأخبرتني أنه فوق في السماء. قالت آمال بأنه قتل
 في أحداث ثورة الخامس والعشرين من يناير. تنهدت قليلا ثم تنفست

الصعداء. لقد اقترب حلمي إذا من أن يتحقق. يمكن لي إذا أن أفكر في الزواج بسارتي وتحقيق حلم عمر بأكمله وأنا في خريف العمر. اتجهت لسارتي وسألتها كيف عثرت علي تليفوني وكيف وصلت إلي. ابتسمت وقالت: «ليس هذا عسيرا علي سارتك كما أنني عرفت أنك جارنا. أخذت تليفونك من محاميك ضياء توفيق. لقد استلم الفيلا المقابلة لفيلتنا في السادس من أكتوبر».

لم أعرف كيف أرد عليها، ولكنني قلت متلعثما: «إنها ليست الفيلا الخاصة بي». ردت علي في حب واضح: «أعلم كل شيء. أخبرني المحامي. إنها فيلا شكرية خطيبتك. أهان عليك أن تخطب غيري؟» قلت لها في عتاب بعجلة متسائلا: «وأنت أهان عليك أن تتزوجي أدهم الخربوطلي؟»

نظرات العتاب رائعة ولكنها تصير أروع عندما تختلط بنظرات الحب الذي يجرك إلي ما أبعد من أربعين سنة ويعرج بك إلي ما وراء ذلك بعشر سنوات ويلقي بك في غياهب ظلمات الفراق والام البعد ووجع الضعف وعدم الحيلة.. أخبرتها أنني كنت أزور كل الأماكن التي التقينا فيها. أقسمت أنها كانت تفعل نفس الشيء. نظرت إلي وقالت في شوق ورغبة: «أنت لم تعد فقيرا إذا؟ لقد صارت لديك الملايين». قلت لها بألم يشدني نحو الماضي: «هذه ليست أموالي. لا زلت فقيرا يا سارة». اقتربت مني وأمسكت بيدي وقالت: «مشكلتك الحقيقية أنك كنت ولا تزال تظن أن فقرك مصيبة كبري وطامة عظمي. يا حبيبي أنت غني بنفسك. أنت غني بروح عبدالله المصري. لديك الكثير. كنت تظن نفسك فقيرا وأنت الأول. كنت تظن نفسك فقيرا وقد كنت أحبك».

لقد انتزعت منها هذا الاعتراف. قمت وأمسكت بيديها وتحسست شعرها وقلت لها: «أكان أبوك سيقبلني زوجا لك؟» وضعت يدي علي خدها وقالت: «كنت سأقبلك زوجة لي ولكنك لم تجرؤ علي الاقتراب ولم تجرؤ علي الاعتراف. لقد أضعت حقك في يا عبدالله». خرجت أمني وقالت بحسرة: «ماتت شكرية من التعذيب. هكذا أخبرني حسين سالم بالتليفون حالا. الله يرحمها. هناك أناس يموتون لنعيش. إلي رحمة الله يا شكرية يا ابنتي. ستجري التحقيقات وسيعاقب المذنبون».

جلست متهالكا علي الكرسي ووضعت وجهي بين يديّ وقلت بألم: «قتلها الكلاب». تذكرت زيارتي لها في محبسها. تذكرت ابتسامتها لي وحبها لي. تحسست مكان قبلتها. رحمك الله يا شكرية. تالله إنك لأفضل مني. إلي رحمة الله يا شكرية. ربّت أمي علي ظهري فقمت واحتضنتها. قالت أمي إنها لم تمت هدرا. دائما ما يكون هناك ضحايا. قالت لي سارتي بعد دقائق وهي تربت علي كتفي بيد وتمسك بيدي بيدها الأخرى: «هل تسامحني يا عبدالله؟ أتسامحني في خطأ لم أرتكبه وإنما ارتكبه أبي؟ لقد علمت من الذي قتل والدك. إنه أبي. أتتزوج ابنة قاتل أبيك؟»

لم يكن الأمر مفاجئا لي. لقد ألمح إليّ عم صادق من قبل. وما ذنبها؟ مرت لحظات ثم كانت طرقات متتالية مخيفة علي الباب أزعجت سمر وآمال. قوات البوليس من جديد. ابتسمت لي أمي وبنظراتها أخبرتني ألا أقلق. قالت لي لما أمسك بي رجال الشرطة: «لا تقلق. زيارة سريعة وستعود. أنا متأكدة. لابد أن تكون علي مكتبك الجديد كمستشار لزوج سارة العسكر. أعلم أنك ستجيد التصرف».

لم أعد إلي المصنع كمجرد عامل. صدر قرار تعييني كمستشار للرئيس الأعلى للمصنع. رأيت الزملاء القدامي كلهم يهتفون لي. لم أر ندا ولا سيف غرس الدين. أطلت عليهم من شباكي ووعدهم بأنهم سيحصلون علي كافة حقوقهم قائلا: «أنا منكم ولكم وبكم».

نظرت إليّ سارة العسكر بحب وأغرّتني من جديد بنظراتها الخنزيرية بعد أن دخلت إلي مكتبي في إغراء فاضح. اقتربت مني لتغوص في أحضاني، ولكنني أبعدتها بعنف. تعجبت قائلة: «ما الذي حدث؟ لماذا تغيّرت؟ هل غيرك منصبك الجديد الذي وضعتك فيه؟» نظرت إليها باحتقار وقلت: «أنت التي تغيّرت وارتديت في أحضان حمارك عندما وصلنا المطار. أنت خائنة. كيف آمن لك ولقد كنت شاهدا علي خيانتك؟ من تخون زوجها ولو لمرة يمكنها أن تخون أي أحد». اقتربت مني وقالت إنني لا أفهم أي شئ. لقد ظهرت لي علي حقيقتها. أخبرتني أنها تعرف بزيارة سارة حب العمر لي وتعرف بأمر القبض عليّ. اعترفت لي بأن كل شئ سيتغير وأقسمت أنها تحبني. أقسمت بأن صفقة تجارة السلاح التي جنت منها الكثير ستوضع باسمي في

البنك. يمكنها أن تضحي بكل شئ من أجلي.
دخل عبدالله البندري وصفق لها قائلاً: «أنا أعرف منذ البداية
بكل قاذوراتك. أقلت لحبيب القلب أنك أخذت كل أصول المصانع
لتضاربي بها في البورصة في لندن؟ أقلت له بخسارتك لكل شئ. حتي
صفقة السلاح لن تأخذي منها قرشا واحدا. أبليت البوليس بكل شئ.
أقلت له بما فعله نداعبدالعليم وسيف غرس الدين؟ لقد اختلسا الملايين
في غيبتنا وهربا؟ سارة العسكر... أنت طالق. أنت طالق. أنت طالق».

ابتسمت له في احتقار ثم ارتمت علي صدري فأبعدتها.
نظرت إليّ في غضب وقالت كالجريحة: «وأنت أيضا لا تهمني يا
عبدالله المصري ولا يهمني كل رجال الدنيا. لكم قتلتم رجالا ونساء.
أنا السبب في قتل الضابط شديد وأنا السبب في قتل شكريه أيضا».
حاولت أن تدفعني ثم رفعت سكينها وأخرجته من طيات ملابسها
وأقسمت أنها ستقتلني ولن تسمح لأحد أن يأخذني منها ولن تأخذني
سارة حب عمري منها. أقسمت أنها ستقتلني. وقفت في ثبات ولم
أخف. فلينفذ قدر الله. لحظات وأحاط بها عدد كبير من رجال
الشرطة. لقد تم تسجيل كل شئ. تم القبض عليها. فليرحل الظالمون
وليسقط الفاسدون وليمت الخونة.

بدات في الاطلاع علي أوراق المصانع. الخسارة الفادحة. سيتم
بيع كل المصانع. إنها النهاية إذا. لم يدع الفاسدون شيئا سليما لنا.
في ساعة الغداء جمعت كل العمال وأخبرتهم بأن المصانع كلها
ستباع وتفتق ذهني عن فكرة أن نشترى بأموالنا مهما كانت قليلة
حصصا في هذه المصانع. لن نعمل عند أحد. سنعمل عند أنفسنا.
ستكون المصانع لنا. لن نكون عبيدا عند أحد.

ودارت عجلة الإنتاج من جديد. ارتفعت أصوات العمال بالغناء
وعمت البهجة كل أركان المصانع التي لم تعد ملكا لسارة العسكر.
أشرت إلي صورة زوجي بسارة العمر الجميل في الجريدة. ابتسمت
واحتضنتني. رأيت صورة حنان عزت وقرأت اسمها في التحقيقات.
لقد جر الكثيرون اسمها في العديد من القضايا. يبدو أن كل الفاسدين
ستزول دولتهم. يبدو أن القادم سيكون أفضل بكثير مما مضى. أعلم
أن العمر لم يتبق فيه مثل ما فات ومضي.

ابتسمت أمي ونظرت إليّ بكل حب وأمل ودعتنا إلي تناول الغداء في حديقة الفيلا فلقد دعت كل أخوتي للغداء.

تناولت الغداء وقلبي يلهج بالشكر إلي الله وأنا أرفع رأسي للسماء وأري سعادة كل من حولي وايتساماتهم. دعوت بالرحمة لأبي كما دعوت بالرحمة لشكريه ورجوت من الله أن يرحمني إذا صرت إلي ما صارت إليه. اقتربت مني سمر الصغيرة وجلست علي رجلي وقبلتني قائلة بأنها تحبني.

قمت لصلاة الظهر واصطف خلفي الجميع. رفعت يداي إلي ما خلف أذني قائلاً: «الله أكبر».

غمغمت ونزلت دموعي وأنا أشكر الله قائلاً بكل يقين في أعماقي: «الحمد لله. فليرحمنا الله جميعاً. الحمد لله رب العالمين».

ثم جالت في ذهني بعد الصلاة وأنا أمام حمام السباحة كل ذكريات الطفولة وأحلامها التي لم أكن أصدق يوماً قط أن تتحول إلي حقيقة. زفرت في شكر ودموعي تترقرق في عيني كعيني طفل صغير لا زلت أراه يعيش بداخلي إلي الآن: «الحمد لله رب العالمين».

تمت